





مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب — الدكتور أحمد فريد رفاعي

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية — مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة المصرية

١

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري

في عشرين جزءاً

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الثالث

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

اعتراف بالجميل

هذه السلسلة من المصادر العربية لمكتبة القراءة والثقافة الأدبية ، مدينة لحضرة الأستاذ الجليل صاحب المعالي علي زكي العرابي باشا وزير المعارف ، ووكيله الأستاذ العليم محمد العشماوي بك ، وحضرة معاونيهما الأمجاد بتقرير مبدإ مراجعة الوزارة لأصولها النهائية خدمة للثقافة واللغة والأدب .

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد .

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

العماد الأصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

***

﴿ كِتَابُ أَبِي الْمُطَرِّفِ إِلَى سُلْطَانِ إِفْرِيقِيَّةَ ﴾

كتاب أبي المطرف الى سلطان افريقية

« وَكَتَبَ » ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ إِلَى سُلْطَانِ إِفْرِيقِيَّةَ[1] الْوَارِثِ مُلْكِ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِتِلْكَ النَّوَاحِي ، الْمُسْتَوْلِي عَلَى الْبُلْدَانِ وَالضَّوَاحِي ، وَقَدْ كَانَ لِأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَمَلٌ فِي أَخْذِهِ بِثَارِهِمْ ، وَضَمٍّ انْتِثَارِهِمْ ، مَا صُورَتُهُ :

شَاقَهُ غِبٌّ[2] الْخَيَالِ الْوَارِدِ

بَارِقٌ هَاجَ غَرَامَ الْهَاجِدِ[3]

---

(١) يريد به الأمير أبا زكريا يحيى بن الأمير الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر صاحب افريقية ، وكان الأمير عبد الواحد متزوجا أخت الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب المتوفى سنة ٥٩٥ (٢) الغب : عاقبة الشيء . (٣) الهاجد : النائم والساكن

صِـــدْقُ وَعْدٍ لِلتَّلَاقِي ثُمَّ مَا
طَرَقَا إِلَّا بِخُلْفِ الْوَاعِـــدِ
وَكِلَا الزَّوْرَيْنِ[1] مِنْ طَيْفٍ وَمِنْ
وَافِـــدٍ تَحْتَ الدَّيَاجِي وَارِدِ
لَمْ يَكُنْ بَعْـدَ السُّرَى[2] مُسْتَمْتَعٌ
فِيـــهِ لِلرَّائِي وَلَا لِلرَّائِدِ[3]
وَشَــــدِيدٌ بَثُّ قَلْبٍ هَائِمٍ
يَشْتَـكِيهِ عِنْـدَ رَبْعٍ هَامِـدِ[4]
بِالْأَمِيرِ الْمُرْتَضَى عَزَّ الْهُدَى   وَثَنَى عِطْفَ الْمَلِيِّ[5] الْوَاجِدِ

(١) مثنى الزور : الزائر وهو فى الأصل مصدر وضع موضع الاسم كصوم ونوم بمعنى صائم ونائم (٢) السرى : سير الليل (٣) الرائد : الطالب والرسول الذى يرسله القوم لالتماس النجعة وطلب الكلأ ومساقط الغيث لينظر المكان الذى ينزلون فيـه . والرود أيضا الذهاب والمجىء ، يقال : راد يرود رودانا اذا جاء وذهب ولم يطمئن ، والرائد الذى لا منزل له ، وراد الدار يرودها : سألها (٤) الهامد : الساكن والبالى المتغير (٥) الملى (مخفف ملىء) هو الغنى القادر ذو الثروة الواسعة والثقة . وعطفا كل شىء: جانباه ، ويقال هو ينظر فى عطفيه ، أى معجب بنفسه ، وجاء ثانى عطفه ، أى رخى البال مزهوا . وقد يقال للمتكبر المعجب وللمعرض ، ويقال هز عطفيه : أى فرح وسر

وَبِهِ أَصْحَبَ[1] مَا كَانَ يُرَى

حَامِلًا أَنْفَ الْأَبِيِّ الشَّارِدِ

إِنَّمَا الْفَخْرُ لِمَوْلَانَا أَبِي

زَكَرِيَّاءَ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ

مَلِكٌ لَوْلَا حُلَاهُ[2] الْغُرُّ لَمْ

يَجْرِ بِالْحَمْدِ لِسَانُ الْحَامِدِ

وَلَوَ انَّ الْعَذْبَ أَبْدَى رَغْبَةً

عَنْهُ لَمْ يَشْفِ غَلِيلَ الْوَارِدِ[3]

فَضْلُهُ مِثْلُ سَنَى الشَّمْسِ وَهَلْ

لِسَنَا الشَّمْسِ يُرَى مِنْ جَاحِدِ؟

---

(١) المصحب الذى خضع وذل وانقاد بعد صعوبة ، أصحبت الدابة : انقادت واسترسلت وتبعت صاحبها بعد جموح وشماس (٢) الحلية: الصفة والصورة ، والحلية مايتزين به من المعادن النفيسة أو الأحجار الكريمة وجمعها (حلى) (٣) مثله لابن سناء الملك :

وأظمأ إن أبدى لى الماء منة   ولو كان لى نهر المجرة موردا

يصفه بالاباء والأنفة والشمم وعزة النفس

قَهَرَ الْبَغْىَ بِجِدٍّ صَادِعٍ

مَا تَعدَّاهُ وَجَدٍّ صَاعِدٍ[1]

إِنَّمَا آلُ أَبِى حَفْصٍ هُدًى

لِلْوَرَى مِنْ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدِ

قَعَدُوا فَوْقَ النُّجُومِ الزُّهْرِ عَنْ

هِمَمٍ نَبَّهْنَ عَزْمَ الْقَاعِدِ

وَعَنِ الْإِسْلَامِ ذَادُوا[2] عِنْدَمَا

فَلَّ طُولُ الْعَهْدِ غَرْبَ الذَّائِدِ

أَىُّ فَخْرٍ عُمَرِىٍّ الْمُنْتَمَى

وَرِثُوهُ مَاجِدًا عَنْ مَاجِدِ؟

مَا الْفُتُوحُ الْغُرُّ إِلَّا لَهُمُ

بَيْنَ مَاضٍ بَادِئٍ أَوْ عَائِدِ

---

(١) الجد (بالكسر) الاجتهاد فى الأمر ، ونقيض الهزل ، والتحقيق ، والجد (بالفتح) الحظ والبخت والحظوة والرزق والعظمة ، وقد يكون الأول فى البيت محرفا عن الحد (بالحاء المهملة) وهو البأس والنفاذ فى النجدة ، والحدة ، والغضب وحد السيف (٢) ذادوا : دافعوا

فِي مُحَيًّا لَاحِقٍ مِنْ سَابِقٍ
وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ سِيمَى ٱلْوَالِدِ[1]

وَلِيَحْيَى رَاجِحُ ٱلْحِلْمِ ٱلَّذِي
تَرَكَ ٱلطَّوْدَ بِعِطْفَيْ مَائِدِ[2]

عِقْدُ أَحْسَابِهِمُ تَمَّ بِهِ
مِثْلَ مَا تَمَّ حِسَابُ ٱلْعَاقِدِ[3]

أَيُّهَا ٱلْجَامِعُ مَا قَدْ أَحْرَزُوا
جَمْعَ مَنْ هِمَّتُهُ فِي ٱلزَّائِدِ

هَذِهِ ٱلْأُمَّةُ قَدْ أَوْسَعْتَهَا
نَظَرًا يَكْلَأُ[4] لَيْلَ ٱلرَّاقِدِ

(١) السيمى والسيماء : العلامة يعرف بها الخير والشر ، يريد أنهم ورثوا أسلافهم فى مآثرهم فسيماهم فى وجوههم (٢) الطود : الجبل ، والعطف : الجانب ، مائد: مائل مضطرب، يريد أنه أرجح حلما من الجبال وأوقر وأثبت وأهدأ وأرزن ، وأن الجبال تخف اذا قيست الى حلمه ، وأنها تخشاه وتفزع منه (٣) عقد الحاسب : حسب وعد (٤) كلأه : حرسه وحفظه ، وكلأ النجم متى يطلع اذا رعاه، ورجل كلوء العين أى ساهرها لأن الساهر يوصف برقبة النجوم ، واكتلأت عينى :سهرت ، وأكلأها أسهرها، يعنى أنه تنبه لها وسهر لحمايتها وقد بات ليلها نائما

لَمْ تَزَلْ مِنْكَ بِخَيْرٍ طَارِفٍ

رِيشُهُ نَالَ قُدَامَى (١) تَالِدِ

وَلَهُمْ مِنْكَ لِيَوْمٍ حَاضِرٍ

وَغَدٍ رَأْىُ الْبَصِيرِ النَّاقِدِ

أَرْشَدَ اللهُ لِأَوْلَى نَظَرٍ

بِالْوَرَى رَأْىَ الْإِمَامِ الرَّاشِدِ

وَتَوَلَّاهُ بِتَوْفِيقِ الْأُلَى

سَعِدُوا مِنْ عَاقِدٍ أَوْ عَاهِدِ (٢)

---

(١) الطارف والطريف: الحديث، وهو خلاف التالد والتليد، ومن معانى الريش الخصب والخير والزينة وحسن الحال، وراش فلانا: أعانه وقواه، وارتاش فلان حسنت حاله. وقال جرير:

سأشكر ان رددت على ريشى   وأنبت القوادم فى جناحى

وقدامى جمع قديم، والقدامى أيضا قوادم الطير وهى ريشات فى مقدم الجناح، واحده قادمة، واللواتى بعدهن الى أسفل الجناح تسمى المناكب، والخوافى ما بعد المناكب، والأباهر من بعد الخوافى — يريد أن خيره لا يغبهم ولا ينقطع عنهم بل هو متوال مستمر ومتواتر متتابع فحديثه متصل بقديمه، ولاحقه يقوى سابقه. اه «أحمد نجاتى»

(٢) عقد البيع والحبل والعهد: شده و وثقه، وأصل العقد نقيض الحل ثم

وَلَهُ فِى ٱللهِ أَوْفَى كَافِلٍ
بِالَّذِى يَبْقَى وَأَكْفَى عَاضِدِ[1]

نَصَرَ ٱللهُ تَعَالَى مَوْلانَا وَأَيَّدَهُ، وَشَدَّ مُلْكَهُ وَشَيَّدَهُ، وَأَبْقَى لِلفَضْلِ أَيَّامَهُ، وَلِلفَصْلِ أَحْكَامَهُ، وَأَظْفَرَ بِأَعْنَاقِ ٱلْأَشْقِيَاءِ حُسَامَهُ، وَوَفَّرَ مِنِ ٱتِّسَاقِ[2] ٱلنِّعَمِ وَٱلْآلَاءِ حُظُوظَهُ وَأَقْسَامَهُ، وَٱلْحَمْدُ لِلهِ ثُمَّ ٱلْحَمْدُ لِلهِ عَلَى أَنْ جَعَلَ بِهِ حَرَمَ ٱلْأُمَّةِ آمِنًا، وَوَهَجَ[3] ٱلْفِتْنَةِ سَاكِنًا، وَأَبْوَابَ ٱلصِّلَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ لَا تَعْرِفُ إِلَّا وَاصِلًا أَوْ آذِنًا، وَتَلَافَى فَلَّ ٱلْإِسْلَامِ مِنْهُ بِفَيْئَاتِهِ[4] ٱلَّتِى مِنْهَا يَنْتَظِرُونَ ٱلْكَرَّ[5]، وَبِهَا يُوعَدُونَ ٱلْفَتْحَ ٱلْأَعَزَّ[6] وَٱلنَّصْرَ ٱلْأَغَرَّ، فَهُمْ بَيْنَ

استعمل فى أنواع العقود من البيوعات والعهود والمواثيق ونحوها، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم، وعقد العهد واليمين: أكدهما، والعقد الضمان والعهد، والعقدة الولاية على البلد والبيعة المعقودة لولايتهم. والعهد: الموثق واليمين وما يكتب للولاة (من عهد اليه اذا أوصاه) والعهد الحفاظ ورعاية الذمة والحرمة (١) عضده (كنصره) وعاضده: أعانه ونصره، وقواه وساعده (٢) اتسق الشىء: انتظم وتتابع واجتمع وانضم بعضه الى بعض، واتساق القمر: امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة البدر (٣) الوهج: الاتقاد والاشتعال، ووهج الطيب: انتشاره وأرجه (٤) الفىء والفيئة العود والرجوع (٥) الحملة على العدو (٦) من قوله تعالى: «وينصرك الله نصرا عزيزا»

جِدَةٍ(١) قَبَضُوهَا، وَعِدَةٍ رَضُوهَا. وَارْتِقَابٍ لِلْفَتْحِ أَكْبَرُ هَمِّهِمْ مِنْهُ دَرْكُ الثَّارِ، وَانْتِصَافٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَمَّا الْأَوْطَانُ فَقَدْ أَسْلَتْهُمْ(٢) عَنْهَا جِهَةٌ تَنْبُتُ الْعِزَّ فِيمَا تُنْبِتُهُ، وَتَنْفِي مِنَ الضَّيْمِ(٣) مَا تِلْكَ تُثْبِتُهُ، وَمَا ذِكْرُ السَّاخِطِ، عَلَى الْمَحَلِّ السَّاقِطِ، مَنَازِلَ عَادَتْ عَلَى مَبَانِيهَا أَطْلَالًا، وَمَغَانِيهَا(٤) إِمْحَالًا. وَلِلْعَبْدِ حَالٌ يَسْتَقْبِلُ بِهَا مِنَ النَّظَرِ الْكَرِيمِ - أَدَامَهُ اللهُ تَعَالَى - مَا أَعْيُنُ الْآمَالِ إِلَيْهِ صُورٌ(٥)، وَرَجَاءُ الْجَمِيعِ عَلَيْهِ مَقْصُورٌ. انْتَهَى.

---

(١) الجدة: الغنى والثروة (وجد الشيء جدة فهو جديد) يريد أن المسلمين من الأمير بين خير عاجل واصل اليهم قد نالوه وقبضوه، وبر آجل قد وعدوا به وعدا حقا قد وثقوا به ورضوه. «أحمد نجاتى» (٢) سلاه وسلا عنه سلوا وسلوانا: اذا نسيه وذهل عن ذكره، وأسلاه عنه فتسلى - والعبارة مأخوذة من قول أبي الطيب * وكل مكان ينبت العز طيب * (٣) الضيم: الظلم والجور. وضامه حقه: نقصه اياه (٤) المغنى: المنزل الذى غنى به أهله ثم ظعنوا عنه، وقد يطلق على كل منزل. وغنى بالمكان أقام به. ويظهر أن (على) فى (عادت مبانيها الخ) زائدة (٥) صور، جمع أصور، وصوراء، من صور (كفرح): مال واشتاق، قال الشاعر:

الله يعلم أنا فى تلفتنا يوم الفراق الى أحبابنا صور

وهو أصور الى كذ اذا أمال عنقه ووجهه اليه، قال:

فقلت لها غضى فانى الى التى تريدين أن أحبو بها غير أصور

***

كتاب آخر لأبي المطرف

وَالْغَايَةُ فِي هَذَا الْبَابِ، مَا كَتَبَ بِهِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مِنْ جُمْلَةِ كِتَابٍ لِبَعْضِ ذَوِي الْأَلْبَابِ، وَنَصُّ مَحَلِّ الْحَاجَةِ مِنْهُ: نَخُصُّ الْجِهَةَ الْبَعِيدَةَ الصِّيتِ وَالِاسْمِ، الشَّهِيرَةَ الْعَمَلِ وَالْعِلْمِ، دُرَّةَ تَاجِنَا، وَضَوْءَ سِرَاجِنَا، وَنُكْتَةَ [(١)] احْتِجَاجِنَا ـ أَبْقَاهَا اللهُ تَعَالَى فِي أَعْيُنِنَا مَنَارًا، وَلِأَنْدَلُسِنَا فَخَارًا ـ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ بَقِيَتِ الْمَفَاخِرُ، فَقَدْ أَوْدَى الْمُفَاخِرُ، وَإِنْ أَضَاءَ الطَّالِعُ، فَقَدْ دَرَجَتِ [(٢)] الْمَطَالِعُ، وَغَلَبَ عَلَيْهَا عُدَاةٌ زَوَوْا عَنْهَا وُجُوهَنَا، وَأَرَوْا فِيهَا

---

(١) النكتة هي اللطيفة المؤثرة في القلب، وتطلق على المسائل الحاصلة بالنقل المؤثرة في النفس، وأصله من نكت الأرض بعصاه أو أصبعه حتى أثر فيها، فعل المفكر المهموم. ونكت فلان ينكت اذا فكر وحدث نفسه مهتما، فسميت بذلك لما يقارنها من نكت الأرض غالبا للتفكير والاهتمام. وقد تكون من نكت العظم اذا أخرج مخه. ونكت كنانته: نثرها وأخرج ما فيها

(٢) درج القوم اذا انقرضوا، من درجت الثوب اذا طويته ـ وقد تكون (درجت) هنا محرفة عن (دجت) أي أظلمت بقرينة مقابلته بقوله في القرينة قبلها: وان أضاء الطالع، يريد أن الممدوح المفتخر به والمستضاء بنوره وان بقي سليما منير الطالع قد باد من يفتخر به وأظلم المكان المحتاج الى استمداد نوره، يعني أنه ينعى الأندلس ويندب سوء حظ أهلها

مَكْرُوهَنَا ، حَتَّى إِنِّى أَتَيْتُ بِشِعْرٍ فِيهِ اسْتِسْقَاءٌ لِلدِّيَارِ ، عَلَى عَادَةِ الْأَشْعَارِ ، فَقُلْتُ :

زِدْنَا عَلَى النَّائِينَ [١] عَنْ أَوْطَانِهِمْ
وَإِنِ اشْتَرَكْنَا فِى الصَّبَابَةِ وَالْجَوَى
إِنَّا وَجَدْنَاهُمْ قَدِ اسْتَسْقَوْا لَهَا
مِنْ بَعْدِ أَنْ شَطَّتْ بِهِمْ عَنْهَا النَّوَى
وَيَصُدُّنَا عَنْ ذَاكَ فِى أَوْطَانِنَا
مَعْ حُبِّهَا الشِّرْكُ الَّذِى فِيهَا ثَوَى [٢]
حَسْنَاءُ طَاعَتُهَا اسْتَقَامَتْ بَعْدَنَا
لِعَدُوِّنَا أَفَيَسْتَقِيمُ لَهَا الْهَوَى ؟

« قُلْتُ » وَمَا رَأَيْتُ وَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ هَـــذِهِ الْأَبْيَاتِ [٣] فِى مَعْنَاهَا ، الْعَالِيَةِ فِى مَبْنَاهَا ، فَإِنَّ فِيهَا الْإِشَارَةَ إِلَى اسْتِيلَاءِ النَّصَارَى ـ دَمَّرَهُمُ اللهُ ـ عَلَى تِلْكَ الدِّيَارِ ،

---

(١) النائين : النازحين البعيدين (٢) أقام طويلا، وفى الشرك تورية يدل عليها البيت بعده (٣) قد يكون هنا كلمة ساقطة نحو . الأبيات الشريفة أو العالية أو الأبيات (من الإباء) فى معناها لموازنة الفاصلتين فى السجع بل ترصيعهما كعادته

وَثُبُوتِ قَدَمِهِمْ فِيهَا عَلَى طِبْقٍ[1] مَا حَصَلَ لَهُمْ فِيهِ اُخْتِيَارٌ ، مَعَ إِدْمَاجِ حُبِّهِ لَهَا الَّذِي لَا يُشَكُّ فِيهِ وَلَا يُرْتَابُ ، وَاُشْتِمَالِهَا عَلَى الْمَحَاسِنِ الَّتِي هِيَ بُغْيَةُ الرَّائِدِ وَنُجْعَةُ[2] الْمُنْتَابِ . وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَإِذَا نَفَذَ سَهْمُ الْمَقْدُورِ فَلَا عِتَابَ .

***

مخاطبة الرعيني

وَمِمَّا يَسْتَوْلِي عَلَى الْخَوَاطِرِ ، وَيُرْوِي رِيَاضَ الْأَفْكَارِ بِسُحُبِ بَلَاغَتِهِ الْمَوَاطِرِ ، قَوْلُهُ — رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى — يُخَاطِبُ أَبَا الْحَسَنِ[3] الرُّعَيْنِيَّ ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ :

يَا صَاحِبِي وَالدَّهْرُ لَوْلَا كَرَّةٌ[4]
مِنْهُ عَلَى حِفْظِ الذِّمَامِ ذَمِيمُ

أَمُنَازِعِي أَنْتَ الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ
مَا فِيهِ لَا لَغْوٌ[5] وَلَا تَأْثِيمُ

(١) هذا الشيء طبقه (بسكون الباء وفتحها) وطباقه أي على وفقه ، وتطابق الشيئان: تساويا واتفقا (٢) النجعة: طلب الكلأ في موضعه (٣) قوله «أبا الحسن» : في نسخة أبا الحزم (٤) الكرة :العطف والعودة، والذمام: العهد والحرمة وما يذم من يفرط فيه (٥) اللغو : الكلام السقط الذي لا يعتد به ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . ونازعه الحديث : جاذبه اياه

وَمُرَوَّضٌ مَرْعَى مُنَايَ فَنَبْتُهُ
مِنْ طُولِ إِخْلَافِ الْغُيُومِ هَشِيمُ(١)

طَالَ اعْتِبَارِي بِالزَّمَانِ وَإِنَّمَا
دَاءُ الزَّمَانِ كَمَا عَلِمْتَ قَدِيمُ

مُجْفُوٌّ حَظٌّ لَا يُنَادَى ثُمَّ لَا
يَنْفَكُّ عَنْهُ الْحَذْفُ وَالتَّرْخِيمُ

وَأَرَى إِمَالَتَهُ تَدُومُ وَقَصْرَهُ
فَعَلَامَ يُلْغَى الْمَدُّ وَالتَّفْخِيمُ ؟

وَعَلَامَ أَدْعُو وَالْجَوَابُ كَأَنَّمَا
فِيهِ بِنَصٍّ قَدْ أَتَى التَّحْرِيمُ ؟

لَمْ أَلْقَ إِلَّا مُقْعِدًا غَيْرَ الْأَسَى
فَلَدَيَّ مِنْهُ مُقْعِدٌ وَمُقِيمُ(٢)

---

(١) هشيم : يابس متكسر، وروض السيل القراح جعله روضة ، وكذلك أراضه (٢) أقعده عن الأمر : عوقه وثبطه وحبسه، وقعد للأمر : اهتم به. ويقال : هم مقعد مقيم أي مقلق يضطرب معه الفكر ويحار العقل . ويقال أخذه المقيم المقعد . كان الخليفة الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس وزيره محمد بن عبد الملك الزيات الا قام له اجلالا ، فكان القاضي أحمد بن أبي دواد اذا رأى الوزير قادما قام واستقبل القبلة يصلي ، فقال ابن الزيات

وَشَرَابِىَ ٱلْهَمُّ ٱلْمُعَتَّقُ(١) خَالِصًا
فَمَتَى يُسَاعِدُنِى عَلَيْـهِ نَدِيمُ ؟

غَارَاتُ أَيَّامٍ عَلَىَّ جَوَارِحٌ
قَعَدِيُّهَا فِى طَبْعِهِ ٱلتَّحْكِيمُ (٢)

صلى الضحى لما استفاد عداوتى   وأراه ينسك بعدها ويصوم
لاتعد من عداوة مسمومة   تركتك تقعد تارة وتقوم

(١) الخمر المعتقة القديمة التى قد عتقت زمانا قال الأعشى :

وسبيئة مما تعتق بابل   كدم الذبيح سلبتها جريالها

وعتقت الخمر : قدمت وحسنت : شبه همه الذى يغاديه ويراوحه ومنه صبوحه وغبوقه بخمر معتقة صرفة يكرع منها مايفيض عنه فتمنى أن يساعده عليه شريك معين أوصديق مؤاس . « أحمد نجاتى »

(٢) القعد والقعدة قوم من الخوارج قعدوا عن نصرة على كرم الله وجهه وعن مقاتلته ، وهم يرون التحكيم حقا غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس فلا يمضون الى القتال وقعدوا عن الغزو ، ومن يرى رأى هؤلاء الخوارج الحرورية قعدى — وقال أبو نواس وقد نهى عن شرب الخمر ونفسه معلقة بها فهو لا يشربها كرها ويستحسن شربها لغيره مشبها نفسه بالذى يرى التحكيم وقد قعد عنه :

كبر حظى منها اذا هى دارت   أن أراها وأن أشم النسيما
فكأنى وما أحسن منها   قعدى يزين التحكيما
لم يطق حمله السلاح الى الحرب   فأوصى المطيق ألا يقيما

وَلَوَاعِجٌ[١] يَحْتَاجُ صَالِي حَرِّهَا   أَمْرًا بِهِ قَدْ خُصَّ إِبْرَاهِيمُ

وَلَقَدْ أَقُولُ لِصَاحِبٍ هُوَ بِالَّذِي

أَدْرَكْتُ مِنْ عِلْمِ الزَّمَانِ عَلِيمُ

لَا يَأْسَ مِنْ رَوْحِ[٢] الْإِلٰهِ وَإِنْ قَسَتْ

يَوْمًا قُلُوبُ الْخَلْقِ فَهْوَ رَحِيمُ

***

رسالة أخرى لأبي المطرف

وَيَهُزُّنِي[٣] وَيَسْتَفِزُّنِي مَا كَتَبَهُ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى مِنْ رِسَالَةٍ:

كَتَبْتُهُ إِلَى سَيِّدِي وَهُوَ السَّيِّدُ حَقِيقَةً ، وَأَخِي وَقَدْ كَتَبَ الدَّهْرُ بِذٰلِكَ وَثِيقَةً ، أَبْقَى اللّٰهُ تَعَالَى جَلَالَهُ مَحْرُوسًا ، وَرَبْعَ وَفَائِهِ لَا يَخْشَى دُرُوسًا[٤] ، مِنْ رِبَاطِ

(١) لواعج ، جمع لاعج وهو الهوى المحرق والجوى المؤلم ، صالى حرها : المقاسي شدتها والمحترق بنارها ــ وهو يشير في البيت الى قصة الخليل ابراهيم عليه السلام الذى جعل الله النار بردا وسلاما عليه .

(٢) الروح هنا الرحمة ، وأصله الراحة والسرور والفرح ، وسميت الرحمة روحا لأن الروح والراحة بها (٣) هزه: حركه ، وهز الحادى الابل اذا نشطها بحدائه فتحركت في سيرها وخفت ــ وكل من خف لأمر وارتاح له فقد اهتز له ، والهزة : الأريحية . يقال أخذته لذلك الأمر هزة أي أريحية وحركة طرب وسرور ، وتقول هو يهتز للمعروف ، وهز عطفيه لكذا وهز منكبيه اذا طرب به وسر . واستفزه : استخفه وحركه (٤) دروسا : محوا وزوالا

ٱلْفَتْحِ [١] وَأَنَا بِحَقِّهِ عَلِيمٌ ، وَعَلَى عَهْدِهِ مُقِيمٌ ، وَشَأْنِي تَوْقِيرٌ لَهُ وَتَعْظِيمٌ ، وَحُبٌّ فِيهِ خَالِصٌ كَرِيمٌ . وَوَصَلَنِي خِطَابُهُ ٱلْخَطِيرُ ٱلْمَبْرُورُ فَكُنْتُ بِهِ كَالصَّائِمِ رَأَى ٱلْهِلَالَ ، وَٱلْهَائِمِ [٢] عَايَنَ مَاءَ ٱلزُّلَالِ . عِلْقٌ [٣] لَيْسَ يُوَازِيهِ عِلْقٌ ، وَسِحْرٌ لَكِنَّهُ حَلَالٌ طِلْقٌ [٤] ، وَنَظْمٌ لِذِكْرِ ٱلطَّائِيِّ [٥] طَاوٍ ، وَصَنْعَةٌ لَمْ يَرَهَا وَلَمْ يَرْوِهَا رَاءٍ وَلَا رَاوٍ ، رَمَتِ ٱبْنَ ٱلرُّومِيِّ بِٱلْخُمُولِ ، وَبَشَرَتِ [٦] ٱسْمَ بَشَّارٍ مِنَ ٱلْفُحُولِ ، وَحَكَمَتْ بِأَنَّ ٱلنَّمَرِيَّ فِي نَمِرَةِ [٧] ٱلْهَوَانِ مُدْرَجٌ ، وَٱلسَّرِيَّ [٨]

(١) رباط الفتح: مدينة قرب سلا على نهر بالقرب من البحر المحيط بناها الأمير المنصور يعقوب بن تاشفين على هيئة الاسكندرية (٢) الهائم: العطشان كالهيمان . والهيام أشد العطش (٣) العلق : الشيء النفيس يتعلق القلب به ويتنافس فيه ، والعلق (بفتحتين) المحبة اللازمة للقلب والهوى الدائم (٤) الطلق الحلال المطلق الذي لاحظر عليه ، وأعطيته من طلق مالي أي من صفوه وطيبه (٥) أي أبي تمام (٦) بشرت : محت ، وأصله من بشر الجلد: قشر بشرته التي ينبت عليها الشعر ، أو أن يأخذ باطنه ويزيله بشفرة (٧) النمرة : شملة فيها خطوط بيض وسود ، وبردة مخططة من صوف تلبسها الأعراب كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من البياض والسواد. ومنصور النمري الشاعر العباسي المشهور . وأدرجه : لفه وطواه وأدخله (٨) السري الرفاء الموصلي (تقدمت ترجمته) . والسراوة .السرو والشرف

عَنْ سَرَاوَةِ الْإِحْسَانِ مُخْرَجٌ . فَأَمَّا النَّثْرُ فَصَهِيلٌ[١] لَا يُجَاوِبُهُ الرُّغَاءُ ، وَطِرَازٌ لَا يُحْسِنُهُ الْبُلَغَاءُ ، وَنَقْدٌ تَزِيفُ مَعَهُ النُّقُودُ ، وَمَدًى تَنْقَطِعُ دُونَهُ الضُّمَّرُ[٢] الْقُودُ[٣] ، غَادَرَ الصَّابِي وَصَبَاهُ[٤] غَيْرُ ذَاتِ هُبُوبٍ ، وَالصَّاحِبَ وَهُوَ مِنَ الْعَجْزِ مَعَ شَرٍّ مَصْحُوبٍ ، وَالْمِيكَالِيَّ[٥] وَمِيكَالُهُ مَرْفُوضٌ ، وَالْحَرِيرِيَّ

---

(١) الصهيل صوت الفرس والجواد ، والرغاء : صوت البعير والضبع والنعام وذوات الخف ، ورغا البعير اذا ضج ، ورغا الصبي رغاء : بكى أشد البكاء . وأرغاه :قهره وأذله وذلك لأن البعير لا يرغو الا عن ذل واستكانة (٢) جمع ضامر من الضمر وهو الهزال ولحاق البطن وضمر الخيل وأضمرها : أعلفها حتى تسمن ثم ردها الى القوت بعد السمن فاضطمرت وذلك فى أربعين يوما وهذه المدة تسمّى المضمار ، أوتضميرها أن تشد عليها سروجها وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ويشتد لحمها وتحمل عليها غلمان خفاف يجرونها ولا يعنفون بها فاذا فعل ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ولم يقطعها الشد. والمضمر الذى يضمر خيله لغز و أو سباق (٣) القود: جمع أقود وهو الطويل العنق والظهر من الابل والدواب والشديد الصلب (٤) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق (٥) يريد أباالفضل الميكالى وهوالأمير عبيد الله بن أحمد واسطة عقد آل ميكال من كبار الأدباء وفحول البلغاء الذين جمعوا بين جودة النظم والنثر. وآل ميكال من بيت قديم عريق فى الفضل ، وقد مدح أبو بكر بن دريد بمقصورته المشهورة الشاه ابن ميكال و ولديه عبد الله بن محمد بن ميكال و ولده

وَحَرِيرُهُ فِي سُوقِ الْكَسَادِ[١] مَعْرُوضٌ، فَأَمَّا بَحْرُ رَئِيسِ أَرَّجَانَ[٢] ، فَقَدِ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ، وَأَبْقَاهُ فِي ضَحْضَاحٍ[٣] ، بَلْ تَرَكَهُ يَمْشِي بِإِذْرَحَ[٤] ضَاحٍ ، فَمَنْ ذَا

اسمعيل بن عبد الله بن محمد بن ميكال بن عبدالواحدبن جبريل بن القاسم ابن بكر (الأديب شيخ خراسان، ووجهها توفى سنة ٣٦٢) وأبو محمد عبد الله بن اسمعيل الميكالى كان أوجه الوجوه بخراسان وآدبهم وأكفأ الرؤساء وأفضلهم ، وابنه أبو جعفر محمد بن عبد الله كان متقدما فى الأدب متبحرا فى اللغة . وعبد الرحمن بن أحمد بن على بن اسماعيل بن عبد الله ابن محمد بن ميكال كان أوحد خراسان فى عصره أدبا وفضلا وخلقا ونسبا توفى سنة ٤٣٦ (ارجع الى يتيمة الدهر للثعالبى) — وربما كانت كلمة (ميكاله) محرفة عن (مكياله) (١) كسدت السوق : وقفت حركتها وبارت تجارتها (٢) لعله يريد أبا الفضل ابن العميد الكاتب المعروف ، وقد ورد عليه أبو الطيب المتنبى وهو بأرجان ومدحه بقصائد ، احداها التى أولها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك ان لم يجر دمعك أوجرى

ومنها عند مخلصها

أرجان أيتها الجياد فانه عزمى الذى يذر الوشيج مكسرا

(٣) الضحضاح : الماء اليسير يكون فى الغدير وغيره لاغرق فيه ولاله غمر. وماء ضحضاح قريب القعر ، وقليل رقيق جار على وجه الأرض (٤) لعل (بأذرح) محرفة عن (بأجرد) فان الكاتب لما جعل بحر رئيس أرجان ضحضاحا بعد أن استخرج ممدوحه منه اللؤلؤ والمرجان أراد أن يترقى فى المبالغة وتجريد هذا الرئيس من بلاغته اذا قرن الى

يجَارِى فَارِسَ ٱلصَّفَّيْنِ ، وَ إِمَامَ ٱلصِّنْفَيْنِ ، أَبْلَغَ مَنْ خَطَّ بِقَلَمٍ ، وَأَشْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمٍ [1] ، وَمَاذَا يُقَالُ فِي أَنَامِلَ تُطَرَّزُ بِهَا

المدوح فبدا له أن ينقل البحر الى ضحضاح ثم الى أجرد ضاح . والأجرد: المكان الذى لا نبات فيه. وأرض جرداء كذلك متجردة عن النبات . والضاحى البارز للشمس لا تكاد تغيب عنه .وضحا الرجل ضحوا برز للشمس (ويمشى بأجرد ضاح) مأخوذ من بيت من قطعة لليلى بنت يزيد بن الصعق ترثى ابنها قيس بن زياد بن أبى سفيان بن عوف ابن كعب . ونسبها أبو على القالى لفاطمة بنت الأحجم بن دندنة الخزاعية ترثى زوجها الجراح (وكان أبوها الأحجم بن دندنة أحد سادات العرب كان قد تزوج خالدة بنت هاشم بن عبد مناف وهى أم فاطمة هذه) وأول الأبيات :

ياعين جودى عند كل صباح جودى بأربعة على الجراح

ومنها :

قد كنت لى جبلا ألوذ بظله فتركتنى أضحى بأجرد ضاحى

وهى أحد عشر بيتا ، وتمثلت بها السيدة عائشة ، أو السيدة فاطمة رضى الله عنهما بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد كنت أظن أن التحريف عن (بأذرح ضياح) يقال لبن ذراح ومذرح ضياح أى مذق قد مزج بالماء كثيرا حتى غلب عليه الماء ، والضياح كذلك ، كأنه يريد أن يترك رئيس أرجان و بضاعته مزجاة و بلاغته كاسدة . ولكن أرى التقرير الأول أنسب بالمعنى وأبلغ فى الوصول الى المراد ، اه « أحمد نجاتى » (١) العلم : الجبل

الصُّحُفُ ، وَخَمَائِلَ[١] ، تَفْخَرُ بِهَا الرَّوْضَةُ الْأُنُفُ[٢] ، وَاسْمٍ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا ظَاهِرٍ ، وَوَسْمٍ بِالْكِتَابَةِ وَالنَّجَابَةِ لَمْ يَكُنْ لِبَنِي وَهْبٍ[٣] وَآلِ طَاهِرٍ ، فَالزَّمَانُ يَأْثُرُ[٤] مَا يَنْثُرُ ، وَيُعَظِّمُ ، مَا يَنْظِمُ ، وَلَوْ أَنَّ الْأَزْمِنَةَ قَبْلَهُ عَمَرَتِ الْمَحَاضِرَ بِكُلِّ نَاجِمٍ[٥] ، وَنَشَرَتِ الْمَقَابِرُ عَنِ الصَّنَوْبَرِيِّ[٦] وَكُشَاجِمَ[٧] ، وَجَاءَتْ بِالْكُتَّابِ مِنْ كُلِّ جِيلٍ ، وَالشُّعَرَاءِ

---

(١) خمائل جمع خميلة : وهى الشجرة ذات الأغصان الكثيرة الملتفة
(٢) الأنف من الرياض : مالم يرعه أحد (٣) من الأسر العريقة فى النباهة والأدب فى العصر العباسى ، وفى بنى وهب يقول ابن الرومى :

كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبى وشعب كل أديب

(٤) أثر الحديث (كضرب ونصر) نقله ورواه وحدث به عن قائليه وأخبر به ، ومنه حديث مأثور أى يخبر الناس به بعضهم بعضا وينقله خلف عن سلف (٥) ناجم : ناشئ ونابت. ونجم نجوما : ظهر وطلع. ونجمت ناجمة بموضع كذا أى نبعت (٦) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الحلبى شاعر محسن أجاد فى وصف الرياض والبساتين والمتنزهات ، وكان يسمى حبيبا الأصغر لجودة شعره توفى سنة ٣٣٤ (٧) هو الشاعر الأديب محمود بن الحسين من شعراء سيف الدولة بن حمدان توفى سنة ٣٥٠ وكان قد أقام بمصر مدة ثم فارقها ثم عاد اليها فقال :

قد كان شوقى الى مصر يؤرقنى فالآن عدت وعادت مصر لى دارا

(وكشاجم) قيل هو لفظ منحوت مركب من أوائل كلمات يتصف بها

رَعِيلًا[١] بَعْدَ رَعِيلٍ ، لَطَالَ[٢] هٰذَا الْعَصْرُ بِوَاحِدِهِ آلَافَهَا وَأَنْسَى بِخَلَفِهِ أَسْلَافَهَا . انْتَهَى

***

كتاب أبي المطرف الى صاحبيه

وَكَتَبَ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى إِلَى صَاحِبَيْنِ لَهُ فِي مَعْنَى مَا أَلْمَعْنَا بِهِ آنِفًا مَا صُورَتُهُ :

تَحِيَّةٌ مِنْكُمَا أَتَتْنِي ... طَابَتْ كَمَا طَابَ مُرْسِلَاهَا

وَيَالَهَا أَذْكَرَتْ عُهُودًا ... قَلْبِيَ وَاللّٰهِ مَا سَلَاهَا

حَلَلْتُمَا فِي الْبِلَادِ أَرْضًا ... رِيحَ صَبَاهَا عَنِّي سَلَاهَا

لَمْ يَصْبُ قَلْبِي[٣] إِلَى سِوَاهَا ... يَوْمًا وَلَمْ يَسْلُ عَنْ سَلَاهَا[٤]

كِتَابِي أَيُّهَا الْأَخَوَانِ اللَّذَانِ بِوُدِّهِمَا أَقُولُ ، وَعَنْ عَهْدِهِمَا لَا أَحُولُ . أَنْزَلَكُمَا اللّٰهُ تَعَالَى خَيْرَ مَنْزِلٍ ، وَجَعَلَكُمَا

وهي كونه كاتبا شاعرا أديبا جميلا مغنيا . ومن شعره :

والدهر حرب للحيي ... وسلم ذى الوجه الوقاح

وعلى أن أسعى وليـ ... ـس على ادراك النجاح

(١) الرعيل : الجماعة المتقدمة والقطعة من الخيل أو الرجال وغيرهما

(٢) أى فاق وعلا (٣) لم يصب : لم يشتق ، وصبا اليه: حن ومال (٤) سلا فى البيت الثانى من السلو ، وفى الثالث أمر للاثنين بالسؤال ، وفى الأخير اسم لمدينة (سلا) . « أحمد نجاتى »

مِنَ ٱلنَّوَائِبِ وَٱلشَّوَائِبِ[1] بِعَزْلٍ ، — مِنْ رِبَاطِ ٱلْفَتْحِ — وَلُبِّي قَدِيماً مَلَكْتُمَا رِقَّهُ ، وَقَلْبِي تَعَلُّماً وَتَعْلِيماً عَرَفْتُمَا صِدْقَهُ ، كَيْفَ حَالُكُمَا مِنْ سَفَرٍ طَوَيْتُمَاهُ خَبَرَهُ ، حِينَ تَجَشَّمْتُمَا[2] غَرَرَهُ ؟ . وَكَيْفَ سَمَحَتْ نُفُوسُكُمَا بِأُمِّ ٱلْحُصُونِ وَذَاتِ ٱلظِّلَالِ وَٱلْعُيُونِ ، تُرْبَةِ ٱلْآبَاءِ ، وَمَنْزِلَةِ ٱلْجُمَحِيِّينَ ٱلنُّجَبَاءِ ، حَتَّى صَرَمْتُمَا[3] حَبْلَهَا ، وَهَجَرْتُمَا حَزْنَهَا[4] وَسَهْلَهَا ، وَخُضْتُمَا غُبْرَ ٱلْفِجَاجِ[5] ، وَخُضْرَ ٱلْأَمْوَاجِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِتَغَلُّبِ ٱلْحَادِثِ ٱلنُّكْرِ[6] ، وَتَأَلُّبِ ٱلْمَعْشَرِ ٱلْغُدُرِ ، وَمِنْ أَجْلِ ٱلدَّاهِيَةِ ٱلنَّكَادِ[7] وَٱلْحَادِثَةِ ٱلشَّنِيعَةِ عَلَى ٱلْبِلَادِ ،

---

(١) الشوائب : العيوب والأدناس وما يكدر الصفو (٢) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة (٣) صرمتما : قطعتما (٤) حزنها : الحزن ما غلظ من الأرض في ارتفاع ضد السهل (٥) الفجاج جمع فج وهو : الطريق الواسع الواضح بين جبلين . وغبر : جمع أغبر (٦) أمر نكر (بضم الكاف وسكونها) : شديد منكر ، وغدر جمع غدور من الغدر (ضد الوفاء) وهو نقض العهد وتضييعه (٧) النكاد : العسيرة الشديدة ويظهر أنها محرفة عن النآد ، الداهية العظيمة ، قال الكميت :

فإياكم وداهية نآدا أظلتكم بعارضها المخيل

(نعت به الداهية ، وقد يكون بدلا) وقال آخر :

أتاني أن داهية نآدا أتاك بها على سخط ميون

ونأدت الداهية فلانا : دهته وفدحته و بلغت منه

أَزْعَجَتْكُمْ حِينَ أَزْعَجَتْنَا ، وَأَخْرَجَتْكُمْ كَمَا أَخْرَجَتْنَا ، وَطَوَّحَتْ بِنَا طَوَائِحُهَا ، وَاُجْتَاحَتْ[١] ثَمَرَنَا وَشَجَرَنَا جَوَائِحُهَا[٢] ، فَشُكْرًا لِلّهِ تَعَالَى عَلَى قَضَائِهِ ، وَتَضَرُّعًا فِيمَا نَرْفَعُهُ مِنْ دُعَائِهِ ، وَهَنِيئًا لَنَا وَلَكُمْ مَعْشَرَ اُلشُّرَدَاءِ ، اُلْمُنْطَوِينَ مِنَ اُلشَّجَنِ[٣] عَلَى شَرِّ دَاءٍ ، ذَلِكَ اُلطَّوْدُ اُلَّذِى إِلَيْهِ أَوَيْتُمَا ، وَفِى ظِلِّهِ ثَوَيْتُمَا ، وَعَنْ رَأْيِهِ تَرَيَانِ ، وَبِسَعْيِهِ تَسْعَيَانِ ، فَوَجْهُهُ اُلْمُبَارَكُ لَا يَعْدَمُ رَأْيُهُ[٤] نُجْحًا ، وَلَا يَعْدُو لِصُبْحِهِ إِذَا دَجَا لَيْلُ اُلْهَمِّ صُبْحًا . انْتَهَى .

(١) اجتاحت : استأصلت وأهلكت (٢) جوائح : جمع جائحة وهى الداهية والبلية . وطوحت به الطوائح: ذهبت به كل مذهب ، وقذفته فى كل مهلكة (٣) الشجن : الهم والحزن (٤) يظهر أنها محرفة عن رائيه

***

ترجمة أبي المطرف

وَكَانَ أَبُو ٱلْمُطَرِّفِ بْنُ عُمَيْرَةَ* ٱلْمَذْكُورُ ـ كَمَا قَالَ فِيهِ بَعْضُ عُلَمَاءِ ٱلْمَغْرِبِ ـ قُدْوَةَ ٱلْبُلَغَاءِ، وَعُمْدَةَ ٱلْعُلَمَاءِ، وَصَدْرَ ٱلْجِلَّةِ ٱلْفُضَلَاءِ، وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ(١) بْنِ عُمَيْرَةَ ٱلْمَخْزُومِيُّ، وَنُكْتَةُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي قَدْ أَحْرَزَهَا وَأَوْدَعَهَا، وَشَمْسُهَا ٱلَّتِي أَخْفَتْ ثَوَاقِبَ(٢) كَوَاكِبِهَا حِينَ أَبْدَعَهَا

(١) ابن محمد بن الحسن بن عميرة (٢) ثواقب كواكبها : نجومها المضيئة التى تثقب الظلام وتخترقه وتنفذ فيه . وفى ضمير كواكبها استخدام

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٧٧ ج ثالث بما يأتى : « الكاتب أبو المطرف أحمد بن عميرة » هو الآن عظيم الأندلس فى الكتابة ، وفى فنون من العلوم ، وقد كتب عن زيان بن مردنيش ملك بلنسية ، وأخبرنى أبو عبد الله بن الأبار البلنسى ان زيان بن مردنيش أحضر يوما حجاما ، ثم أخرج له جائزة ، ودفع اليه أبو المطرف شعرا فلم يجزه فكتب اليه :

أرى من جاء بالموسى مواسى ... وراحة من أراح المدح صفرا
فأنجح سعى ذا اذ قص شعرا ... وأخفق سعى ذا إذ قص شعرا

فأمر له باحسان .

وقد ترجم له أيضا لسان الدين بن الخطيب فى كتاب الاحاطة « ج ١ ص ٦٠ »

مُبْدِعُ الْبَدَائِعِ الَّتِي لَمْ يَحْظَ بِهَا قَبْلَهُ إِنْسَانٌ، وَلَا يَنْطِقُ(١) عَنْ تِلَاوَتِهَا لِسَانٌ، إِذْ كَانَ يَنْطِقُ عَنْ قَرِيحَةٍ صَحِيحَةٍ، وَرَوِيَّةٍ بِدُرَرِ(٢) الْعِلْمِ فَصِيحَةٍ، ذَلَّتْ لَهُ صَعْبُ الْكَلَامِ، وَصَدَّقَتْ رُؤْيَاهُ حِينَ وَضَعَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَهُوَ الَّذِي أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ـ فِي يَدَيْهِ الْأَقْلَامَ. وَأَصْلُ سَلَفِهِ مِنْ جَزِيرَةِ شَقْرَ، وَوُلِدَ بِمَدِينَةِ بَلَنْسِيَةَ، وَرَوَى عَنْ أَبِي الْخَطَّابِ بْنِ وَاجِبٍ وَأَبِي الرَّبِيعِ بْنِ سَالِمٍ وَابْنِ نُوحٍ وَالشَّلَوْبِينِ النَّحْوِيِّ وَابْنِ عَاتٍ وَابْنِ حَوْطِ اللهِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْحُفَّاظِ. وَأَجَازَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ جَمَاعَةٌ، وَكَانَ شَدِيدَ الْعِنَايَةِ بِشَأْنِ الرِّوَايَةِ فَأَكْثَرَ مِنْ سَمَاعِ الْأَحَادِيثِ وَأَخْذِهِ عَنْ مَشَايِخِ أَهْلِهِ، ثُمَّ تَفَنَّنَ فِي الْعُلُومِ، وَنَظَرَ فِي الْمَعْقُولَاتِ

---

(١) قد تكون (ينطلق) (٢) يجوز أيضا أن تكون (بدرر) بكسر الدال جمع درة وهى كثرة اللبن وسيلانه، ودر اللبن يدر: كثر وأقبل منه على الحالب شيء غزير: ومن المجاز: أدر الله لك أخلاف الرزق، واستدر نعمة الله بالشكر ـ وفى حديث مأثور: استدروا الهدايا برد الظروف. ودرت الدنيا على أهلها اذا كثر خيرها وعم خصبها.

وَأُصُولِ ٱلْفِقْهِ ، وَمَالَ إِلَى ٱلْأَدَبِ فَبَرَعَ بَرَاعَةً عُدَّ فِيهَا مِنْ مُجِيدِي ٱلنَّظْمِ . فَأَمَّا ٱلْكِتَابَةُ فَهُوَ فَارِسُهَا ٱلَّذِي لَا يُجَارَى ، وَصَاحِبُ(١) عَيْنِهَا ٱلَّذِي لَا يُبَارَى ، وَلَهُ وَعْظٌ عَلَى طَرِيقَةِ ٱبْنِ ٱلْجَوْزِيِّ(٢) ، وَرَسَائِلُ خَاطَبَ بِهَا ٱلْمُلُوكَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَٱلْحَفْصِيِّينَ . وَلَهُ تَأْلِيفٌ فِي كَائِنَةِ مَيُورْقَةَ وَتَغَلُّبِ ٱلرُّومِ عَلَيْهَا نَحَا فِي ٱلْخَبَرِ عَنْهَا مَنْحَى ٱلْإِمَامِ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ فِي ٱلْفَتْحِ ٱلْقُدْسِيِّ ، وَلَهُ كِتَابٌ تَعَقَّبَ فِيهِ عَلَى ٱلْفَخْرِ ٱلرَّازِيِّ فِي كِتَابِ ٱلْمَعَالِمِ ، وَلَهُ كِتَابٌ رَدَّ بِهِ عَلَى كَمَالِ ٱلدِّينِ ٱلْأَنْصَارِيِّ(٣) فِي كِتَابِهِ

---

(١) لعله يشير الى الخليل بن أحمد مؤلف العين فى اللغة (يعنى أن المترجم مبتكر فى الكتابة نابغة ، هو فيها بمنزلة الخليل فى اللغة أول من ضبطها وحصر كلماتها وألف فيها معجما غريب الترتيب دقيق النظام (٢) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ينتهى نسبه الى القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . كان علامة عصره وامام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ ، وصنف فى فنون جمة تآليف ممتعة وكانت له فى مجالس الوعظ أجوبة نادرة لطيفة تدل على قوة ذهن وحدة ذكاء وتوفى ببغداد سنة ٥٩٧ وتوفى والده سنة ٥١٤ (٣) هو أبو محمد عبد الكريم السماكى . «أحمد نجاتى»

اَلْمُسَمَّى بِالتِّبْيَانِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ الْمُطْلِعِ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَسَمَّاهُ بِالتَّنْبِيهَاتِ عَلَى مَا فِي الْبَيَانِ مِنَ التَّمْوِيهَاتِ ، وَلَهُ اخْتِصَارٌ نَبِيلٌ مِنْ تَارِيخِ ابْنِ صَاحِبِ الصَّلَاةِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ .

***

تقلب أبي المطرف في المناصب

وَرَدَ — رَحِمَهُ اللهُ — حَضْرَةَ الْإِمَامَةِ مَرَّاكُشَ صُحْبَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدِ حِينَ قُفُولِهِ مِنْ مَدِينَةِ سَلَا ، وَاسْتَكْتَبَهُ مُدَّةً يَسِيرَةً ، ثُمَّ صَرَفَهُ عَنِ الْكِتَابَةِ وَقَلَّدَهُ قَضَاءَ هَيْلَانَةَ ، ثُمَّ نَقَلَهُ إِلَى قَضَاءِ سَلَا ، ثُمَّ نَقَلَهُ السَّعِيدُ إِلَى قَضَاءِ مِكْنَاسَةِ الزَّيْتُونِ ، ثُمَّ قَصَدَ سَبْتَةَ ، وَأَخَذَ مَالَهُ فِي قَافِلَةِ بَنِي مَرِينٍ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ إِفْرِيقِيَّةَ ، وَوَصَفَ حَالَهُ فِي رِسَالَةٍ خَاطَبَ بِهَا ابْنَ السُّلْطَانِ أَبَا زَكَرِيَّا الْحَفْصِيَّ ، وَهُوَ أَبُو زَكَرِيَّا ابْنُ السُّلْطَانِ أَبِي زَكَرِيَّا ، وَكَانَ صَاحِبَ بِجَايَةَ[1] لِأَبِيهِ . وَلَمْ يَزَلْ — رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى — مُذْ فَارَقَ الْأَنْدَلُسَ مُتَطَلِّعًا لِسُكْنَى إِفْرِيقِيَّةَ

(١) مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب ، وأول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين الصنهاجي في حدود سنة ٤٥٧ ، وكانت قاعدة ملك بني حماد ، وتسمى الناصرية أيضا باسم بانيها

مَعْمُورَ ٱلْقَلْبِ بِسُكْنَاهَا ، وَلَمَّا قَدِمَ تُونُسَ مَالَ الَى صُحْبَةِ ٱلصَّالِحِينَ وَٱلزُّهَّادِ وَأَهْلِ ٱلْخَيْرِ بُرْهَةً مِنَ ٱلزَّمَانِ ، ثُمَّ ٱسْتُقْضِيَ بِالْأَرِيسِ[1] مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ ، ثُمَّ بِقَابِسَ مُدَّةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ ٱسْتَدْعَاهُ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللّٰهِ ٱلْحَفْصِيُّ وَأَحْضَرَهُ مَجَالِسَ أُنْسِهِ ، وَدَاخَلَهُ مُدَاخَلَةً شَدِيدَةً حَتَّى تَغَلَّبَ عَلَى أَكْثَرِ أَمْرِهِ . وَمَوْلِدُهُ بِجَزَائِرِ شَقْرَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ٱلْمُعَظَّمِ ، سَنَةَ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَتُوُفِّيَ لَيْلَةَ ٱلْجُمُعَةِ ٱلْمُوفِيَةِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي ٱلْحِجَّةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . ـ أَلْحَقَهُ ٱللّٰهُ رِضْوَانَهُ ، وَجَدَّدَ عَلَيْهِ غُفْرَانَهُ .

***

وصف ابن الابار لأبي المطرف

قَالَ ابْنُ ٱلْأَبَّارِ فِي تُحْفَةِ ٱلْقَادِمِ ، فِي حَقِّ أَبِي ٱلْمُطَرِّفِ ٱلْمَذْكُورِ : فَائِدَةُ هَذِهِ ٱلْمِائَةِ ، وَٱلْوَاحِدُ يَفِي بِالْفِئَةِ ، ٱلَّذِي ٱعْتَرَفَ بِاتِّحَادِهِ[2] ٱلْجَمِيعُ ، وَٱتَّصَفَ بِالْإِبْدَاعِ فَمَاذَا يَتَّصِفُ بِهِ ٱلْبَدِيعُ[3] ؟ ، وَمَعَاذَ ٱللّٰهِ أَنْ أُحَابِيَهُ[4] بِالتَّقْدِيمِ ، لِمَا لَهُ مِنْ حَقِّ ٱلتَّعْلِيمِ ، كَيْفَ وَسَبْقُهُ ٱلْأَشْهَرُ ، وَنُطْقُهُ ٱلْيَاقُوتُ

(١) أظنها الأربس AI-orbos (٢) أي بتوحده وانفراده (٣) يريد البديع الهمذاني (٤) أن أحابيه : أن أختصه دون سواه . وحاباه : نصره واختصه ومال اليه

وَالْجَوْهَرُ ، تَحَلَّتْ بِهِ الصَّحَائِفُ وَالْمَهَارِقُ ، وَمَا تَخَلَّتْ عَنْهُ الْمَغَارِبُ وَالْمَشَارِقُ ، فَحَسْبِي أَنْ أَجْهَدَ فِي أَوْصَافِهِ ، ثُمَّ أَشْهَدَ بِعَدَمِ إِنْصَافِهِ ، هَـذَا عَلَى تَنَاوُلِ الْخُصُوصِ وَالْعُمُومِ لِذِكْرِهِ ، وَتَنَاوُبِ الْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ عَلَى شُكْرِهِ.

ثُمَّ أَوْرَدَ لَهُ جُمْلَةً مِنْهَا قَوْلُهُ :

وَأَجَلْتُ فِكْرِي فِي وُشَاحِكِ[1] فَانْثَنَى
شَوْقاً إِلَيْكِ يَجُولُ فِي جَوَّالِ[2]

أَنْصَفْتِ غُصْنَ الْبَانِ إِذْ لَمْ تَدْعِهِ
لِتَأَوُّدٍ[3] مَعَ عِطْفِكِ الْمَيَّالِ

وَرَحِمْتِ دُرَّ الْعِقْدِ حِينَ وَضَعْتِهِ
مُتَوَارِياً عَنْ ثَغْرِكِ الْمُتَلَالِي

---

(١) الوشاح بضم الواو وكسرها: نسيج عريض مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها (٢) يصفها بنحافة الخصر وضمور البطن والهيف ، وكان القياس (لم تدعيه) ان كان الخطاب لمؤنث وهو الظاهر أو لعله خاطب (شخص) المحبوبة، ومثله قول الشاعر :

نامت خلاخلها وجال وشاحها
وجرى الوشاح على كثيب أهيل

فاستيقظت منه قلائدها التي
عقدت على جيد الغزال الأكحل

(٣) تأود : انعطف وانحنى وتثنى وتمايل

كَيْفَ ٱللِّقَاءِ وَفِعْلُ وَعْدِكِ سِينُهُ
أَبَدًا تُخَلِّصُهُ لِلِاسْتِقْبَالِ ؟ ؟

وَكُمَاةُ[1] قَوْمِكِ نَارُهُمْ وَوَقِيدُهَا
لِلطَّارِقِينَ أَسِنَّةٌ وَعَوَالِي[2]

وَلَهُ مِمَّا يُكْتَبُ عَلَى قَوْسٍ قَوْلُهُ :

مَا أَنْآدَ[3] مُعْتَقِلُ ٱلْقَنَا إِلَّا لِأَنْ
يَحْكِي تَأَطُّرَ قَامَتِي ٱلْعَوْجَاءِ

تَحْنُو ٱلضُّلُوعُ عَلَى ٱلْقُلُوبِ وَإِنَّنِي
ضِلَعٌ ثَوَى فِيهَا بِأَعْضَلِ دَاءِ[4]

وَلَهُ وَقَدْ أَهْدَى وَرْدًا :

---

(١) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع يتكمى فى سلاحه : أى يستتر ويتغطى (٢) عوالى : جمع عالية وهو أعلى القناة ورأسها . وخير من هذا البيت فى معناه قول الشاعر :

متى تزر قوم من تهوى زيارتها ... لا يتحفوك بغير البيض والأسل

(٣) انآد (انفعل من الأود وهو العوج والانحناء) وآد العود يئوده فانآد أى انثنى واعوج مثل تأود . والأطر عطف الشىء تقبض على أحد طرفيه فتعوجه ، وأطره يأطره فتأطر : عطفه فانعطف كالعود تراه مستديرا اذا جمعت بين طرفيه . وفى البيت حسن تعليل على ما فيه (٤) أعضل داء : داء مستحكم لا دواء له وهو الموت

خُذْهَا إِلَيْكَ أَبَا عَبْدِ ٱلْإِلٰهِ فَقَدْ
جَاءَتْكَ مِثْلَ خُدُودٍ زَانَهَا ٱلْخَفَرُ[1]
أَتَتْكَ تَحْكِى سَجَايَا مِنْكَ قَدْ عَذُبَتْ
لَكِنْ تَغَيُّرُ هَذَا دُونَهُ ٱلْغِيَرُ[2]
إِنْ شِمْتَ[3] مِنْهَا بُرُوقَ ٱلْغَيْثِ لَامِعَةً
فَسَوْفَ يَأْتِيكَ مِنْ مَاءٍ لَهَا مَطَرُ

***

كتاب أبى المطرف فى الهدية

قَالَ : وَكَتَبَ إِلَىَّ مَعَ تُحْفَةٍ أَهْدَاهَا مُكَافِئًا عَنْ مِثْلِهَا :

يَا وَاحِدَ ٱلْأَدَبِ ٱلَّذِى قَدْ زَانَهُ
بِمَنَاقِبٍ جَعَلَتْهُ فَارِسَ مَنْصِبِهْ
بِالْفَضْلِ فِى ٱلْهِبَةِ ٱبْتَدَأْتَ فَإِنْ تُعِرْ
طَرْفَ ٱلْقَبُولِ لِمَا وَهَبْتَ خَتَمْتَ بِهْ

***

كتابه فى الحمامة

قَالَ : وَلَهُ ٱرْتِجَالًا بِقَصْرِ ٱلْإِمَارَةِ مِنْ بَلَنْسِيَةَ ، وَأَنَا حَاضِرٌ

(١) الخفر شدة الحياء (٢) غير الدهر : أحداثه وأحواله المغيرة ــ يريد أن يفضل سجايا الممدوح وشمائله على رقة الورد ولطفه (٣) شمت البرق : نظرت الى سحابته أين تمطر

فِى صَبِيحَةِ بَعْضِ ٱلْجُمَعِ ، وَقَدْ حُجِمَ صَاحِبٌ لَنَا مِنْ أَهْلِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ ، وَأَحْسَنَ إِلَى ٱلْحَجَّامِ بِالْخُصُوصِ :

أَرَى مَنْ جَاءَ بِالْمُوسَى مُوَاسَى
وَرَاحَةُ(1) ذِى ٱلْقَرِيضِ تَعُودُ صِفْرَا
فَهَذَا مُخْفِقٌ إِنْ قَصَّ شِعْرًا
وَهَذَا مُنْجِحٌ إِنْ قَصَّ شَعْرَا(2)

***

وَلَهُ أَيْضًا :

كتابه فى السخاء

هُوَ مَا عَلِمْتَ مِنَ ٱلْأَمِيرِ فَمَا ٱلَّذِى ... تَزْدَادُ مِنْهُ وَفِيهِ لَا يُرْتَابُ
لَا تَتَّقِى ٱلْأَجْنَادُ فِى أَيَّامِهِ ... فَقْرًا وَلَا يَرْجُو ٱلْغِنَى ٱلْكُتَّابُ

***

كتابه فى مدح أميرين

وَلَهُ بَعْدَ ٱنْفِصَالِهِ مِنْ بَلَنْسِيَةَ عَنْ وَحْشَةٍ فِى ذِى ٱلْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ :

أَسِيرُ بِأَرْجَاءِ ٱلرَّجَاءِ وَإِنَّمَا ... حَدِيثُ طَرِيقِى طَارِقُ ٱلْحَدَثَانِ(3)

---

(1) راحة : أى يد ، وصفرا : أى خالية (2) قص : الأولى من القصص ، وهو التحديث ، والثانية من القص أى القطع بالمقص — و بينهما جناس لفظى وكذا بين الشِّعر والشَّعر (3) الحدثان : الليل والنهار

وَأُخْضِرُ نَفْسِي إِنْ تَقَدَّمْتُ خِيفَةً
لِغَضٍّ[1] عِنَانٍ أَوْ لِعَضٍّ زَمَانِ

أَيُتْرَكُ حَظِّي لِلْحَضِيضِ[2] وَقَدْ سَرَى
لِإِمْكَانِهِ فَوْقَ الذُّرَا[3] جَبَلَانِ ؟

وَأَخْبِطُ[4] فِي لَيْلِ الْحَوَادِثِ بَعْدَمَا
أَضَاءَ لِعَيْنِي مِنْهُمَا الْقَمَرَانِ ؟

فَيَحْيَى لِآمَالِي حَيَاةٌ مُعَادَةٌ
وَإِنَّ عَزِيزًا عِزَّةٌ[5] لِمَكَانِي

وَقَالُوا اقْتَرِحْ إِنَّ الْأَمَانِيَّ مِنْهُمَا
وَإِنْ كُنَّ فَوْقَ النَّجْمِ تَحْتَ ضَمَانِ

فَقُلْتُ إِذَا نَاجَاهُمَا بِقَضِيَّتِي
ضَمِيرِي لَمْ أَحْفِلْ بِشَرْحِ لِسَانِي

---

(١) (غض العنان) غض من عنان فرسه صوبه ونقص من غربه وحدته وعض الزمان: اشتداده وكلبه (٢) الحضيض: القرار من الأرض (٣) الذرا جمع ذروة وهو أعلى الجبل وقمته (٤) أخبط: أسير على غير هدى (٥) في الأصل عزه، وأرى أن (يحيى) أول البيت اسم لأحد الممدوحين، وعزيزا في عجز البيت اسم للممدوح الآخر جعله عزة لمكانه كما جعل يحيى حياة له معادة، فالبيت هكذا:

فيحيى لآمالي .... وان عزيزا عزة الخ

وأكثر أبيات القطعة ناطقة أنه يمدح أميرين، وأحدهما الأمير يحيى قد تقدم مدحه له في غير موضع. «أحمد نجاتي»

***

وَلَهُ أَيْضًا :

رسالة أخرى

سَلَبَ ٱلْكَرَى[1] مِنْ مُقْلَتَيَّ فَلَمْ يَجِئْ • مِنْهُ عَلَى نَأْيٍ خَيَالٌ يَطْرُقُ

أَهْفُو[2] ٱرْتِيَاحًا لِلنَّسِيمِ إِذَا سَرَى • إِنَّ ٱلْغَرِيقَ بِمَا يَرَى يَتَعَلَّقُ

انْتَهَى مَا تَلَخَّصَ مِنْ تُحْفَةِ ٱلْقَادِمِ فِي ذِكْرِ ٱبْنِ عُمَيْرَةَ أَبِي ٱلْمُطَرِّفِ .

***

كتاب الاشارة إلى الكفار الغالبين

وَمِمَّا كَتَبَ أَبُو ٱلْمُطَرِّفِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ « وَفِي أَثْنَائِهِ إِشَارَةٌ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ٱلْغَالِبِينَ عَلَى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ » مَا نَصُّهُ :

أَلَا إِنَّ شَخْصَيْنَا عَلَى ٱلْقَطْعِ وَاحِدٌ • وَجَاحِدُ هَذَا لِلضَّرُورَةِ جَاحِدُ

فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقْ مَا نَطَقْتُ بِصِدْقِهِ • فَإِنَّكَ لِي لَاحٍ[3] وَلِلْوُدِّ لَاحِدُ

---

(١) الكرى : النوم ، والمقلة العين (٢) هفا الفؤاد ذهب فى اثر الشيء وطرب ومال (٣) لاح : عائب . ولاحد : منكر جاحد

وَمَعَاذَ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَلْحَانِى ، أَوْ تَمْنَعَ أَنْفَكَ رِيحَ رَيْحَانِى ، وَكَيْفَ تَصُدُّ عَنِّى بِوَجْهِكَ ، أَوْ تَشْحَذُ لِى(١) غَرْبَ نَجْهِكَ ، وَأَنَا عَلَى غَيْبِكَ أَمِينٌ ، وَلِشِمَالِكَ يَمِينٌ ؟ وَلَـكِمْ دَعَوْتَ بِى فَأَجَبْتُ ، وَٱسْتَغْنَيْتَ عَنِّى فَحُجِبْتُ ، وَأَرَدْتَ ٱلِاسْتِبْدَادَ فَمَا ٱسْتَطَعْتَ ، وَنَعَتَّ ٱلْوِدَادَ فَمَا أَحْسَنْتَ ٱلنَّعْتَ، وَإِنَّمَا تُحْمَدُ فَرَاهَةُ ٱلْأَعْوَجِىِّ(٢) إِنْ جَرَى ، وَتُذْكَرُ فَضِيلَةُ ٱبْنِ ٱلسَّرِىِّ(٣) إِذَا سَرَا ، فَأَمَّا ٱلِاقْتِصَارُ عَلَى عَظْمٍ بَادٍ ، وَٱلِانْتِظَارُ لِعَيْنٍ عَدِمَتِ ٱلسَّوَادَ ، فَخَطَأٌ

---

(١) تشحذلى غرب نجهك: غرب السيف حده ، والنجه استقبالك الرجل بما يكره وردك اياه عن حاجته أقبح رد قال الشاعر :

حياك ربك أيها الوجه ولغيرك البغضاء والنجه

ونجهه رده وانتهره وزجره وردعه واستقبله بما يكفه عنه فينقدع عنه أى ينكف ، ويجوز (فحجبت) بالبناء للمعلوم (٢) فراهة : حذق ومهارة ونشاط ، والأعوجية منسوبة الى جواد كريم كان يقال له أعوج ، ويقال هذا الحصان من بنات أعوج ، وكان أعوج لبنى هلال بن عامر ، وكان أولا لكندة فأخذته بنو سليم فى بعض أيامهم ثم صار الى بنى هلال ، وليس فى العرب فحل أشهر منه ولا أكثر نسلا (٣) أى الشريف ، وسرا : شرف وقد تكون (الانتظار) محرفة عن (الانتصار) ، ألم بالبيت :

ان السرى هو السرى بنفسه وابن السرى اذا سرا أسراهما

مِنَ ٱلْقَائِلِ ، وَخَطَلٌ عِنْدَ ٱلْعَاقِلِ[١] ، وَلِلّٰهِ دَرُّ أَخِيكَ مِنْ مُغْمِضٍ طَرْفَ ٱلتَّطَرُّفِ[٢] ، قَارِئٍ أَدَبَ ٱلصُّحْبَةِ عَلَى ٱلسَّبْعَةِ ٱلْأَحْرُفِ ؛ كَرَعَ فِي أَعَزِّ مَوْرِدٍ ، وَتَوَاضَعَ فِي شَرَفِ مَوْلِدٍ ، وَسَمَا بِنَفْسِهِ عَنْ أَنْ يَسْتَخِفَّهُ نَسَبٌ يَرْفَعُهُ ، وَحَسَبٌ مَا مِنَّا أَحَدٌ يَدْفَعُهُ ، وَكَذَلِكَ ٱلْكِرَامُ يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ حَقًّا ، وَيَتَوَقَّوْنَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكِبْرِ مُوَقًّى ، وَلَعَهْدِي بِهِ وَظِلُّ ٱلثَّرْوَةِ بَارِدٌ ، وَشَيْطَانُ ٱلشَّبِيبَةِ مَارِدٌ ، وَبِشْرُهُ فِي ٱلْمُلِمَّاتِ يَرِفُّ[٣] ، وَقَدَمُهُ إِلَى ٱلْحَاجَاتِ تَخِفُّ ، يَصُونُ عِرْضَهُ بِمَالِهِ ، وَيُخْفِي صَدَقَةَ يَمِينِهِ عَنْ شِمَالِهِ ، وَيُقَسِّمُ

(١) فى معناه :

لسنا وان أحسابنا كرمت … يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا … تبنى ونفعل مثل مافعلوا

(٢) رجل متطرف ومستطرف لايثبت على حال ، وتطرف على القوم أغار وطرفه عنه يطرفه اذا صرفه ورده ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

انك والله لذو ملة … يطرفك الأدنى عن الأقدم

يقول يصرف بصرك عنه أى تستطرف الجديد وتنسى القديم (٣) من رف لونه يرف : برق وتلألأ ، ورف النبت : اهتز نضارة ونعمة ، ودخلت عليه فرف لى : هش فى تحبب وخضوع .

جِسْمَهُ فِي جُسُومٍ[1]، وَيَقُومُ بِالْحُقُوقِ غَيْرَ مَلُولٍ وَلَا مَلُومٍ ، تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَاقِعْبَانِ[2] ، وَمَا تَسْتَوِي الْبَدَنَةُ[3] الْمَهِيضَةُ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْقُرْبَانِ . وَعَرَّضْتَ بِذِكْرِ الْعَصْرِ الْخَالِي ، وَالْقَصْرِ الْعَالِي ، وَظِلٍّ مِنْ فَنَنٍ[4] وَرِيقٍ ، وَعَيْشٍ مَعَ أَكْرَمِ فَرِيقٍ ، وَمَا تَذْكُرُ مِنْ زَمَنٍ تَوَلَّى ؟ وَعَهْدٍ عَلَى أَلَّا يَعُودَ تَأَلَّى[5] ؟ فَارَقْنَاهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ ، وَوَدَّعْنَا بِهِ الْأَطْيَبَيْنِ : الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ، فَعَفَتِ[6] الرُّسُومُ ، وَأَفَلَتْ[7] تِلْكَ النُّجُومُ ، وَرَمَتْنَا عَنْ قَوْسِهَا الرُّومُ ، ثُمَّ خَلَّفَتْنَا فِي الْمَغَانِي ، وَقَسَّمَتْنَا بَيْنَ الْأَسِيرِ وَالْعَانِي[8] ، فَأَوْدَى[9] الْقُلُّ

---

(١) من قول حاتم :

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

(٢) من قول أمية بن أبي الصلت :

تلك المكارم لاقعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

مثنى قعب : قدح ضخم غليظ (٣) البدنة من الابل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى الى مكة . مهيضة : كسيرة (٤) الفنن : الغصن المستقيم والوريق : ذو الورق الناضر (٥) أي حلف وأقسم (٦) عفت الرسوم : محي مابقي من أثر الديار (٧) أفلت النجوم : غابت (٨) العاني : الذليل الخاضع والعاني أيضا الأسير ، والتعنية الحبس (٩) أودى : ذهب وهلك

وَٱلْكُثْرُ ، وَٱشْتَقَّ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْكُفْرُ ، فَكَمْ كَأْسِ أُنْسٍ أَرَقْنَاهُ ، وَمَنْزِلٍ فُرْقَةَ (١) ٱلْأَبَدِ فَارَقْنَاهُ . ؟

وَذَكَرْتَ ٱجْتِيَازَكَ بَيْنَ ٱلْعَلَمَيْنِ ، وَقَطْعَكَ مَتْنَ ٱلْيَمِّ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَنَّكَ ٱنْتَقَلْتَ مِنْ ذَوَاتِ ٱلْأَلْوَاحِ (٢) ، إِلَى عَذَبَاتِ (٣) ٱلْأَدْوَاحِ ، وَمِنْ مُتَهَافِتِ ٱلشِّرَاعِ ، إِلَى مَنَابِتِ ٱلْيَرَاعِ (٤) ، وَمِنْ سُكْنَى بَيْتِ ٱلسُّكَّانِ (٥) إِلَى مَنْزِلٍ بِهِ ٱلْفَلَّاحُ وَٱلْمَلَّاحُ يَشْتَرِكَانِ ، حَيْثُ ٱجْتَمَعَ ٱلضَّبُّ وَٱلنُّونُ (٦) وَأَيْنَعَ ٱلتِّينُ وَٱلزَّيْتُونُ ، وَظُلِّلَتِ ٱلسَّاحَاتُ ، وَذُلِّلَتِ ٱلثِّمَارُ

---

(١) لايبعد أن تكون محرفة عن : منزل رفقة الى الأبد الخ (٢) كناية عن السفينة (٣) العذبات : الأطراف «تقول : ماأرق عذبة لسانه ، والحق على عذبات ألسنتهم » والدوحة الشجرة العظيمة ذات الفروع الممتدة (٤) اليراع القصب ، وتهافت الشيء تساقط وتطاير لخفته (٥) السكان ذنب السفينة ، ويسمى أيضا الخيزرانة والكوثل ، وهو ماتسكن به السفينة تمنع به من الحركة والاضطراب ، وتعدل به (٦) النون : الحوت العظيم وهو لايسكن الا الماء والضب لايسكن الا البر ، وقد أخذ الكاتب معناه من قول أبي عيينة المهلبي فى قصر عيسى بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب :

يا وادي القصر نعم القصر والوادي ... من منزل حاضر ان شئت أو بادي

ترى قراقيره والعيس واقفة ... والضب والنون والملاح والحادي

القراقير جمع قرقور وهو السفينة الطويلة أو العظيمة

ٱلْمُبَاحَاتُ . فَلَا تُشْرِقْنَا يَا أُصَيْلُ [1] ، وَلِأُمِّ تِلْكَ ٱلْأَرْض ٱلْوَيْلُ [2] . ٱنْتَهَى .

وَوَصَلَ هَذَا ٱلْكَلَامَ بِٱلْأَبْيَاتِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ قَرِيباً وَهِيَ قَوْلُهُ :

* زِدْنَا عَلَى ٱلنَّائِينَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ * الخ :

***

كتاب تهنئة الى ابن هود

وَكَتَبَ رَحِمَهُ ٱللهُ عَنْ أَهْلِ شَاطِبَةَ أَيَّامَ كَانَ قَاضِياً بِهَا، مُهَنِّئاً أَمِيرَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱبْنَ هُودٍ ٱلْمُسْتَوْلِيَ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ آخِرَ دَوْلَةِ ٱلْمُوَحِّدِينَ بِوُصُولِ ٱلْكِتَابِ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْكَرِيمِ إِلَيْهِ مِنْ بَغْدَادَ بِوِلَايَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ ـ إِذْ كَانَ ٱبْنُ هُودٍ حِينَ ثَارَ عَلَى ٱلْمُوَحِّدِينَ يَدْعُو إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلَّذِي كَانَ أَكْثَرُ ٱلْمُلُوكِ فِي ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ يَدِينُونَ بِطَاعَتِهِ ـ بِمَا نَصُّهُ بَعْدَ ٱلصَّدْرِ :

---

(١) هذا مثل ،وأصيل هذا هو أصيل بن عبد الله الهذلى (أو الغفارى) الصحابى رضى الله عنه ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم لما وصف مكة : حسبك ياأصيل لاتحزنا (٢) من قول عبد الله بن عنمة الضبى :

لام الأرض ويل ماأجنت بحيث أضر بالحسن السبيل

الحسن هنا اسم كثيب فى بلاد ضبة سمى بذلك لحسنه و (لأمه الويل) قد تستعمل فى التعجب والتعظيم والتهويل .« أحمد نجاتى»

« أَمَّا بَعْدُ » فَكَتَبَ الْعَبِيدُ ـ كَتَبَ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ الْمُجَاهِدِيِّ الْمُتَوَكِّلِيِّ سَعَادَةً لا تَبْلُغُ أَمَدًا إِلَّا تَخَطَّتْهُ ، وَيَدًا عُلُوُّهَا أَثْبَتَتْهُ أَيْدِي الْأَقْدَارِ وَخَطَّتْهُ ـ مِنْ شَاطِبَةَ ، وَبَرَكَاتُ الْأَمْرِ الْمُجَاهِدِيِّ الْمُتَوَكِّلِيِّ ، وَالْعَهْدِ الْوَاثِقِيِّ الْمُعْتَصِمِيِّ ، تَنْسَكِبُ كَالْمَطَرِ ، وَتَنْسَحِبُ عَلَى الْبَشَرِ ، وَتَقْضِي بِعَادَةِ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، وَسَعَادَةِ الْوِرْدِ وَالصَّدَرِ ـ وَالْحَمْدُ لِلهِ ـ وَعِنْدَ الْعَبِيدِ مِنْ أَدَاءِ فُرُوضِ الْخِدَمِ ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِ النِّعَمِ ، مَا عُقِدَتْ عَلَيْهِ ضَمَائِرُهُمْ ، وَسَمَتْ إِلَيْهِ نَوَاظِرُهُمْ ، وَاشْتَرَكَ فِيهِ بَادِيهِمْ وَحَاضِرُهُمْ ، فَجَنَابُ[1] أَمَلِهِمْ فَسِيحٌ ، وَمَتْجَرُ خِدْمَتِهِمْ رَبِيحٌ ، وَحَدِيثُ طَاعَتِهِمْ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَبِسَنِيِّ[2] النَّظَرِ الْعَلِيِّ اهْتِدَاؤُهُمْ ، وَفِي الْبَابِ الْكَرِيمِ رَجَاؤُهُمْ ، وَبِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ اعْتِزَازُهُمْ وَإِلَيْهَا اعْتِزَاؤُهُمْ ، وَاللهُ تَعَالَى يُنْهِضُهُمْ بِوَظَائِفِ الْمَثَابَةِ[3]

(١) الجناب الناحية والفناء (٢) او : و بسنا أى ضوء ونور (٣) المثابة : الموضع الذى يثاب اليه أى يرجع اليه مرة بعد أخرى و يسكن اليه ومنه قوله تعالى «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا»

ٱلْعَلِيَّةِ ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى ٱلْمَنَاهِجِ ٱلسَّوِيَّةِ . وَوَصَلَ ٱلْكِتَابُ ٱلْكَرِيمُ مُتَحَلِّيًا بِرُوَاءِ ٱلْحَقِّ ، نَاطِقًا بِلِسَانِ ٱلصِّدْقِ ، وَاصِفًا مِنَ ٱلتَّشْرِيفِ ، وَٱلْفَخَارِ ٱلْمُنِيفِ ، مَا صَدَرَ عَنْ إِمَامِ ٱلْخَلْقِ ، فَلَا بَيَانَ أَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْبَيَانِ ، وَلَا يَوْمَ كَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ تَبَدَّى نَظَرُهُ لِلْعِيَانِ ، أَوْ تَأَدَّى خَبَرُهُ فِي أَخْبَارِ ٱلزَّمَانِ نُشِرَتْ فِيهِ ٱلْخِلَعُ ٱلْعَبَّاسِيَّةُ فِي أَعْلَى ٱلصُّوَرِ ، وَبَرَزَ مِنْهَا لِلْعُيُونِ مَا يَعْثُرُ ٱلْبَلِيغُ عِنْدَ وَصْفِهِ فِي ذَيْلِ ٱلْحَصَرِ ، وَيُهْدِي سَوَادُهُ سَوَادَ ٱلْقَلْبِ وَٱلْبَصَرِ ، فَيَا لَمَشْهَدِهَا مَا أَعْجَبَ مَا كَانَ ، وَمَرْآهَا ٱلَّذِي رَاعَ ٱلْكُفْرَ وَرَاقَ(١) ٱلْإِيمَانَ ، وَأَشْبَهَ يَوْمَهُ بِٱلْأَنْدَلُسِ يَوْمَ خَرَجَتِ ٱلرَّايَاتُ ٱلسُّودُ مِنْ خُرَاسَانَ(٢) ، وَكَفَى بِهٰذَا فَخَارًا لَا يَحْتَاجُ ثَابِتُهُ مُثْبِتًا ، أَنْ بَاشَرَتْ بُرْدًا(٣) بَاشَرَ ٱلْبَدَنَ ٱلَّذِي طَابَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، فَهُوَ عُلُوٌّ

---

(١) راع : أفزع وخوف ، وراق : أعجب وسر وأطرب (٢) يشير الى دعاة بنى العباس (٣) البردة العباسية بردة خضراء كانت للنبى صلى الله عليه وسلم (وهى غير البردة التى كانت لملوك بنى أمية يلقونها على أكتافهم فى جلوسهم وركوبهم فان هذه فقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان معاوية قد اشتراها من آل كعب بن زهير) وأما تلك البردة العباسية هى التى

فِي ٱلْإِسْنَادِ وَلَا نَظِيرَ لَهُ فِي ٱلْعَوَالِي ، وَفَخَارٌ ضَلَّتْ عَنْ مِثْلِهِ ٱلْعُصُورُ ٱلْخَوَالِي ، وَجَلَّتْ بَهْجَتُهُ أَنْ تُخْلِقَ جِدَّتَهَا ٱلْأَيَّامُ وَٱللَّيَالِي . وَدَلَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْعَزِيزُ عَلَى ٱلتَّسْمِيَةِ ٱلْمُشْتَقَّةِ مِنَ ٱلْجِهَادِ ، وَٱلسِّمَةِ مِنْ سَيْفِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمَالَا يَدْخُلُ فِي جِنْسِ ذَوَاتِ ٱلْأَغْمَادِ ، وَخَيْرُ ٱلْأَوْصَافِ مَا صَدَّقَهُ ٱلْمَوْصُوفُ ، وَٱلْكَرِيمُ ٱلنَّسَبِ نِسْبَتُهُ يُبَاهِي بِهَا ٱلدِّينُ وَتُزْهَى ٱلسُّيُوفُ .

فَإِنْ نَحْنُ سَمَّيْنَاكَ خِلْنَا سُيُوفَنَا
مِنَ ٱلتِّيهِ فِي أَغْمَادِهَا تَتَبَسَّمُ[1]

أعطاها النبي عليه الصلاة والسلام لأهل الأيلة لتبقى عندهم بركة ، فاشتراها المنصور واتخذها فى شعار الخلافة موضع البردة التى كانت عند الأمويين.
وقال أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذرى المؤرخ المشهور يمدح الخليفة المستعين بالله العباسى :

ولو أن برد المصطفى اذ لبسته ... يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال ــ وقد أعطيته ولبسته ــ ... نعم هذه أعطافه ومناكبه

وقال الشريف الموسوى النقيب من قصيدة يمدح بها الخليفة الطائع :

لما رآك رأى النبي محمدا ... فى بردة الاجلال والاعظام

(١) هو لأبى الطيب المتنبى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة بن حمدان سنة ٣٣٨ مطلعها :

***

مضمون الكتاب

وَمِمَّا أَفَادَهُ الْكِتَابُ مِنَ الْمُبْهِجِ بِطِيبِ أَنْبَائِهِ ، نَصُّ عَلَامَةِ سَيِّدِنَا صَلَوَاتُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ ، فَإِنَّهَا تَضَمَّنَتْ صِفَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَدَلَّتْ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَعْمَالَ ، وَأَشْعَرَتْنَا مَعْشَرَ الْعَبِيدِ بِعِنَايَةٍ سَبَقَتْ بِالْمَقَامِ الْمُجَاهِدِيِّ الْمُتَوَكِّلِيِّ ـ أَحْسَنَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ـ ، حِينَ تَوَلَّى خِلَافَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ـ ، فَإِنَّهُ لَمَّا شَايَعَهُ بِعَزِيمَةٍ مُسَاعِدَةٍ ، وَنِيَّةٍ فِي مَشَارِعِ (١) الصَّفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ وَارِدَةٍ ، الْهِمَ زِيَادَةً فِي الْعَلَامَةِ شَارَكَتِ الْإِمَامَةَ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ ،

اذا كان مدح فالنسيب مقدم ... أ كل فصيح قال شعرامتيم؟

يقول اذا نحن دعونا باسمك (سيف) خلنا سيوفنا تتيه عجبا وتزهى دلالا وكبرا بمشاركتك لها فى التسمية فهى تبتسم تيها وفخرا واعجابا بنفسها فحقرت بذلك السلاح والرماح ، وهو من قول أبى نواس:

تتيه الشمس والقمر المنير ... اذا قلنا كأنهما الأمير

(١) جمع مشرعة ، وهى الشريعة أى مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون ويكون ماؤها عدا لاينقطع وظاهرا معينا لاينضب. وشرع الوارد اذا تناول الماء .

فَهٰذِهِ كَرَامَةٌ فِى ٱلْعَلَامَةِ ، هِىَ عَلَامَةُ ٱلْكَرَامَةِ ، وَهِبَةٌ مِنْ مَوَاهِبِ ٱلْكَشْفِ يَجِدُهَا مَنِ ٱمْتَثَلَ قَوْلَهُ « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » فَكَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلِاسْتِقَامَةِ . وَتَضَمَّنَ ٱلْكِتَابُ ٱلْكَرِيمُ بَيْعَةَ أَهْلِ جَيَّانَ وَمَا مَعَهَا ، وَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْبَشَائِرَ وَمَا تَبِعَهَا ، لَفُرُوعٌ عَنْ هٰذَا ٱلْأَصْلِ ٱلصَّحِيحِ ، وَأَقْيِسَةٌ مِنْ هٰذَا ٱلنَّصِّ ٱلصَّرِيحِ ، بِأَدِلَّةِ ٱلْخِلَافِ[1] قَدِ ٱسْتَقَلَّتْ ، وَشُبْهَةُ ٱلْخِلَافِ قَدْ بَطَلَتْ وَٱضْمَحَلَّتْ . وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى أَنْ مَنَحَ جَزِيلَ ٱلنَّعْمَاءِ ، وَشَرَحَ بِالْيَقِينِ صُدُورَ ٱلْأَوْلِيَاءِ ، وَشَرَّفَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ بِإِمَامَةِ نَجْلِ ٱلْأَئِمَّةِ ٱلْخُلَفَاءِ ، وَٱبْنِ عَمِّ سَيِّدِ ٱلرُّسُلِ وَخَاتَمِ ٱلْأَنْبِيَاءِ . وَٱلْعَبِيدُ يُهَنِّئُونَ بِهٰذِهِ ٱلنِّعَمِ ، ٱلَّتِى لَا يَسْتَقِلُّ بِذِكْرِهَا قَلَمٌ ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَمٌ مِنْ وَصْفِهَا إِلَّا بَدَا عَلَمٌ[2] ، وَبِهِمْ مِنَ ٱلْأَشْوَاقِ إِلَى مُشَاهَدَةِ ٱلْمَعَالِمِ ٱلسَّنِيَّةِ ،

---

(١) كذا بالأصل و يصح أن يكون أصل العبارة فأدلة الخلافة ، وقد ابتدأ ابن الخطيب بعض رسائله بقوله : الخلافة التى ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف الخ (٢) من قول جرير :

اذا قطعن علما بدا علم حتى تناهين بنا الى الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم فى ضنضئ المجد وبؤبؤ الكرم

أى اذا فرغنا من أمر حدث أمر آخر . يريد أن وصفها لانهاية له .

وَلَثْمِ الْيَمِينِ الطَّاهِرَةِ الْعَلِيَّةِ ، مَا أَكَّدَهُ دُنُوُّ الدَّارِ ، وَجَدَّدَهُ مَا تَجَدَّدَ لِلْمَقَامِ الْعَالِي الْمُتَوَكِّلِيِّ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى الْجَلِيلَةِ الْمِقْدَارِ ، وَالشَّاهِدَةِ لَهُ بِإِسْعَادِ الْأَيَّامِ وَإِسْعَافِ الْأَقْدَارِ ، فَلَوْ أَمْكَنَهُمُ الْإِقْدَامُ لَأَقْدَمُوا ، وَلَوْ وَجَدُوا رُخْصَةً فِي الْمَسِيرِ لَعَزَمُوا ، وَهُمْ يَسْتَلِمُونَ[1] الْبِسَاطَ الْأَشْرَفَ تَوَهُّمًا ، وَمِنْ أَمَلِهِمْ أَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ قَدِ اسْتَلَمُوا . انْتَهَى .

وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ الدَّوْلَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ خُطِبَ لَهَا بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ أَعَادَهَا اللهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّ مَا جَلَبْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ مُنَاسِبٌ لِلْمَقَامِ ، فَلَا انْتِقَادَ وَلَا مَلَامَ

***

مخاطبة صاحب الاندلس الى السلطان المنصور

« وَقَدْ رَأَيْتُ » أَنْ أَذْكُرَ هُنَا مُخَاطَبَةً صَدَرَتْ مِنَ الْغَنِيِّ بِاللهِ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى السُّلْطَانِ الْمَنْصُورِ أَحْمَدَ ابْنِ السُّلْطَانِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ مِنْ إِنْشَاءِ الْوَزِيرِ

(١) استلم الحجر : لمسه اما بقبلة أو باليد ومسحه بكفه (مأخوذ من السلام وهو الحجر ، أو من السلام أى التحية ، فيكون معناه اللمس باليد تحريا لقبول السلام منه تبركا به)

الْكَبِيرِ لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ ، رَحِمَهُ اللهُ ، لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْدَلُسِ ، وَنَصُّهَا :

***

مخاطبة الغنى بالله صاحب الاندلس الى السلطان ابن قلاوون

الْأَبْوَابُ الَّتِي تُفْتَحُ لِنَصْرِهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَتُسْتَدَرُّ(١) مِنْ آفَاقِهَا سَحَابُ النَّعْمَاءِ ، وَتُجْلَى بِأَنْوَارِ سَعْدِهَا دَيَاجِي الظَّلْمَاءِ ، وَتُعَرَّفُ نَكِرَةُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ بِالِانْتِسَابِ إِلَى مَحَبَّتِهَا وَالِانْتِمَاءِ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْعُرُوضِ وَتَبَايُنِ الْحُدُودِ وَتَعَدُّدِ الْأَسْمَاءِ ، وَيُجْتَزَأُ مِنْ صِلَاتِ صَلَاتِهَا(٢) عِنْدَ الْمَوَانِعِ مِنْ كَمَالِ حَالَاتِ صِفَاتِهَا بِالْإِيمَاءِ ، وَتَحْمِلُ لَهَا التَّحِيَّةَ ذَوَاتُ الدُّسُرِ(٣) وَالْأَلْوَاحِ

---

(١) استدر الماء واللبن والدمع اذا كثر وسال جاريا ، واستدر الحلوبة : طلب درها ، والريح تدر السحاب وتستدره أى تستحلبه ، والاستدرار أيضا أن تمسح الضرع بيدك ثم يدر اللبن و يجرى (٢) صلات جمع صلة ، والصلاة الغرض منها الرحمة والدعاء و رضا سلطان مصر ، يعنى أن يكتفى منها بالقليل اذا عز الكثير ، بل ان قليلها كثير — وهنا عرض لتوجيهات فقهية كما عرض قبلها لتوجيهات منطقية ونحوية . (٣) الدسر : المسامير جمع دسار : وذوات الدسر والألواح : السفينة ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر ». والدسار أيضا حبل من ليف تشد به ألواح السفينة

طَاعِنَــةً نَحْرَ ٱلصَّبَاحِ عَلَى كَتَدِ[١] ٱلمَاءِ ، أَبْوَابُ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْــكَبِيرِ ، ٱلْجَلِيلِ ٱلشَّهِيرِ ، ٱلطَّاهِرِ ٱلظَّاهِرِ ، ٱلْأَوْحَدِ ٱلْأَسْعَدِ ، ٱلْأَصْعَدِ ٱلْأَمْجَدِ ، ٱلْأَعْلَى ٱلْعَادِلِ ، ٱلْعَالِمِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْـكَامِلِ ، سُلْطَانِ ٱلْإِسْلَامِ وَٱلْمُسْلِمِينَ ، عِمَادِ ٱلدُّنْيَا وَٱلدِّينِ ، رَافِعِ ظِلَالِ ٱلْعَدْلِ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ، جَمَالِ ٱلْإِسْلَامِ ، عَلَمِ ٱلْأَعْلَامِ ، فَخْرِ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ ، مَلِكِ ٱلْبَرَّيْنِ وَٱلْبَحْرَيْنِ ، إِمَامِ ٱلْحَرَمَيْنِ مُؤَمِّنِ ٱلْأَمْصَارِ وَٱلْأَقْطَارِ ، عَاصِبِ[٢] تَاجِ ٱلْفَخَارِ ، هَازِمِ ٱلْفِرَنْجِ وَٱلتُّرْكِ وَٱلتَّتَارِ ، ٱلْمَلِكِ ٱلْمَنْصُورِ ٱبْنِ ٱلْأَمِيرِ ٱلرَّفِيعِ ٱلْجَادَّةِ[٣] ، ٱلْــكَرِيمِ ٱلْوِلَادَةِ ، ٱلطَّاهِرِ ٱلظَّاهِرِ ، ٱلْــكَبِيرِ ٱلشَّهِيرِ ،

---

(١) الـكتد : مجتمع الـكتفين من الانسان وغيره ، أو هو أعلى الـكتف ، او هو الـكاهل او ما بين الـكاهل الى الظهر ، والثبج مثله ، تقول : نحمله على الأكباد فضلا عن الأكتاد (٢) عصب : شد ، وعصب التاج والعمامة شده (واسم ماشد به العصابة ، والتاج يسمى عصابة وكذا العمامة) قال عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قد عصبوه بتاج الملك يحمى المجحرينا

فجعل الملك معصبا لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التى عصبت برأس لابسها . واعتصب التاج على رأسه اذا استكف به ، ومنه قول ابن قيس الرقيات :

يعتصب التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

(٣) الجادة : سواء الطريق والمسلك .

اَلْمُعَظَّمِ اَلْمُمَجَّدِ اَلْأَسْمَى ، اَلْمُوَقَّرِ اَلْأَعْلَى ، فَخْرِ اَلْمِلَّةِ، سَيْفِ اَلْمِلَّةِ، تَاجِ اَلْإِمَارَةِ،عِزِّ اَلْإِسْلَامِ ، مُسْتَظَلِّ اَلْأَنَامِ ،قَمَرِ اَلْمَيْدَانِ، أَسَدِ اَلْحَرْبِ اَلْعَوَانِ(١) اَلْمُقَدَّسِ اَلْمُطَهَّرِ، اَلْأَمِيرِ أَحْمَدَ اَبْنِ وَالِدِ اَلسَّلَاطِينِ ، وَمَالِكِ اَلْمُسْلِمِينَ ، وَسَيْفِ خِلَافَةِ اَللَّهِ عَلَى اَلْعَالَمِينَ ،وَوَلِيِّ اَلْمُؤْمِنِينَ ، سُلْطَانِ اَلْجِهَادِ وَاَلْحَجِّ ، وَمُقِيمِ رَسْمِ اَلْعَجِّ(٢) وَاَلثَّجِّ ، مُحْيِي مَعَالِمِ اَلدِّينِ ، قَامِعِ اَلْمُعْتَدِينَ ، قَاهِرِ اَلْخَوَارِجِ وَاَلْمُتَمَرِّدِينَ ، نَاصِرِ اَلسُّنَّةِ ، مُحْيِي اَلْمِلَّةِ ، مَلِكِ اَلْبَرَّيْنِ وَاَلْبَحْرَيْنِ ، سُلْطَانِ اَلْحَرَمَيْنِ ، اَلْمَلِكِ اَلْعَادِلِ ، اَلْعَالِمِ اَلْعَامِلِ ، اَلْمَنْصُورِ اَلْمُؤَيَّدِ ، اَلْمُعَانِ اَلْمُرَفَّعِ اَلْمُعَظَّمِ اَلْمُبَجَّلِ اَلْمُؤَمَّلِ ، اَلْمُجَاهِدِ اَلْمُرَابِطِ اَلْمُغَازِي اَلْمُمَجَّدِ ، اَلْمُكَمَّلِ اَلْمُطَهَّرِ، اَلْكَبِيرِ اَلشَّهِيرِ اَلْمُقَدَّسِ ، اَلْمَلِكِ اَلنَّاصِرِ أَبِي عَبْدِ اَللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ اَلصَّالِحِيِّ . جَعَلَ اَللَّهُ فُسْطَاطَ

---

(١) العوان : من الحرب التى قوتل فيها مرة بعد مرة (٢) العج هنا : رفع الصوت بالتلبية ، والثج: سيلان دم الهدى والأضاحى (يريد رسم الحج) وفى الحديث : « تمام الحج العج والثج »

دَعْوَتِهِ مَعْمُودًا[1] بِعَمُودِ الصُّبْحِ ، وَحَرَكَاتِ عَزْمِهِ مَبْنِيَّةً عَلَى الْفَتْحِ ، وَمُجْمَلَ سَعَادَتِهِ غَنِيًّا عَنِ الشَّرْحِ ، وَجِيَادَ أَوْصَافِهِ مُتَبَارِيَةً فِي مَيْدَانِ الْمَدْحِ ، وَزِنَادَ رَأْيِهِ وَارِيَةً[2] عَلَى الْقَدْحِ ، مِنْ مُوجِبِ حَقِّهِ وُجُوبَ الشَّعَائِرِ الْخَمْسِ ، الْمُرَحِّبِ لِأَجْلِ أُفُقِهِ[3] الشَّرْقِيَّةِ بِوِفَادَةِ[4] الشَّمْسِ ، الْمُجَدِّدِ فِي الْيَوْمِ حُكْمَ مَا تَقَرَّرَ بَيْنَ السَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - بِالْأَمْسِ ، أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَنْدَلُسِ ، عَبْدِ اللهِ الْغَنِيِّ بِاللهِ الْغَالِبِ بِهِ ، مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ ، سَلَامٌ كَرِيمٌ كَمَا زَحَفَتْ رَايَةُ الصُّبْحِ تَقَدَّمُهَا طَلَائِعُ مُبَشِّرَاتِ الرِّيَاحِ ، يُفَاوِحُ أَرَجُهُ أَزَاهِيرَ[5] الْأَدْوَاحِ ، وَيُحَاسِنُ طُرَرَ[6]

(١) عمده يعمده: أقامه بعماد، كأعمده . وعمود الصبح ماتبلج من ضوئه وسطع ، وضرب الفجر بعموده (وهو الصبح المستطير) وفى الحديث : « أول وقت الفجر اذا انشق عمود الصبح » (٢) وارية : موقدة والزناد : جمع زند : وهو ماتقدح به النار - وورى الزند : خرجت ناره ، وفلان وارى الزناد كناية عن نجاحه وظفره ، واستوريته رأيا سألته أن يستخرج لى رأيا أمضى عليه وأستضىء به وقال الشاعر :

وجدنا زند جدهم وريا ... وزند بنى هوازن غير وارى

(٣) الأفق : الناحية ، ويستعمل مفردا وجمعا كالفلك كما قال سيدنا العباس ابن عبد المطلب رضى الله عنه يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

« وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضاءت بنورك الأفق »

(٤) وفادة الشمس : قدومها وورودها . (٥) جمع أزهار جمع زهر ، وفى الأصل (زهير) محرفة (٦) جمع طرة وهى أن يقطع

ٱلْوُجُوهِ ٱلْمِلَاحِ ، يَخُصُّ أُبُوَّتَكُمُ ٱلَّتِي رَتَّبَ ٱلْعِزُّ فُصُولَهَا ، وَعَضَدَتْ نُصُوصُ ٱلنَّصْرِ نُصُولَهَا (١) ، وَرَحْمَةُ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ . أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ فَاتِحَةَ ٱلْقُرْآنِ ، وَخَاتِمَةَ دُعَاءِ أَهْلِ ٱلْجِنَانِ ، وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَوْلَى مِنْ مَوَاهِبِ ٱلْإِحْسَانِ ، حَمْدًا وَشُكْرًا يَسْتَخْدِمَانِ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ مَلَكَتَيِ ٱلْقَلْبِ وَٱللِّسَانِ ، وَٱلصَّلَاةِ وَٱلسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ زَهْرَةِ كِمَامَةِ (٢) ٱلْأَكْوَانِ ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱللُّغَاتِ وَٱلْأَلْوَانِ ، ٱلَّذِي أَذَلَّ بِعِزَّةِ ٱللّٰهِ نُفُوسَ أَهْلِ ٱلطُّغْيَانِ ، وَغَطَّى بِدِينِهِ ٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْأَدْيَانِ ، وَزُوِيَتْ (٣) لَهُ ٱلْأَرْضُ فَرَأَى مُلْكَ أُمَّتِهِ يَبْلُغُ مَا زُوِيَ لَهُ فَكَانَ ٱلْخَبَرُ وَفْقَ ٱلْعِيَانِ ، وَٱلرِّضَا عَمَّنْ لَهُ مِنَ ٱلْأَصْحَابِ وَٱلْأَحْبَابِ

للجارية فى مقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج أو العصابة ، وسمى هذا الشعر طرة لأنها طرت أى قطعت من جملته . وأصل الطرة طرف كل شىء وحرفه ، وعلم الثوب يخاط بجانبى البرد بحاشيته ، والمرأة تطر شعرها : تحفه وتطره حتى يوفى على جبهتها وتصففه ، وطرت الجارية : اتخذت طرة (١) نصول جمع نصل وهو السيف (٢) الكمامة : غطاء الزهر (٣) زويت : طويت .

وَٱلْأَعْمَامِ وَٱلْأَخْوَالِ وَٱلْإِخْوَانِ ، صَلَاةً يُجَدِّدُهَا ٱلْجَدِيدَانِ[١] وَيُمْلِيهَا ٱلْمَلَوَانِ ، وَتَتَزَاحَمُ عَلَى تُرْبَتِهِ ٱلْمُقَدَّسَةِ مَعَ ٱلْأَحْيَانِ ، مَا سَجَعَتْ طُيُورُ ٱلْبَرَاعَةِ مِنْ أَعْوَادِ ٱلْيَرَاعَةِ عَلَى ٱلْأَفْنَانِ ، وَٱلْتَفَتَتْ عُيُونُ ٱلْمَعَانِى مَا بَيْنَ أَجْفَانِ ٱلْبَيَانِ ، وَٱلدُّعَاءِ لِأَبْوَابِكُمْ ٱلشَّرِيفَةِ جَعَلَ ٱللهُ تَعَالَى عِصْمَتَهُ تُقِيمُ بِهَا وَظِيفَتَىِ ٱلْحِجَابَةِ وَٱلِاسْتِئْذَانِ ، وَضَرَبَ بِدَعْوَتِهَا ٱلَّتِى هِىَ لَذَّةُ ٱلْإِقَامَةِ وَٱلْأَذَانِ عَلَى ٱلْآذَانِ[٢] ، وَٱسْتَخْدَمَ بُرُوجَ ٱلْفَلَكِ ٱلدَّوَّارِ فِى أَمْرِهَا ٱلْعَزِيزِ ٱسْتِخْدَامَ ٱلْأَنْصَارِ وَٱلْأَعْوَانِ ، حَتَّى يُعْلَمَ مَا فِى ٱلْمُدَافَعَةِ عَنْ حِمَاهَا مَخَالِبَ ٱلسِّرْحَانِ[٣] ، وَفِى

(١) الجديدان : الليل والنهار وكذا الملوان (٢) يدعو لدعوته الاسلامية أن تطرق كل أذن وتؤثر فى كل سمع (٣) السرحان فى الأصل الذئب والأسد ، ويطلق على بعض الكواكب، وذنب السرحان : الفجر الكاذب والميزان معروف ، ومن معانيه العدل ، واسم لبرج فى السماء .ومما قيل فى وصفه :

لميزان النجوم عليّ وصف ... وقد قسم الكواكب باعتبار
كجارية تدلت من يديها ... خيوط فى قناديل كبار

والزهرة كوكب أبيض مضيء سميت بذلك لضيائها واشراق نورها من الأزهار وهو الاشراق والانارة . ومنه أزهر الصبح أى أنار وأشرق. ومما قيل فى وصفها:

لاح الهلال فويق مغربه ... والزهرة الغراء لم تغب

ٱلْإِشَادَةِ بِعَدْلِهَا كَفَّتَيِ ٱلْمِيزَانِ ، وَيُهْدِي لَهَا مِنَ ٱلزُّهْرَةِ كُرَةَ ٱلْمَيْدَانِ ، وَمِنَ ٱلْهِلَالِ عِوَضَ ٱلصَّوْلَجَانِ[1] وَأَبْقَى فِي عَوَامِلِهَا ضَمِيرَ ٱلْأَمْرِ وَٱلشَّانِ ، إِلَى يَوْمِ تَعْنُو[2] وُجُوهُ ٱلْمُلُوكِ إِلَى ٱلْمَلِكِ ٱلدَّيَّانِ ، فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَى تِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ كَتَبَ ٱللهُ لِعَتَبَتِهَا ٱلنُّصْرَةَ ٱلدَّاخِلَةَ ، كَمَا أَخْجَلَ بِمَكَارِمِهَا ٱلسُّحُبَ ٱلْبَاخِلَةَ ، وَجَعَلَ مَفَارِقَ[3] مَنَاصِلِهَا ٱلْمُخْتَضِبَةِ مِنْ نَجِيعِ عِدَاهَا غَيْرَ نَاصِلَةٍ ، وَقَرَنَ بِكُلِّ سَبَبٍ مِنْ أَضْدَادِهَا فَاصِلَةً[4] مِنْ دَارِ مُلْكِ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلْأَنْدَلُسِ حَمْرَاءِ

وهوى دوين مغيبها فهوت تبكي بدمع غير منسكب
فكأنها أسماء باكية عند انفصام سوارها الذهب

(١) الصولجان : العصا المعقوفة الرأس يعطف طرفها يضرب بها الكرة وكانت الكرة والصولجان من شارات الملك (٢) تعنو : تخضع (٣) المفارق : جمع مفرق : موضع فرق الشعر . والمنصل : السيف . والنجيع : الدم . ونصل الشعر : خرج من الخضاب وعاد الى لونه ، والناصل أيضا مالا نصل له ، ففيه تورية مثل كثير من الألفاظ في هذه الرسالة — والغرض الدعوة بدوام غزو الأعداء وجهادهم والنيل منهم (٤) السبب معروف ، والسبب أيضا من مصطلحات علم العروض كالفاصلة ، والفاصل القاضي بين الحق والباطل . والفصل القطع وابانة أحد الشيئين عن الآخر ، وطعنة فاصلة وفيصل : تفصل بين القرنين وتفرق بينهما . والفاصلة

غَرْنَاطَةَ ـ وَصَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَادَةَ الدِّفَاعِ عَنْ أَرْجَائِهَا ، وَشَدَّ بِأَيْدِي الْيَقِينِ عُرَا أَمَلِهَا فِي اللهِ وَرَجَائِهَا ، حَيْثُ الْمَصَافُّ[1] الْمَعْقُودُ ، وَثَمَنُ النُّفُوسِ الْمَنْقُودُ ، وَنَارُ الْحَرْبِ ذَاتُ الْوَقُودِ ، حَيْثُ الْأُفُقُ قَدْ تَرَدَّى بِالْقَتَامِ[2] وَتَعَمَّمَ ، وَالسَّيْفُ قَدْ تَجَرَّدَ[3] وَتَيَمَّمَ ، وَغُبَارُ الْجِهَادِ يَقُولُ : أَنَا الْأَمَانُ مِنْ دُخَانِ جَهَنَّمَ ، حَيْثُ الْإِسْلَامُ مِنْ عَدُوِّهِ كَالشَّامَةِ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ ، وَالتَّمْرَةِ مِنْ أَوْسُقِ[4] الْعِيرِ . حَيْثُ الْمَصَارِعُ[5] تَتَزَاحَمُ

الصغرى فى العروض هى السببان المقرونان (فنى كلمتى سبب ، وفاصلة توجيه وتورية) والغرض أن سيوف جند السلطان لاتترك سببا من أسباب الأعداء الاقضت عليه (١) المصاف جمع المصف : موضع الصف فى الحرب (٢) القتام : الغبار ، ويريد هنا الغبار المثار فى ميادين الحروب (٣) تجرد السيف : استل من غمده ، وتجرد للأمر اذا جد فيه ، ومنه تجرد للعبادة وتجرد بالحج : تشبه بالحاج ، وفى حديث عمر : «تجردوا بالحج وان لم تحرموا» أى تشبهوا بهم وان لم تكونوا حجاجا . وتجرد من ثيابه للاحرام فى الحج . وتيمم : قصد وتيمم الصعيد للصلاة ، وأصله التعمد والتوخى أى يقصد الصعيد الطيب : أى التراب الطاهر ، ثم كثر استعمال هذه الكلمة حتى صار التيمم حقيقة لمسح الوجه واليدين بالتراب ، ولما كان السيف يقتحم الغبار ويشقه ويخوض فيه جعله متيمما . ويصح أنه يتيمم الأعداء أى يقصدهم للفتك بهم والقضاء عليهم (٤) أوسق : جمع وسق : وهو حمل البعير ، والعير : القافلة ، والابل التى تحمل الميرة . (٥) مصارع : جمع مصرع : مكان الصرع والقتل فى الحرب .

الْحُورُ عَلَى شُهَدَائِهَا ، وَالْأَبْطَالُ يَعْلُو بِالتَّكْبِيرِ مَسْمَعُ نِدَائِهَا . حَيْثُ الْوُجُوهُ الضَّاحِكَةُ الْمُسْتَبْشِرَةُ قَدْ زَيَّنَتْهَا الْكُلُومُ[1] بِدِمَائِهَا . وَإِنَّ هٰذَا الْقُطْرَ الَّذِى مُهِّدَتْ لِسِيَاسَتِنَا أَكْوَارُ[2] مَطَايَاهُ ، وَجُعِلَتْ بِيَدِنَا — وَالْمِنَّةُ لِلّٰهِ — عِيَابُ[3] عَطَايَاهُ ، قُطْرٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ ، مُرْبٍ[4] يَوْمُهُ فِي الْبِرِّ عَلَى أَمْسِهِ ، زَكِيُّ الْمَنَابِتِ ، عَذْبُ الْمَشَارِبِ ، مُتَمِّمُ الْمَآمِلِ ، مُكَمِّلُ الْمَآرِبِ ، فَارِهُ الْحَيَوَانِ ، مُعْتَدِلُ السُّحَنِ[5] وَالْأَلْوَانِ ، وَسِيطَةٌ فِى الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ، شَاهِدَةٌ لِلّٰهِ بِإِحْكَامِ الصَّنْعَةِ . أَمَّا خَيْلُهُ فَفَارِهَةٌ ، وَإِلَى الرَّكْضِ[6] شَارِهَةٌ ، وَأَمَّا سُيُوفُهُ فَلِمَوَاطِنِ الْغُمُودِ كَارِهَةٌ ، وَأَمَّا أَسَلُهُ[7] فَمُتَدَارِكَةُ الْخَطْفِ ، وَأَمَّا عَوَامِلُهُ[8] فَبَيِّنَةُ الْحَذْفِ

---

(١) الكلوم : الجروح (٢) جمع كور : الرحل بأداته للبعير كالسرج وآلته للفرس (٣) عياب : صناديق ، والعيبة أيضا الحقيبة زبيل من أدم يجعل فيه الزرع المحصود (٤) أربى عليه : زاد (٥) السحن جمع السحنة : الهيئة واللون (٦) الركض : حث الحصان على الجرى ، والعدو السريع (٧) الأسل : الرماح (٨) عامل الرمح وعاملته : صدره دون السنان ،

وَأَمَّا نِبَالُهُ فَمَحْذُورَةُ الْقَذْفِ ، إِلَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ بِهِ فِي سَفَطٍ[١] مَعَ الْحَيَّاتِ ، وَذَرِيعَةٌ[٢] لِلْمَنِيَّاتِ الْوَحِيَّاتِ ، وَهَدَفٌ[٣] لِلنِّبَالِ ، وَأُكْلَةٌ لِلشِّبَالِ[٤] ، تَطَؤُهُمُ الْغَارَاتُ الْمُتَعَاقِبَةُ ، وَتُخِيفُهُمُ الْحُدُودُ الْمُصَاقِبَةُ[٥] ، وَتَجُوسُ خِلَالَهُمُ الْعُيُونُ[٦]

وقيل ان السنان نفسه عامل ، ويقال الرمح بعامله والفرس بعوامله (العوامل : القوائم) (١) السفط : مايعبأ فيه الطيب ونحوه كالجوالق والقفة ، ومر أعرابى بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يدفن فقال :

هلا جعلتم رسول الله فى سفط   من الألوة أحوى ملبسا ذهبا

ويروى :

ألا دفنتم رسول الله فى سفط   من الألوة والكافور منضود

ويروى هذا البيت الثانى لحسان بن ثابت « الألوة : العود يتبخر به »
ولأبى حامد محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى الغرناطى :

تكتب العلم وتلقى فى سفط   ثم لاتحفظ لاتفلح قط
انما يفلح من يحفظه   بعد فهم وتوق من غلط

ولبعض الأندلسيين فى معنى مايقوله لسان الدين فى الرسالة :

حثوا رواحلكم ياأهل أندلس   فما المقام بها الا من الغلط
من جاور الشر لم تؤمن بوائقه   كيف الحياة مع الحيات فى سفط

(٢) الذريعة : الوسيلة والسبب ، والوحى : السريع العاجل (٣) الهدف : كل مايقصد بالرمى (٤) الشبال : جمع شبل وهو ولد الأسد (٥) أى المجاورة الملاصقة. وصاقبهم : قاربهم وواجههم، وفى الحديث : « الجار أحق بصقبه » أراد الملاصقة والقرب أى بما يليه ويقرب منه والمراد به الشفعة . وقد تكون (تخيفهم) محرفة عن (تتحيفهم) أى تنتقصهم من حيفهم أى من نواحيهم وأطرافهم (٦) الجوس: التردد خلال الدور والبيوت فى الغارة

ٱلْمُرَاقِبَةُ ، وَتُرِيبُ(١) مِنْ أَشْكَالِ مُخْتَطِّهِمْ إِلَّا أَنْ يَتَفَضَّلَ ٱللَّهُ بِحُسْنِ ٱلْعَاقِبَةِ ، فَلَيْسَ إِلَّا ٱلصَّبْرُ ، وَٱلضَّرْبُ ٱلْهَبْرُ(٢) وَٱلْهَمْزُ(٣) وَٱلنَّبْرُ(٤) ، وَٱلْمُقَابَلَةُ وَٱلْجَبْرُ(٥) ، وَقَدْ حَالَ ٱلْبَحْرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِ مِلَّتِهِمْ ، وَأُسَاةِ(٦) عِلَّتِهِمْ ، يَقُومُونَ بِهَذَا ٱلْفَرْضِ عَنْ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ ، وَيُقْرِضُونَ مَلِكَ يَوْمِ ٱلْعَرْضِ

قال تعالى : « فجاسوا خلال الديار » أى ترددوا بينها للغارة ، أو قتلوكم بين بيوتكم ، أو فطافوا فى خلال الديار ينظرون هل بقى أحد لم يقتلوه ، وجاسوا وحاسوا بمعنى واحد يذهبون ويجيئون ، والعيون : الجواسيس يترصدون و يتجسسون الأخبار . وخلال الديار : ماحوالها وما بين بيوتها (١) رابه الأمر : نابه وأصابه وأدخل عليه شرا وخوفا . والريب صرف الدهر وحادثه ،ولعلها محرفة عن (وترتب) توجيه فى علم المنطق ، هو أن الافرنج يرتبون مقدمات الأشكال لتكون النتيجة الاستيلاء على البلاد فهم يستعدون بكل جهد ويفكرون فى كل وسيلة موصلة (٢) ضرب هبر وهبير : أى هابر قاطع من اللحم قطعا (٣) الهمز : الدفع والضرب والكسر (٤) طعن نبر : مختلس سريع ، كأنه ينبر الرمح عنه أى يرفع بسرعة ، ومنه قول على : اطعنوا النبر وانظروا الشزر ، أى اختلسوا الطعن (٥) فى كلتا الكلمتين تورية وتوجيه بعلم الجبر والمقابلة المعروف (٦) جمع آس ، وأسا الجرح يأسوه : عالجه وداواه ، والآسى : الطبيب

أَحْسَنَ ٱلْقَرْضِ ، فَلَوْلَا بُعْدُ ٱلْمَدَى ، وَغَوْلُ[1] ٱلرَّدَى ، وَلَغَطُ[2] ٱلْعِدَا، وَمَا عَدَا[3] مِمَّا بَدَا ،لَسَمِعْتُمْ تَكْبِيرَ ٱلْحَمَلَاتِ وَزَئِيرَ تِلْكَ ٱلْقِلَّاتِ[4] ،وَدَوِيَّ ٱلْحَوَافِرِ ،وَصَلِيلَ ٱلسُّيُوفِ مِنْ فَوْقِ ٱلْمَغَافِرِ[5] ، وَصُرَاخَ ٱلثَّكَالَى[6] وَٱرْتِفَاعَ ٱلْأَدْعِيَةِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ، وَلَوِ ٱرْتَفَعَ هٰذَا ٱلْمَكَانُ ، وَهُوَ ٱلْأَوْلِيَاءِ

---

(١) غاله : أهلكه وأخذه من حيث لايدرى ، وغالتهم تلك الأرض اذا هلكوا فيها . والغول : الخيانة أيضا. والغول: الهلكة والمنية (٢) اللغط : الصوت والجلبة والضوضاء ، وأصوات مبهمة لاتفهم (٣) ما عدا مما بدا : هذا مثل أى مامنعك مما ظهر لك أولا ، وفى حديث على رضى الله عنه أنه قال لطلحة أو الزبير يوم الجمل : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق فما عدا مما بدا ؟ وذلك أنه كان بايعه بالمدينة وجاء يقاتله بالبصرة، أى ما الذى صرفك ومنعك وحملك على التخلف بعد ما ظهر منك من التقدم فى الطاعة والمتابعة ؟ ، أو ما الذى بدا لك منى فصرفك عنى ، وقال ابن عنين

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا   أرسلت سهم الحادثات فأقصدا

(٤) القلات :جمع قلة خلاف الكثرة وقد تقدم قوله : حيث الأسلام من عدوه كالشامة من جلد البعير الخ شبه هذه القلة بالأسود ، «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » أو قلات جمع قلة وهى الجماعة يجتمعون جمعا (٥) المغافر : جمع مغفر وهو غطاء للرأس يلبس تحت القلنسوة فى الحرب (٦) الثكالى : جمع الثكلى وهى التى فقدت ولدها الوحيد

مِثْلِكُمْ مِنْ حَيِّزِ الْإِمْكَانِ ، لَمَقَلْتُمْ(١) مُقَلَ الْأَسِنَّةِ الزُّرْقِ ، حَالَّةً مِنْ أَطْرَافِ قَصَبِ الرِّمَاحِ مَحَالَّ الْوُرْقِ(٢) ، وَأَبْصَرْتُمُ الْقَنَا الْخَطَّارَ قَدْ عَادَ أَخِلَّةً(٣) ، وَالسُّيُوفَ قَدْ صَارَتْ فَوْقَ بُدُورِ الْخُوَذِ(٤) أَهِلَّةً ، وَعُقُودَ الشَّهَادَةِ عِنْدَ قَاضِي السَّعَادَةِ مُسْتَقِلَّةً(٥) ، وَكَانَ كَمَا تَحْضُرُهُ عُلُومُكُمُ الشَّرِيفَةُ حَدَقَ(٦) سُورِ الْفَتْحِ ، وَآخِرَ وِلَاءِ ذَلِكَ الْمَنْحِ ، عُرِضَ

(١) مقلتم : نظرتم ، مأخوذ من المقلة وهي الحدقة وشحمة العين التي تجمع السواد والبياض (٢) شبه أسنة الرماح في أطرافها بالحمائم الورق فوق أطراف الغصون في الارتفاع والحركة والصوت ، وكأن هؤلاء الفرسان الأسود يطربها عمل الأسنة في الأعداء كما يطرب سجع الحمائم . وأنهم شغلوا عن السماع والطرب بالجهاد والحرب . ويقال أيضا : نصل أورق وهو الذي برد أو جلي ثم لوح بعد ذلك على الجمر حتى اخضر (٣) رمح خطار : يهتز اهتزازا شديدا . وأخلة : جمع خلال — : العود الذي يتخلل به ، شبه الرماح بها في دقتها ، وأشار بذلك أيضا الى أنهم كانوا يوجرون أعداءهم الرماح أي يطعنونهم بها في أفواههم (٤) الخوذ جمع الخوذة : المغفر (معرب) وفي الأصل خود وهو تحريف . وجعل السيوف أهلة اشارة لانحنائها وتقوسها من كثرة عملها والضرب بها وهو من قول الشاعر :

فآبوا بالرماح مكسرات ‏‏ وأبنا بالسيوف قد انحنينا

(٥) أي مرتفعة ذاهبة (٦) كذا بالأصل وربما كان محرفا عن (خندق) وهو حفير حول أسوار المدن ، أو تكون محرفة عن (حرف) أي آخر وطرف ونهاية ،

عَلَى الْفَارُوقِ فَاحْتَاطَ(١)، وَأَغْرَى بِهِ مَنْ بَعْدَهُ

(١) احتاط الرجل أخذ فى أموره بالأحزم ،واحتاط الرجل لنفسه أى أخذ بالثقة ، واشتاط واستشاط : غضب . ويظهر أن هذين الفعلين (احتاط ، واشتاط) مبدلان قد وضع كلاهما فى مكان الآخر وإن لم يكن ذلك واجبا متعينا فان الذى غضب عمر والذى أغرى فاحتاط عثمان وذلك أن معاويةبن أبى سفيان ألح على سيدنا عمر فى أيام ولايته على الشام أن يأذن له فى غزو البحر ، فكتب عمر الى عمرو بن العاص : صف لى البحر وراكبه فان نفسى تنازعنى اليه . فكتب اليه عمرو : انى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ان ركن خرق القلوب، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، ليس الا السماء والماء، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق، وان نجا برق . فلما قرأه عمر كتب الى معاوية : لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا ، وكيف أحمل الجنود فى هذا الكافر المستصعب ؟ ! وتالله لمسلم أحب الى مما حوت الروم ، فاياك أن تعرض لى وقد تقدمت اليك ، وقد علمت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم اليه فى مثل ذلك . فلما ولى سيدنا عثمان لم يزل به معاوية حتى عزم عثمان على ذلك بأخرة (بعد احتياط وروية وتدبر وتفكير) وقال لمعاوية : لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه . ففعل . فكان معاوية أول من غزا فى البحر فى زمن عثمان بن عفان ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة فغزاه خمسين غزاة مابين شاتية وصائفة فى البحر. وفى سنة ٢٥ وجه عبد الله بن سعد بن أبى سرح الخيل الى المغرب ، وكان عمرو بن العاص قد بعث قبل ذلك اليه بعثا فأصابوا غنائم ، وكتب عبد الله الى عثمان يستأذنه فى الغزو الى افريقية فأذن له ، (وفى سنة ٢٧ فتح عبد الله افريقية وكان عبد الله بن أبى سرح من

فَاشْتَاطَ ، وَسَرَحَتْ خَيْلُ ابْنِ أَبِي سَرْحٍ ، فِي خَبَرٍ يَدْعُو إِلَى شَرْحٍ ، حَتَّى إِذَا وَلَدُ مَرْوَانَ تَقَلَّدُوا كُرَتَهَا الَّتِي هَوَتْ ، وَقَضِمُوا[1] مَا أَنْضَجَتْ وَرَثَةُ الْحَقِّ وَشَوَتْ ، وَيَدُهُمْ عَلَى الْأَمْرِ احْتَوَتْ ، وَفَازَتْ مِنْهُ بِمَا نَوَتْ ، نَقَلَ وَلَائِدَهُ[2] الْوَلِيدَ ،

جند مصر فأمره عثمان على جنده وأمده بالرجال وسرحه الى افريقية وسرح معه عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين وقال لعبد الله بن سعد : ان فتح الله عز وجل غدا افريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلا ، وأمر العبدين على الجند ورماهما بالرجال وسرحهما الى الأندلس ، فأتياها من قبل البحر ، وخرجوا ومعهم البربر فأتوها من برها وبحرها ففتحها الله على المسلمين . وفى سنة ٢٨ غزا معاوية قبرس وغزاها أهل مصر وعليهم عبد الله ابن سعد بن أبى سرح حتى لقوا معاوية فكان على الناس وصالح أهلها . وفى سنة ٣٢ غزا معاوية مضيق القسطنطينية ومعه زوجته عاتكة ابنة قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف . وفى سنة ٣٣ غزا عبد الله ابن سعد بن أبى سرح افريقية مرة ثانية حين نقض أهلها العهد . ومات عثمان سنة ٣٥ وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزارى ــ وفى سنة ٥٣ تم فتح جزيرة رودس فتحها جنادة بن أمية الأزدى فنزلها المسلمون وعمروها . « أحمد نجاتى » . (١) قضم (كسمع) أكل بأطراف أسنانه ، أو بأطراف أضراسه ، أو قضم : أكل يابسا بمقدم الفم (وخضم أكل رطبا) (٢) جمع وليدة : الجارية والصبية الصغيرة ، مذكره وليد ، وقيده بعضهم بمن يولد فى الرق . وتطلق الوليدة على الجارية والأمة والشابة

وَجَلَبَ لَهُ ٱلطَّرِيفَ وَٱلتَّلِيدَ . وَطَرَقَتْ خَيْلُ طَارِقٍ ، وَضَاقَتْ عَنْ أَخْبَارِهِ ٱلْمَهَارِقُ[1] وَجَلَّتِ ٱلْفَائِدَةُ ، وَظَهَرَ عَلَى ٱلذَّخِيرَةِ ٱلَّتِي مِنْهَا ٱلْمَائِدَةُ ، ثُمَّ ٱسْتَرْسَلَ ٱلْمَهَبُّ[2] ، وَنَصَرَ ٱلرَّبُّ ، وَيَكْثُرُ ٱلطَّيْرُ حِينَ يُنْثَرُ ٱلْحَبُّ[3] ، وَصَرَفَتْ أَشْرَافُ ٱلشَّامِ أَعِنَّتَهَا إِلَى ٱلْتِمَاسِ خَيْرِهِ ، وَطَارَتْ بِأَجْنِحَةِ ٱلْعَزَائِمِ تَيَمُّنًا بِطَيْرِهِ[4] ، وَقَصَدَتْهُ ٱلطَّلَائِعُ صُحْبَةَ بَلْجِ بْنِ بِشْرٍ

وان كانت كبيرة ، وقيل الوليدة : المولودة بين العرب وتسمى أيضا وصيفة — والوليد : هو الوليد بن عبد الملك بن مروان (١) المهارق : جمع مهرق وهى الصحيفة (٢) من معانى هب : سار ونشط وأسرع ، ومن المجاز : هب فلان حينا ثم قدم ، أى غاب دهرا ثم قدم — يشير الى توافد العرب الى بلاد الأندلس (٣) من قول بشار بن برد :

يكثر الطير حيث ينتثر الحب م وتغشى منازل الكرماء

(٤) من المجاز : الطائر والطير : ماتيمنت به أو تشاءمت ، وأصله فى ذى الجناح ، والطائر : الحظ والبخت ، تقول العرب : جرى له الطائر بكذا من الخير أو الشر على طريق الفأل والطيرة على مذهبهم فى تسمية الشىء بما كان له سببا . والطير اسم من التطير ، ومنه قولهم : لاطير الاطير الله كما يقال : لا أمر الا أمر الله . وتيمن به : تبرك ، واليمين واليمن : البركة ضد الشؤم

وَغَيْرِهِ ، فَفُتِحَتِ ٱلْاقْفَالُ ، وَنُفِلَتِ ٱلْأَنْفَالُ (١) ، وَنَجَحَ ٱلْفَالُ ، وَوُسِمَتِ ٱلْأَغْفَالُ (٢) ، وَٱفْتُتِحَتِ ٱلْبِـلَادُ ٱلشَّهِيرَةُ ، وَٱنْتُقِيَتِ ٱلْعَذَارَى ٱلْخِيَرَةُ (٣) ، وَٱقْتُنِيَتِ ٱلذَّخِيرَةُ ، وَتَجَاوَزَ ٱلْإِسْلَامُ ٱلدُّرُوبَ وَتَخَطَّى ، وَخَضَدَ ٱلْأَرْطَى (٤) ، وَأَرْكَبَ وَأَمْطَى ، وَٱسْتَوْثَقَ وَٱسْتَوْطَا ، وَتَثَاءَبَ وَتَمَطَّى ، حَتَّى تَعَدَّدَتْ مَرَاحِلُ ٱلْبَرِيدِ ، وَسَخِنَتْ عَيْنُ ٱلشَّيْطَانِ ٱلْمَرِيدِ (٥) ،

---

(١) النفل : الغنيمة ، ونفله النفل ، ونفله وأنفله : أعطاه اياه ، ونفل الامام الجند جعل لهم ماغنموا وسوغهم اياه (٢) جمع غفل : وهو فى الأصل مالا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها ومالا عمارة فيه من الأرضين ، ومالاسمة عليه من الدواب ، ووسم الشىء : أعلمه بعلامة وأثر فيه أثرا (٣) خارت المرأة على صاحبتها خيرا وخيرة : فضلتها ، وخار الشىء انتقاه واختاره كتخيره ، والخيرة : اسم من اختاره عليهم اذا فضله وآثره ، تقول هذه خيرتى : أى ماأخترته واصطفيته (٤) خضد العود : كسره ، وقطعه، وأصل الخضد : كسر الشىء اللين من غير ابانة له ، وخضد الشجر قطع شوكه ــ والأرطى : شجر ينبت بالرمل شبيه بالغضا ينبت عصيا من أصل واحد يطول قدر قامة ورائحته طيبة ، ومنبته الرمل ولهذا أكثر شعراء العرب من ذكر تعوذ بقر الوحش بالأرطى ونحوها من شجر الرمل واحتفار أصولها للكنوس فيها والتبرد بها من الحر والانكراس فيها من المطر دون شجر الجلد، لأن الرمل احتفاره سهل، الانكراس : الاستتار والاتقاء (٥) أى عات متمرد ، وسخونة عينه : كناية عن حزنه وكدره بالأندلس

وَاُسْتَوْسَقَ[١] لِلإِسْلَامِ مُلْكٌ ضَخْمُ اُلسُّرَادِقِ ، مَرْهُوبُ اُلْبَوَارِقِ[٢] ، رَفِيعُ اُلْعَمَدِ ، بَعِيدُ اُلْأَمَدِ ، تَشْهَدُ بِذٰلِكَ اُلْآثَارُ وَاُلْأَخْبَارُ ، وَاُلوقَائِعُ اُلْكِبَارُ ، وَاُلْأَوْدَاقُ[٣] وَاُلْأَمْطَارُ ، وَهَلْ يَخْفَى اُلنَّهَارُ ؟ وَلِكُلٍّ هُبُوبٍ رُكُودٌ[٤] وَاُلدَّهْرُ حَسُودٌ لِمَنْ يَسُودُ ، فَرَاجَعَتِ اُلْفَرَنْجُ كَرَّتَهَا ، وَاُسْتَدْرَكَتْ مَعَرَّتَهَا ، فَدَوَّمَتْ[٥] جَوَارِحُهَا وَحَلَّقَتْ ، وَأَوْمَضَتْ بَوَارِقُهَا وَتَأَلَّقَتْ ، وَتَشَبَّثَتْ وَتَعَلَّقَتْ ، وَأَرْسَلَتِ اُلْأَعِنَّةَ وَأَطْلَقَتْ ، وَرَاجَعَتِ اُلْعَقَائِلَ اُلَّتِي طُلِّقَتْ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنَ اُلْكِتَابِ إِلَّا اُلْحَاشِيَةُ[٦] ، وَلَا مِنَ اُللَّيْلِ إِلَّا اُلنَّاشِيَةُ[٧] ، وَسَقَطَتِ

---

(١) أى اجتمع وانتظم ، وفى حديث النجاشى : « واستوسق عليه أمر الحبشة » أى اجتمعوا على طاعته واستقر الملك فيه (٢) السيوف لبريقها (٣) الودق : المطر كله شديده وهينه (٤) أى سكون وثبات ، ويقال ركدت ريحهم أى زالت دولتهم وأخذ أمرهم يتراجع (٥) دوم الطائر اذا حلق فى الهواء ، وهو دورانه فى طيره ليرتفع الى السماء . وفى الأصل دوخت وهو تحريف غير مناسب . « أحمد نجاتى »

(٦) حاشية الكتاب : طرفه وطرته « وحشى تحشية : اذا كتب على حاشية الكتاب مولدة ، ثم سمى ما كتب حاشية مجازا » (٧) مسهل من ناشئة ، وفى التنزيل (ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) قيل هى أول ساعة ، وقيل الناشئة والنشيئة اذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت

ٱلْغَاشِيَةُ(١) وَأَخْلَدَتِ(٢) ٱلْفِئَةُ ٱلْمُتَلَاشِيَةُ(٣) ، وَتَقَلَّصَتِ ٱلظِّلَالُ ٱلْفَاشِيَةُ(٤) إِلَّا أَنَّ ٱللّٰهَ تَدَارَكَ بِقَوْمٍ رُجَّحٍ مِنْ سَلَفِنَا أَثْبَتُوا فِي مُسْتَنْقَعِ ٱلْحَرْبِ أَقْدَامَهُمْ(٥) وَأَخْلَصُوا لِلّٰهِ بَأْسَهُمْ وَإِقْدَامَهُمْ ، وَوَصَلُوا سُيُوفَهُمُ ٱلْبَارِقَةَ بِخُطَاهُمْ(٦) ، وَأَعْطَاهُمْ

(١) من معانى الغاشية: العذاب والعقوبة المجللة، ومنه قوله تعالى : «أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله » أى عقوبة مجللة تعمهم ، والغاشية : الداهية والغاشية : القيامة لأنها تغشى الخلق بأفزاعها فتعم ، و به فسر قوله تعالى : «هل أتاك حديث الغاشية»؟ (٢) أخلد الى الأرض: مال وركن واطمأن اليها وسكن (٣) المضمحلة ، قيل ان تلاشى عامى حتى اعترض التاج الكندى على قول ابن نباتة الخطيب : و بقايا جسوم متلاشية ، بأن تلاشى الشىء بمعنى اضمحل و بطل الاعتداد به لم يرد عن العرب ، وقيل كأنها منحوتة من لاشىء كبسمل وحمدل — ومما ورد منه قول الصنوبرى :

وتلاشى نضح الدموع فما تـ ـملك عينى الا دما نضاحا

وورد فى حديث رواه السخاوى من أن معاوية سأل العباس رضى الله عنهما عن أبيه فقال : تلاشت الأحدان عند فصيلته ، وتباعدت الأنساب عند ذكر عشيرته الخ (٤) قلص الظل : انقبض وانضم وانزوى . وفشا : انتشر وامتد واتسع (٥) المستنقع : الموضع يستنقع فيه الماء أى يجتمع ، والعبارة مأخوذة من قول أبى تمام فى قصيدته المشهورة يرثى محمد بن حميد الطوسى

فأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها من دون أخمصك الحشر

(٦) من قوله :

نصل السيوف اذا قصرن بخطونا قدما ونلحقها اذا لم تلحق

وهو كناية عن فرط الشجاعة والاقدام

مَنْشُورَ(١) الْعِزِّ مَنْ أَعْطَاهُمْ ، حِينَ تَعَيَّنَ(٢) الدِّينُ وَتَحَيَّزَ ، وَاشْتَدَّ بِالْمُدَافَعَةِ وَتَمَيَّزَ ، وَعَادَتِ الْحُرُوبُ سِجَالًا ، وَعَلِمَ الرُّومُ أَنَّ لِلهِ رِجَالًا . وَقَدْ أَوْفَدَ جَدُّنَا ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَلَى أَبْوَابِ سَلَفِكُمْ مِنْ وَقَائِعِهِ فِي الْعَدُوِّ كُلَّ مُبَشِّرَةٍ ، وَوُجُوهٍ بِهِ مُسْتَبْشِرَةٍ(٣) ضَحِكَتْ لَهَا ثُغُورُ الثُّغُورِ(٤) ، وَسَرَتْ بِهَا فِي الْأَعْطَافِ حُمَيَّا(٥) السُّرُورِ ، وَكَانَتِ الْمُرَاجَعَةُ عَنْهَا شِفَاءً لِلصُّدُورِ ، وَتَمَائِمَ(٦) فِي دُرَرِ النُّحُورِ ، وَخَفَرًا(٧) فِي وُجُوهِ الْبُدُورِ ، فَإِنَّ ذِمَامَ(٨) الْإِسْلَامِ مَوْصُولٌ ، وَفُرُوعُهُ تَجْمَعُهَا

---

(١) المنشور ما كان غير مختوم من كتب السلطان ، وهو المشهور بالفرمان (٢) يصح أن تكون :تبين ، وتحيز : تلبث وتمكث ، وشغل حيزا : أى ناحية (٣) فى الأصل : ووجودية منتشرة ، وهو تحريف (٤) ثغور الأولى موضع التبسم ، والثانية موضع المخافة والحدود (٥) حميا الكاس: سورتها وشدتها أو اسكارها وبلوغها من شاربها ، ودبيب الشراب . وحميا الشباب سورته ونشاطه (٦) أصل التميمة خرزة رقطاء تنظم فى سير أو خيط ثم يعقد فى العنق ،وقال أبو ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها　　ألفيت كل تميمة لاتنفع

(٧) الخفر : شدة الحياء ، والغرض هنا لازم الحياء من حمرة الوجه وتورده ، واشراقه ونضرته (٨) أى حق وحرمة وعهد

فِي ٱللهِ أُصُولٌ ، وَمَا أَقْرَبَ ٱلْحَزْنَ مِمَّنْ دَارُهُ صُولٌ[1] ،
وَٱلْمِلَّةُ وَٱلْمِنَّةُ لِلهِ وَاحِدَةٌ ، وَٱلنُّفُوسُ لَامُنْكِرَةٌ لِلْحَقِّ وَلَا
جَاحِدَةٌ ، وَٱلْأَقْدَارُ مَعْرُوفَةٌ ، وَٱلْآمَالُ إِلَى مَا يُوَصِّلُ إِلَى ٱللهِ
مَصْرُوفَةٌ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ[2] ٱلِاسْتِدْعَاءُ ، أَمْكَنَ ٱلدُّعَاءُ ،
وَٱلْخَوَاطِرُ فَعَّالَةٌ ، وَٱلْكُلُّ عَلَى ٱللهِ عَالَةٌ ، وَٱلدِّينُ غَرِيبٌ
وَٱلْغَرِيبُ يَحِنُّ إِلَى أَهْلِهِ ، وَٱلْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ عَلَى بُعْدِ مَحَلِّهِ.

انْتَهَى ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبَةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهٰذَا ٱلْبَابِ ،
وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ .

---

(١) مثل ، وهو من قول حندج المرى من أبيات :

ماأقدر الله أن يدنى على شحط من داره الحزن ممن داره صول

وصول مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب (دربند) قرب بحر قزوين، والحزن: الغليظ من الأرض ، وفى بلادالعرب بضعة حزون ، منها طريق بين المدينة وخيبر ، والحزن : بلاد يربوع وهى من أطيب البادية مرعى (٢) يمكن أن تكون محرفة عن (يمكن) . « أحمد نجاتى » .

***

« الْبَابُ الثَّالِثُ »

مكانة الدين بالأندلس

فِي سَرْدِ بَعْضِ مَا كَانَ لِلدِّينِ بِالْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِزِّ السَّامِي الْعِمَادِ ، وَالْقَهْرِ فِي الرَّوَاحِ وَالْغُدُوِّ وَالتَّحَرُّكِ وَالْهُدُوِّ وَالِارْتِيَاحِ الْبَالِغِ غَايَةَ الْآمَادِ[1] ، وَإِعْمَالِ أَهْلِهَا لِلْجِهَادِ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْجِبَالِ وَالْوِهَادِ[2] ، بِالْأَسِنَّةِ الْمُشْرَعَةِ[3] وَالسُّيُوفِ الْمُسْتَلَّةِ مِنَ الْأَغْمَادِ .

***

« أَقُولُ » قَدْ قَدَّمْنَا فِي الْبَابِ قَبْلَ هَذَا مَا كَانَ مِنْ نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتْحِهِمُ الْأَنْدَلُسَ وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ بِهَا إِلَى مَجِيءِ الدَّاخِلِ ، فَتَقَرَّرَتِ الْقَوَاعِدُ السُّلْطَانِيَّةُ ، وَعَلَتِ الْكَلِمَةُ الْإِيمَانِيَّةُ ، كَمَا نَسْرُدُهُ هُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

---

(١) الآماد : الغايات (٢) الوهاد : جمع وهدة وهى المطمئن من الأرض والمكان المنخفض (٣) شرع الرمح وأشرعه : سدده

***

زوال الملك بنى أمية

« وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ » مِنْهُمُ ابْنُ حَزْمٍ : أَنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ كَانَتْ أَنبَلَ دُوَلِ الْإِسْلَامِ وَأَنْكَاهَا[١] فِي الْعَدُوِّ ، وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ كَمَا سَتَرَى بَعْضَهُ .

« وَأَصْلُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ » كَمَا قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَمَّا نَزَلَ بِهِمْ بِالْمَشْرِقِ مَا نَزَلَ ،وَغَلَبَهُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ عَلَى الْخِلَافَةِ ، وَأَزَالُوهُمْ عَنْ كُرْسِيِّهَا ، وَقَتَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَلِيٍّ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ آخِرَ خُلَفَائِهِمْ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ ، وَتَتَبَّعَ بَنِي مَرْوَانَ بِالْقَتْلِ فَطَلَبُوا بَطْنَ الْأَرْضِ[٢] مِنْ بَعْدِ ظَهْرِهَا ، وَكَانَ مِمَّنْ أَفْلَتَ[٣] مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ هِشَامِ

---

(١) نكى العدو ونكى فيه اذا أصاب منه وقتل فيه وجرح فوهن لذلك
(٢) كناية عن شدة الاختفاء والاستتار (٣) الافلات: التخلص من الشئ فجأة من غير تمكث

ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَكَانَ قَوْمُهُ يَتَحَيَّنُونَ [١] لَهُ مُلْكاً بِالْمَغْرِبِ ، وَيَرَوْنَ فِيهِ عَلَامَاتٍ لِذَلِكَ يَأْثُرُونَهَا [٢] عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ [٣] ، وَكَانَ هُوَ قَدْ سَمِعَهَا مِنْهُ مُشَافَهَةً ، فَكَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ ، فَخَلَصَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ وَنَزَلَ عَلَى أَخْوَالِهِ نَفْزَةَ [٤] مِنْ بَرَابِرَةِ طَرَابُلُسَ ، وَشَعَرَ بِهِ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ حَبِيبٍ [٥] ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ ٱبْنَيِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَمَّا دَخَلَا إِفْرِيقِيَّةَ ـ فَلَحِقَ بِمُغِيلَةَ [٦]

---

(١) يتحينون : ينتظرون (٢) أى ينقلونها (٣) كان مسلمة من أشجع بنى أمية وأخبرهم بالحرب وكان قائدا مظفرا وغازيا منصورا وكانت له وقائع عظيمة فى أكثر غزوات بنى أمية وحروبهم . ولى الكوفة والبصرة والعراق فى زمن أخيه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ وعزل عنه سنة ١٣٧ وفرغ للغزو والجهاد (٤) نفزة قبيلة مشهورة من قبائل البربر الذين بالمغرب ، ومنهم المنذر بن سعيد البلوطى النفزى . وفى الأصل (نفرة) بالراء المهملة وهو تصحيف (٥) عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة بن نافع الفهرى، وتقدمت ترجمته (٦) من قبائل البربر أيضا ، وهناك قبائل من البربر سميت بها أماكن نزلوا بها منها نفزة ومغيلة وهوارة وصنهاجة وكتامة ومكناسة ، ونفزة قرية بمالقة منها ابن أبى العاص النفزى شيخ الشاطبى ، ووجيه الدين موسى بن محمد النفزى محدث مات بمصر . ومغيلة اقليم من أعمال شذونة . ومكناسة مدينة بالمغرب بينها وبين مراكش ١٤ مرحلة نحو الشرق، ومنها الى فاس مرحلة واحدة، وبالمغرب بلدة أخرى مشهورة يقال لها مكناسة الزيتون حصينة مكينة فى طريق المار من فاس الى سلا

وَقِيلَ بِمِكْنَاسَةَ (١) ، وَقِيلَ بِقَوْمٍ مِنْ زِنَاتَةَ (٢) فَأَحْسَنُوا قَبُولَهُ ، وَاطْمَأَنَّ فِيهِمْ ، ثُمَّ لَحِقَ بِمَلِيلَةَ (٣) وَبَعَثَ بَدْرًا مَوْلَاهُ إِلَى مَنْ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ مَوَالِي الْمَرْوَانِيِّينَ وَأَشْيَاعِهِمْ ، فَاجْتَمَعَ بِهِمْ وَبَثُّوا لَهُ فِي الْأَنْدَلُسِ دَعْوَةً ، وَنَشَرُوا لَهُ ذِكْرًا ، وَوَافَقَ قُدُومُهُ مَا كَانَ مِنَ الْإِحَنِ (٤) بَيْنَ الْيَمَنِيَّةِ وَالْمُضَرِيَّةِ ، فَأَصْفَقَتِ (٥) الْيَمَنِيَّةُ عَلَى أَمْرِهِ ، لِكَوْنِ الْأَمْرِ كَانَ لِيُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفِهْرِيِّ وَصَاحِبِهِ الصُّمَيْلِ ، وَرَجَعَ بَدْرٌ مَوْلَاهُ إِلَيْهِ بِالْخَبَرِ فَأَجَازَ

على شاطئ البحر كان فيه مرسى للمراكب ومنها تجلب الحنطة الى شرق الأندلس — ومكناسة أيضا حصن بالأندلس من أعمال ماردة (١) قبيلة عظيمة من البربر وكان لهم بالأندلس رياسة وكثرة وخرج منهم على عبد الرحمن الداخل شقنا بن عبد الواحد سنة ١٥١ وكانوا من أهل مواطن ملوية ومليلة وغيرهما من المدن (٢) زناتة بكسر الزاى ، وقد تفتح ، قبيلة عظيمة بالمغرب وجيل قديم العهد فيه ذوا باء وقوة ومنعة وهم بطون كثيرة متفرقون فى المواطن ، وهم الذين اختطوا مدينة تلمسان — ومنهم بنو مرين وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا وأعظمهم دولة ، ومنهم بنو عبد الواد يلونهم فى الكثرة والقوة ، و بنو توجين من بعدهم . وزناتة ناحية بسرقسطة (٣) مليلة مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر (٤) الاحن : الأحقاد والعداوة ، جمع احنة (٥) أى أجمعت واتفقت

ٱلْبَحْرَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي خِلَافَةِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ ، وَنَزَلَ بِسَاحِلِ ٱلْمُنَكَّبِ(١) ، وَأَتَاهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ إِشْبِيلِيَةَ فَبَايَعُوهُ ، ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى كُورَةِ رَيَّةَ(٢) ، فَبَايَعَهُ عَامِلُهَا عِيسَى بْنُ مُسَاوِرٍ ، ثُمَّ إِلَى شَذُونَةَ(٣) ، فَبَايَعَهُ عَتَّابُ بْنُ عَلْقَمَةَ ٱللَّخْمِيُّ ، ثُمَّ إِلَى مَوْزُورَ(٤) فَبَايَعَهُ ٱبْنُ ٱلصَّبَّاحِ(٥) ، وَنَهَدَ(٦) إِلَى قُرْطُبَةَ ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ ٱلْيَمَنِيَّةُ ، وَنُمِيَ خَبَرُهُ إِلَى وَالِي ٱلْأَنْدَلُسِ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلْفِهْرِيِّ — وَكَانَ غَازِيًا بِجِلِّيقِيَّةَ — فَانْفَضَّ

---

(١) تقدم التعريف به (٢) رية : كورة واسعة بالأندلس متصلة بالجزيرة الخضراء وهي قبلي قرطبة (٣) مدينة وكورة تتصل بكورة موزور وهي منحرفة عن موزور الى الغرب مائلة الى القبلة وغربي قرطبة ، منها عتاب بن هرون بن عتاب بن بشر بن أيوب الشافعي الشذوني توفي سنة ٣١٨ ، وفي الأصل (شدونة) بالدال المهملة وهو تحريف (٤) موزور : كورة تتصل أعمالها بأعمال قرمونة وهي من قرطبة بين الغرب والقبلة كثيرة الزيتون والفواكه بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا ، ينسب اليها عبدالسلام بن السمح بن نائل بن عبد الله الهراوي الموزوري المحدث اللغوي توفي بقرطبة سنة ٣٨٧ . وفي الأصل مورور بالراء المهملة محرفة (٥) اسمه يحي بن يحي (٦) نهد بالأمر : نهض به ومضى فيه ، ونهد لعدوه: صمد لهم وشرع في قتالهم

عَسْكَرُهُ وَرَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ وَزِيرُهُ ٱلصَّمِيلُ بْنُ حَاتِمٍ بِالتَّلَطُّفِ لَهُ وَٱلْمَكْرِ بِهِ لِكَوْنِهِ صَغِيرَ ٱلسِّنِّ حَدِيثَ عَهْدٍ بِنِعْمَةٍ، فَلَمْ يَتِمَّ مَا أَرَادَهُ، وَأَرْتَحَلَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ مِنَ ٱلْمُنَكَّبِ فَاحْتَلَّ بِمَالَقَةَ فَبَايَعَهُ جُنْدُهَا، ثُمَّ بِرُنْدَةَ[1] ثُمَّ بِشَرِيش[2] كَذَلِكَ، ثُمَّ بِإِشْبِيلِيَةَ، فَتَوَافَتْ إِلَيْهِ جُنُودُ ٱلْأَمْصَارِ، وَتَسَايَلَتِ[3] ٱلْمُضَرِيَّةُ إِلَيْهِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَعَ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ غَيْرُ ٱلْفِهْرِيَّةِ وَٱلْقَيْسِيَّةِ لِمَكَانِ ٱلصَّمِيلِ مِنْهُ زَحَفَ حِينَئِذٍ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ ٱلدَّاخِلُ وَنَاجَزَهُمُ[4] ٱلْحَرْبَ بِظَاهِرِ قُرْطُبَةَ، فَٱنْكَشَفَ يُوسُفُ وَلَجَأَ إِلَى غَرْنَاطَةَ فَتَحَصَّنَ بِهَا، وَأَتْبَعَهُ ٱلْأَمِيرُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ فَنَازَلَهُ، ثُمَّ رَغِبَ إِلَيْهِ يُوسُفُ فِي ٱلصُّلْحِ، فَعَقَدَ لَهُ

---

(١) رندة: معقل حصين على نهر جار بين اشبيلية ومالقة. منها خطيبها البليغ المفوه عبيد الله بن عاصم القيسى الرندى توفى سنة ٦٤٩ (٢) مدينة كبيرة على الوادى الكبير منها كانت قاعدة كورة شذونة، قال مؤرخو الأندلس: هى بنت أشبيلية وواديها واديها منها شارح مقامات الحريرى أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى، ومنها جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله دخل مصر وتوفى سنة ٦٨٨ (٣) تسايلت الخ: جاءت من كل ناحية (٤) ناجزهم: بارزهم وقاتلهم، ويقال تناجز القوم أى تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك وأنجزوه

عَلَى أَنْ يَسْكُنَ قُرْطُبَةَ ثُمَّ أَقْفَلَهُ مَعَهُ ، ثُمَّ نَقَضَ يُوسُفُ عَهْدَهُ وَخَرَجَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ وَلَحِقَ بِطُلَيْطُلَةَ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ زُهَاءَ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الْبَرْبَرِ ، وَقَدَّمَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِلْقَائِهِ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ عُمَرَ الْمَرْوَانِيَّ ، وَكَانَ وَفَدَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، وَكَانَ أَبُوهُ عُمَرُ بْنُ[1] مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي كَفَالَةِ أَخِيهِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ بِمِصْرَ .

***

التمهيد لسلطان بنى مروان بالأندلس

فَلَمَّا دَخَلَتِ الْمُسَوِّدَةُ أَرْضَ مِصْرَ خَرَجَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَؤُمُّ الْأَنْدَلُسَ فِي عَشَرَةِ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ مَشْهُورِينَ بِالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، حَتَّى نَزَلَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ ، فَعَقَدَ لَهُ عَلَى إِشْبِيلِيَةَ ، وَلِابْنِهِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى مُورُورَ ، وَسَارَ يُوسُفُ إِلَيْهِمَا ، وَخَرَجَا إِلَيْهِ وَلَقِيَاهُ ، وَتَنَاجَزَ الْفَرِيقَانِ فَكَانَتِ الدَّائِرَةُ[2] عَلَى يُوسُفَ ، وَأَبْعَدَ

---

(١) توفى سنة ١١٥ ومن ذريته بالأندلس عبد الله بن الحسن (أو الحر) ابن سعيد بن بشر بن عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم توفى بالأندلس قريبا من سنة ٣١٠ — وعبد الملك بن عمر بن مروان يلقب قعدد بنى أمية وهو الذى كان سبب قطع الدعوة العباسية بالأندلس

(٢) الدائرة : كناية عن الغلبة والقهر .

الْمفَرَّ ، وَاغْتَالَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بِنَاحِيَةِ طُلَيْطُلَةَ وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ وَتَقَدَّمَ بِهِ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَاسْتَقَامَ أَمْرُهُ ، وَاسْتَقَرَّ بِقُرْطُبَةَ ، وَثَبَتَتْ قَدَمُهُ فِي الْمُلْكِ ،وَبَنَى الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ وَالْقَصْرَ بِقُرْطُبَةَ ، وَأَنفَقَ فِيهِ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَمَاتَ قَبْلَ تَمَامِهِ ، وَبَنَى مَسَاجِدَ . وَوَفَدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، وَكَانَ يَدْعُو لِلْمَنْصُورِ ثُمَّ قَطَعَ دَعْوَتَهُ ، وَمَهَّدَ الدَّوْلَةَ بِالْأَنْدَلُسِ، وَأَثَّلَ(١) بِهَا الْمُلْكَ الْعَظِيمَ لِبَنِي مَرْوَانَ وَالسُّلْطَانَ الْعَزِيزَ ، وَجَدَّدَ مَا طَمَسَ لَهُمْ بِالْمَشْرِقِ مِنْ مَعَالِمِ الْخِلَافَةِ وَآثَارِهَا ، وَاسْتَلْحَمَ(٢) الثُّوَّارَ عَلَيْهِ عَلَى كَثْرَتِهِمْ فِي النَّوَاحِي ، وَقَطَعَ دَعْوَةَ آلِ الْعَبَّاسِ مِنْ مَنَابِرِ الْأَنْدَلُسِ ، وَسَدَّ الْمَذَاهِبَ مِنْهُمْ دُونَهَا ، وَهَلَكَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ . وَكَانَ يُعْرَفُ بِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ الدَّاخِلِ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ دَاخِلٍ مِنْ مُلُوكِ بَنِي مَرْوَانَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ.

---

(١) أثل : أصل وثبت (٢) استلحم الثوار الخ تبعهم وأرهقهم فى القتال ، واستلحم الرجل اذا احتوشه العدو فى القتال ، واستلحمه الخطب : نشب فيه

وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ يُسَمِّيهِ صَقْرَ قُرَيْشٍ، لِمَا رَأَى أَنَّهُ فَعَلَ بِالْأَنْدَلُسِ مَا فَعَلَ، وَمَا رَكِبَ إِلَيْهَا مِنَ الْأَخْطَارِ، وَأَنَّهُ نَهَدَ إِلَيْهَا مِنْ أَنْأَى دِيَارِ الْمَشْرِقِ، مِنْ غَيْرِ عِصَابَةٍ وَلَا أَنْصَارٍ، فَغَلَبَ أَهْلَهَا عَلَى أَمْرِهِمْ، وَتَنَاوَلَ الْمُلْكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ بِقُوَّةِ شَكِيمَةٍ[1] وَمَضَاءِ عَزْمٍ، حَتَّى انْقَادَ لَهُ الْأَمْرُ، وَجَرَى عَلَى اخْتِيَارِهِ، وَأَوْرَثَهُ عَقِبَهُ. وَكَانَ يُسَمَّى بِالْأَمِيرِ، وَعَلَيْهِ جَرَى بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمْ يَدْعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَأَدُّبًا مَعَ الْخِلَافَةِ بِمَقَرِّ الْإِسْلَامِ وَمُنْتَدَى الْعَرَبِ، حَتَّى كَانَ مِنْ عَقِبِهِ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ النَّاصِرُ — وَهُوَ ثَامِنُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ — فَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا سَنَذْكُرُهُ، لِمَا رَأَى مِنْ ضَعْفِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ الثَّلَثِمِائَةِ وَغَلَبَةِ الْأَعَاجِمِ عَلَيْهِمْ، وَكَوْنِهِمْ لَمْ يَتْرُكُوا لَهُمْ غَيْرَ الِاسْمِ، وَتَوَارَثَ التَّلْقِيبَ

(١) الشكيمة: الأنفة والانتصار من الظلم وقوة القلب، وفلان شديد الشكيمة أي قوي النفس أبي أنف (وأصله من شكيمة اللجام وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس فيها الفأس، وفأس اللجام هي الحديدة القائمة في الشكيمة) وفلان ذو شكيمة اذا كان ذا عارضة وحدة صارما لا ينقاد حازما

بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَنُو عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ.

***

ملك بنى عبد الرحمن

« قَالَ ٱبْنُ حَيَّانَ » : وَكَانَ لِبَنِي عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلِ بِالْعُدْوَةِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ مُلْكٌ ضَخْمٌ وَدَوْلَةٌ مُتَّسِعَةٌ ٱتَّصَلَتْ إِلَى مَا بَعْدَ ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ ، وَعِنْدَ مَا شُغِلَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ وَتَمْهِيدِ أَمْرِهِ قَوِيَ أَمْرُ ٱلْجَلَالِقَةِ وَٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُمْ ، وَعَمَدَ فَرْوِيلَةُ بْنُ أُدْفُونْشَ مَلِكُهُمْ إِلَى ثُغُورِ ٱلْبِلَادِ فَأَخْرَجَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْهَا وَمَلَكَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَمَلَكَ مَدِينَةَ لُكَّ(١) وَبُرْتُقَالَ(٢) وَسَمُّورَةَ(٣) وَقَشْتَالَةَ(٤)

(١) مدينة من أعمال فحص البلوط Luque (٢) Porto مدينة هى الآن عاصمة الاقليم المعروف المسمى بهذا الاسم على بعد نحو ٢٧٥ كيلو مترا من أشبونة أو لشبونة شمالا ، وقد كان لهذه المدينة شأن عظيم فى أيام العرب، وقد كانوا يجيئونها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ أقدامهم فيها ولهذا لم يتركوا بها آثارا تذكر ، وكان المنصور ابن أبى عامر قد دمرها وظلت خرابا مدة طويلة «نحو ٨٠ سنة» (٣) مدينة فى وسط اسبانيا الشمالى من اقليم ليون الذى كان يشمل مدنا كثيرة منها سمورة وسلمنقه وقلمرية وغيرها (٤) قشتالة اسم لاقليم عظيم كانت قصبته طليطلة . وقد كونت بقية الأمة اللاجئة الى صخرة جليقية مملكة قشتالة ثم كانوا سببا فى اخراج المسلمين من جليقية وهى قشتيلية ، وآل الأمر الى أن كان ملوك غرناطة يعطون الجزية عن يد لملوك قشتالة

وَشَقُوبِيَةَ(١)، وَصَارَتْ لِلْجَلَالِقَةِ، حَتَّى افْتَتَحَهَا الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ آخِرَ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ اسْتَعَادُوهَا بَعْدَهُ فِيمَا اسْتَعَادُوا مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِهَا حَسْبَمَا يُذْكَرُ وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ الْأَمْرُ. انْتَهَى

***

مخاطبة عبد الرحمن لملك الفرنج

وَخَاطَبَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ قَارِلَّةَ مَلِكَ الْإِفْرَنْجِ، وَكَانَ مِنْ طُغَاةِ الْإِفْرَنْجِ بَعْدَ أَنْ تَمَرَّسَ(٢) بِهِ مُدَّةً، فَأَصَابَهُ

زمنا طويلا وكانت مملكتهم قد اتسعت رقعتها فصارت مملكة عظيمة ذات عمالات فسيحة تشتمل على طليطلة وقشتالة وأشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها. (١) Ségovie هي من قشتالة في الحد المتوسط من إسبانيا ما بين الجنوب والغرب ومنه مدينة طليطلة وطليرة ومدريد وأقليش ومكادة وويذة وشقوبية، ولم تلبث هذه الجهات بعد أن ملكها الافرنج، بل انه في سنة ١٤٠ مات الأدفونش ملك جليقية وملك بعده ابنه وكان أشجع من أبيه وأحسن سياسة للملك وضبطا له فقوي أمره وعظم سلطانه وأخرج المسلمين من ثغور البلاد وملك هذه المدائن: لك، وبرتغال، وشلمنقه، وسمورة، وشقوبية، وغيرها من معظم اقليم قشتالة العظيم. ولما آل أمر بقايا العرب بالأندلس الى الاضمحلال والضعف تناسوا لغتهم وأساليبها وطغت عليهم العجمة الافرنجية حتى كان منهم (الدون عيسى دوجابر) الفقيه الأكبر بجامع شقوبية سنة ١٤٦٢ م بل انه ألف كتابا في الفقه الاسلامي باللغة الاسبانية وطبعته جمعية التاريخ الملوكية بمدريد سنة ١٨٥٣ (٢) تمرس به: احتك وتمسح، ويقال فلان يتمرس بي أي يتعرض لي بالأذى والشر قال الشاعر:

صُلْبَ(١) الْمَكْسِرِ ، تَامَّ الرُّجُولِيَّةِ فَمَالَ مَعَهُ إِلَى الْمُدَارَاةِ ،
وَدَعَاهُ إِلَى الْمُصَاهَرَةِ وَالسِّلْمِ ، فَأَجَابَهُ لِلسِّلْمِ وَلَمْ تَتِمَّ الْمُصَاهَرَةُ.
قَالَ ابْنُ حَيَّانَ : وَلَمَّا أَلْفَى الدَّاخِلُ الْأَنْدَلُسَ ثَغْرًا قَاصِيًا غُفْلًا(٢)
مِنْ حِلْيَةِ الْمُلْكِ عَاطِلًا أَرْهَفَ(٣) أَهْلَهَا بِالطَّاعَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ،
وَحَنَّكَهُمْ بِالسِّيرَةِ الْمُلُوكِيَّةِ ، وَأَخَذَهُمْ بِالْآدَابِ ، فَأَكْسَبَهُمْ
عَمَّا قَلِيلٍ الْمُرُوءَةَ ، وَأَقَامَهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ(٤) ، وَبَدَأَ فَدَوَّنَ
الدَّوَاوِينَ ، وَرَفَعَ الْأَوَاوِينَ(٥) ، وَفَرَضَ الْأَعْطِيَةَ ، وَعَقَدَ

وأحمق غريض عليه غضاضة تمرس بي من حينه وأنا الرقم
وتمارسوا في الحرب : تضاربوا ، والممارسة : شدة علاج الشيء ومزاولته .
وفلان قد تمرس بالنوائب والخصومات اذا مارسها ، وما بفلان
متمرس : اذا كان شجاعا لا ينال العدو منه . (١) يقال : فلان
صلب المكسر ، وصلب العود وصلب المعاجم اذا كان قويا شديدا لا يستهان
به ولا يطمع فيه . وفي الأصل صلب المكر ، محرفة (٢) غفلا : خاليا مجردا
(٣) رهف : رق ولطف (٤) الطريقة : الحال والسيرة والمذهب وكل
مسلك يسلكه الانسان في فعل محمودا كان أو مذموما ، تقول فلان على
طريقة حسنة ، وعلى طريقة سيئة ، والمراد هنا الحال الحسنة ، وقوله تعالى :
(وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) أي على طريقة الهدى
وجاءت معرفة بال على التفخيم (٥) الأواوين : جمع ايوان : الصفة العظيمة
كالأزج ، فارسي . ومنه ايوان كسرى ، وفي المحكم الايوان : شبه أزج غير
مسدود الوجه . وهو المسمى بالعامية « لوان » والأزج : بيت يبنى طولا

ٱلْأَلْوِيَةَ، وَجَنَّدَ ٱلْأَجْنَادَ، وَرَفَعَ ٱلْعِمَادَ[1]، وَأَوْثَقَ[2] ٱلْأَوْتَادَ. فَأَقَامَ لِلْمُلْكِ آلَتَهُ، وَأَخَذَ لِلسُّلْطَانِ عُدَّتَهُ، فَٱعْتَرَفَ لَهُ بِذٰلِكَ أَكَابِرُ ٱلْمُلُوكِ، وَحَذِرُوا جَانِبَهُ، وَتَحَامَوْا حَوْزَتَهُ[3]. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَانَتْ لَهُ بِلَادُ ٱلْأَنْدَلُسِ، وَٱسْتَقَلَّ لَهُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا. فَلِذٰلِكَ مَا ظَلَّ عَدُوُّهُ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورُ بِصِدْقِ حِسِّهِ، وَبُعْدِ غَوْرِهِ[4]، وَسَعَةِ إِحَاطَتِهِ، يَسْتَرْجِحُ[5] عَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ كَثِيرًا وَيَعْدِلُهُ بِنَفْسِهِ، وَيُكْثِرُ ذِكْرَهُ، وَيَقُولُ: لَا تَعْجَبُوا لِامْتِدَادِ أَمْرِنَا مَعَ طُولِ مِرَاسِهِ، وَقُوَّةِ أَسْبَابِهِ، فَالشَّأْنُ فِي

---

(١) العماد: الأبنية الرفيعة جمع عمادة، ورجل رفيع العماد: أي سيد شريف (٢) أحكم وقوى، والجملة كناية عن احكام الأمور وتثبيت دعائم الدولة على أسس قوية ورفع قواعد الملك على بناء وطيد، ويقال وتد فلان رجله فى الأرض اذا ثبتها، قال بشار:

ولقد قلت حين وتد فى الأر ض ثبير أربى على ثهلان

ووتد الرجل فى بيته: أقام وثبت، ووتد الزرع: طلع نباته فثبت وقوى (٣) حوزة الرجل: مافى حيزه وملكه، والحوزة: الناحية. يقال فلان مانع حوزته: أى لمافى حيزه، وحمى أبو بكر حوزة الاسلام: أى حدوده ونواحيه، والحوزة: بيضة الملك وحرماته (٤) رجل بعيد الغور: أى سديد الرأى جيده عميق التفكير بعيد النظر واسع الحيلة (٥) يسترجح الخ: يعده راجحا رزينا عاقلا.

أَمْرِ فَتَى قُرَيْشٍ ٱلْأَحْوَذِيِّ[1] ٱلْفَذِّ[2] فِي جَمِيعِ شُؤُونِهِ، وَعَدَمِهِ لِأَهْلِهِ وَنَشَبِهِ،[3] وَتَسَلِّيهِ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ بِبُعْدِ مَرْقَى هِمَّتِهِ، وَمَضَاءِ عَزِيمَتِهِ، حَتَّى قَذَفَ نَفْسَهُ فِي لُجَجِ ٱلْمَهَالِكِ لِابْتِنَاءِ مَجْدِهِ، فَاقْتَحَمَ جَزِيرَةً شَاسِعَةَ ٱلْمَحَلِّ، نَائِيَةَ ٱلْمَطْمَعِ، عَصِبِيَّةَ ٱلْجُنْدِ، ضَرَبَ بَيْنَ جُنْدِهَا بِخُصُوصِيَّتِهِ، وَقَمَعَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ بِقُوَّةِ حِيلَتِهِ، وَٱسْتَمَالَ قُلُوبَ رَعِيَّتِهَا بِقَضِيَّةِ[4] سِيَاسَتِهِ حَتَّى ٱنْقَادَ لَهُ عَصِيُّهُمْ، وَذَلَّ لَهُ أَبِيُّهُمْ، فَٱسْتَوَى فِيهَا عَلَى أَرِيكَتِهِ[5]، مَلِكاً عَلَى قَطِيعَتِهِ[6]، قَاهِرًا لِأَعْدَائِهِ، حَامِيًا

---

(١) الأحوذى: المشمر فى الأمور القاهر لها لايشذ عليه شئ، ومن يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها، والرجل الحاد الخفيف فى أموره الحسن السياق لها. والحاذق السريع فى كل ما أخذ فيه (٢) الفذ: الفرد العديم النظير (٣) النشب: المال الأصيل من الناطق والصامت، والعقار، وأكثر ما يستعمل فى الأشياء الثابتة التى لا براح بها كالدور والضياع، والمال أكثر ما يستعمل فيما ليس بثابت كالدراهم والدنانير. (٤) كذا بالأصل: وربما كانت محرفة عن كلمة أخرى مثل: فيصل، فصل، فضيلة ـ والخصوصية: الفضل والميزة. والخصوص التفرد ببعض الشىء عما لا تشاركك فيه الجملة. والفصل: القضاء بين الحق والباطل كالفيصل. والقضية: القضاء والحكم (٥) الأريكة فى الأصل سرير فى حجلة من دونه ستر، أو كل ما يتكأ عليه من ستر أو فراش أو منصة، والمراد كرسى المملكة (٦) القطيعة فى الأصل طائفة من أرض الخراج،

لِذِمَارِهِ [١] مَانِعاً لِحَوْزَتِهِ ، خَالِطاً الرَّغْبَةَ إِلَيْهِ بِالرَّهْبَةِ مِنْهُ ، إِنَّ ذٰلِكَ لَهُوَ الْفَتَى كُلُّ الْفَتَى ، لا يَكْذِبُ مَادِحُهُ . وَجَعَلَ ابْنُ حَيَّانَ مِنَ النَّوَادِرِ الْعَجِيبَةِ مُوَافَقَةَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ هٰذَا لِأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ فِي الرُّجُولِيَّةِ [٢] ، وَالِاسْتِيلَاءِ وَالصَّرَامَةِ وَالِاجْتِرَاءِ عَلَى الْكَبَائِرِ وَالْقَسَاوَةِ ، فَإِنَّ أُمَّ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَرْبَرِيَّةٌ . وَكَانَ الدَّاخِلُ يَقْعُدُ لِلْعَامَّةِ وَيَسْمَعُ مِنْهُمْ ، وَيَنْظُرُ بِنَفْسِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَيَصِلُ الضَّعِيفُ مِنْهُمْ إِلَى رَفْعِ ظُلَامَتِهِ إِلَيْهِ دُونَ مَشَقَّةٍ . وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ أَدْرَكَ وَقْتَ طَعَامِهِ ، وَمَنْ وَافَقَ ذٰلِكَ مِنْ طُلَّابِ الْحَوَائِجِ أَكَلَ مَعَهُ .

***

وصف عبد الرحمن الناصر

« وَفِي كِتَابِ ابْنِ زَيْدُونَ » أَنَّهُ كَانَ أَصْهَبَ [٣] خَفِيفَ الْعَارِضَيْنِ ، بِوَجْهِهِ خَالٌ ، طَوِيلَ الْقَامَةِ ، نَحِيفَ الْجِسْمِ ، لَهُ

والاقطاع يكون تمليكا وغير تمليك ، والغرض هنا تملكته (١) الذمار : كل ما يلزم المرء حمايته وحفظه وان ضيعه لزمه اللوم . وسمى ذمارا لأنه يجب على أهله التذمر له — أى الغضب — اذا انتهكت حرمته

(٢) يقال هو رجل بين الرجولية والرجولة : اذا كان كاملا شهما قويا

(٣) الصهبة : لون حمرة أو شقرة فى شعر الرأس

صَفِيرَتَانِ ، أَعْوَرَ أَخْشَمَ ـ وَالْأَخْشَمُ الَّذِى لَا يَشُمُّ[1] .
وَكَانَ يُلَقَّبُ بِصَقْرِ قُرَيْشٍ ، لِكَوْنِهِ تَغَرَّبَ وَقَطَعَ الْبَرَّ
وَالْبَحْرَ ، وَأَقَامَ مُلْكاً قَدْ أَدْبَرَ وَحْدَهُ . وَلَمَّا ذَكَرَ الْحِجَارِىُّ
أَنَّهُ أَعْوَرُ قَالَ : مَا أُنْشِدُ فِيهِ إِلَّا قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ :

لَكِنْ عُوَيْرٌ وَفَى بِذِمَّتِهِ[2]   لَا عَوَرٌ شَانَهُ وَلَا قِصَرُ

***

دعاء العلاء لأبى جعفر المنصور

« وَقَالَ[3] ابْنُ خَلْدُونَ » وَفِى سَنَةِ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَارَ

(١) والأخشم أيضا واسع الأنف ، وفعله كفرح وهو مأخوذ من الخيشوم (٢) من أبيات يمدح بها عوير بن شجنة الطائى وهو أحد من أجار امرأ القيس وكان قد أجار هندا بنت حجر أخت امرىء القيس فوفى لها حتى آتى نجران فمدحه بوفاء الذمة ونزهه من كل عيب يشين غيره، وأول الأبيات الخمسة :

ان بنى عوف ابتنوا حسبا   ضيعه الدخللون اذ غدروا

« الدخلل والدخيل الذى يداخل الرجل فى أمره ويصاحبه عليه وهم خاصة المرء ـ يقول ان بنى عوف ابتنوا حسبا باجارتهم لى وذبهم عنى على حين ضيع ذلك الحسب خاصتى وقومى اذ لم ينصرونى على طلب ثارى»
وقال أيضا يمدحه من أبيات أخرى :

وما فعلوا فعل العوير بجاره   لدى باب هند اذ تجرد قائما

يريد بقوله تجرد قائما أنه جد فى نصرته والدفع عنه. وله فيه من قصيدة :

عوير ومن مثل العوير ورهطه   وأسعد فى ليل البلابل صفوان
ثياب بنى عوف طهارى نقية   وأوجههم عند المشاهد غران

وصفوان رجل أيضا من الذين حموه وتحرموا بهم، والبلابل: الهموم والأفكار
(٣) فى ابن خلدون تسع وأربعون

ٱلْعَلَاءِ بْنُ مُغِيثٍ ٱلْيَحْصُبِيُّ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ، وَنَزَلَ بِبَاجَةِ[1] ٱلْأَنْدَلُسِ دَاعِياً لِأَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ، وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ خَلْقٌ، فَسَارَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ إِلَيْهِ وَلَقِيَهُ بِنَوَاحِي إِشْبِيلِيَةَ فَقَاتَلَهُ أَيَّامًا، ثُمَّ ٱنْهَزَمَ ٱلْعَلَاءُ وَقُتِلَ فِي سَبْعَةِ آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَبَعَثَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بِرُءُوسِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى ٱلْقَيْرَوَانِ[2] وَمَكَّةَ، فَأُلْقِيَتْ فِي أَسْوَاقِهَا سِرًّا وَمَعَهَا ٱللِّوَاءُ[3] ٱلْأَسْوَدُ وَكِتَابُ ٱلْمَنْصُورِ لِلْعَلَاءِ، فَٱرْتَاعَ[4] ٱلْمَنْصُورُ لِذَلِكَ وَقَالَ: مَا هٰذَا إِلَّا شَيْطَانٌ وَٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي جَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ٱلْبَحْرَ ـ أَوْ كَلَامًا هٰذَا مَعْنَاهُ ـ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ ذٰلِكَ.

---

(١) باجة Béja كورة من أعمال غرناطة وهى الى الشمال والشرق منها وكان بها أطلال قصر عربى قديم، وبها كنيسة من عهد ملوك القوط وكان العرب قد حولتها مسجدا ثم تحول المسجد كنيسة فى إثر رحيل العرب عن الأندلس، وكانت باجة من أعمال بلنسية أيام بنى عباد، وبها ولد المعتمد بن عباد (٢) أمر عبد الرحمن بعض التجار بحمل رأس العلاء ورءوس جماعة من مشهورى أصحابه الخ، ثم حمل منها شىء الى مكة فوصلت وكان بها المنصور، وكان مع الرءوس لواء أسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء

(٣) اللواء: الراية «العلم» واللواء الأسود راية بنى العباس وشعارهم السواد

(٤) ارتاع: فزع وهاله الأمر

وَكَثُرَتْ ثَوْرَةُ رُؤَسَاءِ الْعَرَبِ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الدَّاخِلِ، وَنَافَسُوهُ مُلْكَهُ، وَلَقِيَ مِنْهُمْ خُطُوباً عَظِيمَةً، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُ. وَاسْتَرَابَ[1] فِي آخِرِ أَمْرِهِ بِالْعَرَبِ لِكَثْرَةِ مَنْ قَامَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، فَرَجَعَ إِلَى اصْطِنَاعِ[2] الْقَبَائِلِ مِنْ سِوَاهُمْ وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي. ثُمَّ غَزَا بِلَادَ الْإِفْرَنْجِ وَالْبَشْكَنْسِ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ وَرَجَعَ بِالظَّفَرِ، وَكَانَ فِي نِيَّتِهِ أَنْ يُجَدِّدَ دَوْلَةَ بَنِي مَرْوَانَ بِالْمَشْرِقِ فَمَاتَ دُونَ ذٰلِكَ الْأَمَلِ. وَكَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِهِ ثَلَاثاً وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، إِذْ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، وَمَاتَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ، وَقِيلَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ، فِي خِلَافَةِ الرَّشِيدِ، وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ بَرْبَرِيَّةٌ[3] اسْمُهَا رَاحُ، وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ بِدَيْرِ حَنَّا[4] مِنْ أَرْضِ دِمَشْقَ، وَقِيلَ بِالْعَلْيَا

---

(١) استراب : شك فيهم واتهمهم (٢) اصطناع القبائل : مصانعتهم ببذل المعروف لهم واصطفائهم لصنائعه، واختيارهم لمعروفه وأياديه، واصطنعه : اذا رباه وخرجه وجعله موضعا لبره واحسانه (٣) كانت أمه من سبي إفريقية (٤) المعروف أن دير حنة بالحيرة ، أما أديرة

مِنْ تَدْمُرَ ، وَمَاتَ أَبُوهُ(١) فِي أَيَّامِ أَبِيهِ هِشَامٍ سَنَةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ عَنْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَكَفَلَهُ وَإِخْوَتَهُ جَدُّهُمْ هِشَامٌ ، وَوَهَبَ لِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ هٰذَا جَمِيعَ الْأَخْمَاسِ

الشام ودمشق فقد كانت كثيرة منها دير خالد ، ودير ز كى ودير سابر ودير فطرس ، ودير بطرس ، ودير محمد ، ودير مران ، ودير هند ، وغيرها ومعروف أن عبد الرحمن ولد بأرض دمشق وقيل بالعلياء من ناحية تدمر وفى الأصل (تدمير) محرفة . وتدمر مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام . والعلا اسم لموضع من ناحية وادى القرى بينها و بين الشام . وعلاة حلب بالشام (١) كان أبوه معاوية بن هشام شجاعا مغوارا و بطلا مقداما وقائدا ماهرا وكانت له فى الروم والترك وغيرهم وقائع مشهورة فاصلة، وكان له فيهم كل عام جهاد موفق ، فمن صائفة مظفرة الى غزوة منتصرة ، فما ورث عبد الرحمن الداخل الشجاعة عن كلالة ، ولكن : ألفى أباه بهذا الكسب يكتسب ، وحق على ابن الصقر أن يشبه الصقر ، وكان عبد الرحمن الداخل عالما حازما سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه لايخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة، ولا يكل الأمور الى غيره ولا ينفرد فى الأمور برأيه، شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر ، يكثر لبس البياض وكان مع هذا جوادا سخيا حليما شاعرا لسنا فصيحا ، و بنى رصافة قرطبة تشبها بجده هشام بانى رصافة الشام ، ولما سكنها رأى نخلة فيها منفردة فقال

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى التقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى ... يسح و يستمرى السماكين بالوبل

« أحمد نجاتى »

ٱلَّتِي ٱجْتَمَعَتْ لِلْخُلَفَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَقْطَعَهُ إِيَّاهَا ، وَوَجَّهَ لِحِيَازَتِهَا مِنَ ٱلشَّامِ سَعِيدَ بْنَ أَبِي لَيْلَى . وَقِيلَ : إِنَّهُ لَمَّا قَصَدَ ٱلْمَغْرِبَ مِنْ فِلَسْطِينَ خَرَجَ مَعَهُ أَرْبَعَةٌ : بَدْرٌ مَوْلَى أَبِيهِ وَأَبُو شُجَاعٍ ، وَزِيَادٌ ، وَعَمْرٌو ، وَقِيلَ إِنَّ بَدْرًا لَحِقَهُ وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ ، فَاللهُ أَعْلَمُ . وَخَلَّفَ مِنَ ٱلْوَلَدِ عِشْرِينَ ، مِنْهُمْ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا وَتِسْعُ إِنَاثٍ .

***

هرب عبد الرحمن الى الأندلس

« وَحَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ » أَنَّهُ لَمَّا هَرَبَ مِنَ ٱلشَّامِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ قَاصِدًا ٱلْأَنْدَلُسَ نَزَلَ بِمُغِيلَةَ ، فَصَارَ بِهَا عِنْدَ شَيْخٍ مِنْ رُؤَسَاءِ ٱلْبَرْبَرِ يُدْعَى وَانْسُوسَ وَيُكْنَى أَبَا قُرَّةَ ، فَاسْتَتَرَ عِنْدَهُ وَقْتًا ، وَلَحِقَ بِهِ بَدْرٌ مَوْلَى أَبِيهِ بِجَوْهَرٍ وَذَهَبٍ أَنْفَذَتْهُ أُخْتُهُ إِلَيْهِ . فَلَمَّا دَخَلَ ٱلْأَنْدَلُسَ وَٱسْتَتَبَّ أَمْرُهُ بِهِ سَارَ إِلَيْهِ أَبُو قُرَّةَ وَانْسُوسُ ٱلْبَرْبَرِيُّ ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ وَحَظِيَ عِنْدَهُ ، وَأَكْرَمَ زَوْجَتَهُ تَكْفَاتَ ٱلْبَرْبَرِيَّةَ ٱلَّتِي خَبَّأَتْهُ تَحْتَ ثِيَابِهَا عِنْدَ مَا فَتَّشَتْ رُسُلُ ٱبْنِ حَبِيبٍ بَيْتَهَا عَنْهُ ، فَقَالَ لَهَا

عَبْدُ الرَّحْمٰنِ مُدَاعِبًا حِينَ اسْتَظَلَّتْ بِظِلِّهِ فِي الْأَنْدَلُسِ : لَقَدْ عَذَّبْتِنِي بِرِيحِ إِبِطَيْكِ يَاتَكْفَاتُ عَلَى مَا كَانَ بِي مِنَ الْخَوْفِ ، وَسَطَعْتِي(١) بِأَنْتَنَ مِنْ رِيحِ الْجِيَفِ . فَكَانَ جَوَابُهَا لَهُ مُسْرِعَةً : بَلْ ذٰلِكَ كَانَ وَاللّٰهِ يَاسَيِّدِي مِنْكَ خَرَجَ وَلَمْ تَشْعُرْ بِهِ مِنْ فَرْطِ فَزَعِكَ . فَاسْتَظْرَفَ جَوَابَهَا ، وَأَغْضَى عَنْ مُوَاجَهَتِهَا بِمِثْلِ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مِنْ آفَاتِ الْمُزَاحِ(٢) . وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّهُ أَدَارَ السُّورَ بِقُرْطُبَةَ — رَحِمَهُ اللّٰهُ —

---

(١) يقال سطعته رائحة المسك تسطعه : اذا طارت الى أنفه ، وسطعت الرائحة سطوعا : فاحت وعلت .

(٢) قال الشاعر :

فاياك اياك المزاح فانه يجرى عليك الطفل والدنس النذلا

وقالوا : المزاح يبدى المهانة ويذهب المهابة ، والغالب فيه واتر ، والمغلوب ثائر . ولكن لابأس بالمفاكهة تخرج الرجل من حال العبوس ، والناس فى سجن مالم يتمازحوا ، ولكن لابد من القصد فيه فان الافراط به يذهب البهاء ويجرئ على المرء السفهاء ، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين وقد كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول الا حقا « أحمد نجاتى »

***

« وَتَوَلَّى ٱلْمُلْكَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ هِشَامٌ* بِعَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ » تولية هشام

وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ ٱسْمُهَا حُلَلُ ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ بِمَارِدَةَ وَالٍ عَلَيْهَا ، وَكَانَ أَبُوهُ يُوَلِّيهِ فِي صِبَاهُ وَيُرَشِّحُهُ لِلْأَمْرِ ، وَكَانَ ٱلدَّاخِلُ كَثِيرًا مَا يَسْأَلُ عَنِ ٱبْنَيْهِ سُلَيْمَانَ(١) وَهِشَامٍ

* ترجم له فى كتاب تاريخ العرب والاسلام لأبى العيون « ج ٢ ص ١٢٢ » بما يأتى :

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان : تولى الامارة بعهد من أبيه ، « من سنة احدى وسبعين ومائة الى سنة ثمانين ومائة » وقد غلب عليه الحلم والاحسان والزهد، اتبع سنة العدل فى الرعية فأحبته ، وأنشأ العمارات ، وعطف على الفقراء والمساكين ، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، فكان يبث العيون والأرصاد بين القرى والأمصار ليخبروه بمتجددات الأحوال حتى يقوم بما يجب لها ، توفى سنة ثمانين ومائة هجرية (قلت) وكنية هشام أبو الوليد، وكانت أمه أم ولد، وكان أبيض أشهل مشربا بحمرة بعينيه حول، وكان عاملا عاقلا حازما ذا رأى سديد وشجاعة حكيمة محبا لأهل الخير والصلاح شديدا على الأعداء راغبا فى الجهاد، و بلغ من عز الاسلام فى أيامه أن رجلا توفى فى عهده وكان قد وصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته فطلب ذلك فلم يوجد فى دار الكفار أسير مسلم يشترى لقوة المسلمين وضعف أعدائهم . ومناقبه — رحمه الله — كثيرة ، وخلف من الذرية خمسة بنين «أحمد نجاتى»

(١) أفضى اليه : وصل اليه . (٢) هو أكبر أبنائه وكان واليا على طليطلة

فَيُذْكَرُ لَهُ أَنَّ هِشَامًا إِذَا حَضَرَ مَجْلِسًا امْتَلَأَ أَدَبًا وَتَارِيخًا وَذِكْرًا لِأُمُورِ الْحَرْبِ وَمَوَاقِفِ الْأَبْطَالِ وَمَا أَشْبَهَ ذَٰلِكَ ، وَإِذَا حَضَرَ سُلَيْمَانُ مَجْلِسًا امْتَلَأَ سُخْفًا وَهَذَيَانًا[1] ، فَيَكْبُرُ هِشَامٌ فِي عَيْنِهِ بِمِقْدَارِ مَا يَصْغُرُ سُلَيْمَانُ . وَقَالَ يَوْمًا لِهِشَامٍ لِمَنْ هَٰذَا الشِّعْرُ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا[2]

وَمِنْ خَالِهِ أَوْمِنْ يَزِيدَ وَمِنْ حُجُرْ[3]

سَمَاحَةَ ذَا مَعْ بِرِّ ذَا وَوَفَاءِ ذَا

وَنَائِلِ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرْ

فَقَالَ لَهُ يَاسَيِّدِي لِامْرِئِ الْقَيْسِ[4] مَلِكِ كِنْدَةَ ،

---

(١) الهذيان : الكلام الذى لاطائل تحته (٢) جمع شمال ، هوالخلق والطبع
(٣) يقرأ بضم الجيم اتباعا لضمة الحاء قبله ، وسكون الراء .
(٤) هما من قصيدة يمدح فيها سعد بن الضباب ، وسعد هذا أخو امرىء القيس وذلك أن أم سعد كانت تحت حجر أبى امرىء القيس فطلقها وهى حامل ولم يعلم بها فتزوجها الضباب فولدت سعدا على فراشه فلحق به نسبه وسقط نسبه الى حجر ، وهذا يدل على أن العرب كانت تجعل الولد للفراش ، وأول القصيدة :

لعمرك ماقلبي الى أهله بحر ولا مقصر يوما فيأتيني بقر

وَكَأَنَّهُ قَالَهُ فِي الْأَمِيرِ ـ أَعَزَّهُ اللهُ ـ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ اسْتِحْسَانًا بِمَا سَمِعَ مِنْهُ وَأَمَرَ لَهُ بِإِحْسَانٍ كَثِيرٍ، وَزَادَ فِي عَيْنِهِ، ثُمَّ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَى انْفِرَادٍ: لِمَنْ هٰذَا الشِّعْرُ؟ وَأَنْشَدَهُ الْبَيْتَيْنِ ـ فَقَالَ: لَعَلَّهُمَا لِأَحَدِ أَجْلَافِ(١) الْعَرَبِ، أَمَالِي شُغْلٌ غَيْرُ حِفْظِ أَقْوَالِ بَعْضِ الْأَعْرَابِ؟ فَأَطْرَقَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ وَعَلِمَ قَدْرَ مَا بَيْنَ الِاثْنَيْنِ مِنَ الْمَزِيَّةِ. وَلَمَّا وَلِيَ هِشَامٌ أَشْخَصَ(٢) الْمُنَجِّمَ الْمَعْرُوفَ بِالضَّبِّيِّ مِنْ وَطَنِهِ الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ إِلَى قُرْطُبَةَ ـ وَكَانَ فِي عِلْمِ النُّجُومِ وَالْمَعْرِفَةِ بِالْحَرَكَاتِ الْعُلْوِيَّةِ بَطْلَيْمُوسَ زَمَانِهِ حِذْقًا وَإِصَابَةً ـ فَلَمَّا أَتَاهُ خَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ: يَاضَبِّيُّ لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ عَنَاكَ مِنْ أَمْرِنَا إِذْ بَلَغَكَ

يقال للرجل اذا نزلت به مصيبة فلم يصبر عليها: ماوجد فلان حرا ، فهو يقول ان قلبه لم يكن فى الجزع حرا يعنى انه لم يصبر ـ وهذا من رقيق الغزل ، أى أن قلبي يعتقد أن الجزع فى الحب أحسن من الصبر ، والى هذا نظر أبو تمام اذ يقول :

الصبر أجمل غير أن تلذذا فى الحب أحرى أن يكون جميلا

وقوله ولا مقصر : أى ولا هو نازع عما هو عليه ، وقوله فيأتيني بقر أى لم أستطع الصبر عنهم فأستقر وأهدأ (١) الجلف : الغليظ الجافى خلقه والأحمق ، والجمع أجلاف (٢) أشخص : بعث ، وشخص من بلد الى بلد اذا ذهب ـ وأشخصه من المكان : أزعجه وأقلقه فذهب

مَالَمْ نَدَعْ تَحْدِيدَ(١) النَّظَرِ فِيهِ ، فَأَنْشُدُكَ(٢) اللّٰهَ إِلَّا مَا نَبَّأْتَنَا بِمَا ظَهَرَ لكَ فِيهِ ، فَلَجْلَجَ(٣) وَقَالَ : أَعْفِنِى أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَإِنِّى أَلْمَمْتُ(٤) بِهِ وَلَمْ أُحَقِّقِ النَّظَرَ فِيهِ لِجَلَالَتِهِ فِى نَفْسِى ، فَقَالَ لَهُ قَدْ أَجَّلْتُكَ لِذَلِكَ ، فَتَفَرَّغْ لِلنَّظَرِ فِيمَا بَقِىَ عَلَيْكَ مِنْهُ . ثُمَّ أَحْضَرَهُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِى سَأَلْتُكَ عَنْهُ جَدٌّ مِنِّى مَعَ أَنِّى وَاللّٰهِ مَا أَثِقُ بِحَقِيقَتِهِ ، إِذْ كَانَ مِنْ غَيْبِ اللّٰهِ الَّذِى اسْتَأْثَرَ بِهِ ، وَلٰكِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ مَا عِنْدَكَ فِيهِ ، فَالنَّفْسُ طُلَعَةٌ(٥) ، وَأَلْزَمَهُ الصِّلَةَ أَوِ الْعُقُوبَةَ(٦) ، فَقَالَ : أَعْلَمْ أَيُّهَا

---

(١) حد بصره فى الشىء : والیه ، وأحده : حدقه ورماه به ، والغرض هنا اطالة التفكير واعمال الروية فى الأمر وشدة الاهتمام به (٢) أى أسألك بالله (٣) اللجلجة : أن يتكلم الرجل بلسان غير بين ، ونقص الكلام والتردد فيه وألا يخرج بعضه فى أثر بعض (٤) أى لم أحقق علمه ولم أتعمق فيه بل كدت أصل اليه وأقار به ، ومنه اللمم وهو صغار الذنوب ، ويقال مايز ورنا الا لماما : أى أحيانا على غير مواظبة (٥) أى تكثر التطلع الى الشىء والوقوف عليه ، ومنه حديث الحسن البصرى : ان هذه النفوس طلعة فاقدعوها بالمواعظ والا نزعت بكم الى شر غاية . وقال الشاعر :

وما تمنيت من مال ومن عمر الا بما سر نفس الحاسد الطلعه

(٦) أى ألزمه أحد الأمرين اما أن يصدع بما يعلمه ويخبره به على جليته فيصله ، واما أن يكتمه ولا يبوح به فيعاقبه

ٱلْأَمِيرُ أَنَّهُ سَوْفَ يَسْتَقِرُّ مُلْكُكَ ، سَعِيدًا جَدُّكَ ، قَاهِرًا لِمَنْ عَادَاكَ ، إِلَّا أَنَّ مُدَّتَكَ فِيهِ فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ ٱلنَّظَرُ تَكُونُ ثَمَانِيَةَ أَعْوَامٍ أَوْ نَحْوَهَا . فَأَطْرَقَ[١] سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : يَاضَبِّيُّ مَا أَخْوَفَنِي أَنْ يَكُونَ ٱلنَّذِيرُ[٢] كَلَّمَنِي بِلِسَانِكَ ، وَٱللهِ لَوْ أَنَّ هَٰذِهِ ٱلْمُدَّةَ كَانَتْ فِي سَجْدَةٍ لِلهِ تَعَالَى لَقَلَّتْ طَاعَةً لَهُ . وَوَصَلَهُ وَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَزَهِدَ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَزِمَ أَفْعَالَ ٱلْخَيْرِ وَٱلْبِرِّ « وَمِنْ حِكَايَاتِهِ فِي ٱلْجُودِ » أَنَّهُ كَانَ قَاعِدًا لِرَاحَتِهِ فِي عُلِّيَّةٍ[٣] عَلَى ٱلنَّهْرِ فِي حَيَاةِ وَالِدِهِ ، فَنَظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قُدَمَاءِ صَنَائِعِهِ مِنْ أَهْلِ جَيَّانَ قَدْ أَقْبَلَ يُوضِعُ[٤] ٱلسَّيْرَ فِي ٱلْهَاجِرَةِ[٥] ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَدَّرَ شَرًّا وَقَعَ بِهِ مِنْ قِبَلِ أَخِيهِ سُلَيْمَانَ ـ وَكَانَ وَالِيًا

---

(١) أطرق الرجل اذا سكت وخصه بعضهم : اذا كان عن فرق وخوف ، وقيل اذا سكت وأطرق ببصره الى صدره ساكنا (٢) النذير المنذر الذى يعلم القوم بما يكون قد دهمهم من عدو أو غيره ، وهو المخوف أيضا ـ وأنذره بالأمر أعلمه به وحذره منه وخوفه فى ابلاغه ـ ونذر بالشىء : علمه فحذره (٣) العلية : الغرفة (٤) يوضع السير : يسرعه (٥) الهاجرة : وقت اشتداد الحر فى الظهيرة

عَلَى جَيَّانَ – فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَهْيَمْ[١] يَا كِنَانِيُّ فَلِأَمْرٍ مَّا ؟ وَمَا أَحْسَبُكَ إِلَّا مُزْعَجًا لِشَيْءٍ دَهَمَكَ[٢] » فَقَالَ : نَعَمْ يَاسَيِّدِى ، قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِى رَجُلًا خَطَأً فَحُمِلَتِ الدِّيَةُ عَلَى الْعَاقِلَةِ[٣] ، فَأُخِذَ بِهَا مِنْ كِنَانَةَ عَامَّةً وَحَمَلْنَا[٤] عَلَيَّ مِنْ بَيْنِهِمْ خَاصَّةً ، وَقَصَدَنِى أَخُوكَ بِالِاعْتِدَاءِ إِذْ عَرَفَ مَكَانِى مِنْكَ . فَمَدَّ هِشَامٌ يَدَهُ إِلَى جَارِيَةٍ كَانَتْ وَرَاءَ السِّتْرِ وَقَطَعَ قِلَادَةَ عِقْدٍ نَفِيسٍ كَانَ فِى نَحْرِهَا وَقَالَ لَهُ دُونَكَ[٥] هَذَا الْعِقْدَ يَا كِنَانِيُّ ، وَشِرَاؤُهُ عَلَيَّ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، فَلَا تُخْدَعَنَّ[٦] عَنْهُ وَبِعْهُ وَأَدِّ عَنْ نَفْسِكَ

---

(١) مهيم كلمة استفهام معناها : ما حالك وما شأنك ؟ أوما حدث لك ؟ أو ما الخبر ،وهى كلمة يمانية اسم فعل بمعنى أخبرنى ، ومنه الحديث أنه رأى على عبد الرحمن بن عوف وضرا من صفرة فقال مهيم ؟ فقال تزوجت امرأة من الأنصار على نواة من ذهب ، فقال أو لم ولو بشاة
(٢) دهمه الأمر (كمنع وسمع) غشيه ونزل به فجأة ، والدهم : الغائلة
(٣) العاقلة : قرابة الرجل وعشيرته وعصبته من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ (٤) فى العبارة شيء من الغموض ولعل الأصل « وحمل على من بينهم خاصة» أو : وحملنا من بينهم خاصة (٥) أى خذ (٦) أى لا يخدعك بعض الناس يوهمك أنه غير ثمين فيشتريه منك بثمن بخس

وَعَنْ قَوْمِكَ ، وَلَا تُمَكِّنِ ٱلرَّجُلَ مِنِ ٱهْتِضَامِكَ(١).
فَقَالَ يَاسَيِّدِى لَمْ آتِكَ مُسْتَجْدِياً(٢) ، وَلَا لِضِيقِ ٱلْمَالِ
عَمَّا حُمِّلْتُهُ ، وَلَكِنِّي لَمَّا ٱعْتُمِدْتُ(٣) بِظُلْمٍ صُرَاحٍ(٤) أَحْبَبْتُ
أَنْ يَظْهَرَ عَلَيَّ عِزُّ نَصْرِكَ ، وَأَثَرُ ذَبِّكَ(٥) وَٱمْتِعَاضِكَ(٦) ،
فَأَتَمَجَّدَ(٧) بِذَلِكَ عِنْدَ مَنْ يَحْسُدُنِى عَلَى ٱلانْتِمَاءِ إِلَيْكَ .
فَقَالَ هِشَامٌ : فَمَا وَجْهُ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : أَنْ تَكْتُبَ إِلَى
أَخِيكَ فِى ٱلْإِمْسَاكِ عَنِّى ، وَٱلْقِيَامِ بِذِمَّتِكَ(٨) لِى ، فَقَالَ
أَمْسِكِ ٱلْعِقْدَ ، وَرَكِبَ مِنْ حِينِهِ إِلَى وَالِدِهِ ٱلدَّاخِلِ ،
وَٱسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فِى وَقْتٍ أَنْكَرَهُ ، فَٱنْزَعَجَ وَقَالَ :
مَا أَتَى بِأَبِى ٱلْوَلِيدِ فِى هَذَا ٱلْوَقْتِ إِلَّا أَمْرٌ مُقْلِقٌ ،
إِيذَنُوا لَهُ . فَلَمَّا دَخَلَ سَلَّمَ عَلَيْهِ وَمَثَلَ قَائِماً بَيْنَ يَدَيْهِ ،
فَقَالَ لَهُ : ٱجْلِسْ يَاهِشَامُ ، فَقَالَ : — أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ —
يَاسَيِّدِى وَكَيْفَ جُلُوسِى بِهَمٍّ وَذُلٍّ مُزْعِجٍ ؟ وَحَقَّ

(١) هضمه واهتضمه وتهضمه : اذا ظلمه وغصبه حقه وقهره .
(٢) مستجديا: طالبا جدوى، أى عطاء واحسانا (٣) أى قصدت (٤) صراح: أى بين واضح يعرفه الناس (٥) ذبك : دفاعك وحمايتك (٦) الامتعاض : أن يشق الأمر المكروه على الانسان ويغضب له ويعظم عليه (٧) أى أفتخر وأظهر المجد والشرف : وتماجد الرجل : ذكر مجده (٨) ذمة :عهد وحرمة

لِمَنْ قَامَ مَقَامِى أَلَّا يَجْلِسَ إِلَّا مُطْمَئِنًّا ، وَلَنْ يُقْعِدَنِى إِلَّا طِيبُ نَفْسِى بِإِسْعَافِ ٱلْأَمِيرِ لِحَاجَتِى ، وَإِلَّا رَجَعْتُ عَلَى عَقِبِى . فَقَالَ لَهُ : حَاشَ لَكَ مِنَ ٱنْقِلَابِكَ(١) خَائِبًا ، فَاقْعُدْ مُجَابًا مُشَفَّعًا . فَجَلَسَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : فَمَا ٱلْحَدَثُ ٱلْمُقْلِقُ ؟ فَأَعْلَمَهُ . فَأَمَرَ بِحَمْلِ ٱلدِّيَةِ عَنْهُ وَعَنْ عَشِيرَتِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ ، فَسُرَّ هِشَامٌ وَأَطْنَبَ فِى ٱلشُّكْرِ ، وَكَتَبَ ٱلْأَمِيرُ إِلَى وَلَدِهِ سُلَيْمَانَ فِى تَرْكِ ٱلتَّعَرُّضِ لِهَذَا ٱلْكِنَانِيِّ بِمَا لَمْ يَدُرْ فِى خَلَدِهِ .

***

وداع الكنانى لهشام

وَلَمَّا دَخَلَ ٱلْكِنَانِيُّ لِوَدَاعِ هِشَامٍ قَالَ لَهُ : يَاسَيِّدِى ، قَدْ تَجَاوَزْتُ بِكَ حَدَّ ٱلْأُمْنِيَّةِ ، وَبَلَغْتُ غَايَةَ ٱلنَّصْرِ ، وَقَدْ أَغْنَى ٱللهُ عَنِ ٱلْعِقْدِ ٱلْمَبْذُولِ بَيْنَ يَدَى ٱلْعِنَايَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ، فَتُعِيدُهُ إِلَى صَاحِبَتِهِ . فَأَبَى مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : لَا سَبِيلَ إِلَى رُجُوعِهِ إِلَيْنَا . وَكَانَ هِشَامٌ يَذْهَبُ بِسِيرَتِهِ مَذْهَبَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ، وَكَانَ يَبْعَثُ بِقَوْمٍ مِنْ ثِقَاتِهِ إِلَى ٱلْكُوَرِ(٢) ، فَيَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ

(١) أى رجوعك وعودتك (٢) الكور : جمع كورة ، وهى المدينة والصقع

عَنْ سِيَرِ عُمَّالِهِ، وَيُخْبِرُونَهُ بِحَقَائِقِهَا ، فَإِذَا أُنْتَهَى إِلَيْهِ حَيْفٌ[1] مِنْ أَحَدِهِمْ أَوْقَعَ بِهِ وَأَسْقَطَهُ ، وَأَنْصَفَ مِنْهُ وَلَمْ يَسْتَعْمِلْهُ بَعْدُ .

وَلَمَّا وَصَفَهُ زِيَادُ بْنُ[2] عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ : نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُزَيِّنَ مَوْسِمَنَا[3] بِمِثْلِ هَذَا .

***

فتح أربونة

وَفِي أَيَّامِهِ فُتِحَتْ أَرْبُونَةُ[4] الشَّهِيرَةُ، وَاشْتَرَطَ عَلَى الْمُعَاهِدِينَ مِنْ أَهْلِ جِلِّيقِيَّةَ مِنْ صِعَابِ شُرُوطِهِ أُنْتِقَالَ عَدَدٍ مِنْ

---

(١) الحيف : الظلم والجور (٢) زياد بن عبد الرحمن بن زياد دخل الأندلس مع عبد الرحمن الداخل وهو من أهل الشام ، وكان منزل بني زياد بها مشهورا بين غزة و بيت المقدس . وابنه محمد بن زياد بن عبد الرحمن الأندلسي ولي القضاء بالأندلس في امارة عبد الرحمن بن الحكم و ولي الصلاة في امارة ولده محمد بن عبد الرحمن، وتوفي هناك سنة بضع وأربعين ومائتين . ومن نسله بالأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الله بن محمد بن زياد بن أحمد بن زياد بن عبد الرحمن من أهل قرطبة ، وتولى القضاء في الفتنة ببعض الكور ، ولد سنة ٣٤٧ وتوفي سنة ٤٣٠ .

(٣) موسم الحج مجتمعه ، وكذا موسم السوق « وأظن الامام رضي الله عنه يعرض ببعض خلفاء بني العباس » (٤) أربونة : بفتح أوله و يضم ثم السكون وضم الباء الموحدة وسكون الواو ونون وهاء ــ بلد في طرف الثغر من بلاد الأندلس ، وهي الآن بيد الأفرنج بينها و بين قرطبة على ما ذكره ابن الفقيه ألف ميل . والله أعلم . معجم البلدان « ج١ ص١٧٦ »

أَحْمَالَ ٱلتُّرَابِ مِنْ سُورِ أَرْبُونَةَ ٱلْمُفْتَتَحَةِ يَحْمِلُونَهَا إِلَى بَابِ قَصْرِهِ بِقُرْطُبَةَ ، وَبَنَى مِنْهُ ٱلْمَسْجِدَ ٱلَّذِي قُدَّامَ بَابِ ٱلْجِنَانِ ، وَفَضَلَتْ مِنْهُ فَضْلَةٌ بَقِيَتْ مُكَوَّمَةً . وَقَاسَى مَعَ ٱلْمُخَالِفِينَ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ [(١)] وَغَيْرِهِمْ حُرُوباً ، ثُمَّ كَانَتِ ٱلدَّائِرَةُ لَهُ . وَقَصَدَ إِلَى بِلَادِ ٱلْحَرْبِ غَازِياً ، وَقَصَدَ أَلْبَةَ [(٢)] وَٱلْقِلَاعَ فَلَقِيَ ٱلْعَدُوَّ وَظَفِرَ بِهِمْ ، وَفَتَحَ ٱللهُ عَلَيْهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ ، وَبَعَثَ ٱلْعَسَاكِرَ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ مَعَ يُوسُفَ ٱبْنِ نَجِيَّةَ [(٣)] ، فَلَقِيَ مَلِكَهَا ٱبْنَ مَنْدَهْ [(٤)] وَهَزَمَهُ وَأَثْخَنَ [(٥)] فِي ٱلْعَدُوِّ . وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ بَعَثَ وَزِيرَهُ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ ٱبْنَ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ بْنِ مُغِيثٍ لِغَزَاةِ ٱلْعَدُوِّ ، فَبَلَغَ أَلْبَةَ

(١) منهم أخوه سليمان غص بولايته فأظهر له الخلاف بطليطلة ولحق به أخوه عبد الرحمن فحار به وظفر به حتى دخل فى طاعته ولـكنه مالبث أن عاد الى خلافه فحاصره بتدمير ثم طلب العبور الى عدوة البربر بأهله و ولده فأجازه هشام وأعطاه مالا جزيلا وأقام بعدوة المغرب وسار معه أخوه عبد الله (٢) مأخوذ من اسمها القديم Alaba وهى مدينة بين وادى نهر ابره واسناد جبال البرنات وكان عندها فتوحات للعرب « وألبة مدينة من نواحى اشبيلية وأخرى من نواحى استجة » (٣) فى ابن خلدون « نحية » وفى ابن الأثر (بخت) (٤) أظنها محرفة عن (برمند) فانه فى سنة ١٧٣ مات ملك جليقية الذى كان يدعى لدى العرب « مورقاط » وولى من بعده « برمند بن قلورية القس » (٥) أثخن فى العدو : بالغ فى جراحه والفتك فيه .

وَالْقِلَاعَ ، فَأَثْخَنَ فِي نَوَاحِيهَا ، ثُمَّ بَعَثَهُ فِي الْعَسَاكِرِ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ إِلَى أَرْبُونَةَ وَجَرَنْدَةَ (١) فَأَثْخَنَ فِيهَا ، وَوَطِئَ أَرْضَ بَرْطَانِيَةَ ، وَتَوَغَّلَ عَبْدُ الْمَلِكِ فِي بِلَادِ الْكُفَّارِ وَهَزَمَهُمْ ، ثُمَّ بَعَثَ الْعَسَاكِرَ مَعَ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ إِلَى أَلْبَةَ وَالْقِلَاعِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ ، وَمَعَ أَخِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ إِلَى بِلَادِ جِلِّيقِيَّةَ ، فَانْتَهَى إِلَى أَسْتُرْقَةَ ، فَجَمَعَ لَهُ مَلِكُ الْجَلَالِقَةِ ، وَاسْتَمَدَّ بِمَلِكِ الْبَشْكَنْسِ (٢) ثُمَّ خَامَ (٣) عَنِ اللِّقَاءِ وَرَجَعَ أَدْرَاجَهُ (٤) ، وَاتَّبَعَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ ، وَكَانَ هِشَامٌ قَدْ بَعَثَ الْجُيُوشَ

(١) وكان بجرندة حامية الفرنج فبدأ بها عبد الملك فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها فرحل عنها الى أربونة ففعل مثل ذلك (٢) استعان ملك الجلالقة بملك البشكنس وهم جيرانه ومن يليهم من المجوس وأهل تلك النواحي فصار في جمع عظيم فأقدم عليه عبد الملك فرجع الأذفونش هيبة له وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوخ بلادهم وأوغل فيها وأقام بها يفتك ويغنم وعاد سالما (٣) خام عنه يخيم: نكص وجبن (٤) يقال رجع أدراجه أي عاد من حيث جاء ورجع في الطريق الذي جاء منه « وأدراج جمع درج وهو الطريق» وأكثر مايقال ذلك للمرء اذا طلب شيئا فلم يقدر عليه ورجع ولم يصب شيئا — ومثله « نكص على عقبيه »

مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، فَالْتَقَوْا بِعَبْدِ الْمَلِكِ، وَأَثْخَنُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَضَتْهُمْ عَسَاكِرُ الْفِرَنْجِ، فَنَالُوا مِنْهُمْ بَعْضَ الشَّيْءِ[١] ثُمَّ خَرَجُوا سَالِمِينَ ظَافِرِينَ.

***

تجديد قنطرة قرطبة

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّهُ جَدَّدَ الْقَنْطَرَةَ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ بِقُرْطُبَةَ كَمَا سَبَقَ، وَكَانَ بَنَاهَا السَّمْحُ الْخَوْلَانِيُّ عَامِلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَأَحْكَمَ هِشَامٌ بِنَاءَهَا إِلَى الْغَايَةِ، وَقَالَ يَوْمًا لِأَحَدِ وُزَرَائِهِ: مَا يَقُولُ أَهْلُ قُرْطُبَةَ؟ فَقَالَ: يَقُولُونَ مَا بَنَاهَا الْأَمِيرُ إِلَّا لِيَمْضِيَ عَلَيْهَا إِلَى صَيْدِهِ وَقَنَصِهِ، فَآلَى[٢] هِشَامٌ عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَسْلُكَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْهَا بَعْدُ، وَوَفَى بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ. ثُمَّ تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَمِائَةٍ لِسَبْعِ سِنِينَ وَتِسْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ إِمَارَتِهِ، وَقِيلَ لِثَمَانٍ. وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، كَثِيرَ

---

(١) لما قفل المسلمون من غزوتهم هذه ضل الدليل بهم فنالهم مشقة شديدة ومات منهم خلق كثير ونفقت دوابهم وتلفت آلاتهم ثم سلموا وعادوا.

(٢) آلى على نفسه: أقسم وحلف

ٱلْغَزْوِ وَٱلْجِهَادِ ، وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَيْضًا إِكْمَالُ بِنَاءِ ٱلْجَامِعِ بِقُرْطُبَةَ ، وَكَانَ أَبُوهُ شَرَعَ فِيهِ .

وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّهُ أَخْرَجَ ٱلْمُصَدِّقَ(١) لِأَخْذِ ٱلزَّكَاةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ ـ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ ـ وَعُمْرُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَوُلِدَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ

***

تولية الحكم ابن هشام

وَوَلِيَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ ٱلْحَكَمُ بِعَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ فَاسْتَكْثَرَ مِنَ ٱلْمَمَالِيكِ، وَٱرْتَبَطَ ٱلْخَيْلَ ،وَٱسْتَفْحَلَ(٢) مُلْكُهُ ، وَبَاشَرَ ٱلْأُمُورَ بِنَفْسِهِ ، وَفِي خِلَالِ فِتْنَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمَّيْهِ اغْتَنَمَ ٱلْعَدُوُّ ٱلْكَافِرُ ٱلْفُرْصَةَ فِي بِلَادِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَقَصَدَ بَرْشِلُونَةَ (٣) فَمَلَكُوهَا سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ ،وَتَأَخَّرَتْ

---

(١) المصدق : آخذ الصدقات أى الحقوق من الابل والغنم يقبضها و يجمعها لتصرف فى مصارفها. والمتصدق هو معطى الصدقة(٢)أى اشتد وعظم(٣) ثغر على البحر الأبيض المتوسط فى الشمال الشرقى من أسبانيا Barcelone بناها القرطاجيون فى شمال الساحل الشرقى وكانوا يسمونها مدينة بر قة باسم القائد الفاتح (Barca) الذى بناها و بنوا فى جنوبها قلعة قرطاجنة. و بمدينة برشاونة عدة كنائس أثرية ، وكان يحتفل فيها بمصارعة الثيران

عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا دُونَهَا ، وَبَعَثَ الْحَكَمُ الْعَسَاكِرَ مَعَ الْحَاجِبِ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مُغِيثٍ إِلَى بِلَادِ الْجَلَالِقَةِ فَأَثْخَنُوا فِيهَا ، وَخَالَفَهُمُ الْعَدُوُّ إِلَى الْمَضَايِقِ ، فَرَجَعَ عَلَى التَّعْبِيَةِ ، وَظَفِرَ بِهِمْ وَخَرَجَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ ظَافِرًا .

وَكَانَتْ لَهُ الْوَقْعَةُ الشَّهِيرَةُ مَعَ أَهْلِ الرَّبَضِ(١) مِنْ قُرْطُبَةَ ، لِأَنَّهُ فِي صَدْرِ وِلَايَتِهِ كَانَ قَدِ انْهَمَكَ فِي لَذَّاتِهِ ، فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ بِقُرْطُبَةَ مِثْلُ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى اللَّيْثِيِّ(٢) صَاحِبِ مَالِكٍ ، وَأَحَدِ رُوَاةِ الْمُوَطَّإِ عَنْهُ ، وَطَالُوتَ الْفَقِيهِ

---

(١) الربض : ماحول المدينة من بيوت ومساكن (٢) هو أبو محمد يحيى ابن يحيى بن كثير « وكثير هو المكنى بأبي عيسى وهو الداخل الى الأندلس وهو كثير بن وسلاس بن شملل بن منقايا » وهو أحد الأعلام البرزين من أهل قرطبة أصله من البربر من مصمودة و يتولى بنى ليث ، سمع من زياد بن عبد الرحمن الموطأ ثم رحل الى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع الموطأ من الامام مالك بن أنس وسمع بمصر من الامام الليث ابن سعد وغيره وقدم الأندلس بعلم كثير فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى ابن دينار الى رأيه . و رحل ثانية الى الامام مالك فوجده عليلا فأقام عنده الى أن توفى رحمه الله وحضر جنازته ثم عاد الى الأندلس فكان امام وقته وواحد بلده علما وعقلا وثقة . قال محمد بن عمر بن لبابة :فقيه الأندلس

وَغَيْرِهِمَا ، فَثَارُوا بِهِ وَخَلَعُوهُ وَبَايَعُوا بَعْضَ قَرَابَتِهِ ، وَكَانُوا بِالرَّبَضِ الْغَرْبِيِّ مِنْ قُرْطُبَةَ ، وَكَانَ مَحِلَةً مُتَّصِلًا بِقَصْرِهِ[1] ، فَقَاتَلَهُمُ الْحَكَمُ ، فَغَلَبَهُمْ وَافْتَرَقُوا وَهَدَمَ دُورَهُمْ وَمَسَاجِدَهُمْ وَلَحِقُوا بِفَاسَ مِنْ أَرْضِ الْعُدْوَةِ ، وَبِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ أَرْضِ الْمَشْرِقِ ، وَنَزَلَ بِهَا جَمْعٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ ثَارُوا بِهَا فَزَحَفَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَاهِرٍ صَاحِبُ مِصْرَ لِلْمَأْمُونِ ابْنِ الرَّشِيدِ وَغَلَبَهُمْ وَأَجَازَهُمْ إِلَى جَزِيرَةِ أَقْرِيطِش[2] ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهَا إِلَى أَنْ مَلَكَهَا الْإِفْرَنْجُ مِنْ أَيْدِيهِمْ بَعْدَ مُدَّةٍ .

عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى ، وكان ممن اتهم في هيج الربض ففر الى طليطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانا وانصرف الى قرطبة ، وكان آخر من حدث عنه ابنه عبيد الله بن يحيى وتوفى يحيى رحمه الله سنة ٢٣٤ هـ (١) كان بالربض الغربي من قرطبة محلة متصلة بقصره

(٢) فتح بعض هذه الجزيرة في أيام هرون الرشيد ثم غزاها في أيام المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي واستمر يفتح فيها شيئا فشيئا حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وغزاها أيضا شعيب بن عمر بن عيسى ، وقيل فتحت بعد سنة ٢٥٠ على يد عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ وكان من أهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط بالأندلس وتوارثها عنه عقبه سنين كثيرة وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أناخ عليها الدمستق في خلافة المطيع العباسي حتى فتحت

***

حروب الحكم وفتوحه

وَكَانَتْ فِي أَيَّامِ ٱلْحَكَمِ حُرُوبٌ وَفِتَنٌ مَعَ ٱلثُّوَّارِ ٱلْمُخَالِفِينَ مِنْ أَهْلِ طُلَيْطُلَةَ وَغَيْرِهِمْ . وَفِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَتِسْعِينَ جَمَعَ لُذَرِيقُ بْنُ قَارِلَّةَ مَلِكُ ٱلفَرَنْجِ جُمُوعَهُ ، وَسَارَ إِلَى حِصَارِ طَرَسُونَةَ (١) ، فَبَعَثَ ٱلْحَكَمُ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱلرَّحْمَنِ فِي ٱلْعَسَاكِرِ فَهَزَمَهُ ، وَفَتَحَ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَعَادَ ظَافِرًا . وَلَمَّا كَثُرَ عَيْثُ (٢) ٱلفَرَنْجِ فِي ٱلثُّغُورِ بِسَبَبِ ٱشْتِغَالِ ٱلْحَكَمِ بِالْخَارِجِينَ عَلَيْهِ ، سَارَ بِنَفْسِهِ إِلَى ٱلْفَرَنْجِ سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ ، فَافْتَتَحَ ٱلثُّغُورَ وَٱلْحُصُونَ وَخَرَّبَ ٱلنَّوَاحِيَ ، وَأَثْخَنَ فِي ٱلْقَتْلِ وَٱلسَّبْيِ وَٱلنَّهْبِ ، وَعَادَ إِلَى قُرْطُبَةَ ظَافِرًا.

عنوة سنة ٣٥٠ وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي . وينسب اليها بعض الرواة منهم أبو بكر محمد ابن عيسى الأقريطشي وغيره (١) طرسونة : مدينة بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ وهي من أعمالها وكان يسكنها العمال ومقاتلة المسلمين الى أن تغلب عليها الروم . وبمدينة طرسونة توفى أبو حفص سعيد بن محمد ابن سعيد الجحى المقرى سنة ٥٠٨ . وبها قتل السمح بن مالك الخولانى أمير الأندلس ، قتله الروم فى ذى الحجة يوم عرفة سنة ١٠٢

(٢) عيث : فساد ، وعاث : أفسد واعتدى وأخذ بغير رفق

« وَفِي سَنَةِ مِائَتَيْنِ » بَعَثَ الْعَسَاكِرَ مَعَ ابْنِ مُغِيثٍ[1] إِلَى بِلَادِ الْفِرَنْجِ ، فَخَرَّبَ وَهَدَّمَ عِدَّةَ حُصُونٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَلِيطُ مَلِكُ الْجَلَالِقَةِ فِي جُمُوعٍ عَظِيمَةٍ وَتَنَازَلُوا عَلَى نَهْرٍ وَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ أَيَّامًا ، وَنَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ النَّيْلِ ، وَأَقَامُوا كَذَلِكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، ثُمَّ كَثُرَتِ الْأَمْطَارُ وَمَدَّ[2] النَّهْرُ ، وَقَفَلَ الْمُسْلِمُونَ ظَافِرِينَ ظَاهِرِينَ[3] وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَنَّدَ الْأَجْنَادَ وَاتَّخَذَ الْعُدَّةَ ، وَكَانَ أَفْحَلَ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَشَدَّهُمْ إِقْدَامًا وَنَجْدَةً ، وَكَانَ يُشَبَّهُ بِأَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي شِدَّةِ الْمُلْكِ ، وَتَوْطِيدِ الدَّوْلَةِ ، وَقَمْعِ الْأَعْدَاءِ . وَكَانَ يُؤْثِرُ الْفَقِيهَ زِيَادَ ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ[4] وَحَضَرَ يَوْمًا عِنْدَهُ وَقَدْ غَضِبَ فِيهِ

---

(١) هو الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن عبد المغيث ولم يكن عند الحكم من يوازيه فى قربه ومنزلته (٢) مد النهر : سال وكثر ماؤه وزاد (٣) اقرأ خبرهذه الغزوة فى تاريخ ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٠٠ (٤) هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زهير بن ناشرة بن حسين ابن الخطاب بن الحرث بن دبة بن الحرث اللخمى ينتهى نسبه الى لخم ابن عدى ، وقيل انه من ولد حاطب بن أبى بلتعة ، كان من أهل قرطبة وممن روى عن مالك بن أنس من أهل الأندلس ، وروى عن عبد الله ابن عقبة وعن الليث بن سعد وموسى بن على بن رباح وغيرهم ، وروى

عَلَى خَادِمٍ لَهُ لإيصَالِهِ إِلَيْهِ كِتَابًا كَرِهَ وُصُولَهُ ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ـأَصْلَحَ اللهُ الْأَمِيرَ ـ فَإِنَّ مَالِكَ بْنَ أَنسٍ حَدَّثَنِي فِي خَبَرٍ رَفَعَهُ ، « أَنَّ مَنْ كَظَمَ غَيْظًا يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَاذِهِ مَلَأَهُ اللهُ تَعَالَى أَمْنًا وَإِيمَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فَأَمَرَ أَنْ يُمْسَكَ عَنِ الْخَادِمِ وَيُعْفَى عَنْهُ ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ وَقَالَ آللهِ[1] إِنَّ مَالِكًا حَدَّثَكَ بِهَذَا ؟ فَقَالَ زِيَادٌ : آللهِ إِنَّ مَالِكًا حَدَّثَنِي بِهَذَا . وَكَانَتِ الْمَجَاعَةُ الشَّدِيدَةُ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ فَأَكْثَرَ فِيهَا مُوَاسَاةَ أَهْلِ الْحَاجَاتِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبَّاسُ بْنُ نَاصِحٍ الْجَزِيرِيُّ[2] فِيهِ :

عنه يحيى بن يحيى الموطأ قبل أن يرحل الى مالك ، وكان زياد جامعا بين العلم والعمل والفقة والورع ، وكان الأمير هشام بن الحكم يقول : صحبت الناس و بلوتهم فما رأيت رجلا يسر من الزهد أكثر مما يظهر إلا زياد بن عبد الرحمن ، وأراده هشام على القضاء فخرج هاربا بنفسه فقال هشام: ليت الناس كزياد حتى أكفى أهل الرغبة فى الدنيا ، وتوفى زياد سنة ٢٠٤ قبل موت الحكم بعامين . « أحمد نجاتى » .

(١) الله : قسم بمعنى والله (٢) وهو أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفي الشاعر من أهل الجزيرة رحل به أبوه صغيرا فنشأ بمصر وتردد بالحجاز طالبا

نَكِدَ الزَّمَانُ (١) فَآمَنَتْ أَيَّامُهُ

مِنْ أَنْ يَكُونَ بِعَصْرِهِ عُسْرُ

ظَلَعَ (٢) الزَّمَانُ بِأَزْمَةٍ فَجَلَا لَهُ (٣)

تِلْكَ الْكَرِيهَةَ جُودُهُ الْغَمْرُ (٤)

وَكَانَ نَقْشُ خَاتَمِهِ « بِاللهِ يَثِقُ الْحَكَمُ وَيَعْتَصِمُ » .

وَذُكُورُ وَلَدِهِ عِشْرُونَ وَإِنَاثُهُمْ عِشْرُونَ . وَأُمُّهُ

لغة العرب ثم رحل به أبوه الى العراق فلقى الأصمعى وغيره من علماء البصرة والكوفة ثم انصرف عن الأندلس فكان لايزال يستفهم عمن نجم بالمشرق من الشعراء بعد ابراهيم بن هرمة فأخبر عن الحسن بن هانئ وأنشد بعض شعره فقال لأجهدن أن ألقى هذا الرجل، ثم رحل الى العراق فلقيه واستنشده « ويقال ان أبا نواس قضى لعباس بالفضل على نفسه » ثم عاد الى الأندلس فاتصل بالحكم بن هشام وخدمه ونظم فيه مدائح غراء فاستقضاه على شذونة والجزيرة ، وولى القضاء بعده ابنه عبد الوهاب ابن عباس وكان شاعرا ، ثم ابن ابنه محمد بن عبد الوهاب وكان شاعرا ، فهم ثلاثة قضاة فى نسق وثلاثة شعراء فى نسق ، وكان عباس من أهل العلم باللغة جزل الشعر يسلك فيه مذاهب العرب القديمة ، وكان له حظ من الفقه والرواية ، ولم يشتهر ذلك عنه لغلبة الشعر عليه . « أحمد نجاتى » .

(١) نكد عيشه كفرح : اشتد وعسر ، وأرض نكاد: قليلة الخير

(٢) ظلع الزمان : كمنع ظلعا : أصيب وضعف كالظالع يغمز فى مشيه .

(٣) جلا الأمر : كشفه ، وجلا الهم عنه : أذهبه . (٤) الغمر الكثير الواسع ، والغمر الكريم السخى الواسع الخلق ، ورجل غمر الرداء : واسع العطاء كثير المعروف والجود

جَارِيَةٌ ٱسْمُهَا زُخْرُفُ ، وَكَانَ أَسْمَرَ طُوَالًا أَشَمَّ نَحِيفًا .
وَمُدَّةُ مُلْكِهِ سِتٌّ وَعِشْرُونَ سَنَةً ـ سَامَحَهُ ٱللّٰهُ ـ .

***

تعبئة المماليك

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَعَلَ لِلْمُلْكِ بِأَرْضِ ٱلْأَنْدَلُسِ أُبَّهَةً ، وَٱسْتَعَدَّ بِالْمَمَالِيكِ حَتَّى بَلَغُوا خَمْسَةَ آلَافٍ مِنْهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافِ فَارِسٍ وَأَلْفَا رَاجِلٍ . ثُمَّ تُوُفِّيَ ٱلْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ آخِرَ سَنَةِ سِتٍّ وَمِائَتَيْنِ لِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ وِلَايَتِهِ . وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ . وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَنَّدَ بِالْأَنْدَلُسِ ٱلْأَجْنَادَ وَٱلْمُرْتَزِقَةَ(١) وَجَمَعَ ٱلْأَسْلِحَةَ وَٱلْعُدَدَ، وَٱسْتَكْثَرَ مِنَ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَوَاشِي وَٱلْحَشَمِ(٢)، وَٱرْتَبَطَ ٱلْخُيُولَ عَلَى بَابِهِ، وَٱتَّخَذَ ٱلْمَمَالِيكَ وَكَانَ يُسَمِّيهِمُ ٱلْخُرْسَ لِعُجْمَتِهِمْ ، وَحَكَى فِي عِدَّتِهِمْ مَا تَقَدَّمَ ثُمَّ قَالَ : وَكَانَتْ لَهُ عُيُونٌ يُطَالِعُونَهُ(٣) بِأَحْوَالِ ٱلنَّاسِ ، وَكَانَ

(١) ارتزقوا : أخذوا أرزاقهم « وهو مطاوع رزق الأمير الجند » والمرتزقة أصحاب الجرايات والرواتب الموظفة (٢) حشم الرجل : خاصته الذين يغضبون له من أهل أو عبيد أو جيرة أو خدم إذا أصابه أمر (٣) يطالعونه بأحوال الناس : يعرضونها عليه، وطالعه بحقيقة الأمر : إذا أطلعه عليه وأخبره به

يُبَاشِرُ ٱلْأُمُورَ بِنَفْسِهِ ، وَيُقَرِّبُ ٱلْفُقَهَاءَ وَٱلْعُلَمَاءَ وَٱلصَّالِحِينَ، وَهُوَ ٱلَّذِى وَطَّأَ[١] ٱلْمُلْكَ لِعَقِبِهِ بِالْأَنْدَلُسِ ، انْتَهَى .

***

رباط الخيل على شاطىء النهر

وَكَانَ لَهُ فِيمَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ أَلْفَا فَرَسٍ مُرْتَبَطَةٍ عَلَى شَاطِىءِ ٱلنَّهْرِ بِقِبْلِيِّ قَصْرِهِ يَجْمَعُهَا دَارَانِ ، وَهُوَ ٱلْقَائِلُ لَمَّا قَتَلَ أَهْلَ ٱلرَّبَضِ وَهَدَّمَ دِيَارَهُمْ وَحَرَثَهَا[٢]

رَأَبْتُ[٣] صُدُوعَ ٱلْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعاً
وَقِدْماً لَأَمْتُ[٤] ٱلشَّعْبَ مُذْ كُنْتُ يَافِعَا
فَسَائِلْ ثُغُورِى هَلْ بِهَا ٱلْيَوْمَ[٥] ثُغْرَةٌ
أُبَادِرُهَا مُسْتَنْضِىَ[٦] ٱلسَّيْفِ دَارِعَا ؟
تُنَبِّيكَ أَنِّى لَمْ أَكُنْ فِى قِرَاعِهِمْ
بِوَانٍ[٧] وَقِدْماً مَا كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعَا

---

(١) أى مهدوثبت (٢) أظنها محرفة عن (خربها) (٣) رأب الصدع : أصلحه والصدع : الشق والكسر (٤) لأم الشعب : رتق الكسر وأصلح الفاسد (٥) الثغرة : موضع المخافة وهى فى الأصل كل جوبة أو عورة منفتحة وكل فرجة فى جبل أو بطن واد أوطريق مسلوك (٦) مستنضى : مستله من غمده ، ورجل دارع : عليه درع كأنه ذو درع « مثل لابن وتامر » (٧) الوانى المقصر ، والونى : الضعف والفتور والتعب والكلال والاعياء ، ونى فى الأمر ينى ونيا : ضعف وقصر وفتر ، وتوانى فى الأمر :قصر وأهمل

وَهَلْ زِدْتُ إِذْ وَفَّيْتُهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ

فَوَافَوْا مَنَايَا قُــدِّرَتْ وَمَصَارِعَا ؟

فَهَذِى بِلَادِى إِنَّنِى قَدْ تَرَكْتُهَا

مِهَادًا (١) وَلَمْ أَتْرُكْ عَلَيْهَا مُنَازِعَا

***

أخلاق الحكم وعاداته

وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِى حَقِّهِ : إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُجَاهِرِين بِالْمَعَاصِى السَّافِكِينَ لِلدِّمَاءِ وَلِذَلِكَ قَامَ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ وَالصُّلَحَاءُ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ تَنَصَّلَ (٢) أَخِيرًا وَتَابَ ـ سَامَحَهُ اللهُ ـ :

وَمِنْ نَظْمِهِ قَوْلُهُ مُتَغَزِّلًا :

قُضْبٌ مِنَ الْبَانِ مَاسَتْ (٣) فَوْقَ كُثْبَانِ

وَلَّيْنَ عَنِّى وَقَدْ أَزْمَعْنَ هِجْرَانِى

(١) المهاد جمع مهد وهو فى الأصل الموضع يهيأ للصبى ويوطأ لينام فيه ومهد الفراش (كمنع) ومهده : بسطه ووطأه وجعله وثيرا لينا ، وقوله تعالى : «ألم نجعل الأرض مهادا» أى بساطا وطيئا ممكنا سهلا للسلوك فى طرقه (٢) تنصل من ذنبه : خرج وتبرأ ، وانتفى منه واعتذر ، والغرض هنا أنه تاب وأقلع واستقام (٣) ماس : تمايل وتثنى وتبختر وتهادى كالعروس

وَمِنْهَا :

مَنْ لِى بِمُقْتَضِبَاتِ[1] ٱلرُّوحِ مِنْ بَدَنِى
يَغْصِبْنَنِى فِى ٱلْهَوَى عِزِّى وَسُلْطَانِى

وَقِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يُمْسِكُ أَوْلَادَ ٱلنَّاسِ وَيَخْصِيهِمْ ، وَنُقِلَتْ عَنْهُ أُمُورٌ ، وَلَعَلَّهُ تَابَ مِنْهَا كَمَا قَدَّمْنَا ، وَٱللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ .

***

شئ من بديع أخبار الحكم

وَمِنْ بَدِيعِ أَخْبَارِ ٱلْحَكَمِ أَنَّ ٱلْعَبَّاسَ ٱلشَّاعِرَ تَوَجَّهَ إِلَى ٱلثَّغْرِ فَلَمَّا نَزَلَ بِوَادِى ٱلْحِجَارَةِ سَمِعَ ٱمْرَأَةً تَقُولُ : وَاغَوْثَاهُ بِكَ يَاحَكَمُ ، لَقَدْ أَهْمَلْتَنَا حَتَّى كَلِبَ[2] ٱلْعَدُوُّ عَلَيْنَا فَأَيَّمَنَا[3] وَأَيْتَمَنَا ، فَسَأَلَهَا عَنْ شَأْنِهَا فَقَالَتْ : كُنْتُ مُقْبِلَةً مِنَ ٱلْبَادِيَةِ فِى رُفْقَةٍ فَخَرَجَتْ عَلَيْنَا خَيْلُ عَدُوٍّ فَقَتَلَتْ وَأَسَرَتْ ، فَصَنَعَ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِى أَوَّلُهَا :

---

(١) مقتضبات الروح : قاطعاتها ومزهقاتها ، يريد عشيقاته (٢) كلب العدو علينا : اشتد وقسا ، وكلب الدهر على أهله اذا ألح واشتد (٣) أيمنا : أفقدنا أزواجنا

تَمَلْمَلْتُ(١) فِي وَادِي الْحِجَارَةِ مُسْئِدًا(٢)
أُرَاعِي نُجُومًا مَا يَرَوْنَ(٣) تَغَيُّرَا

إِلَيْكَ أَبَا الْعَاصِي نَضَيْتُ(٤) مَطِيَّتِي
تَسِيرُ بِهَمٍّ سَارِيًا(٥) وَمُهَجِّرَا

تَدَارَكْ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ بِنُصْرَةٍ
فَإِنَّكَ أَحْرَى أَنْ تُغِيثَ وَتَنْصُرَا

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَنْشَدَهُ الْقَصِيدَةَ ، وَوَصَفَ لَهُ خَوْفَ الثَّغْرِ وَاسْتِصْرَاخَ(٦) الْمَرْأَةِ بِاسْمِهِ ، فَأَنِفَ وَنَادَى فِي الْحِينِ بِالْجِهَادِ وَالِاسْتِعْدَادِ ، فَخَرَجَ بَعْدَ ثَلَاثٍ إِلَى وَادِي الْحِجَارَةِ وَمَعَهُ الشَّاعِرُ ، وَسَأَلَ عَنِ الْخَيْلِ الَّتِي أَغَارَتْ

---

(١) تململ : تقلب على الفراش غما (٢) مسئدا : سائرا الليل كله ، والاسآد سرعة السير . وقد تكون مسئدا محرفة عن مسهدا وهو أنسب بالسياق ، فان التململ هو أن ينبو بالرجل مضجعه من هم أو وصب أو حزن أو غير ذلك فيسهد و يبيت متقلبا على فراشه كأنه يتقلب على شوك القتاد . « أحمد نجاتى » (٣) للمهاير ين (٤) أى هزلتها بالسير فذهب لحمها وقد تكون (نضيت) محرفة عن (نصصت) أى سقت (٥) ساريا : أى فى السرى ، وهو سير الليل ، والمهجر السائر فى الهاجرة وهو وقت شدة الحر نهارا (٦) أى استغاثة واستنجاد .

مِنْ أَىِّ أَرْضِ ٱلْعَدُوِّ كَانَتْ ؟ فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ ، فَغَزَا تِلْكَ ٱلنَّاحِيَةَ وَأَثْخَنَ فِيهَا ، وَفَتَحَ ٱلْحُصُونَ وَخَرَّبَ ٱلدِّيَارَ وَقَتَلَ عَــدَدًا كَثِيرًا ، وَجَاءَ إِلَى وَادِى ٱلْحِجَارَةِ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ ٱلْمَرْأَةِ وَجَمِيعِ مَنْ أُسِرَ لَهُ أَحَدٌ فِى تِلْكَ ٱلْبِلَادِ فَأُحْضِرَ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِ ٱلْأَسْرَى بِحَضْرَتِهَا ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ : سَلْهَا هَلْ أَغَاثَهَا ٱلْحَكَمُ ؟ فَقَالَتِ ٱلْمَرْأَةُ ـ وَكَانَتْ نَبِيلَةً ـ : وَٱللهِ لَقَدْ شَفَى ٱلصُّدُورَ ، وَأَنْكَى[1] ٱلْعَدُوَّ ، وَأَغَاثَ ٱلْمَلْهُوفَ فَأَغَاثَهُ ٱللهُ وَأَعَزَّ نَصْرَهُ . فَارْتَاحَ لِقَوْلِهَا وَبَدَا ٱلسُّرُورُ فِى وَجْهِهِ وَقَالَ :

أَلَمْ تَرَ يَا عَبَّاسُ أَنِّى أَجَبْتُهَا
عَلَى ٱلْبُعْدِ أَقْتَادُ ٱلْخَمِيسَ[2] ٱلْمُظَفَّرَا

فَأَدْرَكْتُ أَوْطَارًا وَبَرَّدْتُ غُــلَّةً
وَنَفَّسْتُ مَكْرُوبًا وَأَغْنَيْتُ مُعْسِرَا[3]

فَقَالَ عَبَّاسٌ : نَعَمْ ـ جَزَاكَ ٱللهُ خَيْرًا عَنِ ٱلْمُسْلِمِينَ ـ وَقَبَّلَ يَدَهُ

---

(١) أنكى العدو : قتل فيهم وجرح وأثخن (٢) أقتاد الخميس : أقود الجيش العظيم (٣) الغلة فى الأصل حرارة العطش ، ونفس عن المكروب اذا فرج عنه همه وكشف كربه

***

مقتل الفقيه أبي زكريا القيسي

« وَمِمَّا عِيبَ بِهِ » أَنَّهُ قَتَلَ الْفَقِيهَ أَبَا زَكَرِيَّا يَحْيَي ابْنَ مُضَرَ الْقَيْسِيَّ(١) وَكَانَ قُدْوَةً فِي الدِّينِ وَالْوَرَعِ ، سَمِعَ مِنْ سُفْيَانَ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وَرَوَى عَنْهُ مَالِكٌ وَقَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَي بْنُ مُضَرَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّ الطَّلْحَ الْمَنْضُودَ هُوَ الْمَوْزُ. وَكَانَ قَتْلَ الْمَذْكُورَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ

***

قيام عبدالرحمن ابنه بعده بالأمر

« وَقَامَ بِأَمْرِهِ مِنْ بَعْدُ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بِعَهْدٍ مِنْهُ إِلَيْهِ ثُمَّ لِأَخِيهِ الْمُغِيرَةِ بَعْدَهِ » فَغَزَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ لِأَوَّلِ وِلَايَتِهِ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ وَأَبْعَدَ وَأَطَالَ الْمَغِيبَ وَأَثْخَنَ فِي أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ هُنَالِكَ وَرَجَعَ .

(١) هو أبو زكريا يحي بن مضر القيسي من أهل قرطبة وهو شامي الأصل سمع من سفيان بن سعيد الثوري ومالك بن أنس وروى عنه يحي بن يحي بالأندلس قبل رحلته وكان عالما متفننا ، وكان ممن قتل يوم ثورة الربض . وفي الأصل يحي بن مطر الغساني وهو تصحيف خاطئ . « أحمد نجاتي » .

* ترجم له في كتاب تاريخ العرب والاسلام « ج ٢ لأبي العيون ص ١٢٤ » بما يأتي :

عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان :

تولى بعد وفاة أبيه ابتداء من سنة ست ومائتين الى سنة ثمان وثلاثين

***

وَقَدِمَ عَلَيْهِ سَنَةَ سِتٍّ وَمِائَتَيْنِ زِرْيَابُ[(١)]

قدوم زرياب المغنى

ومائتين هجرية وكان معاصرا للمأمون العباسى وكان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة سخيا محبا للعلماء والأدباء ،وكان كجده هشام فى الحلم والاحسان وفى أيامه كثرت الآطام والعمارات فاتخذ القصور والمتنزهات وجلب اليها المياه من الجبال وأقام الجسور وأكثر من المساجد فى القرى وغزا بلادا وفتح بها مدنا ووصلت جيوشه الى ليون بفرنسا ورموها بالمجانيق فهرب أهلها وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة .احتجب عن العامة وحف بالشعراء والبارعين فى الموسيقى وهو أول من أحدثها فى الأندلس . فأحدث فى العرب عظيم الرفة . عاقب مرة جارية فعلت غير مراده بسد باب مكانها بقطع من فضة وكلفها هدم ذلك بيدها توفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين هجرية

أقول : ولد عبد الرحمن بطليطلة أيام كان أبوه الحكم يتولاها لابيه هشام. واسم أمه حلاوة وكان بكر أبيه ، ووجد بخط أبيه أنه ولد لسبعة أشهر وكان جسيما وسيما حسن الوجه مليح الشمائل .

(١)زرياب بفتح الزاى بالفارسية معناه ماء الذهب عربوه بكسر الزاى وابدال الألف ياء وأطلقوا لفظ الزرياب على الذهب أومائه وعلى الأصفر من كل شىء وغلب على المغنى هذا ببلده قيل لسواد لونه مع فصاحة لسانه شبه بطائر أسود غريد يسمى الزرياب ــ وكان شاعرا مطبوعا أستاذا فى الموسيقى وعنه أخذ الناس ــ وقال عبد الملك بن حبيب مع زهده وعلمه وورعه فى أبيات له :

زرياب قد أعطيتها جملة وحرفتى أشرف من حرفته

وكان زرياب من أعلام المغنين بالشرق ، وأخذ الغناء عن الموصلى وبرز فيه حتى خشى على نفسه عاقبة هذا التبريز لمنزلة أستاذه من الخليفة الرشيد فهاجر الى الأندلس فأكرم أميرها وفادته وأحسن مثواه وغمره بفيض إنعامه. وعلت منزلته عندهم وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون ، وقد قدر دخله كل عام بنحو أربعة آلاف دينار ، وكان يجرى عندهم فى الغناء

ٱلْمُغَنِّى مِنَ ٱلْعِرَاقِ ـ وَهُوَ مَوْلَى ٱلْمَهْدِىِّ ، وَمُتَعَلِّمُ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِىِّ ، وَٱسْمُهُ عَلِىُّ بْنُ نَافِعٍ ـ فَرَكِبَ بِنَفْسِهِ لِتَلَقِّيهِ عَلَى مَا حَكَاهُ ٱبْنُ خَلْدُونَ، وَبَالَغَ فِى إِكْرَامِهِ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ بِخَيْرِ حَالٍ ، وَأَوْرَثَ صِنَاعَةَ ٱلْغِنَاءِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَخَلَّفَ أَوْلَادًا فَخَلَفَهُ كَبِيرُهُمْ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ فِى صِنَاعَتِهِ وَحُظْوَتِهِ .

***

غزوة ألبه والقلاع

وَفِى سَنَةِ ثَمَانٍ أَغْزَى حَاجِبَهُ عَبْدَ ٱلْكَرِيمِ بْنَ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ إِلَى أَلْبَةَ وَٱلْقِلَاعِ ، فَخَرَّبَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْبِلَادِ وَٱنْتَسَفَهَا ، وَفَتَحَ كَثِيرًا مِنْ حُصُونِهِمْ ، وَصَالَحَ بَعْضَهَا عَلَى ٱلْجِزْيَةِ وَإِطْلَاقِ أَسْرَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱنْصَرَفَ ظَافِرًا . وَفِى سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ بَعَثَ قَرِيبَهُ عُبَيْدَ ٱللهِ بْنَ ٱلْبَلَنْسِىِّ فِى ٱلْعَسَاكِرِ لِغَزْوِ أَلْبَةَ وَٱلْقِلَاعِ ، فَسَارَ وَلَقِىَ ٱلْعَدُوَّ فَهَزَمَهُمْ وَأَكْثَرَ ٱلْقَتْلَ وَٱلسَّبْىَ، ثُمَّ خَرَجَ لُذَرِيقُ مَلِكُ ٱلْجَلَالِقَةِ وَأَغَارَ عَلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ (١)

مجرى الموصلى بالعراق، وكان لديهم عمدة المغنين ،وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه ، ونهض بصناعة الغناء فى الأندلس واخترع للموسيقى نظاما خاصا جديدا وأضاف الى العود وترا خامسا وكان قبله على أربعة أوتار ،و وضع طرقا للغناء أصبحت علما خاصا اشتهرت به الأندلس لفوقها فيه ولا يزال أثره باقيا بها الى اليوم. «أحمد نجاتى»

(١) مدينة تتصل بأعمال باروشة ، وكانت من أعظم المدن وأشرفها

بالثَّغْرِ ، فَسَارَ إِلَيْهِ فَرْتُونُ بْنُ مُوسَى وَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ، وَأَكْثَرَ
ٱلْقَتْلَ وَٱلسَّبْيَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَٱلْأَسْرَ ، ثُمَّ سَارَ إِلَى ٱلْحِصْنِ ٱلَّذِي
بَنَاهُ أَهْلُ أَلْبَةَ بِالثَّغْرِ (١) نِكَايَةً لِلْمُسْلِمِينَ فَافْتَتَحَهُ وَهَدَّمَهُ ،
ثُمَّ سَارَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ فِي ٱلْجُيُوشِ إِلَى بِلَادِ جِلِّيقِيَّةَ فَدَوَّخَهَا (٢)
وَٱفْتَتَحَ عِدَّةَ حُصُونٍ مِنْهَا، وَجَالَ فِي أَرْضِهِمْ وَرَجَعَ بَعْدَ طُولِ
ٱلْمُقَامِ بِالسَّبْيِ وَٱلْغَنَائِمِ . وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَعِشْرِينَ بَعَثَ
عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْعَسَاكِرَ إِلَى أَرْضِ ٱلْفَرَنْجَةِ، وَٱنْتَهَوْا إِلَى أَرْضِ
بَرْطَانِيَةَ (٣) ، وَكَانَ عَلَى مُقَدِّمَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ مُوسَى بْنُ

وأكثرها شجرا وماء ، وكان طارق لما افتتح الأندلس ألفاها خرابا فعمرت في الاسلام . ومن أهل مدينة سالم أبو الحسن على بن ابراهيم بن فتح يعرف بابن الامام أخذ عن أبي عمر بن عبدالبر وأبي الوليد الباجي وغيرهما وكان من أهل النبل والمعرفة عالما أديبا توفى سنة ٤٧٩ . ومنهم أبو الأصبغ عيسى بن أبي يونس بن أسد اللخمي وتوفى بها سنة ٤٨٢ . وعيسى بن عبد الرحمن بن سعيد الأموى كان عالما حافظا وتوفى سنة ٤٩٨ ومنهم أبو الوليد يونس بن عيسى بن خلف الأنصارى المقرىء العالم توفى سنة ٥٠٨ (١) أى بازاء ثغور المسلمين (٢) دوخها : قهرها واستولى على أهلها (٣) كورة واسعة من أعمال الثغر الأعلى من شرقي الأندلس ، ومن أعمال الثغر الأعلى سرقسطة وكورة لاردة وكورة تطيلة وكورة وشقة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب وكورة برطانيا وكورة باروشة .

مُوسَى عَامِلُ تُطِيلَةَ [١] وَلَقِيَهُمُ ٱلْعَدُوُّ فَصَبَرَ حَتَّى هَزَمَ ٱللهُ عَدُوَّهُمْ ، وَكَانَ لِمُوسَى فِي هٰذِهِ ٱلْغَزَاةِ مَقَامٌ مَحْمُودٌ .

***

دخول ينبلونة والايقاع بالمشركين

وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ بَعَثَ ٱبْنَهُ مُحَمَّدًا بِالْعَسَاكِرِ وَتَقَدَّمَ إِلَى يَنْبَلُونَةَ [٢] فَأَوْقَعَ بِالْمُشْرِكِينَ عِنْدَهَا وَقَتَلَ غَرْسِيَةَ [٣] صَاحِبَهَا وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ مُلُوكِ ٱلنَّصَارَى . وَفِي أَيَّامِهِ ظَهَرَ ٱلْمَجُوسُ وَدَخَلُوا إِشْبِيلِيَةَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْعَسَاكِرَ مَعَ ٱلْقُوَّادِ مِنْ قُرْطُبَةَ ، فَنَزَلَ ٱلْمَجُوسُ مِنْ

---

(١) مدينة في شرقي قرطبة كانت شريفة البقعة غزيرة المياه كثيرة الأشجار والأنهار اختطت في أيام الحكم بن هشام بينها وبين سرقسطة ١٧ فرسخا وكان الفرنج قد ملكوا مدينة تطيلة سنة ١٨٧ وأسروا أميرها يوسف ابن عمروس ، ثم استخلصه المسلمون وفتحوا المدينة . ومن أهل تطيلة أبو عبد الله محمد بن عيسى بن القاسم الصدفي الفقيه الشاعر الأديب وتوفي سنة ٥٩٢ وممن ولي قضاء تطيلة للناصر وابنه المستنصر بالله محمد ابن أحمد بن عبدالله بن محمد بن سليمان بن صالح بن تمام العذري السرقسطي (٢) تقدم القول فيها وقد يسميها مؤرخو العرب بقاونة وإنما حكمها العرب اثنتي عشرة سنة فحسب وهي الآن من أنظف مدن اسبانيا وأكثرها عناية بالنظام والاصلاح حتى ان جميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بمصابيح الكهرباء الساطعة (٣) لقب بابن غرسية كثير من علماء الأندلس منهم العلامة الفقيه عبد الرحمن بن أحمد ، وهو لقب اسباني Carcia ولا يزال لقبا لأسرات اسبانية كثيرة .

مَرَاكِبِهِمْ ، وَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَهَزَمُوهُمْ بَعْدَ مُقَامٍ صَعْبٍ ، ثُمَّ جَاءَتْ الْعَسَاكِرُ مَدَدًا مِنْ قُرْطُبَةَ ، فَقَاتَلَهُمُ الْمَجُوسُ فَهَزَمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ، وَغَنِمُوا بَعْضَ مَرَاكِبِهِمْ وَأَحْرَقُوهَا ، وَرَحَلَ الْمَجُوسُ إِلَى شَذُونَةَ ، فَأَقَامُوا عَلَيْهَا يَوْمَيْنِ وَغَنِمُوا بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَوَصَلَتْ مَرَاكِبُ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ فَأَقْلَعَ الْمَجُوسُ إِلَى لَبْلَةَ وَأَغَارُوا وَسَبَوْا ، ثُمَّ إِلَى بَاجَةَ ، ثُمَّ أَشْبُونَةَ ، ثُمَّ انْقَطَعَ خَبَرُهُمْ حِينَ أَقْلَعُوا مِنْ أَشْبُونَةَ ، وَسَكَنَتِ الْبِلَادُ ، وَذَٰلِكَ سَنَةَ ثَلَاثِينَ ، وَتَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ بِإِصْلَاحِ مَا خَرَّبُوهُ مِنَ الْبِلَادِ ، وَاكْتَنَفَ حَامِيَتَهَا[١] .

***

دخول جليقية ومحاصرة مدينة ليون

وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ بَعَثَ الْعَسَاكِرَ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ فَدَوَّخُوهَا وَحَاصَرُوا مَدِينَةَ لِيُونَ[٢] وَرَمَوْهَا بِالْمَجَانِيقِ ، وَهَرَبَ

(١) لعله تحريف صوابه: (أكثف) أي جعل حاميتها كثيفة أي كثيرة عظيمة من الكثف : وهو الجماعة والحشد والكثرة والالتفاف . والكثيف اسم يوصف به العسكر والسحاب والماء . « أحمد نجاتي » . (٢) مدينة من بلاد الجلالقة شمال أسبانيا ، وهي غير ليون فرنسا ، وكان عبد الرحمن الغافقي قبل ذلك « وهو الذي بدأ باصلاح ما فسد من داخل البلاد » قد سار الى (أرل) و بعد استيلائه عليها سار الى (بوردو) التي يسميها العرب برذال و بردال فاستولى عليها ثم قصد (ليون) و (بيزانسون)

أَهْلُهَا عَنْهَا وَتَرَكُوهَا ، فَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ مَا فِيهَا وَأَحْرَقُوهَا ، وَأَرَادُوا هَدْمَ سُورِهَا فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ لِأَنَّ عَرْضَهُ كَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، فَثَلَمُوا فِيهِ ثُلْمَةً وَرَجَعُوا .

***

غزو برشلونة

ثُمَّ أَغْزَى عَبْدُ الرَّحْمٰنِ حَاجِبَهُ عَبْدَ الْكَرِيمِ فِي الْعَسَاكِرِ إِلَى بِلَادِ بَرْشِلُونَةَ ، فَعَاثَ فِي نَوَاحِيهَا ، وَأَجَازَ الدُّرُوبَ الَّتِي تُسَمَّى الْبُرْتَ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجَةِ (١) فَدَوَّخَهَا قَتْلًا وَأَسْرًا وَسَبْيًا وَحَاصَرَ ، مَدِينَتَهَا الْعُظْمَى (جَرَنْدَةَ) وَعَاثَ (٢) فِي نَوَاحِيهَا وَقَفَلَ ، وَقَدْ

فأخذها عنوة ـ وقد كان من أول مادبره بقية السيف جهة جبال البرينات بسوء مكرهم وسياستهم أن كونوا لهم دويلة سموها « ليون » وأقاموا عليها ملكا منهم وكانت هذه المملكة تجاور مملكة قشتالة غربا والى الشمال منها . ومن مدنها سمورة وشلمنقة وقلمرية وغيرها ، ثم أخذت أطرافها تمتد الى جهة الجنوب الشرقى حتى كان من ذلك مملكة (قشتالة) قام بالأمر فيها أمير منهم انتهى أمره أن صار ملكا ، وهكذا أخذت رقعة أملاكهم تتسع ودائرتها تنداح وتنفسح الى أن كان ما كان : ومعظم النار من مستصغر الشرر :

ان القذى يؤذى العيون أقله ولربما جرح البعوض الفيلا

(١) بريد حدود فرنسا الجنوبية الغربية وجهة جبال البرنيات : وأصل الدرب المضيق فى الجبال وكل مدخل الى الروم والافرنج درب من دروبها ومنه قولهم : أدرب القوم اذا دخلوا أرض العدو من بلاد الروم «أحمد نجاتى»

(٢) عاث : أفسد

كَانَ مَلِكُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةَ مِنْ وَرَائِهِمْ تُوفِلسُ بَعَثَ إِلَى ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ بِهَدِيَّةٍ يَطْلُبُ مُوَاصَلَتَهُ وَيُرَغِّبُهُ فِي مُلْكِ سَلَفِهِ بِالْمَشْرِقِ مِنْ أَجْلِ مَا ضَيَّقَ بِهِ ٱلْمَأْمُونُ وَٱلْمُعْتَصِمُ (١)، حَتَّى إِنَّهُ ذَكَرَهُمَا لَهُ فِي كِتَابِهِ لَهُ

(١) فى سنة ٢١٧ كتب توفيل بن ميخائيل بن جرجس صاحب الروم الى المأمون يسأله الصلح وعرض الفدية وبدأ بنفسه فى كتابه ومزج فيه اللين بالشدة والاستعطاف بالوعيد ، فكتب اليه المأمون رجع جوابه كتابا بليغا منصفا شديدا يتوعد وعيده ويحتقر تهديده ختمه بقوله : «وقد رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا مايغنى عن الابلاغ فى القول والأغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى» . وفى سنة ٢٢٣ فى خلافة المعتصم وقع توفيل بأهل زبطرة (مدينة بين ملطية وسميساط والحدث فى طرف بلد الروم) فأسرهم وخرب ديارهم، ثم مضى الى ملطية فأغار على أهلها وسبى كثيرا من مسلمات سيداتها ومثل بمن صار فى يده من المسلمين أشنع تمثيل ، فلما بلغ ذلك المعتصم هاله الأمر واستعظمه وصاح فى قصره النفير ، ووجه جماعة من قواده الى زبطرة فوجدوا ملك الروم قد عاد الى بلاده ، وشخص المعتصم غازيا الى بلاد الروم وقد تجهز جهازا لم يجهز مثله قبله خليفة قط ، وحالفه النصر العزيز فى غزاته ففتح مدينة عمورية وعاد وفى أيديه كثير من الأسرى ، وفى ذلك يقول أبو تمام فى قصيدته المشهورة :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

***

لبيت صوتا زبطريا هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

وَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِابْنَيْ مَرَاجِلَ وَمَارِدَةَ(١) ، فَكَافَأَهُ ٱلْأَمِيرُ

وهلك توفيل ملك الروم سنة ٢٢٧ وكانت مدة ملكه ١٢ سنة وملكت بعده امرأته تدورة وكان ابنها ميخائيل بن توفيل صبيا . « أحمد نجاتى »

(١) أم المأمون أم ولد فارسية تسمى مراجل ماتت أيام نفاسها به « وفى الأصل مراحل بالحاء وهو تحريف » وأم المعتصم من مولدات الكوفة واسمها ماردة وكانت أمها صغدية وكان أبوها قد نشأ بالبندنيجين « بلدة فى طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد » ومما يذكر أن المأمون كان شديد الميل الى العلويين والتقرب منهم والاحسان اليهم وأخباره فى ذلك مشهورة معهم ، وكان يفعل ذلك طبعا لا تكلفا حتى انه فى سنة ٢٠٢ زوج على بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، وزوج محمد بن على ابن موسى الرضا ابنته أم الفضل ، وفى سنة ٢٠٤ دخل بغداد ولباسه ولباس أصحابه وأعلامهم الخضرة « شارة العلويين » ومكثوا كذلك حوالى شهر وساء ذلك بنى العباس وبعض قواد الجيش فعاد الى السواد وزى دولة آبائه ، ومن ذلك أنه توفى فى أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين العلوى فحضر الصلاة عليه بنفسه ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم ان رجلا من أبناء زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ــ وهى ابنة عم المنصور ــ توفى بعده فأرسل له المأمون كفنا وبعث أخاه صالحا ليصلى عليه ويعزى أمه فانها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فقصدها صالح وعزاها عن الخليفة المأمون واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه ، فظهر غضبها وهاج الحزن والتأثر ثورة نفسها وقالت لابن ابنها تقدم فصل على أبيك ، وتمثلت :

سبكناه ونحسبه لجينا   فأبدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح بن الرشيد قل له : يابن مراجل أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته : « أحمد يوسف نجاتى » .

عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ عَنِ ٱلْهَدِيَّةِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ يَحْيَى ٱلْغَزَالَ مِنْ[١] كِبَارِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَكَانَ مَشْهُورًا فِي ٱلشِّعْرِ وَٱلْحِكْمَةِ فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمَا ٱلْوُصْلَةَ ، وَٱرْتَفَعَ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ذِكْرٌ عِنْدَ مُنَازِعِيهِ[٢] مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ

***

عبد الرحمن الأوسط

وَيُعْرَفُ ٱلْأَمِيرُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بِٱلْأَوْسَطِ ، لِأَنَّ ٱلْأَوَّلَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلدَّاخِلُ ، وَٱلثَّالِثُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرُ ، ثُمَّ تُوُفِّيَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْأَوْسَطُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ بِرَبِيعٍ ٱلْآخِرِ لِإِحْدَى وَثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ إِمَارَتِهِ ، وَمَوْلِدُهُ بِطُلَيْطُلَةَ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ، وَكَانَ عَالِمًا بِعُلُومِ ٱلشَّرِيعَةِ وَٱلْفَلْسَفَةِ ، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ أَيَّامَ هُدُوءٍ وَسُكُونٍ ، وَكَثُرَتِ ٱلْأَمْوَالُ عِنْدَهُ ، وَٱتَّخَذَ ٱلْقُصُورَ وَٱلْمُتَنَزَّهَاتِ ، وَجَلَبَ إِلَيْهَا ٱلْمِيَاهَ مِنَ ٱلْجِبَالِ ، وَجَعَلَ لِقَصْرِهِ[٣] مَصْنَعًا[٤] ٱتَّخَذَهُ ٱلنَّاسُ

---

(١) تقدم ذكره ، وسيأتى له حديث آخر (٢) فى الأصل (مناغيه) وهو تصحيف وتحريف فاسد (٣) فى الأصل (لفضله) وهو تحريف غير مناسب (٤) المصنع : حوض أو شبه صهريج يجتمع فيه ماء المطر وبه فسر بعضهم قوله تعالى : «وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون» .

شَرِيعَةً(١) ، وَأَقَامَ الْجُسُورَ ، وَبُنِيَتْ فِي أَيَّامِهِ الْجَوَامِعُ بِكُوَرِ الْأَنْدَلُسِ ، وَزَادَ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ رُوَاقَيْنِ(٢) وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَتِمَّهُ فَأَتَمَّهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ بَعْدَهُ ، وَبَنَى بِالْأَنْدَلُسِ جَوَامِعَ كَثِيرَةً ، وَرَتَّبَ رُسُومَ(٣) الْمَمْلَكَةِ ، وَاحْتَجَبَ عَنِ الْعَامَّةِ . وَعَدَدُ وَلَدِهِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ مِنَ الذُّكُورِ ، وَخَمْسُونَ مِنَ الْإِنَاثِ ، وَنَقْشُ خَاتَمِهِ : «عَابِدُ الرَّحْمٰنِ بِقَضَاءِ اللهِ رَاضٍ » . وَفِي ذٰلِكَ قِيلَ :

خَاتَمٌ لِلْمُلْكِ أَضْحَى ... حُكْمُهُ فِي النَّاسِ مَاضِي
عَابِدُ الرَّحْمٰنِ فِيهِ ... بِقَضَاءِ اللهِ رَاضِي

---

(١) أصل الشريعة مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون ويوردونها دوابهم . والعرب لاتسميها شريعة حتى يكون الماء عدا لاانقطاع له ويكون ظاهرا معينا لايستقى بالرشاء . ونهر الشريعة بالقرب من بيت المقدس ، بنى عليه السلطان برقوق جسرا فقالت فيه السيدة عائشة الباعونية :

بنى سلطاننا برقوق جسرا ... بعدل والأنام له مطيعة
مجاز فى الحقيقة للبرايا ... وأمر بالوقوف على الشريعة

(٢) الرواق : سقف فى مقدم البيت ، أو بيت كالفسطاط يحمل على سطاع واحد فى وسطه (٣) أى أوامر وقوانين ، ورسم له كذا أى أمره به ، فارتسم أى امتثل . ويقال أنا أرتسم مراسمك لا أتخطاها . والمرسوم كتاب مطبوع وجمعه مراسيم .

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ هٰـذَا ٱلنَّقْشَ وَبَقِيَ وِرَاثَةً لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ وَلَدِهِ

***

زيادة الضرائب

« قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ » وَفِي أَيَّامِهِ ٱنْتَهَى مَالُ ٱلْجِبَايَةِ إِلَى أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ فِي ٱلسَّنَةِ ، وَكَانَ قَبْـلُ لَا يَزِيدُ عَلَى سِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا يُخَالِفُ هٰـذَا فَلْيُرَاجَعْ ، وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ تَوْقِيعَاتِهِ : مَنْ لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ طَلَبِهِ فَالْحِرْمَانُ أَوْلَى بِهِ ، وَمِنْ شِعْرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْمَذْكُورِ قَوْلُهُ :

وَلَقَـدْ تَعَارَضُ[1] أَوْجُهٌ لِأَوَامِرٍ
فَيَقُودُهَا ٱلتَّوْفِيقُ نَحْوَ صَوَابِهَا
وَٱلشَّيْخُ إِنْ يَحْوِ ٱلنُّهَى بِتَجَارِبٍ
فَشَبَابُ[2] رَأْيِ ٱلْقَوْمِ عِنْدَ شَبَابِهَا

---

(١) أي يعارض بعضها بعضا وتشتبه على المرء ملتبسة مبهمة ، وعارضه: جانبه وعدل عنه ، وحقيقة المعارضة حينئذ أن يكون كلاهما فى عرض صاحبه ، وعارض الكتاب : قابله بكتاب آخر (٢) الشباب الفتاء وحداثة السن ،

***

ماقيل فى جامع قرطبه

وَفِى زِيَادَتِهِ فِى جَامِعِ قُرْطُبَةَ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلْمُثَنَّى (١) رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى :

بَنَيْتَ لِلّٰهِ خَيْرَ بَيْتٍ يَخْرَسُ عَنْ وَصْفِهِ ٱلْأَنَامُ
حُجَّ إِلَيْهِ بِكلِّ (٢) أَوْبٍ كَأَنَّهُ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْحَرَامُ
كَأَنَّ مِحْرَابَهُ (٣) إِذَا مَا حُفَّ بِهِ ٱلرُّكْنُ وَٱلْمَقَامُ

وَقَالَ آخَرُ :

بَنَى مَسْجِدًا لِلّٰهِ لَمْ يَكُ مِثْلُهُ
وَلَا مِثْلُهُ لِلّٰهِ فِى ٱلْأَرْضِ مَسْجِدُ
سِوَى مَا ٱبْتَنَى ٱلرَّحْمٰنُ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلَّذِى
بَنَاهُ نَبِىُّ ٱلْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ

والشباب (بكسر الشين) ماشبت به النار أى أوقدت ،وشب الفرس يشب شبابا رفع يديه جميعا ولعب وقمص،وكذلك اذا حرن ، وأرى أن(شباب) الأولى يجوز أن تقرأ بالوجهين (١) ومن تغزل عبد الرحمن بن أحمد بن المثنى قوله :

ويفرط فى الصدود وفى التجنى كافراط الروافض فى علىّ
يلاحظنى بلحظ بابلى ويفعل بى فعال السامرىّ .

(٢) حج اليه: قصده، من كل أوب: من كل جهة (٣) قال الأزهرى: المحراب عند العامة الذى يفهمه الناس: مقام الامام من المسجد — والمحراب :الموضع الذى ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس ، وصدر المجلس .

لَهُ عُمُدٌ حُمْرٌ وَخُضْرٌ كَأَنَّمَا
تَلُوحُ يَوَاقِيتٌ بِهَا وَزَبَرْجَدُ
أَلَا يَا أَمِينَ اللهِ لَازِلْتَ سَالِماً
وَلَا زِلْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ تُسَدَّدُ[١]
فَيَالَيْتَنَا نَفْدِيكَ مِنْ كُلِّ حَادِثٍ
وَأَنَّكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ تَخْلُدُ

وَكَانَ كَثِيرَ الْمَيْلِ لِلنِّسَاءِ، وَوَلِعَ بِجَارِيَتِهِ طَرُوبَ وَكَلِفَ[٢] بِهَا كَلَفاً شَدِيداً، وَهِيَ الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا الْبَابَ بِبِدَرِ[٣] الْمَالِ حِينَ تَجَنَّتْ[٤] عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهَا حَلْياً قِيمَتُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ مِثْلَ هٰذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْرُجَ مِنْ خِزَانَةِ الْمُلْكِ، فَقَالَ: إِنَّ لَابِسَهُ أَنْفَسُ مِنْهُ خَطَرًا، وَأَرْفَعُ

---

(١) أى توفق الى السداد والصواب (٢) كلف بها: أحبها حبا شديدا وأولع بها حتى شغفته حبا (٣) جمع بدرة وهى كيس فيه ألف أوعشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار، وتقول: فلان يهب البدور وينهب البدور (٤) تجنت عليه: ادعت عليه ورمته باثم لم يفعله تيها ودلالا قال الشاعر:

تجنى على الذنب والذنب ذنبه   وعاتبنى ظلما وفى جنبه العتب

وكانوا يقولون: التجنى وافد القطيعة

قَدْرًا، وَأَكْرَمُ جَوْهَرًا، وَأَشْرَفُ عُنْصُرًا، وَفِيهَا يَقُولُ:

إِذَا مَا بَدَتْ لِيَ شَمْسُ النَّهَا
رِ طَالِعَةً ذَكَّرَتْنِي طَرُوبَا

أَنَا ابْنُ الْمَيَامِينِ[1] مِنْ غَالِبٍ
أَشُبُّ حُرُوبًا[2] وَأُطْفِي حُرُوبَا

وَخَرَجَ غَازِيًا إِلَى جِلِّيقِيَّةَ، فَطَالَتْ غَيْبَتُهُ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا:

عَدَانِي عَنْكِ[3] مَزَارُ الْعِدَا
وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ سِهَامًا مُصِيبَا

فَكَمْ قَدْ تَخَطَّيْتُ مِنْ سَبْسَبٍ[4]
وَلَاقَيْتُ بَعْدَ دُرُوبٍ دُرُوبَا؟

أُلَاقِي بِوَجْهِي سَمُومَ الْهَجِيـ[5]
ـرِ إِذْ كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبَا

---

(١) من اليمن وهو البركة (٢) أشب: أوقد (٣) عدانى: صرفنى وعاقنى، يقال عدته عنه العوادى، وعاقته العوائق، وصرفته الموانع. والمزار: الزيارة ولعل (سهاما) فى البيت محرفة عن (لهاما) أى جيشا لهاما كثيرا يلتهم كل شىء
(٤) السبسب: المفازة (٥) سموم الهجير: شدة حرارة القيظ وقت الظهر

تَدَارَكَ بِى ٱللّٰهُ دِينَ ٱلْهُـدَى
فَأَحْيَيْتُهُ وَأَمَتُّ ٱلصَّلِيبَا
وَسِرْتُ إِلَى ٱلشِّرْكِ فِى جَحْفَلٍ[١]
مَلَأْتُ ٱلْحُزُونَ بِهِ وَٱلسُّهُوبَا[٢]

***

عبد الرحمن الأوسط وجاريته طروب

« وَسَاقَ » بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ قَضِيَّةَ طَرُوبَ هٰذِهِ بِقَوْلِهِ: إِنَّ ٱلسُّلْطَانَ ٱلْمَذْكُورَ أَغْضَبَهَا، فَهَجَرَتْهُ وَصَدَّتْ عَنْهُ وَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَزِمَتْ مَقْصُورَتَهَا[٣] ، فَاشْتَدَّ قَلَقُهُ لِهَجْرِهَا ، وَضَاقَ ذَرْعُهُ مِنْ شَوْقِهَا، وَجَهَدَ أَنْ يَتَرَضَّاهَا بِكُلِّ وَجْهٍ ، فَأَعْيَاهُ

(١) الجحفل : الجيش الكثير العدد (٢) جمع سهب وهو الفلاة والصحراء . والسهب بضم السين وسكون الهاء : المستوى من الأرض فى سهولة أو المستوية البعيدة ، أو الواسع من الأرض، قال الفضل بن العباس اللهبى :

حللنا من تهامة كل سهب نقى الترب أودية رحابا

(٣) المقصورة : الدار الواسعة المحصنة بالحيطان ، أو هى أصغر من الدار وقال الليث : اذا كانت دار واسعة محصنة بالحيطان فكل ناحية منها على حدتها مقصورة ، والمقصورة والقصارة ماقصر من الدار فلا يدخلها الا صاحبها والمقصورة الحجلة . وقصر الجارية بالحجاب اذا صانها : وقصر الستر عليها أرخاه ، قال حاتم الطائى :

وما تشتكينى جارتى غير أننى اذا غاب عنها زوجها لا أزورها
سيبلغها خيرى ويرجع بعلها اليها ولم تقصر على ستورها

ذٰلِكَ ، فَأَرْسَلَ مِنْ خَاصَّةِ خِصْيَانِهِ مَنْ يُكْرِهُهَا عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَأَغْلَقَتْ بَابَ مَجْلِسِهَا فِي وُجُوهِهِمْ ، وَآلَتْ أَلَّا تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ طَائِعَةً وَلَوِ انْتَهَى الْأَمْرُ إِلَى الْقَتْلِ ، فَانْصَرَفُوا إِلَيْهِ وَأَعْلَمُوهُ بِقَوْلِهَا ، وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي كَسْرِ الْبَابِ عَلَيْهَا ، فَنَهَاهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِسَدِّ الْبَابِ عَلَيْهَا مِنْ خَارِجِهِ بِبِدَرِ الدَّرَاهِمِ ، فَفَعَلُوا وَبَنَوْا عَلَيْهَا بِالْبِدَرِ ، وَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ بِالْبَابِ ، وَكَلَّمَهَا مُسْتَرْضِيًا رَاغِبًا فِي الْمُرَاجَعَةِ عَلَى أَنَّ لَهَا جَمِيعَ مَا سُدَّ بِهِ الْبَابُ ، فَأَجَابَتْ وَفَتَحَتِ الْبَابَ ، فَانْهَالَتِ الْبِدَرُ فِي بَيْتِهَا ، فَأَكَبَّتْ[1] عَلَى رِجْلِهِ تُقَبِّلُهَا وَحَازَتِ الْمَالَ . وَكَانَتْ تُبْرِمُ[2] الْأُمُورَ مَعَ مُضَرَ الْخَصِيِّ ، فَلَا يَرُدُّ شَيْئًا مِمَّا تُبْرِمُهُ . وَأَحَبَّ أُخْرَى اسْمُهَا مُدَّثِّرَةُ[3] فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا ، وَأُخْرَى كَذٰلِكَ اسْمُهَا الشِّفَاءُ ، . وَأَمَّا جَارِيَتُهُ قَلَمُ فَكَانَتْ

---

(١) أي أقبلت وتجانأت « انحنت » (٢) تبرم : تديرها وتنفذها وتمضيها

(٣) اسم فاعل من ادثر بالثوب والدثار اذا اشتمل به وتلفف داخلا فيه والأصل متدثرة أدغمت التاء فى الدال وشددت ، وقال الفراء فى قوله تعالى : يأيها المدثر : يعنى المتدثر بثيابه اذا نام وفى الحديث : « كان اذا نزل عليه الوحى يقول : دثرونى دثرونى » أى غطونى بما أدفأ به . وفلانة دثور الضحى تتدثر فتنام

أَدِيبَةً حَسَنَةَ الْخَطِّ رَاوِيَةً لِلشِّعْرِ حَافِظَةً لِلْأَخْبَارِ عَالِمَةً بِضُرُوبِ الْأَدَبِ . وَكَانَ مُولَعًا بِالسَّمَاعِ مُؤْثِرًا لَهُ عَلَى جَمِيعِ لَذَّاتِهِ . وَلَهُ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ

***

محمد بن عبد الرحمن الأوسط

وَلَمَّا مَاتَ وَلِيَ مَكَانَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ * فَبَعَثَ لِأَوَّلِ وِلَايَتِهِ عَسَاكِرَ مَعَ مُوسَى بْنِ مُوسَى صَاحِبِ طُلَيْطُلَةَ(١)

(١) كذا بالأصل ، والذى فى ابن خلدون وابن الأثير أنه صاحب « تطيلة » وهو الذى أرجحه فان موسى بن موسى كان عاملا على مدينة تطيلة من أيام الأمير عبد الرحمن « والد محمد » وكان من أعيان قواده ، ثم جرى بينه وبين القواد تحاسد ومنافسة أدت الى عصيانه على عبد الرحمن وثورته ثورة قتل فيها ابنه « لب بن موسى » ثم جرت حوادث فظيعة سنة ٢٤٩ كان فيها « غرسية » ملك الفرنجة سنة ٢٢٩ مساعدا لموسى الى أن طلب موسى المسالمة فأجيب اليها وأعطى ابنه اسماعيل رهينة و ولاه عبد الرحمن مدينة تطيلة فسار موسى اليها وأخرج منها كل من يخافه واستقر فيها « أحمد يوسف نجاتى »

* ترجم له فى كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى « ج ١ ص٩» بما يأتى : قال أحمد : ولى محمد بن عبد الرحمن فى الليلة التى توفى فيها أبوه وتوفى رحمه الله ليلة الخميس فى صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، فلبث فى ولايته أربعا وثلاثين سنة غير ثلاثة أيام . قال الرازى: ولى الأمير محمد ابن عبد الرحمن يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين وتوفى عشية الخميس لليلة بقيت من صفر سنة ثلاث وسبعين فكانت خلافته أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وسبعة عشر يوما. وبلغ من السن خمسا وستين سنة. وكان مولده فى ذى القعدة سنة سبع ومائتين.

فَعَاثَ[١] فِي نَوَاحِي أَلْبَةَ وَالْقِلَاعِ ، وَفَتَحَ بَعْضَ حُصُونِهَا وَرَجَعَ ، وَبَعَثَ عَسَاكِرَ أُخْرَى إِلَى نَوَاحِي بَرْشِلُونَةَ وَمَا وَرَاءَهَا ، فَعَاثُوا فِيهَا وَفَتَحُوا حُصُونًا مِنْ بَرْشِلُونَةَ وَرَجَعُوا .

***

حروب الأمير محمد

وَلَمَّا اسْتَمَدَّ أَهْلُ طُلَيْطُلَةَ الْمُخَالِفُونَ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ بِمَلِكَيْ جِلِّيقِيَّةَ وَالْبَشْكَنْسِ لَقِيَهُمُ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ عَلَى وَادِي سُلَيْطَةَ[٢] ، وَقَدْ أَكْمَنَ لَهُمْ فَأَوْقَعَ بِهِمْ ، وَبَلَغَتْ عِدَّةُ الْقَتْلَى مِنْ أَهْلِ طُلَيْطُلَةَ وَالْمُشْرِكِينَ عِشْرِينَ أَلْفًا .

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ ظَهَرَتْ مَرَاكِبُ الْمَجُوسِ[٣] وَعَاثُوا فِي الْأَنْدَلُسِ ، فَلَقِيَهُمْ مَرَاكِبُ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ

(١) عاث : أفسد (٢) كذا بالأصل . وفي تاريخ ابن خلدون وابن الأثير « وادي سليط » في غير موضع . راجع ابن الأثير في حوادث سنة ٢٤٠
(٣) أصل هؤلاء الذين يسميهم كثير من مؤرخي العرب بالمجوس أنه في سنة ٢٢٩ ظهر على شواطئ أشبونة أكثر من خمسين سفينة تقل كثيرا من أقوام متوحشين قدموا من البلطيق وشواطئ النرويج يعرفون عند مؤرخي الافرنج بالنورمان ويسميهم مؤرخو العرب « المجوس » وما أظن أن المراد بهم عابدو النيران بل يرى بعضهم أنهم المعروفون لدى العرب

فَقَاتَلُوهُمْ وَغَنِمُوا مِنْهُمْ مَرَاكِبَيْنِ ، وَأُسْتُشْهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١) . وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ أَغْزَى مُحَمَّدٌ إِلَى نَوَاحِي بَنْبَلُونَةَ ، وَصَاحِبُهَا حِينَئِذٍ غَرْسِيَةُ بْنُ وَنْقَةَ ، وَكَانَ يُظَاهِرُ أَرْدُنَ بْنَ أَذْفُنْش(٢) ، فَعَاثَ فِي نَوَاحِي بَنْبَلُونَةَ ، وَرَجَعَ وَقَدْ دَوَّخَهَا وَفَتَحَ كَثِيرًا مِنْ حُصُونِهَا وَأَسَرَ فَرْتُونَ(٣) ابْنَ صَاحِبِهَا ، فَبَقِيَ أَسِيرًا بِقُرْطُبَةَ عِشْرِينَ سَنَةً(٤) . ثُمَّ بَعَثَ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ أَخَاهُ الْمُنْذِرَ فِي الْعَسَاكِرِ إِلَى نَوَاحِي الْأَلْبَةِ وَالْقِلَاعِ ، فَعَاثُوا فِيهَا وَجَمَعَ لُذَرِيقُ لِلِقَائِهِمْ فَلَقِيَهُمْ وَانْهَزَمَ ، وَأَثْخَنَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمُشْرِكِينَ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ، فَكَانَ فَتْحًا لَا كِفَاءَ لَهُ(٥) .

باسم « المأجوج » أو « يأجوج ، مأجوج » وأنت ترى في كثير من كتب التفسير أن بعض أحبار اليهود يقول ان يأجوج ومأجوج في منتهى الشمال حيث لا يستطيع أحد سواهم السكنى فيه ، ولقد عثا هؤلاء البربر المتوحشون مفسدين في أرض الأندلس وأزعجوا كثيرا من نواحيها وسكان الشواطئ فيها وهدموا كثيرا من مبانيها (١) ارجع الى خبر هذه الغزوة في تاريخ ابن الأثير في حوادث سنة ٢٤٥ ومابعدها فهو أوضح وأكثر فائدة (٢) هو صاحب جليقية (٣) هو ابن غرسية وكان شجاعا مقداما و بطلا صنديدا (٤) بعد ذلك أطلقه الأمير من أسره وأباح له أن يعود الى وطنه ولكنه آثر طائعا مختارا أن يقيم بمدينة قرطبة الى أن بلغ من الكبر عتيا (٥) لا كفاء له : لا مثيل ولا نظير له ، قال حسان بن ثابت : * وروح القدس ليس له كفاء * أي جبريل عليه السلام ليس له نظير ولا مثيل

***

غزو بلاد الجلالقة

ثُمَّ غَزَا الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ بِنَفْسِهِ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ بِلَادَ الْجَلَالِقَةِ(١) فَأَثْخَنَ وَخَرَّبَ . وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ أَغْزَى الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ ابْنَهُ الْمُنْذِرَ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ(٢) .

وَفِي السَّنَةِ الَّتِي بَعْدَهَا إِلَى بَنْبَلُونَةَ ، فَدَوَّخَهَا وَرَجَعَ(٣) .

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ أَغْزَاهُ أَيْضًا إِلَى دَارِ الْحَرْبِ ، فَعَاثَ فِي نَوَاحِيهَا وَفَتَحَ حُصُونًا(٤)

وَفِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ خُرِّبَتْ مَارِدَةُ(٥) وَهُدِّمَتْ

---

(١) كانت فى الشمال الغربى من أسبانيا (٢) انظر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٦٣ ويريد بدار الحرب جليقية (٣) انظرحوادثسنة ٢٦٤ فى ابن الأثير (٤) ارجع الى ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٦٨ (٥) ماردة : كورة واسعة متصلة بحوز فريش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة وهى على نهر بطليوس « الوادى اليانع » الى الشرق منها . وكانت احدى القواعد التى تخيرتها للملوك للسكنى من القياصرة والروم. قال ياقوت : وهى مدينة رائعة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب ، ولها حصون وقرى . ومن أهل ماردة أبو عبد الله مالك بن معروف يروى عن عبد الملك بن حبيب ، وتوفى سنة ٢٦٤ . ومنهم أبو اسحق ابرهيم بن محمد بن ثبات كان فقيها حافظا ثبتا وهو من أهل ماردة وسكن قرطبة وتوفى سنة ٥٤١ .

وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ . وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَأَى بِالْمَشْرِقِ هَـذِهِ الْأَبْيَاتَ قَبْـلَ أَنْ تُخَرَّبَ (١) مَارِدَةُ بِأَعْوَامٍ ، وَلَمْ يُعْلَمْ قَائِلُهَا وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ .

---

(١) كان لهذه المدينة من اسمها نصيب فان الثورات لم تكد تهدأ فيها منذ أيام الحكم بن هشام ففي سنة ١٩١ عصى أصبغ بن عبد الله ووافقه أهل ماردة على الأمير الحكم وأخرجوا عامله ، واتصل الأمر بالحكم فسار اليها وحاصرها وبينما هو مجد في الحصار أتاه الخبر عن أهل قرطبة أنهم شقوا عصا الطاعة فرجع مبادرا اليها وعاقب من أثار الفتنة عقابا صارما كان عبرة لسواهم ولم يزل أهل ماردة تارة يطيعون وتارة يعصون الى سنة ١٩٢ فضعف أمر أصبغ لأن الحكم والى ارسال الجيوش اليه واستمال طائفة من أعيان أهل ماردة وثقاته من أصحابه فمالوا الى الأمير وتركوا أصبغ حتى أخوه فضعفت نفسه وألقى يد السلم وأرسل يطلب الأمان من الحكم فأمنه ففارق ماردة وحضر عند الحكم وأقام بقرطبة . وفي سنة ١٩٤ عاود أهل ماردة الخلاف على الحكم ونبذوا طاعته فسار بنفسه اليهم وقاتلهم ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد الى محاربتهم والنيل منهم ومن مدينتهم في هذه السنة ، وفي سنتي ١٩٥ ، ١٩٦ طمع الفرنج في ثغور المسلمين وقصدوها بالغارة وعاثوا فيها فسادا وكان الأمير الحكم مشغولا بأهل ماردة فلم يتفرغ للفرنج حتى بلغه الخبر بشدة الأمر وفظاعة مايرتكبه الفرنجة مع أهل الثغور فلم يثن عزمه عنهم شدة بل سار اليهم وأذاقهم وبال أمرهم وعاد الى قرطبة مظفرا . ومن أعظم الأسباب في اضطراب ماردة وتمردها وتوالي الثورات فيها أن كان بين المسيحيين من سكانها ولويس ملك الفرنج تراسل واتفاق يبطنونه . كما أن ملك الجلالقة « مملكة ليون

وَيْلٌ(١) لِمَارِدَةَ الَّتِي مَرَدَتْ(٢)

وَتَكَبَّرَتْ عَنْ عُدْوَةِ النَّهْرِ

كَانَتْ تُرَى لَهُمُ بِهَا زَهَرٌ

فَخَلَتْ مِنَ الزَّهَرَاتِ كَالْقَفْرِ

القديمة » فى شمالى أسبانيا عاث بجيوشه سنة ٣٠٢ فى أرض ماردة يحرق ويقتل فانتقم منه الناصر وغزا أرض ليون سنة ٣٠٤ ، فلا عجب أن دمرت ماردة وأن يرحل عنها كثير من صالحى أهلها الى سواها ، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سويد القيسى كان أصله من ماردة ففارقها الى بطليوس وكان عالما فقيها ذا منزلة عظيمة فى فنون من العلوم وتوفى سنة ٣٠٠ ومنهم أبو عبد الله محمد بن مروان بن رزيق كان أصله من ماردة ثم سكن بطليوس ورحل الى المشرق سنة ٣٠٩ مع أخيه عبد الملك وروى عن كثير من أهل الأندلس والمشرق وكان مع هذا تاجرا عاقلا حليما واستقدمه الأمير المنتصر بالله وكتب عنه وتوفى سنة ٣٣٩ عن ٩٥ سنة — وماردة كانت مدينة ذات شهرة ذائعة فى أيام العرب وكانت لاتزال فيها الى عهد قريب آثار جليلة تشهد بفخامتها ، ولا أدرى مافعل الثائرون الآن بها فقد قضى على كثير من هذه الآثار النفيسة . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) الويل : حلول الشر والهلاك والعذاب (٢) مرد : عتا وعصى . والعدوة شاطىء الوادى وشفيره وحافته ، وعدوة كل شىء طواره وهو ماانقاد معه من عرضه وطوله ، يقال لزمت عدوة الطريق أو النهر أو الجبل أى طواره

فَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْحُ(١) حِينَ غَزَا
بِجَمِيعِهِمْ مِنْ صَاحِبِ الْأَمْرِ

ثُمَّ تُوُفِّيَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فِي شَهْرِ صَفَرَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ لِخَمْسٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ إِمَارَتِهِ، وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَمِائَتَيْنِ .

***

المنذر بن الأمير محمد

وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ الْمُنْذِرُ* وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ وَأَقَامَ فِي

(١) الويح : كلة ترحم وتوجع، وقد تستعمل بمعنى ويل وقال سيبويه : الويل لمن وقع فى الهلكة أو بلية لايترحم عليه، والويح زجر لمن أشرف على الهلكة ، وتقال لمن وقع فى بلية يرحم ويدعى له بالتخلص منها. ووقعت ويل فى القرآن الكريم لمستحق العذاب بجزائهم ، وأما ويح فان النبي صلى الله عليه وسلم قالها لعمار بن ياسر ويحك يابن سمية بؤسا لك تقتلك الفئة الباغية ، كأنه أعلم بمايبتلى به من القتل فتوجع لهوترحم

* ترجمله فى كتاب تاريخ علماءالأندلس لابن الفرضى « ج ١ ص٩ » بمايأتى :

قال أحمد : ولى الأمير المنذر بن محمد يوم الأحد لثلاث مضين من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين وتوفى ـ رحمه الله تعالى ـ ببشتر سنة خمس وسبعين ومائتين . وقال الرازى : توفى الأمير المنذر ـ رحمه الله ـ فجأة فى محلته ببشتر يوم السبت للنصف من صفر سنة خمس وسبعين وكانت خلافته سنة وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما، و بلغ من السن ستا وأربعين سنة ، ودفن فى القصر وصلى عليه الأمير أخوعبدالله بن محمد

الْمُلْكِ سَنَتَيْنِ إِلَّا نِصْفَ شَهْرٍ ، وَتُوُفِّيَ مُنْتَصَفَ صَفَرٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَفِيهِ قِيلَ(١):

بِالْمُنْذِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ صَلَحَتْ بِلَادُ الْأَنْدَلُسْ

***

عبد الله بن محمد

ثُمَّ وَلِيَ أَخُوهُ عَبْدُ اللهِ * قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ: كَانَ خَرَاجُ الْأَنْدَلُسِ قَبْلَهُ ثَلَثَمائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، مِائَةَ أَلْفٍ لِلْجُيُوشِ ، وَمِائَةَ أَلْفٍ لِلنَّفَقَةِ فِي النَّوَائِبِ وَمَا يَعْرِضُ ، وَمِائَةَ أَلْفٍ ذَخِيرَةً وَوَفْرًا ، فَأَنْفَقَ الْوَفْرَ حِينَ اضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ نَوَاحِي الْأَنْدَلُسِ بِالثُّوَّارِ وَالْمُتَغَلِّبِينَ فِي تِلْكَ السِّنِينَ ، وَقَلَّ

(١) القائل ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وبعده :

فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

* ترجم له في كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي « ج ١ ص ٩ » بما يأتي : قال أحمد :

ولي عبد الله بن محمد سنة خمس وسبعين ومائتين وتوفي — رحمه الله — ليلة الخميس أول يوم من ربيع الأول سنة ثلثمائة وقال الرازي : توفي الأمير عبد الله ليلة الخميس مستهل ربيع الأول سنة ثلاثمائة وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة وخمسة عشر يوما ودفن في القصر يوم الخميس مستهل ربيع الأول وبلغ من السن اثنتين وسبعين سنة .

اَلْخَرَاجُ[1] . انتَهَى . وَمِنْ نَظْمِ ٱلْأَمِيرِ عَبْدِ ٱللهِ قَوْلُهُ :

يَا مُهْجَةَ ٱلْمُشْتَاقِ مَا أَوْجَعَكْ

وَيَا أَسِيرَ ٱلْحُبِّ مَا أَخْشَعَكْ

وَيَا رَسُولَ ٱلْعَيْنِ مِنْ لَحْظِهَا

بِالرَّدِّ وَٱلتَّبْلِيغِ مَا أَسْرَعَكْ[2]

---

(١) سبب ذلك اضطراب البلاد وتوالى الفتن فيها حتى ارتبكت أحوال الأندلس ارتبا كا شديدا وأصبحت ميدانا للقتال وتنازع القبائل الفاتحة وسواها ، فان زعماء الكور الأندلسية انتهزوا فرصة الشقاق الذى دب بين الأسرة المالكة للوصول الى أغراضهم وهو الاستقلال بما تحت أيديهم من الأقاليم والبلاد بل انهم سولت لهم أنفسهم أن يناوا عرش الدولة الأموية فناصبوها العداء واعتدوا على كور قرطبة وأعمالها (٢) فى معنى أبيات الأمير عبد الله قول ابراهيم بن المهدى :

اذا كلمتنى بالعيون الفواتر ... رددت عليها بالدموع البوادر

فلا يعلم الواشون مادار بيننا ... وقد قضيت حاجاتنا فى الضمائر

وقول معقل بن عيسى :

اذا نحن خفنا الكاشحين ولم نطق ... كلاما تكلمنا بأعيننا سرا

وقال على بن هشام :

فسلمت ايماء وودعت خفية ... فكان جوابى كسر عين وحاجب

وقال ابن أبى طاهر :

ومجلس لذة لم نقو فيه ... على شكوى ولاعد الذنوب

فلما لم نطق فيه كلاما ... تكلمت العيون عن القلوب

وفى غمز الحواجب مستراد ... لحاجات المحب الى الحبيب

تَذْهَبُ بِالسِّرِّ فَتَأْتِى بِهِ
فِى مَجْلِسٍ يَخْفَى عَلَى مَنْ مَعَكْ
كَمْ حَاجَةٍ أَنْجَزْتَ إِبْرَازَهَا
تَبَارَكَ ٱلرَّحْمَنُ مَا أَطْوَعَكْ ؟!

وَهَذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ عُنْوَانُ فَضْلِهِ ، وَبَرَاعَةُ اسْتِهْلَالِ نُبْلِهِ (1).
وَكَانَ ٱلْوُزَرَاءُ يُطَالِعُونَ بِآرَائِهِمُ ٱلْخَلِيفَةَ فِى بِطَاقَةٍ ، فَطَالَعَهُ

وقال صردر :

واذا تلاحظت العيون تفاوضت وتحدثت عما تجن قلوبها
بالسر والافواه صامتة فما تخفى عليك صحيحها ومريبها

ومن أحسن ماقيل فيمن يفهم اشارة العين :

يكاد يفهم عنك الوحى ناظره كأن عينيه تفتران عن أذن

والقول فى هذا الغرض كثير ، وقصاراه أن :

عين المحب الى الأحباب ناظرة وسمعه لنداء الوصل ينتظر

« أحمد نجاتى » .

(1) ومن غزله فى صباه :

ويحى على شادن كحيل فى مثله يخلع العذار
كأنما وجنتاه ورد خالطه النور والبهار
قضيب بان اذا تثنى يدير طرفا به احورار
فصفو ودى عليه وقف مااطرد الليل والنهار

وَزِيرَهُ ٱلنَّضْرُ (١) بْنُ سَلَمَةَ بِرَأْيِهِ فِي أَمْرٍ فِي وَرَقَةٍ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهَا لَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ ٱلرَّأْيُ فَكَتَبَ :

أَنْتَ يَا نَضْرُ آبِدَهْ (٢) لَيْسَ تُرْجَى لِفَائِدَهْ
إِنَّمَا أَنْتَ عُدَّةٌ لِكَنِيفٍ (٣) وَمَائِدَهْ

وَتُوُفِّيَ ٱلْأَمِيرُ عَبْدُ ٱللهِ سَنَةَ ثَلَثِمِائَةٍ ، وَمُدَّةُ مُلْكِهِ نَحْوٌ مِنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً .

---

(١) هو أبو محمد نضر بن سلمة بن الوليد بن أبي بكر بن عبيد بن بلج ابن عبيد الكلابي القيسي من أهل قرطبة استقضاه الأمير عبد الله بن محمد بقرطبة مرتين ثم استوزره بعد ذلك وتوفي سنة ٣٠٢ « أحمد نجاتي »

(٢) الآبدة : الداهية ، والأوابد الوحوش والطير تقيم بأرض شتاءها وصيفها ، ويقال جاء فلان بآبدة : أي داهية يبقى ذكرها على الأبد

(٣) هو المرحاض مأخوذ من الكنف وهو الستر والناحية لأن الانسان يقضي حاجته به في أستر النواحي وكأن الأمير يقول لوزيره : أنما تعيش لتأكل :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

***

عبد الرحمن الناصر

« وَوَلِيَ حَافِدُهُ (١) عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ * ٱلنَّاصِرُ ٱبْنُ ٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ قَتِيلِ أَخِيهِ ٱلْمُطَرِّفِ (٢) »

(١) الحافد والحفيد ابن الابن (٢) كان المطرف قد أكثر السعاية فى أخيه محمد عند أبيهما ودبت عقارب وشايته حتى تمكنت وظهر سخط الأمير عبد الله على ابنه محمد فلحق حينئذ بغربى الأندلس « ببلد عمر بن حفصون الثائر بالأندلس وهو الذى افتتح الخلاف بها وفارق الجماعة أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٧٠ وانضم اليه كثير من الجند ممن فى قلبه مرض فى الطاعة وابتنى قلعة هناك واستولى على غرب الأندلس الى رندة وكانت له هناك حوادث عظيمة الى أن انقرض أمر بنى حفصون سنة ٣١٥ » ثم استأمن وعاد فبالغ المطرف فى السعاية به حتى حبسه أبوه ببعض حجر القصر وخرج لبعض غزواته واستخلف ابنه المطرف على قصره فقتل أخاه فى محبسه منتهكا بذلك حرمة والده وحزن الأمير عبد الله على ابنه القتيل وضم ولده عبد الرحمن الى قصره وهو ابن يوم فربى مع ولده ، ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة سنة ٢٨٣ ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ففتك المطرف به لعداوة بينهما ، فسطا به أبوه الأمير عبد الله وقتله بثار أخيه محمد وبالوزير. «أحمد يوسف نجاتى »

* ترجم له فى كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى «ج ١ ص ١٠» بما يأتى : قال أحمد : ولى أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله صبيحة يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة وتوفى — رحمه الله — يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة خمسين وثلثمائة ومولده فيما ذكره الرازى يوم الخميس عند انبلاج الصبح لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة سبع وسبعين ومائتين فكانت خلافته خمسين سنة وستة أشهر ويومين .

وَكَانَتْ وِلَايَتُهُ مِنَ الْغَرِيبِ لِأَنَّهُ كَانَ شَابًّا ، وَأَعْمَامُهُ وَأَعْمَامُ أَبِيهِ حَاضِرُونَ ،فَتَصَدَّى إِلَيْهَا وَاحْتَازَهَا[١] دُونَهُمْ ،وَوَجَدَ الْأَنْدَلُسَ مُضْطَرِبَةً بِالْمُخَالِفِينَ ، مُضْطَرِمَةً بِنِيرَانِ الْمُتَغَلِّبِينَ ؛ فَأَطْفَأَ تِلْكَ النِّيرَانَ، وَاسْتَنْزَلَ[٢] أَهْلَ الْعِصْيَانِ ، وَاسْتَقَامَتْ لَهُ الْأَنْدَلُسُ فِي سَائِرِ جِهَاتِهَا بَعْدَ نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ أَيَّامِهِ ، وَدَامَتْ أَيَّامُهُ نَحْوَ خَمْسِينَ سَنَةً اسْتَفْحَلَ[٣] فِيهَا مُلْكُ بَنِي أُمَيَّةَ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ .

***

سبب تلقيب عبد الرحمن الناصر بالخلافة

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَسَمَّى مِنْهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَا الْتَاثَ[٤] أَمْرُ الْخِلَافَةِ بِالْمَشْرِقِ ، وَاسْتَبَدَّ مَوَالِي التُّرْكِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَبَلَغَهُ أَنَّ الْمُقْتَدِرَ قَتَلَهُ مُؤْنِسٌ[٥] الْمُظَفَّرُ مَوْلَاهُ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ

(١) احتازها : ضمها اليه (٢) أى أخضع وأذل وقهر ، واستنزل فلانا : حط عن مرتبته ، ويقال قهروا أعداءهم واستنزلوهم من صياصيهم (٣) استفحل الخ : عظم واتسع (٤) التاث : التبس واضطرب واختلط (٥) مؤنس الخادم كان مملوك الخليفة المعتضد ، ومن القواد ذوى الدالة والمنزلة الرفيعة فى الدولة العباسية ،فكان يتصرف فى أمورها كما يشاء حتى كادت أعمالها الجليلة كلها تكون بيده ، ابتدأت الوحشة بينه و بين الخليفة المقتدر فى

وَثَلَثِمِائَةٍ، فَتَلَقَّبَ بِأَلْقَابِ الْخِلَافَةِ . وَكَانَ كَثِيراً الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ

سنة ٣١٥ بدسائس بعض خدم القصر وتدخلهم فى شؤون الدولة « ولى المقتدر الخلافة سنة ٢٩٥ بعد وفاة الخليفة المكتفى بالله على بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق بن المتوكل » وانضم الى مؤنس كثير من الرجال والجيش ، وكان من آثار ذلك أن خلع المقتدر فى سنة ٣١٧ و بويع أخوه القاهر بالله محمد بن المعتضد « بتدبير أشياع مؤنس » فبقى القاهر يومين ثم أعيد المقتدر بعد فتن وثورات شديدة كانت فيها الدولة فوضى والجيش منقسما . وفى سنة ٣١٨ خلع المقتدر على ابنه أبى العباس الراضى وأقطعه بلاد المغرب ومصر والشام وجعل مؤنسا المظفر يخلفه فيها — وفى سنة ٣١٩ تجددت الوحشة بين مؤنس والمقتدر واشتدت حتى آلت الى قتل المقتدر بعد ، وفى المحرم من سنة ٣٢٠ سار مؤنس الى الموصل مغاضبا للمقتدر ومعه أنصاره ومماليكه وأصحابه وكثير من الفرسان والرجال واستولى على الموصل بعد قتال انتصروا فيه على بنى حمدان ، ثم عاد مؤنس الى بغداد فكانت فيها فتنة شعواء وثورة تلظت نارها ، قتل فيها الخليفة المقتدر وان لم يكن مؤنس راغبا فى ذلك ، قتله قوم من المغاربة والبربر فى تلك الثورة العمياء الطائشة . ولما قتلوه رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون و يلعنونه وسلبوه جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة لم يرعوا لهحرمة الى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفنه وعفى قبره — وكان ما فعله مؤنس سببا لجراءة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يخطر لهم على بال ، فاشتد ضعف الدولة وخرق سياج هيبتها ، على أن المقتدر — عفا الله عنه — أهمل من أحوال الخلافة كثيرا وحكم فيها النساء والخدم، وفرط فى الأموال وهى عصب الدولة وقوتها ، وكان يعزل و يولى من الوزراء بحسب الهوى وميل

وَٱلْغَزْوِ إِلَى دَارِ ٱلْحَـرْبِ ، إِلَى أَنْ هُزِمَ عَامَ ٱلْخَنْدَقِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ ، وَمَحَّصَ[1] ٱللهُ فِيهَا ٱلْمُسْلِمِينَ ،

المتغلبين عليه ممن كان طوع أيديهم . ثم بويع محمد بن المعتضد فى شوال سنة ٣٢٠ ولقب بالقاهر بالله فأساء الى حرمة المقتدر حتى عامل والدته الثكلى معاملة قاسية غير شريفة . وفى سنة ٣٢١ استوحش مؤنس والوزير أبو على بن مقلة وأتباعهما من القاهر وضيقوا عليه وعلى أسبابه، ثم قبض القاهر على مؤنس بعد تدبير طويل وحبسه وقتله فى شعبان سنة ٣٢١ . والى مؤنس المظفر تنسب قرية المونسية بالصعيد على شرقى النيل ، وهى فى جزيرة من أعمال قوص أنشأها مؤنس فى أيام المقتدر بالله أيام قدومه مصر لقتال المغاربة . « أحمد يوسف نجاتى »

(١) التمحيص: الابتلاء والاختبار وبه فسر قوله تعالى : «وليمحص الله الذين آمنوا» أى يبتليهم، وقال ابن اسحاق : جعل الله الأيام دولا بين الناس ليمحص المؤمنين بما يقع عليهم من قتل أو ألم أو ذهاب مال . ومحص الشيء : خلصه مما يشوبه كالذهب والمعادن النفيسة تمحص مما يشوبها من تراب ونحوه .

وكان سبب قعود الناصر عن الغزو أنه فى سنة ٣١٤ حل بالبلاد قحط شديد وأصابها محل تحتاج فيه الى المؤازرة والمعونة و بذل عناية الملك فى اتقاء شره وسوء مغبته واشتد القحط وعم المحل وعظم البلاء فى سنة ٣١٥ فاستسقى الناس أبا عبد الله أحمد بن بقى بن مخلد قاضى قرطبة وفاضلها الورع الزاهد ، وأرسلت الكتب الى الكور والأقاليم فى الاستسقاء والتوجه الى الله تعالى فى دفع البلاء فأسقى الله البلاد وجادهم الغيث — توفى أحمد ابن بقى سنة ٣٢٤ — رحمه الله — . ثم ضنت السماء بمائها فى سنة ٣١٧ فعاد المحل وغلت الأسعار واستسقى الناس بجامع قرطبة

فَقَعَدَ عَنِ ٱلْغَزْوِ بِنَفْسِهِ ، وَصَارَ يُرَدِّدُ ٱلصَّوَائِفَ[1] فِي كُلِّ سَنَةٍ ، فَأَوْطَأَ عَسَاكِرَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ بِلَادِ ٱلْفَرَنْجِ مَا لَمْ يَطَئُوهُ قَبْلُ فِي أَيَّامِ سَلَفِهِ ، وَمَدَّتْ إِلَيْهِ أُمَمُ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ وَرَاءِ ٱلدُّرُوبِ يَدَ ٱلْإِذْعَانِ[2] ، وَأَوْفَدُوا عَلَيْهِ رُسُلَهُمْ وَهَدَايَاهُمْ مِنْ رُومَةَ وَٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي سَبِيلِ ٱلْمُهَادَنَةِ وَٱلسِّلْمِ وَٱلِاعْتِمَالِ[3] فِيمَا يَعِنُّ فِي مَرْضَاتِهِ ، وَوَصَلَ إِلَى

(١) جمع صائفة أي غزوة ، وأصله أن العرب كانت تغزو الروم في الصيف لمكان البرد والثلج هناك — وفي الأصل « طوائف » محرفة (٢) هذا لقوة بطشه واتساع ملكه وبسطة نفوذه وتأييد العلم والمال والقوة له ، فقد مكنته قوته البرية أن يطفىء نيران الفتن والثورات ويقهر نصارى الشمال ، ومكنته قواه البحرية أن يقبض بها على مدينة سبتة مفتاح المغرب وغيرها فمد الملوك اليه أيديهم يخطبون وده ويبتغون ما عنده وأرسل اليه قسطنطين بن ليون ملك الروم بهدية ذات خطر وكذلك أرسل اليه اهل ألمانيا رسل المودة ، وبعث اليه شارل Charles ملك الفرنجة

متى تجمع القلب الذكي وصارما   وأنفا حميا تجتنبك المظالم

***

ما مضوا لم يقاتلوك ولكـ   ـن القتال الذي كفاك القتالا

(٣) في ابن خلدون : (والاحتمال) وما هنا أولى ، واعتمل : اضطرب في العمل ، أو عمل لغيره ، أو عمل بجهد لغيره أو لنفسه

سُدَّتِهِ (١) الْمُلُوكُ مِنْ أَهْلِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ الْمُتَاخِمِينَ (٢) لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِجِهَاتِ قَشْتَالَةَ وَبَنْبِلُونَةَ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا مِنَ الثُّغُورِ الْجَوْفِيَّةِ (٣) فَقَبَّلُوا يَدَهُ، وَالْتَمَسُوا رِضَاهُ، وَاحْتَقَبُوا (٤) جَوَائِزَهُ، وَامْتَطَوْا مَرَاكِبَهُ. ثُمَّ سَمَا إِلَى مُلْكِ الْعُدْوَةِ، فَتَنَاوَلَ سَبْتَةَ (٥)، وَنَقَلَ الْفُرْضَةَ (٦) مِنْ أَيْدِي أَهْلِهَا سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَثَلَثِمِائَةٍ، وَأَطَاعَهُ بَنُو إِدْرِيسَ أُمَرَاءُ الْعُدْوَةِ (٧) وَمُلُوكُ زِنَاتَةَ وَالْبَرْبَرِ، وَأَجَازَ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ

---

(١) السدة: باب الدار والبيت، وفناء البيت، والسدة ـ كالصفة ـ تكون بين أيدى البيت، وفى حديث أبى الدرداء أنه أتى باب معاوية فلم يأذن له فقال: من يغش سدد السلطان يقم ويقعد. (٢) المتاخمين: الملاصقين والمجاورين، والتخم هو الحد (٣) الجوف فى الأصل المطمئن من الأرض. والجوف كورة كبيرة بالأندلس من ناحية الغرب قرب البحر المحيط فيها اطمئنان على باقى الأندلس تشتمل على نواح وقرى، وهو المراد هنا، والجوف عمل آخر بالأندلس من اقليم أكشونية. وفى الأصل «الحوفية بالحاء محرفة» (٤) احتقبوا: جمعوا وحملوا (٥) سبتة: مدينة حصينة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، وقد كان مرساها أجود مرسى على البحر (٦) الفرضة: المرفأ «محط السفن» الميناء (٧) دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى معروفة تنسب الى ادريس بن حسن بن حسن بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب، قامت هناك من سنة ١٧٢ ـ سنة ٣١٩ حين دخلت دعوة المروانيين خلفاء قرطبة الى المغرب

مِنهُمْ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ أَخْبَارِهِ[١] ، وَبَدَأَ أَمْرَهُ أَوَّلَ وِلَايَتِهِ بِتَخْفِيفِ الْمَغَارِمِ[٢] عَنِ الرَّعَايَا . انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ . وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعِقْدِ يَوْمَ تَوَلَّى الْمُلْكَ :

بَدَا الْهِلَالُ جَدِيدًا ... وَالْمُلْكُ غَضٌّ جَدِيدُ

يَانِعْمَةَ اللهِ زِيدِى ... إِنْ كَانَ فِيكِ مَزِيدُ

إِنْ كَانَ لِلصَّوْمِ فِطْرٌ ... فَأَنْتَ لِلدَّهْرِ عِيدُ

وَأَرَادَ بِأَوَّلِ الْأَبْيَاتِ أَنَّهُ وَلِيَ مُسْتَهَلَّ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ كَمَا عُلِمَ[٣] .

***

غزوة سمورة

وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ خَلْدُونَ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ فَصَّلَهُ الْمَسْعُودِيُّ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أَجْرَى ذِكْرَ مُخَالَفَةِ أُمَيَّةَ

---

(١) فى الأصل أجناده محرفة (٢) للغارم: الغرامات ـ جمع مغرم (٣) يوافق ١٥ اكتوبر سنة ٩١٢

ٱبْنِ إِسْحٰقَ(١) عَلَى ٱلنَّاصِرِ ، وَدُخُولِهِ أَرْضَ ٱلنَّصَارَى ، وَدَلَالَتِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى عَوْرَاتِ ٱلْمُسْلِمِينَ مَا مُلَخَّصُهُ : وَغَزَا عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ صَاحِبُ ٱلْأَنْدَلُسِ سَمُّورَةَ(٢) دَارَ ٱلْجَلَالِقَةِ ، وَكَانَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، وَكَانَتِ ٱلْوَقْعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُذْمِيرَ مَلِكِ ٱلْجَلَالِقَةِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ ، بَعْدَ ٱلْكُسُوفِ ٱلَّذِي كَانَ فِي هٰذَا ٱلشَّهْرِ بِثَلَاثَةِ

(١) فى سنة ٣٢٧ عصى أمية بن اسحق بمدينة شنترين على الأمير عبد الرحمن . وسبب ذلك أنه كان له أخ اسمه أحمد وكان وزيرا لعبد الرحمن فقتله عبد الرحمن وكان أمية بشنترين فلما بلغه ذلك عصى فيها والتجأ الى ردمير ملك الجلالقة ودله على عوارت المسلمين ، ثم خرج أمية فى بعض الأيام يتصيد فمنعه أصحابه من دخول البلد فسار الى ردمير فاستوزره وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالقة الخ . ثم ان أمية استأمن الى عبد الرحمن فقبله وأكرمه .

(٢) هى مدينة الجلالقة على نهر دويرة، والى الجنوب منها سلمنقه ، والى الشمال ليون « وتكاد المدن الثلاث تكون على خط رأسي ينتهى الى أقصى شمال أسبانيا » وقد غزاها بعد ذلك المنصور بن أبى عامر وخرج معه الامام الورع محمد بن أبى الحسام طاهر القيسى التدميرى المعروف بالشهيد وشهد معه فتح مدينة سمورة وفتح مدينة قلمرية من قواعد جليقية ، ثم رحل الى الثغر وواصل الرباط بفروجه المخوفة وكان ذا بأس وشدة وشجاعة باع نفسه وماله لله تعالى بأن له الجنة ، ولم يزل مرابطا بمدينة طليرة الى أن استشهد مقبلا غير مدبر حميد المقام ، وذلك فى سنة ٣٧٩ — رحمه الله تعالى —

أَيَّامٍ فَكَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ ثَابُوا(١) بَعْدَ أَنْ حُوصِرُوا وَأُلْجِئُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ عُبُورِهِمُ الْخَنْدَقَ خَمْسِينَ أَلْفاً ، وَقِيلَ : إِنَّ الَّذِي مَنَعَ رُذْمِيرَ مِنْ طَلَبِ مَنْ نَجَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُمَيَّةُ بْنُ إِسْحٰقَ ، وَخَوَّفَهُ الْكَمِينَ(٢) ، وَرَغَّبَهُ فِيمَا كَانَ فِي عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعُدَّةِ وَالْخَزَائِنِ ، وَلَوْلَا ذٰلِكَ لَأَتَى عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ إِنَّ أُمَيَّةَ اسْتَأْمَنَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ، وَتَخَلَّصَ مِنْ رُذْمِيرَ ، وَقَبِلَهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ أَحْسَنَ قَبُولٍ . وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بَعْدَ هٰذِهِ الْوَقْعَةِ جَهَّزَ عَسَاكِرَهُ مَعَ عِدَّةٍ مِنْ قُوَّادِهِ إِلَى الْجَلَالِقَةِ ، فَكَانَتْ لَهُمْ بِهِمْ عِدَّةُ حُرُوبٍ هَلَكَ فِيهَا مِنَ الْجَلَالِقَةِ ضِعْفُ مَا قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْوَقْعَةِ الْأُولَى ، وَكَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ إِلَى هٰذِهِ الْغَايَةِ . وَرُذْمِيرُ مَلِكُ الْجَلَالِقَةِ إِلَى هٰذَا الْوَقْتِ ، وَهُوَ سَنَةُ سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ . انْتَهَى .

---

(١) أى عادوا (٢) الكمين : القوم يستخفون فى مكمن ثم ينتهزون غرة العدو فينقضون عليه .

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مَا مُلَخَّصُهُ: إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ غَزَا فِي أَزْيَدَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ، فَنَزَلَ عَلَى دَارِ مَمْلَكَةِ الْجَلَالِقَةِ، وَهِيَ مَدِينَةُ سَمُّورَةَ، وَعَلَيْهَا سَبْعَةُ أَسْوَارٍ مِنْ أَعْجَبِ الْبُنْيَانِ قَدْ أَحْكَمَتْهَا الْمُلُوكُ السَّالِفَةُ، وَبَيْنَ الْأَسْوَارِ فُصْلَانٌ[1] وَخَنَادِقُ وَمِيَاهٌ وَاسِعَةٌ، وَافْتَتَحَ مِنْهَا سُورَيْنِ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَهَا ثَارُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ الْإِحْصَاءُ[2] وَمِمَّنْ عُرِفَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَقِيلَ خَمْسِينَ أَلْفًا، وَكَانَتْ لِلْجَلَالِقَةِ وَالْبَشْكَنْسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ. انْتَهَى كَلَامُ الْمَسْعُودِيِّ.

« رَجْعٌ إِلَى أَخْبَارِ النَّاصِرِ » فَنَقُولُ: إِنَّ النَّاصِرَ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ ـ كَانَ لَهُ نَظْمٌ، وَمِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ قَوْلُهُ:

لَا يَضُرُّ الصَّغِيرَ حِدْثَانُ سِنٍّ
إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي سُعُودِ الصَّغِيرِ

(١) جمع فصيل وهو حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد، يقال: وثقوا سور البلد بكباش وفصيل. وفي الأصل (فصلات) محرفة (٢) كان في هذا الموضع بياض بالأصل وكان في العبارة تحريف كثير وسقط يخل بالمعنى ويفسد السياق والصواب ما كتبناه نقلا عن المسعودي.
« أحمد نجاتي »

كَمْ مُقِيمٍ فَازَتْ يَدَاهُ بِغُنْمٍ(١)

لَمْ تَنَلْهُ بِالرَّكْضِ(٢) كَفُّ مُغِيرِ

هٰكَذَا أَلْفَيْتُ الْبَيْتَيْنِ مَنْسُوبَيْنِ إِلَيْهِ بِخَطِّ بَعْضِ الْأَكَابِرِ، ثُمَّ كُتِبَ بِإِثْرِهِ مَا نَصُّهُ: الصَّحِيحُ أَنَّهُمَا لِغَيْرِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى.

***

هدية ابن شهيد للناصر

وَكَانَ النَّاصِرُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ قَدِ اسْتَحْجَبَ مُوسَى بْنَ مُحَمَّدِ ابْنِ حُدَيْرٍ(٣)، وَاسْتَوْزَرَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ جَهْوَرَ، وَأَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ شُهَيْدٍ، وَأَهْدَى لَهُ ابْنُ شُهَيْدٍ هَدِيَّتَهُ الْمَشْهُورَةَ الْمُتَعَدِّدَةَ الْأَصْنَافِ. وَقَدْ ذَكَرَهَا ابْنُ حَيَّانَ

---

(١) الغنم: بالضم، مايؤخذ من المحارب عنوة (٢) الركض: العدو والاسراع. والمغير: الذي يهجم على العدو ويوقع به. (٣) كان من أهل الفضل والأدب والشعر ومن بيت رياسة ورفعة توفى سنة ٣٢٠ وابنه أبو المطرف عبد الرحمن بن موسى بن محمد بن حدير كان وزيرا خيرا ذا دين وفضل توفى سنة ٣٦٩ ـ ومن هذا البيت أبو بكر محمد بن عبد الرحمن بن موسى بن حدير القرطبي ولى الشرطة بقرطبة وعلت حاله فأسفرت عن خلق كريم وأصل شريف وكان فاضلا أديبا وعاقلا حليما، توفى سنة ٣٧٨. «أحمد نجاتى»

وَٱبْنُ خَلْدُونَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ . قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ :
وَهِيَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ضَخَامَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَٱتِّسَاعِ أَحْوَالِهَا،
وَكَانَ ذٰلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ لِثَمَانٍ خَلَوْنَ مِنْ
شَهْرِ جُمَادَى ٱلْأُولَى ، وَهِيَ هَدِيَّةٌ عَظِيمَةُ ٱلشَّأْنِ ، وَٱشْتَهَرَ
ذِكْرُهَا إِلَى ٱلْآنَ ، وَٱتُّفِقَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُهَادَ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ
ٱلْأَنْدَلُسِ بِمِثْلِهَا ، وَقَدْ أَعْجَبَتْ ٱلنَّاصِرَ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ
جَمِيعاً ، وَأَقَرُّوا أَنَّ نَفْسًا لَمْ تَسْمَحْ بِإِخْرَاجِ مِثْلِهَا ضَرْبَةً[1]
عَنْ يَدِهَا ، وَكَتَبَ مَعَهَا رِسَالَةً حَسَنَةً بِالِاعْتِرَافِ لِلنَّاصِرِ
بِالنِّعْمَةِ وَٱلشُّكْرِ عَلَيْهَا ، فَاسْتَحْسَنَهَا ٱلنَّاسُ وَكَتَبُوهَا .

***

أول من لقب بذي الوزارتين بالأندلس

وَزَادَ ٱلنَّاصِرُ وَزِيرَهُ هٰذَا حُظْوَةً وَٱخْتِصَاصًا ، وَأَسْمَى
مَنْزِلَتَهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْوُزَرَاءِ جَمِيعًا، وَأَضْعَفَ لَهُ رِزْقَ ٱلْوِزَارَةِ وَبَلَّغَهُ
ثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ أَنْدَلُسِيَّةً ، وَبَلَغَ مَعْرُوفُهُ إِلَى أَلْفِ دِينَارٍ،
وَثَنَّى لَهُ ٱلْعَظَمَةَ لِتَثْنِيَتِهِ لَهُ ٱلرِّزْقَ فَسَمَّاهُ ذَا ٱلْوِزَارَتَيْنِ

(١) أي مرة واحدة

لِذَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَسَمَّى بِذَلِكَ بِالْأَنْدَلُسِ امْتِثَالًا لِاسْمِ صَاعِدِ بْنِ مَخْلَدٍ(١) وَزِيرِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادَ ، وَأَمَرَ بِتَصْدِيرِ(٢)

---

(١) هو من وزراء العصر العباسي ومشهوري كتابه الذين تولوا جلائل الأعمال ، ففي سنة ٢٦٥ استكتب أبو أحمد الموافق صاعد ابن مخلد وخلع عليه ، وفي سنة ٢٦٩ سمي صاعد ذا الوزارتين ، وفي سنة ٢٧١ شخص الى فارس لحرب عمرو بن الليث الصفار ، وقدم من فارس سنة ٢٧٢ ودخل واسط فأمر الموفق جميع القواد أن يستقبلوه فاستقبلوه وترجلوا له وقبلوا كفه وهو لا يكاد يكلمهم تيها و إعجابا — ولكنه ما لبث أن لحقه داء وزراء بني العباس فقبض الموفق عليه بواسط وعلى أسبابه وانتهبت منازلهم، وقبض على ابنيه أبي عيسى العلاء وأبي صالح ببغداد وعلى أخيه عبدون بسامرا — وفي صاعد بن مخلد يقول ابن الرومي من قصيدته الدالية الغراء التي يمدحه بها :

كأن أباه حين سماه صاعدا ... درى كيف يرقى في المعالي و يصعد؟

وللبحتري فيه وفي ابنيه وأخيه مدائح رائعة وفيه يقول من قصيدة :

لقد وفق الله الموفق للتي ... تباعد عن غي الملوك رشيدها

رأى صاعدا أهلا لأشرف رتبة ... يشق على ساري النجوم صعودها

فكيف رأيتم عدله وقد التقت ... مساوية شاة البلاد وسيدها ؟

جزى الله عنا صالحا آل مخلد ... وتمت لهم نعمى يدوم خلودها

وفيه يقول :

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة ... حتى يسلمها اليه عداه

وأقام صاعد في الوزارة سبع سنين وكان ذا ثروة طائلة وغنى واسع وتوفي بالحبس سنة ٢٧٦. اه . «أحمد نجاتي»

(٢) أي بتقديمه وجعله صدر المجلس . والصدر أعلى مقدم كل شيء وأوله ، ويقال : صدره فتصدر ، أي جلس في صدر المجلس وأعلاه

فِرَاشِهِ فِي الْبَيْتِ ، وَتَقْدِيمِ اسْمِهِ فِي دَفْتَرِ الِارْتِزَاقِ أَوَّلَ التَّسْمِيَةِ ، فَعَظُمَ مِقْدَارُهُ فِي الدَّوْلَةِ جِدًّا .

***

وصف الهدية

وَتَفْسِيرُ هَدِيَّتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مَا ثَبَتَ فِي كِتَابِ ابْنِ خَلْدُونَ عَلَى مَا يُفَسِّرُ : خَمْسُمِائَةِ أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ[1] الْعَيْنِ ، وَأَرْبَعُمِائَةِ رِطْلٍ مِنَ التِّبْرِ ، وَمُصَارَفَةُ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ[2] وَمِنْ سَبَائِكِ الْفِضَّةِ مِائَتَا[3] بِدْرَةٍ - وَاقْتَصَرَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ عَلَى خَمْسِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ فَقَطْ - وَاثْنَا عَشَرَ رِطْلًا مِنَ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ الَّذِي يُخْتَمُ عَلَيْهِ كَالشَّمْعِ ، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ رِطْلًا مِنَ الْعُودِ الْمُتَخَيَّرِ ، وَمِائَةُ رِطْلٍ مِنَ الْعُودِ الشِّبْهِ الْمُنْتَقَى . هٰكَذَا ذَكَرَهُ ابْنُ خَلْدُونَ . وَقَالَ ابْنُ الْفَرَضِيِّ مُسْتَنِدًا إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي وَجَّهَهُ ابْنُ شُهَيْدٍ مَعَ الْهَدِيَّةِ : إِنَّ الْعُودَ الْعَالِيَ مِنْ ذٰلِكَ أَرْبَعُمِائَةِ رِطْلٍ ، مِنْهَا قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ مِائَةٌ وَثَمَانُونَ رِطْلًا . وَقَالَ ابْنُ خَلْدُونَ : وَمِائَةُ أُوقِيَّةٍ مِنَ الْمِسْكِ الذَّكِيِّ الْمُفَضَّلِ فِي جِنْسِهِ . انْتَهَى .

---

(١) تطلق العين على الدينار المضروب وعلى الذهب الخالص (٢) فى الأصل من سبائك بدون واو ، وقبله : مصارفه بدل مصارفة وهو تحريف يغير المعنى ويعوق الفهم (٣) فى الأصل فى مائتى وهو تحريف

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ نَقْلًا عَنِ ٱلْكِتَابِ ٱلْمَصْحُوبِ مَعَ ٱلْهَدِيَّةِ : إِنَّ ٱلْمِسْكَ مِائَتَا أُوقِيَّةٍ وَٱثْنَتَا عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ، وَمِنَ ٱلْعَنْبَرِ ٱلْأَشْهَبِ[١] ٱلْبَاقِي عَلَى خِلْقَتِهِ بِغَيْرِ صِنَاعَةٍ خَمْسُمِائَةِ أُوقِيَّةٍ ، مِنْهَا قِطْعَةٌ عَجِيبَةٌ مُلَمْلَمَةُ[٢] ٱلشَّكْلِ وَزْنُ مِائَةِ أُوقِيَّةٍ . هٰكَذَا فِي تَارِيخِ ٱبْنِ خَلْدُونَ . وَفِي ٱبْنِ ٱلْفَرَضِيِّ : إِنَّ ٱلْكُلَّ مِائَةُ أُوقِيَّةٍ ، وَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقِطْعَةَ أَرْبَعُونَ أُوقِيَّةً ، وَمِنَ ٱلْكَافُورِ ٱلْمُرْتَفِعِ ٱلنَّقِيِّ ٱلذَّكِيِّ ثَلَاثُمِائَةِ أُوقِيَّةٍ ، قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَمِنَ ٱللِّبَاسِ ثَلَاثُونَ شُقَّةً مِنَ ٱلْحَرِيرِ ٱلْمُخَتَّمِ ٱلْمَرْقُومِ بِالذَّهَبِ كَلِبَاسِ[٣] ٱلْخُلَفَاءِ مُخْتَلِفَةَ ٱلْأَلْوَانِ وَٱلصَّنَائِعِ ، وَعَشَرَةُ أَفْرِيَةٍ[٤] مِنْ عَالِي جُلُودِ ٱلْفَنَكِ[٥]

---

(١) قال ابن البيطار : وأجود العنبر الأشهب القوى ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر ، وأردؤه الأسود (٢) الململم والملموم :المجتمع المدور المضموم ، والمستدير (٣) فى ابن خلدون « للباس الخلفاء مختلفة الألوان » (٤) جمع فروة أو فرو ، والمسموع فى جمعه أفر للقلة وفراء للكثرة (٥) الفنك جنس من الثعالب أصغر من الثعلب المعروف وفروته من أحسن الفراء وأطيبها ، ويطلق الفنك على الجلد الذى يلبس أى على الفرو ، وهو لفظ معرب . ويجلب الفنك كثيرا من بلاد الصقالبة

اَلْخُرَاسَانِيَّةِ . وَخَالَفَهُ ابْنُ الْفَرَضِيِّ إِذْ قَالَ : وَمِنْ أَنْوَاعِ الثِّيَابِ ثَلاثُونَ شُقَّةً ، وَخُلُجٌ خَاصَّةٌ (١) لِلِبَاسِهِ بِيضَاءَ وَمُلَوَّنَةً ، وَخَمْسُ ظَهَائِرَ (٢) شعيبيَّة (٣) خَاصَّةً لَهُ ، وَعَشْرُ فِرَاءٍ مِنْ عَالِي الْفَنَكِ ، مِنْهَا سَبْعَةٌ بِيضٌ خُرَاسَانِيَّةٌ ، وَثَلاثٌ مُلَوَّنَةٌ ، وَسِتَّةُ مَطَارِفَ (٤) عِرَاقِيَّةٌ خَاصَّةً لَهُ ، وَثَمَانٌ وَأَرْبَعُونَ مِلْحَفَةً (٥) زُهْرِيَّةً لِكُسْوَتِهِ ، وَمِائَةُ مِلْحَفَةٍ زُهْرِيَّةٍ لِرُقَادِهِ

---

(١) فى الأصل : خنج خاصية وهو تحريف . والخلج والخلاج ضرب من البرود المخططة قال ابن أحمر :

اذا انفرجت عنه سمادير خلفه ببردين من ذاك الخلاج المسهم

(٢) ظهائر جمع ظهارة وهى ضد البطانة ، فبطانة الثوب ماولى منه الجسد وكان داخلا ، والظهارة ماعلا وظهر ولم يل الجسد (٣) كذا بالأصل ولعله نسبة الى شعيب وهى المزادة التى تكون من أديمين يقابلان ، أو من قطعتين شعبت احداهما الى الأخرى أى ضمت (٤) المطارف : جمع مطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام (٥) الملحفة والملحف واللحاف : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه ـ وفى اللسان : الملحفة عند العرب هى الملاءة السمط فاذا بطنت ببطانة أو حشيت فهى عند العوام ملحفة والعرب لاتعرف ذلك ـ ولعل الزهرية منسوبة الى الزهرى . قال ياقوت : الزهرى منسوب الى الزهراء مدينة السلطان بقرطبة « ومدينة الزهراء بناها الأمير عبد الرحمن الناصر هذا فى سنة ٣٢٥ » وممن ينسب الى الزهرى أبو على الحسين بن محمد بن أحمد الغسانى الزهرى ثم الجيانى الحافظ نزيل قرطبة كان امام أهل الأندلس فى علم الحديث وأضبطهم للكتاب وأتقنهم لروايته وأوسعهم سماعا مع الحظ الوافر من الأدب . توفى سنة ٤٩١

« وَلَمْ يَذْكُرِ ٱبْنُ خَلْدُونَ ذٰلِكَ ، وَٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ أَعْرَفُ لَا سِيَّمَا وَقَدِ ٱسْتَنَدَ إِلَى كِتَابِ ٱلْمُهْدِي ، وَصَاحِبُ ٱلْبَيْتِ أَدْرَى » . قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَعَشَرَةُ قَنَاطِيرَ شَدَّ فِيهَا مِائَةَ جِلْدِ سَمُّورٍ[1] ، وَقَالَهُ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ أَيْضًا ، وَزَادَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَسِتَّةٌ مِنَ ٱلسُّرَادِقَاتِ ٱلْعِرَاقِيَّةِ ، وَثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ مِنَ ٱلْمَلَاحِفِ ٱلْبَغْدَادِيَّةِ لِزِينَةِ ٱلْخَيْلِ مِنَ ٱلْحَرِيرِ وَٱلذَّهَبِ ، ثُمَّ قَالَا مَعًا : وَأَرْبَعَةُ آلَافِ رِطْلٍ مِنَ ٱلْحَرِيرِ ٱلْمَغْزُولِ ، وَأَلْفُ رِطْلٍ مِنْ لَوْنِ[2] ٱلْحَرِيرِ ٱلْمُنْتَقَى لِلِاسْتِغْزَالِ ، وَزَادَ

(١) الذى فى ابن خلدون : وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد ، والسمور حيوان برى يشبه السنور . وزعم بعض الناس أنه النمس ، وليس به ولكنه يشبهه ، والبقعة التى هو فيها هى التى أثرت فى تغير لونه ، وقال عبد اللطيف البغدادى : انه حيوان جرىء ليس فى الحيوانات أجرأ منه على الانسان ولا يؤخذ الا بالحيل ، وذلك بأن تدفن له جيفة فيغتال بها ، ولحمه حار والترك يأكلونه ، وجلده لا يدبغ كسائر الجلود ، اه وتقدم وصفه والقول فيه . وقال فى المصباح : والسمور حيوان من بلاد الروس وراء بلاد الترك يشبه النمس ومنه أسود لامع وأشقر ، وحكى لى بعض الناس أن أهل تلك الناحية يصيدون الصغار منها فيخصون الذكور منها ويرسلونها ترعى فاذا كان أيام الثلج خرجوا للصيد فما كان فحلا فاتهم وما كان مخصيا استلقى على قفاه فأدركوه وقد سمن وحسن شعره . اه . (٢) ليس فى ابن خلدون كلمة لون .

أَبْنُ خَلْدُونَ : وَثَلاثُونَ شُقَّةً مِنَ ٱلْفَرْبُونِ[١] لِسُرُوجِ ٱلْهِبَاتِ، وَزَادَ أَبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ فِي ٱلْحَرِيرِ ٱلْمَذْكُورِ : قِيلَ إِنَّهُ قَبَضَهُ مِنْهُ صَاحِبُ ٱلطِّرَازِ[٢] وَلَمْ يَأْتِ بِهِ مَعَ ٱلْهَدِيَّةِ ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ لِصَاحِبِ ٱلطِّرَازِ وَأَثْبَتَهُ فِي ٱلدَّفْتَرِ . قَالَا : وَثَلاثُونَ بِسَاطًا مِنَ ٱلصُّوفِ مُخْتَلِفَةُ ٱلصِّنَاعَاتِ طُولُ كُلِّ بِسَاطٍ مِنْهَا عِشْرُونَ ذِرَاعًا ، وَقَالَ أَبْنُ خَلْدُونَ : مُنْتَقَاةٌ مُخْتَلِفَةُ ٱلْأَلْوَانِ ، قَالَا : وَمِائَةُ قِطْعَةٍ مُصَلَّيَاتٌ مِنْ وُجُوهِ ٱلْفُرُشِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ـ زَادَ أَبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ : ٱلصِّنَاعَاتِ[٣] مِنْ جِنْسِ ٱلْبُسُطِ ـ قَالَا: وَخَمْسَةَ عَشَرَ نَوْخًا[٤] مِنْ عَمَلِ ٱلْخَزِّ ٱلْمَقْطُوعِ شَطْرُهَا ، قَالَ أَبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ: وَسَائِرُهَا مِنْ جِنْسِ ٱلْبُسُطِ .قَالَ أَبْنُ خَلْدُونَ : وَمِنَ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْعُدَّةِ ثَمَانِمِائَةٍ مِنَ ٱلتَّجَافِيفِ[٥] ٱلْمُزَيَّنَةِ

(١) الذى فى المحيط : الغربيـون والفرقيون : شـجر كالحس عليـه شعر وله شوك ، ومنه أسود حديد الشوك يقال له اللبانة المغربية . اهـ وفيه : الثياب الفرقبية ثياب بيض من كتان . (٢) الطراز : الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة ، وثوب ينسج للسلطان (٣) يعنى أن ابن الفرضى قال فى المصليات : من وجوه الفرش المختلفة الصناعات الخ (٤) أظنها محرفة عن نخا ، والذى فى ابن خلدون : وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها ـ والنخ بساط طويل طوله أكثر من عرضه ، وهو فارسى معرب وجمعه نخاخ (٥) التجافيف : جمع تجفاف وهو آلة للحرب من حديد وغيره يلبسه الفرس وقد يلبسه الانسان

أَيَّامَ ٱلْبُرُوزِ وَٱلْمَوَاكِبِ ، وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ مِائَةُ تِجْفَافٍ بِأَبْدَعِ ٱلصِّنَاعَاتِ وَأَغْرَبِهَا وَأَكْمَلِهَا . قَالَا : وَأَلْفُ تُرْسٍ[١] سُلْطَانِيَّةٌ ، وَمِائَةُ أَلْفِ سَهْمٍ ـ زَادَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : مِنَ ٱلنِّبَالِ ٱلْبَارِعَةِ ٱلصَّنْعَةِ . قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَمِنَ ٱلظَّهْرِ خَمْسَةَ عَشَرَ فَرَسًا مِنَ ٱلْخَيْلِ ٱلْعِرَابِ[٢] ٱلْمُتَخَيَّرَةِ لِرِكَابِ ٱلسُّلْطَانِ فَائِقَةَ ٱلنُّعُوتِ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ : وَمِنَ ٱلْخَيْلِ مِائَةُ فَرَسٍ ، مِنْهَا مِنَ ٱلْخَيْلِ ٱلْعِرَابِ ٱلْمُتَخَيَّرَةِ لِرِكَابِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ فَرَسًا ، وَخَمْسٌ مِنْ عُرْضِ[٣] هٰذِهِ ٱلْخَيْلِ مُسْرَجَةٌ مُلْجَمَةٌ لِمَرَاكِبِ ٱلْخِلَافَةِ ، مَجَالِسُ سُرُوجِهَا خَزٌّ عِرَاقِيٌّ ، وَثَمَانُونَ فَرَسًا مِمَّا يَصْلُحُ لِلْوُصَفَاءِ[٤] وَٱلْحَشَمِ . وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : مِائَةُ فَرَسٍ مِنَ ٱلْخَيْلِ

أيضا ليقيه فى الحرب ، ومنه حديث أبى موسى : « كان على تجافيفه الديباج » وفى الحديث « أعد للفقر تجفافا » قال ابن الأثير التجفاف ماجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ـ والذى فى ابن خلدون : من تجافيف الزينة أيام البروز الخ ـ وتجفاف لفظ معرب (١) الترس : ما يتوقى به من السلاح وجمعه أتراس ، وتراس ، وترسة ، وتروس ، ورجل تارس : ذو ترس تقول لا يستوى الراجل والفارس ، ولا الأكشف والتارس (٢) العراب : الأصيلة الكريمة التى ليس فيها هجونة (٣) من عرض هذه الخيل : أى من أقواها ـ يقال : ناقة عرض أسفار : أى قوية عليها . (٤) الوصفاء : الخدم ـ جمع وصيف ووصيفة .

ٱلَّتِي تَصْلُحُ لِلرُّكُوبِ فِي ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلْغَزَوَاتِ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ : وَخَمْسَةُ أَبْغُلٍ عَالِيَةِ ٱلرِّكَابِ ، وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَعِشْرُونَ مِنْ بِغَالِ ٱلرِّكَابِ مُسْرَجَةٌ مُلْجَمَةٌ لِمَرَاكِبِ ٱلْخِلَافَةِ ، مَجَالِسُ سُرُوجِهَا خَزٌّ جَعْفَرِيٌّ[1] عِرَاقِيٌّ . قَالَ : وَمِنَ ٱلرَّقِيقِ أَرْبَعُونَ وَصِيفاً وَعِشْرُونَ جَارِيَةً مِنْ مُتَخَيَّرِ ٱلرَّقِيقِ بِكُسْوَتِهِمْ وَجَمِيعِ آلَاتِهِمْ ، وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ فِي ٱلْجَوَارِي: مُتَخَيَّرَاتٌ بِكُسْوَتِهِنَّ وَزِينَتِهِنَّ ، وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ: وَمِنْ سَائِرِ ٱلْأَصْنَافِ قَرْيَةٌ تُغِلُّ آلَافاً مِنْ أَمْدَادِ[2] ٱلزَّرْعِ ، وَمِنَ ٱلصَّخْرِ لِلْبُنْيَانِ مَا أُنْفِقَ عَلَيْهِ فِي عَامٍ وَاحِدٍ ثَمَانُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَعِشْرُونَ أَلْفَ عُودٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ مِنْ أَجْمَلِ ٱلْخَشَبِ وَأَصِيلِهِ[3] وَأَقْوَمِهِ ، قِيمَتُهَا خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ . ٱنْتَهَى .

---

(١) لعلها منسوبة الى الجعفرية وهى محلة كبيرة فى الجانب الشرقى من بغداد تنسب الى الخليفة جعفر المتوكل العباسى . والجعفرى اسم قصر بناه المتوكل بن المعتصم قرب مدينة سامراء فاستحدث عنده مدينة وانتقل اليها وأقطع القواد منها قطائع فصارت أكبر من سامراء (٢) أمداد : جمع مد ، وهو مكيال قدره رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز (٣) فى ابن خلدون وأصلبه.

***

كتاب بن شهيد المصحوب مع الهدية

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْفَرَضِيِّ نَقْلًا عَنْ كِتَابِ ٱبْنِ شُهَيْدٍ ٱلْمَصْحُوبِ مَعَ ٱلْهَدِيَّةِ عِنْدَ مَا ذَكَرَ ٱلرَّقِيقَ مَا صُورَتُهُ : وَكَانَ قَدْ أَرْبَى(١) — أَيَّدَهُ ٱللهُ — بِابْتِيَاعِهِمْ مِنْ مَالِ ٱلْأَخْمَاسِ ، فَابْتَعْتُهُمْ مِنْ نِعْمَتِهِ عِنْدِي، وَصَيَّرْتُهُمْ مِنْ بَعْثِي، وَمَعَ ذَٰلِكَ عَشْرُ قَنَاطِيرِ سُكَّرٍ طَبَرْزَذٍ(٢) لَا سُحَاقَ(٣) فِيهِ . وَفِي آخِرِ ٱلْكِتَابِ: وَلَمَّا عَلِمْتُ تَطَلُّعَ مَوْلَايَ — أَيَّدَهُ ٱللهُ تَعَالَى — إِلَى قَرْيَةِ كَذَا بِالْقَنْبَانِيَةِ(٤) ٱلْمُنْقَطِعَةِ ٱلْغَرْسِ شَرَّفَهَا وَتَرْدَادَهُ — أَيَّدَهُ ٱللهُ تَعَالَى —

---

(١) لعلها من الرباء وهو الطول والمنة (٢) الطبرزذ « طبرزل ، طبرزن » السكر ، فارسى معرب عن : تبرزد « والتبر والطبر الفأس بالفارسية » والذى يشقق به الحطب وما يشاكله ، وأصل معناه « ما نحت بالفأس » كأنه نحت بها من نواحيه ، ولذا سميت طبرستان لقطع شجرها و « استان » الموضع أو الناحية (٣) من سحق الشيء « كمنع » اذا دقه ، فالسحاق كالدقاق فتات الشيء وكساره (٤) قنبانية أو كنبانية : ناحية بالأندلس قرب قرطبة من عملها ينسب اليها أبو عبدالله محمد بن قاسم بن محمد الأموى القرطبي الجالطى الكنبيانى وكان بصيرا بالفقه والأدب وولى الصلاة والخطبة بجامع مدينة الزهراء فكان آخر خطيب قام على منبره ورحل الى المشرق وحج سنة ٣٧٠ وأخذ هنالك عن جماعة من العلماء وكان من أهل الرواية والدراية والحفظ والمعرفة الى الدين والصلاح ومكارم الأخلاق والحلم وحسن المعاشرة لأخوانه والسماحة وقضاء الحاجات وتقلد أيضا أحكام الشرطة للخليفة هشام بن الحكم فكان محمود

لِذِكْرِهَا ، لَمْ أَهْنَأْ بِعَيْشٍ حَتَّى أَعْمَلْتُ الْحِيلَةَ فِي ابْتِيَاعِهَا بِأَحْوَازِهَا[1] ، وَأَكْتَبْتُ وَكِيلَهُ ابْنَ بَقِيَّةَ[2] الْوَثِيقَةَ فِيهَا بِاسْمِهِ ، وَضَمَّهَا إِلَى ضِيَاعِهِ ، وَكَذَلِكَ صَنَعْتُ فِي قَرْيَةِ شِيرَةَ مِنْ نَظَرِ جَيَّانَ ، عِنْدَ مَا اتَّصَلَ بِي مِنْ وَصْفِهِ وَتَطَلُّعِهِ إِلَيْهَا ، فَمَا زِلْتُ أَتَصَدَّى لِمَسَرَّتِهِ بِهَا حَتَّى ابْتَعْتُهَا الْآنَ بِأَحْوَازِهَا ، وَجَمِيعِ مَنَازِلِهَا وَرُبُوعِهَا ، وَاحْتَازَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْوَكِيلُ ابْنُ بَقَنَّةَ ، وَصَارَ فِي يَدِهِ لَهُ أَبْقَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَرْجُو

فى حكومته ، ثم قتلته البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة سنة ٤٠٣ و يطلق هذا الاسم «قنبانية» على الروابى والسهول الممتدة جنوب قرطبة على الضفة اليسرى من الوادى الكبير ، وكلمة (شرفها) هنا نابية ، فلعلها محرفة عن بشرفها مثلا يعنى أن تطلعه اليها بسبب ماقدر لها من نيل الشرف . والشرف كل نشز من الأرض قد أشرف على ماحوله كشرف اشبيلية من سوادها « أحمد يوسف نجاتى » . (١) حوز الدار وحيزها ماانضم اليها من المرافق والمنافع وكل ناحية على حدة حوز ، والحوز من الأرض أن يتخذها رجل و يبين حدودها فيستحقها و يحوزها ولا يكون لأحد فيها حق معه والحوزة الناحية والحد (٢) كذا بالأصل وأظنه محرفا عن (بقنة) بفتح الباء والقاف وتشديد النون المفتوحة ، فهناك أبو تميم العز بن محمد بن بقنة ذكره فى بغية الملتمس وقال فيه : أديب حافظ من أهل بيت و زارة وجلالة يروى عن أبى القاسم الأفليلى وغيره توفى سنة ٤٨٨ . اه . وأظن أن وكيل الناصر من أصول العز بن محمد هذا ــ وأحمد بن بقنة كان وزير دولة العلويين من بنى حمود بالأندلس وقد جعلناها (بقنة) بدل (بقية) بعد ذلك . « أحمد يوسف نجاتى »

أَنَّهُ سَيُرْفَعُ فِيهَا(١) فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ آلَافُ أَمْدَادٍ مِنَ ٱلْأَطْعِمَةِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَلَمَّا عَلِمْتُ نَافِذَ عَزْمِهِ ـ أَبْقَاهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى ـ فِي ٱلْبُنْيَانِ وَكَلَفَهُ بِهِ ، وَفَكَّرْتُ فِي عَدَدِ ٱلْأَمَاكِنِ ٱلَّتِي تَطَلَّعُ نَفْسُهُ ٱلْكَرِيمَةُ إِلَى تَخْلِيدِ آثَارِهِ فِي بُنْيَانِهَا ـ مَدَّ ٱللّٰهُ تَعَالَى فِي عُمُرِهِ وَأَوْفَى بِهَا عَلَى أَقْصَى أَمَلِهِ ـ عَلِمْتُ أَنَّ أُسَّهُ(٢) وَقِوَامَهُ ٱلصَّخْرُ وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنْهُ ، فَأَثَارَتْ لِي هِمَّتِي وَنَصِيحَتِي حِكْمَةَ حِيلَةٍ أَحْكَمَهَا سَعْدُكَ وَجَدُّكَ ٱللَّذَانِ يَبْعَثَانِ مَا لَا يُتَوَهَّمُ عَلَيْهِ حِيلَةً أُقِيمُ لَكَ فِيهَا بِعَامٍ وَاحِدٍ عَدَدَ مَا كَانَ يَقُومُ عَلَى يَدَيْ عَبْدِكَ ٱبْنِ عَاصِمٍ فِي عِشْرِينَ عَامًا ؛ وَيَنْتَهِي تَحْصِيلُ ٱلنَّفَقَةِ فِيهِ إِلَى نَحْوِ ٱلثَّمَانِينَ أَلْفًا ، أُعَجِّلُ شَأْنَهُ فِي عَامٍ سِوَى ٱلتَّوْفِيرِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي يُبْدِيهِ ٱلْعِيَانُ قِبَلًا إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَكَذَلِكَ مَا ثَابَ إِلَيَّ فِي أَمْرِ ٱلْخَشَبِ لِهٰذِهِ ٱلْمُنْيَةِ ٱلْمُكَرَّمَةِ ، فَإِنَّ ٱبْنَ خَلِيلٍ عَبْدَكَ ٱلْمُجْتَهِدَ ٱلدَّءُوبَ ٱنْتَهَى فِي تَحْصِيلِ عَدَدِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ إِلَى ثَلَثِمِائَةَ

(١) قد تكون محرفة عن (منها) (٢) أس البناء : أصله وأساسه

أَلْفِ عُودٍ، وَنَيِّفَ[1] عَلَى عِشْرِينَ أَلْفَ عُودٍ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ فِي ٱلسَّنَةِ إِلَّا نَحْوُ ٱلْأَلْفَيْ[2] عُودٍ، فَفَتَحَ لِي سَعْدُكَ رَأْياً أُقِيمُ لَهُ بِتَمَامِهِ جَمِيعَ هٰذَا ٱلْخَشَبِ ٱلْعَامَ عَلَى كَمَالِهِ بِوُرُودِ ٱلْجَلِيبَةِ[3] لِوَقْتِهَا، وَقِيمَتُهُ عَلَى ٱلرُّخْصِ مَا بَيْنَ ٱلْخَمْسِينَ أَلْفاً وَٱلسِّتِّينَ أَلْفاً. انْتَهَى.

***

إنشاد الزرزور

وَمِنْ غَرِيبِ مَا يُحْكَى عَنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرِ ٱلْمَذْكُورِ أَنَّهُ أَرَادَ ٱلْفَصْدَ، فَقَعَدَ بِالْبَهْوِ[4] فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْمُشْرِفِ بِأَعْلَى مَدِينَتِهِ بِالزَّهْرَاءِ، وَٱسْتَدْعَى ٱلطَّبِيبَ لِذَلِكَ، وَأَخَذَ ٱلطَّبِيبُ ٱلْآلَةَ وَجَسَّ يَدَ ٱلنَّاصِرِ، فَبَيْنَمَا هُوَ إِذْ أَطَلَّ زُرْزُورٌ[5] فَصَعِدَ عَلَى إِنَاءِ ذَهَبٍ بِالْمَجْلِسِ وَأَنْشَدَ:

---

(١) نيف زاد (٢) هذا الاستعمال لاتجيزه اللغة والأولى أن يقال نحو ألفي عود أو ألفي العود (٣) الجليبة، الجلب والجلبة اسم لما يجلب من الشيء أي يؤتى به من موضع الى الآخر من مثل خيل وابل ومتاع وسبي ونحو ذلك (٤) البهو: البيت المقدم أمام البيوت ــ وأصل البهو السعة، يقال هم في بهو من العيش أي في سعة ورغد (٥) الزرزور: طائر من نوع العصفور يشبه القبرة، سمي بذلك لزرزرته أي تصويته وهو طائر رقيق معتدل المزاج يتبع الربيع وطيب الهواء، وللشيخ برهان الدين القيراطي

قد قلت لما مر بي معرضا ... وكفه يحمل زرزورا

ياذا الذي عذبني مطله ... ان لم تزر حقا فزرزورا

أَيُّهَا الْقَاصِدُ رِفْقاً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَا
إِنَّمَا تَقْصِدُ عِرْقاً فِيهِ مَحْيَا الْعَالَمِينَا

وَجَعَلَ يُكَرِّرُ ذٰلِكَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ، فَاسْتَظْرَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرُ ذَلِكَ غَايَةَ الِاسْتِظْرَافِ، وَسُرَّ بِهِ غَايَةَ السُّرُورِ، وَسَأَلَ عَمَّنْ اهْتَدَى إِلَى ذَلِكَ وَعَلَّمَ الزُّرْزُورَ، فَذُكِرَ لَهُ أَنَّ السَّيِّدَةَ الْكُبْرَى مَرْجَانَةَ أُمَّ وَلَدِهِ وَلِيِّ عَهْدِهِ الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللهِ صَنَعَتْ ذَلِكَ، وَأَعَدَّتْهُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ، فَوَهَبَ لَهَا مَا يُنِيفُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ.

***

هدية ابن شهيد

وَذَكَرَ ابْنُ بَسَّامٍ أَنَّ أَبَا عَامِرِ بْنَ شُهَيْدٍ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الْوَزِيرَ أَهْدَى لَهُ غُلَاماً مِنَ النَّصَارَى لَمْ تَقَعِ الْعُيُونُ عَلَى شِبْهِهِ، فَلَمَحَهُ النَّاصِرُ فَقَالَ لِابْنِ شُهَيْدٍ: أَنَّى لَكَ هٰذَا؟ قَالَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ النَّاصِرُ: تُتْحِفُونَنَا بِالنُّجُومِ وَتَسْتَأْثِرُونَ بِالْقَمَرِ، فَاسْتَعْذَرَ[1] وَاحْتَفَلَ فِي هَدِيَّةٍ بَعَثَهَا مَعَ الْغُلَامِ: وَقَالَ يَا بُنَيَّ كُنْ مَعَ جُمْلَةِ مَا بُعِثْتَ بِهِ: وَلَوْلَا الضَّرُورَةُ مَا سَمَحَتْ بِكَ نَفْسِي، وَكَتَبَ مَعَهُ بِهٰذِهِ الْأَبْيَاتِ:

(١) أي سأل العذر وطلبه

أَمَوْلَايَ هَذَا ٱلْبَدْرُ سَارَ لِأُفْقِكُمْ
وَلِلْأُفْقُ أَوْلَى بِالْبُدُورِ مِنَ ٱلْأَرْضِ
أُرَضِّيكُمُ بِالنَّفْسِ وَهْيَ نَفِيسَةٌ
وَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ بِمُهْجَتِهِ يُرْضِي

فَحَسُنَ ذَلِكَ عِنْدَ ٱلنَّاصِرِ، وَأَتْحَفَهُ بِمَالٍ جَزِيلٍ، وَتَمَكَّنَتْ عِنْدَهُ مَكَانَتُهُ. ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أُهْدِيَتْ إِلَيْهِ جَارِيَةٌ مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ ٱلدُّنْيَا، فَخَافَ أَنْ يَنْتَهِيَ ذَلِكَ إِلَى ٱلنَّاصِرِ فَيَطْلُبَهَا، فَتَكُونَ كَقِصَّةِ ٱلْغُلَامِ، فَٱحْتَفَلَ فِي هَدِيَّةٍ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْأُولَى وَبَعَثَهَا مَعَهَا، وَكَتَبَ لَهُ:

أَمَوْلَايَ هَذِي ٱلشَّمْسُ وَٱلْبَدْرُ أَوَّلًا
تَقَدَّمَ كَيْمَا يَلْتَقِي ٱلْقَمَرَانِ
قِرَانٌ لَعَمْرِي بِالسَّعَادَةِ قَدْ أَتَى
فَدُمْ مِنْهُمَا فِي كَوْثَرٍ وَجِنَانِ
فَمَا لَهُمَا وَٱللهِ فِي ٱلْحُسْنِ ثَالِثٌ
وَمَالَكَ فِي مُلْكِ ٱلْبَرِيَّةِ ثَانِي

فَتَضَاعَفَتْ مَكَانَتُهُ عِنْدَهُ . ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ ٱلْوُشَاةِ رَفَعَ لِلْمَلِكِ أَنَّهُ بَقِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلْغُلَامِ حَرَارَةٌ[١]، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يَذْكُرُهُ حِينَ تُحَرِّكُهُ ٱلشَّمُولُ[٢]، وَيَقْرَعُ[٣] ٱلسِّنَّ عَلَى تَعَذُّرِ ٱلْوُصُولِ[٤] ، فَقَالَ لِلْوَاشِي : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ، وَإِلَّا طَارَ رَأْسُكَ . وَأَعْمَلَ ٱلنَّاصِرُ حِيلَةً فِي أَنْ كَتَبَ عَلَى لِسَانِ ٱلْغُلَامِ رُقْعَةً مِنْهَا : يَا مَوْلَايَ ، تَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ لِي عَلَى ٱنْفِرَادِي ، وَلَمْ أَزَلْ مَعَكَ فِي نَعِيمٍ ، وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ عِنْدَ ٱلْخَلِيفَةِ مُشَارِكٌ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ ، مُحَاذِرٌ مَا يَبْدُو مِنْ سَطْوَةِ ٱلْمَلِكِ ، فَتَحَيَّلْ فِي ٱسْتِدْعَائِي مِنْهُ . وَبَعَثَهَا مَعَ غُلَامٍ صَغِيرِ ٱلسِّنِّ، وَأَوْصَاهُ أَنْ يَقُولَ مِنْ عِنْدِ فُلَانٍ ،وَإِنَّ ٱلْمَلِكَ لَمْ يُكَلِّمْهُ

---

(١) أى لوعة وحرقة ووجد ، ويجوز أن تكون حزازة وهى الألم فى القلب من غيظ أو نحوه من كل ما حز فى القلب وحاك فى الصدر (٢) الشمول : الخمر أو الباردة منها سميت شمولا لأن ريحها تشمل الناس وتعمهم أو لأنها عرضت لنسيم الشمال فبردت وطابت (٣) يقرع السن : كناية عن الندم والحسرة والأسف (٤) تذكرت هنا قول البحترى :

يذكرنيك والذكرى عناء ... مشابه فيك طيبة الشكول
نسيم الروض فى ريح شمال ... وصوب المزن فى راح شمول

قطُّ إنْ سأَلَهُ عَنْ ذلِكَ . فلمَّا وَقفَ أبُو عَامِرٍ عَلَى تِلْكَ الرِّسَالَةِ ، وَاسْتَخْبَرَ الْخَادِمَ ، عَلِمَ مِنْ سُؤَالِهِ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغُلَامِ ، وَمَا تَكَلَّمَ بِهِ فِي مَجَالِسِ الْمُدَامِ ، فَكَتَبَ عَلَى ظَهْرِ الرُّقْعَةِ وَلَمْ يَزِدْ حَرْفًا :

أَمِنْ بَعْدِ إِحْكَامِ التَّجَارِبِ يَنْبَغِي
لَدَيَّ سُقُوطُ الطَّيْرِ فِي غَابَةِ الْأَسَدْ ؟
وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَغْلِبُ الْحُبُّ قَلْبَهُ
وَلَا جَاهِلٌ مَا يَدَّعِيهِ أُولُو الْحَسَدْ
فَإِنْ كُنْتَ رُوحِي قَدْ وَهَبْتُكَ طَائِعًا
وَكَيْفَ يَرُدُّ الرُّوحُ إِنْ فَارَقَ الْجَسَدْ ؟

فلمَّا وَقَفَ النَّاصِرُ عَلَى الْجَوَابِ تَعَجَّبَ مِنْ فِطْنَتِهِ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى اسْتِمَاعِ وَاشٍ بِهِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ خَلَصْتَ مِنَ الشَّرَكِ ؟ فَقَالَ : لِأَنَّ عَقْلِي بِالْهَوَى غَيْرُ مُشْتَرَكٍ . فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ ، وَزَادَتْ مَحَبَّتُهُ عِنْدَهُ . وَمِمَّنْ ذَكَرَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ صَاحِبُ مَطَالِعِ الْبُدُورِ[1] فِي مَنَازِلِ السُّرُورِ .

(١) تأليف الشيخ الأديب علاء الدين على بن عبد الله البهائى الغرولى وهو كتاب نفيس جعل فيه لمنازل السرور خمسين بابا.

***

غزوات الناصر

وَأَخْبَارُ النَّاصِرِ طَوِيلَةٌ جِدًّا ، وَقَدْ مُنِحَ الظَّفَرَ عَلَى الثُّوَّارِ ، وَاسْتَنْزَلَهُمْ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ(١) حَتَّى صَفَا لَهُ الْوَقْتُ . وَكَانَتْ لَهُ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ ، فَمِنْ غَزَوَاتِهِ أَنَّهُ غَزَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَثِمَائَةٍ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ ، وَمَلِكُهَا أُرْدُونُ بْنُ أَذْفُونَشَ(٢) ، فَاسْتَنْجَدَ بِالْبَشْكَنْسِ(٣) وَالْإِفْرَنْجَةِ ، وَظَاهَرَ شَانْجَةُ(٤) بْنُ فَرْوِيلَةَ صَاحِبُ بَنْبَلُونَةَ أَمِيرَ الْبَشْكَنْسِ ، فَهَزَمَهُمْ وَوَطِئَ بِلَادَهُمْ وَدَوَّخَ أَرْضَهُمْ وَفَتَحَ مَعَاقِلَهُمْ وَخَرَّبَ حُصُونَهُمْ ،

---

(١) المعقل : الملجأ والحصن (٢) كان أولادإذ فنش الثالث « فى أول امارة الملك الناصر عبد الرحمن بن محمد » فى شمال أسبانيا يقتسمون حكومة أبيهم فقسموها الى ثلاث ممالك فأخذ منهم غرسية الأرض التى بين نهر دويرة واستوريا والبرارى القوطية المساة قمبوس Campos وجعل عاصمته مدينة ليون « نهر دويرة نهر عظيم تقع عند مصبه مدينة برتغال وعليه فى الوسط مدينة سمورة وبالقرب من نهاية فرع منه يتجه شمالا تقع مدينة ليون » وتملك أخوه «أردن » جليقية « الطرف الشمالى الغربى من أسبانيا » ، وأخوهما فرويلة كان يملك أستوريا (٣) تقدم القول فيهم ، وقد كان الافرنج يسمونهم بسكس Basques أوفونكس Yacons ولعل الاسم العربى منحوت من هاتين الكلمتين وسماهم الاصطخرى فى كتاب المسالك والممالك « بسكونس » (٤) أو هو شانجة بن غرسية ، وقد التقى جيش الناصر وجمع شانجة على حصن أرنيط « فى شرق الأندلس من

ثُمَّ غزَا بَنْبلُونَةَ سَنَةَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ، وَدَخَلَ دَارَ الْحَرْبِ، وَدَوَّخَ الْبَسَائِطَ، وَفَتَحَ الْمَعَاقِلَ، وَخَرَّبَ الْحُصُونَ، وَأَفْسَدَ الْعَمَائِرَ، وَجَالَ فِيهَا، وَتَوَغَّلَ فِي قَاصِيَتِهَا، وَالْعَدُوُّ يُحَاذِيهِ فِي الْجِبَالِ وَالْأَوْعَارِ وَلَمْ يَظْفَرْ مِنْهُ بِشَيْءٍ. ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ ظَفِرَ بِبَعْضِ الثُّوَّارِ عَلَيْهِ ـ وَكَانَ اسْتَمَدَّ بِالنَّصَارَى ـ فَقَتَلَ النَّاصِرُ مَنْ كَانَ مَعَ الثَّائِرِ مِنَ النَّصَارَى أَهْلِ أَلْبَةَ، وَفَتَحَ ثَلَاثِينَ مِنْ حُصُونِهِمْ. وَبَلَغَهُ انْتِقَاضُ طُوطَةَ (١) مَلِكَةِ الْبَشْكَنْسِ فَغَزَاهَا فِي

أعمال تطيلة كانت مطلة على أرض العدو » فاقتتلا فهزم جمع شانجة وولوا الأدبار، ثم بلغ الناصر خبر اجتماع العلجين أردن وشانجة وتعاضدهما فأوغل فى بلادهما واقتفت جيوشه آثار خيلهما وجندهما حتى هزموهم وشتتوا شملهم(١) هى أرملة شانجة ـ وقد كان أردن ملك ليون مات قبل الشروع فى غزوة بنبلونة وخلفه أخوه فرويلة فلم يمكث فى الملك الا سنة واحدة لم يقاتل فيها المسلمين الا أنه أمد شانجة ملك نقارة فى حروبه مع الناصر سنة ٣١٢ فانهزم جمع شانجة ـ ثم مات فرويلة سنة ٩٢٥ فتنازع مملكة ليون ولدا أردن شانجة وأذفنش فتغلب الثانى لأن صهره ملك نقارة ظاهره وأعانه، ومع هذا لم ييأس شانجة فانه عند تتويج اذفونش فى مدينة « شنت ياقب » نهض الى مدينة ليون واستولى عليها ثم عاد اذفنش فاستخلصها منه بمساعدة النقاريين سنة ٩٢٨ ففر شانجة بن أردن الى جليقية القصوى الى أن مات سنة ٩٢٩ م وتوافق سنة ٣١٤ هـ

بَنْبِلُونَةَ ، وَدَوَّخَ أَرْضَهَا وَاسْتَبَاحَهَا وَرَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ . ثُمَّ غَزَا غَزْوَةَ الْخَنْدَقِ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ إِلَى جِلِّيقِيَّةَ، فَانْهَزَمَ وَأُصِيبَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ، وَقَعَدَ بَعْدَهَا عَنِ الْغَزْوِ بِنَفْسِهِ، وَصَارَ يُرَدِّدُ الْبُعُوثَ وَالصَّوَائِفَ إِلَى الْجِهَادِ، وَبَعَثَ جُيُوشَهُ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَمَلَكَ سَبْتَةَ وَفَاسًا وَغَيْرَهُمَا مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَطَارَ صِيتُهُ وَانْتَشَرَ ذِكْرُهُ كَمَا سَبَقَ. وَلَمَّا هَلَكَ شَانْجَةُ بْنُ فَرْوِيلَةَ مَلِكُ الْبَشْكَنْسِ قَامَ بِأَمْرِهِمْ بَعْدَهُ أُمُّهُ طُوطَةُ [1] وَكَفَلَتْ وَلَدَهُ ، ثُمَّ انْتَقَضَتْ عَلَى النَّاصِرِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ ، فَغَزَا النَّاصِرُ بِلَادَهَا ، وَخَرَّبَ نَوَاحِيَ بَنْبِلُونَةَ ، وَرَدَّدَ عَلَيْهَا كَمَا مَرَّ الْغَزَوَاتِ . وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِينَ غَزَا إِلَى خَشْتَمَةَ [2] ثُمَّ رَحَلَ إِلَى بَنْبِلُونَةَ ، فَجَاءَتْهُ طُوطَةُ بِطَاعَتِهَا ، وَعَقَدَ لِابْنِهَا غَرْسِيَةَ عَلَى بَنْبِلُونَةَ ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى أَلْبَةَ

(١) المشهورة كما تقدم أنها أرملة شانجة ، رحلت الى الملك الناصر وكان غازيا فى بنبلونة وقدمت طاعتها فعقد لابنها غرسية على بنبلونة (٢) كذا بالأصل وهى محرفة عن «وخشمة «Osma والاسم العربى« وخشمة » فى كتاب نزهة المشتاق ، وفى سنة ٣٢٧ اجتاز الناصر نهر دويرة وانساب جيشه فى أرض العدو كالسيل الجارف مخربا القلاع التى كان يمر بها ومنها رباط ، وخشمة ، وشنت اشتبين ، وحاصر مدينة سمورة وامتدت خيامه

وَبَسَائِطِهَا فَدَوَّخَهَا وَخَرَّبَ حُصُونَهَا ، ثُمَّ اقْتَحَمَ جِلِّيقِيَّةَ ، وَمَلِكُهَا يَوْمَئِذٍ رُذْمِيرُ بْنُ أَرْدُونَ فَخَامَ[1] عَنْ لِقَائِهِ ، وَدَخَلَ وَخْشَمَةَ[2] فَنَازَلَهُ النَّاصِرُ فِيهَا ، وَهَدَمَ بَرْغَشَ[3] وَكَثِيرًا مِنْ

على طول نهر دو يرة ودوخ بلاد الجلالقة ، وكانت سيوف كلتا الطائفتين تنوش الأخرى وتنال منها. هـذا ومدينـة « شنت ياقب » أو ياقوب Santiago فى نهاية الطرف الشمالى لأسبانيا « البرتغال الآن » وكانت من بلاد جليقية ذات حصن منيع ، ويقال ان لفظها منحوت من الكلمتين الروميتين « سنكتوس يعقوبوس » « القديس يعقوب » ومن ذلك أخذ الأسبانيون لفظ « سنت ياغو » وقد زحف عليها المنصور بن أبى عامر فى أيام دولته. وكنا قد سهونا عن التعليق على هذه الكلمة بما يحققها فى صفحة ٢٥٩ فتدار كنا ذلك هنا كما تلافينا سهوا فى صفحة ٢٥٧ من الجزء الأول يتعلق بمدينة « بردو » أو « بردال ، برذيل » فتلافيناه فى هذا الجزء فى غير موضع أنظر صفحة ١٣٥ (١) خام عن لقائه : جبن ونكص (٢) كانت فى الأصل « خشتمة كما تقدم » فأصلحت (٣) برغش أو برعش Burgos قرية قرب طليطلة ، وقد كان الناصر فتح مدينة طليطلة سنة ٣٢٠ — وكان « رامير » ملك ليون قد شتت شمل جيش من المسلمين كان يحاصر وخشمة سنة ٩٣٣ م فأثار ذلك حمية الأمير عبد الرحمن سنة ٩٣٤ م وأبت عليه همته الا أن ينتقم لجيشه ويجعل سهول وخشمة تشهد له بالنصر كما شهدت على جيشه بالخذلان فغزاها ، وأراد أن يستنزل رامير من قلعتها الى ميادين القتال فاستعصم بها فترك الناصر فئة تحاصرها واتجه الى الشمال فعاثت جيوشه ولاسيما الأفارقة فى بلاد أعدائهم وخربوا مدينة برغش قاعدة قشتالة وكثيرا من الحصون. هذا وبرغش مشهورة بكنائسها وقد كان فى احدى هذه الكنائس لواء بديع الشكل استولى عليه الأسبانيون من العرب فى واقعة العقاب المشهورة « أحمد يوسف نجاتى »

مَعَاقِلِهِمْ وَهَزَمَهُمْ مِرَارًا وَرَجَعَ . ثُمَّ كَانَتْ بَعْدَهَا غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ السَّابِقَةُ ، وَهَابَتْهُ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ . ثُمَّ وَفَدَتْ عَلَيْهِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ رُسُلُ صَاحِبِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وَهَدِيَّتُهُ ـ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ قُسْطَنْطِينُ ـ وَاحْتَفَلَ النَّاصِرُ لِقُدُومِهِمْ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ ، قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ : رَكِبَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَسَاكِرُ بِالسِّلَاحِ فِي أَكْمَلِ شِكَّةٍ[1] ، وَزُيِّنَ الْقَصْرُ الْخِلَافِيُّ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَأَصْنَافِ السُّتُورِ ، وَجُمِّلَ السَّرِيرُ الْخِلَافِيُّ بِمَقَاعِدِ الْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَةِ وَالْأَعْمَامِ وَالْقَرَابَةِ ، وَرُتِّبَ الْوُزَرَاءُ ، وَالْخَدَمَةُ فِي مَوَاقِفِهِمْ ، وَدَخَلَ الرُّسُلُ فَهَالَهُمْ مَا رَأَوْهُ[2] وَقُرِّبُوا حَتَّى أَدَّوْا رِسَالَتَهُمْ ، وَأَمَرَ يَوْمَئِذٍ الْأَعْلَامَ أَنْ يَخْطُبُوا فِي ذَلِكَ الْمَحْفِلِ ، وَيُعَظِّمُوا مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَالْخِلَافَةِ ، وَيَشْكُرُوا

---

(١) الشكة : مايلبس من السلاح ،وشك في السلاح : أى دخل فى سلاح تام وعدة كاملة (٢) تذكرت هنا قول البحترى :

لحظوك أول لحظة فاستصغروا   من كان يعظم عندهم و يبجل

وقول أبى الطيب من قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند دخول رسول الروم سنة ٣٤٣ :

اذا عاينتك الرسل هانت نفوسها   عليها وما جاءت به والمراسل

« أحمد يوسف نجاتى » .

نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَى ظُهُورِ دِينِهِ وَإِعْزَازِهِ وَذِلَّةِ عَدُوِّهِ ، فَٱسْتَعَدُّوا لِذَلِكَ ، ثُمَّ بَهَرَهُمْ هَوْلُ ٱلْمَجْلِسِ فَوَجَمُوا(١) وَشَرَعُوا فِى ٱلْقَوْلِ فَأُرْتِجَ(٢) عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ فِيهِمْ أَبُو عَلِىٍّ ٱلْقَالِى وَافِدُ ٱلْعِرَاقِ(٣) ، كَانَ فِى جُمْلَةِ ٱلْحَكَمِ وَلِىِّ ٱلْعَهْدِ وَنَدَبَهُ لِذَلِكَ ٱسْتِئْثَارًا فَعَجَزَ ، فَلَمَّا وَجَمُوا كُلُّهُمْ قَامَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ ٱلْبَلُّوطِىُّ(٤) مِنْ غَيْرِ ٱسْتِعْدَادٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا تَقَدَّمَ لَهُ أَحَدٌ بِشَىْءٍ مِنْ ذٰلِكَ ، فَخَطَبَ وَٱسْتَحْضَرَ وَجَلَّى(٥) فِى ذَلِكَ ٱلْقَصْدِ ، وَأَنْشَدَ شِعْرًا طَوِيلًا ٱرْتَجَلَهُ فِى ذَلِكَ ٱلْغَرَضِ ، فَفَازَ بِفَخْرِ ذَلِكَ ٱلْمَجْلِسِ

---

(١) وجموا : سكتوا واستولت عليهم الهيبة والذعر (٢) فأرتج عليهم : استغلق عليهم الكلام فلم يقدر واعليه ، وأوصدت أمامهم أبوابه (٣) استدعاه الناصر لتربية ابنه الحكم وتهذيبه فقد كان يختار لذلك كبار الأساتذة وفحول العلماء — وكان أبو على القالى ذا حظوة عند بنى العباس وصيت ذائع فى العراقين — فكان يصاحب الحكم فى قصر الزهراء ويختلف اليه فى ذلك القصر نخبة العلماء وصفوة الأدباء فشب ذا شغف باللغة وعلومها وآدابها ، ودخل القالى قرطبة فى شعبان سنة ٣٣٠ واستوطنها وأملى كتابه الأمالى بها ، ومدحه هناك الشاعر المشهور يوسف بن هرون الرمادى بقصيدة بديعة رائعة . وتوفى أبو على بقرطبة سنة ٣٥٦ (٤) ستأتى ترجمته (٥) جلى الفرس جاء سابقا فى الحلبة ، والمصلى الذى يأتى وراءه ثانيا . وجلى الأمر وجلاه اذا كشفه وأظهره ، وقد انجلى الأمر والهم وتجلى : زال كما تنجلى الظلمة

وَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ شَأْنِهِ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مَا وَقَعَ، وَأُعْجِبَ بِهِ النَّاصِرُ وَوَلَّاهُ الْقَضَاءَ بَعْدَهَا، وَأَصْبَحَ مِنْ رِجَالَاتِ الْمَعَالِمِ (١). وَأَخْبَارُهُ مَشْهُورَةٌ. وَخُطْبَتُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَنْقُولَةٌ فِي كُتُبِ ابْنِ حَيَّانَ وَغَيْرِهِ. ثُمَّ انْصَرَفَ هٰؤُلَاءِ الرُّسُلُ، وَبَعَثَ النَّاصِرُ مَعَهُمْ هِشَامَ بْنَ هُذَيْلٍ (٢) بِهَدِيَّةٍ حَافِلَةٍ لِيُؤَكِّدَ الْمَوَدَّةَ وَيُحْسِنَ الْإِجَابَةَ. وَرَجَعَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ وَقَدْ أَحْكَمَ مِنْ ذٰلِكَ مَا شَاءَ وَجَاءَتْ مَعَهُ رُسُلُ قُسْطَنْطِينَ. ثُمَّ جَاءَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكِ الصَّقَالِبَةِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ دُوقُوه (٣) وَرَسُولٌ آخَرُ مِنْ مَلِكِ الْأَلْمَانِ (٤)، وَرَسُولٌ آخَرُ مِنْ مَلِكِ

---

(١) جمع معلم، وأصل المعلم ما يستدل به على الطريق من الأثر، ومعلم الشيء مظنته فيقال هو معلم للخير ومن معالمه، يريد من الرجال المشهورين المبرزين الذين يدعون في مواقف الحشد والقول في المجامع وأنه صار من أعلام العلم الخافقة ومن أعلام البلاغة الشاهقة (٢) كان وزيرا للناصر.
(٣) يسميه ابن الخطيب «دوقوه» وابن خلدون «هوتو» وقال ابن عذارى المراكشي: في سنة ٣٤٢ قدمت رسل «هوتو» ملك الصقالبة على الناصر، وبعض مؤرخي قرطبة يسمونه «أوتون» ولعل من يسميه «دوقو» أخذ ذلك من لقبه «Duc» (٤) كان عاهل ألمانيا في عصر الناصر هو «أوثون» « Othon » فقد ارتقى عرش ألمانيا في سنة ٣٢٤ هـ «الموافقة سنة ٩٧٢م» وتوفي سنة ٣٦٢ هـ، سنة ٩٧٣ م وكان قد أخضع الصقالبة «أحمد نجاتي»

ٱلْإِفْرَنْجَةِ (١) وَرَاءَ ٱلْبُرْتِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أُوفَةُ وَرَسُولٌ آخَرُ مِنْ مَلِكِ ٱلْإِفْرَنْجَةِ بِقَاصِيَةِ ٱلْمَشْرِقِ ـ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَلْدَةُ (٢) ـ وَٱحْتَفَلَ ٱلنَّاصِرُ لِقُدُومِهِمْ ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِ ٱلصَّقَالِبَةِ رَبِيعاً ٱلْأُسْقُفَّ إِلَى مَلِكِهِمْ «دُوقُوهْ» وَرَجَعَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ . «وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ» جَاءَ رَسُولُ أُرْدُونَ يَطْلُبُ ٱلسِّلْمَ فَعَقَدَ لَهُ ، ثُمَّ بَعَثَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ يَطْلُبُ إِدْخَالَ فِرْدَلَنْدَ (٣) قَوْمَسَ قَشْتِيلَةَ فِي عَهْدِهِ ، فَأَذِنَ لَهُ فِي

(١) كان دوق فرنسا فى ذلك العصر «هوغوش Hugues» المتوفى سنة ٣٤٥هـ ٩٥٦م ويحرف المؤرخون اسمه الى « أوقة » والبرت هى جبال البرانس

(٢) لعل اسم « كلدة » أو « كارة » كما يسميه بعضهم محرف عن « كارلة » أو « كارلوس » أو «شارل» Charles (٣) كذا بالأصل ، ويعنى به «فردنند» زعيم قشتالة أو قشتيلة « Castell » وفى بعض المراجع الافرنجية أن شانجة هو ابن أخت غرسية ، وأردن أخو شانجة من أم أخرى ، واستمال شانجة اليه فردنند زعيم قشتالة وزوج خالته «فان أم شانجة وامرأة فردنند أختان أمهما طوطة » وانما مال فردنند الى شانجة دون صهره أردن لأن الأحوال قضت عليه بذلك فدعا رجاله الى حمل السلاح وسار معه شانجة وجيش من النفاريين لنزع تاج الملك عن أردن ، وكانت مدينة بنبلونة حاضرة نفارة . والقومس الأمير والملك الشريف كلمة « معربة »

وقال الفضل بن العباس اللهبى :

ذَلِكَ وَأُدْخِلَ فِي عَهْدِهِ ، وَكَانَ غَرْسِيَةُ بْنُ شَانْجَةَ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى جِلِّيقِيَّةَ بَعْدَ أَبِيهِ شَانْجَةَ بْنِ فُرْوِيلَةَ[١]، ثُمَّ انْتَقَضَ عَلَيْهِ أَهْلُ جِلِّيقِيَّةَ ، وتَوَلَّى كِبْرَهُمْ قُومَسُ قَشْتِيلَةَ فِرْدِنَنْدُ الْمَذْكُورُ ، وَمَالَ إِلَى أَرْدُونَ بْنِ رُدْمِيرَ ، وَكَانَ غَرْسِيَةُ بْنُ شَانْجَةَ حَافِدًا[٢] لِطُوطَةَ مَلِكَةِ الْبَشْكَنْس ، فَامْتَعَضَتْ[٣] لِحَافِدِهَا غَرْسِيَةَ ، وَوَفَدَتْ عَلَى النَّاصِرِ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ مُلْقِيَةً بِنَفْسِهَا فِي عَقْدِ السِّلْمِ لَهَا وَلِوَلَدِهَا شَانْجَةَ بْنِ رُدْمِيرَ الْمَلِكِ ،وَإِعَانَةِ حَافِدِهَا غَرْسِيَةَ بْنِ شَانْجَةَ عَلَى مُلْكِهِ وَنَصْرِهِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَجَاءَ الْمَلِكَانِ مَعَهَا ، فَاحْتَفَلَ النَّاصِرُ لِقُدُومِهِمْ وَعَقَدَ الصُّلْحَ لِشَانْجَةَ وَأُمِّهِ ، وَبَعَثَ الْعَسَاكِرَ مَعَ غَرْسِيَةَ مَلِكَ جِلِّيقِيَّةَ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مُلْكَهُ، وَخَلَعَ الْجَلَالِقَةُ طَاعَةَ أَرْدُونَ إِلَيْهِ ، وَبَعَثَ إِلَى النَّاصِرِ يَشْكُرُهُ عَلَى فَعْلَتِهِ.

وأبي هاشم هما ولداني   قومس منصبي ولم يك خيشا

والقمس الرجل الشريف ، وأنشد ابن الأعرابي :

وعلمت أني قد منيت بنيطل   اذ قيل كان من آل دوفن قمس

والقمامسة البطارقة واحده قمس   « أحمد نجاتي »

(١) Fruela

(٢) الحافد والحفيد : ابن الابن (٣) امتعضت : امتلأت غضبا .

وَكَتَبَ إِلَى ٱلْأُمَمِ فِي ٱلنَّوَاحِي بِذَلِكَ، وَبِمَا ٱرْتَكَبَهُ فَرْدِنَنْدُ قَوْمَسُ قَشْتِيلَةَ فِي نَكْثِهِ(١) وَوُثُوبِهِ وَيُعَيِّرُهُ بِذَلِكَ عِنْدَ ٱلْأُمَمِ، وَلَمْ يَزَلِ ٱلنَّاصِرُ عَلَى مُوَالَاتِهِ وَإِعَانَتِهِ إِلَى أَنْ هَلَكَ(٢)، وَلَمَّا

(١) نكثه : نقضه للعهد .(٢) خلاصة ماصح من هذه الحادثة ملخصا من المصادر العربية والافرنجية أنه لمامات أردن الثالث ملك ليون فى آخر سنة ٣٤٥هـ (مارس سنة ٩٥٧م) خلفه على مملكة ليون من كان ينازعه فيها وهو أخوه شانجة (وفى تاريخ ابن عذارى المراكشي وتاريخ ابن خلدون أن الذى كان ينازع أردن بن ردمير هو أخوه غرسية) وبعد سنة من حكمه ائتمر به الأشراف وخلعوه لاستبداده وعمله على خضد شوكتهم ومحو نفوذهم وولوا عليهم أردن بن أذفنش واستأثر لنفسه بالحكم المطلق فمقتوه وتبرموا بحكمه، واتخذ فردنند زعيم قشتيلة سخط الليونيين على ملكهم ذريعة لخلعه فأتمر به هو والجيش فخلعوه فى فصل الربيع من سنة ٩٥٨ م واختاروا من بيت الملك أردن بن أذفنش الرابع ملكا عليهم وزوجه فردنند ابنته براقة (Urraca أرملة أردن الثالث بن رامير الذى كان ملكا على ليون) فهرب شانجة الى بنبلونة حاضرة نڤارة (أوالبشكنس) وشكا أمره الى جدته الملكة طوطة التى كانت تحكم نڤارة باسم ابنها غرسية، ثم سار فى وفد الى قرطبة سنة ٣٤٧ مظهرا أنه يقصد التداوى عند أطباء العرب الماهرين الذين حذقوا صناعة الطب فى ذلك الحين لكن تم عليه وعلى أن غرضه كان سياسيا خروجه فى جيش من المسلمين سنة ٣٤٨ للاغارة على مملكة ليون وقد تم استرجاعها اليه فى سنة ٣٤٩ وبعد مدة هاجم جيش النڤاريين قشتالة وهاجم جيش المسلمين مملكة ليون بصحبة شانجة فاستولى الجيش أولا على مدينة سمورة، وفى شهر ابريل سنة ٩٥٩ خضع لشانجة جزء عظيم من المملكة وقد قاومت عاصمتها زمنا ولكن فرار أردن الرابع منها الى استوريا أسقطها سنة ٩٦٠ م

وَصَلَ رَسُولُ «شَارْلْ» مَلِكِ ٱلْإِفْرَنْجَةَ بِالشَّرْقِ كَمَا تَقَدَّمَ وَصَلَ مَعَهُ رَسُولُ مَلِكِ بَرْشِلُونَةَ وَطَرَّكُونَةَ رَاغِباً فِي ٱلصُّلْحِ ، فَأَجَابَهُ ٱلنَّاصِرُ، وَوَصَلَ بَعْدَهُ رَسُولُ صَاحِبِ رُومَةَ يَخْطُبُ ٱلْمَوَدَّةَ فَأُجِيبَ . ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ بِبَعْضِ ٱخْتِصَارٍ .

***

ملك الناصر وضخامته

وَلْنُفَصِّلْ بَعْضَ مَا أَجْمَلَهُ فَنَقُولُ : ذَكَرَ ٱبْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ مُلْكَ ٱلنَّاصِرِ بِالْأَنْدَلُسِ كَانَ فِي غَايَةِ ٱلضَّخَامَةِ وَرِفْعَةِ ٱلشَّأْنِ ، وَهَادَتْهُ ٱلرُّومُ وَٱزْدَلَفَتْ[1] إِلَيْهِ تَطْلُبُ مُهَادَنَتَهُ وَمُتَاحَفَتَهُ بِعَظِيمِ ٱلذَّخَائِرِ ، وَلَمْ تَبْقَ أُمَّةٌ سَمِعَتْ بِهِ مِنْ مُلُوكِ ٱلرُّومِ وَٱلْإِفْرَنْجَةِ وَٱلْمَجُوسِ وَسَائِرِ ٱلْأُمَمِ إِلَّا وَفَدَتْ عَلَيْهِ خَاضِعَةً رَاغِبَةً ، وَٱنْصَرَفَتْ عَنْهُ رَاضِيَةً ، وَمِنْ جُمْلَتِهِمْ صَاحِبُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ٱلْعُظْمَى[2] فَإِنَّهُ هَادَاهُ وَرَغِبَ فِي مُوَادَعَتِهِ ،

والمقرى هنا قال ان حفيد طوطة ملكة البشكنس الذى انتقض عليه أهل جليقية هو غرسية بن شانجة لا شانجة بن أردن مع أنه قال فى تاريخ الحكم بن الناصر فى حوادث سنة ٣٥٤ ثم كانت وفادة أردن بن أذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير الخ

(١) ازدلف : تقرب وابتغى اليه الدرجة والمنزلة (٢) هو قسطنطين بن

***

وفود رسل قسطنطين على الناصر

وَكَانَ وُصُولُ أَرْسَالِهِ(١) فِي صَفَرٍ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلاثِينَ وَثَلثِمِائَةٍ ، وَتَقَدَّمَ فِي كَلَامِ ٱبْنِ خَلْدُونَ أَنَّهَا سِتٌّ وَثَلَاثُونَ ، فَٱللهُ أَعْلَمُ أَيُّهُمَا أَصَحُّ ؟ وَتَأَهَّبَ ٱلنَّاصِرُ لِوُرُودِهِمْ ، وَأَمَرَ أَنْ يُتَلَقَّوْا أَعْظَمَ تَلَقٍّ وَأَفْخَمَهُ ، وَأَحْسَنَ قَبُولٍ وَأَكْرَمَهُ ، وَأَخْرَجَ إِلَى لِقَائِهِمْ بِبَجَايَةَ(٢) يَحْيَى بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ

ليون ملك الروم والمرجح أن ذلك كان سنة ٣٣٨هـ التى توافق سنة ٩٤٩م فقد بعث فيها ملك الروم الى الناصر رسلا يحملون هدية وكتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التى كانت بين أسلافهما على خلفاء بغداد

(١) جمع رسل وهو فى الأصل القطيع من كل شيء ويستعمل فى الناس حقيقة أو مجازا ومنه الحديث : ان الناس دخلوا عليه بعد موته أرسالا يصلون عليه ، أى أفواجا وفرقا متقطعة يتلو بعضهم بعضا

(٢) كذا بالأصل والظاهر أنها بجانة بفتح الباء وتشديد الجيم ثم نون بعد الألف وهى مدينة بالأندلس من أعمال كورة البيرة بينها و بين المرية شمالا فرسخان (على نهير تقع مدينة المرية على قرب مصبه بالبحر الأبيض) والمرية مدينة كبيرة من كورة البيرة وقد كانت هى و بجانة بابى الشرق منها يركب التجار وفيها ترسو السفن وكان بالمرية مرفأ ومرسى للسفن والمراكب يضرب ماء البحر سورها وكان فيها ترتيب الأسطول الذى للمسلمين ومنها يخرج الى غزو البحر) قال أبو عمر أحمد بن دراج القسطلى :

متى تلحظوا قطر المرية تظفروا ببحر ندى ميناه در ومرجان
وتستبدلوا من موج بحر شجاكم ببحر لكم منه لجين وعقيان

وكانت بجانة قد خربت فانتقل أهلها الى المرية ، أما بجاية فهى مدينة

اَللَّيْثِ(١) وَغَيْرَهُ لِخِدْمَةِ أَسْبَابِ الطَّرِيقِ، فَلَمَّا صَارُوا بِأَقْرَبِ الْمَحَلَّاتِ مِنْ قُرْطُبَةَ خَرَجَ إِلَى لِقَائِهِمُ الْقُوَّادُ فِي الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالتَّعْبِيَةِ، فَتَلَقَّوْهُمْ قَائِدًا بَعْدَ قَائِدٍ، وَكَمُلَ اخْتِصَاصُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنْ أَخْرَجَ إِلَيْهِمُ الْفَتَيَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ الْخَصِيَّيْنِ يَاسِرًا وَتَمَّامًا(٢) إِبْلَاغًا فِي الِاحْتِفَالِ بِهِمْ، فَلَقِيَاهُمْ بَعْدَ الْقُوَّادِ، فَاسْتَبَانَ لَهُمْ بِخُرُوجِ الْفَتَيَيْنِ إِلَيْهِمْ بَسْطُ النَّاصِرِ وَإِكْرَامُهُ، لِأَنَّ الْفِتْيَانَ حِينَئِذٍ هُمْ عُظَمَاءُ الدَّوْلَةِ، لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْخَلْوَةِ مَعَ النَّاصِرِ وَحَرَمِهِ، وَبِيَدِهِمُ الْقَصْرُ السُّلْطَانِيُّ، وَأُنْزِلُوا بِمُنْيَةِ وَلِيِّ الْعَهْدِ الْحَكَمِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى نُصَيْرٍ بِعُدْوَةِ قُرْطُبَةَ فِي الرَّبَضِ(٣) وَمُنِعُوا مِنْ لِقَاءِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ جُمْلَةً

على ساحل البحر بين افريقية والمغرب وكان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين فى حدود سنة ٤٥٧ بعد هذه الحادثة بنحو ١٢٠ سنة (١) هو من القواد (٢) كانا كبيرى الموالى الذين كانوا أولى سلطان فى قصر الخلافة وكانوا حين ذاك من عظماء الدولة فكان ذلك دليلا على مزيد الاحتفاء وعظيم الاحتفال بالوافدين، وياسر الفتى ممن قتل فى حادثة الأمير عبد الله وتهمته سنة ٣٣٨ (٣) أى رصافة قرطبة محلة بها، والمعروف أنهم أنزلوا فى قصر فى ضاحية قرطبة

وَمِنْ مُلَابَسَةِ ٱلنَّاسِ طُرًّا ، وَرُتِّبَ لِحِجَابَتِهِمْ رِجَالٌ تُخُيِّرُوا مِنَ ٱلْمَوَالِي وَوُجُوهِ ٱلْحَشَمِ ، فَصُيِّرُوا عَلَى بَابِ قَصْرِ هٰـــذِهِ ٱلْمُنْيَةِ سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلًا لِأَرْبَعِ دُوَلٍ ، لِكُلِّ دَوْلَةٍ أَرْبَعٌ مِنْهُمْ.

***

رحلة الناصر الى قصر قرطبة

وَرَحَلَ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللّٰهِ مِنْ قَصْرِ ٱلزَّهْرَاءِ إِلَى قَصْرِ قُرْطُبَةَ لِدُخُولِ وُفُودِ ٱلرُّومِ عَلَيْهِ ، فَقَعَدَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ لِإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ فِي بَهْوِ ٱلْمَجْلِسِ ٱلزَّاهِرِ قُعُودًا حَسَنًا نَبِيلًا ؛ وَقَعَدَ عَنْ يَمِينِهِ وَلِيُّ ٱلْعَهْدِ مِنْ بَنِيهِ ٱلْحَكَمُ ، ثُمَّ عَبْـــدُ ٱللّٰهِ(١) ، ثُمَّ

---

(١) كان عبدالله بن الناصر فقيها شافعيا متنسكا وأخباريا عارفا وشاعرا مطبوعا ضاربا فى اللغة وآدابها بأوفر سهم ومن شعره :

أما فـؤادى فـكاتم ألمـه … لو لم يبح ناظرى بما كتمه
ماأوضح السقم فى ملاحظ من … يهوى وان كان كاتما سقمه
ظللت أبكى وظل يعذلنى … من لم يقاس الهوى ولا علمه
اليك عن عاشق بكى أسفا … حبيبه فى الهوى وان ظلمه
ظات جيوش الأسى تقاتله … مذ نذرت أعين الملاح دمــه

وروى عن كثير من فضلاء الأندلس منهم الامام أحمد بن محمد بن عبدالبر ، وعنى عناية عظيمة بسماع العلم وحمله والتأليف فيه ، وكان يكثر من مجالسة العلماء ويستريح الى الاجتماع بهم ، وهو أحد النجباء من أبناء الخلفاء ، ثم سعى به الى والده فحبسه فى آخر خلافته تحت الرقابة الشديدة وكان قداتهم مع الفقيه ابن عبد البر بتهمة سعيه فى قتل أخيه ولى العهد ثم قتل فى ثانى أيام الأضحى من سنة ٣٣٩ ، أو سنة ٣٣٨ «أحمد نجاتى»

عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ(١) ، ثُمَّ ٱلْأَصْبَغُ ثُمَّ مَرْوَانُ(٢) وَقَعَدَ عَنْ يَسَارِهِ

(١) يكنى أبا الأصبغ كان أديبا شاعرا ، وولد له ولد ثم دخل الكتاب لما بلغ السابعة وظهرت منه نجابة فأول لوح كتبه بعث به الى أخيه المستنصر بالله وكتب اليه بهذه الأبيات :

هاك يامولاى خطا　　مطه فى اللوح مطا
ابن سبع فى سنيه　　لم يطق للوح ضبطا
لم يقل فى الضاد طا نحـ　　ـوى ألفاظا وخطا
دمت يامولاى حتى　　يلد ابن ابنك سبطا

(٢) من ذريته أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، كان أديبا رقيقا وشاعرا مكثرا مفلقا ، وهو فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه ، سجن وهو ابن ١٦ سنة ومكث فى السجن ١٦ وعاش بعد اطلاقه من السجن ١٦ سنة فلقب بالطليق وأكثر شعره فى السجن ، كان فيما ذكر يتعشق جارية كان أبوه قد رباها معه وذكرها له ثم بدا له فاستأثر بها وأنه اشتدت غيرته لذلك فانتضى سيفا وانتهز فرصة من بعض خلوات أبيه معها فقتله فسجن وذلك فى أيام المنصور ابن أبى عامر ، ومن شعره :

غصن يهتز فى دعصى نقا　　يجتنى منه فؤادى حرقا
أطلع الحسن لنا من وجهه　　قمرا ليس يرى ممتحقا
ورنا عن طرف ريم أحور　　لحظه سهم لقلبى فوقا

ومنه :

أصبحت شمسا وفوه مغربا　　ويدا الساقى المحيى مشرقا
فاذا ما غربت فى فمه　　تركت فى الخد منه شفقا

وتوفى نحو سنة ٤٠٠ « أحمد يوسف نجاتى »

اَلْمُنْذِرُ[١] ثُمَّ عَبْدُ الْجَبَّارِ، ثُمَّ سُلَيْمَانُ، وَتَخَلَّفَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِأَنَّهُ كَانَ عَلِيلًا لَمْ يُطِقِ الْحُضُورَ، وَحَضَرَ الْوُزَرَاءُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَوَقَفَ الْحُجَّابُ مِنْ أَهْلِ الْخِدْمَةِ مِنْ أَبْنَاءِ الْوُزَرَاءِ وَالْمَوَالِي وَالْوُكَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ بُسِطَ صَحْنُ الدَّارِ أَجْمَعُ بِعِتَاقِ الْبُسُطِ وَكَرَائِمِ الدَّرَانِكِ[٢]، وَظُلِّلَتْ أَبْوَابُ الدَّارِ وَحَنَايَاهَا بِظُلَلِ[٣] الدِّيبَاجِ وَرَفِيعِ السُّتُورِ

***

وصف هدية قسطنطين لعبد الرحمن الناصر

فَوَصَلَ رُسُلُ مَلِكِ الرُّومِ حَائِرِينَ مِمَّا رَأَوْهُ مِنْ بَهْجَةِ الْمُلْكِ وَفَخَامَةِ السُّلْطَانِ، وَدَفَعُوا كِتَابَ مَلِكِهِمْ صَاحِبِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ الْعُظْمَى قُسْطَنْطِينَ بْنِ لِيُونَ وَهُوَ فِي رَقٍّ[٤] مَصْبُوغٍ لَوْنًا سَمَاوِيًّا مَكْتُوبًا بِالذَّهَبِ بِالْخَطِّ الْإِغْرِيقِيِّ وَدَاخِلَ الْكِتَابِ مُدْرَجَةٌ[٥] مَصْبُوغَةٌ أَيْضًا مَكْتُوبَةٌ

(١) كان ابنه عبد العزيز بن المنذر ذا حظ وافر من الأدب وحسن الشعر وعناية باللغة وآدابها (٢) جمع درنك وهو « والدرنوك والدرنيك والدرموك » الطنفسة وضرب من البسط ذو خمل قصير كخمل المناديل، وتشبه به فروة البعير والأسد، والدرانيك تكون ستوراً وتكون فرشا وفيها الصفرة والخضرة ـ وهو لفظ معرب .(٣) جمع ظلة وهي ما يستظل به من الشمس ويستتر به من الحر والبرد (٤) الرق : الجلد الرقيق يكتب فيه (٥) طرس مدرج : أي مطوي وملفوف ضمن الكتاب

بِفِضَّةٍ بِخَطٍّ إِغْرِيقِيٍّ أَيْضًا ، فِيهَا وَصْفُ هَدِيَّتِهِ ٱلَّتِي أَرْسَلَ بِهَا وَعَدَدُهَا ، وَعَلَى ٱلْكِتَابِ طَابَعُ ذَهَبٍ وَزْنُهُ أَرْبَعَةُ مَثَاقِيلَ ، عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُ صُورَةُ ٱلْمَسِيحِ ، وَعَلَى ٱلْآخَرِ صُورَةُ قُسْطَنْطِينَ ٱلْمَلِكِ وَصُورَةُ وَلَدِهِ(١) ، وَكَانَ ٱلْكِتَابُ بِدَاخِلِ دُرْجٍ(٢) فِضَّةٍ مَنْقُوشٍ عَلَيْهِ غِطَاءُ ذَهَبٍ ، فِيهِ صُورَةُ قُسْطَنْطِينَ ٱلْمَلِكِ مَعْمُولَةً مِنَ ٱلزُّجَاجِ ٱلْمُلَوَّنِ ٱلْبَدِيعِ ، وَكَانَ ٱلدُّرْجُ دَاخِلَ جَعْبَةٍ(٣) مُلَبَّسَةٍ بِالدِّيبَاجِ ، وَكَانَ فِي تَرْجَمَةِ عُنْوَانِ(٤) ٱلْكِتَابِ فِي سَطْرٍ مِنْهُ : قُسْطَنْطِينُ وَرُومَانِينُ(٥) ٱلْمُؤْمِنَانِ بِالْمَسِيحِ ٱلْمَلِكَانِ ٱلْعَظِيمَانِ مَلِكَا ٱلرُّومِ ، وَفِي سَطْرٍ آخَرَ : إِلَى ٱلْعَظِيمِ ٱلِاسْتِحْقَاقِ ٱلْفَخْرِ

---

(١) ابنه رومانوس (٢) أى علبة والدرج حفش النساء وهو سفيط صغير تدخر فيه المرأة طيبها وأدواتها وخف متاعها — والدرج الذى يكتب فيه ، يقال: أنفذته فى درج الكتاب أى فى طيه وداخله ، وفى درج الكتاب كذا وكذا ، أى فى ضمنه وطيه (٣) الجعبة فى الأصل كنانة النشاب وهى من خشب مستديرة واسعة من أعلاها ، وقد تطلق الجعبة على أكبر أوانى الشرب (٤) أى مفتتحه ومقدمته (٥) كذا بالأصل ، والمعروف أنه كان فى السطر الأول من مفتتح الكتاب ما ترجمته : من قسطنطين و رمانوس المؤمنين بالمسيح الخ وفى السطر الثانى : الى العظيم صاحب المجد الشريف النسب الخ . « أحمد يوسف نجاتى » .

ٱلشَّرِيفِ ٱلنَّسَبِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْحَاكِمِ عَلَى ٱلْعَرَبِ بِالْأَنْدَلُسِ — أَطَالَ ٱللّٰهُ بَقَاءَهُ —

***

احتفال الناصر بالهدية

وَلَمَّا ٱحْتَفَلَ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللّٰهِ هٰذَا الِاحْتِفَالَ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ ٱلْخُطَبَاءُ وَٱلشُّعَرَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِتَذْكُرَ جَلَالَةَ مَقْعَدِهِ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ ، وَتَصِفَ مَا تَهَيَّأَ مِنْ تَوْطِيدِ ٱلْخِلَافَةِ فِي دَوْلَتِهِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلْأَمِيرِ ٱلْحَكَمِ ٱبْنِهِ وَلِيِّ عَهْدِهِ بِإِعْدَادِ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ مِنَ ٱلْخُطَبَاءِ، وَيُقَدِّمُهُ أَمَامَ نَشِيدِ ٱلشُّعَرَاءِ ، فَأَمَرَ ٱلْحَكَمُ صَنِيعَهُ ٱلْفَقِيهَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْبَرِّ ٱلْكَشْكِينَانِيَّ (١) بِالتَّأَهُّبِ لِذَلِكَ وَإِعْدَادِ خُطْبَةٍ بَلِيغَةٍ يَقُومُ بِهَا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخَلِيفَةِ — وَكَانَ يَدَّعِي مِنَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِ غَيْرِهِ ، وَحَضَرَ ٱلْمَجْلِسَ ٱلسُّلْطَانِيَّ — فَلَمَّا قَامَ يُحَاوِلُ ٱلتَّكَلُّمَ بِمَا رَأَى هَالَهُ (٢)

(١) فى الأصل « الكسيبانى » وهو تحريف . والفقيه المذكور هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد البر المعروف بالكشكينانى « نسبة الى قرية كشكينان من قنبانية قرطبة » (٢) هاله و بهره : غلبه وقهره ، والبهر أيضا الكرب يعترى الانسان اذا كلف فوق الجهد ، كأنه قطع بهره أى نفسه ومنه :

ان البخيل اذا سألت بهرته وترى الكريم يراح كالمختال

وَبَهَرَهُ هَوْلُ ٱلْمَقَامِ وَأُبَّهَةُ(١) ٱلْخِلَافَةِ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى لَفْظَةٍ ، بَلْ غُشِيَ عَلَيْهِ وَسَقَطَ إِلَى ٱلْأَرْضِ .

***

خطبة أبي على القالى

فَقِيلَ لِأَبِي عَلِيٍّ ٱلْبَغْدَادِيِّ إِسْمٰعِيلَ بْنِ ٱلْقَاسِمِ ٱلْقَالِي ، صَاحِبِ ٱلْأَمَالِي وَٱلنَّوَادِرِ ، وَهُوَ حِينَئِذٍ ضَيْفُ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْوَافِدُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعِرَاقِ — وَأَمِيرُ ٱلْكَلَامِ ، وَبَحْرُ ٱللُّغَةِ : قُمْ فَارْقَعْ هٰذَا ٱلْوَهْيَ(٢) . فَقَامَ فَحَمِدَ ٱللّٰهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ — صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — هٰكَذَا ذَكَرَ ٱبْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُهُ . وَكَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ ٱلسَّابِقُ يَقْتَضِي أَنَّ ٱلْقَالِيَ هُوَ ٱلْمَأْمُورُ بِٱلْكَلَامِ أَوَّلًا وَٱلْمُعَدُّ لِذَلِكَ ، وَنَحْوُهُ فِي ٱلْمَطْمَحِ ، وَٱلْخَطْبُ سَهْلٌ . ثُمَّ ٱنْقَطَعَ ٱلْقَوْلُ بِٱلْقَالِي ، فَوَقَفَ سَاكِتًا مُفَكِّرًا فِي كَلَامٍ

(١) أى عظمة ومهابة (٢) الوهى : الشق فى الشىء وتخرقه ، وهى الشىء اذا تخرق وانشق أو استرخى رباطه — ويروى « المؤمن موه راقع » كأنه يوهى دينه بمعصيته ، ويرقعه بتوبته ، وفى المثل :

خل سبيل من وهى سقاؤه ومن أريق بالفلاة ماؤه

يضرب لمن لايستقيم أمره ولاتصلح حاله — ويقال : أوهيت وهيا فارقعه وغادر وهية لاترقع ، أى فتقا لايقدر على رتقه

يَدْخُلُ بِهِ إِلَى ذِكْرِ مَا أُرِيدَ مِنْهُ وَقَالَ فِي الْمَطْمَحِ : إِنَّ أَبَا عَلِيٍّ الْقَالِيَ انْقَطَعَ وَبُهِتَ(١)، وَمَا وَصَلَ إِلَّا قَطَعَ، وَوَقَفَ سَاكِتًا مُتَفَكِّرًا، لَا نَاسِيًا وَلَا مُتَذَكِّرًا،

***

خطبة منذر ابن سعيد

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ ـ وَكَانَ مِمَّنْ حَضَرَ فِي زُمْرَةِ الْفُقَهَاءِ ـ قَامَ مِنْ ذَاتِهِ، بِدَرَجَةٍ مِنْ مِرْقَاتِهِ(٢) فَوَصَلَ افْتِتَاحَ أَبِي عَلِيٍّ لِأَوَّلِ خُطْبَتِهِ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ، وَنَادَى مِنَ الْإِحْسَانِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ كُلَّ مُجِيبٍ(٣)، يَسُحُّهُ سَحًّا(٤) كَأَنَّمَا كَانَ يَحْفَظُهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ، وَبَدَأَ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ الْبَغْدَادِيُّ فَقَالَ : أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالتَّعْدَادِ لِآلَائِهِ، وَالشُّكْرِ لِنَعْمَائِهِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَفِيِّهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَادِثَةٍ مَقَامًا، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَإِنِّي قَدْ قُمْتُ فِي

(١) البهت : الانقطاع والحيرة، وقد بهت (كعلم ونصر وكرم وعنى) ـ و بناؤه للمجهول أفصح وأشهر ـ اذا انقطع وسكت حائرا فهو مبهوت (٢) المرقاة : الدرجة من رقى اليه اذا صعد (٣) يعنى أنه كان يدعو جيد القول فيجيبه ولا يتأبى عليه ولا يستعصى (٤) السح : الصب المتتابع الكثير، ومن المجاز :استنشدته قصيدة فسحها على سحا

مَقَامٍ كَرِيمٍ ، بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ عَظِيمٍ ، فَأَصْغُوا إِلَيَّ مَعْشَرَ الْمَلَإِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَتْقِنُوا(١) عَنِّي بِأَفْئِدَتِكُمْ . إِنَّ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ لِلْمُحِقِّ صَدَقْتَ ، وَلِلْمُبْطِلِ كَذَبْتَ ، وَإِنَّ الْجَلِيلَ ـ تَعَالَى فِي سَمَائِهِ ، وَتَقَدَّسَ بِصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ ـ أَمَرَ كَلِيمَهُ مُوسَى ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ ـ أَنْ يُذَكِّرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ(٢) اللَّهِ ـ جَلَّ وَعَزَّ ـ عِنْدَهُمْ ، وَفِيهِ وَفِي رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أُسْوَةٌ(٣) حَسَنَةٌ ، وَإِنِّي أُذَكِّرُكُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَكُمْ ، وَتَلَافِيهِ لَكُمْ بِخِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي لَمَّتْ شَعَثَكُمْ(٤) ، وَأَمَّنَتْ سِرْبَكُمْ(٥) وَرَفَعَتْ قُوَّتَكُمْ(٦)

---

(١) أى احفظوه وعوه ، وفى المطمح : وأمنوا ، أى صدقوا (٢) أيام الله نعمه (وبه فسر قوله تعالى : لايرجون أيام الله ، وقوله تعالى : وذكرهم بأيام الله) ـ وقد يراد بها أيضا العقوبات والنقم ، وبه فسرت الآية الثانية ـ وغرض الخطيب هنا المعنى الأول أى النعم والمنن (٣) أسوة : قدوة (٤) لمت شعثكم : جمعت متفرقكم وأصلحت أحوالكم ولمت ما كان منتشرا من أموركم (٥) السرب الطريق والبال « يقال هو واسع السرب أى رخى البال » والمال ـ والسرب فى قوله صلى الله عليه وسلم : «من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » هو القلب « يقال فلان آمن السرب أى آمن القلب مطمئن» والسرب النفس والأهل والمال والولد « يقال فلان آمن السرب أى لايغزى ماله ونعمه لعزه ـ والسرب فى الأصل جماعة البقر والظباء والقطا والنساء » وفلان آمن فى سربه أى فى منقلبه ومتصرفه وسائر أحواله (٦) كذا بالأصل ، وفى المطمح : ورفعت خوفكم ، وهو أولى وأظهر

بَعْدَ(١) أَنْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ، وَمُسْتَضْعَفِينَ فَقَوَّاكُمْ ، وَمُسْتَذَلِّينَ فَنَصَرَكُمْ ، وَلَّاهُ اللهُ رِعَايَتَكُمْ ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ إِمَامَتَكُمْ ، أَيَّامَ ضَرَبَتِ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا(٢) عَلَى الْآفَاقِ ، وَأَحَاطَتْ بِكُمْ شُعَلُ(٣) النِّفَاقِ ، حَتَّى صِرْتُمْ فِي مِثْلِ حَدَقَةِ الْبَعِيرِ(٤)، مِنْ ضِيقِ الْحَالِ وَنَكَدِ الْعَيْشِ(٥) وَالتَّغْيِيرِ(٦) ، فَاسْتَبْدَلْتُمْ بِخِلَافَتِهِ مِنَ الشِّدَّةِ بِالرَّخَاءِ(٧) وَانْتَقَلْتُمْ بِيُمْنِ

(١) فى المطمح « وكنتم قليلا فكثركم الخ » وهو أقوى فى السياق ونسق العبارة (٢) يريد عموم الفتنة وتمكنها فى البلاد وقوة سلطانها فى الدولة . (٣) فى المطمح : تشعل ، جعل النفاق نارا مشتعلة لأنه يؤدى الى التهلكة ويوقد نار الفتنة والبغضاء (٤) أى فى رغد ولين : وفى حديث الأحنف ابن قيس: نزلوا فى مثل حديقة البعير ، أى فى خصب ورغد، شبهه بحدقة البعير لأنها ريا من الماء ، قال ابن الأثير شبه بلادهم فى كثرة مائها وخصبها بالعين لأنها توصف بالنداوة وكثرة الماء ولأن المخ « النقى » لايبقى فى شيء من الأعضاء بقاءه فى العين فهو فيها دائم ثابت — ، « من » فى قوله « من ضيق العيش الخ » للبدل أو بمعنى بعد (٥) أى ضيقه وعسره وشدته (٦) لعلها من غير الدهر وهى أحداثه وأحواله المغيرة ، وتغير الشيء عن حاله : تحول، وغيره: حوله و بدله وجعله غير ما كان ، وفى التنزيل العزيز « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» وقد تكون فى الخطبة محرفة عن التقتير ، وهو الضيق والرمقة من العيش والقلة فى النفقه (٧) كذا بالأصل والمطمح ، والواجب حذف الباء

سِيَاسَتِهِ إِلَى تَمْهِيدِ[1] كَنَفِ الْعَافِيَةِ بَعْدَ اسْتِيطَانِ الْبَلَاءِ ، أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ مَعَاشِرَ الْمَلَإِ : أَلَمْ تَكُنِ الدِّمَاءُ مَسْفُوكَةً[2] فَحَقَنَهَا ، وَالسُّبُلُ مَخُوفَةً فَأَمَّنَهَا ، وَالْأَمْوَالُ مُنْتَهَبَةً فَأَحْرَزَهَا[3] وَحَصَّنَهَا ، أَلَمْ تَكُنِ الْبِلَادُ خَرَابًا فَعَمَرَهَا ، وَثُغُورُ الْمُسْلِمِينَ مُهْتَضَمَةً[4] فَحَمَاهَا وَنَصَرَهَا ؟ فَاذْكُرُوا آلَاءَ[5] اللهِ عَلَيْكُمْ بِخِلَافَتِهِ ، [6] وَتَلَافِيَهُ جَمْعَ كَلِمَتِكُمْ بَعْدَ افْتِرَاقِهَا بِإِمَامَتِهِ ، حَتَّى أَذْهَبَ اللهُ عَنْكُمْ غَيْظَكُمْ ، وَشَفَى صُدُورَكُمْ ، وَصِرْتُمْ يَدًا[7] عَلَى عَدُوِّكُمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ

---

(١) مهد الفراش : وطأه ولينه ، والكنف : الحرز والستر وحسن الولاية ، والظل « يقال هو يعيش فى كنف فلان أى فى ظله وحماه ، والكنف : الجانب والناحية (٢) سفك الدم والدمع والماء : صبه وأراقه ، ومن المجاز : سفك الكلام اذا نثره من فيه بسرعة ، وحقنه « كضرب ونصر » حبسه وصانه وحفظه ويقال حقن دم فلان اذا أنقذه من القتل بعد ماوجب عليه ، ومنع من اراقته وازهاق روحه ، أى جمعه وحبسه عليه (٣) أى صانها وحفظها وجعلها فى حرز حصين (٤) أى مغتصبة مقهورة ، ومتنقصة مظلومة (٥) أى نعمه ومننه (٦) وتلافيه : وتداركه (٧) أى قوة وجماعة وفى الحديث : « وهم يد على من سواهم » يعنى أن مثل المؤمنين مع كثرتهم فى وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة فكما لا يتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضا وأن تختلف بها الجهات فى التصرف كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين

بَأْسُكُمْ(١) بَيْنَكُمْ ، فَأَنْشُدُكُمُ اللّٰهَ أَلَمْ تَكُنْ خِلَافَتُهُ قُفْلَ الْفِتْنَةِ بَعْدَ انْطِلَاقِهَا مِنْ عِقَالِهَا ؟ أَلَمْ يَتَلَافَ(٢) صَلَاحَ الْأُمُورِ بِنَفْسِهِ بَعْدَ اضْطِرَابِ أَحْوَالِهَا ؟ وَلَمْ يَكِلْ ذٰلِكَ إِلَى الْقُوَّادِ وَالْأَجْنَادِ ، حَتَّى بَاشَرَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْمُهْجَةِ(٣) وَالْأَوْلَادِ ، وَاعْتَزَلَ النِّسْوَانَ ، وَهَجَرَ الْأَوْطَانَ ، وَرَفَضَ الدَّعَةَ وَهِيَ مَحْبُوبَةٌ ، وَتَرَكَ الرُّكُونَ إِلَى الرَّاحَةِ وَهِيَ مَطْلُوبَةٌ ، بِطَوِيَّةٍ(٤) صَحِيحَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَرِيحَةٍ ، وَبَصِيرَةٍ(٥) ثَابِتَةٍ نَافِذَةٍ ثَاقِبَةٍ(٦) ، وَرِيحٍ هَابَّةٍ(٧) غَالِبَةٍ . وَنُصْرَةٍ مِنَ اللّٰهِ وَاقِعَةٍ وَاجِبَةٍ(٨) ، وَسُلْطَانٍ قَاهِرٍ ، وَجَدٍّ ظَاهِرٍ ، وَسَيْفٍ مَنْصُورٍ ، تَحْتَ عَدْلٍ مَشْهُورٍ ، مُتَحَمِّلًا لِلنَّصَبِ ، مُسْتَقِلًّا لِمَا

لأن كلمة التوحيد جامعة لهم واتفاق الأهواء مؤلف بين قلوبهم فهم مجتمعون على أعدائهم وأمرهم واحد (١) البأس : الشدة فى الحرب والعذاب الشديد (٢) أى يتدارك ويلحق (٣) أى النفس والروح (٤) أى نية وضمير (٥) البصيرة : قوة القلب المدركة ، والفطنة ، واليقين والمعرفة (٦) أى تخترق حجب الخفايا وظلم المشكلات وتنفذ الى ماوراءها ، وتشتف بنور ذكائها ماأخفى على غيرها (٧) من معانى الريح : القوة ، والغلبة والنصرة ، والدولة ، ويقال :

اذا هبت رياحك فاغتنمها ... فان لكل عاصفة سكونا

(٨) أى لازمة ثابتة

نَالَهُ فِي جَانِبِ ٱللهِ مِنَ ٱلتَّعَبِ ، حَتَّى لَانَتِ ٱلْأَحْوَالُ بَعْدَ شِدَّتِهَا ، وَٱنْكَسَرَتْ شَوْكَةُ ٱلْفِتْنَةِ عِنْدَ حِدَّتِهَا ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا غَارِبٌ[1] إِلَّا جَبَّهُ ، وَلَا نَجَمَ[2] لِأَهْلِهَا قَرْنٌ إِلَّا جَدَّهُ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَةِ ٱللهِ إِخْوَانًا ، وَبَلَّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِشَعَثِكُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ أَعْوَانًا ، حَتَّى تَوَاتَرَتْ[3] لَدَيْكُمُ ٱلْفُتُوحَاتُ ، وَفَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ بِخِلَافَتِهِ أَبْوَابَ ٱلْخَيْرَاتِ وَٱلْبَرَكَاتِ ، وَصَارَتْ وُفُودُ ٱلرُّومِ وَافِدَةً عَلَيْهِ وَعَلَيْكُمْ ، وَآمَالُ ٱلْأَقْصَيْنَ وَٱلْأَدْنَيْنَ مُسْتَخْدَمَةً إِلَيْهِ وَإِلَيْكُمْ ، يَأْتُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ[4] عَمِيقٍ ، وَبَلَدٍ سَحِيقٍ ، لِأَخْذِ حَبْلٍ[5] بَيْنَهُ وَبَيْنَكُمْ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا « لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ وَعْدَهُ » وَلِهٰذَا ٱلْأَمْرِ مَا بَعْدَهُ[6] ،

---

(١) غارب كل شيء : أعلاه . وجبه : قطعه وأزاله (٢) نجم الشيء : ظهر وطلع ، ومنه نجوم النبات والقرن والكوكب والناب . وفي الأصل نجح وهو تحريف . وجد الشيء : قطعه (٣) أي تتابعت وتوالت (٤) الفج : الطريق الواسع الواضح بين جبلين في قبل جبل . وهو أوسع من الشعب ، و عميق بعيد ، وكذلك السحيق النائي (٥) يطلق الحبل مجازا على العهد والميثاق . والصلة : الرابطة (٦) كناية عن عظيم خطره وشأنه ووجوب الاهتمام والعناية به والتفكير فيه

وَتِلْكَ أَسْبَابٌ ظَاهِرَةٌ بَادِيَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى أُمُورٍ بَاطِنَةٍ خَافِيَةٍ ، دَلِيلُهَا قَائِمٌ ، وَجَفْنُهَا غَيْرُ نَائِمٍ « وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ٱلْآيَةَ . وَلَيْسَ فِي تَصْدِيقِ مَا وَعَدَ ٱللهُ ٱرْتِيَابٌ « وَلِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ[١] وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » فَٱحْمَدُوا ٱللهَ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عَلَى آلَائِهِ ، وَٱسْأَلُوهُ ٱلْمَزِيدَ مِنْ نَعْمَائِهِ ، فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ بِخِلَافَةِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ أَيَّدَهُ ٱللهُ بِالْعِصْمَةِ وَٱلسَّدَادِ ، وَأَلْهَمَهُ خَالِصَ ٱلتَّوْفِيقِ إِلَى سَبِيلِ ٱلرَّشَادِ ـ أَحْسَنَ ٱلنَّاسِ حَالًا ، وَأَنْعَمَهُمْ[٢] بَالًا ، وَأَعَزَّهُمْ قَرَارًا ، وَأَمْنَعَهُمْ دَارًا ، وَأَكْثَفَهُمْ[٣] جَمْعًا ، وَأَجْمَلَهُمْ صُنْعًا ، لَا تُهَاجُونَ[٤] وَلَا تُذَادُونَ ، وَأَنْتُمْ ـ بِحَمْدِ ٱللهِ ـ عَلَى أَعْدَائِكُمْ

---

(١) قوله تعالى : « لكل نبأ مستقر » أى لكل ما أنبأتكم به عن الله ـ عز وجل ـ غاية ونهاية ترونه فى الدنيا والآخرة (٢) كناية عن الدعة وراحة القلب ورخاء الحال والهدوء والاطمئنان. والبال : الخاطر ، والحال الذى ينطوى عليه الانسان (٣) أى أكثرهم. والكثف : الجماعة. والكثافة : الكثرة والالتفاف (٤) هاجه : أثاره وأفزعه وأقلقه من مأمنه . وهاج الابل اذا حركها . ويقال : هاج هائجه : اذا اشتد غضبه وثار ، وهدأ هائجه : سكنت فورته وحدته. وذاده : دفعه وصده ومنعه

ظَاهِرُونَ ، فَاسْتَعِينُوا عَلَى صَلَاحِ أَحْوَالِكُمْ بِالْمُنَاصَحَةِ لِإِمَامِكُمْ ، وَالْتِزَامِ الطَّاعَةِ لِخَلِيفَتِكُمْ وَابْنِ عَمِّ نَبِيِّكُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . فَإِنَّ مَنْ نَزَعَ يَدًا مِنَ الطَّاعَةِ ، وَسَعَى فِي تَفْرِيقِ الْجَمَاعَةِ ، وَمَرَقَ(١) مِنَ الدِّينِ ، فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ فِي التَّعَلُّقِ بِعِصْمَتِهَا(٢) ، وَالتَّمَسُّكِ بِعُرْوَتِهَا ، حِفْظَ الْأَمْوَالِ وَحَقْنَ الدِّمَاءِ ، وَصَلَاحَ الْخَاصَّةِ وَالدَّهْمَاءِ(٣) ، وَأَنَّ بِقِوَامِ الطَّاعَةِ تُقَامُ الْحُدُودُ ، وَتُوَفَّى الْعُهُودُ ، وَبِهَا وُصِلَتِ الْأَرْحَامُ وَوَضَحَتِ الْأَحْكَامُ ، وَبِهَا سَدَّ اللَّهُ الْخَلَلَ ، وَأَمَّنَ السُّبُلَ ، وَوَطَّأَ الْأَكْنَافَ ، وَرَفَعَ الِاخْتِلَافَ ، وَبِهَا طَابَ لَكُمُ الْقَرَارُ ، وَاطْمَأَنَّتْ بِكُمُ الدَّارُ ، فَاعْتَصِمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِالِاعْتِصَامِ بِهِ ، فَإِنَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُولُ : « أَطِيعُوا اللَّهَ

---

(١) مرق : خرج . وفى الحديث وذكر الخوارج : «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » أى يجوزونه ويخرقونه ويتعدونه كما يخرق السهم المرمى به ويخرج منه (٢) أصل العصمة الحبل والسبب وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه، والعصمة : المنع والربط والوقاية (٣) أى جماعة الناس والعدد الكثير والسواد الأعظم منهم.

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» الآيَةَ . وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَحَاطَ بِكُمْ فِي جَزِيرَتِكُمْ هٰذِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْمُشْرِكِينَ ، وَصُنُوفِ الْمُلْحِدِينَ ، السَّاعِينَ فِي شَقِّ[1] عَصَاكُمْ ، وَتَفْرِيقِ مَلَاكُمْ[2] الْآخِذِينَ فِي مُخَاذَلَةِ دِينِكُمْ ، وَهَتْكِ[3] حَرِيمِكُمْ ، وَتَوْهِينِ دَعْوَةِ نَبِيِّكُمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ - أَقُولُ قَوْلِي هٰذَا وَأَخْتِمُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُسْتَغْفِرًا اللَّهَ الْغَفُورَ الرَّحِيمَ، فَهُوَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ .

***

منذر بن سعيد

وَسَاقَ ابْنُ سَعِيدٍ فِي الْمُغْرِبِ هٰذِهِ الْحِكَايَةَ فَقَالَ مَا صُورَتُهُ : مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ الْبَلُّوطِيُّ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ ، خَطِيبٌ مِصْقَعٌ[4] ، وَلَهُ كُتُبٌ مُؤَلَّفَةٌ

(١) أى تفريق جماعتكم وتشتيت ائتلافكم. والعصا: الجماعة (٢) الملأ: الجماعة والقوم ذوو الشارة والتجمع للادارة ، وقد يطلق على الأشراف من القوم ووجوههم ورؤسائهم ومقدميهم الذين يرجع الى قولهم (٣) حريم المرء وحرمه : مايحميه ويقاتل عنه (٤) مصقع : بليغ ماهر فى خطبته مأخوذ من قول ابن الأعرابى : الصقع: البلاغة فى الكلام والوقوع على المعانى ، والمصقع: العالى الصوت ، من الصقع وهو رفع الصوت ومتابعته ، أو من لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتعتع ، قال قيس بن عاصم المنقرى :

فِي ٱلْقُرْآنِ وَٱلسُّنَّةِ وَٱلْوَرَعِ ، وَٱلرَّدُّ عَلَى أَهْلِ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلْبِدَعِ ، شَاعِرٌ بَلِيغٌ ، وُلِدَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَوَّلُ سَبَبِهِ فِي ٱلتَّعَلُّقِ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ ، لَمَّا ٱحْتَفَلَ لِدُخُولِ رَسُولِ مَلِكِ ٱلرُّومِ صَاحِبِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ بِقَصْرِ قُرْطُبَةَ ٱلِاحْتِفَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَهَرَ ذِكْرُهُ ، أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ ٱلْخُطَبَاءُ وَٱلشُّعَرَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِذِكْرِ جَلَالَةِ مَقْعَدِهِ ، وَوَصْفِ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ تَوْطِيدِ ٱلْخِلَافَةِ ، وَرَمْيِ مُلُوكِ ٱلْأُمَمِ بِسِهَامِ بَأْسِهِ وَنَجْدَتِهِ ، وَتَقَدَّمَهُ[1] إِلَى ٱلْأَمِيرِ ٱلْحَكَمِ ٱبْنِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ بِإِعْدَادِ مَنْ يَقُومُ لِذَلِكَ مِنَ ٱلْخُطَبَاءِ ، وَيُقَدِّمُهُ أَمَامَ إِنْشَادِ ٱلشُّعَرَاءِ ، فَتَقَدَّمَ[2] ٱلْحَكَمُ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ ٱلْبَغْدَادِيِّ ضَيْفِ ٱلْخَلِيفَةِ وَأَمِيرِ ٱلْكَلَامِ وَبَحْرِ ٱللُّغَةِ أَنْ يَقُومَ ، فَقَامَ وَحَمِدَ ٱللهَ

خطباء حين يقوم قائلنا ‏ ‏ ‏ ‏ بيض الوجوه مصاقع لسن

وقيل ان المصقع صيغة مبالغة من صقع الديك اذا صاح و رفع صوته ، لرفع صوته فى التبليغ ، أو من الصقع وهو جانب الشىء لأن الخطيب القادر يأخذ فى كل جانب من الكلام ، ويذهب فيه كل ناحية اهـ . « أحمد نجاتى » .

(١) لعلها : وتقدم (٢) تقـدم اليه فى كذا اذا أمره وأوصاه به

وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ثُمَّ
انْقَطَعَ وَبُهِتَ، فَمَا وَصَلَ وَلَاقَطَعَ، وَوَقَفَ سَاكِتًا مُفَكِّرًا
فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ قَامَ قَائِمًا بِدَرَجَةٍ مِنْ مِرْقَاةِ
أَبِي عَلِيٍّ، وَوَصَلَ افْتِتَاحَهُ بِكَلَامٍ عَجِيبٍ، بَهَرَ الْعُقُولَ
جَزَالَةً[1]، وَمَلَأَ الْأَسْمَاعَ جَلَالَةً. ثُمَّ ذَكَرَ الْخُطْبَةَ كَمَا
سَبَقَ، وَقَالَ بَعْدَ إِيرَادِهَا مَا صُورَتُهُ: فَصَلَّبَ[2] الْعِلْجُ،
وَغُلِبَ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ: هٰذَا كَبِيرُ الْقَوْمِ أَوْ كَبْشُ الْقَوْمِ.
وَخَرَجَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ حُسْنِ مَقَامِهِ[3]، وَثَبَاتِ جَنَانِهِ،
وَبَلَاغَةِ لِسَانِهِ. وَكَانَ النَّاصِرُ أَشَدَّهُمْ تَعَجُّبًا مِنْهُ، وَأَقْبَلَ
عَلَى ابْنِهِ الْحَكَمِ ـ وَلَمْ يَكُنْ يُثْبِتُ مَعْرِفَتَهُ ـ فَسَأَلَهُ عَنْهُ،

---

(١) الجزل من الكلام: المتين الجيد والقوى الشديد خلاف الركيك
(٢) ذلك امارة تعظيم واجلال، و يقال ثوب مصلب أى فيه نقش كالصليب، وفى خبر مقتل سيدنا عمر أن ابنه عبدالله ـ رضى الله عنهما ـ خرج فضرب جفنى الأعجمى فصلب بين عينيه أى ضربه حتى صارت الضربة كالصليب، وصلب الدلو اذا جعل عليها صليبين (٣) المقام فى الأصل اسم لموضع القيام ثم سمى به المكان والمجلس والموقف ثم توسعوا فسموا مايقام به فى المجلس من خطبة أو موعظة ونحوها مقامة ومقاما، يكونان للمكان والفعل .

فَقَالَ لَهُ : هٰذَا مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ اَلْبَلُّوطِي(١) ، فَقَالَ : وَاَللّٰهِ لَقَدْ أَحْسَنَ مَاشَاءَ ، وَلَئِنْ أَخَّرَنِى اَللّٰهُ بَعْدُ لَأَرْفَعَنَّ مِنْ ذِكْرِهِ ، فَضَعْ يَدَكَ يَاحَكَمُ عَلَيْهِ وَاُسْتَخْلِصْهُ(٢) ، وَذَكِّرْنِى بِشَأْنِهِ فَمَا لِلصَّنِيعَةِ مَذْهَبٌ عَنْهُ . ثُمَّ وَلَّاهُ اُلصَّلَاةَ وَاُلْخَطَابَةَ فِى اَلْمَسْجِدِ اَلْجَامِعِ بِالزَّهْرَاءِ ، ثُمَّ تُوُفِّىَ مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى(٣) اَلْقَاضِى فَوَلَّاهُ قَضَاءَ اَلْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ وَأَقَرَّهُ عَلَى اُلصَّلَاةِ بِالزَّهْرَاءِ . وَمِنْ شِعْرِهِ فِى هٰذِهِ اَلْوَاقِعَةِ قَوْلُهُ :

مَقَالِى كَحَدِّ اُلسَّيْفِ وَسْطَ اُلْمَحَافِلِ
فَرَقْتُ بِهِ مَا بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلِ
بِقَلْبٍ ذَكِىٍّ(٤) تَرْتَمِى جَمَرَاتُهُ
كَبَارِقِ رَعْدٍ عِنْدَ رَعْشِ اُلْأَنَامِلِ

---

(١) منسوب الى موضع هناك قريب من قرطبة يقال له فحص البلوط وكان يسكنه البربر (٢) استخلصه لنفسه وأخلصه اذا استخصه وقربه (٣) هو الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن يحيى بن يحيى الليثى، ولى قضاء الجماعة بقرطبة ، وله رحلة الى المشرق. وكان فقيها جليلا عالما موصوفا بالعقل والدين والعدل ومن أهل الأدب والشعر والمروءة والظرف ، وكان شديدا فى الحق واقامة الحدود لاتلحقه فى ذلك هوادة ولاتأخذه فيه لومة لائم . وتوفى سنة ٣٣٩ (٤) الذكاء : سرعة الفطنة وحدة

فَمَا دَحَضَتْ(١) رِجْلِي وَلَا زَلَّ مِقْوَلِي

وَلَا طَاشَ(٢) عَقْلِي يَوْمَ تِلْكَ الزَّلَازِلِ(٣)

وَقَدْ حَدَّقَتْ حَوْلِي عُيُونٌ إِخَالُهَا(٤)

كَمِثْلِ سِهَامٍ أُثْبِتَتْ فِي الْمَقَاتِلِ

لِخَيْرِ إِمَامٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ

لِمُقْتَبَلٍ أَوْ فِي الْعُصُورِ الْأَوَائِلِ

الفؤاد بقوة ادراكه وسرعة فهمه . والذكاء : سرعة اقتراح النتائج ، من ذكت النار اذا اشتعلت واشتد لهبها ، والذكوة الجمرة الملتهبة ، وقال بعض المادحين :

لو لم يجل ماء الندى فيه لأحرقه ذكاؤه

(١) دحضت رجله : زلقت ، وفى حديث وفد مذحج : «نجباء غير دحض الأقدام» ، الدحض : جمع داحض : وهم الذين لاثبات لهم ولا عزيمة فى الأمور . والمقول: اللسان (٢) الطيش : النزق وخفة العقل وذهابه حتى يجهل صاحبه مايحاول وطاش اذا خف بعد رزانته ،وطاش السهم عن الهدف اذا تجاوزه وعدل عنه ولم يقصد الرمية . وفى المطمح طار بدل طاش ، ويقال فيه طيرة ، أى خفة وطيش ، وهو ساكن الطائر أى وقور لا حركة له (٣) فى المطمح «البلابل» جمع بلبال وهو شدة الهم والوساوس فى الصدر (٤) فى المطمح « أجالها » مع تقديم البيت الذى بعده على هذا البيت فضمير أجالها عائد على الامام الناصر ، يعنى أنه جعل عيون الحفل تجول فى المجلس وتدور زائغة حول ما فيه .

تَرَى ٱلنَّاسَ أَفْوَاجًا يَؤُمُّونَ بَابَهُ
وَكُلُّهُمُ مَا بَيْنَ رَاجٍ وَآمِلِ
وُفُودُ مُلُوكِ ٱلرُّومِ وَسْطَ فِنَائِهِ[١]
مَخَافَةَ بَأْسٍ أَوْ رَجَاءٍ لِنَائِلِ[٢]
فَعِشْ سَالِمًا أَقْصَى حَيَاةٍ مُؤَمَّلًا
فَأَنْتَ رَجَاءُ ٱلْكُلِّ حَافٍ[٣] وَنَاعِلِ
سَتَمْلِكُهَا مَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ
إِلَى دَرْبِ قُسْطَنْطِينَ أَوْ أَرْضِ بَابِلِ

ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ سَعِيدٍ ، وَهُوَ يُؤَيِّدُ كَلَامَ ٱبْنِ خَلْدُونَ أَنَّ ٱلْمَأْمُورَ بِالْخُطْبَةِ هُوَ ٱلْقَالِي .

***

اعجاب الناصر بخطبة المنذر ابن سعيد

وَذُكِرَ أَنَّ ٱلنَّاصِرَ قَالَ لِابْنِهِ ٱلْحَكَمِ بَعْدَ أَنْ سَأَلَهُ عَنْهُ : لَقَدْ أَحْسَنَ مَا شَاءَ ، فَلَئِنْ كَانَ حَبَّرَ[٤] خُطْبَتَهُ هٰذِهِ وَأَعَدَّهَا مَخَافَةَ أَنْ يَدُورَ مَا دَارَ

(١) فناء الدار : ما اتسع من أمامها وامتد من جوانبها (٢) أي عطاء وجود (٣) وفي المطمح : *فأنت رجاء كل حاف وناعل* وهو أولى لغة وان كان يلزم عليه قبض مفاعيلن الأولى وهو قليل عروضا (٤) تحبير الكلام والشعر والخط : تحسينه وتبيينه والتنميق فيه، من الحبر وهو الحسن والبهاء والوشي وأثر النعمة

فَيَتَلَافَى ٱلْوَهْيَ فَإِنَّهُ لَبَدِيعٌ مِنْ قُدْرَتِهِ وَٱحْتِيَاطِهِ ، وَلَئِنْ كَانَ أَتَى بِهَا عَلَى ٱلْبَدِيهَةِ[١] لِوَقْتِهِ فَإِنَّهُ لَأَعْجَبُ وَأَغْرَبُ .

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : وَلَمَّا فَرَغَ مُنْذِرٌ مِنْ خُطْبَتِهِ أَنْشَدَ :

هٰذَا ٱلْمَقَامُ[٢] ٱلَّذِي مَا عَابَهُ فَنَدٌ

لٰكِنَّ قَائِلَهُ[٣] أَزْرَى بِهِ ٱلْبَلَدُ

لَوْ كُنْتُ فِيهِمْ غَرِيباً كُنْتُ مُطَّرَفاً[٤]

لٰكِنَّنِي مِنْهُمُ فَاغْتَالَنِي ٱلنَّكَدُ

وَيُرْوَى بَدَلَ هٰذَا ٱلشَّطْرِ :

* وَلَا دَهَانِي لَهُمْ بَغْيٌ وَلَا حَسَدُ *

لَوْلَا ٱلْخِلَافَةُ ـ أَبْقَى ٱللّٰهُ حُرْمَتَهَا ـ

مَا كُنْتُ أَرْضَى بِأَرْضٍ مَا بِهَا أَحَدُ[٥]

---

(١) أى القـول بلا روية وتفـكر ، والارتجال أسرع من البديهة ، والروية بعدهما ـ وبدهه بالأمر : استقبله به مفاجأة (٢) الذى فى المطمح للقال ـ والفند : الخطأ فى القول والرأى ، والـكذب ، والخرف وانـكار العقل لهم أو مرض ـ وفنده : كذبه وعجزه وخطأ رأيه وضعفه (٣) فى المطمح : صاحبه ، وأزرى به: عابه وحط من شأنه ، ويشير البيت الى معنى قولهم : زامر الحى لايطرب (٤) أى مختارا معدوداطريفا، وتطرف الشىء: اختاره واصطفاه. وأصل مطرف متطرف فأبدلت التاء طاء وأدغمت (٥) يشير الى قول أبى فراس :

.انْتَهَى. قُلْتُ: كَأَنَّهُ عَرَّضَ بِأَبِي عَلِيٍّ الْقَالِي وَتَقْدِيمِهِمْ إِيَّاهُ فِي هٰذَا الْمَقَامِ. وَاللهُ أَعْلَمُ. وَمِنْ نَظْمِ مُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ قَوْلُهُ:

الْمَوْتُ حَوْضٌ وَكُلُّنَا نَرِدُ
لَمْ يَنْجُ مِمَّا يَخَافُهُ أَحَدُ
فَلَا تَكُنْ مُغْرَمًا بِرِزْقِ غَدٍ
فَلَسْتَ تَدْرِي بِمَا يَجِيءُ غَدُ
وَخُذْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ
وَيَسْلَمُ الرُّوحُ مِنْكَ وَالْجَسَدُ(١)
وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ لَا تُذِعْهُ فَمَا
فِي النَّاسِ إِلَّا التَّشْنِيعُ وَالْحَسَدُ(٢)

ماأكثر الناس لابل ماأقلهم   الله يعلم أنى لم أقل فندا
انى لأفتح عينى حين أفتحها   على كثير ولكن لاأرى أحدا

(١) من قول الأول:

وخذ من الدهر ماأتاك به   من قر عينا بعيشه نفعه

(٢) كأنه يشير الى معنى قول بعضهم:

لاتظهرن لعاذل أو عاذر   حاليك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين حرارة   فى القلب مثل شماتة الأعداء

وَلَهُ ، وَقَدْ آذَاهُ شَخْصٌ فَخَاطَبَهُ بِالْكُنْيَةِ فَقِيلَ لَهُ :
أَيُؤْذِيكَ وَأَنْتَ تُخَاطِبُهُ بِالْكُنْيَةِ(١)؟ فَقَالَ :

لَا تَعْجَبُوا مِنْ أَنَّنِي كَنَّيْتُهُ ... مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ سَبَّنَا وَأَذَانَا
فَاللهُ قَدْ كَنَّى أَبَا لَهَبٍ وَمَا ... كَنَّاهُ إِلَّا خِزْيَةً وَهَوَانَا

***

من تاريخ منذر ابن سعيد

وَقَالَ فِي الْمَطْمَحِ : مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ الْبَلُّوطِيُّ آيَةُ حَرَكَةٍ(٢) وَسُكُونٍ ، وَبَرَكَةٍ لَمْ تَكُنْ مُعَدَّةً وَلَا تَكُونُ ، وَآيَةُ سَفَاهَةٍ(٣)

(١) الكنية فى الأصل لفظ يطلق على الشخص للتعظيم والتوقير ، وقد تقوم مقام الاسم فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه كأبى لهب واسمه عبدالعزى ، عرف بكنيته فسماه الله بها ، وقد يدعى المرء بكنيته ليكون ذلك كناية عن معنى تصلح الكنية له بحسب معناها الأصلى قبل أن تكون اسما علما نحو «تبت يدا أبى لهب» كناية عن كونه من أهل جهنم لأنه ملابس اللهب وصاحب النار ،فان معنى أبى لهب بالنظر الى الوضع الأول ذات ملازمة للنار بل من تتولد منه النار لأنه وقود لها ـ هذا وقد كانت الكنى فى الأندلس مشهورة كأنها أعلام فلكل رجل من فضلائها كنية لايكاد يعرف الا بها (٢) فى المطمح : فى سكون (٣) السفاهة والسفه: نقيض الحلم ، والغرض أن المنذر كان يضع الحلم فى موضعه والجهل فى موضعه ولا غرو فقد قال الشاعر الحكيم :

لئن كنت محتاجا الى الحلم اننى ... الى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولى فرس للجهل بالجهل مسرج

فِي تَحَلُّمٍ ، وَجَهَامَةٍ [١] وَرَعٍ فِي طَيِّ تَبَسُّمٍ ، إِذَا جَدَّ وَجَدَ [٢] ، وَإِذَا هَزَلَ نَزَلَ ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ لَمْ يَنْزِلْ لِلْوَرَعِ مِنْ مَرْقَبٍ [٣] ، وَلَا اكْتَسَبَ إِثْماً وَلَا احْتَقَبَ [٤] ، وَلِيَ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِقُرْطُبَةَ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ، وَنَاهِيكَ [٥] مِنْ عَدْلٍ أَظْهَرَ ، وَمِنْ فَضْلٍ أَشْهَرَ [٦]

فمن رام تقويمي فانى مقوم ومن رام تعويجي فانى معوج

وقال الأول :

أحلامنا تزن الجبال رزانة ويزيد جاهلنا على الجهال

والمرء الحازم يلبس لكل حال لبوسها فهو :

جهول اذا أزرى التحلم بالفتى حليم اذا أزرى بذى الحسب الجهل

***

فكالسيف ان لاينته لان متنه وحداه ان خاشنته خشنان

(١) جهم جهامة وجهومة وجهمه « كمنعه وسمعه » وتجهمه : اذا استقبله بوجه باسر كريه مكفهر وأن يغلظ له فى القول — والدهر يتجهم الكرام

(٢) فى المطمح : تجرد « وهوأظهر » من جرد السيف من غمده فتجرد اذا استله ، وتجرد لأمره اذا جد فيه ، فهو كقول الطغرائى :

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

وماأعدل قول بعض الأدباء :

عندى انقباض وحشمة فاذا لاقيت أهل السماح والكرم

أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ماقلت غير محتشم

(٣) المرقب والمرقبة : الموضع المرتفع المشرف يعلوه المرء ليرقب منه مايريد مراقبته ومراعاته ، وما أوفيت عليه من علم أو رابية لتنظر من بعد

(٤) يقال : احتقب فلان الاثم اذا جمعه واحتمله (٥) و ناهيك الخ : أى حسبك وكافيك . وهو تعجب (٦) فى المطمح : اشتهر .

وَمِنْ جَوْرٍ قَبَضَ[1] ، وَمِنْ حَقٍّ رَفَعَ ، وَمِنْ بَاطِلٍ خَفَضَ ، وَكَانَ مَهِيباً صَلِيباً صَارِمًا ، غَيْرَ جَبَانٍ وَلَا عَاجِزٍ وَلَا مُرَاقِبٍ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ ٱللهِ فِي ٱسْتِخْرَاجِ حَقٍّ وَرَفْعِ ظُلْمٍ ، وَٱسْتَمَرَّ فِي ٱلْقَضَاءِ إِلَى أَنْ مَاتَ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللهِ ، ثُمَّ وَلِيَ ٱبْنُهُ ٱلْحَكَمُ فَأَقَرَّهُ ، وَفِي خِلَافَتِهِ ٱسْتَعْفَى مِرَارًا فَمَا أُعْفِيَ[2] ، وَتُوُفِّيَ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمْ يُحْفَظْ عَنْهُ مُدَّةَ وِلَايَتِهِ قَضِيَّةُ جَوْرٍ ، وَلَا عُدَّتْ عَلَيْهِ فِي حُكُومَتِهِ زَلَّةٌ ، وَكَانَ غَزِيرَ ٱلْعِلْمِ ، كَثِيرَ ٱلْأَدَبِ ، مُتَكَلِّمًا بِالْحَقِّ ، مُتَبَيِّنًا بِالصِّدْقِ ، لَهُ كُتُبٌ مُؤَلَّفَةٌ فِي ٱلسُّنَّةِ وَٱلْقُرْآنِ وَٱلْوَرَعِ وَٱلرَّدِّ عَلَى أَهْلِ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلْبِدَعِ ، وَكَانَ خَطِيبًا بَلِيغًا وَشَاعِرًا مُحْسِنًا ، وُلِدَ عِنْدَ وِلَايَةِ ٱلْمُنْذِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ[3] وَتُوُفِّيَ سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ[4] . وَمِنْ شِعْرِهِ فِي ٱلزُّهْدِ قَوْلُهُ:

كَمْ تَصَابَى[5] وَقَدْ عَلَاكَ ٱلْمَشِيبُ
وَتَعَامَى[6] عَمْـدًا وَأَنْتَ ٱللَّبِيبُ؟

(١) قبض : منع وأزال . (٢) فى المطمح : وفى خلافتــه توفى ، بعد أن استعفى مرارا فما أعفى (٣) أى فى سنة ٢٧٣ (٤) فى المطمح ٣٣٥ وما هناهو الصواب (٥) تصابى الـكبير : مال الى اللهو واللعب وعمل عمل الصبا (٦) تعامى : تتغافل حتى كأنك أعمى لا تبصر رشدك .

كَيْفَ تَلْهُو وَقَدْ أَتَاكَ نَذِيرٌ

أَنْ سَيَأْتِى الْحِمَامُ (١) مِنْكَ قَرِيبُ؟

يَاسَفِيهاً قَدْ حَانَ مِنْهُ رَحِيلٌ

بَعْدَ ذَاكَ الرَّحِيلِ يَوْمٌ عَصِيبُ (٢)

إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَةً فَارْتَقِبْهَا

لَا يُدَاوِى إِذَا أَتَتْكَ طَبِيبُ (٣)

كَمْ تَوَانَى (٤) حَتَّى تَصِيرَ رَهِيناً

ثُمَّ تَأْتِيكَ دَعْوَةٌ فَتُجِيبُ؟

بِأُمُورِ الْمَعَادِ أَنْتَ عَلِيمٌ

فَاعْمَلَنْ جَاهِداً لَهُ يَا رَبِيبُ (٥)

---

(١) الحمام بالكسر : قضاء الموت وقدره ، من قولهم حم كذا أى قدر ، وفى المطمح : أن يوم الحمام منك قريب (٢) أى شديد، وأظنه من العصب وهو جفاف الريق ويبسه فى الفم (٣) فى المطمح :لايداويك ان أتتك طبيب (٤) توانى : أى تقصر ، وكل ما احتبس به شىء فهو رهينه كما أن الانسان رهين عمله ، ومنه قوله تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين » أى يحبس بعمله — و يقال هو رهن بكذا ورهين ورهينة أى لازم له لاينفك عنه ، والخلق رهائن الموت ، والناس رهن المنية (٥) الربيب : المربوب، من ربه اذا أصلحه وساسه ورباه وأحسن القيام عليه ، أى يامن

وَتَذَكَّرْ يَوْمًا تُحَاسَبُ فِيهِ
إِنَّ مَنْ يَدَّكِرْ فَسَوْفَ يُنِيبُ (١)

لَيْسَ مِنْ سَاعَةٍ مِنَ ٱلدَّهْرِ إِلَّا
لِلْمَنَايَا بِهَا عَلَيْكَ رَقِيبُ

وَلَعَلَّنَا نَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ مُنْذِرٍ فِي غَيْرِ هَذَا ٱلْمَوْضِعِ

***

من أخبار الناصر

« رَجْعٌ لِأَخْبَارِ ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ » حُكِيَ أَنَّهُ لَمَّا أَعْذَرَ (٢) لِأَوْلَادِ ٱبْنِهِ أَبِي مَرْوَانَ عُبَيْدِ ٱللهِ ٱتَّخَذَ لِذَلِكَ صَنِيعاً عَظِيماً بِقَصْرِ ٱلزَّهْرَاءِ لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُنْذَرَ (٣) لِشُهُودِهِ ٱلْفُقَهَاءُ ٱلْمُشَاوَرُونَ وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْعُدُولِ وَوُجُوهِ

ربك مولاك وكان لك ـ جل وعلا ـ ربا مالكا ومدبرا مصلحا ، والعباد مربوبون لله تعالى أى مملوكون ، ورب المعروف والصنيعة والنعمة : نماها وأتمها وزادها وأصلحها (١) أى يتوب ويرجع الى الله تعالى مطيعا له ويقبل عليه راجيا رحمته وخاشيا عذابه (٢) أعذر للقوم : اذا عمل لهم طعام الختان وأعده ، وذلك الطعام هو العذار والأعذار والعذيرة والعذير ، وأصل الاعذار الختان ثم استعمل فى الطعام الذى يصنع فيه والوليمة التى تعمل له (٣) أى أن يعلم ويخبر ـ وأصل الانذار الابلاغ فى أمر مخوف ، وقد يستعمل فى مطلق الأبلاغ ولاسيما الأمور الرسمية « كأن من تخلف عنها يكون ملوما فهو ينذر بها »

اَلنَّاسِ ، فَتَخَلَّفَ مِنْ بَيْنِهِمُ الْمُشَاوَرُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ[1] وَافْتُقِدَ مَكَانُهُ لِارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ ، فَسَأَلَ فِي ذَلِكَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِرُ ، إِذْ أَبُو إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَاءِ الْمَالِكِيَّةِ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ الْمَدَارُ ، وَوَجَدَ[2] النَّاصِرُ بِسَبَبِ ذَلِكَ عَلَى أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَأَمَرَ ابْنَهُ وَلِيَّ الْعَهْدِ الْحَكَمَ بِالْكِتَابِ إِلَيْهِ وَالتَّفْنِيدِ[3] لَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَكَمُ رُقْعَةً نُسْخَتُهَا :

⁂

خطاب الناصر الى أبي ابراهيم

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حَفِظَكَ اللهُ وَتَوَلَّاكَ ، وَسَدَّدَكَ وَرَعَاكَ ، لَمَّا امْتَحَنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَوْلَايَ وَسَيِّدِي - أَبْقَاهُ اللهُ - الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ يَسْتَعِدُّ بِهِمْ[4] وَجَدَكَ

(١) هو الفقيه اسحق بن ابراهيم بن مسرة من أهل قرطبة ، وأصله من طليطلة وهو من موالى بعض أهلها ، كان حافظا للفقه على مذهب الامام مالك متقدما فيه ، وكان مشاورا فى الأحكام صدرا فى الفتيا وقورا مهيبا توفى بطليطلة سنة ٣٥٢ وكان قد خرج غازيا مع المستنصر بالله وسنه يومئذ خمس وسبعون سنة (٢) أى غضب (٣) أى اللوم وتخطئته فى رأيه فى التأخر

(٤) يجوز أن تكون محرفة عن « يستعديهم » أى يستعين بهم و يستنصرهم و يتقوى بهم على مخالفيه

مُتَقَدِّمًا فِي ٱلْوِلَايَةِ، مُتَأَخِّرًا عَنِ ٱلصِّلَةِ(١)، عَلَى أَنَّهُ قَدْ أَنْذَرَكَ ـ أَبْقَاهُ ٱللَّهُ ـ خُصُوصًا لِلْمُشَارَكَةِ فِي ٱلسُّرُورِ ٱلَّذِي كَانَ عِنْدَهُ ـ لَا أَعْدَمَهُ ٱللَّهُ تَوَالِيَ ٱلْمَسَرَّةِ ـ ثُمَّ أُنْذِرْتَ مِنْ قَبْلُ إِبْلَاغًا فِي ٱلتَّكْرِمَةِ، فَكَانَ مِنْكَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ ٱلتَّخَلُّفِ مَا ضَاقَتْ عَلَيْكَ فِيهِ ٱلْمَعْذِرَةُ، وَٱسْتَبْلَغَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي إِنْكَارِهِ وَمُعَاتَبَتِكَ عَلَيْهِ، فَأَعْيَتْ عَلَيْكَ(٢) عَنْكَ ٱلْحُجَّةُ، فَعَرِّفْنِي ـ أَكْرَمَكَ ٱللَّهُ ـ، مَا ٱلْعُذْرُ ٱلَّذِي أَوْجَبَ تَوَقُّفَكَ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِ، وَمُشَاهَدَةِ ٱلسُّرُورِ ٱلَّذِي سُرَّ بِهِ، وَرَغِبَ ٱلْمُشَارَكَةَ فِيهِ؟ لِنُعَرِّفَهُ ـ أَبْقَاهُ ٱللَّهُ ـ بِذَلِكَ فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ ٱلْعَزِيزَةُ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالَى».

***

رد أبي ابراهيم الى الناصر

فَأَجَابَهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ: «سَلَامٌ عَلَى ٱلْأَمِيرِ سَيِّدِي وَرَحْمَةُ ٱللَّهِ، قَرَأْتُ ـ أَبْقَى ٱللَّهُ ٱلْأَمِيرَ سَيِّدِي ـ هَذَا ٱلْكِتَابَ

---

(١) يشهدله بولائه ومحبته وينكر عليه انقطاعه وقلة اتصاله به والشرف بزيارته

(٢) لعلها: علينا، يعنى أن أمير المؤمنين اشتد فى انكاره هذا التخلف وفى لومك عليه وأردنا أن نعتذر عنك فلم نجد عذرا مقبولا ولا حجة بالغة لأنه لا شيء ينبغى أن يعوقك عن اجابة دعوته بالغا ما بلغ

وَفَهِمْتُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ تَوَقُّفِي لِنَفْسِي، إِنَّمَا كَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدِنَا - أَبْقَى اللهُ سُلْطَانَهُ - لِعِلْمِي بِمَذْهَبِهِ وَسُكُونِي إِلَى تَقْوَاهُ ، وَاقْتِفَائِهِ لِأَثَرِ سَلَفِهِ الطَّيِّبِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ - فَإِنَّهُمْ يَسْتَبْقُونَ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ بَقِيَّةً لَا يَمْتَهِنُونَهَا[1] بِمَا يَشِينُهَا ، وَلَا بِمَا يَغُضُّ[2] مِنْهَا وَيَطَّرِقُ إِلَى تَنْقِيصِهَا[3] ، يَسْتَعِدُّونَ بِهَا لِدِينِهِمْ، وَيَتَزَيَّنُونَ بِهَا عِنْدَ رَعَايَاهُمْ وَمَنْ يَفِدُ عَلَيْهِمْ مِنْ قُصَّادِهِمْ ، فَلِهَذَا تَخَلَّفْتُ ، وَلِعِلْمِي بِمَذْهَبِهِ تَوَقَّفْتُ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى» . فَلَمَّا أَقْرَأَ الْحَكَمُ أَبَاهُ النَّاصِرَ لِدِينِ اللهِ جَوَابَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ إِسْحَقَ أَعْجَبَهُ وَاسْتَحْسَنَ اعْتِذَارَهُ ، وَزَالَ مَا بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ .

***

رسالة الحكم الى الفقيه ابى ابراهيم المذكور

وَكَانَ الْفَقِيهُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْمَذْكُورُ مُعَظَّمًا عِنْدَ النَّاصِرِ وَابْنِهِ الْحَكَمِ ، وَحَقَّ لَهُمَا أَنْ يُعَظِّمَاهُ ، وَقَدْ حَكَى الْفَقِيهُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ مُفَرِّجٍ[4] قَالَ : كُنْتُ أَخْتَلِفُ

(١) امتهنه : استخدمه وابتذله واحتقره. وشانه :عابه (٢) غض منه اذا نقص من قيمته وقصر به ووضع من قدره (٣) أى يكون طريقا موصلا اليه
(٤) هو أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج مولى الامام عبد الرحمن بن الحكم كان من أهل قرطبة توفى سنة ٣٣٦

إِلَى ٱلْفَقِيهِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ـ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى ـ فِيمَنْ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ لِلتَّفَقُّهِ وَٱلرِّوَايَةِ ، فَإِنِّي لَعِنْدَهُ فِي بَعْضِ ٱلْأَيَّامِ فِي مَجْلِسِهِ بِالْمَسْجِدِ ٱلْمَنْسُوبِ لِأَبِي عُثْمَانَ[1] ٱلَّذِي كَانَ يُصَلِّي بِهِ قُرْبَ دَارِهِ بِجَوْفِيِّ قَصْرِ قُرْطُبَةَ ، وَمَجْلِسُهُ حَافِلٌ بِجَمَاعَةِ ٱلطَّلَبَةِ وَذَلِكَ بَيْنَ ٱلصَّلَاتَيْنِ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ خَصِيٌّ مِنْ أَصْحَابِ ٱلرَّسَائِلِ جَاءَ مِنْ عِنْدِ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْحَكَمِ ، فَوَقَفَ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ : يَا فَقِيهُ أَجِبْ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ أَبْقَاهُ ٱللّٰهُ ـ فَإِنَّ ٱلْأَمْرَ خَرَجَ[2] فِيكَ ، وَهَا هُوَ ذَا قَاعِدٌ يَنْتَظِرُكَ ، وَقَدْ أُمِرْتُ بِإِعْجَالِكَ ، فَاللّٰهَ ٱللّٰهَ ، فَقَالَ : سَمْعًا وَطَاعَةً لِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا عَجَلَةَ ، فَارْجِعْ إِلَيْهِ وَعَرِّفْهُ ـ وَفَّقَهُ ٱللّٰهُ ـ عَنِّي أَنَّكَ وَجَدْتَنِي فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ ٱللّٰهِ تَعَالَى ، مَعِي

---

(١) أظنه أبا عثمان عبد الله بن يحيى بن ادريس من أهل قرطبة كان متفننا فى ضروب العلم ، وكان الشعر أشهر أدواته لم يتقدمه فيه أحد فى وقته مع معرفته بالآثار وجمعه للسنن وحفظه للغريب والمثل ، وكان عالما ثقة متواضعا شريفا سريا بنفسه و بسلفه ، ولى أحكام الشرطة ثم ولى الوزارة فما زادته هذه الخطط الرفيعة الا تواضعا وفضلا ونبلا ، وكان يؤذن فى مسجده ويقيم الصلاة فيه وهو وزير ، توفى سنة ٣٥٢ ـ رحمه الله تعالى ـ . «أحمد يوسف نجاتى »

(٢) خرج فيك : صدر فى شأنك

طُلَّابُ ٱلْعِلْمِ أُسْمِعُهُمْ حَدِيثَ ٱبْنِ عَمِّهِ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَهُمْ يُقَيِّدُونَهُ عَنِّي ، وَلَيْسَ يُمْكِنُنِي تَرْكُ مَا أَنَا فِيهِ حَتَّى يَتِمَّ ٱلْمَجْلِسُ ٱلْمَعْهُودُ لَهُمْ فِي رِضَا ٱللهِ وَطَاعَتِهِ ، فَذَلِكَ أَوْكَدُ مِنْ مَسِيرِي إِلَيْهِ ٱلسَّاعَةَ ، فَإِذَا ٱنْقَضَى أَمْرُ مَنِ ٱجْتَمَعَ إِلَيَّ مِنْ هَؤُلَاءِ ٱلْمُحْتَسِبِينَ فِي ذَاتِ ٱللهِ ٱلسَّاعِينَ لِمَرْضَاتِهِ مَشَيْتُ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ ، وَمَضَى ٱلْخَصِيُّ يُهَيْنِمُ (١) مُتَضَاجِرًا مِنْ تَوَقُّفِهِ ، فَلَمْ يَكُ إِلَّا رَيْثَمَا (٢) أَدَّى جَوَابَهُ وَٱنْصَرَفَ سَرِيعًا سَاكِنَ ٱلطَّيْشِ ، فَقَالَ لَهُ يَا فَقِيهُ أَنْهَيْتُ (٣) قَوْلَكَ عَلَى نَصِّهِ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ أَبْقَاهُ ٱللهُ ـ فَأَصْغَى إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ لَكَ : جَزَاكَ ٱللهُ خَيْرًا عَنِ ٱلدِّينِ وَعَنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَجَمَاعَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَمْتَعَهُمْ (٤) بِكَ ، وَإِذَا أَنْتَ أَوْعَيْتَ (٥) فَٱمْضِ إِلَيْهِ رَاشِدًا ـ إِنْ شَاءَ ٱللهُ

(١) أى يتكلم بصوت خفى لا يفهم ، وهو شبه قراءة غير بينة (٢) قدر ما (٣) أنهيت : أوصلت وأبلغت (٤) أمتعه الله بكذا : أبقاه ليتمتع به طويلا ، وينتفع به كثيرا (٥) وعى الحديث : حفظه وقبله وفهمه ، كأوعاه

تَعَالَى ، وَقَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَبْقَى مَعَكَ حَتَّى يَنْقَضِيَ شُغْلُكَ وَتَمْضِيَ مَعِي ، فَقَالَ لَهُ : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وَلَكِنِّي أَضْعُفُ عَنِ الْمَشْيِ إِلَى بَابِ السُّدَّةِ(١) ، وَيَصْعُبُ عَلَيَّ رُكُوبُ دَابَّةٍ لِشَيْخُوخَتِي وَضَعْفِ أَعْضَائِي ، وَبَابُ الصِّنَاعَةِ الَّذِي يَقْرُبُ إِلَيَّ مِنْ أَبْوَابِ الْقَصْرِ الْمُكَرَّمِ أَحْوَطُ لِي وَأَقْرَبُ وَأَرْفَقُ بِي ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَنْ يَأْمُرَ بِفَتْحِهِ لِأَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْهُ هَوَّنَ عَلَيَّ الْمَشْيَ وَوَدَعَ(٢) جِسْمِي ، وَأُحِبُّ أَنْ تَعُودَ وَتُنْهِيَ إِلَيْهِ ذَلِكَ عَنِّي حَتَّى تَعْرِفَ رَأْيَهُ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ تَعُودُ إِلَيَّ ، فَإِنِّي أَرَاكَ فَتًى شَدِيدًا(٣) ، فَكُنْ عَلَى الْخَيْرِ مُعِينًا ، وَمَضَى عَنْهُ الْفَتَى ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ حِينٍ وَقَالَ : يَا فَقِيهُ قَدْ أَجَابَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا سَأَلْتَ ، وَأَمَرَ بِفَتْحِ بَابِ الصِّنَاعَةِ وَانْتِظَارِكَ مِنْ قِبَلِهِ ، وَمِنْهُ خَرَجْتُ إِلَيْكَ ، وَأُمِرْتُ بِمُلَازَمَتِكَ مُذَكِّرًا بِالنُّهُوضِ عِنْدَ فَرَاغِكَ . وَقَالَ: افْعَلْ رَاشِدًا، وَجَلَسَ الْخَصِيُّ جَانِبًا حَتَّى

---

(١) السدة : باب الدار ، والظلة فوقه . تقول رأيته قاعدا فى سدة داره. وفى الحديث :«والشعث الرؤوس لاتفتح لهم السدد » . (٢) ودع الشيء « كـكرم و وضع » ودعا، ودعة ، ووداعة : سكن واستقر وصار الى الدعة والراحة فهو وديع (٣) يجوز أن تـكون (سديدا) من السداد

أَكْمَلَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ مَجْلِسَهُ بِأَكْمَلِ وَأَفْسَحِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُ غَيْرَ مُنْزَعِجٍ وَلَا قَلِقٍ ، وَلَمَّا ٱنْفَضَضْنَا عَنْهُ قَامَ إِلَى دَارِهِ فَأَصْلَحَ مِنْ شَأْنِهِ ، ثُمَّ مَضَى إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْحَكَمِ فَوَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ٱلْبَابِ ، وَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْ لِقَائِهِ ، ثُمَّ صَرَفَهُ عَلَى ذَلِكَ ٱلْبَابِ ، فَأُعِيدَ إِغْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِ خُرُوجِهِ . قَالَ مُفَرِّجٌ : وَلَقَدْ تَعَمَّدْنَا فِي تِلْكَ ٱلْعَشِيَّةِ إِثْرَ قِيَامِنَا عَنِ ٱلشَّيْخِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُرُورَ بِهَذَا ٱلْبَابِ ٱلْمَعْهُودِ إِغْلَاقُهُ بِدَيْرِ ٱلْقَصْرِ ٱلَّذِي تَجَشَّمَ[1] ٱلْخَلِيفَةُ لَهُ فَوَجَدْنَاهُ مَفْتُوحًا كَمَا وَصَفَ ٱلْخَصِيُّ ، وَقَدْ حَفَّهُ ٱلْخَدَمُ وَٱلْأَعْوَانُ مُنْزَعِجِينَ مَا بَيْنَ كَنَّاسٍ وَفَرَّاشٍ مُتَأَهِّبِينَ لِانْتِظَارِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، فَاشْتَدَّ عَجَبُنَا لِذَلِكَ ، وَطَالَ تَحَدُّثُنَا عَنْهُ . ٱنْتَهَى . فَهَكَذَا تَكُونُ ٱلْعُلَمَاءُ مَعَ ٱلْمُلُوكِ ، وَٱلْمُلُوكُ مَعَ ٱلْعُلَمَاءِ ، - قَدَّسَ ٱللهُ تِلْكَ ٱلْأَرْوَاحَ - .

***

وفاة الناصر

ثُمَّ تُوُفِّيَ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللهِ ثَانِيَ أَوْ ثَالِثَ شَهْرِ رَمَضَانَ

(١) تجشم الأمر : تكلفه على مشقة وحمل نفسه عليه

مِنْ عَامِ خَمْسِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ، أَعْظَمَ مَا كَانَ سُلْطَانُهُ ، وَأَعَزَّ مَا كَانَ الْإِسْلَامُ بِمُلْكِهِ .

***

وفرة الضرائب والأموال فى عهد الناصر

« قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ » خَلَّفَ النَّاصِرُ فِي بُيُوتِ الْأَمْوَالِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ أَلْفٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . انْتَهَى . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهُ كَانَ يُقَسِّمُ الْجِبَايَةَ أَثْلَاثًا ثُلُثٌ لِلْجُنْدِ وَثُلُثٌ لِلْبِنَاءِ ، وَثُلُثٌ مُدَّخَرٌ ، وَكَانَتْ جِبَايَةُ الْأَنْدَلُسِ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْكُوَرِ وَالْقُرَى خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفٍ وَأَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَمِنَ السُّوقِ وَالْمُسْتَخْلَصِ سَبْعَمِائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَسِتِّينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَأَمَّا أَخْمَاسُ الْغَنَائِمِ الْعَظِيمَةِ فَلَا يُحْصِيهَا دِيوَانٌ .

***

أيام السرور فى عهد الناصر

وَحُكِيَ أَنَّهُ وُجِدَ بِخَطِّ النَّاصِرِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ : أَيَّامُ السُّرُورِ

(١) المستخلص : المستحصل .

ٱلَّتِي صفَتْ لَهُ دُونَ تَكْدِيرٍ، يَوْمُ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا مِنْ سَنَةِ كَذَا، وَيَوْمُ كَذَا مِنْ كَذَا، وَعُدَّتْ تِلْكَ ٱلْأَيَّامُ فَكَانَتْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا. فَاعْجَبْ أَيُّهَا ٱلْعَاقِلُ لِهٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَعَدَمِ صَفَائِهَا، وَبُخْلِهَا بِكَمَالِ ٱلْأَحْوَالِ لِأَوْلِيَائِهَا، هٰذَا ٱلْخَلِيفَةُ ٱلنَّاصِرُ حِلْفُ ٱلسُّعُودِ، ٱلْمَضْرُوبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلِارْتِقَاءِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلصُّعُودِ، مَلَكَهَا خَمْسِينَ سَنَةً وَسِتَّةَ أَوْ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَمْ تَصْفُ لَهُ إِلَّا أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا. فَسُبْحَانَ ذِي ٱلْعِزَّةِ ٱلْقَائِمَةِ، وَٱلْمَمْلَكَةِ ٱلدَّائِمَةِ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ.

وَمِمَّا يُنْسَبُ لِلنَّاصِرِ مِنَ ٱلشِّعْرِ - وَقِيلَ لِابْنِهِ ٱلْحَكَمِ - قَوْلُهُ:

مَا كُلُّ شَيْءٍ فَقَدْتُ إِلَّا … عَوَّضَنِي ٱللّٰهُ مِنْهُ شَيَّا
إِنِّي إِذَا مَا مَنَعْتُ خَيْرِي … تَبَاعَدَ ٱلْخَيْرُ مِنْ يَدَيَّا
مَنْ كَانَ لِي نِعْمَةٌ عَلَيْهِ … فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ عَلَيَّا

وَمِمَّا زَيَّنَ ٱللّٰهُ بِهِ دَوْلَةَ ٱلنَّاصِرِ وُزَرَاؤُهُ ٱلَّذِينَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ ٱبْنُ شُهَيْدٍ، قَالَ فِي ٱلْمَطْمَحِ:

***

أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَرَ بْنِ شُهَيْدٍ *مَفْخَرُ الْإِمَامَةِ ، الوزير ابن شهيد

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب المجلد الأول من الأصل فى ظهر « ص ٤ » : بترجمة مسهبة نقتطف منها ما يأتى :

أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك بن مروان بن ذى الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى ابن شهيد

هو أعظم هـذا البيت شهرة فى البلاغة ، وقال ابن بسام فى وصفه : شيخ الحضرة وفتاها ، ونادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، وأطنب فى الثناء على نظمه ونثره وأدبه . وقال عنه ابن حيان : كان يبلغ المعنى ولم يطل سفر الكلام ، ولم يوجد له بعد موته كتب يستعين بها على ماجرت به عادة البلغاء والأدباء . وله من قصيدة يمدح بها ابن الناصر :

ورعيت من وجه السماء خميلة خضراء لاح البدر من غدرانها
وكأن نثر النجم ضأن عنـدها وكأنمـا الجوزاء راعى ضانهـا

وله رسالة يخاطب بها أبا بكر بن حزم سماها بالتوابع والزوابع . ومن شعره الذى ضمنه تلك الرسالة :

ومرقبة لايدرك الطرف رأسها تزل بهـا ريح الصبا فتحدر
تـكلفتها والليل قد ماج بحره وقد جعلت أمواجه تتـكسر

وقوله :

أبى دمعنا يجرى مخافة شامت فنظمه فوق المحاجر ناظم
وراق الهوى منا عيونا كريمة تتيمن حتى ماتروق المباسم

وقاسى فى مرضه شدة ، وتوفى يوم الجمعة آخر جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة ولم يشهد على قبر أحد ماشهد عـلى قبره من البـكاء والعويل ، وأنشد عليه من المراثى جملة موفورة .

وَزَهْرُ تِلْكَ الْكِمَامَةِ[1] ، وَحَاجِبُ[2] النَّاصِرِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ، وَحَامِلُ الْوِزَارَتَيْنِ عَلَى سُمُوِّهِمَا[3] فِي ذٰلِكَ الزَّمَانِ ، اسْتَقَلَّ[4] بِالْوِزَارَةِ عَلَى ثِقَلِهَا ، وَتَصَرَّفَ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ عَلَى حَدِّ نَظَرِهَا وَالْتِفَاتِ مُقَلِهَا[5] ، وَظَهَرَ عَلَى أُولٰئِكَ الْوُزَرَاءِ ، وَاشْتَهَرَ مَعَ كَثْرَةِ النُّظَرَاءِ ، وَكَانَتْ إِمَارَةُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ أَسْعَدَ إِمَارَةٍ ، بَعُدَ عَنْهَا كُلُّ نَفْسٍ بِالسُّوءِ أَمَّارَةٍ ، فَلَمْ يَطْرُقْهَا صَرْفٌ[6] ، وَلَمْ يَرْمُقْهَا مَحْذُورٌ بِطَرْفٍ ، فَفَرَعَ[7] النَّاسُ فِيهَا هِضَابَ الْأَمَانِي وَرُبَاهَا[8] ، وَرَتَعَتْ ظِبَاؤُهَا فِي ظِلَالِ ظُبَاهَا[9] وَهُوَ

(١) هي: وعاء النور وغطاؤه ، يشبه المملكة بنور ذات كمامة وجعل ابن شهيد زهرتها وأطيب شيء فيها (٢) فى الأصل صاحب وما هنا أولى (٣) فى الأصل سموها محرفة (٤) أى نهض وقام بأعبائها قويا قادرا (٥) يريد أنه تصرف فى كل أمورها الى أقصى ماتشمله وأبعد ما تتناوله (٦) صرف الدهر : حدثانه ونوائبه لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها (٧) فرع الجبل ونحوه صعد وعلا ، وفى الأصل قرع محرفة (٨) الهضبة : الجبل المنبسط على وجه الأرض أو كل جبل خلق من صخرة واحدة ، أو هو الطويل من الجبال الممتنع المنفرد . والربوة ما ارتفع من الأرض « كأنها ربت بنفسها فى مكان » . يريد أن الناس تمكنوا من نيل أمانيهم العظيمة وأدركوا كل آمالهم البعيدة (٩) الظبا جمع ظبة وهى حد السيف أو السنان أو نحوه من الأسلحة كالنصل والخنجر .والغرض أن الأمن

أَسَدٌ عَلَى بَرَائِنِهِ(١) رَابِضٌ ، وَبَطَلٌ أَبَدًا عَلَى قَائِمِ سَيْفِهِ قَابِضٌ(٢) ، يَرُوعُ الرُّومَ طَيْفُهُ(٣) وَيَجُوسُ خِلَالَ تِلْكَ الدِّيَارِ خَيْفُهُ(٤) ، وَيَرْوَى مِنْ نَجِيعِهِمْ(٥) كُلَّ آوِنَةٍ سَيْفُهُ ، وَابْنُ شُهَيْدٍ يَنْتِجُ(٦) الْآرَاءَ وَيُلْقِحُهَا(٧) ، وَيَنْقُدُ تِلْكَ الْأَنْحَاءَ

فيها قد استتب والعدل قد انتشر وصينت الأعراض وظل ضعيفها يتمتع بكل حقوقه فى ظل الأمن وسياج العدل وحراسة القوة (١) البرثن مخلب الأسد وهو للسبع كالاصبع للانسان ، وربض الأسد والظبى وغيره من الدواب: مثل برك فى الابل وجثم فى الطير ، ومنه قوله ﷺ للضحاك ابن سفيان بن عوف العامرى وقد بعثه الى قومه بنى عامر بن صعصعة : «اذا أتيتهم فاربض فى دارهم ظبيا » ، أى أقم فيهم آمنا كالظبى الآمن الوادع ، أولا تأمنهم بل كن يقظا متنبها مستوفزا فانك بين أظهر قوم من الكفار فاذا رابك منهم ريب نفرت عنهم شاردا كما ينفر الظبى (٢) من قول الفرزدق : * وقائم سيفى من يدى بمكان * وقائم السيف مقبضه (٣) الطيف الخيال الطائف فى النوم ، والطيف: الغضب (ففيه تورية) (٤) كذا بالأصل والمطمح وأراها محرفة عن : ضيفه ، أو صيفه ، جعل جيشه الذى يغزو الروم ضيفا أو أسند الغزو الى الصيف لأنه زمانه ، وهو مجاز حسن مألوف جميل فى هذا المقام بديع (٥) النجيع : الدم المصبوب أو الأسود منه ، أو دم الجوف خاصة ، يقال : طعنة تمج النجيع ، وفى الأصل بدل «من نجيعهم» « بل يحسم » وهو تحريف غريب (٦) نتج الناقة ونحوها اذا ولى نتاجها وولادتها (٧) لقحت الناقة ونحوها حملت ، وألقحها الفحل ولقحها ، شبه استنباط الآراء السديدة بعد التفكير بنتاج

وَيُنَقِّحُهَا ، وَٱلدَّوْلَةُ مُشْتَمِلَةٌ[(١)] بِغَنَائِهِ ، مُتَجَمِّلَةٌ بِسَنَائِهِ[(٢)] ، وَكَرَمُهُ مُنْتَشِرٌ عَلَى ٱلْآمَالِ ، وَيَكْثُرُ[(٣)] ٱلْأَوْلِيَاءُ بِذَلِكَ ٱلْإِجْمَالِ ، وَكَانَ لَهُ أَدَبٌ تَزْخَرُ لُجَجُهُ ، وَتَبْهَرُ حُجَجُهُ ، وَشِعْرُهُ رَقِيقٌ لَا يُنْقَدُ ، وَيَكَادُ مِنَ ٱللَّطَافَةِ يُعْقَدُ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

تَرَى ٱلْبَدْرَ مِنْهَا طَالِعاً فَكَأَنَّمَا
يَجُولُ وِشَاحَاهَا عَلَى لُؤْلُؤٍ رَطْبِ

الحامل ، وجعل تلك الآراء التى هى وليدة الفكر وبنات القرائح بمنزلة ما تضعه الحامل، ومن المجاز : ألقحت الرياح السحاب والشجر، وألقح بينهم شرا مثلا اذا أسداه وسببه (١) اشتمل بالثوب : أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده وهو التلفع ، وربما اضطجع فيه على هذه الحالة، يريد أن الدولة كانت فى حماه مستريحة هادئة وقارة مطمئنة، وقوله بغنائه (بالغين) أى كفايته وحسن نيابته (٢) كذا بالمطمح وهو أولى من (ثنائه) كما فى الأصل، والسناء : الرفعة والشرف وعلو القدر ، والسناء (بكسر السين) مصدر ساناه اذا راضاه وداناه وأحسن معاشرته (٣) كذا بالمطمح ، وفى الأصل : ويكسو ، وما فى المطمح أولى ولذا أثرناه . والغرض أن أولياء المرء وأنصاره يكثرون بالكرم والبذل :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

وأجمل الصنيعة : حسنها وكثرها

بَعِيدَةُ مَهْوَى(١) الْقُرْطِ مُخْطَفَةُ(٢) الْحَشَى
وَمُفْعَمَةُ الْخَلْخَالِ مُفْعَمَةُ الْقُلْبِ(٣)

مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَرْحَلْنَ فَوْقَ رَوَاحِلٍ
وَلَا سِرْنَ يَوْمًا فِي رِكَابٍ وَلَا رَكْبِ(٤)

وَلَا أَبْرَزَتْهُنَّ الْمُدَامُ لِنَشْوَةٍ(٥)
وَشَدْوٍ(٦) كَمَا تَشْدُو الْقِيَانُ عَلَى الشَّرْبِ(٧)

***

وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَزِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جَهْوَرٍ(٨) مُتَوَلٍّ

عبد الملك بن جهور

(١) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول العنق وحسن الجيد. والقرط: الشنف يعلق في شحمه الأذن ، قال :

أكات دما ان لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

(٢) أى ضامرة منطوية (٣) القلب : السوار « يصفها بربالة الساق والمعصم » وهو من قول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

وكم ليلة قد بتها غــير آثم بساجية الحجلين ريانة القلب

(٤) يريد أنهن حضريات ذوات رفاهية ودعة ورغـد عيش، ولسن من الباديات اللواتى يرتحلن مع أهلهن فوق الأبل للنجعة (٥) النشوة: السكر أو أوله (٦) الشدو : الغناء . والقيان : المغنيات يريد أنهن مع ترفهن لسن من الاماء ولا ممن يبتذلن فى الغناء والمنادمة بل هن عفيفات مصونات وحضريات محصنات (٧) الشرب : أى الشاربين : جمع شارب هذا والأبيات نسبها صاحب بغية الملتمس للشاعر الأديب سعدون بن عمر « كان فى زمن عبد الرحمن الناصر » وهى من قصيدة يمدح بها سعيد بن المنذر الأموى ، وقبلها :

منعمة يصبو اليها أخو النهى ومن حسن أروى ما يجن وما يصبي

وهذا هو الذى أراه وأميل اليه . « أحمد يوسف نجاتى ».(٨) هو الوزير الجليل أبو مروان عبد الملك بن جهور كان اديبا شاعرا «وتقدمت ترجمته»

الْأَمْرِ مَعَهُ، وَمُشَارَكِهِ فِي التَّدْبِيرِ إِذَا حَضَرَ مُجْتَمَعَهُ، مُنَافَسَةً، لَمْ تَنْفَصِلْ لَهُمَا بِهَا مُدَاخَلَةٌ وَلَا مُلَابَسَةٌ، وَكِلَاهُمَا يَتَرَبَّصُ بِصَاحِبِهِ[١] دَائِرَةَ السَّوْءِ، وَيَغَصُّ مِنْهُ غُصَصَ الْأُفُقِ بِالنَّوْءِ[٢]، فَاجْتَازَ يَوْمًا إِلَى رَبَضِهِ، وَمَالَ إِلَى زِيَارَتِهِ وَلَمْ تَكُنْ مِنْ غَرَضِهِ، فَلَمَّا اسْتَأْمَرَ[٣] عَلَيْهِ، تَأَخَّرَ خُرُوجُ الْإِذْنِ إِلَيْهِ، فَثَنَى عِنَانَهُ حَنَقًا[٤] عَلَى حُجَّابِهِ، وَضَجَرًا مِنْ حِجَابِهِ[٥]، وَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَرِّضًا ـ وَكَانَ يُلَقَّبُ بِالْحِمَارِ ـ :

أَتَيْنَاكَ لَا عَنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا ... إِلَيْكَ وَلَا قَلْبٍ إِلَيْكَ مَشُوقِ

وَلَكِنَّنَا زُرْنَا بِفَضْلِ حُلُومِنَا ... فَكَيْفَ تُلَاقِي بِرَّنَا بِعُقُوقِ[٦] ؟!

فَرَاجَعَهُ ابْنُ جَهْوَرٍ يَغُضُّ[٧] مِنْهُ، بِمَا كَانَ يَشِيعُ عَنْهُ،

---

(١) يتربص به الدائرة: ينتظر وقع المكروه له ونزول البلاء به (٢) النوء: المطر، وغص إذا شرق: يريد أن كليهما يجد الآخر كأنه غصة في صدره وشجا في حلقه، ويمتلىء منه غما وغيظا. وفي الأصل «يغص فيه» ولعلها محرفة عن «منه» (٣) الائتمار والاستئمار المشاورة والتآمر (٤) حنقا: غيظا، وثنى عنانه: أي انصرف عائدا (٥) في الأصل أحجابه، وفي المطمح حجابه ولا بأس بها، وخير منهما أن تكون محرفة عن «أصحابه» أي الذين كان معهم يأتمرون به، وهم لا يخفون على أبي عامر (٦) العقوق: الخلاف والعصيان والقطيعة، وعدم البر والصلة (٧) يغض منه: ينقص ويضع من قدره.

بِأَنَّ جَدَّهُ أَبَا هِشَامٍ ، كَانَ بَيْطَارًا بِالشَّامِ ، بِقَوْلِهِ :

حَجَبْنَاكَ لَمَّا زُرْتَنَا غَيْرَ تَائِقٍ[١]
بِقَلْبِ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ[٢]

وَمَا كَانَ بَيْطَارُ الشَّآمِ بِمَوْضِعٍ
يُبَاشِرُ فِيهِ بِرَّنَا بِخَلِيقِ

وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ يَتَغَزَّلُ :

حَلَفْتُ بِمَنْ رَمَى فَأَصَابَ قَلْبِي
وَقَلَّبَهُ عَلَى جَمْرِ الصُّدُودِ

لَقَدْ أَوْدَى تَذَكُّرُهُ بِجِسْمِي[٣]
وَلَسْتُ أَشُكُّ أَنَّ النَّفْسَ تُودِي

---

(١) تاق اليه اذا اشتاق ونزعت نفسه اليه (٢) من قول أبي نواس :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

ومثله لبعض الأدباء :

وإذا سمعت من الرجال حديثهم ... ان كان يخبث قولهم أو ينفس
أدركت ما تحوى الصدور فربما ... نطق اللسان بما تكن الأنفس
وجه الفتى كصحيفة ولطالما ... قرأ الضمير بها اللبيب الأكيس
ولرب ذى ضغن تبسم ثغره ... ملقا وفى ثوبيه ذئب أطلس
كالحية الرقطاء فى أنيابها ... سم زعاف لان منها الملمس

(٣) فى الأصل « بقلبى » وفى المطمح « بمثلى » وكلاهما تحريف — وفى بغية الملتمس « بجسمى » وهو المناسب للمعنى والسياق « أحمد يوسف نجاتى »

فَقِيدٌ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِقَلْبِي

فَوَاعَجَبًا لِمَوْجُودٍ فَقِيدِ !

وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْكَلَامُ عَلَى هَدِيَّةِ ٱبْنِ شُهَيْدٍ وَبَعْضِ أَخْبَارِهِ ـ رَحْمَةُ ٱللهِ عَلَيْهِ ـ

***

الحكم المستنصر بالله ابن الناصر

وَلَمَّا تُوُفِّيَ ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللهِ تَوَلَّى ٱلْخِلَافَةَ بَعْدَهُ وَلِيُّ عَهْدِهِ ٱلْحَكَمُ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِٱللهِ* فَجَرَى عَلَى رَسْمِهِ، وَلَمْ يَفْقِدْ

---

* ترجم له فى كتاب تاريخ العرب والاسلام لأبى العيون « ج ٢ ص ١٢٦ » بما يأتى

الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله، تولى الحكم بعد وفاة أبيه من سنة خمسين وثلثمائة الى سنة ست وستين وثلثمائة ، فسار على نهج سالفه وأعمل فكره فيما فيه سعادة الرعية ، وكثرة المنافع العامة ، ورغب عن الزخرفة والترف ، وفى أول عهده طمع فيه بعض الملوك المجاورين له فأراهم عين القوة ، فأذعنوا له ، وأهدوا اليه هدايا جمعت أنفس الآثار ، فحمل رسلهم أحسن محمل وأجزل عطاءهم وكان يحب العلم ويكرم العلماء ويعضد المؤلفين ، فلقد أهدى لصاحب كتاب الأغانى ألف دينار من الذهب العين ، وعنى بجمع الكتب عناية كبرى حتى كان عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين فهرسا توفى ـ رحمه الله تعالى ـ بقرطبة سنة ست وستين وثلثمائة

مِنْ تَرْتِيبِهِ إِلَّا شَخْصُهُ ، وَوَلِيَ حِجَابَتَهُ جَعْفَرُ الْمُصْحَفِيُّ[١]،
وَأَهْدَى لَهُ يَوْمَ وِلَايَتِهِ هَدِيَّةً كَانَ فِيهَا مِنَ الْأَصْنَافِ
مَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَيَّانَ فِي الْمُقْتَبِسِ : وَهِيَ مِائَةُ مَمْلُوكٍ مِنَ
الْإِفْرَنْجِ نَاشِبَةٌ[٢] عَلَى خُيُولٍ صَافِنَةٍ[٣] كَامِلُو الشِّكَّةِ
وَالْأَسْلِحَةِ مِنَ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَالدَّرَقِ[٤] وَالتِّرَاسِ
وَالْقَلَانِسِ الْهِنْدِيَّةِ ، وَثَلْثُمِائَةٍ وَنَيِّفٌ وَعِشْرُونَ دِرْعًا مُخْتَلِفَةُ
الْأَجْنَاسِ . وَثَلْثُمِائَةِ خُوذَةٍ[٥] كَذَلِكَ ، وَمِائَةُ بَيْضَةٍ
هِنْدِيَّةٍ ، وَخَمْسُونَ[٦] خَشَبِيَّةً مِنْ بَيْضَاتِ الْفَرَنْجَةِ مِنْ غَيْرِ

(١) فى الأصل جعفر « الصقلبى » وهو تحريف فاحش — وهو أبو الحسن جعفر بن عثمان المعروف بابن المصحفى كان من أهل العلم والأدب البارع وله شعر بديع يدل على رقة طبعه وسعة أدبه ، وسيأتى حديث عنه فى النفح
(٢) ناشبة: رامية بالنشاب، ووزن فاعل هنا للنسب نحو تامر ولابن، والنشاب السهام (٣) خيول صافنة : كل منها قائم على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة دون قيد بيد أو رجل وهو أمارة النشاط والفراهة :

ألف الصفون فما يزال كأنه   مما يقوم على الثلاث كسيرا

(٤) الدرقة : الحجفة تتخذ من جلود ليس فيها خشب ولا عقب ، والحجفة ترس من جلد بلا خشب ولا عقب (٥) الخوذة : المغفر مايجعله المحارب على رأسه ليقيه « وهو لفظ معرب » وكذا البيضة (٦) كذا بالأصل وفى ابن خلدون « وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الفرنجة غير الحبش التى يسمونها الطاشانية » وما فى الأصل هنا أظهر

اَلْخَشَبِ يُسَمُّونَهَا اَلطَّاشَانِيَّةَ (١) ، وَثَلَثُمِائَةِ حَرْبَةٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ ، وَمِائَةُ تُرْسٍ سُلطَانِيَّةٌ ، وَعَشْرَةُ جَوَاشِنَ (٢) فِضَّةٍ مُذَهَّبَةٍ ، وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ قَرْنًا مُذَهَّبَةً مِنْ قُرُونِ اَلْجَامُوسِ . انْتَهَى .

***

فتوحات الحكم المستنصر بالله

قَالَ اَبْنُ خَلْدُونَ : وَلِأَوَّلِ وَفَاةِ اَلنَّاصِرِ طَمِعَ اَلْجَلَالِقَةُ فِي اَلثُّغُورِ ، فَغَزَا اَلْحَكَمُ اَلْمُسْتَنْصِرُ بِنَفْسِهِ وَاُقْتَحَمَ بَلَدَ «فِرْلَنْدِبْنِ غَنْدَشَاب» (٣) فَنَازَلَ شَنْتَ اُشْتَبِينَ (٤) وَفَتَحَهَا عَنْوَةً وَاُسْتَبَاحَهَا وَقَفَلَ ، فَبَادَرُوا إِلَى عَقْدِ اَلسِّلْمِ مَعَهُ ، وَاُنْقَبَضُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ . ثُمَّ أَغْزَى غَالِبًا مَوْلَاهُ بِلَادَ جِلِّيقِيَّةَ ، وَسَارَ إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ (٥) لِدُخُولِ دَارِ اَلْحَرْبِ ، فَجَمَعَ لَهُ اَلْجَلَالِقَةُ

(١) فى الأصل « الطشطانة » (٢) الجوشن : الدرع أو زرد يلبسه الصدر والحيزوم (٣) كذا بالأصل وغرضه « فرننـد » أمـير قشتالة (٤) شنت استبانى Saint Sebastien أو San Steban يسمى بهذا الاسم عدة مواضع بأسبانيا منها واحـد بشمالها الغربى وواحد باقليم شلمنقة بأسبانيا الغربية ، ومنها موضع باقليم وشقة فى الشمال الشرقى ومنها اثنان بقشتالة القديمة ،وأشهرها هذا الثغر الواقع على بحر برديل « خليج غسقونيا» الى الشمال الشرقى من برغش « من بلاد قشتالة » وقد وصلت جيوش الحكم الى هذه المدينة كما وصلت زمن المنصور بن أبى عامر الى « شانت ياقوب » فى طرف الشمال الغربى (٥) على نهر متفرع من نهر طرطوشة وتقدم القول فيها

وَلَقِيَهُمْ فَهَزَمَهُمْ وَاسْتَبَاحَهُمْ ، وَأَوْطَأَ الْعَسَاكِرَ بَلَدَ فَرْدِنَنْدَ وَدَوَّخَهَا ، وَكَانَ شَانْجَةُ بْنُ رُذْمِيرَ مَلِكُ الْبَشْكَنْس[1] قَدِ انْتَقَضَ ، فَأَغْزَاهُ الْحَكَمُ التُّجِيبِيّ[2] صَاحِبَ سَرَقُسْطَةَ فِي الْعَسَاكِرِ ، وَجَاءَ مَلِكُ الْجَلَالِقَةِ لِنَصْرِهِ فَهَزَمَهُمْ وَامْتَنَعُوا بِقُورِيَةَ[3] وَعَاثُوا فِي نَوَاحِيهَا وَقَفَلَ . ثُمَّ أَغْزَى الْحَكَمُ أَحْمَدَ بْنَ يَعْلَى وَيَحْيَى بْنَ مُحَمَّدٍ التُّجِيبِيَّ إِلَى بِلَادِ بَرْشِلُونَةَ ، فَعَاثَتِ الْعَسَاكِرُ فِي نَوَاحِيهَا . وَأَغْزَى هُذَيْلَ بْنَ هَاشِمٍ وَمَوْلَاهُ غَالِبًا إِلَى بِلَادِ الْقَوْمَسِ ، فَعَاثَا فِيهَا وَقَفَلَا . وَعَظُمَتْ فُتُوحَاتُ الْحَكَمِ وَقُوَّادِ الثُّغُورِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِهَا فَتْحُ قُلُمْرِيَةَ[4] مِنْ بِلَادِ الْبَشْكَنْسِ عَلَى يَدِ غَالِبٍ ، فَعَمَرَهَا الْحَكَمُ وَاعْتَنَى بِهَا . ثُمَّ فَتَحَ قَطُوبِيَةَ[5] عَلَى يَدِ قَائِدِ

(١) بالشمال الشرقى (٢) يحيى بن محمد (٣) مدينة من نواحى ماردة وهى النصف بينها وبين سمورة مدينة الافرنج (٤) مدينة من بلاد البرتقال Coimbra الى الشمال من أشبونة فى نحو منتصف المسافة بين مدينة برتقال ومدينة أشبونة على نهر فى وسط البلاد يصب فى المحيط — وهى الآن دار العلم ومحط رحال المعارف فى بلاد البرتقال بها كثير من الجامعات والمتاحف وبها بستان بديع يقصده الزائرون (٥) كذا بالأصل والتحريف فى ابن خلدون أشد . وأظنها « قطلونية » الاقليم الذى به برشلونة وطركونة بالشمال الشرقى

وَشْقَةَ(١)، وَغَنِمَ فِيهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلسِّلَاحِ وَٱلْأَقْوَاتِ وَٱلْأَثَاثِ وَفِي بَسِيطِهِ مِنَ ٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَٱلرَّمَكِ(٢) وَٱلْأَطْعِمَةِ وَٱلسَّبْيِ مَا لَا يُحْصَى

« وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ » سَارَ غَالِبٌ إِلَى بَلَدِ أَلْبَةَ(٣) وَمَعَهُ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلتُّجِيبِيُّ، وَقَاسِمُ بْنُ مُطَرِّفِ بْنِ ذِي ٱلنُّونِ، فَٱبْتَنَى حِصْنَ غُرْمَاجَ وَدَوَّخَ بِلَادَهُمْ وَٱنْصَرَفَ. وَظَهَرَتْ فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ مَرَاكِبُ ٱلْمَجُوسِ فِي ٱلْبَحْرِ ٱلْكَبِيرِ، وَأَفْسَدُوا بَسَائِطَ أُشْبُونَةَ، وَنَاشَبَهُمُ ٱلنَّاسُ ٱلْقِتَالَ، فَرَجَعُوا إِلَى مَرَاكِبِهِمْ، وَأَخْرَجَ ٱلْحَكَمُ ٱلْقُوَّادَ لِٱحْتِرَاسِ ٱلسَّوَاحِلِ

(١) وشقة بلدة بالشمال الشرقي شرقي تطيلة « بأرغون »
(٢) جمع رمكة وهي الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل « وهو لفظ معرب » (٣) ألبة Alaba تقدم التعريف بها وأنها الى الشمال الشرقي بين وادي نهر ابره Èbre « أو وادي نهر طرطوشة قريبا من منابعه » وسفوح جبال البرت وعندها انتهت فتوحات العرب بالأندلس — وبتلك الجهات حصن غرماج ، وبه توفي غازيا أبو الربيع سليمان بن ابراهيم بن هلال القيسي من أهل طليطلة : كان رجلا صالحا ورعا زاهدا متمسكا بدينه لايزال لسانه رطبا بتلاوة القرآن الكريم مشاركا في التفسير والحديث فرق جميع ماله وانقطع الى الله عز وجل ولزم المرابطة بالثغور حتى توفي بحصن غرماج — رحمه الله تعالى — ويقال ان نصارى هذه الأنحاء يقصدونه ويتبركون بقبره. وبالأصل « عرماج» بالعين المهملة وهو تحريف . « أحمد يوسف نجاتي »

وَأَمَرَ قَائِدَ ٱلْبَحْرِ عَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ بْنَ رُمَاحِس[1] بِتَعْجِيلِ حَرَكَةِ ٱلْأُسْطُولِ[2]، ثُمَّ وَرَدَتِ ٱلْأَخْبَارُ بِأَنَّ ٱلْعَسَاكِرَ نَالَتْ مِنْهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنَ ٱلسَّوَاحِلِ. ثُمَّ كَانَتْ وِفَادَةُ أُرْدُونَ بْنِ أَذْفُونْشَ مَلِكِ ٱلْجَلَالِقَةِ، وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّاصِرَ لَمَّا أَعَانَ عَلَيْهِ شَانْجَةَ بْنَ رُذْمِيرَ وَهُوَ ٱبْنُ عَمِّهِ وَهُوَ ٱلْمُمَلَّكُ مِنْ قَبْلِ أُرْدُونَ، وَحَمَلَ ٱلنَّصْرَانِيَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَٱسْتَظْهَرَ[3] أُرْدُونُ بِصِهْرِهِ

(١) لعله من ذرية عبدالرحمن بن الرماحس بن الرسارس بن السكران بن وافد بن وهيب بن جابر بن عويبة بن واثلة بن الفاكه بن عمرو بن الحارث ابن كنانة. والرماحس معناه فى اللغة الشجاع الجرىء المقدام، والأسد، والرماحس بن عبد العزى بن الرماحس بن الرسارس الكنانى كان على شرطة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية. وتقدم أن المجوس هؤلاء هم النورمان (٢) اطلاق هذا الاسم على المركب الحربى المعد للقتال فى البحر وقع فى الشعر العربى بعد العصر الأول فى كلام المولدين ولم يرد فى شعر عربى قديم ومنه قول على بن محمد الأيادى يصف أسطول الامام القائم الفاطمى المتوفى سنة ٣٣٤ من قصيدة مطلعها :

اعجب بأسطول الامام محمد ... وبحسنه وزمانه المستغرب

لبست به الأمواج أحسن منظر ... يبدو لعين الناظر المستعجب

ومنها :

يذهبن فيما بينهن لطافـة ... ويجئن فعل الطائر المستغرب

كنضانض الحيات رحن لواغبا ... حتى يقفن ببرد ماء المشرب

(٣) استظهر : استعان

فرْدِلَنْدَ قَوْمَس قَشْتِيلَةَ ، تَوَقَّعَ مُظَاهَرَةَ الْحَكَمِ لِشَانْجَةَ كَمَا ظَاهَرَهُ أَبُوهُ النَّاصِرُ ، فَبَادَرَ إِلَى الْوِفَادَةِ عَلَى الْحَكَمِ مُسْتَجِيرًا بِهِ ، فَاحْتَفَلَ لِقُدُومِهِ ، وَعَبَّى الْعَسَاكِرَ[1] لِيَوْمِ وِفَادَتِهِ ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا وَصَفَهُ ابْنُ حَيَّانَ كَمَا وَصَفَ أَيَّامَ الْوِفَادَاتِ قَبْلَهُ ، وَوَصَلَ إِلَى الْحَكَمِ وَأَجْلَسَهُ وَوَعَدَهُ بِالنَّصْرِ مِنْ عَدُوِّهِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَكَتَبَ بِوُصُولِهِ[2] مُلْقِيًا بِنَفْسِهِ ، وَعَاقَدَهُ عَلَى مُوَالَاةِ الْإِسْلَامِ وَمُقَاطَعَةِ فرْدِلَنْدَ الْقَوْمَسَ ، وَأَعْطَى عَلَى ذَلِكَ صَفْقَةَ[3] يَمِينِهِ ، وَرَهَنَ وَلَدَهُ غَرْسِيَةَ ، وَدُفِعَتِ الصِّلَاتُ وَالْحُمْلَانُ[4] لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ ، وَانْصَرَفَ مَعَهُ وُجُوهُ نَصَارَى الذِّمَّةِ لِيُوَطِّدُوا[5] لَهُ الطَّاعَةَ عِنْدَ رَعِيَّتِهِ وَيَقْبِضُوا رَهْنَهُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ بَعَثَ ابْنُ عَمِّهِ شَانْجَةُ بْنُ رُدْمِيرَ بِبَيْعَتِهِ

---

(١) عبى العساكر وعبأهم : جهزهم وأعدهم (٢) فى ابن خلدون : وخلع عليه لما جاء ملقيا بنفسه الخ (٣) يقال : أصفق يده بكذا اذا اتفق عليه ، وأصفقوا على كذا اذا أطبقوا عليه واجتمعوا ــ والصفقة الاجتماع على الشيء والاتفاق عليه ــ وصفق على يده صفقا وصفقة اذا ضرب يده على يده وذلك عند وجوب البيع وتمامه والاتفاق عليه (٤) الحملان (بضم الحاء) مايحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة (٥) فى ابن خلدون : ليوطئوا ، وذلك سنة ٣٥١

وَطَاعَتِهِ مَعَ قَوَامِسِ أَهْلِ جِلِّيقِيَّةَ وَسَمُّورَةَ وَأَسَاقِفَتِهِمْ(١) يَرْغَبُ فِي قَبُولِهِ، وَيَمُتُّ(٢) بِمَا فَعَلَ أَبُوهُ النَّاصِرُ مَعَهُ، فَتَقَبَّلَ بَيْعَتَهُمْ عَلَى شُرُوطٍ شَرَطَهَا، كَانَ مِنْهَا هَدْمُ الْحُصُونِ وَالْأَبْرَاجِ الْقَرِيبَةِ مِنْ ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ بَعَثَ مَلِكَا بَرْشِلُونَةَ وَطَرَّكُونَةَ(٣) وَغَيْرُهُمَا يَسْأَلَانِ تَجْدِيدَ الصُّلْحِ وَإِقْرَارَهُمَا عَلَى مَا كَانَا عَلَيْهِ، وَبَعَثَا بِهَدِيَّةٍ وَهِيَ عِشْرُونَ صَبِيًّا مِنَ الْخِصْيَانِ الصَّقَالِبَةِ، وَعِشْرُونَ قِنْطَارًا مِنْ صُوفِ السَّمُّورِ، وَخَمْسَةُ قَنَاطِيرَ مِنَ الْقَصْدِيرِ، وَعَشَرَةُ أَذْرُعٍ صَقْلَبِيَّةٍ، وَمِائَتَا سَيْفٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ، فَتَقَبَّلَ الْهَدِيَّةَ، وَعَقَدَ(٤) عَلَى أَنْ يَهْدِمُوا

---

(١) الأساقفة: جمع أسقف وأسقف «بتشديد الفاء وتخفيفها» وهو ما كان فوق القسيس ودون المطران، وقد تطلق على المطران نفسه، وعلى الملك المتخاشع في مشيته، وهو لفظ معرب تكلموا به قديما (٢) مت اليه بكذا: توسل وتوصل بنحو قرابة أو حرمة أو دالة أو غير ذلك:

نمتّ بأرحام اليك وشيجة ولاقرب بالأرحام مالم تقرب

والماتّة الحرمة والوسيلة، وجمعها موات (٣) بلدة متصلة بأعمال طرطوشة وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر جنوبي برشلونة منها نهر علان يصب متبرقا الى نهر ابره وهو نهر طرطوشة وهي بين طرطوشة وبرشلونة وبين كل واحدة منهما ١٧ فرسخا (٤) في ابن خلدون: وعقد لهم على أن يهدما الحصون التي بقرب الثغور الخ

ٱلْحُصُونَ ٱلَّتِى تَضُرُّ بِالثُّغُورِ ، وَأَلَّا يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ أَهْلَ مِلَّتِهِمْ، وَأَنْ يُنْذِرُوا بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلنَّصَارَى فِى ٱلْإِجْلَابِ[1] عَلَى ٱلْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ وَصَلَتْ رُسُلُ غَرْسِيَةَ بْنِ شَانْجَةَ مَلِكِ ٱلْبَشْكَنْسِ فِى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْأَسَاقِفَةِ وَٱلْقَوَامِسِ يَسْأَلُونَ ٱلصُّلْحَ ـ بَعْدَ أَنْ كَانَ تَوَقَّفَ وَأَظْهَرَ ٱلْمَكْرَ ـ فَعَقَدَ[2] لَهُمُ ٱلْحَكَمُ، فَاغْتَبَطُوا وَرَجَعُوا . ثُمَّ وَفَدَتْ عَلَى ٱلْحَكَمِ أُمُّ لُذَرِيق أُبْنِ بَلَاشْكَ[3] ٱلْقَوْمَسِ بِالْقُرْبِ مِنْ جِلِّيقِيَّةَ ـ وَهُوَ ٱلْقَوْمَسُ ٱلْأَكْبَرُ ـ فَأَخْرَجَ ٱلْحَكَمُ لِتَلَقِّيهَا أَهْلَ دَوْلَتِهِ ، وَٱحْتَفَلَ لِقُدُومِهَا فِى يَوْمٍ مَشْهُودٍ مَشْهُورٍ ، فَوَصَلَتْ وَأُسْعِفَتْ ، وَعُقِدَ ٱلسِّلْمُ لِابْنِهَا كَمَا رَغِبَتْ ، وَدَفَعَ لَهَا مَالًا تُقَسِّمُهُ بَيْنَ وَفْدِهَا دُونَ مَا وُصِلَتْ بِهِ هِىَ ، وَحُمِلَتْ عَلَى بَغْلَةٍ فَارِهَةٍ بِسَرْجٍ وَلِجَامٍ مُثْقَلَيْنِ بِالذَّهَبِ وَمِلْحَفَةِ دِيبَاجٍ ، ثُمَّ عَاوَدَتْ مَجْلِسَ ٱلْحَكَمِ لِلْوَدَاعِ فَعَاوَدَهَا بِالصِّلَاتِ لِسَفَرِهَا وَٱنْطَلَقَتْ.

***

غزوة العدوة بالمغرب الأقصى

ثُمَّ أَوْطَأَ عَسَاكِرَهُ أَرْضَ ٱلْعُدْوَةِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ٱلْأَقْصَى

---

(١) أجلب عليه اذا توعده بشر أو جمع له الجموع ، وفى التنزيل : «وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» ، أى اجمع عليهم وتوعدهم بالشر (٢) فى الأصل (فقعد) محرفة (٣) فى ابن خلدون : بلاكش

وَالْأَوْسَطِ ،وَتَلَقَّى دَعْوَتَهُ مُلُوكُ زَنَاتَةَ مِنْ مَغْرَاوَةَ وَمِكْنَاسَةَ فَبَثُّوهَا فِي أَعْمَالِهِمْ وَخَطَبُوا بِهَا عَلَى مَنَابِرِهِمْ ، وَزَاحَمُوا بِهَا دَعْوَةَ الشِّيعَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ . وَوَفَدَ عَلَيْهِ مِنْ بَنِي خَزَرَ (١) وَبَنِي

(١) فى الاصل « الحرز » محرفة وفى ابن خلدون : ووفد عليه ملوكهم من آل خزر الخ . وخلاصة المعروف فى التاريخ أنه لما انتقض المغرب على العبيديين وفشت فيه دعوة الأمويين بالأندلس ثار بمدينة سجلماسة قائم من ولد الشاكر لله «محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار بن اليسع من ملوك البربر » وتلقب المنتصر بالله، ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة ٣٥٢ فقتله وقام بالأمر مكانه وتلقب المعتز بالله وأقام عـلى ذلك مدة ، وكان أمر مكناسة يومئذ قد تداعى الى الاضمحلال وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب الى أن زحف « خزرون » بن فلفول من ملوك مغراوة الى سجلماسة سنة ٣٦٦ وبرز اليه أبو محمد المعتز فهزمه « خزرون » وقتله واستولى عـلى بلده وبعث برأسه الى قرطبة مع كتابه بالفتح «وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبى عامر بقرطبة » فعقد لخزرون عـلى سجلماسة وأعمالها وجاء عهد الخليفة بذلك فأقام دعوة هشام بن الحكم فى نواحيها وضبطها وقام بأمرها الى أن توفى فكانت أول دعوة أقيمت لهم فى أمصار المغرب الأقصى ، وانقرض أمر مكناسة من المغرب أجمع ، وانتقلت الدولة الى مغراوة وبنى يفرن . وبعد وفاة خزرون ولى أمر سجلماسة ابنه «وانودين بن خزرون» الخ وفى سنة ٤٤٦ دخلت سجلماسة فى ملك المرابطين لأول أمرهم وانقرضت دولة بنى خزرون منها وتداولها من بعدهم من ملوك الموحدين ثم ملوك بنى مرين . اهـ ملخصا من صبح الأعشى وتاريخ ابن خلدون وغيرهما . « أحمد يوسف نجاتى »

أَبِي ٱلْعَافِيَةِ[1] ، فَأَجْزَلَ صِلَتَهُمْ وَأَكْرَمَ وِفَادَتَهُمْ وَأَحْسَنَ مُنْصَرَفَهُمْ . وَٱسْتَنْزَلَ بَنِي إِدْرِيسَ[2] مِنْ مُلْكِهِمْ بِالْعُدْوَةِ فِي نَاحِيَةِ ٱلرِّيفِ ، وَأَجَازَهُمُ ٱلْبَحْرَ إِلَى قُرْطُبَةَ ، ثُمَّ أَجْلَاهُمْ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ .

***

شغف الحكم بالعلوم

وَكَانَ مُحِبًّا لِلْعُلُومِ مُكْرِمًا لِأَهْلِهَا ، جَمَّاعًا لِلْكُتُبِ فِي أَنْوَاعِهَا بِمَا لَمْ يَجْمَعْهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَهُ . قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ : أَخْبَرَنِي تَلِيدٌ ٱلْخَصِيُّ - وَكَانَ عَلَى خِزَانَةِ ٱلْعُلُومِ

(١) هو موسى بن أبي العافية من مكناسة من قبائل البربر وكان أميرا على مكناسة بعد أن استنزل مصالة بن حيوس « البربري الذي كان من أكبر قواد عبيد الله المهدي » يحيي بن ادريس بفاس الى طاعة المهدي سنة ٣٠٥ وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية على مكناسة وسائر ضواحي المغرب وأمصاره وأجلى موسى الأدارسة عنه ، ثم خطب للخليفة الناصر الأموي. وبعد حوادث استفحل أمر ابن أبي العافية بالمغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط وبثوا دعوة الأموية في أعمالها ، وتوفي موسى سنة ٣١٧ وقام بالأمر بعده ابنه مدين وتوفي سنة ٣٤٥ فعقد الناصر لأخيه أي جعله على عمله حتى تغلب على فاس وأعمالها مغراوة ، ثم بنو زيري بن عطية بن عبدالله بن خزر بن محمد بن خزر بن حفصي من زناتة. «أحمد يوسف نجاتي»

(٢) الأدارسة هم بنو ادريس الأكبر بن حسن بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، كان لهم دولة بالمغرب من سنة ١٧٠ الى زمن الحكم كما هنا

وَالْكُتُبِ بِدَارِ بَنِي مَرْوَانَ ـ أَنَّ عَدَدَ الْفَهَارِسِ[١] الَّتِي فِيهَا تَسْمِيَةُ الْكُتُبِ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ فِهْرِسَةً ، وَفِي كُلِّ فِهْرِسْتٍ عِشْرُونَ وَرَقَةً لَيْسَ فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ أَسْمَاءِ الدَّوَاوِينِ لَا غَيْرُ ، وَأَقَامَ لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ سُوقًا نَافِقَةً[٢] جُلِبَتْ إِلَيْهِ بَضَائِعُهُ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ .

***

وفود أبو علي القالي

قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ خَلْدُونَ: وَلَمَّا وَفَدَ عَلَى أَبِيهِ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي صَاحِبُ كِتَابِ الْأَمَالِي مِنْ بَغْدَادَ أَكْرَمَ مَثْوَاهُ[٣] وَحَسُنَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُ، وَأَوْرَثَ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ عِلْمَهُ، وَاخْتَصَّ بِالْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ وَاسْتَفَادَ عِلْمَهُ . وَكَانَ يَبْعَثُ فِي شِرَاءِ الْكُتُبِ إِلَى الْأَقْطَارِ رِجَالًا مِنَ التُّجَّارِ ،وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمُ

(١) الفهرس (بالكسر) الكتاب الذى تجمع فيه الكتب معرب ، وقد اشتقوا منه فعلا فقالوا : فهرس كتابه فهرسة ، وقد يقال فهرسة للفهرس ، والكثير أن يقال فيه فهرست وجعل التاء أصلية ، ومعناها فى اللغة جملة العدد للكتب ، والكلمة الفارسية الأصلية هى :(فهرست) ومعناها اجمال الأشياء لتعديد أسمائها وحصرها مطلقا على الترتيب

(٢) نافقة : رائجة (٣) أكرم مثواه : أكرم وفادته ، والمثوى : المنزل. ومصدر ثوى أى أقام ، وقوله تعالى فى سورة يوسف : «أحسن مثواى» أى تولانى فى طول مقامى بالاكرام

ٱلْأَمْوَالَ لِشِرَائِهَا، حَتَّى جَلَبَ مِنْهَا إِلَى ٱلْأَنْدَلُسِ مَا لَمْ يَعْهَدُوهُ ، وَبَعَثَ فِي كِتَابِ ٱلْأَغَانِي إِلَى مُصَنِّفِهِ أَبِي ٱلْفَرَجِ ٱلْأَصْفَهَانِيِّ - وَكَانَ نَسَبُهُ فِي بَنِي أُمَيَّةَ - وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فِيهِ بِأَلْفِ دِينَارٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ ٱلْعَيْنِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِنُسْخَةٍ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَهُ إِلَى ٱلْعِرَاقِ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ مَعَ ٱلْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ ٱلْأَبْهَرِيِّ (١) ٱلْمَالِكِيِّ فِي شَرْحِهِ لِمُخْتَصَرِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْحَكَمِ (٢)، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَجَمَعَ بِدَارِهِ ٱلْحُذَّاقَ فِي صِنَاعَةِ ٱلنَّسْخِ ، وَٱلْمَهَرَةَ فِي ٱلضَّبْطِ وَٱلْإِجَادَةِ فِي ٱلتَّجْلِيدِ

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح بن عمر بن حفص ابن عمر بن مصعب بن الزبير بن سعد بن كعب ينتهى نسبه الى سعد ابن زيد مناة بن تميم ، الفقيه المالكي المشهور كان مقدم أصحابه فى وقته ومن أهل العبادة والورع والزهد دعى الى القضاء ببغداد فامتنع منه ، وكان مولده سنة ٢٨٩ وتوفى سنة ٣٧٥ وهو منسوب الى مدينة أبهر مدينة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل، والعجم يسمونها أوهر . وقال بعضهم ان أبهر مركب من آب وهو الماء ، وهر وهى الرحا كأنه ماء الرحا (٢) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع الفقيه المالكي المصرى كان أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وأفضت اليه رياسة الطائفة المالكية بعد أشهب ، وروى عن مالك الموطأ سماعا ، ولد سنة ١٥٠ وتوفى بمصر سنة ٢١٤ وقبره الى جانب قبر الامام الشافعى وتوفى ابنه عبد الرحمن سنة ٢٥٧ وقبره الى جانب قبر أبيه

فَأَوْعَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَاجْتَمَعَتْ بِالْأَنْدَلُسِ خَزَائِنُ مِنَ الْكُتُبِ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعْدِهِ ، إِلَّا مَا يُذْكَرُ عَنِ النَّاصِرِ الْعَبَّاسِيِّ ابْنِ الْمُسْتَضِيِّ (١) ، وَلَمْ

(١) هو الامام المستضيء بالله الحسن بن يوسف المستنجد بن أحمد المقتفى ابن عبد الله القائم بن القادر بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق ابن المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد ، وكان عادلا حسن السيرة رءوفا رحيما دمث الأخلاق موطأ الأكناف ، وأمه أم ولد أرمنية اسمها غضة ، بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستنجد بالله فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ وفى أيامه زالت دولة العبيديين بمصر وخطب له بمصر والشام واليمن وبرقة ودانت الملوك لطاعته ، وكان يطلب الامام عبد الرحمن بن الجوزى « المتوفى سنة ٥٩٧ » ويأمره بعقد مجلس الوعظ ويجلس حينئذ يسمع ، وتوفى رحمه الله سنة ٥٧٥ فبويع لولده الامام أحمد الناصر لدين الله وطالت مدة خلافته نحو ٤٧ سنة ، وكان مع عنايته بالعلوم وجمع الكتب بخلاف أبيه قاسيا شديدا خرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وتوفيت أمه زمرد سنة ٥٩٩ وتوفى ابنه الأمير على سنة ٦١٢ فوجد عليه وجدا شديدا ، وأكثر الشعراء من المراثى فيه ، وكان الامام الناصر أديبا يقول الشعر ويعنى به ، ولما استقر الملك الأفضل على الأيوبى بصرخد سنة ٥٩٢ كتب الى الخليفة الامام الناصر يشكو من عمه العادل أبى بكر وأخيه العزيز عثمان « وهم ملوك الشام ومصر » وأول الكتاب :

مولاى ان أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق على
فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى من الأواخر مالاقى من الأول

فكتب الامام الناصر جوابه :

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

تَزَلْ هَذِهِ ٱلْكُتُبُ بِقَصْرِ قُرْطُبَةَ إِلَى أَنْ بِيعَ أَكْثَرُهَا فِي حِصَارِ ٱلْبَرْبَرِ ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهَا وَبَيْعِهَا ٱلْحَاجِبُ وَاضِحٌ مِنْ مَوَالِي ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَنُهِبَ مَا بَقِيَ مِنْهَا عِنْدَ دُخُولِ ٱلْبَرْبَرِ قُرْطُبَةَ وَٱقْتِحَامِهِمْ إِيَّاهَا عَنْوَةً . ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ بِبَعْضِ ٱخْتِصَارٍ .

***

بيعة الحكم المستنصر بالله

« وَلْنَبْسُطِ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْحَكَمِ فَنَقُولُ » : إِنَّ ٱلْحَكَمَ ٱلْمُسْتَنْصِرَ ٱعْتَلَى سَرِيرَ ٱلْمُلْكِ ثَانِيَ يَوْمِ وَفَاةِ أَبِيهِ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ ، وَقَامَ بِأَعْبَاءِ ٱلْمُلْكِ أَتَمَّ قِيَامٍ ، وَأَنْفَذَ ٱلْكُتُبَ إِلَى ٱلْآفَاقِ بِتَمَامِ ٱلْأَمْرِ لَهُ ، وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى بَيْعَتِهِ ، وَٱسْتَقْبَلَ مِنْ يَوْمِهِ ٱلنَّظَرَ فِي تَمْهِيدِ سُلْطَانِهِ ، وَتَثْقِيفِ مَمْلَكَتِهِ ، وَضَبْطِ قُصُورِهِ ، وَتَرْتِيبِ أَجْنَادِهِ . وَأَوَّلُ مَا أَخَذَ ٱلْبَيْعَةَ عَلَى صَقَالِبَةِ

غصبوا عليا حقه اذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصر

ومن شعره يشير الى ولده الظاهر :

بليت حتى بأدنى الناس من خلدى يريد موتى وبالأرواح أفديه

وتوفى الناصر سنة ٦٢٢ فقام بالأمر بعده ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ولم تطل مدة خلافته سوى تسعة أشهر .

قَصْرِهِ اَلْفِتْيَانِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْخُلَفَاءِ الْأَكَابِرِ ، كَجَعْفَرٍ صَاحِبِ الْخَيْلِ وَالطِّرَازِ ، وَغَيْرِهِ مِنْ عُظَمَائِهِمْ ، وَتَكَفَّلُوا بِأَخْذِهَا عَلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ وَتَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ طَبَقَتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَوْصَلَ إِلَى نَفْسِهِ فِي الْمَيْلِ دُونَ هَؤُلَاءِ الْأَكَابِرِ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْوُصَفَاءِ وَالْمُقَدَّمِينَ وَالْعُرَفَاءِ فَبَايَعُوهُ ، فَلَمَّا كَمُلَتْ بَيْعَةُ أَهْلِ قَصْرِهِ تَقَدَّمَ إِلَى عَظِيمِ دَوْلَتِهِ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ(١) بِالنُّهُوضِ(٢) فِي أَخِيهِ شَقِيقِهِ أَبِي مَرْوَانَ عُبَيْدِ اللهِ الْمُتَخَلِّفِ بِأَنْ يُلْزِمَهُ الْحُضُورَ لِلْبَيْعَةِ دُونَ مَعْذِرَةٍ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى مُوسَى ابْنِ أَحْمَدَ بْنِ حُدَيْرٍ بِالنُّهُوضِ أَيْضًا عَنْ أَبِي الْأَصْبَغِ عَبْدِ الْعَزِيزِ(٣) شَقِيقِهِ الثَّانِي ، فَمَضَى إِلَيْهِمَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي قَطِيعٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَأَتَيَا بِهِمَا إِلَى قَصْرِ مَدِينَةِ

---

(١) هو الحاجب أبو الحسن الوزير جعفر بن عثمان المعروف بابن المصحفي وستأتى ترجمته (٢) بالنهوض فى أخيه : بالاسراع اليه (٣) تقدمت ترجمته هو وموسى بن أحمد بن حدير . ومن أسرة ابن حدير أبو عمر أحمد ابن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير من أهل قرطبة ولى خطة الوزارة وأحكام المظالم وكان صلبا فى أحكامه مهيبا فى الحق ، ولد سنة ٢٥٥ وتوفى سنة ٣٢٧ وابنه أبو عثمان سعيد بن أحمد ولى أحكام الشرطة فى صدر دولة المؤيد بالله ثم لزم بيته وانقبض عن الخدمة الى وفاته وكان رجلا فاضلا زاهدا ذا حظ من الفقه والحديث توفى سنة ٣٩١ هذا ومن ذرية الناصر أبو الوليد هشام ابن عبيد الله بن الناصر من أهل قرطبة كان من خير من بقى من أهل بيت

ٱلزَّهْرَاءِ ، وَنَفَذَ غَيْرُهُمَا مِنْ وُجُوهِ ٱلرِّجَالِ فِي ٱلْخَيْلِ لِإِتْيَانِ غَيْرِهِمَا مِنَ ٱلْإِخْوَةِ ـ وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً ـ فَوَافَى جَمِيعُهُمُ ٱلزَّهْرَاءَ فِي ٱللَّيْلِ ، فَنَزَلُوا فِي مَرَاتِبِهِمْ بِفُصْلَانِ(١) دَارِ ٱلْمُلْكِ، وَقَعَدُوا فِي ٱلْمَجْلِسَيْنِ ٱلشَّرْقِيِّ وَٱلْغَرْبِيِّ ، وَقَعَدَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ عَلَى سَرِيرِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْبَهْوِ ٱلْأَوْسَطِ مِنَ ٱلْأَبْهَاءِ ٱلْمُذَهَّبَةِ ٱلْقِبْلِيَّةِ ٱلَّتِي فِي ٱلسَّطْحِ ٱلْمُمَرَّدِ(٢) فَأَوَّلُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ ٱلْإِخْوَةُ فَبَايَعُوهُ وَأَنْصَتُوا لِصَحِيفَةِ ٱلْبَيْعَةِ ، وَٱلْتَزَمُوا ٱلْأَيْمَانَ ٱلْمَنْصُوصَةَ بِكُلِّ مَا ٱنْعَقَدَ فِيهَا ، ثُمَّ بَايَعَ بَعْدَهُمُ ٱلْوُزَرَاءُ وَأَوْلَادُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ ، ثُمَّ أَصْحَابُ ٱلشُّرْطَةِ ، وَطَبَقَاتُ أَهْلِ

الخلافة عفافا ومروءة وفضلا وأدبا وعناية بجمع الكتب ، وقد رغب الخليفة سليمان فى كتبه فقومت واشتراها . وتوفى سنة ٤٠٠ ، ومنهم أبو مروان عبد الملك بن يزيد بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان ابن عبدالرحمن الناصر من أهل قرطبة كان ذاعناية باللغة وآدابها وحفظها والقيام عليها وألف كتابا فى مثلثها نحا فيه منحى أبى محمد البطليوسى على حروف المعجم وسماه « بحر الدرر وروض الفكر » كتب عنه فى سنة ٥٢١ هـ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن سليمان بن الناصر عبد الرحمن بن محمد وكان حافظا للفقه على مذهب الامام مالك مقدما فيه متفننا فى العلوم والمعارف توفى بمدينة قبرة سنة ٥٤٢ « أحمد يوسف نجاتى » (١) فصلان دار الملك : جمع فصيل : حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد (٢) الممرد : الأملس والتمريد فى البناء : التمليس والتسوية ، و بناء ممرد مطول مملس

الْخِدْمَةِ ، وَقَعَدَ الإِخْوَةُ وَالْوُزَرَاءِ وَالْوُجُوهُ[1] عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، إِلَّا عِيسَى بْنَ فُطَيْسٍ[2] فَإِنَّهُ كَانَ قَائِمًا يَأْخُذُ الْبَيْعَةَ عَلَى النَّاسِ ، وَقَامَ التَّرْتِيبُ عَلَى الرَّسْمِ فِي مَجَالِسِ الاحْتِفَالِ الْمَعْرُوفَةِ، فَاصْطَفَّ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي قَعَدَ فِيهِ أَكَابِرُ الْفِتْيَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا إِلَى آخِرِ الْبَهْوِ، كُلٌّ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِهِ فِي الْمَنْزِلَةِ، عَلَيْهِمُ الظَّهَائِرُ الْبِيضُ شِعَارُ الْحُزْنِ[3] ، قَدْ تَقَلَّدُوا فَوْقَهَا

(١) الوجوه : جمع وجه : سيد القوم . (٢) هو عيسى بن فطيس ابن أصبغ بن فطيس بن سليمان ، واسم فطيس بن سليمان عثمان، وفطيس لقب له واسم فى ولده ، ومن ذريته عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ابن فطيس قاضى الجماعة بقرطبة كان من جهابذة المحدثين وفحول العلماء المبرزين المفتنين فى سائر العلوم ، جمع من الكتب فى أنواع العلوم مالم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، تولى قضاء قرطبة سنة ٣٩٤ مع خطته العليا فى الوزارة فاستقل بالعمل ونهض به على خير حال وذلك فى أيام المظفر عبد الملك بن أبى عامر قيم الدولة وتوفى صدر الفتنة البربرية سنة ٤٠٢ ودفن بتربة سلفه على باب منازلهم وقرب مسجدهم وصلى عليه ابنه أبو عبد الله محمد — وكان مولده سنة ٣٤٨ ، وكان قبل القضاء صاحب المظالم ، وابنه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس كان من أهل العفة والمعرفة والفهم سريا نبيلا سمع من أبيه وغيره وتوفى سنة ٤٠٩ (٣) كان البياض شعار الحزن فى الأندلس . واسمع هذا التعليل البديع لابن شاطر السرقسطى :

قد كنت لاأدرى لأية علة ... صار البياض لباس كل مصاب
حتى كسانى الدهر سحق ملاءة ... بيضاء من شيب لفقد شبابى
فبذا تبين لى اصابة من رأى ... لبس البياض على نوى الأحباب

ٱلسُّيُوفَ ، ثُمَّ تَلَاهُمُ ٱلْفِتْيَانُ ٱلْوُصَفَاءُ عَلَيْهِمُ ٱلدُّرُوعُ ٱلسَّابِغَةُ(١) وَٱلسُّيُوفُ ٱلْحَالِيَةُ صَفَّيْنِ مُنْتَظِمَيْنِ فِي ٱلسَّطْحِ ، وَفِي ٱلْفُصْلَانِ ٱلْمُتَّصِلَةِ بِهِ ذَوُو ٱلْأَسْنَانِ(٢) مِنَ ٱلْفِتْيَانِ ٱلصَّقَالِبَةِ ٱلْخِصْيَانِ لَابِسِينَ ٱلْبَيَاضَ بِأَيْدِيهِمُ ٱلسُّيُوفُ ، يَتَّصِلُ بِهِمْ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ طَبَقَاتِ ٱلْخِصْيَانِ ٱلصَّقَالِبَةِ ، ثُمَّ تَلَاهُمُ ٱلرُّمَاةُ مُتَنَكِّبِينَ(٣) قِسِيَّهُمْ وَجِعَابَهُمْ ، ثُمَّ وَصَلَتْ صُفُوفُ هٰؤُلَاءِ ٱلْخِصْيَانِ ٱلصَّقَالِبَةِ وَصُفُوفُ ٱلْعَبِيدِ ٱلْفُحُولِ شَاكِينَ(٤) فِي ٱلْأَسْلِحَةِ ٱلرَّائِقَةِ وَٱلْعُدَّةِ ٱلْكَامِلَةِ ، وَقَامَتِ ٱلتَّعْبِيَةُ فِي دَارِ ٱلْجُنْدِ وَٱلتَّرْتِيبُ مِنْ رَجَّالَةِ(٥) ٱلْعَبِيدِ عَلَيْهِمُ ٱلْجَوَاشِنُ وَٱلْأَقْبِيَةُ ٱلْبِيضُ ، وَعَلَى رُؤُوسِهِمُ ٱلْبَيْضَاتُ ٱلصَّقْلَبِيَّةُ ، وَبِأَيْدِيهِمُ ٱلتِّرَاسُ ٱلْمُلَوَّنَةُ وَٱلْأَسْلِحَةُ ٱلْمُزَيَّنَةُ ٱنْتَظَمُوا صَفَّيْنِ إِلَى آخِرِ ٱلْفَصْلِ(٦) ، وَعَلَى بَابِ ٱلسُّدَّةِ ٱلْأَعْظَمِ ٱلْبَوَّابُونَ وَأَعْوَانُهُمْ ، وَمِنْ خَارِجِ بَابِ ٱلسُّدَّةِ فُرْسَانُ ٱلْعَبِيدِ إِلَى بَابِ ٱلْأَقْبَاءِ(٧) وَٱتَّصَلَ

---

(١) السابغة : الطويلة الواسعة (٢) ذوو الأسنان : أصحاب الأعمار : جمع سن وهو العمر أو مقداره في الناس وغيرهم ، مؤنثة : (٣) متنكبين : متقلدين قد وضعوها على مناكبهم (٤) شاكين في الأسلحة : أي ذوي شوكة وحدة في أسلحتهم ، ورجل شاكي السلاح وشائكه : أي حديده ، والشاكي الأسد أيضا (٥) رجالة العبيد : جمع راجل وهو خلاف الفارس (٦) الفصل : الحاجز بين الشيئين والحد بين الأرضين ، وقد تقدم شرح (الفصلان) (٧) جمع قبو وهو الطاق المعقود بعضه الى بعض

بِهِمْ فُرْسَانُ الْحَشَمِ وَطَبَقَاتُ الْجُنْدِ وَالْعَبِيدِ وَالرُّمَاةِ مَوْكِباً[١] إِثرَ مَوْكِبٍ إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ الشَّارِعِ إِلَى الصَّحْرَاءِ. فَلَمَّا تَمَّتِ الْبَيْعَةُ أُذِنَ لِلنَّاسِ بِالانْفِضَاضِ إِلَّا الإِخْوَةَ وَالْوُزَرَاءَ وَأَهْلَ الْخِدْمَةِ، فَإِنَّهُمْ مَكَثُوا بِقَصْرِ الزَّهْرَاءِ إِلَى أَنِ احْتُمِلَ جَسَدُ النَّاصِرِ - رَحِمَهُ اللهُ - إِلَى قَصْرِ قُرْطُبَةَ لِلدَّفْنِ هُنَالِكَ فِي تُرْبَةِ الْخُلَفَاءِ

***

الوفود بباب الحكم

«وَفِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ خَمْسِينَ» تَكَاثَرَتِ الْوُفُودُ بِبَابِ الْخَلِيفَةِ الْحَكَمِ مِنَ الْبِلَادِ لِلْبَيْعَةِ وَالْتِمَاسِ الْمَطَالِبِ مِنْ أَهْلِ طُلَيْطُلَةَ وَغَيْرِهَا مِنْ قَوَاعِدِ الأَنْدَلُسِ وَأَصْقَاعِهَا، فَتَوَصَّلُوا إِلَى مَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ بِمَحْضَرِ جَمِيعِ الْوُزَرَاءِ وَالْقَاضِي مُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ وَالْمَلَإِ[٢]، فَأُخِذَتْ عَلَيْهِمُ الْبَيْعَةُ وَوُقِّعَتِ الشَّهَادَاتُ فِي نُسَخِهَا

***

خروج بني أفلح الناصري لتلقي غالب الناصري

« وَفِي آخِرِ صَفَرٍ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ » أَخْرَجَ الْخَلِيفَةُ الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ مَوْلَيَيْهِ مُحَمَّداً وَزِيَاداً ابْنَيْ أَفْلَحَ النَّاصِرِيِّ بِكَتِيبَةٍ[٣] مِنَ الْحَشَمِ لِتَلَقِّي غَالِبٍ النَّاصِرِيِّ

(١) الموكب : الجماعة ركبانا أومشاة ، أوركاب الابل للزينة (٢) الملأ : الأشراف من القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع الى قولهم
(٣) الكتيبة : الجماعة من الجيش المتقدمة

الَّذِي خَرَجُوا إِلَيْهِ - صَاحِبِ مَدِينَةِ سَالِمٍ - الْمُورِدِ لِلطَّاغِيَةِ أُرْدُونَ بْنِ أَذْفُونْشَ الْخَبِيثِ فِي الدَّوْلَةِ، الْمُتَمَلِّكِ عَلَى طَوَائِفَ مِنَ الْأُمَمِ الْجَلَالِقَةِ، وَالْمُنَازِعِ لِابْنِ عَمِّهِ الْمُمَلَّكِ قَبْلَهُ شَانْجَةَ بْنِ رُذْمِيرَ، وَتَبَرَّعَ هٰذَا اللَّعِينُ أُرْدُونُ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَابِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللّٰهِ مِنْ ذَاتِهِ غَيْرَ طَالِبٍ إِذْنًا وَلَا مُسْتَظْهِرٍ بِعَهْدٍ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا بَلَغَهُ اعْتِزَامُ الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللّٰهِ فِي عَامِهِ ذٰلِكَ عَلَى الْغَزْوِ إِلَيْهِ، وَأَخْذِهِ فِي التَّأَهُّبِ لَهُ، فَاحْتَالَ فِي تَأْمِيلِ[1] الْمُسْتَنْصِرِ بِاللّٰهِ وَالِارْتِمَاءِ عَلَيْهِ، وَخَرَجَ قَبْلَ أَمَانٍ يُعْقَدُ لَهُ أَوْ ذِمَّةٍ تَعْصِمُهُ فِي عِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ وُجُوهِ أَصْحَابِهِ تَكَنَّفَهُمْ غَالِبٌ النَّاصِرِيُّ الَّذِي خَرَجُوا إِلَيْهِ، فَجَاءَ بِهِ نَحْوَ مَوْلَاهُ الْحَكَمِ، وَتَلَقَّاهُمْ ابْنَا أَفْلَحَ بِالْجَيْشِ الْمَذْكُورِ فَأَنْزَلَاهُمْ، ثُمَّ تَحَرَّكَا بِهِمْ ثَانِيَ يَوْمِ نُزُولِهِمْ إِلَى قُرْطُبَةَ، فَأَخْرَجَ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللّٰهِ إِلَيْهِمْ هِشَامًا[2] الْمُصْحَفِيَّ فِي جَيْشٍ

---

(١) التأميل: الرجاء (٢) هو جد أبي الوليد هشام بن محمد بن هشام بن محمد بن عثمان بن نصر بن عبد الله بن حميد بن سلمة بن عباد بن يونس القيسي المعروف بابن المصحفي من أهل قرطبة، روى عن أبي المطرف بن فطيس القاضي

عَظِيمٍ كَامِلِ ٱلتَّعْبِيَةِ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى بَابِ قُرْطُبَةَ فَمَرُّوا بِبَابِ قَصْرِهَا ، فَلَمَّا ٱنْتَهَى أُرْدُونُ إِلَى مَا بَيْنَ بَابِ ٱلسُّدَّةِ وَبَابِ ٱلْجِنَانِ سَأَلَ عَنْ مَكَانِ رَمْسِ[1] ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ ، فَأُشِيرَ إِلَى مَا يُوَازِي مَوْضِعَهُ مِنْ دَاخِلِ ٱلْقَصْرِ فِي ٱلرَّوْضَةِ ، فَخَلَعَ قَلَنْسُوَتَهُ وَخَضَعَ نَحْوَ مَكَانِ ٱلْقَبْرِ وَدَعَا ثُمَّ رَدَّ قَلَنْسُوَتَهُ إِلَى رَأْسِهِ . وَأَمَرَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِإِنْزَالِ أُرْدُونَ فِي دَارِ ٱلنَّاعُورَةِ ، وَقَدْ كَانَ تَقَدَّمَ فِي فَرْشِهَا بِضُرُوبِ ٱلْغِطَاءِ وَٱلْوِطَاءِ[2] ، وَٱنْتَهَى مِنْ ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغَايَةِ ، وَتَوَسَّعَ لَهُ فِي ٱلْكَرَامَةِ وَلِأَصْحَابِهِ ، فَأَقَامَ بِهَا ٱلْخَمِيسَ وَٱلْجُمُعَةَ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلسَّبْتِ تَقَدَّمَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ بِاسْتِدْعَاءِ أُرْدُونَ وَمَنْ مَعَهُ ، بَعْدَ إِقَامَةِ ٱلتَّرْتِيبِ ، وَتَعْبِيَةِ ٱلْجُيُوشِ ، وَٱلِاحْتِفَالِ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعُدَدِ وَٱلْأَسْلِحَةِ وَٱلزِّينَةِ ، وَقَعَدَ ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ عَلَى سَرِيرِ ٱلْمُلْكِ فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلشَّرْقِيِّ مِنْ مَجَالِسِ ٱلسَّطْحِ ، وَقَعَدَ ٱلْإِخْوَةُ وَبَنُوهُمْ وَٱلْوُزَرَاءُ

وصاعد اللغوى ، وعباس بن أصبغ وغيرهم ، وكان عالما بالآداب واللغات مفيدا لها مع الذكاء والفهم وحدث عنه ابنه أبو بكر محمد بن هشام وتوفى سنة ٤٤٠ (١) الرمس . القبر (٢) الوطاء : بكسر الواو وفتحها ، خلاف الغطاء أى الفراش الوطىء السهل الوثير يريح جنب النائم

وَوُزَرَاؤُهُمْ صَفًّا فِي الْمَجْلِسِ ، فِيهِمُ الْقَاضِي مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ وَالْحُكَّامُ وَالْفُقَهَاءُ ، فَأَتَى مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنُ طُمَيْسٍ بِالْمَلِكِ أُرْدُونَ وَأَصْحَابِهِ ، وَعَالِي لَبُوسِهِ ثَوْبٌ دِيبَاجِيٌّ رُومِيٌّ أَبْيَضُ وَبِلْيوَانٌ مِنْ جِنْسِهِ وَفِي لَوْنِهِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ رُومِيَّةٌ مَنْظُومَةٌ بِجَوْهَرٍ ، وَقَدْ حَفَّتْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ نَصَارَى وُجُوهِ الذِّمَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ يُؤْنِسُونَهُ وَيُبَصِّرُونَهُ ، فِيهِمْ وَلِيدُ بْنُ حَيْزُونَ قَاضِي النَّصَارَى بِقُرْطُبَةَ ، وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ قَاسِمٍ مُطْرَانُ طُلَيْطُلَةَ وَغَيْرُهُمَا ، فَدَخَلَ بَيْنَ صَفَّيِ التَّرْتِيبِ يُقَلِّبُ الطَّرْفَ فِي نَظْمِ الصُّفُوفِ ، وَيُجِيلُ الْفِكْرَ فِي كَثْرَتِهَا وَتَظَاهُرِ أَسْلِحَتِهَا وَرَائِقِ حِلْيَتِهَا ، فَرَاعَهُمْ مَا أَبْصَرُوهُ ، وَصَلَّبُوا[1] عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَتَأَمَّلُوا نَاكِسِي رُءُوسِهِمْ ، غَاضِّينَ مِنْ أَجْفَانِهِمْ ، قَدْ سُكِّرَتْ[2]

---

(١) صلب المسيحي : رسم صورة الصليب بيده على نفسه ، وصلب الرهبان : اتخذوا الصليب (٢) سكرت أبصارهم : حيرت أو غطيت وغشيت وحبست عن الابصار ومنعت من النظر وسكنت عنه ، من السكر بالشراب ، وقيل في قوله تعالى : «لقالوا انما سكرت أبصارنا» أغشيت وسدت بالسحر فيتخايل بأبصارنا غير ما نرى ، أو غشيها مامنعها من النظر ، وقال أبو عبيدة : سكرت أبصار القوم اذا دير بهم وغشيهم كالسمادير فلم يبصروا ، وقال أبو عمرو بن العلاء : مأخوذ من سكر الشراب كأن العين لحقها ما يلحق شارب المسكر اذا شرب

أَبْصَارُهُمْ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بَابِ ٱلْأَقْبَاءِ أَوَّلِ بَابِ قَصْرِ ٱلزَّهْرَاءِ، فَتَرَجَّلَ جَمِيعُ مَنْ كَانَ خَرَجَ إِلَى لِقَائِهِ ، وَتَقَدَّمَ ٱلْمَلِكُ أُرْدُونُ وَخَاصَّةُ قَوَامِسِهِ عَلَى دَوَابِّهِمْ حَتَّى ٱنْتَهَوْا إِلَى بَابِ السُّدَّةِ، فَأُمِرَ ٱلْقَوَامِسُ بِالتَّرَجُّلِ هُنَالِكَ وَٱلْمَشْيِ عَلَى ٱلْأَقْدَامِ ، فَتَرَجَّلُوا ،وَدَخَلَ ٱلْمَلِكُ أُرْدُونُ وَحْدَهُ رَاكِباً مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ طُمَيْسٍ ، فَأُنْزِلَ فِي بُرْطُلِ[1] ٱلْبَهْوِ ٱلْأَوْسَطِ مِنَ ٱلْأَبْهَاءِ ٱلْقِبْلِيَّةِ ٱلَّتِي بِدَارِ ٱلْجُنْدِ ، عَلَى كُرْسِيٍّ مُرْتَفِعٍ مَكْسُوِّ ٱلْأَوْصَالِ[2] بِالْفِضَّةِ . وَفِي هٰذَا ٱلْمَكَانِ بِعَيْنِهِ نَزَلَ قَبْلَهُ عَدُوُّهُ وَمُنَاوِيهِ شَانْجَةُ بْنُ رُدْمِيرَ ٱلْوَافِدُ عَلَى ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ فَقَعَدَ أُرْدُونُ عَلَى ٱلْكُرْسِيِّ ، وَقَعَدَ أَصْحَابُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَخَرَجَ ٱلْإِذْنُ لِأُرْدُونَ ٱلْمَلِكِ مِنَ ٱلْمُسْتَنْصِرِ بِاللهِ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ ، فَتَقَدَّمَ يَمْشِي وَأَصْحَابُهُ يَتْبَعُونَهُ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى ٱلسَّطْحِ ، فَلَمَّا قَابَلَ ٱلْمَجْلِسَ ٱلشَّرْقِيَّ ٱلَّذِي فِيهِ

---

(١) البرطل والبرطلة : شبه المظلة الصيفية وليست عند الأصمعي من كلام العرب (٢) جمع وصل وهو المفصل

ٱلْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ وَقَفَ وَكَشَفَ رَأْسَهُ وَخَلَعَ بُرْنُسَهُ(١) ، وَبَقِيَ حَاسِرًا إِعْظَامًا لِمَا بَانَ لَهُ مِنَ ٱلدُّنُوِّ إِلَى ٱلسَّرِيرِ، وَٱسْتُنْهِضَ فَمَضَى بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ ٱلْمُرَتَّبَيْنِ فِي سَاحَةِ ٱلسَّطْحِ إِلَى أَنْ قَطَعَ ٱلسَّطْحَ وَٱنْتَهَى إِلَى بَابِ ٱلْبَهْوِ ، فَلَمَّا قَابَلَ ٱلسَّرِيرَ خَرَّ سَاجِدًا سُوَيْعَةً ، ثُمَّ ٱسْتَوَى قَائِمًا ، ثُمَّ نَهَضَ خَطَوَاتٍ وَعَادَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ، وَوَالَى ذٰلِكَ مِرَارًا إِلَى أَنْ قَدِمَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخَلِيفَةِ ، وَأَهْوَى(٢) إِلَى يَدِهِ فَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا ، وَكَرَّ رَاجِعًا مُقَهْقِرًا عَلَى عَقِبِهِ إِلَى وِسَادِ دِيبَاجٍ مُثْقَلٍ بِالذَّهَبِ جُعِلَ لَهُ هُنَالِكَ ، وَوُضِعَ عَلَى قَدْرِ عَشَرَةِ أَذْرُعٍ مِنَ ٱلسَّرِيرِ ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَٱلْبُهْرُ(٣) قَدْ عَلَاهُ ، وَأُنْهِضَ خَلْفَهُ مَنْ ٱسْتُدْنِيَ مِنْ قَوَامِسِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، فَدَنَوْا مُمْتَثِلِينَ فِي تَكْرِيرِ ٱلْخُنُوعِ(٤) ، وَنَاوَلَهُمُ ٱلْخَلِيفَةُ يَدَهُ فَقَبَّلُوهَا ، وَٱنْصَرَفُوا مُقَهْقِرِينَ(٥) فَوَقَفُوا عَلَى رَأْسِ مَلِكِهِمْ

(١) البرنس : قلنسوة طويلة وكان الناس يلبسونها فى صدر الاسلام ، أو هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به دراعة كان أو جبة ، قيل انه غير عربى (٢) أهوى : مال وانحنى وقدم: تقدم (٣) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الاعياء (٤) الخنوع : الخضوع والذل (٥) مقهقرين ومتقهقرين : راجعين القهقرى أى الى خلف .

***

عزل شانجة وتولية أردون

وَوَصَلَ بُوصُولِهِمْ وَلِيدُ بْنُ خَيْزُونَ قَاضِي ٱلنَّصَارَى بِقُرْطُبَةَ فَكَانَ ٱلتَّرْجُمَانَ عَنِ ٱلْمَلِكِ أُرْدُونَ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ، فَأَطْرَقَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْحَكَمُ عَنْ تَكْلِيمِ ٱلْمَلِكِ أُرْدُونَ إِثْرَ قُعُودِهِ أَمَامَهُ وَقْتاً كَيْمَا يُفْرِخَ رَوْعُهُ[1] ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ قَدْ خُفِّضَ[2] عَلَيْهِ ٱفْتَتَحَ تَكْلِيمَهُ فَقَالَ : لِيَسُرَّكَ إِقْبَالُكَ وَيَغْبِطْكَ تَأْمِيلُكَ ، فَلَدَيْنَا لَكَ مِنْ حُسْنِ رَأْيِنَا وَرُحْبِ قَبُولِنَا فَوْقَ مَا قَدْ طَلَبْتَهُ . فَلَمَّا تُرْجِمَ لَهُ كَلَامُهُ إِيَّاهُ، تَطَلَّقَ[3] وَجْهُ أُرْدُونَ ، وَٱنْحَطَّ عَنْ

---

(١) فرخ الروع وأفرخ : ذهب فزعه ـ ومن أمثالهم المنتشرة فى كشف الكرب عن الجبان عند المخاوف قولهم أفرخ روعك ، أى سكن جأشك ، وليذهب رعبك وفزعك فان الأمر ليس على ما تحاذر . وكتب معاوية الى زياد : أفرخ روعك قد وليناك الكوفة ، وكان يخاف أن يوليها غيره . وأفرخ فؤاد الرجل اذا خرج روعه وانكشف عنه الفزع كما تفرخ البيضة اذا انفلقت عن الفرخ فخرج . وأصل الانفراخ : الانكشاف ، وقد قلبه ذو الرمة لمعرفته بالمعنى فقال :

ولى يهز انهزاما وسطها زعلا   جذلان قد أفرخت عن روعه الكرب

فالروع فى الفؤاد كالفرخ فى البيضة ، وأفرخ روعه اذا دعى له أن يسكن روعه و يذهب

وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة   من الخوف أفرخ أكثر الروع باطله

(٢) يقال : خفض عليك جأشك ، أى سكن قلبك ، والخفض الدعة والسكون (٣) تطلق وجهه : تهلل فرحا وعلاه البشر والسرور

رُتْبَتِهِ فَقَبَّلَ ٱلْبِسَاطَ وَقَالَ: أَنَا عَبْدُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَوْلَايَ ٱلْمُتَوَرِّكُ[1] عَلَى فَضْلِهِ، ٱلْقَاصِدُ إِلَى مَجْدِهِ، ٱلْمُحَكِّمُ فِي نَفْسِهِ وَرِجَالِهِ، فَحَيْثُ وَضَعَنِي مِنْ فَضْلِهِ، وَعَوَّضَنِي مِنْ خِدْمَتِهِ، رَجَوْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِيهِ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَنَصِيحَةٍ خَالِصَةٍ. فَقَالَ لَهُ ٱلْخَلِيفَةُ: أَنْتَ عِنْدَنَا بِمَحَلِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ حُسْنَ رَأْيِنَا، وَسَيَنَالُكَ مِنْ تَقْدِيمِنَا لَكَ، وَتَفْضِيلِنَا إِيَّاكَ عَلَى أَهْلِ مِلَّتِكَ مَا يَغْبِطُكَ، وَتَتَعَرَّفُ بِهِ فَضْلَ جُنُوحِكَ[2] إِلَيْنَا، وَٱسْتِظْلَالِكَ بِظِلِّ سُلْطَانِنَا، فَعَادَ أَرْدُونُ إِلَى ٱلسُّجُودِ عِنْدَ فَهْمِهِ مَقَالَةَ ٱلْخَلِيفَةِ، وَٱبْتَهَلَ دَاعِياً وَقَالَ: إِنَّ شَانْجَةَ ٱبْنَ عَمِّي تَقَدَّمَ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمَاضِي مُسْتَجِيرًا بِهِ مِنِّي، فَكَانَ مِنْ إِعْزَازِهِ إِيَّاهُ مَا يَكُونُ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ أَعَاظِمِ ٱلْمُلُوكِ وَأَكَارِمِ ٱلْخُلَفَاءِ لِمَنْ قَصَدَهُمْ وَأَمَّلَهُمْ، وَكَانَ قَصَدَهُ قَصْدَ مُضْطَرٍّ قَدْ شَنَأَتْهُ[3] رَعِيَّتُهُ، وَأَنْكَرَتْ سِيرَتَهُ، وَٱخْتَارَتْنِي

(١) أي المعتمد، ويقال: تورك على الدابة اذا ثنى رجله ووضع أحد وركيه في السرج ليستريح وذلك اذا أعيا وتعب (٢) جنوحك: ميلك والتجاؤك

(٣) شنأته: أبغضته وكرهته

لِمَكَانِهِ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ مِنِّي ـ عَلِمَ ٱللهُ ذٰلِكَ ـ وَلا دُعَاءٍ إِلَيْهِ ، فَخَلَعَتْهُ وَأَخْرَجَتْهُ عَنْ مُلْكِهِ مُضْطَرًّا مُضْطَهَدًا فَتَطَوَّلَ(١) عَلَيْهِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ بِأَنْ صَرَفَهُ إِلَى مُلْكِهِ ، وَقَوَّى سُلْطَانَهُ ، وَأَعَزَّ نَصْرَهُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَقُمْ بِفَرْضِ ٱلنِّعْمَةِ ٱلَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ ، وَقَصَّرَ فِي أَدَاءِ ٱلْمَفْرُوضِ عَلَيْهِ وَحَقِّهِ وَحَقِّ مَوْلَايَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِ . وَأَنَا قَدْ قَصَدْتُ بَابَ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ مِنْ قَرَارَةِ سُلْطَانِي ، وَمَوْضِعِ أَحْكَامِي ، مُحَكِّماً لَهُ فِي نَفْسِي وَرِجَالِي وَمَعَاقِلِي(٢) وَمَنْ تَحْوِيهِ مِنْ رَعِيَّتِي ، فَشَتَّانَ(٣) مَا بَيْنَنَا بِقُوَّةِ ٱلثِّقَةِ وَمُطَّرَحِ(٤) ٱلْهِمَّةِ . فَقَالَ ٱلْخَلِيفَةُ : قَدْ سَمِعْنَا قَوْلَكَ ، وَفَهِمْنَا مَغْزَاكَ(٥) ، وَسَوْفَ يَظْهَرُ مِنْ إِقْرَاضِنَا إِيَّاكَ عَلَى ٱلْخُصُوصِيَّةِ شَأْنُهُ ، وَيَتَرَادَفُ(٦) مِنْ إِحْسَانِنَا إِلَيْكَ أَضْعَافُ مَا كَانَ مِنْ أَبِينَا ـ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ إِلَى نِدِّكَ(٧) ، وَإِنْ كَانَ

---

(١) تطول عليه. امتن عليه وأنعم (٢) المعاقل: الملاجئ والحصون، جمع معقل. (٣) شتان : اسم فعل ماض بمعنى افترق (٤) أى بعد ، وطرحه واطرحه : أبعده، وطرف مطرح، وطريح: بعيد النظر (٥) أى غرضك وقصدك ، وغزا الشيء : أراده وطلبه (٦) يترادف : يتعاقب و يتوالى و يتتابع (٧) الند : المثل والنظير

لَهُ فَضْلُ ٱلتَّقَدُّمِ بِالْجُنُوحِ إِلَيْنَا وَٱلْقَصْدِ إِلَى سُلْطَانِنَا فَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يُؤَخِّرُكَ عَنْهُ، وَلَا يَنْقُصُكَ مِمَّا أَنَلْنَاكَ، وَسَنَصْرِفُكَ مَغْبُوطًا(١) إِلَى بَلَدِكَ، وَنَشُدُّ أَوَاخِيَّ(٢) مُلْكِكَ، وَنُمَلِّكُكَ جَمِيعَ مَا ٱنْحَاشَ(٣) إِلَيْكَ، وَنَعْقِدُ لَكَ بِذَلِكَ كِتَابًا يَكُونُ بِيَدِكَ، وَنُقَرِّرُ بِهِ حَدَّ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱبْنِ عَمِّكَ، وَنَقْبِضُهُ(٤) عَنْ كُلِّ مَا يَتَصَرَّفُهُ مِنَ ٱلْبِلَادِ إِلَى يَدِكَ، وَسَيَتَرَادَفُ عَلَيْكَ مِنْ إِفْضَالِنَا فَوْقَ مَا ٱحْتَسَبْتَهُ، وَٱللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ. فَكَرَّرَ أُرْدُونُ ٱلْخُضُوعَ، وَأَسْهَبَ فِي ٱلشُّكْرِ، وَقَامَ لِلِانْصِرَافِ مُقَهْقِرًا لَا يُوَلِّي ٱلْخَلِيفَةَ ظَهْرَهُ، وَقَدْ

(١) مغبوطا : حسن الحال مسرورا فى نعمة حسنة . والغبطة حسن الحال والمسرة والنعمة (٢) الأواخى « بتشديد الياء » جمع آخية وآخِيَة ، وهى فى الأصل عود يعرض فى حائط أو فى حبل يدفن طرفاه فى الأرض ويبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة « وإنما تؤخى الآخية فى سهولة الأرض لأنها أرفق بالحبل من الأوتاد الناشزة عن الأرض وهى أثبت فى الأرض السهلة من الوتد » والآخية أيضا : الطنب والحرمة والذمة. وتقول لى عند الأمير أخية ثابتة ، وشد الله بينكما أواخى الاخاء وحل أوارى الرياء ، وشددت آخية لك لايحلها المهر الأرن « أى المرح ذو النشاط والقوى، والآرىء : الآخية» (٣) مطاوع قولهم : حاش عليه الصيد وأحاشه اذا نفره نحوه وساقه اليه وجمعه عليه وأعانه على صيده . وانحاش عنه ضده : أى نفر وتقبض (٤) نقبضه : نعزله أو نمنعه ونصرفه

تَكَنَّفَهُ ٱلْفِتْيَانُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْفِتْيَانِ ، فَأَخْرَجُوهُ إِلى ٱلْمَجْلِسِ ٱلْغَرْبِيِّ فِي ٱلسَّطْحِ ، وَقَدْ عَلَاهُ ٱلْبُهْرُ وَأَذْهَلَهُ ٱلرَّوْعُ مِنْ هَوْلِ مَا بَاشَرَهُ ، وَجَلَالَةِ مَا عَايَنَهُ مِنْ فَخَامَةِ ٱلْخَلِيفَةِ وَبَهَاءِ ٱلْعِزَّةِ . فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ ٱلْمَجْلِسَ وَوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَقْعَدِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ خَالِياً مِنْهُ ٱنْحَطَّ سَاجِدًا إِعْظَامًا لَهُ . ثُمَّ تَقَدَّمَ ٱلْفِتْيَانُ بِهِ إِلَى ٱلْبَهْوِ ٱلَّذِي بِجَوْفِيِّ هَذَا ٱلْمَجْلِسِ ، فَأَجْلَسُوهُ هُنَالِكَ عَلَى وِسَادٍ مُثْقَلٍ بِالذَّهَبِ ، وَأَقْبَلَ نَحْوَهُ ٱلْحَاجِبُ جَعْفَرٌ ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ قَامَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَهُ ، وَأَوْمَأَ إِلَى تَقْبِيلِ يَدِهِ فَقَبَضَهَا ٱلْحَاجِبُ عَنْهُ ، وَٱنْحَنَى إِلَيْهِ فَعَانَقَهُ ، وَجَلَسَ مَعَهُ[1] فَغَبَطَهُ ، وَوَعَدَهُ مِنْ إِنْجَازِ عِدَاتِ ٱلْخَلِيفَةِ لَهُ بِمَا ضَاعَفَ سُرُورَهُ . ثُمَّ أَمَرَ ٱلْحَاجِبُ جَعْفَرٌ فَصُبَّتْ عَلَيْهِ ٱلْخِلَعُ ٱلَّتِي أَمَرَ لَهُ بِهَا ٱلْخَلِيفَةُ ـ وَكَانَتْ دُرَّاعَةً[2] مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ ، وَبُرْنُسًا مِثْلَهَا لَهُ لَوْزَةٌ مُفْرَغَةٌ مِنْ خَالِصِ ٱلتِّبْرِ مُرَصَّعَةٌ بِالْجَوْهَرِ وَٱلْيَاقُوتِ مَلَأَتْ عَيْنَ ٱلْعِلْجِ[3] تَجِلَّةً ـ

(١) يريد بشره بالغبطة وهنأه بها (٢) الدراعة : كالجبة مشقوقة المقدم

(٣) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم . والتجلة : العظمة

فَخَرَّ ساجِدًا وأَعْلَنَ بِالدُّعاءِ . ثُمَّ دَعَا ٱلْحَاجِبُ أَصْحَابَهُ رَجُلًا رَجُلًا فَخَلَعَ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ ٱسْتِحْقَاقِهِمْ ، فَكَمُلَ جَمِيعُ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَصْلُحُ لَهُمْ ، وَخَرَّ جَمِيعُهُمْ خَاضِعِينَ شَاكِرِينَ . ثُمَّ ٱنْطَلَقَ ٱلْمَلِكُ أُرْدُونُ وَأَصْحَابُهُ ، وَقُدِّمَ لِرِكَابِهِ فِي أَوَّلِ ٱلْبَهْوِ ٱلْأَوْسَطِ فَرَسٌ مِنْ عِتَاقِ خَيْلِ ٱلرِّكَابِ ، عَلَيْهِ سَرْجٌ حَلْيٌ وَلِجَامٌ حَلْيٌ مُفَرَّغٌ ، وَٱنْصَرَفَ مَعَ ٱبْنِ طُمَيْسٍ إِلَى قَصْرِ ٱلرُّصَافَةِ مَكَانِ تَضْيِيفِهِ ، وَقَدْ أُعِدَّ لَهُ فِيهِ كُلُّ مَا يَصْلُحُ لِمِثْلِهِ مِنَ ٱلْآلَةِ وَٱلْفُرُشِ وَٱلْمَاعُونِ ، وَٱسْتَقَرَّ أَصْحَابُهُ فِيمَا لَا كِفَاءَ[1] لَهُ مِنْ سَعَةِ ٱلتَّضْيِيفِ وَإِرْغَادِ ٱلْمَعَاشِ ، وَٱسْتَشْعَرَ ٱلنَّاسُ مِنْ مَسَرَّةِ هَذَا ٱلْيَوْمِ وَعِزَّةِ ٱلْإِسْلَامِ فِيهِ مَا أَفَاضُوا مِنَ ٱلتَّبَجُّحِ[2] بِهِ وَٱلتَّحَدُّثِ عَنْهُ أَيَّامًا

***

تبارى الخطباء بمجلس الخليفة

وَكَانَتْ لِلْخُطَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ بِمَجْلِسِ ٱلْخَلِيفَةِ فِي هَذَا

(١) لا كفاء له : لامساوى ولا نظير له (٢) التبجح بالشيء : الفرح به والافتخار والمباهاة

ٱلْيَوْمِ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ ، وَإِنْشَادَاتٌ لِأَشْعَارٍ مُحْكَمَةٍ مِتَانٍ ، يَطُولُ ٱلْقَوْلُ فِي ٱخْتِيَارِهَا . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ سَعِيدٍ ٱلْمُرَادِيِّ [1] مِنْ قَصِيدَةٍ حَيْثُ يَقُولُ :

مُلْكُ ٱلْخَلِيفَةِ آيَةُ ٱلْإِقْبَالِ
وَسُعُودُهُ مَوْصُولَةٌ بِنَوَالِ

وَٱلْمُسْلِمُونَ بِعِزَّةٍ وَبِرِفْعَةٍ
وَٱلْمُشْرِكُونَ بِذِلَّةٍ وَسِفَالِ [2]

أَلْقَتْ بِأَيْدِيهَا ٱلْأَعَاجِمُ نَحْوَهُ
مُتَوَقِّعِينَ لِصَوْلَةِ ٱلرِّئْبَالِ [3]

---

(١) عبد الملك بن سعيد المرادى الخازن شاعر أديب كثير الشعر موصوف بالفضل ، ومن شعره فى وصف ناعورة :

ناهيك ناعورة تعالت ... على صفاتى مع اقتدارى
يحملها الماء بانقياد ... وتحمل الماء باقتسار
تذكر طورا حنين ناى ... وتارة من زئير ضارى
تسقى بساتين حاويات ... غرائب الروض والثمار
طلوع عبد العزيز فيها ... كالشمس فى جنة القرار

وقال فيمن حجبه :

ماحمدناك اذ وقفنا ببابك ... للذى كان من طويل حجابك
قد ذممنا الزمان فيك وقلنا ... أبعد الله كل دهر أتى بك

(٢) السفال . بفتح السين ، نقيض العلاء .

(٣) الصولة : القوة والبطش ، والرئبال : الأسد

هَـذَا أَمِـيرُهُمُ أَتَاهُ آخِـذًا
مِنْـهُ أَوَاصِرَ[٢] ذِمَّـةٍ وَحِبَالِ
مُتَوَاضِـعًا لِجَلَالِهِ مُتَخَشِّعًا
مُتَـبَرِّعًا لَمَّا يُرَعْ بِقِتَـالِ
سَيَنَالُ بِالتَّأْمِيلِ لِلْمَلِكِ[٣] الرِّضَا
عِـزًّا يَعُمُّ عِـدَاهُ بِالْإِذْلَالِ
لَا يَوْمَ أَعْظَمُ لِلْوُلَاةِ مَسَرَّةً
وَأَشَـدُّهُ غَيْظًا عَلَى الْأَقْيَالِ[٤]
مِنْ يَوْمِ أُرْدُونَ الَّذِى إِقْبَالُهُ
أَمَلُ الْمَدَى وَنِهَايَةُ الْإِقْبَـالِ
مَلِكُ الْأَعَاجِمِ كُلِّهَا ابْنُ مُلُوكِهَا
وَالِى الرُّعَاةِ إِلَى الْأَعَاجِمِ وَالِى
إِنْ كَانَ جَاءَ ضَرُورَةً فَلَقَدْ أَتَى
عَنْ عِزِّ مَمْلَـكَةٍ وَطَوْعِ رِجَالِ

(١) جمع آصرة : وهى ماعطفك على غيرك من رحم وقرابة أو معروف ومنة . والآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخباء الى وتد . (٢) الملك الرضا : المرضى ، وهو وصف بالمصدر . ونظيره رجل عدل : أى عادل أو « الرضا » مفعول « سينال » وقوله : عزا الخ بدل منه (٣) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس دون الملك

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنِيلِ إِمَامَنَا
حَظَّ الْمُلُوكِ بِقَدْرِهِ(١) الْمُتَعَالِي

هُوَ يَوْمُ حَشْرِ النَّاسِ إِلَّا أَنَّهُمْ
لَمْ يُسْأَلُوا فِيهِ عَنِ الْأَعْمَالِ

أَضْحَى الْقَضَاءُ مُخَيِّماً بِجُيُوشِهِ
وَالْأُفْقُ أَقْتَمُ(٢) أَغْبَرَ السِّرْبَالِ

لَا يَهْتَدِي السَّارِي لِلَيْلِ قَتَامِهِ
إِلَّا بِضَوْءِ صَوَارِمٍ وَعَوَالِي(٣)

وَكَأَنَّ أَجْسَامَ الْكُمَاةِ تَسَرْبَلَتْ
مُذْ عُرِّيَتْ عَنْهُ جُسُومَ صِلَالِ(٤)

---

(١) قد تكون (لقدره) (٢) القتمة الغبرة أوسواد ليس بشديد ، والقتام الغبار ، والسربال القميص أوالدرع أوكل مالبس (٣) السارى : السائر عامة الليل ، والصوارم : السيوف القواطع ، والعوالى : الرماح (٤) فى الأصل «ضلال» وهو تحريف فاسد ، والصلال : جمع صل : وهو الحية شبه ماعلى الكماة والجنود من الأسلحة والدروع بجلد الحيات وهو تشبيه مألوف لدى العرب لما فيه من الدوائر التى تشبه حلق الدرع ، قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمى العباسى :

وعلىَّ سابغة للدروع كأنها سلخ كسابئة الشجاع الأرقم

وسابئة الحية : سلخها وجلدها. وقال أبو العلاء المعرى فى الدرعيات :.

كأثواب الأراقم مزقتها فخاطتها بأعينها الجراد

وَكَأَنَّمَا ٱلْعِقْبَانُ[١] عِقْبَانُ ٱلْفَلَا
مُنْقَضَّةٌ لِتَخَطُّفِ ٱلضُّلَّالِ

وَكَأَنَّ مُقْتَضَبَ ٱلْقَنَا مُهْتَزَّةً
أَشْطَانُ[٢] نَازِحَةٍ بَعِيدَةِ جَالِ

وَكَأَنَّمَا قِيلَ ٱلتَّجَافِيفُ ٱكْتَسَتْ
نَارًا تُؤَجِّجُهَا بِلَا إِشْعَالِ[١][٣]

ولبعض الأعراب يصف درعا فشبهها فى صفائها وما فيها من الحلق الدقيقة بسلخ الحية :

ونثرة تهزأ بالنصال كأنها من خلع الهلال

والهلال هنا : الحية، وهزؤها بالنصال : ردها اياها غير مؤثرة فيها .

« أحمد يوسف نجاتى » .

(١) جمع عقاب ، طائر من العتاق الجوارح (٢) المقتضبة من اقتضب الغصن اذا قطعه ومنه القضيب وهو ما قطع من الأغصان للسهام والقسى — وأشطان : جمع شطن وهو الحبل الشديد الفتل يستى به أو عام . والجال والجول : ناحية البئر وجانبها أو جدارها ، أو كل ناحية من نواحيها الى أعلاها من أسفلها ، ونازحة أى بعيدة صفة لبئر « محذوفة » ومعنى البيت مأخوذ من قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم

(٣) التجفاف : آلة للحرب يلبسه الفرس والانسان ليقيه فى الحرب من سلاح وآلة ، وأجج النار أوقدها — يصف هذه التجافيف بالتوهج والبريق واللمعان . ويظهر لى أن البيت : وكأنما قَبَلُ التجافيف اكتست الخ والقبل : جمع قبلة : وهو شىء من عاج مستدير يتلألأ يعلق فى صدر المرأة أو الصبى أو الفرس .

***

خزانة الحكم العلمية

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي حَقِّ ٱلْحَكَمِ ٱلْمُسْتَنْصِرِ، عَنْ فَتَاهُ تَلِيدٍ صَاحِبِ خِزَانَتِهِ ٱلْعِلْمِيَّةِ ، فِيمَا حَدَّثَ عَنْهُ ٱلْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ : إِنَّ عِدَّةَ ٱلْفَهَارِسِ ٱلَّتِي فِيهَا تَسْمِيَةُ ٱلْكُتُبِ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ فَهْرَسَةً ، فِي كُلِّ فَهْرَسَةٍ عِشْرُونَ وَرَقَةً لَيْسَ فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ ٱلدَّوَاوِينِ فَقَطْ . ٱنْتَهَى . وَقَدْ قَدَّمْنَاهُ عَنِ ٱبْنِ خَلْدُونَ ، وَنَقَلَهُ ٱبْنُ ٱلْأَبَّارِ فِي ٱلتَّكْمِلَةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي حَقِّ ٱلْحَكَمِ : إِنَّهُ كَانَ حَسَنَ ٱلسِّيرَةِ، مُكْرِمًا لِلْقَادِمِينَ عَلَيْهِ، جَمَعَ مِنَ ٱلْكُتُبِ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ كَثْرَةً وَنَفَاسَةً ، حَتَّى قِيلَ : إِنَّهَا كَانَتْ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفِ مُجَلَّدٍ ، وَإِنَّهُمْ لَمَّا نَقَلُوهَا أَقَامُوا سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي نَقْلِهَا . وَكَانَ عَالِمًا نَبِيهًا صَافِيَ ٱلسَّرِيرَةِ ، وَسَمِعَ مِنْ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغَ[1]،

---

(١) هو أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطا البياني مولى الوليد بن عبد الملك امام حافظ من أئمة الحديث مكثر مصنف، كان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، وروى عنه جماعة من أكابر أهل بلده ، وكان أصله من مدينة بيانة ثم سكن قرطبة وبها توفى سنة ٣٤٠ .

وَأَحْمَدَ بْنِ دُحَيْمٍ[1] وَمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ ٱلْخُشَنِيِّ[2]
وَزَكَرِيَّا بْنِ خَطَّابٍ[3] وَأَكْثَرَ عَنْهُ ، وَأَجَازَ لَهُ ثَابِتُ
ٱبْنُ قَاسِمٍ[4] ، وَكَتَبَ عَنْ خَلْقٍ كَثِيرٍ سِوَى هَؤُلَاءِ .
وَكَانَ يَسْتَجْلِبُ ٱلْمُصَنَّفَاتِ مِنَ ٱلْأَقَالِيمِ وَٱلنَّوَاحِي بَاذِلًا
فِيهَا مَا أَمْكَنَ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ حَتَّى ضَاقَتْ عَنْهَا خَزَائِنُهُ ،

---

(١) هو أبو عمر أحمد بن دحيم بن خليل بن عبد الجبار بن حرب من أهل قرطبة أخذ عن كثير من الأندلس ورحل الى المشرق سنة ٣١٥ وكان محدثا جليلا ثقة ولاه الامام الناصر أحكام القضاء بمدينة طليطلة ولم يزل قاضيا الى أن توفى سنة ٣٣٨ فى الطاعون ، وكان مولده سنة ٢٧٨ — وفى الأصل « رحيم » محرفة (٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن زيد بن الحسن بن كليب بن أبى ثعلبة الخشنى صاحب رسول الله ﷺ من أهل قرطبة كان ذاحظ عظيم من علوم اللغة والأدب والحديث وأدخل الأندلس كثيرا من اللغة والشعر الجاهلى بعد عودته من رحلته الى المشرق ، وأراده الأمير محمد على القضاء فأبى، توفى سنة ٢٨٦ — ولعل المستنصر انما سمع من ابنه محمد بن محمد ابن عبد السلام المتوفى سنة ٣٣٣ وكان عالما فاضلا زاهدا أخذ عن أبيه وغيره وكان مشاورا فى الأحكام (٣) هو أبو يحيى زكريا بن خطاب بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن اسمعيل بن حزم الكلبى من أهل تطيلة عالم محدث استقدمه المستنصر بالله وهو ولى عهد فسمع منه أكثر روايته وكان ثقة مأمونا وولى القضاء بموضعه بعد عمر بن يوسف بن الامام فى سنة ٣٣٧ (٤) ثابت بن قاسم بن ثابت السرقسطى محدث لغوى عالم مليح الخط جيد الكتاب توفى سنة ٣٥٢

وَكَانَ ذَا غَرَامٍ بِهَا قَدْ آثَرَ ذَلِكَ عَلَى لَذَّاتِ الْمُلُوكِ، فَاسْتَوْسَعَ عِلْمُهُ وَدَقَّ نَظَرُهُ وَجَمَّتِ اسْتِفَادَتُهُ. وَكَانَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِالرِّجَالِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَنْسَابِ أَحْوَذِيًّا[1] نَسِيجَ وَحْدِهِ، وَكَانَ ثِقَةً فِيمَا يَنْقُلُهُ، بِهَذَا وَصَفَهُ ابْنُ الْأَبَّارِ وَبِأَضْعَافِهِ، وَقَالَ: عَجَبًا لِابْنِ الْفَرَضِيِّ وَابْنِ بَشْكُوَالَ كَيْفَ لَمْ يَذْكُرَاهُ وَقَلَّمَا يُوجَدُ كِتَابٌ مِنْ خَزَائِنِهِ إِلَّا وَلَهُ فِيهِ قِرَاءَةٌ أَوْ نَظَرٌ فِي أَيِّ فَنٍّ كَانَ، وَيَكْتُبُ فِيهِ نَسَبَ الْمُؤَلِّفِ وَمَوْلِدَهُ وَوَفَاتَهُ، وَيَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِغَرَائِبَ لَا تَكَادُ تُوجَدُ إِلَّا عِنْدَهُ لِعِنَايَتِهِ بِهَذَا الشَّأْنِ؟ وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ النَّظْمِ قَوْلُهُ:

إِلَى اللهِ أَشْكُو مِنْ شَمَائِلِ مُسْرِفٍ
عَلَيَّ ظَلُومٍ لَا يَدِينُ بِمَا دِنْتُ

---

(١) الأحوذى السريع فى كل ما أخذ فيه، والجاد فى أموره القاهر لها لايشذ عليه شيء - ويقال هو نسيج وحده: يضرب مثلا لكل من بولغ فى مدحه كقولك: هو واحد عصره، وقريع قومه، فنسيج وحده أى لا نظير له فى العلم وغيره، وأصله فى الثوب لأن الثوب اذا كان رفيعا كريما لم ينسج على منواله غيره ولا يعمل على مثاله مثله لدقته. وفى حديث عائشة أنها ذكرت عمر فقالت: «كان والله أحوذيا نسيج وحده» أرادت أنه كان منقطع القرين عديم النظير

نَأَتْ عَنْهُ دَارِي فَاسْتَزَادَ صُدُودَهُ

وَإِنِّي عَلَى وَجْدِي الْقَدِيمِ كَمَا كُنْتُ

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ شَوْقِيَ بَالِغٌ

مِنَ الْوَجْدِ مَا بُلِّغْتُهُ لَمْ أَكُنْ بِنْتُ[1]

وَقَوْلُهُ :

عَجِبْتُ وَقَدْ وَدَّعْتُهَا كَيْفَ لَمْ أَمُتْ

وَكَيْفَ انْثَنَتْ بَعْدَ الْوَدَاعِ يَدِي مَعِي ؟؟

فَيَا مُقْلَتِي الْعَبْرَى[2] عَلَيْهَا اسْكُبِي دَمًا

وَيَا كَبِدِي الْحَرَّى عَلَيْهَا تَقَطَّعِي

وَتُوُفِّيَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بِقَصْرِ قُرْطُبَةَ ثَانِيَ صَفَرٍ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ لِسِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ خِلَافَتِهِ، وَكَانَ أَصَابَهُ الْفَالِجُ[3] فَلَزِمَ الْفِرَاشَ إِلَى أَنْ هَلَكَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - وَكَانَ قَدْ شَدَّدَ فِي إِبْطَالِ الْخَمْرِ فِي مَمْلَكَتِهِ تَشْدِيدًا عَظِيمًا .

(١) بنت : بعدت (٢) عين عبرى : باكية ، ورجل عبران : باك حزين ، من العبرة وهي الدمع ، وحرى مؤنث حران وفعلهما حرِ يحر «من باب تعب» فهو حران اذا عطش . وفي الحديث : «في كل كبد حرى أجر» أي في سقيها أو في صبر صاحبها » (٣) الفالج : الشلل واسترخاء أحد شقي البدن فيبطل احساسه وحركته

***

هشام بن الحكم

« وَوَلِىَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ هِشَامٌ* صَغِيرًا » ، سِنُّهُ تِسْعُ سِنِينَ ، وَلَا يُنَافِيهِ قَوْلُ ٱبْنِ خَلْدُونَ : قَدْ نَاهَزَ ٱلْحُلُمَ[1] ، وَكَانَ ٱلْحَكَمُ قَدِ ٱسْتَوْزَرَ لَهُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِى عَامِرٍ ، وَنَقَلَهُ مِنْ خُطَّةِ ٱلْقَضَاءِ إِلَى وِزَارَتِهِ ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ أُمُورَهُ فَٱسْتَقَلَّ . قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ : وَتَرَقَّتْ حَالُ ٱبْنِ أَبِى عَامِرٍ عِنْدَ ٱلْحَكَمِ ، فَلَمَّا تُوُفِّىَ ٱلْحَكَمُ وَبُويِعَ هِشَامٌ وَلُقِّبَ ٱلْمُؤَيَّدَ ، بَعْدَ أَنْ قُتِلَ لَيْلَتَئِذٍ ٱلْمُغِيرَةُ أَخُو ٱلْحَكَمِ ٱلْمُرَشَّحُ لِأَمْرِهِ ، تَنَاوَلَ ٱلْفَتْكَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِى عَامِرٍ هٰذَا ، بِمُمَالَأَةٍ[2] مِنْ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ ٱلْمُصْحَفِىِّ حَاجِبِ أَبِيهِ وَغَالِبٍ مَوْلَى ٱلْحَكَمِ صَاحِبِ مَدِينَةِ

(١) أى قارب البلوغ (٢) مالأه ممالأة : ساعده وعاونه واتفق معه

* ترجم له فى تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى « ج ١ ص ١٠ » بما يأتى : بويع لهشام أمير المؤمنين — أعزه الله — بالخلافة صبيحة يوم الاثنين لخمس خلون من صفر سنة ست وستين وثلثمائة ومولده فى جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وثلثمائة .

سَالِمٍ ، وَمِنْ خِصْيَانِ ٱلْقَصْرِ يَوْمَئِذٍ وَرُؤَسَائِهِمْ فَائِقٌ[1] وَجَوْذَرٌ ، فَقَتَلَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ ٱلْمُغِيرَةَ بِمُمَالَأَةِ مَنْ ذُكِرَ ، وَتَمَّتِ ٱلْبَيْعَةُ لِهِشَامٍ . ثُمَّ سَمَا لِابْنِ أَبِي عَامِرٍ أَمَلٌ فِي ٱلتَّغَلُّبِ عَلَى هِشَامٍ لِمَكَانِهِ فِي ٱلسِّنِّ ، وَثَابَ لَهُ رَأْيٌ فِي ٱلِاسْتِبْدَادِ ، فَمَكَرَ بِأَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَضَرَبَ بَيْنَ رِجَالِهَا ، وَقَتَلَ بَعْضًا بِبَعْضٍ ، وَكَانَ مِنْ رِجَالِ ٱلْيَمَنِيَّةِ مِنْ مَعَافِرَ ، دَخَلَ جَدُّهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ مَعَ طَارِقٍ ، وَكَانَ عَظِيمًا فِي قَوْمِهِ ، وَكَانَ لَهُ فِي ٱلْفَتْحِ أَثَرٌ

---

(١) كذا بالأصل ، « فائق وجودر » بتحريف الاسمين والذى أعرفه أن اسمه فاتن لافائق . وجؤذر هذاهو جؤذر الحكمى الخادم بقصر قرطبة كان يعنى باللغة العربية ويدقق فى فهم معانيها ، وكان ذا ثقة وأمانة ومعرفة ، حتى لقد أجمع أهل الدولة أنه لم يقم على رأس أمير بالأندلس من هذا الجيل الصقلبي الفظ الغليظ القلب القاسى الطبع كهذين الخادمين فاتن وجؤذر سعة معرفة وصدق خدمة ولطف أشارة ،مع رحب صدر ، وشدة احتمال ، وحسن معاملة. وفاتن ، وجؤذر ، اسمان لطيفان من أسماء الوصفاء ومقدمى الفتيان . « أحمد يوسف نجاتى » .

***

المنصور بن أبى عامر

وَعُظِّمَ ٱبْنُ أَبِى عَامِرٍ* هٰـذَا وَغَلَبَ عَلَى ٱلْمُؤَيَّدِ وَمَنَعَ

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب « ج ١ ص ٥٧ » بترجمة مسهبة نقتطف منها مايأتى :

المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر المعافرى الذى حجب المؤيد ، وكان فى منزلة سلطان، هو مذكور فى كتب كثيرة ، ولابن حيان فيه كتاب مفرد . قال الحميدى : أصله من الجزيرة الخضراء ، وله بها قدر وأبوة ، وورد شابا الى قرطبة ، فطلب العلم والأدب وتمهر ، وكانت له همة لم تزل ترتقى الى أن اعتنت به صبح أم هشام المؤيد ، فصارت له الحجابة وكان له مجلس معروف فى الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم ، وغزواته نيف وخمسون غزوة ، وله فتوح كثيرة ، وكان فى أكثر زمانه لايخل بغزوتين فى السنة . ومن خط ابن حيان : هو أبو عامر محمد بن عبد الله ابن عامر بن أبى عامر محمد بن الوليد بن سويد بن عبد الملك ، وعبدالملك جده هو الداخل للأندلس مع طارق بن زياد أول الداخلين من العرب وهو وسيط فى قومه ، ثم حصلت وحشة بين صبح أم هشام الخليفة وبين المنصور الحاجب ، آل الأمر فيها الى أن كانت الغلبة له ، وأخذ الأموال التى كانت فى القصر مختزنة ، ونقلها الى داره ، ووكل بالقصر من أراد ونفى من أراد ، وصارت الدولة باطنا وظاهرا على حكمه ، وكان فى أثناء ذلك مريضا ، ولما أفاق وصل الى الخليفة هشام واجتمع به واعترف له بالاضطلاع بالدولة ، فخرست ألسنة الحسدة ، وعلم مافى نفوس الناس لظهور هشام ورؤيته ، ومات المنصور فى صفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة . وذكر ابن حيان أنه مات ليلة الاثنين لثلاث بقين من رمضان سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة وأوصى أن يدفن حيث يقبض، فدفن فى قصره بمدينة سالم ، واضطرب الموالى على ابنه عبد الرحمن وقالوا : انما نحن فى حجر آل أبى عامر الدهر كله .

ٱلْوُزَرَاءِ مِنَ ٱلْوُصُولِ إِلَيْهِ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلْأَيَّامِ يُسَلِّمُونَ وَيَنْصَرِفُونَ. وَأَرْضَخَ(١) لِلْجُنْدِ فِي ٱلْعَطَاءِ، وَأَعْلَى مَرَاتِبَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقَمَعَ(٢) أَهْلَ ٱلْبِدَعِ ، وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَشَجَاعَةٍ وَبَصَرٍ بِالْحُرُوبِ وَدِينٍ مَتِينٍ. ثُمَّ تَجَرَّدَ لِرُؤَسَاءِ ٱلدَّوْلَةِ مِمَّنْ عَانَدَهُ وَزَاحَمَهُ ، فَمَالَ عَلَيْهِمْ وَحَطَّهُمْ عَنْ مَرَاتِبِهِمْ ، وَقَتَلَ بَعْضًا بِبَعْضٍ — كُلُّ ذَٰلِكَ عَنْ هِشَامٍ وَخَطِّهِ وَتَوْقِيعِهِ — حَتَّى ٱسْتَأْصَلَهُمْ وَفَرَّقَ جُمُوعَهُمْ ، وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِالصَّقَالِبَةِ ٱلْخِصْيَانِ ٱلْخُدَّامِ بِالْقَصْرِ ، فَحَمَلَ ٱلْحَاجِبَ ٱلْمُصْحَفِيَّ عَلَى نَكْبَتِهِمْ ، فَنَكَبَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ ٱلْقَصْرِ ، وَكَانُوا ثَمَانَمِائَةٍ أَوْ يَزِيدُونَ. ثُمَّ أَصْهَرَ(٣) إِلَى غَالِبٍ مَوْلَى ٱلْحَكَمِ ، وَبَالَغَ فِي خِدْمَتِهِ وَٱلتَّنَصُّحِ لَهُ ، وَٱسْتَعَانَ بِهِ عَلَى ٱلْمُصْحَفِيِّ فَنَكَبَهُ وَمَحَا أَثَرَهُ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ . ثُمَّ ٱسْتَعَانَ عَلَى غَالِبٍ بِجَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمْدُونَ(٤) «صَاحِبِ ٱلْمَسِيلَةِ وَقَائِدِ ٱلشِّيعَةِ» مَمْدُوحِ ٱبْنِ هَانِئٍ

---

(١) أرضخ الجند : أعطاهم قليلا من كثير ، والرضيخة والرضاخة القليل من العطية (٢) أى قهرهم وأذلهم وردهم عما يريدون (٣) أصهر اليه : صار له صهرا (٤) هو صاحب المسيلة وأمير الزاب وكان أبوه على قد جدد المسيلة فكانت معروفة بهم ، وجرت بين

بِالْفَائِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ وَغَيْرِهَا(١) ، وَهُوَ النَّازِعُ إِلَى الْحُكْمِ

جعفر وزيرى بن مناد جد المعز بن باديس احن ومشاجرات أفضت الى القتال فتواقعا ونشبت بينهما معركة حامية قتل زيرى فيها ، وقام ولده بلكين بن زيرى مقامه، واستظهر على جعفر وأجلب عليه فعلم أن ليس له به طاقة فغادر بلاده ومملكته وهرب الى الأندلس فقتل بها سنة ٣٦٤ « والمسيلة » مدينة بالمغرب من أعمال الزاب كانت تسمى المحمدية اختطها سنة ٣١٥ أبو القاسم محمد بن المهدى الملقب بالقائم حين كان ولى عهد أبيه المهدى الفاطمى . والزاب كورة عظيمة بافريقية بين تلمسان وسجلماسة ، ينسب اليها محمد بن الحسن التميمى الطبنى كان فى أيام الحكم المستنصر . هذا ولأبى القاسم ابن هانىء الأندلسى فى جعفر بن على مدائح فائقة يجاوز حسنها حد الوصف وهو القائل فيه :

المدنفان من البرية كلها ... جسمى وطرف بابلى أحور

والمشرقات النيرات ثلاثة ... الشمس والقمر المنير وجعفر

وله فيه :

ألا أيها الوادى المقدس بالندى ... وأهل الندى قلبى اليك مشوق

ويأيها القصر المنيف قبابه ... على الزاب لايسدد اليك طريق

ويامالك الزاب الرفيع عماده ... بقيت لجمع المجد وهو تزيق

على ملك الزاب السلام مرددا ... وريحان مسك بالسلام فتيق

(١) عدة هذه القصيدة سبعون بيتا ، ومطلعها :

أليلتنا اذ أرسلت واردا وحفا ... وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

وبات لها ساق يقوم على الدجا ... بشمعة نجم ماتقط ولا تطفا

وبعد أن وصفه بأبيات قال :

جعلنا حشايانا ثياب مدامنا ... وقدت لنا الظلماء من جلدها لحفا

فمن كبد تبدى الى كبد هوى ... ومن شفة توحى الى شفة رشفا

أَوَّلَ ٱلدَّوْلَةِ » وَبِمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ زَنَاتَةَ وَٱلْبَرْبَرِ، ثُمَّ قَتَلَ جَعْفَرًا بِمُمَالَأَةِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْوَدُودِ[1] وَٱبْنِ جَهْوَرٍ وَٱبْنِ ذِي ٱلنُّونِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ أَوْلِيَاءِ ٱلدَّوْلَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ. ثُمَّ لَمَّا خَلَا ٱلْجَوُّ مِنْ أَوْلِيَاءِ ٱلْخِلَافَةِ، وَٱلْمُرَشَّحِينَ لِلرِّيَاسَةِ

ثم وصف الليل ونجومه في نحو عشرين بيتا حتى قال :

كأن لواء الشمس غرة جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

ثم مدحه بقول جزل بالبأس والاقدام والكرم والجود وفضله على غيره من الملوك والرؤساء حتى قال :

فتى تسحب الدنيا به خيلاءها وقد طمحت طرفا وقد شمخت أنفا

و بالغ فيها ماشاء كعادته ثم ختمها بقوله :

أمنت بك الأيام وهي مخوفة ولو بيديك الخلد أمنتني الحتفا

وله في جعفر نحو عشرين قصيدة غراء ، ومن أشهرها أيضا قصيدته البائية التي مطلعها :

أحبب بهاتيك القباب قبابا لا بالحداة ولا الركاب ركابا
فيها قلوب العاشقين تخالها عنما بأيدي البيض أو عنابا

ومنها :

فكأنما ضرب السماء سرداقا بالزاب أو رفع النجوم قبابا
فرشت له أيدي الليوث خدودها ورضين ما يأتي وكن غضابا
قد طيب الأفواه طيب ثنائه من أجل ذا تجد الثغور عذابا
ولو ان أقطار الديار نبت بكم لسكنتم الأخلاق والآدابا

(١) هو الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي عقد له المنصور ابن أبي عامر على المغرب الأقصى وأنفذه اليه في سنة ٣٧٦ ومكث به ضابطا لأعماله حتى قتل في بعض الحروب سنة ٣٨١ . «أحمد يوسف نجاتي»

رَجَعَ إِلَى الْجُنْدِ ، فَاسْتَدْعَى أَهْلَ الْعُدْوَةِ مِنْ رِجَالِ زَنَاتَةَ وَالْبَرَابِرَةِ فَرَتَّبَ مِنْهُمْ جُنْدًا ، وَاصْطَنَعَ أَوْلِيَاءَ ، وَعَرَّفَ عُرَفَاءَ[1] مِنْ صِنْهَاجَةَ ، وَمَغْرَاوَةَ ، وَبَنِي يَفْرَنَ، وَبَنِي بَرْزَالَ، وَمِكْنَاسَةَ[2]، وَغَيْرِهِمْ ،فَتَغَلَّبَ عَلَى هِشَامٍ وَحَجَرَهُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهُوَ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ مِنْ تَعْظِيمِ

(١) جمع عريف : وهو رئيس القوم وسيدهم ، أو النقيب وهو دون الرئيس ، سمى به لأنه عرف بذلك أو لمعرفته بسياسة القوم . والعريف أيضا : القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلى أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم (٢) كل هؤلاء من قبائل البربر المشهورة وقد كانت الدولة لزناتة ومكناسة ثم انتقلت الى مغراوة وبنى يفرن فى زمن حجابة المنصور بن أبى عامر ـ وكانت مكناسة لأول الفتح العربى بنواحى أواسط المغرب الأقصى والأوسط ـ وكان محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الأوسط ـ وغلب مغراوة على مدينة فاس وأعمالها واستفحل أمرهم بالمغرب وأزاحوا مكناسة عن ضواحيه وأعماله حتى أيام المنصور ابن أبى عامر ـ وكان من دعاة الناصر أبو زيد مخلد اليفرنى الزناتى الخارجى ثار على الشيعة بأفريقية وأوقع بهم واستولى على مدينة القيروان وعلى رقادة ، ونشر فيهما الدعوة لأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، ووفدت رسل منه ومن أهل القيروان فى سنة ٣٣٤ الى قرطبة يخبرون الخليفة بهذا الفتح المبين والفوز العظيم ، ولكن أبا يزيد لم يلبث أن ظهرت مساويه فانفض جنوده من حوله وخذلوه ، وكان من حديث خروجه ما هو معروف فى التاريخ. وفى الأصل « وبنى يعزز » وهو تحريف .

الْخِلَافَةِ وَالْخُضُوعِ لَهَا ، وَرَدِّ الْأُمُورِ إِلَيْهَا ، وَتَرْدِيدِ الْغَزْوِ وَالْجِهَادِ ، وَقَدَّمَ رِجَالَ الْبَرَابِرَةِ وَزَنَاتَة ، وَأَخَّرَ رِجَالَ الْعَرَبِ وَأَسْقَطَهُمْ مِنْ مَرَاتِبِهِمْ ، فَتَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ مِنَ الِاسْتِقْلَالِ بِالْمُلْكِ ، وَالِاسْتِبْدَادِ بِالْأَمْرِ . وَبَنَى لِنَفْسِهِ مَدِينَةً لِنُزُلِهِ[١] سَمَّاهَا الزَّاهِرَةَ ، وَنَقَلَ إِلَيْهَا خَزَائِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ ، وَقَعَدَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُحَيَّا بِتَحِيَّةِ الْمُلُوكِ ، وَتَسَمَّى بِالْحَاجِبِ الْمَنْصُورِ ، وَنَفَذَتِ الْكُتُبُ وَالْمُخَاطَبَاتُ وَالْأَوَامِرُ بِاسْمِهِ ، وَأَمَرَ بِالدُّعَاءِ لَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ بِاسْمِهِ عَقِبَ الدُّعَاءِ لِلْخَلِيفَةِ ، وَمَحَا رَسْمَ الْخِلَافَةِ بِالْجُمْلَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ لِهِشَامٍ الْمُؤَيَّدِ مِنْ رُسُومِ الْخِلَافَةِ أَكْثَرُ مِنَ الدُّعَاءِ عَلَى الْمَنَابِرِ وَكَتْبِ اسْمِهِ فِي السِّكَّةِ وَالطُّرُزِ[٢] ، وَأُغْفِلَ دِيوَانُهُ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، وَجَنَّدَ الْبَرَابِرَةَ وَالْمَمَالِيكَ ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْعُلُوجِ[٣] لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى تِلْكَ الرُّتْبَةِ وَقَهْرِ مَنْ

---

(١) النزل : المنزل وبه فسر قوله تعالى : « انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا » ومكان نزل : ينزل فيه كثيرا . (٢) الطرز : جمع طراز ، وهو علم الثوب (٣) العلوج : جمع علج : وهو فى اصطلاح العرب الرجل الضخم القوى من كفار العجم ، وكانوا بالمغرب يطلقون لفظ علج على الجند من الافرنج الذين ربما اتخذهم السلطان لخاصته « أحمد يوسف نجاتى »

تَطَاوَلَ إِلَيْهَا مِنَ الْعِلْيَةِ ، فَظَفِرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَا أَرَادَ . وَرَدَّدَ الْغَزْوَ بِنَفْسِهِ إِلَى دَارِ الْحَرْبِ ، فَغَزَا سِتًّا وَخَمْسِينَ غَزْوَةً فِي سَائِرِ أَيَّامِ مُلْكِهِ ، لَمْ تَنْتَكِسْ[1] لَهُ فِيهَا رَايَةٌ وَلَا فُلَّ[2] لَهُ جَيْشٌ ، وَمَا أُصِيبَ لَهُ بَعْثٌ ، وَمَا هَلَكَتْ لَهُ سَرِيَّةٌ[3] ، وَأَجَازَ عَسَاكِرَهُ إِلَى الْعُدْوَةِ ، وَضَرَبَ[4] بَيْنَ مُلُوكِ الْبَرَابِرَةِ ، وَضَرَبَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، فَاسْتَوْثَقَ لَهُ مُلْكُ الْمَغْرِبِ ، وَأَخْبَتَتْ لَهُ مُلُوكُ[5] زَنَاتَةَ ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِهِ ، وَأَطَاعُوا سُلْطَانَهُ ، وَأَجَازَ ابْنَهُ عَبْدَ الْمَلِكِ إِلَى مُلُوكِ مَغْرَاوَةَ بِفَاسَ مِنْ آلِ خَزَرَ . وَلَمَّا سَخِطَ زِيرِى بْنُ عَطِيَّةَ[6] مَلِكُهُمْ

---

(١) لم تنتكس له فيها راية ، كناية عن أنه لم يهزم ولا فى واحدة منها (٢) فل الجيش : هزم (٣) السرية : قطعة من الجيش (٤) وضرب بين الخ : أفسد بينهم وقد تكون محرفة عن « ضرى » أى أغرى وذلك عندى أظهر (٥) أخبتت : تواضعت وخضعت (٦) هو زيرى بن عطية بن عبد الله بن خزر بن محمد بن خزر بن حفص من مغراوة من بطون زناتة من البربر كان أمير بنى خزر فى وقته وانتهت اليه رياستهم وإمارتهم فى البداوة « وكان بنو مغراوة بالمغرب الأوسط من زمن قديم ثم صار لصنهاجة فى سنة ٣٦٩ فلحق مغراوة فيمن بقى من بنى خزر بالمغرب الأقصى وأمراؤهم يومئذ محمد بن الخير ، ومقاتل وزيرى ابنا عطية ، وخزرون بن فلفول و وصلوا الى سبتة وأميرهم المنصور بن أبى عامر ، ثم أراد العزيز بن نزار العبيدى ملك مصر أن يسترد ملكه بالمغرب سنة ٣٧٥

لَمَّا بَلَغَهُ مَا بَلَغَهُ مِنْ إِعْلَانِهِ بِالنَّيْلِ مِنْهُ، وَالْغَضِّ مِنْ مَنْصِبِهِ، وَالتَّأَفُّفِ[1] لِحَجْرِ الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ، أَوْقَعَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ، وَنَزَلَ بِفَاسَ وَمَلَكَهَا، وَعَقَدَ لِمُلُوكِ زَنَاتَةَ عَلَى مَمَالِكِ الْمَغْرِبِ وَأَعْمَالِهِ مِنْ سِجِلْمَاسَةَ وَغَيْرِهَا، وَشَرَّدَ زِيرِي بْنَ عَطِيَّةَ إِلَى تَاهَرْتَ[2]، فَأَبْعَدَ الْمَفَرَّ، وَهَلَكَ فِي مَفَرِّهِ

فقاتله المنصور بجيش أعاش اليه زيرى بن عطية ومن معه من بنى خزر فى جموع مغراوة فهزم جيش العزيز، ثم عقد المنصور بن أبى عامر على المغرب الأقصى للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى سنة ٣٧٦ بملوك مغراوة خصوصا زيرى فسار الحسن بن أحمد حتى نزل بفاس وضبط أعمال المغرب، وتوفى مقاتل بن عطية سنة ٣٧٨ واستقل أخوه زيرى بن عطية برياسة مغراوة، و بعد وفاة الحسن بن أحمد بن عبد الودود سنة ٣٨١ عقد المنصور على المغرب لزيرى بن عطية وكتب اليه بعهده وأمره بضبط المغرب فاستفحل ملكه وغلب على تلمسان واختط مدينة وجدة سنة ٣٨٤ وأنزل بها عساكره، ثم فسد مابينه و بين المنصور فعقد المنصور لمولاه واضح على المغرب وجهزه لحرب زيرى بن عطية فى جيش عظيم ثم أتبعه المنصور ابنه المظفر عبد الملك فهزم زيرى وجرح فى المعركة وفر الى فاس فامتنع عليه أهلها فلحق بالصحراء جريحا، ثم شبت الحرب بينه و بين صنهاجة بالمغرب الأوسط وفتح تاهرت وتلمسان وأعمالها وأقام الدعوة فيها لهشام بن عبد الملك خليفة الأندلس وحاجبه المنصور من بعده و بقى على ذلك حتى توفى سنة ٣٩١ و بويع من بعده ابنه المعز بن زيرى فجرى على سنن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصور من بعده حتى توفى المنصور. و بقى المعز فى ولايته حتى توفى سنة ٤١٧ «أحمد يوسف نجاتى»

(١) التأفف: التضجر والغضب (٢) تاهرت أو تيهرت مدينة بمملكة تونس

ذَلِكَ . ثُمَّ قَفَلَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ إِلَى قُرْطُبَةَ وَٱسْتَعْمَلَ مَوْلَاهُ وَاضِحًا عَلَى ٱلْمَغْرِبِ . وَهَلَكَ ٱلْمَنْصُورُ أَعْظَمَ مَا كَانَ مُلْكًا ، وَأَشَدَّ ٱسْتِيلَاءً ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ، بِمَدِينَةِ سَالِمٍ مُنْصَرَفَهُ مِنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ ، وَدُفِنَ هُنَالِكَ ، وَذَلِكَ لِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مِنْ مُلْكِهِ . ٱنْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ ، وَبَعْضُهُ بِالْمَعْنَى وَزِيَادَةٍ يَسِيرَةٍ . وَلَا بَأْسَ أَنْ نَزِيدَ عَلَيْهِ فَنَقُولَ : مِمَّا حُكِيَ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى قَبْرِ ٱلْمَنْصُورِ – رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى – :

آثَارُهُ تُنْبِيكَ عَنْ أَخْبَارِهِ
حَتَّى كَأَنَّكَ بِالْعِيَانِ تَرَاهُ
تَاللهِ لَا يَأْتِي ٱلزَّمَانُ بِمِثْلِهِ
أَبَدًا وَلَا يَحْمِي ٱلثُّغُورَ سِوَاهُ

من أعمال بجاية وكانت قاعدة المغرب الأوسط ، وكانت فى القديم مدينتين القديمة وكانت مدينة جليلة حتى سموها بغداد المغرب ، وتاهرت الجديدة على مرحلة منها وهى أعظم من القديمة خصبة كثيرة الزرع وكانت بها البساتين المونقة والفواكه الحسنة ، وهى شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج والأنداء والضباب والأمطار

***

رأى بن هود

وَعَنْ شُجَاعٍ مَوْلَى ٱلْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودٍ : لَمَّا تَوَجَّهْتُ إِلَى أَذْفُونْشَ وَجَدْتُهُ فِي مَدِينَةِ سَالِمٍ ، وَقَدْ نَصَبَ عَلَى قَبْرِ ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ سَرِيرَهُ ، وَٱمْرَأَتُهُ مُتَّكِئَةٌ إِلَى جَانِبِهِ ، فَقَالَ لِي يَاشُجَاعُ : أَمَا تَرَانِي قَدْ مَلَكْتُ بِلَادَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَجَلَسْتُ عَلَى قَبْرِ مَلِكِهِمْ ؟ قَالَ فَحَمَلَتْنِي ٱلْغَيْرَةُ أَنْ قُلْتُ لَهُ : لَوْ تَنَفَّسَ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْقَبْرِ وَأَنْتَ عَلَيْهِ مَا سَمِعَ مِنْكَ مَا يُكْرَهُ سَمَاعُهُ ، وَلَا ٱسْتَقَرَّ بِكَ قَرَارٌ ، فَهَمَّ بِي فَحَالَتِ ٱمْرَأَتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : صَدَقَكَ فِيمَا قَالَ ، أَيَفْخَرُ مِثْلُكَ بِمِثْلِ هٰذَا ؟ .

***

فذلكة في تاريخ المنصور

وَهٰذَا تَلْخِيصُ تَرْجَمَةِ ٱلْمَنْصُورِ مِنْ كَلَامِ ٱبْنِ سَعِيدٍ . قَالَ — رَحِمَهُ ٱللّٰهُ — : تَرْجَمَةُ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَعْظَمِ ٱلْمَنْصُورِ أَبِي عَامِرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ أَبِي عَامِرِ ٱبْنِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلْمَعَافِرِيِّ مِنْ قَرْيَةِ تَرْكَشَ (١) ، وَعَبْدُ ٱلْمَلِكِ جَدُّهُ هُوَ ٱلْوَافِدُ عَلَى ٱلْأَنْدَلُسِ مَعَ

(١) المعروف أن أصله من الجزيرة الخضراء « وهي مدينة مشهورة

طَارِقٍ فِي أَوَّلِ الدَّاخِلِينَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَمَّا الْمَنْصُورُ فَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ حَيَّانَ فِي كِتَابِهِ الْمَخْصُوصِ بِالدَّوْلَةِ الْعَامِرِيَّةِ ، وَالْفَتْحُ فِي الْمَطْمَحِ ، وَالْحِجَارِيُّ فِي الْمُسْهِبِ ، وَالْقَشَنْدِيُّ[1] فِي الطُّرَفِ ، وَذَكَرَ الْجَمِيعُ أَنَّ أَصْلَهُ مِنْ قَرْيَةِ تَرْكُشَ ، وَأَنَّهُ رَحَلَ إِلَى قُرْطُبَةَ وَتَأَدَّبَ بِهَا ، ثُمَّ اقْتَعَدَ[2] دُكَّانًا عِنْدَ بَابِ الْقَصْرِ يَكْتُبُ فِيهِ لِمَنْ يَعِنُّ لَهُ كُتُبٌ مِنَ

من أشرف المدن وأطيبها أرضا مايلى جبل الفتح من المغرب على الساحل . وكانت آخر البلاد البحرية الاسلامية للأندلس وهى من كور اشبيلية مما يلى جانب نهرها من الجنوب – والى الشمال منها كورة أركش وهى من كور اشبيلية الجنوبية ، وأركش مدينة ومعقل فى غاية المنعة « على نهير يصب فى البحر عند جزيرة قادس » (١) كذا بالأصل وقد يكون محرفا عن الشقندى فهناك أبو عمر أحمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الكلاعى القرطبي ، وكان يسكن عدوة النهر بشقندة وكان فقيها صالحا ثقة وتوفى سنة ٣٩١ وأبو محمد عبد الله بن عبيد الله بن وجيه ابن عبد الله الكلاعى الشقندى من أهل قرطبة أيضا كان محدثا جليلا أخذ عنه هشام بن محمد بن هلال المتوفى سنة ٤٢٠ وأخوه قاسم بن محمد ابن هلال المتوفى سنة ٤٥٨ – وقتندة بلدة بالأندلس ثغر سرقسطة استشهد بها سنة ٥١٤ امام المحدثين بالأندلس أبو على الحسين بن محمد ابن فيره السرقسطى الصدفى ، واستشهد بهذه الوقعة أيضا أبو عبد الله محمد بن يحيي بن عبد الله بن زكريا قاضى مدينة المرية ، وسيأتى نقله عن الشقندى كثيرا (٢) اقتعد دكانا : اتخذ له دكانا يقعد فيه

اَلْخَدَمِ وَالْمَرَافِقِينَ لِلسُّلْطَانِ ، إِلَى أَنْ طَلَبَتِ السَّيِّدَةُ صُبْحُ أُمُّ الْمُؤَيَّدِ مَنْ يَكْتُبُ عَنْهَا، فَعَرَّفَهَا بِهِ مَنْ كَانَ يَأْنَسُ إِلَيْهِ بِالْجُلوسِ مِنْ فِتْيَانِ الْقَصْرِ ، فَتَرَقَّى إِلَى أَنْ كَتَبَ عَنْهَا فَاسْتَحْسَنَتْهُ ، وَنَبَّهَتْ عَلَيْهِ الْحَكَمَ ، وَرَغِبَتْ فِي تَشْرِيفِهِ بِالْخِدْمَةِ ، فَوَلَّاهُ قَضَاءَ بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ، فَظَهَرَتْ مِنْهُ نَجَابَةٌ فَتَرَقَّى إِلَى الزَّكَاةِ وَالْمَوَارِيثِ بِإِشْبِيلِيَةَ ، وَتَمَكَّنَ فِي قَلْبِ السَّيِّدَةِ بِمَا اسْتَمَالَهَا بِهِ مِنَ التُّحَفِ وَالْخِدْمَةِ مَا لَمْ يَتَمَكَّنْ لِغَيْرِهِ ، وَلَمْ يُقَصِّرْ مَعَ ذَلِكَ فِي خِدْمَةِ الْمُصْحَفِيِّ الْحَاجِبِ ، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ الْحَكَمُ

***

هشام بن الحكم

وَوَلِيَ ابْنُهُ هِشَامٌ الْمُؤَيَّدُ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَجَاشَتِ[1] الرُّومُ ، فَجَهَّزَ الْمُصْحَفِيُّ ابْنَ أَبِي عَامِرٍ لِدِفَاعِهِمْ ، فَنَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قلوبِ النَّاسِ ، وَكَانَ جَوَادًا عَاقِلًا ذَكِيًّا ، اسْتَعَانَ بِالْمُصْحَفِيِّ عَلَى الصَّقَالِبَةِ ، ثُمَّ بِغَالِبٍ عَلَى الْمُصْحَفِيِّ ، وَكَانَ غَالِبٌ صَاحِبَ

(١) أى تحركت واستعدت، وجاشت الحرب بين الطائفتين اذا بدأت أن تغلى وتشتعل نارها. ومن المجاز جاش صدره اذا غلى غيظا ، وجاش البحر : اذا هاج واضطربت أمواجه

مَدِينَةِ سَالِمٍ ، وتَزَوَّجَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ ٱبْنَتَهُ أَسْمَاءَ ، وَكَانَ أَعْظَمَ عُرْسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، ثُمَّ بِجَعْفَرِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلْأَنْدَلُسِيِّ مَمْدُوحِ ٱبْنِ هَانِئٍ عَلَى غَالِبٍ ، ثُمَّ بِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ هِشَامٍ ٱلتُّجِيبِيِّ عَلَى جَعْفَرٍ ، وَلَهُ فِي ٱلْحَزْمِ وَٱلْكَيْدِ وَٱلْجَلَدِ مَا أَفْرَدَ لَهُ ٱبْنُ حَيَّانَ تَأْلِيفاً . وَعَدَدُ غَزَوَاتِهِ ٱلْمُنْشَأَةِ مِنْ قُرْطُبَةَ نَيِّفٌ وَخَمْسُونَ غَزْوَةً وَلَمْ تُهْزَمْ لَهُ رَايَةٌ ، وَقَبْرُهُ بِمَدِينَةِ سَالِمٍ فِي أَقْصَى شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْ شِعْرِهِ :

زَمَيْتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ
وَخَاطَرْتُ وَٱلْحُرُّ ٱلْكَرِيمُ يُخَاطِرُ
وَمَا صَاحِبِي إِلَّا جَنَانٌ مُشَيَّعٌ(١)
وَأَسْمَرُ خَطِّيٌّ وَأَبْيَضُ بَاتِرُ(٢)

---

(١) الجنان : القلب ، والمشيع :الشجاع القوي الجرىء ، وسمى به لأن قلبه لايخذله كأنه يشيعه بغيره أو بقوة قلبه ، أو شيع قلبه بما يركب به كل هول ، ويقال قدشيعته نفسه على ذلك وشايعته ، أى تبعته وشجعته ، وشيع فلانا اذا شجعه وجرأه وقواه ، ومنه تشييع النار بالقاء الحطب عليها لقوتها قال كثير :

فياقلب كن عنها صبورا فانها يشيعها بالصبر قلب مشيع

(٢) الأسمر الرمح ، والخطى منسوب الى الخط موضع باليمامة وهو خط هجر

فَسُدْتُ بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ

وَفَاخَرْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ أُفَاخِرُ

وَمَا شِدْتُ بُنْيَانًا وَلَـكِنْ زِيَادَةً

عَلَى مَا بَنَى عَبْدُ ٱلْمَلِيكِ(١) وَعَامِرُ

رَفَعْنَا ٱلْعَوَالِيَ بِالْعَوَالِي مِثْلَهَا

وَأَوْرَثْنَاهَا فِي ٱلْقَدِيمِ مَعَافِرُ(٢)

وَجُودُهُ مَعَ صَاعِدٍ ٱلْبَغْدَادِيِّ ٱللُّغَوِيِّ(٣) مَشْهُورٌ .

تنسب اليه الرماح الخطية لأنها كانت تحمل من بلاد الهند فتقوم به ، وقيل الخط مرفأ السفن بالبحرين واليه تنسب الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها وهي نسبة جرت مجرى الاسم العلم وقد كثر مجيئه في أشعار العرب ، قال زهير :

وهل ينبت الخطي الاوشيجه وتغرس الا في منابتها النخل ؟

وقال عمرو بن كلثوم :

بسمر من قنـا الخطي لدن ذوابل أو ببيض يختلينـا

وقال غيره :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

والأبيض : السيف ، والباتر : الحاد القاطع (١) هما من جدوده كما ترى في نسبته (٢) العالية : القناة المستقيمة ، يعني أنهم شيدوا لأنفسهم مجدا ساميا قديما متوارثا بالشجاعة والحروب . ويروى صدر البيت : * رفعنا العوالي بالعوالي حديثة * (٣) هو أبو العلاء صاعد بن الحسن ابن عيسى الربعي اللغوي البغدادي ، رحل الى الاندلس في أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور بن أبي عامر حوالى سنة ٣٨٠ وكان صاعد عالما

***

هشام عبد الملك ابن شهيد

وَصَدَرَ عَنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ شُهَيْدٍ وَكَانَ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْهُ :

أَنَا شَيْخٌ وَالشَّيْخُ يَهْوَى الصَّبَايَا
يَا بِنَفْسِي أَقِيكَ كُلَّ الرَّزَايَا

وَرَسُولُ الْإِلٰهِ أَسْهَمَ فِي الْفَيْ
ءِ لِمَنْ لَمْ يَخُبَّ(١) فِيهِ الْمَطَايَا

باللغة والأخبار والآداب سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة ممتع الحديث فأكرمه المنصور وزاد فى الاحسان اليه والافضال عليه، وكان مع ذلك محسنا فى السؤال حاذقا فى استخراج الأموال، وجمع له كتاب الفصوص فى اللغة والأدب نحا فيه منحى أبى على القالى فى أماليه وأثابه عليه خمسة آلاف دينار. ولما كان صاعد متهما بالكذب فى نقله والوضع فى حديثه رفض الناس كتابه، ولما ظهر للمنصور جراءته على العلم وعدم أمانته فى النقل وقلة تثبته فى الرواية رمى كتاب الفصوص فى النهر لأنه قيل له ان جميع مافيه لاصحة له، فقال بعض شعراء عصره :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص ... وهكذا كل ثقيل يغوص

فلما سمع صاعد هذا البيت أنشد :

عاد الى عنصره انما ... يخرج من قعر البحور الفصوص

وتوفى صاعد بصقلية سنة ٤١٧ ـ عفا الله عنه ـ (١) الخبب : الاسراع فى العدو، وخبت المطى وأخبها صاحبها، يعنى أنه عليه الصلاة والسلام ربما جعل فى الغنيمة سهما لمن لم يحضرها ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب

فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِثَلَاثِ جَوَارٍ مِنْ أَجْمَلِ السَّبْيِ ، وَكَتَبَ مَعَهُنَّ ، وَكَانَتْ وَاحِدَةٌ أَجْمَلَهُنَّ، قَوْلَهُ :

قَدْ بَعَثْنَا بِهَا كَشَمْسِ النَّهَارِ
فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَهَا[1] أَبْكَارِ
وَامْتَحَنَّا بِعُذْرَةِ الْبِكْرِ إِنْ كُنْـ
ـتَ تُرَجِّي بَوَادِرَ الْإِعْذَارِ
فَاجْتَهِدْ وَابْتَدِرْ فَإِنَّكَ شَيْخٌ
قَدْ جَلَا لَيْلَهُ بَيَاضُ النَّهَارِ
صَانَكَ اللَّهُ مِنْ كَلَالِكَ فِيهَا
فَمِنَ الْعَارِ كِلَّةُ[2] الْمِسْمَارِ

فَافْتَضَّهُنَّ مِنْ لَيْلَتِهِ، وَكَتَبَ لَهُ بُكْرَةً :

---

(١) المهاة : البقرة الوحشية ، والبلورة التى تبص من بياضها وصفائها، فاذا شبهت المرأة بالمهاة من البياض فانما يراد صفاء لونها وإذا شبهت بها فى حسن العينين فانما تعنى البقرة فى حسن عينيها، و بها يضرب المثل فى سمن المرأة وجمالها وشدة ميلها الى الرجل ، وقال جميل :

لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة كأن أباها الظبى أو أمهاتها

(٢) كلة المسمار وكلاله : عدم نفاذه .

قَدْ فَضَضْنَا خِتَامَ ذَاكَ ٱلسِّوَارِ
وَٱصْطَبَغْنَا مِنَ ٱلنَّجِيعِ[1] ٱلْجَارِى
وَصَبَرْنَا عَلَى دِفَاعٍ وَحَرْبٍ
فَلَعِبْنَا بِٱلدُّرِّ أَوْ بِٱلدَّرَارِى
وَقَضَى ٱلشَّيْخُ مَا قَضَى بِحُسَامٍ
ذِى مَضَاءٍ عَضْبِ ٱلظُّبَا بَتَّارِ
فَٱصْطَنِعْهُ فَلَيْسَ يَجْزِيكَ كُفْرًا
وَٱتَّخِذْهُ فَحْلًا عَلَى ٱلْكُفَّارِ[2]

(١) اصطبغنا : ائتدمنا . والنجيع الجارى : المراد دم البكارة — يريد أنه قضى وطرا منهن (٢) لايخفى مافى هذه الأبيات والتى قبلها من الكنايات التى هى فى مثل هذا المقام أبلغ من الافصاح وأستر من التصريح ، ومثل هذه الكناية قول بعض الظرفاء فيمن عاقه عن اقتحام مثل هذه المعركة عذر ذات العذرة :

فارس ماض بحربته ... مولع بالطعن فى الظلم
رام أن يدمى فريسته ... فاتقته من دم بدم

وللصاحب بن عباد فى هذا المعنى الا أنه أقرب الى التصريح :

قلبى على الجمرة ياأبا العلا ... فهل فتحت الموضع المقفلا؟
وهل فككت الختم عن كيسه ... وهل كحلت الناظر الأكحلا؟؟
ان قلت ياهذا نعم صادقا ... أبعث نثارا يملأ المنزلا
وان تجبنى من حياء بلا ... أبعث اليك القطن والمغزلا

وكتب الأستاذ ابن العميد الى أبى الحسن بن هند وصبيحة عرسه من أبيات :

***

التاجر والحدأة

وَقَدِمَ بَعْضُ ٱلتُّجَّارِ وَمَعَهُ كِيسٌ فِيهِ يَاقُوتٌ نَفِيسٌ، فَتَجَرَّدَ لِيَسْبَحَ فِي ٱلنَّهْرِ وَتَرَكَ ٱلْكِيسَ - وَكَانَ أَحْمَرَ - عَلَى ثِيَابِهِ، فَرَفَعَتْهُ حِدَأَةٌ فِي مَخَالِبِهَا، فَجَرَى تَابِعاً لَهَا وَقَدْ ذُهِلَ، فَتَغَلْغَلَتْ[1] فِي ٱلْبَسَاتِينِ، وَٱنْقَطَعَتْ عَنْ عَيْنِهِ، فَرَجَعَ مُتَحَيِّراً فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى بَعْضِ مَنْ يَأْنَسُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: صِفْ حَالَكَ لِابْنِ أَبِي عَامِرٍ، فَتَلَطَّفَ فِي وَصْفِ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: نَنْظُرُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِكَ، وَجَعَلَ يَسْتَدْعِي أَصْحَابَ تِلْكَ ٱلْبَسَاتِينِ، وَيَسْأَلُ خُدَّامَهَا عَمَّنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ تَبْدِيلُ حَالٍ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ شَخْصًا يَنْقُلُ ٱلزِّبْلَ ٱشْتَرَى حِمَارًا، وَظَهَرَ مِنْ حَالِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِمَجِيئِهِ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ أَحْضِرِ ٱلْكِيسَ ٱلْأَحْمَرَ، فَتَمَلَّكَ ٱلرُّعْبُ قَلْبَهُ وَٱرْتَعَشَ وَقَالَ: دَعْنِي آتِي بِهِ مِنْ مَنْزِلِي، فَوَكَّلَ بِهِ مَنْ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَجَاءَ بِٱلْكِيسِ وَقَدْ نَقَصَ مِنْهُ

قد رضت طرفك خاليا فهل استلنت له جماحا؟
وقدحت زندك جاهدا فهل استبنت له انقداحا؟
وطرقت منغلقا فهل سن الاله له انفتاحا ؟

(١) فتغلغلت الخ: فدخلت فيها وأوغلت واختفت عن الأبصار

مَالَا يَقْدَحُ فِي مَسَرَّةِ صَاحِبِهِ، فَجَبَرَهُ[1] وَدَفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ. فَقَالَ: وَاللهِ لَأُحَدِّثَنَّ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا أَنَّ ابْنَ أَبِي عَامِرٍ يَحْكُمُ عَلَى الطُّيُورِ وَيُنْصِفُ مِنْهَا، وَالْتَفَتَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ إِلَى الزَّبَّالِ فَقَالَ لَهُ: لَوْ أَتَيْتَ بِهِ أَغْنَيْنَاكَ، لَكِنْ تَخْرُجُ كَفَافًا[2] لَا عِقَابًا وَلَا ثَوَابًا. وَتُوُفِّيَ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي غَزَاتِهِ لِلْإِفْرَنْجِ بِصَفَرٍ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ، وَحُمِلَ فِي سَرِيرِهِ عَلَى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ، وَعَسْكَرُهُ يَحُفُّ بِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ سَالِمٍ، وَدَامَتْ دَوْلَتُهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً، غَزَا فِيهَا اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ غَزْوَةً، وَاحِدَةٌ فِي الشِّتَاءِ وَأُخْرَى فِي الصَّيْفِ. انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ سَعِيدٍ، وَفِي بَعْضِهِ مُخَالَفَةٌ لِبَعْضِ كَلَامِ ابْنِ خَلْدُونَ

---

(١) جبره: أى آعه (٢) يفسره مابعده، وقال المجنون:

فيارب سو الحب بينى وبينها ... يكون كفافا لا على ولا ليا

***

جعفر بن عثمان المصحفي

وَقَالَ ٱلْفَتْحُ فِي ٱلْمَطْمَحِ فِي حَقِّ ٱلْمُصْحَفِيِّ* ٱلْحَاجِبِ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ ٱلْمُصْحَفِيِّ مَا صُورَتُهُ : تَجَرَّدَ لِلْعَلْيَا ، وَتَمَرَّدَ[1] فِي طَلَبِ ٱلدُّنْيَا ، حَتَّى بَلَغَ ٱلْمُنَى ، وَتَسَوَّغَ[2] ذَلِكَ ٱلْجَنَى ، وَوَصَلَ إِلَى ٱلْمُنْتَهَى ، وَحَصَلَ عَلَى مَا ٱشْتَهَى ، دُونَ مَجْدٍ تَفَرَّعَ مِنْ دَوْحَتِهِ ، وَلَا فَخْرٍ نَشَأَ بَيْنَ مَغْدَاهُ وَرَوْحَتِهِ ،

(١) تمرد الخ: عصى وجاوز حدمثله ، ولم يقبل موعظة (٢) طاب له هنيئا سائغا

* ترجم له فى كتاب بغية الملتمس للضبى « ج٣ ص ٢٤٠ » من المكتبة الأندلسية بترجمة موجزة نذكرها :

جعفر بن عثمان أبو الحسن الوزير الحاجب المعروف بابن المصحفى ، كان من أهل العلم والأدب البارع ، وله شعر كثير رائع ، يدل على قوة طبعه ، وسعة أدبه ، وهو كان الوزير الناظر فى الأمور قبل المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ثم «ندى(١) » المنصور بصبح وتعويلها عليه ، وتغلب فنكب جعفرا ومات فى تلك النكبة ، أنشد له أبو محمد بن حزم :

ياذا الذى أودعنى سره	لاترج أن تسمعه منى
لم أجره بعدك فى خاطرى	كأنه مامر فى أذنى

وله :

أجارى الزمان على حاله	مجاراة نفسى لأنفاسها
اذا نفس صاعد شفها	توارت به دون جلاسها
وان عكفت نكبة للزمان	عكفت بصدرى على رأسها

(١) أى اجتمع ولعلها محرفة عن « وترقى »

فَسَمَا دُونَ سَابِقَةٍ ، وَرَمَى إِلَى رُتْبَةٍ لَمْ تَكُنْ لِنَفْسِهِ مُطَابِقَةً ، فَبَلَغَ بِنَفْسِهِ ، وَنَزَعَ[١] عَنْ جِنْسِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَفِلُ[٢] وَيَطْلُعُ ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ مَطْلَعٍ إِلَى مَطْلَعٍ ، حَتَّى الْتَاحَ[٣] فِي أُفُقِ الْخِلَافَةِ ، وَارْتَاحَ إِلَيْهِ[٤] مُعْظَمُهَا كَنَشْوَانِ السُّلَافَةِ ، وَاسْتَوْزَرَهُ الْمُسْتَنْصِرُ ، وَعَنْهُ قَدْ كَانَ يَسْمَعُ وَبِهِ يُبْصِرُ ، وَحَجَبَ[٥] الْإِمَامَ ، وَأَسْكَبَ بِرَأْيِهِ ذَلِكَ الْغَمَامَ[٦] ، فَأَدْرَكَ لِذَلِكَ مَا أَدْرَكَ ، وَنَصَبَ لِأَمَانِيِّهِ الْحَبَائِلَ وَالشَّرَكَ ، فَاقْتَنَى اقْتِنَاءَ مُدَّخِرٍ ، وَأَزْرَى بِمَنْ سِوَاهُ وَسَخِرَ ، وَاسْتَعْطَفَهُ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَنَجْمُهُ غَائِرٌ لَمْ يَلُحْ[٧] ، وَسِرُّهُ مَكْتُومٌ لَمْ يَبُحْ ، فَمَا عَطَفَ ، وَلَا جَنَى مِنْ رَوْضَةِ دُنْيَاهُ

---

(١) أي ابتعد (٢) أي ينزل و ينخفض (٣) لاح النجم وألاح : بدا وأضاء وأشرق ، قال المتلمس :

وقد ألاح سهيل بعد ماهجعوا كأنه ضرم بالكف مقبوس

(٤) في المطمح : وارتاح اليها بعطفه ولعل « معظمها » في الأصل محرفة عن « معطفها » وهو أحسن ، وارتاح الانسان الى الشيء وراح يراح اذا نشط وسر به ، ومنه راح للمعروف يراح راحة اذا أخذته له هزة وأريحية ، والسلافة والسلاف : الخمر وهو أول مايعصر منها وأخلصها وأفضلها (٥) أي كان حاجبا له ، والأحسن أن تكون : وحجب للامام ، فانه يقال فلان يحجب للأمير اذا كان حاجبا له (٦) يريد أنه نال نوال الأمير الجم وكان حاذقا في استدرار بره وانعامه وأنه كان يحسن التصرف في أمور الدولة بأصالة رأيه (٧) أي قبل أن يشرق طالع سعده .

وَلَا قَطَفَ ، وَأَقَامَ فِي تَدْبِيرِ الْأَنْدَلُسِ مَا أَقَامَ وَبُرْهَانُهُ[1] مُسْتَقِيمٌ ، وَمِنَ الْفِتَنِ عَقِيمٌ ، وَهُوَ يَجْرِي مِنَ السَّعْدِ فِي مَيْدَانٍ رَحْبٍ ، وَيَكْرَعُ[2] مِنَ الْعِزِّ فِي مَشْرَبٍ عَذْبٍ ، وَيَفُضُّ[3] خِتَامَ السُّرُورِ ، وَيَنْهَضُ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى لَبِنَةٍ مَزْرُورٍ[4] ، وَكَانَ لَهُ أَدَبٌ بَارِعٌ ، وَخَاطِرٌ إِلَى نَظْمِ الْقَرِيضِ مُسَارِعٌ ، فَمِنْ مَحَاسِنِهِ الَّتِي بَعَثَهَا إِينَاسُ دَهْرِهِ وَإِسْعَادُهُ ، وَقَالَهُ حِينَ أَلْهَتْهُ سَلْمَاهُ وَسُعَادُهُ ، قَوْلُهُ :

لِعَيْنَيْكَ فِي قَلْبِي عَلَيْكَ شُجُونُ
وَبَيْنَ ضُلُوعِي لِلشُّجُونِ فُنُونُ

نَصِيبِي مِنَ الدُّنْيَا هَوَاكَ وَإِنَّهُ ... غِذَائِي وَلَكِنِّي عَلَيْهِ ضَنِينُ

وَسَتَأْتِي هَذِهِ التَّرْجَمَةُ مِنَ الْمَطْمَحِ الصَّغِيرِ

---

(١) برهانه مستقيم: البرهان، الدليل — أي طريقه معتدل. (٢) في الأصل (وباع) وأظنها محرفة عن (ويكرع) يقال كرع في الماء والاناء اذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا باناء ، أو أن يدخل النهر ثم يشرب حتى يروى (٣) الفض في الاصل: فك خاتم الكتاب يقال فضضت الخاتم عن الكتاب وفضضت ختمه ، و يستعمل مجازا في غير الكتاب كما قال الفرزدق :

فبتن بجانبي مصرعات ... وبت أفض أغلاق الختام

(٤) في أصل آخر: وينهض بملك على لبنته مزرور ولا بأس بها (أي بملك تام حسن مرغوب فيه)

- إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى - بِمَا فِيهِ بَعْضُ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ فِي ٱلْبَابِ ٱلرَّابِعِ .

***

غزو ابن أبي عامر بلاد الشرك

وَقَالَ فِي ٱلْمَطْمَحِ فِي حَقِّ ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ : إِنَّهُ تَمَرَّسَ بِبِلَادِ ٱلشِّرْكِ أَعْظَمَ تَمَرُّسٍ (١)، وَمَحَا مِنْ طَوَاغِيتِهَا كُلَّ تَعَجْرُفٍ وَتَغَطْرُسٍ (٢)، وَغَادَرَهُمْ صَرْعَى ٱلْبِقَاعِ ، وَتَرَكَهُمْ أَذَلَّ مِنْ وَتِدٍ بِقَاعٍ (٣) ، وَوَالَى عَلَى بِلَادِهِمُ ٱلْوَقَائِعَ ،

(١) تمرس بالشيء وامترس به : احتك ، وتمارسوا في الحرب : اذا تضاربوا ومارسه : عالجه وزاوله ، والمراسة الشدة ، ورجل مرس: شديد .

(٢) يطلق الطاغوت على الكاهن والأصنام ورأس كل ضلال، وكل ما عبد من دون الله ، وعلى مردة أهل الكتاب، والطاغية: الجبار العنيد ، والأحمق المتكبر الظالم . والتعجرف: التكبر والجفوة ، وهو يتعجرف عليهم اذا كان يركبهم بما يكرهون ولا يهاب شيئا ، والتغطرس: الكبر والتطاول والغطرسة: الاعجاب بالنفس والظلم والتعسف (٣) القاع :أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية حرة لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط قد انفرجت عنها الجبال والآكام وليس فيها حصا ولا حجارة ولا تنبت الشجر وما حواليها أرفع منها ، فيكون الوتد المدقوق فيها ظاهرا مكشوفا لكل شيء لا يحجبه حاجز ما، ويضرب المثل في الرضا بالذل والمقام على الهوان بالوتد والعير الأهلي كما قال المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به ... الا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثى له أحد

ولهذا يقال فلان ثالث الأذلين ، وفقرة المطمح مأخوذة من قول عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت :

وَسَدَّدَ إِلَى أَكْبَادِهِمْ سِهَامَ ٱلْفَجَائِـعِ ، وَأَغَصَّ بِالْحِمَامِ أَرْوَاحَهُمْ ، وَنَغَّصَ بِتِلْكَ ٱلْآلَامِ بُكُورَهُمْ وَرَوَاحَهُمْ ، وَمِنْ أَوْضَحِ ٱلْأُمُورِ هُنَالِكَ ، وَأَفْصَحِ ٱلْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ ، أَنَّ أَحَدَ رُسُلِهِ كَانَ كَثِيرَ ٱلِانْتِيَابِ(١) لِذَلِكَ ٱلْجَنَابِ ، فَسَارَ فِي بَعْضِ مَسِيرَاتِهِ إِلَى غَرْسِيَةَ صَاحِبِ ٱلْبَشْـكَنْسِ ، فَوَالَى فِي إِكْرَامِهِ ، وَتَنَاهَي فِي بِرِّهِ وَاُحْتِرَامِهِ ، فَطَالَتْ مُدَّتُهُ ، فَلَا مُتَنَزَّهَ إِلَّا مَرَّ عَلَيْهِ مُتَفَرِّجًا ، وَلَا مَنْزِلَ إِلَّا سَارَ عَلَيْهِ مُعَرِّجًا ، فَحَلَّ فِي ذَلِكَ ، أَكْثَرَ ٱلْـكَنَائِسِ هُنَالِكَ .

***

قصة امرأة أسيرة

فَبَيْنَمَا هُوَ يَجُولُ فِي سَاحَتِهَا ، وَيُجِيلُ ٱلْعَيْنَ فِي مِسَاحَتِهَا ، إِذْ عَرَضَتْ لَهُ اُمْرَأَةٌ قَدِيمَةُ(٢) ٱلْأَسْرِ ، قَوِيَةٌ عَلَى طُولِ ٱلْـكَسْرِ(٣) فَـكَلَّمَتْهُ وَعَرَّفَتْهُ بِنَفْسِهَا وَأَعْلَمَتْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : أَيَرْضَى ٱلْمَنْصُـورُ أَنْ يَنْسَى بِتَنَعُّمِهِ بُوسَهَا ،

ولولاهم لـكنت كحوت بحر ... هوى فى مظلم الغمرات داجي
وكنت أذل من وتد بقاع ... يشجج رأسه بالفهر واجى

الفهر : حجر يدق به ، والواجي أصله واجئ من وجأ الوتد : اذا دقه

(١) أى التردد ، والجناب : الناحية وماقرب من محلة القوم (٢) قد تـكون محرفة عن «قوية» (٣) يعنى أنها ذات احتمال لشدائد الدهر وقوة على ما نالها منه

وَيَتَمَتَّعَ بِلَبُوسِ الْعَافِيَةِ وَقَدْ نَضَّتْ(١) لَبُوسَهَا ، وَزَعَمَتْ أَنَّ لَهَا عِدَّةَ سِنِينَ بِتِلْكَ الْكَنِيسَةِ مُحْبَسَةً ، وَبِكُلِّ ذُلٍّ وَصَغَارٍ مُلْبَسَةً ، وَنَاشَدَتْهُ اللّهَ فِي إِنْهَاءِ قِصَّتِهَا ، وَإِبْرَاءِ غُصَّتِهَا ، وَاسْتَحْلَفَتْهُ بِأَغْلَظِ الْأَيْمَانِ ، وَأَخَذَتْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ أَوْكَدَ مَوَاثِيقِ الرَّحْمَنِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَنْصُورِ عَرَّفَهُ بِمَا يَجِبُ تَعْرِيفُهُ بِهِ وَإِعْلَامُهُ ، وَهُوَ مُصْغٍ إِلَيْهِ حَتَّى تَمَّ كَلَامُهُ ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : هَلْ وَقَفْتَ هُنَاكَ عَلَى أَمْرٍ أَنْكَرْتَهُ ، أَمْ لَمْ تَقِفْ عَلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتَهُ ؟ فَأَعْلَمَهُ بِقِصَّةِ الْمَرْأَةِ وَمَا خَرَجَتْ عَنْهُ(٢) إِلَيْهِ ، وَبِالْمَوَاثِيقِ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِ ، فَعَتَبَهُ وَلَامَهُ ، عَلَى أَنْ لَمْ يَبْدَأْ بِهَا كَلَامَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ لِلْجِهَادِ مِنْ فَوْرِهِ ، وَعَرَضَ مِنْ أَجْنَادٍ فِي نَجْدِهِ وَغَوْرِهِ(٣) ، وَأَصْبَحَ غَازِياً عَلَى سَرْجِهِ ،

(١) نضا ثوبه ونضاه « بالتشديد للكثرة » اذا ألقاه عن نفسه ، ونضاه من ثوبه : اذا جرده ، ونضا ثوبه عنه اذا خلعه . قال امرؤ القيس :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ... لدى الستر الا لبسة المتفضل

وأنضى الثوب اذا أبلاه وأخلقه بكثرة اللبس (٢) يريد بما باحت له به وما أفضت به اليه من أسرارها وأحوالها (٣) النجد : المكان المرتفع ضد الغور ، يريد عموم الأمكنة والجهات وأظن الأصل : وعرض من الأجناد من فى نجده وغوره

مُبَاهِياً مَرْوَانَ يَوْمَ مَرْجِهِ [١] ، حَتَّى وَافَى أبْنَ شَانْجَةَ فِي جَمْعِهِ ، فَأَخَذَتْ مَهَابَتُهُ بِبَصَرِهِ وَسَمْعِهِ ، فَبَادَرَ بِالْكِتَابِ إِلَيْهِ يَتَعَرَّفُ مَا الْجَلِيَّةُ ؟ وَيَحْلِفُ لَهُ بِأَعْظَمِ أَلِيَّةٍ [٢] ، أَنَّهُ مَا جَنَى ذَنْباً ، وَلَا جَفَا عَنْ مَضْجَعِ الطَّاعَةِ جَنْباً ، فَعَنَّفَ أَرْسَالَهُ وَقَالَ لَهُمْ : كَانَ قَدْ عَاقَدَنِي أَلَّا يَبْقَى بِبِلَادِهِ مَأْسُورَةٌ وَلَا مَأْسُورٌ ، وَلَوْ حَمَلَتْهُ فِي حَوَاصِلِهَا النُّسُورُ ، وَقَدْ بَلَغَنِي بَعْدُ بَقَاءُ فُلَانَةَ الْمُسْلِمَةِ فِي تِلْكَ الْكَنِيسَةِ ، وَوَاللهِ لَا أَنْتَهِي عَنْ أَرْضِهِ حَتَّى أَكْتَسِحَهَا [٣] . فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَرْأَةَ فِي اثْنَتَيْنِ مَعَهَا ، وَأَقْسَمَ أَنَّهُ مَا أَبْصَرَهُنَّ ، وَلَا سَمِعَ بِهِنَّ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْكَنِيسَةَ الَّتِي أَشَارَ بِعِلْمِهَا قَدْ بَالَغَ فِي هَدْمِهَا ، تَحْقِيقاً لِقَوْلِهِ ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ فِي

---

(١) يعنى مروان بن الحكم في مرج راهط « راهط اسم رجل من قضاعة » وكانت به واقعة مشهورة، ومرج راهط بدمشق بين قيس وتغلب ، ولما مات يزيد بن معاوية سنة ٦٥ وولى ابنه معاوية بن يزيد مائة يوم وكان ما كان وانقسم أهل الشام قسمين اجتمع حزب منهما الى الضحاك بن قيس الفهرى وحزب مع مروان و وقعت بينهما تلك الواقعة التى قتل فيها الضحاك واستقام الأمر لمروان. (٢) أى يمين وقسم (٣) من كسح البيت والبئر ونحوهما : كنسه ، وأغاروا عليهم فاكتسحوهم أى أفنوهم وأخذوا مالهم كله

ٱلْأَخْذِ فِيهِ بِطَوْلِهِ[1] فَاسْتَحْيَا مِنْهُ ، وَصَرَفَ ٱلْجَيْشَ عَنْهُ ، وَأَوْصَلَ ٱلْمَرْأَةَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَلْحَقَ[2] تَوَحُّشَهَا بِأُنْسِهِ ، وَغَيَّرَ مِنْ حَالِهَا ، وَعَادَ بِسَوَاكِبِ نُعْمَاهُ عَلَى جَدْبِهَا وَإِمْحَالِهَا ، وَحَمَلَهَا إِلَى قَوْمِهَا ، وَكَحَّلَهَا بِمَا كَانَ شَرَدَ مِنْ نَوْمِهَا. ٱنْتَهَى .

***

وصف ابن أبي عامر

وَقَالَ فِي ٱلْمَطْمَحِ أَيْضًا فِي حَقِّهِ مَا نَصُّهُ : فَزِدْنَا بِهِ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُ ، وَصَوَّبَهُ وَاسْتَحْزَمَهُ[3] ، فَإِنَّهُ كَانَ أَمْضَاهُمْ سِنَانًا وَأَذْكَاهُمْ جَنَانًا ، وَأَتَمَّهُمْ جَلَالًا ، وَأَعْظَمَهُمْ ٱسْتِقْلَالًا ، فَآلَ أَمْرُهُ إِلَى مَا آلَ ، وَأَوْهَمَ ٱلْعَقُولَ بِذَلِكَ ٱلْمَآلِ ، فَإِنَّهُ كَانَ آيَةَ ٱللَّهِ فِي ٱتِّفَاقِ سَعْدِهِ ، وَقُرْبِهِ مِنَ ٱلْمُلْكِ بَعْدَ بُعْدِهِ ، بَهَرَ بِرِفْعَةِ ٱلْقَدْرِ ، وَٱسْتَظْهَرَ بِالْأَنَاةِ[4] وَسَعَةِ ٱلصَّدْرِ ، وَتَحَرَّكَ فَلَاحَ نَجْمُ ٱلْهُدُوِّ ، وَتَمَلَّكَ فَمَا خَفَقَ بِأَرْضِهِ لِوَاءُ عَدُوٍّ ، بَعْدَ خُمُولٍ كَابَدَ مِنْهُ غُصَصًا وَشَرَقًا ، وَتَعَذُّرِ مَأْمُولٍ طَارَدَ فِيهِ سَهَرًا وَأَرَقًا ، حَتَّى أُنْجِزَ لَهُ ٱلْمَوْعُودُ ، وَفَرَّ نَحْسُهُ أَمَامَ تِلْكَ

(١) الطول والطائلة الفضل والمنة ، ويطلق أيضا على القدرة والغنى والسعة. وتطول عليهم وطال : امتن وأنعم (٢) فى بعض المراجع : وألحف (٣) نسبه الى الصواب والحزم وفى بعض المراجع : وصرفه واستخدمه (٤) الأناة : الصبر والحلم

ٱلسُّعُودِ؛ فَقَامَ بِتَدْبِيرِ ٱلْخِلَافَةِ ، وَأَقْعَدَ مَنْ كَانَ لَهُ فِيهَا إِنَافَةٌ(١)، وَسَاسَ ٱلْأُمُورَ أَحْسَنَ سِيَاسَةٍ ، وَدَاسَ ٱلْخُطُوبَ بِأَخْشَنِ دِيَاسَةٍ . فَٱنْتَظَمَتْ لَهُ ٱلْمَمَالِكُ ، وَٱتَّضَحَتْ بِهِ ٱلْمَسَالِكُ ، وَٱنْتَشَرَ ٱلْأَمْنُ فِي كُلِّ طَرِيقٍ ، وَٱسْتَشْعَرَ ٱلْيُمْنُ بِكُلِّ فَرِيقٍ ، وَمَلَكَ ٱلْأَنْدَلُسَ بِضْعًا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ، لَمْ تُدْحَضْ(٢) لِسَعَادَتِهَا حُجَّةٌ ، وَلَمْ تَزْخَرْ لِمَكْرُوهٍ بِهَا لُجَّةٌ ، لَبِسَتْ فِيهِ ٱلْبِلَادُ ٱلْإِشْرَاقَ، وَتَنَفَّسَتْ عَنْ مِثْلِ أَنْفَاسِ ٱلْعِرَاقِ(٣)، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ أَحْمَدَ أَيَّامٍ ، وَسِهَامُ بَأْسِهِ أَشَدَّ سِهَامٍ ، غَزَا ٱلرُّومَ شَاتِيًا وَصَائِفًا ، وَمَضَى فِيمَا يَرُومُ زَاجِرًا وَعَائِفًا(٤)

---

(١) أناف على الشيء اذا ارتفع وأشرف وتطلع اليه ، ويقال لكل مشرف على غيره انه لمنيف (٢) تدحض : تبطل ، والحجة : العام (٣) يشير الى قول الشاعر :

وشممت من أرض الشآ م نسيم أنفاس العراق ،

فى أبيات تقدمت فى الجزء الأول صفحة ١٥٣ وان كان لبعض أبياتها رواية أخرى (٤) زجر الطير زجرا : تفاءل به ، وهو يزجر الطير ويعافها وأصله أن يرمى الطائر بحصاة أو يصيح به فان ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به وان ولاه مياسره تطير منه ، وهو ضرب من التكهن يقول انه يكون كذا وكذا ، وقال الزجاج : للطير وغيرها التيمن بسنوحها والتشؤم ببروحها ، وعاف الطير وغيرها من السوانح عيافة أى زجرها وذلك أن يعتبر بأسمائها ومساقطها وممرها وأصواتها فيتسعد

فَمَا مَرَّ لَهُ غَيْرُ سَنِيحٍ (١) ، وَلَا فَازَ إِلَّا بِالْمُعَلَّى لَا بِالْمَنِيحِ (٢). فَأَوْغَلَ فِي تِلْكَ الشِّعَابِ ، وَتَغَلْغَلَ حَتَّى رَاعَ لَيْثَ الْغَابِ . وَمَشَى تَحْتَ أَلْوِيَتِهِ صِيدُ (٣) الْقَبَائِلِ ، وَاشْتَجَرَتْ (٤) فِي ظِلِّهَا بِيضُ الظُّبَا وَسُمْرُ الذَّوَابِلِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي الْأَرْوَاحَ

ويتشاءم ، وهو من عادة العرب ، وفى شعرهم كثير منه ، والعائف : المتكهن بالطير أو غيرها من السوانح (١) سنح الظبي سنوحا اذا مر من مياسرك الى ميامنك وهو ضد برح ، ومن أمثالهم : من لى بالسانح بعد البارح أى بالمبارك بعد الشؤم ، والسنيح : هو السانح وهو أحسن حالا من البارح عندهم فى التيمن (٢) المعلى : هو السهم الذى له سبعة أنصباء اذا فاز وهو أفضل قداحهم والمنيح : قدح بلا نصيب ، وهو من القداح الغفل التى ليست لها فرض ولا أنصباء ولا عليها غرم وانما يثقل بها القداح الأربعة التى ليس لها غنم ولا غرم أولها المصدر ثم الضعف ثم المنيح ثم السفيح وفى حديث جابر « كنت منيح أصحابى يوم بدر » أى لم أكن ممن يضرب له بسهم مع المجاهدين لصغرى فكنت بمنزلة السهم اللغو الذى لافوز له ولاخسر عليه ، أو المنيح السهم من سهام الميسر لانصيب له الا أن يمنح صاحبه شيئا (٣) جمع أصيد ومؤنثه صيداء ، وهو من رفع رأسه كبرا ، ومن لايلتفت من زهوه واعجابه يمينا ولا شمالا ، والأصيد أيضا الأسد لأنه يختال فى مشيته ولا يلتفت كأن به صيدا « وهو ميل العنق » (٤) أى اشتبكت وتدخلت ، ورماح شواجر ومشتجرة ومتشاجرة : متدخلة مختلفة ومتشابكة ، قال البحترى :

شواجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها

بِغَيْرِ سَوْمٍ [١] ، وَيَنْتَضِى ٱلصِّفَاحَ عَلَى كُلِّ رَوْمٍ [٢] ، وَيُتْلِفُ مَنْ يَنْسَاقُ لِلْخِلَافَةِ وَيَنْقَادُ [٣] ، وَيَخْطَفُ مِنْهُمْ كُلَّ كَوْكَبٍ وَقَّادٍ [٤] ، حَتَّى ٱسْتَبَدَّ وَٱنْفَرَدَ ، وَأَنِسَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلطَّاعَةِ مَانَفَرَ وَشَرَدَ ، . وَٱنْتَظَمَتْ لَهُ ٱلْأَنْدَلُسُ بِالْعُدْوَةِ ، وَٱجْتَمَعَتْ فِى مُلْكِهِ ٱجْتِمَاعَ قُرَيْشٍ بِدَارِ ٱلنَّدْوَةِ [٥] ، وَمَعَ هٰذَا لَمْ يَخْلَعِ ٱسْمَ ٱلْحِجَابَةِ ، وَلَمْ يَدَعِ ٱلسَّمْعَ لِخَلِيفَتِهِ وَٱلْإِجَابَةَ . ظَاهِرٌ يُخَالِفُهُ ٱلْبَاطِنُ ، وَٱسْمٌ تُنَافِرُهُ مَوَاقِعُ ٱلْحُكْمِ وَٱلْمَوَاطِنِ . وَأَذَلَّ قَبَائِلَ ٱلْأَنْدَلُسِ بِإِجَازَةِ ٱلْبَرَابِرِ ، وَأَخْمَلَ [٦] بِهِمْ أُولٰئِكَ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْأَكَابِرَ ، فَإِنَّهُ قَاوَمَهُمْ بِأَضْدَادِهِمْ ، وَٱسْتَكْثَرَ مِنْ أَعْدَادِهِمْ ، حَتَّى تَغَلَّبُوا عَلَى ٱلْجُمْهُورِ ، وَسَلَبُوا عَنْهُمُ ٱلظُّهُورَ ، وَوَثَبُوا عَلَيْهِمُ ٱلْوُثُوبَ ٱلْمَشْهُورَ ، ٱلَّذِى أَعَادَ

---

(١) أى يأخذها و يطلبها و يستولى عليها بدون أن يساوم أصحابها فى ثمنها
(٢) انتضى السيف : استله ، والصفاح : السيوف العريضة ، والروم المطلب والمرام (٣) أى كل من تحدثه نفسه بالدنو منها والطمع فيها (٤) يريد كل عظيم ذى شهرة ومنزلة ورفعة قدر ، ومن هو بين قومه كالكوكب الوقاد علو منزلة واهتداء به كما قيل :

يابن الكواكب من أئمة هاشم   والرجح الأحساب والأحلام

(٥) دار الندوة معروفة كانت بمكة بناها قصى بن كلاب وسميت بذلك لأنهم كانوا يندون فيها ، أى يجتمعون للمشاورة وعقد الألوية فى الحرب
(٦) وأخمل الخ : جعلهم خاملين ساقطين لاذكر لهم .

أَكْثَرَ الْأَنْدَلُسِ قَفْرًا يَبَابًا[1]، وَمَلَأَهَا وَحْشًا وَذِئَابًا، وَأَعْرَاهَا مِنَ الْأَمَانِ، بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ. وَعَلَى هٰذِهِ الْهَيْئَةِ فَهُوَ وَابْنُهُ الْمُظَفَّرُ كَانَا آخِرَ سَعْدِ الْأَنْدَلُسِ، وَحَدَّ السُّرُورِ بِهَا وَالتَّأَنُّسِ. وَغَزَوَاتُهُ فِيهَا شَائِعَةُ الْأَثَرِ، رَائِعَةٌ كَالسَّيْفِ ذِي الْأُثُرِ[2]، وَحَسَبُهُ[3] وَافِرٌ، وَنَسَبُهُ مُعَافِرُ، وَلِذَا قَالَ يَفْتَخِرُ: رَمَيْتُ بِنَفْسِي، الْأَبْيَاتَ. وَزَادَ هُنَا بَعْدَ قَوْلِهِ:- وَأَبْيَضُ بَاتِرُ- بَيْتًا وَهُوَ:

وَإِنِّي لَزَجَّاءُ الْجُيُوشِ إِلَى الْوَغَى أُسُودٌ تُلَاقِيهَا أُسُودٌ خَوَادِرُ[4]

---

(١) اليباب: الخراب الخالى، وحوض يباب: لاماء فيه، وتقول: دارهم خراب يباب لاحارس ولاباب (٢) أثر السيف «بضمتين» وأثره، فرنده ورونقه، وتسلسله وديباجته - والأثر «بفتح فسكون» أكثر وأفصح (٣) الحسب: مايعده المرء من مفاخر آبائه، ويطلق على مساعى الرجل ومآثر سلفه، وعلى المال والكرم وشرف الفعال (٤) زجاه وزجاه وأزجاه: ساقه ودفعه، والوغى فى الأصل: الصوت والجلبة، ومنهم من خصه فى الحرب فقال هو غمغمة الابطال فى حومة الحرب، ويطلق على الحرب نفسها لمافيها من الصوت والجلبة - والخوادر: جمع خادر، والأسد الخادر: المقيم فى عرينه. والخدر: أجمة الأسد، وأخدر الأسد: لزم أجمته وأقام واتخذها خدرا كخدر «كفرح» فهو خادر ومخدر، ولليلى الأخيلية فى ثوبة بن الحمير:

فتى كان أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث بخفان خادر

وَكَانَتْ أُمُّهُ تَمِيمِيَّةً فَحَازَ الشَّرَفَ بِطَرَفَيْهِ(١) وَالْتَحَفَ عِطْرَفَيْهِ ، وَلِذَا قَالَ الْقَسْطَلِيُّ(٢) فِيهِ :

تَلَاقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَمِيمٍ وَيَعْرُبٍ
شُمُوسٌ تَلَالَا فِي الْعُلَا وَبُدُورُ

مِنَ الْحِمْيَرِيِّينَ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ
سَحَائِبُ تَهْمِي(٣) بِالنَّدَى وَبُحُورُ

وَتَصَرَّفَ قَبْلَ وِلَايَتِهِ فِي شَتَّى الْوِلَايَاتِ ، وَجَاءَ مِنَ التَّحَدُّثِ بِمُنْتَهَى أَمْرِهِ بِآيَاتٍ ، حَتَّى صَحَّ زَجْرُهُ ، وَجَاءَ بِصُبْحِهِ فَجْرُهُ(٤) ، تُؤْثَرُ عَنْهُ فِي ذَٰلِكَ أَخْبَارٌ ، فِيهَا عَجَبٌ

---

(١) أى من جهتى الأب والأم فهو كريم الطرفين معم مخول. ومن شجر لا يخلف ثمره ، ومن ماء لا يخاف كدره :

وقد يوقد الزندان نارا لقابس   فتضحى من الزندين أعلى وأعظما

(٢) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى ابن دراج القسطلى كاتب الانشاء لابن أبى عامر وكان شاعرا مفلقا وكاتبا مجيدا وعالما متقدما ، وكان بالأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، ولد سنة ٣٤٧ وتوفى سنة ٤٢١ منسوب الى مدينة قسطلة بالأندلس . ومن قوله فى قصيدة :

ان كان واديك ممنوعا فموعدنا   وادى الكرى فلعلى فيه ألقاك

(٣) تهمى : تسيل سيلا متتابعا وتهطل (٤) يريد أنه انتقل من حال الى حال أرقى منها — والفجر ضوء الصباح وهو حمرة الشمس فى سواد الليل

وَٱعْتِبَارٌ ، وَكَانَ أَدِيباً مُحْسِنًا ، وَعَالِمًا مُتَفَنِّنًا ، فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ يُمَنِّى نَفْسَهُ بِمُلْكِ مِصْرَ وَٱلْحِجَازِ ، وَيَسْتَدْعِى صُدُورَ تِلْكَ ٱلْأَعْجَازِ[1]

مَنَعَ ٱلْعَيْنَ أَنْ تَذُوقَ ٱلْمَنَامَا
حُبُّهَا أَنْ تَرَى ٱلصَّفَا وَٱلْمَقَامَا

لِى دُيُونٌ بِالشَّرْقِ عِنْـدَ أُنَاسٍ
قَدْ أَحَلُّوا بِالْمَشْعَرَيْنِ ٱلْحَرَامَا[2]

إِنْ قَضَوْهَا نَالُوا ٱلْأَمَانِى وَإِلَّا
جَعَلُوا دُونَهَا رِقَابًا وَهَامَا[3]

---

(١) صدر كل شيء : مقدمه وأوله ، ويقال أخذ الأمر بصدره أى بأوله ، والأمور بصدورها — وعجز الشيء مؤخره (٢) المشعر : موضع المناسك فى الحج وشعاره « أى علامته وآثاره وأعماله وكل ماجعل علما لطاعة الله تعالى كالوقوف والطواف والسعى والرمى وغير ذلك » والمشعر : المتعبد من متعبداته ، ومنه سمى المشعر الحرام لأنه معلم للعبادة وموضع لها وهو بالمزدلفة ، وقيل المشعر الحرام مابين جبل مزدلفة من مأزمى عرفة الى محسر وليس المأزمان ولا محسر من المشعر (٣) جمع هامة : أى الرأس يريد أنهم ان لم يتقاضوا ديونهم بالحسنى اقتضوها بالحرب وبرى الرقاب واطاحة الهام عن الأجسام — وهو وعيد خفى بل صريح للفاطميين والعباسيين وبنى حمدان وكل من ملك مصر والشام والعراق والحجاز من بلاد المشرق

عَنْ قَرِيبٍ تَرَى خُيُولَ هِشَامٍ
يَبْلُغُ ٱلنِّيلَ خَطْوُهَا وَٱلشَّآمَا

ٱنْتَهَى مَا نَقَلْتُهُ مِنَ ٱلْمَطْمَحِ .

***

شجاعة المنصور وحظه

وَفِي ٱلْمَنْصُورِ ٱلْمَذْكُورِ أَيْضًا قَالَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي ٱلْمَغْرِبِ مَازِجًا كَلَامَهُ بِبَعْضِ كَلَامِ ٱلْفَتْحِ، بَعْدَ ذِكْرِ ٱسْتِعَانَتِهِ بِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، وَذِكْرِ قَتْلِهِ لِجَعْفَرِ ٱبْنِ عُثْمَانَ، فَقَالَ بَعْدَهُ مَاصُورَتُهُ: ثُمَّ ٱنْفَرَدَ بِنَفْسِهِ وَصَارَ يُنَادِي هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ[1] فَلَمَّا لَمْ يَجِدْهُ حَمَلَ ٱلدَّهْرَ عَلَى حُكْمِهِ، فَٱنْقَادَ لَهُ وَسَاعَدَهُ، فَٱسْتَقَامَ أَمْرُهُ مُنْفَرِدًا بِمَمْلَكَةٍ لَا سَلَفَ لَهُ فِيهَا. وَمِنْ أَوْضَحِ ٱلدَّلَائِلِ عَلَى سَعْدِهِ أَنَّهُ لَمْ يُنْكَبْ قَطُّ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا، وَمَا تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ هَزِيمَةٌ، وَمَا ٱنْصَرَفَ عَنْ مَوْطِنٍ إِلَّا قَاهِرًا غَالِبًا، عَلَى كَثْرَةِ مَا زَاوَلَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ، وَمَارَسَ مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ، وَوَاجَهَ مِنَ ٱلْأُمَمِ، وَإِنَّهَا لَخَاصَّةٌ مَا أَحْسِبُ أَحَدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ شَارَكَهُ فِيهَا .

---

(١) مأخوذ من قوله:

ولقد بححت من الندا ءِ بجمعكم هل من مبارز؟

***

كرم المنصور وبذله

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا أُعِينَ بِهِ مَعَ قُوَّةِ سَعْدِهِ وَتَمَكُّنِ جَدِّهِ ، سَعَةُ جُودِهِ وَكَثْرَةُ بَذْلِهِ ، فَقَدْ كَانَ فِي ذٰلِكَ أُعْجُوبَةَ الزَّمَانِ ، وَأَوَّلَ مَا اتَّكَأَ عَلَى أَرَائِكِ الْمُلُوكِ وَارْتَفَقَ(١) ، وَانْتَشَرَ عَلَيْهِ لِوَاءُ السَّعْدِ وَخَفَقَ ، حَطَّ صَاحِبَهُ الْمُصْحَفِيَّ ، وَأَثَارَ لَهُ كَامِنَ حِقْدِهِ الْخَفِيِّ ، حَتَّى أَصَارَهُ لِلْهُمُومِ لَبِيسًا(٢) ، وَفِي غَيَابَاتِ(٣) السِّجْنِ حَبِيسًا ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَعْطِفُهُ بِقَوْلِهِ :

هَبْنِي أَسَأْتُ فَأَيْنَ الْعَفْوُ وَالْكَرَمُ
إِذْ قَادَنِي نَحْوَكَ الْإِذْعَانُ وَالنَّدَمُ ؟
يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَيْهِ أَمَا
تَرْثِي لِشَيْخٍ رَمَاهُ عِنْدَكَ الْقَلَمُ(٤) ؟

---

(١) ارتفق : اتكأ على مرفق يده ، أو على المرفقة : وهي المخدة .
(٢) اللبيس : الثوب قد أكثر لبسه فأخلق وبلى ، واللبيس المثل ، وهو من الملابسة ، أى المخالطة (٣) غيابة كل شيء قعره وماستر ما كان فيه وغيبه كالجب والوادى والقبر وغيرها ، ومنه قوله تعالى : « وألقوه فى غيابة الجب » وقيل الغيابة فى الأصل قعر البئر ثم نقلت لكل خفى غامض ، وفى الأصل غايات محرفة (٤) رثى له : اذا رحمه ورق له ، ويريد بالقلم ما كتبه الله فى لوح قضائه :

يَالَغْتَ فِي ٱلسُّخْطِ[(1)] فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ

إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا مَا ٱسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا

فَمَا زَادَهُ ذٰلِكَ إِلَّا حَنَقًا وَحِقْدًا ، وَمَا أَفَادَتْهُ ٱلْأَبْيَاتُ إِلَّا تَضَرُّمًا وَوَقْدًا ، فَرَاجَعَهُ بِمَا أَيْأَسَهُ ، وَأَرَاهُ مَرْمَسَهُ[(2)] ، وَأَطْبَقَ[(3)] عَلَيْهِ مَحْبَسَهُ ، وَضَيَّقَ تَرَوُّحَهُ[(4)] مِنَ ٱلْمِحْنَةِ وَتَنَفُّسَهُ :

ٱلْآنَ يَاجَاهِلًا زَلَّتْ بِكَ ٱلْقَدَمُ

تَبْغِي ٱلتَّكَرُّمَ لَمَّا فَاتَكَ ٱلْكَرَمُ ؟

أَغْرَيْتَ بِي مَلِكًا لَوْلَا تَثَبُّتُهُ

مَاجَازَ لِي عِنْدَهُ نُطْقٌ وَلَا كَلِمُ

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

وفى بعض المراجع : نعاه عندك القلم . وقد يريد بالقلم قلمه الكاتب فقد كان وزيرا (١) فى الأصل « فى الخط » محرفة (٢) المرمس والرمس : القبر ، وقد يستعار للسجن فهو قبر الأحياء (٣) أطبقه: غطاه وجعله مطبقا عليه ، ومنه الجنون المطبق الذى يغطى العقل و يستره ـ والمطبق سجن تحت الأرض (٤) من الروح وهو برد نسيم الريح « وسميت ريحا لأن الغالب عليها فى هبوبها المجىء بالرواح والراحة وانقطاع هبوبها يكسب الكرب والغم والأذى » وأراح : تنفس ، وأراح واستراح: رجعت نفسه اليه بعد الاعياء ، وصار ذا راحة

فَأْيأَسْ مِنَ ٱلْعَيْشِ إِذْ قَدْ صِرْتَ فِي طَبَقٍ[1]
إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا مَا ٱسْتُنْقِمُوا[2] نَقِمُوا
نَفْسِي إِذَا سَخِطَتْ لَيْسَتْ بِرَاضِيَةٍ
وَلَوْ تَشَفَّعَ فِيكَ ٱلْعُرْبُ وَٱلْعَجَمُ

***

آثار المنصور ومناقبه

وَكَانَ مِنْ أَخْبَارِهِ ٱلدَّاخِلَةِ فِي أَبْوَابِ ٱلْبِرِّ وَٱلْقُرْبَةِ بُنْيَانُ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَمِنْ ذٰلِكَ بِنَاؤُهُ قَنْطَرَةً عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ ٱلْأَعْظَمِ، ٱبْتَدَأَ بِنَاءَهَا ٱلْمَنْصُورُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ، وَفَرَغَ مِنْهَا فِي ٱلنِّصْفِ مِنْ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ، وَٱنْتَهَتِ ٱلنَّفَقَةُ عَلَيْهَا إِلَى مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَعَظُمَتْ بِهَا ٱلْمَنْفَعَةُ، وَصَارَتْ صَدْرًا فِي مَنَاقِبِهِ ٱلْجَلِيلَةِ، وَكَانَتْ هُنَالِكَ قِطْعَةُ أَرْضٍ لِشَيْخٍ مِنَ ٱلْعَامَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْقَنْطَرَةِ عُدُولٌ عَنْهَا، فَأَمَرَ ٱلْمَنْصُورُ أُمَنَاءَهُ بِإِرْضَائِهِ

(١) الطبق: غطاء كل شيء ووجه الأرض، والطبق: الدرك من أدراك جهنم، والبيت الأخير يشير الى قول معن بن أوس المزني:
اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... عليه بوجه آخر الدهر تقبل
(٢) استنقموا: طلبوا للانتقام ــ ونقموا: عاقبوا.

فِيهاَ ، فَحضرَ ٱلشَّيْخُ عِنْدَهُمْ فَسَاوَمُوهُ[1] بِالْقِطْعَةِ ، وَعَرَّفُوهُ وَجْهَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَأَنَّ ٱلْمَنْصُورَ لَا يُرِيدُ إِلَّا إِنْصَافَهُ فِيهاَ ، فَرَمَاهُمُ[2] ٱلشَّيْخُ بِالْغَرَضِ ٱلْأَقْصَى عِنْدَهُ فِيماَ ظَنَّهُ أَنَّهاَ لَا تَخْرُجُ عَنْهُ بِأَقَلَّ مِنْ عَشْرَةِ دَنَانِيرَ ذَهَباً كَانَتْ عِنْـدَهُ أَقْصَى ٱلْأُمْنِيَّةِ ، وَشَرَطَهَا صِحَاحًا ، فَاغْتَنَمَ ٱلْأُمَنَاءُ غَفْلَتَهُ ، وَنَقَدُوهُ ٱلثَّمَنَ، وَأَشْهَدُوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخْبَرُوا ٱلْمَنْصُورَ بِخَبَرِهِ ، فَضَحِكَ مِنْ جَهَالَتِهِ ، وَأَنِفَ مِنْ غَبْنِهِ[3] وَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى عَشَرَةَ أَمْثَالِ مَا سَأَلَ ، وَتُدْفَعَ لَهُ صِحَاحًا كَمَا قَالَ ، فَقَبَضَ ٱلشَّيْخُ مِائَةَ دِينَارٍ ذَهَبًا ، فَكَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ عَقْلِهِ ، وَأَنْ يُجَنَّ عِنْدَ قَبْضِهاَ مِنَ ٱلْفَرَحِ ، وَجَاءَ مُحْتَفِلًا فِي شُكْرِ ٱلْمَنْصُورِ ، وَصَارَتْ قِصَّتُهُ خَبَرًا سَائِرًا

« وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا » بِنَاءُ قَنْطَرَةٍ عَلَى نَهْرِ إِسْتِجَةَ[4] وَهُوَ

---

(١) ساوموه بالقطعة : عينوا ثمنها (٢) رماهم الشيخ الخ : ألقى اليهم بقصده البعيد فى الثمن (٣) غبنه : خداعه فى الثمن وغلبه فيه .
(٤) إستجة Ecija اسم لكورة تتصل أعمالها بأعمال قرطبة وبين مدينة استجة وقرطبة نحو ٣٥ ميلا وهى الى الجنوب الغربى منها على رافد من روافد نهر اشبيلية العظيم « أو نهر قرطبة » يسمى نهر شنيل أو نهر سنجل وهو نهر غرناطة وكان طارق بن زياد أيام الفتح قد حارب

نَهْرُ شِنِّيل(١) ، وَتَجَشَّمَ لَهَا أَعْظَمَ مُؤْنَةٍ، وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ الْوَعْرَةَ وَالشِّعَابَ(٢) الصَّعْبَةَ

فل عسكر لذريق بعد استيلائه على إستجة ثم ورد عينا من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت عين طارق . وفى سنة ٢٣٥ كان بالاندلس سيل عظيم خرب جسر استجة وأتلف الأرحاء وغرق نهر اشبيلية ١٦ قرية ومن أهل استجة كثير من العلماء والأدباء منهم أبو عبدالله محمد بن اسحق بن ابراهيم بن مطرف النصرى العالم اللغوى النحوى العروضى والشاعر الأديب توفى سنة ٣٦٣ وأبو القاسم أحمد بن يوسف ابن اسحق بن ابراهيم الفقيه الأديب الشاعر توفى سنة ٣٧٢ وأبو القاسم أصبغ بن قاسم بن أصبغ الفقيه الأديب توفى سنة ٣٦٣ وابنه اسحق بن محمد كان كأبيه فى علومه ومعارفه وكان طبيبا أديبا وشاعرا مطبوعا وكاتبا بليغا وفقيها فاضلا توفى سنة ٣٧٠ (١) نهر شنيل Jenil (Xenil) يسمى أيضا نهر غرناطة وعليه مدينة إستجة وهو يشق اقليم غرناطة ويروى سهوله بوسائل الرى وترعه التى أوجدها العرب من قبل ثم يمر بقرطبة ومدينة لوشة ويصب بعد ذلك فى الوادى الكبير ويدير عددا كبيرا من الأرحاء كأرحاء ناصح وغيرها . وقد افتتح الناصر مدينة إستجة سنة ٣٠٠ وفيه يقول أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان من أبيات :

وقد سل شنيل فرندا مهندا نفى فوق در ذر فيه عقيق
اذا نم فيه طيب نشر أراكة أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاح فى الرياض أنيق

وقد ولع شعراء الأندلس بوصف هذا الوادى وتفضيل نهر شنيل على نهر النيل بزيادة الشين التى هى ألف بحساب الجمل فكأنه ألف ضعف بالنسبة للنيل على عادة التحليق فى سماء الخيال الشعرى ، وقد سبق فى الجزء الأول شىء من ذلك « أحمد يوسف نجاتى » (٢) الشعاب الصعبة : الطرق فى الجبل غير المهدة .

***

قوة إيمان المنصور

« وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا » أَنَّهُ خَطَّ بِيَدِهِ مُصْحَفًا كَانَ يَحْمِلُهُ مَعَهُ فِي أَسْفَارِهِ وَغَزَوَاتِهِ ، يَدْرُسُ فِيهِ وَيَتَبَرَّكُ بِهِ . وَمِنْ قُوَّةِ رَجَائِهِ أَنَّهُ اعْتَنَى بِجَمْعِ مَا عَلِقَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْغُبَارِ فِي غَزَوَاتِهِ وَمَوَاطِنِ جِهَادِهِ ، فَكَانَ الْخَدَمُ يَأْخُذُونَهُ عَنْهُ بِالْمَنَادِيلِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِهِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِنْهُ صُرَّةٌ ضَخْمَةٌ عَهِدَ بِتَصْبِيرِهِ فِي حَنُوطِهِ[1] ، وَكَانَ يَحْمِلُهَا حَيْثُ سَارَ مَعَ أَكْفَانِهِ تَوَقُّعًا لِحُلُولِ مَنِيَّتِهِ ، وَقَدْ كَانَ اتَّخَذَ الأَكْفَانَ مِنْ أَطْيَبِ مَكْسَبِهِ ، مِنَ الضَّيْعَةِ الْمَوْرُوثَةِ عَنْ أَبِيهِ وَغَزْلِ بَنَاتِهِ ، وَكَانَ يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَوَفَّاهُ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ ، فَكَانَ كَذَلِكَ . وَكَانَ مُتَّسِمًا[2] بِصِحَّةِ بَاطِنِهِ ، وَاعْتِرَافِهِ بِذَنْبِهِ ، وَخَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَكَثْرَةِ جِهَادِهِ ، وَإِذَا ذُكِّرَ بِاللهِ ذَكَرَ ، وَإِذَا خُوِّفَ مِنْ عِقَابِهِ ازْدَجَرَ ، وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَزِّهًا[3] عَنْ كُلِّ مَا يَفْتَتِنُ بِهِ الْمُلُوكُ ، سِوَى

---

(١) الحنوط كل طيب يخلط للميت خاصة لأكفانهم وأجسامهم من ذريرة أو مسك أو عنبر أو كافور وغيره. (٢) متصفا ومعروفا (٣) متنزها : مترفعا

الْخَمْرِ، لَكِنَّهُ أَقْلَعَ عَنْهَا قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَتَيْنِ، وَكَانَ عَدْلُهُ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَبَسْطُ الْحَقِّ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ مِنْ خَاصَّتِهِ وَحَاشِيَتِهِ أَمْرًا مَضْرُوبًا بِهِ الْمَثَلُ

***

« وَمِنْ عَدْلِهِ » أَنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَامَّةِ بِمَجْلِسِ فَنَادَى : يَانَاصِرَ الْحَقِّ، إِنَّ لِي مَظْلِمَةً عِنْدَ ذَلِكَ الْوَصِيفِ الَّذِي عَلَى رَأْسِكَ وَأَشَارَ إِلَى الْفَتَى صَاحِبِ الدَّرَقَةِ[1]، وَكَانَ لَهُ فَضْلُ مَحَلٍّ عِنْدَهُ. ثُمَّ قَالَ : وَقَدْ دَعَوْتُهُ إِلَى الْحَاكِمِ فَلَمْ يَأْتِ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : أَوَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ الْفُطَيْسِ بِهٰذَا الْعَجْزِ وَالْمَهَانَةِ، وَكُنَّا نَظُنُّهُ أَمْضَى مِنْ ذَلِكَ ؟ اذْكُرْ مَظْلِمَتَكَ[2] يَاهٰذَا، فَذَكَرَ الرَّجُلُ مُعَامَلَةً كَانَتْ جَارِيَةً بَيْنَهُمَا فَقَطَعَهَا مِنْ غَيْرِ نَصَفٍ[3]، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : مَا أَعْظَمَ بَلِيَّتَنَا بِهٰذِهِ الْحَاشِيَةِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الصَّقْلَبِيِّ وَقَدْ ذُهِلَ عَقْلُهُ، فَقَالَ لَهُ : ادْفَعِ الدَّرَقَةَ إِلَى فُلَانٍ وَانْزِلْ صَاغِرًا : وَسَاوِ خَصْمَكَ فِي

---

(١) هي ترس من جلود ليس فيه خشب (٢) المظلمة : بكسر اللام، ماتظلمه الرجل (٣) النصف : بالتحريك، اسم من الانصاف وهو العدل

مَقَامِهِ حَتَّى يَرْفَعَكَ الْحَقُّ أَوْ يَضَعَكَ ، فَفَعَلَ وَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِ شُرْطَتِهِ الْخَاصِّ بِهِ : خُذْ بِيَدِ هٰذَا الْفَاسِقِ الظَّالِمِ ، وَقَدِّمْهُ مَعَ خَصْمِهِ إِلَى صَاحِبِ الْمَظَالِمِ ، لِيُنَفِّذَ عَلَيْهِ حُكْمَهُ بِأَغْلَظِ مَا يُوجِبُهُ الْحَقُّ مِنْ سِجْنٍ أَوْ غَيْرِهِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَعَادَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ شَاكِرًا ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : قَدِ انْتَصَفْتَ[1] أَنْتَ ، اذْهَبْ لِسَبِيلِكَ ، وَبَقِيَ انْتِصَافِي أَنَا مِمَّنْ تَهَاوَنَ بِمَنْزِلَتِي ، فَتَنَاوَلَ الصَّقْلَبِيَّ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَذَلَّةِ ، وَأَبْعَدَهُ عَنِ الْخِدْمَةِ .

***

قصة البورق مع التاجر المغربي

« وَمِنْ ذَلِكَ » قِصَّةُ فَتَاهُ الْكَبِيرِ الْمَعْرُوفِ بِالْبُورَقِيِّ مَعَ التَّاجِرِ الْمَغْرِبِيِّ ، فَإِنَّهُمَا تَنَازَعَا فِي خُصُومَةٍ تَوَجَّهَتْ فِيهَا الْيَمِينُ عَلَى الْفَتَى الْمَذْكُورِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَكْبَرُ خَدَمِ الْمَنْصُورِ ، وَإِلَيْهِ أَمْرُ دَارِهِ وَحَرَمِهِ ، فَدَافَعَ[2] الْحَاكِمَ ، وَظَنَّ أَنَّ جَاهَهُ يَمْنَعُ مِنْ إِحْلَافِهِ[3] ، فَصَرَخَ التَّاجِرُ بِالْمَنْصُورِ فِي

---

(١) انتصف : عدل وأن يأخذ الحق ويعطي الحق (٢) دافع الحاكم : رده في القول ، وزاحمه فيه . (٣) تحليفه اليمين : كاستحلافه

طَرِيقِهِ إِلَى ٱلْجَامِعِ ، مُتَظَلِّمًا مِنَ ٱلْفَتَى، فَوَكَّلَ بِهِ فِي ٱلْوَقْتِ مَنْ حَمَلَهُ إِلَى ٱلْحَاكِمِ ، فَأَنْصَفَهُ مِنْهُ وَسَخِطَ عَلَيْهِ ٱلْمَنْصُورُ، وَقَبَضَ نِعْمَتَهُ مِنْهُ، وَنَفَاهُ.

***

قصة فصاد المنصور

« وَمِنْ ذَلِكَ » قِصَّةُ مُحَمَّدٍ فَصَّادِ ٱلْمَنْصُورِ ، وَخَادِمِهِ وَأَمِينِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّ ٱلْمَنْصُورَ ٱحْتَاجَهُ يَوْمًا إِلَى ٱلْفَصْدِ(١) وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّعَهُّدِ لَهُ ، فَأَنْفَذَ رَسُولَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَأَلْفَاهُ ٱلرَّسُولُ مَحْبُوسًا فِي سِجْنِ ٱلْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ رُوبٍ(٢) لِحَيْفٍ ظَهَرَ مِنْهُ عَلَى ٱمْرَأَتِهِ ، قَدَّرَ أَنَّ سَبِيلَهُ مِنَ ٱلْخِدْمَةِ يَحْمِيهِ

(١) الفصد : شق العرق واسالة الدم (٢) كذا بالأصل وأنا أظنها محرفة عن « زرب » وهو أبو بكر محمد بن يبقى بن محمد بن زرب بن يزيد ابن مسلمة قاضي الجماعة بقرطبة كان فقيها نبيلا وفاضلا جليلا وعنى بدرس الرأى فتقدم فيه أهل وقته وكان أحفظ أهل زمانه لفقه مذهب مالك ، شوور فى الأحكام صدرا من ولاية محمد بن اسحق « ابن منذر بن ابراهيم بن محمد بن السليم بن أبى عكرمة الداخل الى الأندلس قاضي الجماعة بقرطبة بعد وفاة المنذر بن سعيد سنة ٣٥٦ » فلما توفى القاضى محمد بن اسحق ولى محمد بن زرب قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٦٧ فى أوائل الدولة العامرية ، وكان ابن زرب قاضيا عدلا صالحا وفقيها جليلا بصيرا بالعربية والحساب حسن الحديث كثير المروءة خدم الناس بعلمه وجاهه وتوفى سنة ٣٨١ وكان مولده سنة ٣١٧ - رحمه الله - « أحمد يوسف نجاتى »

مِنَ ٱلْعُقُوبَةِ ، فَلَمَّا عَادَ ٱلرَّسُولُ إِلَى ٱلْمَنْصُورِ بِقِصَّتِهِ أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ ٱلسِّجْنِ مَعَ رَقِيبٍ مِنْ رُقَبَاءِ ٱلسِّجْنِ يَلْزَمُهُ إِلَى أَنْ يَفْرُغَ مِنْ عَمَلِهِ عِنْدَهُ ، ثُمَّ يَرُدَّهُ إِلَى مَحْبِسِهِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى مَا رَسَمَهُ ، وَذَهَبَ ٱلْقَاصِدُ إِلَى شَكْوَى مَا نَالَهُ ، فَقَطَعَ عَلَيْهِ ٱلْمَنْصُورُ وَقَالَ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُ ٱلْقَاضِي وَهُوَ فِي عَدْلِهِ ، وَلَوْ أَخَذَنِي بِالْحَقِّ مَا أَطَقْتُ ٱلِامْتِنَاعَ مِنْهُ ، عُدْ إِلَى مَحْبِسِكَ ، وَٱعْتَرِفْ بِالْحَقِّ فَهُوَ ٱلَّذِي يُطْلِقُكَ ، فَانْكَسَرَ[1] ٱلْحَاجِمُ ، وَزَالَتْ عَنْهُ رِيحُ ٱلْعِنَايَةِ ، وَبَلَغَتْ قِصَّتُهُ لِلْقَاضِي فَصَالَحَهُ مَعَ زَوْجَتِهِ ، وَزَادَ ٱلْقَاضِي شِدَّةً فِي أَحْكَامِهِ

***

قصة الشيخ مع المنصور

وَقَالَ ٱبْنُ حَيَّانَ: إِنَّهُ كَانَ جَالِسًا فِي بَعْضِ ٱللَّيَالِي وَكَانَتْ لَيْلَةً شَدِيدَةَ ٱلْبَرْدِ وَٱلرِّيحِ وَٱلْمَطَرِ ، فَدَعَا بِأَحَدِ ٱلْفُرْسَانِ وَقَالَ لَهُ : ٱنْهَضِ ٱلْآنَ إِلَى فَجِّ طَيَالِسَ وَأَقِمْ فِيهِ ، فَأَوَّلُ خَاطِرٍ[2] يَخْطُرُ عَلَيْكَ سُقْهُ إِلَيَّ ، قَالَ : فَنَهَضَ ٱلْفَارِسُ ، وَبَقِيَ فِي ٱلْفَجِّ فِي ٱلْبَرْدِ وَٱلرِّيحِ وَٱلْمَطَرِ وَاقِفًا عَلَى فَرَسِهِ ، إِذْ وَقَفَ عَلَيْهِ قُرْبَ ٱلْفَجْرِ شَيْخٌ هَرِمٌ عَلَى حِمَارٍ لَهُ ، وَمَعَهُ آلَةُ

---

(١) انكسر الحاجم : غلب على أمره (٢) أي أول مار يمر بك

ٱلْحَطَبِ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْفَارِسُ : إِلَى أَيْنَ تُرِيدُ يَا شَيْخُ ؟ فَقَالَ : وَرَاءَ حَطَبٍ ، فَقَالَ ٱلْفَارِسُ فِي نَفْسِهِ : هَذَا شَيْخٌ مِسْكِينٌ نَهَضَ إِلَى ٱلْجَبَلِ يَسُوقُ حَطَباً ، فَمَاذَا عَسَى أَنْ يُرِيدَ ٱلْمَنْصُورُ مِنْهُ ؟ قَالَ : فَتَرَكْتُهُ فَسَارَ عَنِّي قَلِيلًا ، ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي قَوْلِ ٱلْمَنْصُورِ ، وَخِفْتُ سَطْوَتَهُ[1] ، فَنَهَضْتُ إِلَى ٱلشَّيْخِ وَقُلْتُ لَهُ : أُرْجِعْ إِلَى مَوْلَانَا ٱلْمَنْصُورِ ، فَقَالَ لَهُ : وَمَاذَا عَسَى أَنْ يُرِيدَ ٱلْمَنْصُورُ مِنْ شَيْخٍ مِثْلِي ؟ سَأَلْتُكَ بِاللهِ أَنْ تَتْرُكَنِي أَذْهَبُ لِطَلَبِ مَعِيشَتِي ، فَقَالَ لَهُ ٱلْفَارِسُ : لَا أَفْعَلُ ، ثُمَّ قَدِمَ بِهِ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ ، وَمَثَّلَهُ[2] بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ جَالِسٌ لَمْ يَنَمْ لَيْلَتَهُ تِلْكَ ، فَقَالَ ٱلْمَنْصُورُ لِلصَّقَالِبَةِ : فَتِّشُوهُ ، فَفَتَّشُوهُ فَلَمْ يَجِدُوا مَعَهُ شَيْئاً ، فَقَالَ فَتِّشُوا بَرْذَعَةَ حِمَارِهِ ، فَوَجَدُوا دَاخِلَهَا كِتَاباً مِنْ نَصَارَى كَانُوا قَدْ نَزَعُوا إِلَى ٱلْمَنْصُورِ ، يَخْدُمُونَ عِنْدَهُ إِلَى أَصْحَابِهِمْ مِنَ ٱلنَّصَارَى ، لِيَضْرِبُوا وَيَقْتُلُوا فِي إِحْدَى ٱلنَّوَاحِي ٱلْمَرْطُومَةِ[3] ، فَلَمَّا

---

(١) سطوته : بطشه وصولته (٢) اى وقفه ، ومثل بين يديه مثولا وتمثل : قام شاخصا (٣) كذا بالأصل وقد تكون « المرطومة » من رطمه فى الوحل رطما : أى الجهات ذات الوحل من كثرة الأمطار

انْبَلَجَ[1] الصُّبْحُ أَمَرَ بِإِخْرَاجِ أُولَئِكَ النَّصَارَى إِلَى بَابِ الزَّاهِرَةِ ، فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ ، وَضُرِبَتْ رَقَبَةُ الشَّيْخِ مَعَهُمْ .

***

نادرة المنصور والتاجر

ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا الْمُؤَرِّخُ قِصَّةَ الْجَوْهَرِيِّ الَّتِي قَدَّمْنَا نَقْلَهَا مِنْ مُغْرِبِ ابْنِ سَعِيدٍ ، وَلَكِنَّا رَأَيْنَا إِعَادَتَهَا بِلَفْظِ هَذَا الْمُؤَرِّخِ لِأَنَّهُ أَتَمُّ مَسَاقًا ، إِذْ قَالَ عَطْفًا عَلَى دَهَائِهِ : وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ الْجَوْهَرِيِّ التَّاجِرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا جَوْهَرِيًّا مِنْ تُجَّارِ الْمَشْرِقِ ، قَصَدَ الْمَنْصُورَ مِنْ مَدِينَةِ عَدَنٍ بِجَوْهَرٍ كَثِيرٍ وَأَحْجَارٍ نَفِيسَةٍ ، فَأَخَذَ الْمَنْصُورُ مِنْ ذَلِكَ مَا اسْتَحْسَنَهُ ، وَدَفَعَ إِلَى التَّاجِرِ الْجَوْهَرِيِّ صُرَّتَهُ ، وَكَانَتْ قِطْعَةً يَمَانِيَةً ، فَأَخَذَ التَّاجِرُ فِي انْصِرَافِهِ طَرِيقَ الرَّمْلَةِ عَلَى شَطِّ النَّهْرِ ، فَلَمَّا تَوَسَّطَهَا وَالْيَوْمُ قَائِظٌ[2] ، وَعَرَقُهُ مُنْصَبٌّ ، دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى التَّبَرُّدِ فِي النَّهْرِ ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ وَتِلْكَ الصُّرَّةَ عَلَى الشَّطِّ ، فَمَرَّتْ حِدَأَةٌ فَاخْتَطَفَتِ الصُّرَّةَ تَحْسَبُهَا لَحْمًا ، وَصَاعَدَتْ فِي الْأُفُقِ بِهَا ذَاهِبَةً ، فَقَطَعَتِ الْأُفُقَ الَّذِي تَنْظُرُ إِلَيْهِ عَيْنُ التَّاجِرِ ، فَقَامَتْ[3] قِيَامَتُهُ ،

(١) أى أشرق وأضاء (٢) اليوم قائظ : أى شديد الحر (٣) قامت قيامته : أى انزعج وأطرب

وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْتَدْفِعَ[1] ذَلِكَ بِحِيلَةٍ ، فَأَسَرَّ الْحُزْنَ فِي نَفْسِهِ ، وَلَحِقَهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ عِلَّةٌ اضْطَرَبَ فِيهَا ، وَحَضَرَ الدَّفْعُ إِلَى التُّجَّارِ ، فَحَضَرَ الرَّجُلُ لِذَلِكَ بِنَفْسِهِ ، فَاسْتَبَانَ لِلْمَنْصُورِ مَا بِالرَّجُلِ مِنَ الْمَهَانَةِ وَالْكَآبَةِ وَفَقْدِ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ النَّشَاطِ وَشِدَّةِ الْعَارِضَةِ[2] ، فَسَأَلَهُ الْمَنْصُورُ عَنْ شَأْنِهِ ، فَأَعْلَمَهُ بِقِصَّتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : هَلَّا أَتَيْتَ إِلَيْنَا بِحِدْثَانِ[3] وُقُوعِ الْأَمْرِ ، فَكُنَّا نَسْتَظْهِرُ عَلَى الْحِيلَةِ ، فَهَلْ هُدِيتَ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي أَخَذَ الطَّائِرُ إِلَيْهَا ؟ قَالَ : مَرَّ مُشَرِّقًا عَلَى سَمْتِ[4] هَذَا الْجَبَلِ الَّذِي يَلِي قَصْرَكَ - يَعْنِي الرَّمْلَةَ - فَدَعَا الْمَنْصُورُ شُرْطِيَّهُ الْخَاصَّ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : جِئْنِي بِمَشْيَخَةِ أَهْلِ الرَّمْلَةِ السَّاعَةَ ، فَمَضَى وَجَاءَ بِهِمْ سَرِيعًا ، فَأَمَرَهُمْ

(١) يقال استدفع الله السوء والشر : اذا طلب منه أن يدفعها عنه
(٢) العارضة والعارض : البيان واللسن والفصاحة ، والجلد والصرامة وفلان شديد العارضة أى ذو جلدوقوة ، ومنه قول عمرو بن الأهتم حين سئل عن الزبرقان بن بدر التميمى - رضى الله عنهما - فقال : مطاع فى أدنيه شديد العارضة مانع ماوراء ظهره (٣) حدثان الأمروحداثته : أوله وابتداؤه (٤) السمت : الطريق ، وسمت الطريق . قصده وناحيته .

بِالْبَحْثِ عَمَّنْ غَيَّرَ حَالُ الْإِقْلَالِ مِنْهُمْ سَرِيعاً ، وَانْتَقَلَ عَنِ الْإِضَاقَةِ[١] دُونَ تَدْرِيجٍ ، فَتَنَاظَرُوا فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالُوا : يَا مَوْلَانَا مَا نَعْلَمُ إِلَّا رَجُلًا مِنْ ضُعَفَائِنَا ، كَانَ يَعْمَلُ هُوَ وَأَوْلَادُهُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَيَتَنَاوَلُونَ السَّبْقَ بِأَقْدَامِهِمْ عَجْزًا عَنْ شِرَاءِ دَابَّةٍ ، فَابْتَاعَ الْيَوْمَ دَابَّةً ، وَاكْتَسَى هُوَ وَوَلَدُهُ كُسْوَةً مُتَوَسِّطَةً ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ مِنَ الْغَدِ ، وَأَمَرَ التَّاجِرَ بِالْغُدُوِّ إِلَى الْبَابِ ، فَحَضَرَ الرَّجُلُ بِعَيْنِهِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ ، فَاسْتَدْنَاهُ وَالتَّاجِرُ حَاضِرٌ ، وَقَالَ لَهُ سَبَبٌ[٢] ضَاعَ مِنَّا وَسَقَطَ إِلَيْكَ ، مَا فَعَلْتَ بِهِ ؟ قَالَ : هُوَ ذَا يَامَوْلَايَ ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى حُجْزَةِ[٣] سَرَاوِيلِهِ ، فَأَخْرَجَ الصُّرَّةَ بِعَيْنِهَا ، فَصَاحَ التَّاجِرُ طَرَباً ، وَكَادَ يَطِيرُ فَرَحًا ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : صِفْ لِي حَدِيثَهَا ، فَقَالَ : بَيْنَا أَنَا أَعْمَلُ فِي جِنَانِي[٤] تَحْتَ نَخْلَةٍ إِذْ

(١) أي الفقر وسوء الحال كالضيقة ، وأضاق : اذا ضاق عليه معاشه .
(٢) السبب : كل مايتوصل به الى شيء غيره ، ويقال سبب الله لك سبب خير (٣) أي موضع التكة ـ واحتجز الرجل : حمل الشيء في حجزته ـ وهو طيب الحجزة : أي عفيف طاهر طيب الازار ، وأخذت بحجزته أي اعتصمت به والتجأت اليه مستجيرا (٤) جنان : بالكسر جمع جنة : الحديقة ذات النخل والثمر .

سَقَطَتْ أَمَامِي ، فَأَخَذْتُهَاوَرَاقَنِي مَنْظَرُهَا ، فَقُلْتُ : إِنَّ الطَّائِرَ اُخْتَلَسَهَا مِنْ قَصْرِكَ لِقُرْبِ الْجِوَارِ ، فَاجْتَزْتُ بِهَا ، وَدَعَتْنِي فَاقَتِي إِلَى أَخْذِ عَشَرَةِ مَثَاقِيلَ عُيُونًا[1] كَانَتْ مَعَهَا مَصْرُورَةً ، وَقُلْتُ : أَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي كَرَمِ مَوْلَايَ أَنْ يَسْمَحَ لِي بِهَا ، فَأَعْجَبَ الْمَنْصُورَ مَا كَانَ مِنْهُ ، وَقَالَ لِلتَّاجِرِ خُذْ صُرَّتَكَ وَانْظُرْهَا ، وَاصْدُقْنِي عَنْ عَدَدِهَا ، فَفَعَلَ وَقَالَ : وَحَقِّ رَأْسِكَ يَا مَوْلَايَ مَا ضَاعَ مِنْهَا شَيْءٌ سِوَى الدَّنَانِيرِ الَّتِي ذَكَرَهَا ، وَقَدْ وَهَبْتُهَا لَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : نَحْنُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْكَ ، وَلَا نُنَغِّصُ عَلَيْكَ فَرَحَكَ ، وَلَوْلَا جَمْعُهُ بَيْنَ الْإِصْرَارِ وَالْإِقْرَارِ لَكَانَ ثَوَابُهُ مُوْفُورًا[2] عَلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ لِلتَّاجِرِ بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ عِوَضًا مِنْ دَنَانِيرِهِ ، وَلِلْجَنَّانِيِّ[3] بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ ثَوَابًا لِتَأَنِّيهِ[4] عَنْ فَسَادِ مَا وَقَعَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : لَوْ بَدَأْنَا بِالِاعْتِرَافِ قَبْلَ الْبَحْثِ لَأَوْسَعْنَاهُ جَزَاءً ، قَالَ:

---

(١) عيونا : جمع عين : الذهب المضروب (٢) الجزاء الموفور : التام الذى لم ينقص منه شيء ، وفره له ، وفرة : كثره وأكمله وجعله وافرا - وتوفر عليه اذا رعى حرماته وبره (٣) الجنانى : البستانى .

(٤) أو لتأنيه أى حسن تلطفه واحتياله

فَأَخَذَ ٱلتَّاجِرُ بِالثَّنَاءِ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ، وَقَدْ عَاوَدَهُ نَشَاطُهُ، وَقَالَ : وَٱللهِ لَأُبُثَّنَّ[١] فِى ٱلْأَقْطَارِ عَظِيمَ مُلْكِكَ، وَلَأُبَيِّنَنَّ أَنَّكَ تَمْلِكُ طَيْرَ أَعْمَالِكَ كَمَا تَمْلِكُ أَنْفُسَهَا فَلَا تَعْتَصِمُ[٢] مِنْكَ وَلَا تَمْتَنِعُ، وَلَا تُؤْذِى جَارَكَ ، فَضَحِكَ ٱلْمَنْصُورُ وَقَالَ : اُقْصِدْ[٣] فِى قَوْلِكَ يَغْفِرِ ٱللهُ لَكَ ، فَعَجِبَ ٱلنَّاسُ مِنْ تَلَطُّفِ ٱلْمَنْصُورِ فِى أَمْرِهِ ،وَحِيلَتِهِ فِى تَفْرِيجِ كُرْبَتِهِ .

***

غزوة المنصور لمدينة « شنت ياقب »

« وَمِنْ ذَلِكَ » غَزْوَةُ ٱلْمَنْصُورِ لِمَدِينَةِ «شَنْتَ يَاقُبَ[٤]»

---

(١) بث الخبر والحديث : نشره وأذاعه وفرقه فى الجهات (٢) أى تلتجىء الى مايحميها و يمنعها ، واعتصم بالجبل اذا لاذبه متحصنا (٣) القصد فى الشىء الاعتدال وعدم الافراط كالاقتصاد (٤) شنت ياقب ، أو ياقو ، وتسمى أيضا سنكتياك Santiago أو Sanctyac فى نهاية الطرف الشمالى الغربى لاسبانيا «شمال بلاد البرتغال» وهى مدينة ذات حصانة ومنعة وكانت من بلاد جليقية وفى سنة ٢٤٩ أغار نصارى جليقية على بلاد المسلمين فعاثوا فيها فسادا فأمر الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم قواده وولاته بجمع الجيوش للجهاد فخرج بهم وانضم اليهم فرسان ماردة وسار الى جليقية ودخل مدينة شنت ياقب فما استطاع الجلالقة أن يثبتوا على مقاومته بل تقهقروا والتجأوا الى القلاع القائمة على الصخور المنيعة هناك فرجع الأمير من طريق طلبيرة أو من طريق سمورة وأرسل فرسان ماردة من طريق سلمنقة وواصل سيره مع فرسان قرطبة متجها الى طليطلة .

قَاصِيَةِ غَلِيسِيَةَ [١]، وَأَعْظَمِ مَشَاهِدِ النَّصَارَى الْكَائِنَةِ بِبِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ، وَكَانَتْ كَنِيسَتُهَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْكَعْبَةِ عِنْدَنَا ـ وَلِلْكَعْبَةِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ـ فَبِهَا يَحْلِفُونَ، وَإِلَيْهَا يَحُجُّونَ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ رُومَةَ وَمَا وَرَاءَهَا [٢]، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْقَبْرَ الْمَزُورَ فِيهَا قَبْرُ يَاقُبَ

واسم هذه المدينة منحوت من كلمتين رومتين «سنكيتوس يعقوبوس» «أى القديس يعقوب» ومن ذلك أخذ الأسبانيون لفظ «سنتياغو» وفى معجم ياقوت شنت ياقب قلعة حصينة بالأندلس، وربما مدوا حركة القاف فقالوا ياقوب كما فى نزهة المشتاق. وقد علقنا على هذه المدينة هنا وفى الجزء الثانى بما يزيل سهو تعليق الجزء الأول صفحة ٢٥٩ .

(١) Galice وجبال غليسية فى الشمال الغربى وهو يعنى اقليم جليقية

(٢) وفيها كانت تتوج ملوكهم فقد تتوج بها أذفنش «أخو شانجة» ابن أردن سنة ٣١٤ هـ . الموافق سنة ٩٢٥ م . وفى زحف المنصور على هذه المدينة كان مما استعد به المنصور أن استأجر مرتزقة من الأسبان ولعله أول من عمل هذا بالأندلس . ولكن شتان مابين عمل المنصور هذا واستخدامه غيره لهم فان المنصور كان يستخدمهم فى حروبه لمقاومة نصارى الشمال فكانوا سهاما مصوبة الى مقاتل بنى جلدتهم ـ أما بنو هود وغيرهم من بعده فقد كانوا يستأجرون هؤلاء المرتزقة لا ليضرب بهم أهل ملتهم بل ليخضد بها من شوكة بنى جنسه من العرب المسلمين فقد كان بنوهود بسرقسطة يستأجرون البطل دريك الذى عرف عند العرب باسم السيد قنبطور وكان مشهورا بالشجاعة وقوة البأس ليقاوم برجاله مسلمى العرب الذين كان بينهم و بين ابن هود حروب

ٱلْحَوَارِيُّ أَحَدِ ٱلْإِثْنَيْ عَشَرَ ، وَكَانَ أَخَصَّهُمْ بِعِيسَى ـ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ـ وَهُمْ يُسَمُّونَهُ أَخَاهُ لِلُزُومِهِ إِيَّاهُ، وَيَاقُبُ بِلِسَانِهِمْ يَعْقُوبُ ، وَكَانَ أُسْقُفًا بِبَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ، فَجَعَلَ يَسْتَقْرِى ٱلْأَرَضِينَ دَاعِيًا لِمَنْ فِيهَا، حَتَّى ٱنْتَهَى إِلَى هَذِهِ ٱلْقَاصِيَةِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّامِ فَمَاتَ بِهَا ،وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً شَمْسِيَّةً، فَاحْتَمَلَ أَصْحَابُهُ رِمَّتَهُ، فَدَفَنُوهَا بِهَذِهِ ٱلْكَنِيسَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ أَقْصَى أَثَرِهِ . وَلَمْ يَطْمَعْ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ ٱلْإِسْلَامِ فِي قَصْدِهَا وَلَا ٱلْوُصُولِ إِلَيْهَا، لِصُعُوبَةِ مَدْخَلِهَا، وَخُشُونَةِ مَكَانِهَا، وَبُعْدِ شُقَّتِهَا[1] فَخَرَجَ ٱلْمَنْصُورُ إِلَيْهَا مِنْ قُرْطُبَةَ ، غَازِيًا بِالصَّائِفَةِ[2] يَوْمَ ٱلسَّبْتِ لِسِتٍّ بَقِينَ مِنْ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ،وَهِيَ غَزْوَتُهُ ٱلثَّامِنَةُ وَٱلْأَرْبَعُونَ،وَدَخَلَ عَلَى مَدِينَةِ قُورِيَةَ[3] فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ

عند انقسام أمر الأندلس وتغلب ملوك الطوائف ، وبهذا سنوا للاسبانيين عقد الاستيلاء على دول العرب بجزيرة الأندلس واحدة بعد أخرى حتى كان ما كان والأمر لله ، « أحمد يوسف نجاتى » (١) الشقة : المسافة البعيدة والسفر البعيد والناحية التى يقصدها المسافر يلحقه فى الوصول اليها مشقة (٢) الصائفة : الغزوة فى الصيف (٣) قورية (Coria) مدينة من نواحى

غَلِيسِيَةَ(١) وَافَاهُ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنَ ٱلْقَوَامِسِ ٱلْمُتَمَسِّكِينَ بِالطَّاعَةِ فِي رِجَالِهِمْ، وَعَلَى أَتَمِّ ٱحْتِفَالِهِمْ، فَصَارُوا فِي عَسْكَرِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَكِبُوا فِي ٱلْمُفَاوَزَةِ(٢) سَبِيلَهُمْ، وَكَانَ ٱلْمَنْصُورُ تَقَدَّمَ فِي إِنْشَاءِ أُسْطُولٍ كَبِيرٍ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمَعْرُوفِ بِقَصْرِ أَبِي دَانِسَ(٣) مِنْ سَاحِلِ غَرْبِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَجَهَّزَهُ بِرِجَالِهِ(٤) ٱلْبَحْرِيِّينَ وَصُنُوفِ ٱلْمُتَرَجِّلِينَ، وَحَمَلَ ٱلْأَقْوَاتَ وَٱلْأَطْعِمَةَ وَٱلْعُدَّةَ وَٱلْأَسْلِحَةَ ٱسْتِظْهَارًا عَلَى نُفُوذِ ٱلْعَزِيمَةِ

ماردة وهي النصف بينها و بين سمورة مدينة الافرنج ، وهي على نهير من روافد نهر تاجه صاعد شمالا ، وكان الأمير عبد الرحمن الداخل غزاها سنة ٢٥٨ هـ (١) يريد جليقية Calicie في الشمال الغربي — وقد غزا العرب هذه الجهات كثيرا وفي سنة ٢٥٩ أغار المنذر على أرض جليقية وكانت بينهما معركة حامية على ممر نهر سهجون Sahagun المتجه الى نهر دويره وكانت خسارة الفريقين عظيمة (٢) كذا بالأصل ولعلها المغاورة وهي الاغارة ، وغاوروا ، وتغاوروا أغار بعضهم على بعض — و يقال فوز الرجل والجيش وتفوز اذا خرج من أرض الى أرض كهاجر (٣) في الأصل (وانس) وهي محرفة عن «دانس» وفي قصر أبي دانس استشهد أبو بكر محمد بن عبد النور بن أحمد بن محمد بن عمر بن عبد الخير بن عبد النور بن عبد الكريم السبئي الاشبيلي الفقيه المحدث ذو الفضل والزهد والصلاح قتل شهيدا في واقعة قصر أبي دانس سنة ٦١٤ (٤) رجالة ، رجال ، رجال : جمع رجل : ورجل ، رجيل ، ورجلان الماشي غير الراكب ومنه قوله تعالى : « فرجالا أو ركبانا » ، والمترجل الذي ينزل عن دابته ويركب رجليه ويمشي راجلا

إلى أَنْ خَرَجَ بِمَوْضِعِ بُرْتُقَالَ عَلَى نَهْرِ دُوَيْرُه[١] فَدَخَلَ فِي النَّهْرِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي عَمِلَ الْمَنْصُورُ عَلَى الْعُبُورِ مِنْهُ فَعَقَدَ هُنَالِكَ مِنْ هٰذِهِ[٢] الْأُسْطُولِ جِسْرًا بِقُرْبِ الْحِصْنِ الَّذِي هُنَالِكَ ، وَوَجَّهَ الْمَنْصُورُ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْمِيرَةِ[٣] إِلَى الْجُنْدِ فَتَوَسَّعُوا فِي التَّزَوُّدِ مِنْهُ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ، ثُمَّ نَهَضَ مِنْهُ يُرِيدُ شَنْتَ يَاقُبَ فَقَطَعَ أَرَضِينَ مُتَبَاعِدَةَ الْأَقْطَارِ، وَقَطَعَ بِالْعُبُورِ عِدَّةَ أَنْهَارٍ كِبَارٍ وَخُلْجَانٍ يَمُدُّهَا الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ ، ثُمَّ أَفْضَى الْعَسْكَرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى بَسَائِطَ[٤] جَلِيلَةٍ مِنْ بِلَادِ فِرْطَارِسَ[٥] وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا ، ثُمَّ أَفْضَى إِلَى جَبَلٍ شَامِخٍ

---

(١) مدينة « برتغال » ثغر معروف عند مصب نهر دويره فى المحيط ، نهر دويره (Duéro) نهر عظيم يخترق بلاد البرتغال وأسبانيا وله روافد كثيرة يتجه بعضها شمالا وينزل بعضها جنوبا وعليه مدن عدة منها سمورة و « سلمنقة » على أحد روافده المتجهة الى الجنوب ، وليون الى أقصى الشمال على نهير يتفرع من أحد روافد دويرة وغيرها (٢) كذا بالأصل ولعله أراد به معنى السفن فأنث اسم الاشارة (٣) الميرة: الطعام المدخر والزاد (٤) البسيطة، البساط: الأرض المستوية المنبسطة الواسعة (٥) كذا بالأصل وفى بعض المراجع (فرطارش) وأظنه يعنى بلاد الجلالقة، والأقسام التى بتلك الأرجاء منها « استوريا » والبرارى القوطية المسماة قمبوس Campos وجليقية وفى جنوب سلمنقة تجد شواطئ نهر (ترماس Tormes) ولكنها بعيدة عما يقصد .

شَدِيدِ ٱلْوَعَرِ[1] لَا مَسْلَكَ فِيهِ وَلَا طَرِيقَ ، وَلَمْ يَهْتَدِ ٱلْأَدِلَّاءُ إِلَى سِوَاهُ ، فَقَدَّمَ ٱلْمَنْصُورُ ٱلْفَعَلَةَ بِالْحَدِيدِ لِتَوْسِعَةِ شِعَابِهِ وَتَسْهِيلِ مَسَالِكِهِ ، فَقَطَعَهُ ٱلْعَسْكَرُ وَعَبَرُوا بَعْدَهُ وَادِيَ مِنْيُهْ وَٱنْبَسَطَ ٱلْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي بَسَائِطَ عَرِيضَةٍ ، وَأَرَضِينَ أَرِيضَةَ ، وَٱنْتَهَتْ مُغِيرَتُهُمْ[2] إِلَى دَيْرِ قَشَانَ[3] وَبَسِيطِ بَلَنْبُو عَلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ ، وَفَتَحُوا حِصْنَ شَنْتَ بَلَايَه وَغَنِمُوهُ وَعَبَرُوا سِبَاحَةً[4] إِلَى جَزِيرَةٍ مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ لَجَأَ إِلَيْهَا خَلْقٌ عَظِيمٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلنَّوَاحِي فَسَبَوْا مَنْ فِيهَا مِمَّنْ لَجَأَ إِلَيْهَا ، وَٱنْتَهَى ٱلْعَسْكَرُ إِلَى جَبَلِ مُرَاسِيه ٱلْمُتَّصِلِ مِنْ أَكْثَرِ جِهَاتِهِ بِالْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ فَتَخَلَّلُوا أَقْطَارَهُ وَٱسْتَخْرَجُوا مَنْ كَانَ فِيهِ وَحَازُوا غَنَائِمَهُ ، ثُمَّ أَجَازَ ٱلْمُسْلِمُونَ بَعْدَ هٰذَا خَلِيجًا فِي مَعْبَرَيْنِ أَرْشَدَ ٱلْأَدِلَّاءُ إِلَيْهِمَا ، ثُمَّ نَهْرَ أَيْلَةَ ، ثُمَّ أَفْضَوْا إِلَى بَسَائِطَ وَاسِعَةِ ٱلْعِمَارَةِ كَثِيرَةِ ٱلْفَائِدَةِ ، ثُمَّ ٱنْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَاقُبَ صَاحِبِ ٱلْقَبْرِ تِلْوَ مَشْهَدِ قَبْرِهِ

(١) وعر المكان «من باب كرم ، وعد ، ولع» وعورة ، وعارة ، وعرا ضد سهل (٢) جنودهم وخيلهم للغيرة ولفظ (أريضة) ساقط من الأصل (٣) فى بعض المراجع (قسطان) (٤) فى الأصل (بساحته) وهو تحريف

عِنْدَ ٱلنَّصَارَى فِى ٱلْفَضْلِ يَقْصِدُ نُسَّاكُهُمْ لَهُ مِنْ أَقَاصِى بِلَادِهِمْ وَمِنْ بِلَادِ ٱلْقِبْطِ وَٱلنُّوبَةِ وَغَيْرِهِمَا فَغَادَرَهُ ٱلْمُسْلِمُونَ قَاعًا ، وَكَانَ ٱلنُّزُولُ بَعْدَهُ عَلَى مَدِينَةِ شَنْتَ يَاقُبَ ٱلْبَائِسَةِ وَذَلِكَ يَوْمَ ٱلْأَرْبِعَاءِ لِلَيْلَتَيْنِ خَلَتَا مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ ثَلَثِمِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَثَمَانِينَ ، فَوَجَدَهَا ٱلْمُسْلِمُونَ خَالِيَةً مِنْ أَهْلِهَا، فَحَازَ ٱلْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَهَا ، وَهَدَّمُوا مَصَانِعَهَا وَأَسْوَارَهَا وَكَنِيسَتَهَا وَعَفَّوْا[1] آثَارَهَا ، وَوَكَّلَ ٱلْمَنْصُورُ بِقَبْرِ يَاقُبَ مَنْ يَحْفَظُهُ وَيَدْفَعُ ٱلْأَذَى عَنْهُ ، وَكَانَتْ مَصَانِعُهَا بَدِيعَةً مُحْكَمَةً ، فَغُودِرَتْ هَشِيماً[2] كَأَنْ لَمْ تَغْنَ[3] بِٱلْأَمْسِ ،

---

(١) عفوا : محوا وأزالوا .

(٢) المصانع : الحصون واحده مصنعة ، والمبانى من القصور وغيرها قال : البعيث :

بنى زياد لذكر الله مصنعة   من الحجارة لم ترفع من الطين

وقال لبيد :

بلينا وماتبلى النجوم الطوالع   وتبقى الديار بعدنا والمصانع

وهشم الشىء : كسره فهو هشيم . والهشيم نبت يابس متكسر ، ومنه قوله تعالى : « فأصبح هشيما تذروه الرياح » (٣) غنى بالمكان : أقام به وغنى القوم فى دارهم : اذا طال مقامهم فيها مستغنين عن غيرها ، ومنه قوله تعالى : « كأن لم يغنوا فيها » أى يقيموا فيها — وغنى يغنى : بقى

وَانْتَسَفَتْ بُعُوثُهُ(١) بَعْدَ ذَلِكَ سَائِرَ الْبَسَائِطِ، وَانْتَهَتِ الْجُيُوشُ إِلَى مَدِينَةِ شَنْتَمَانْكُشَ مُنْقَطَعِ هٰذَا الصُّقْعِ عَلَى الْبَحْرِ الْمُحِيطِ، وَهِيَ غَايَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا قَبْلَهُمْ مُسْلِمٌ، وَلَا وَطِئَهَا لِغَيْرِ أَهْلِهَا قَدَمٌ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَهَا لِلْخَيْلِ مَجَالٌ، وَلَا وَرَاءَهَا انْتِقَالٌ، وَانْكَفَأَ الْمَنْصُورُ عَنْ بَابِ شَنْتَ يَاقُبَ وَقَدْ بَلَغَ غَايَةً لَمْ يَبْلُغْهَا مُسْلِمٌ قَبْلَهُ، فَجَعَلَ عَلَى طَرِيقِهِ الْقَصْدَ إِلَى عَمَلِ بُرْمَنْدَ بْنِ أُرْدُونَ يَسْتَقْرِيهِ عَائِثًا وَمُفْسِدًا حَتَّى وَقَعَ فِي عَمَلِ الْقَوَامِس الْمُعَاهِدِينَ الَّذِينَ فِي عَسْكَرِهِ فَأَمَرَ بِالْكَفِّ عَنْهَا، وَمَرَّ مُجْتَازًا حَتَّى خَرَجَ عَلَى حِصْنِ بَلِيقِيَةَ مِنَ افْتِتَاحِهِ فَأَجَازَ هُنَالِكَ الْقَوَامِسَ بِجُمْلَتِهِمْ عَلَى أَقْدَارِهِمْ وَكَسَاهُمْ وَكَسَا رِجَالَهُمْ وَصَرَفَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَكَتَبَ بِالْفَتْحِ مِنْ بَلِيقِيَةَ

وعاش . قال الشاعر :

غنيت دارنا تهامة فى الدهـ ـر وفيها بنو معـد حلولا

ويقال للشىء اذا فنى : كأن لم يغن بالأمس ، أى كأن لم يكن (١) نسف البناء وانتسفه : اذا قلعه من أصله ، ونسف الجبال دكها وذراها ، ونسفت الريح الشىء وانتسفته : سلبته وأزالته . وكلمة (بعوثه) . ساقطة من الأصل

وَ كَانَ مَبْلَغُ مَا كَسَاهُ فِي غَزَاتِهِ هٰذِهِ لِمُلُوكِ الرُّومِ وَلِمَنْ حَسُنَ غَنَاؤُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَخَمْسًا وَثَمَانِينَ شُقَّةً مِنْ صُنُوفِ الْخَزِّ الطِّرَازِيِّ(١) وَوَاحِدًا وَعِشْرِينَ كِسَاءً مِنْ صُوفِ الْبَحْرِ وَكِسَاءَيْنِ عَنْبَرِيَّيْنِ وَأَحَدَ عَشَرَ سِقْلَاطُونًا(٢) وَخَمْسَ عَشْرَةَ مُرَيَّشًا(٣) وَسَبْعَةَ أَنْمَاطِ(٤) دِيبَاجٍ وَثَوْبَيْ دِيبَاجٍ رُومِيٍّ وَفَرْوَيْ فَنَكٍ(٥) ، وَوَافَى جَمِيعُ الْعَسْكَرِ قُرْطُبَةَ غَانِمًا، وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ وَالْمِنَّةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَجِدْ بِشَنْتَ يَاقُبَ إِلَّا شَيْخًا مِنَ الرُّهْبَانِ جَالِسًا عَلَى الْقَبْرِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ مُقَامِهِ فَقَالَ : أُونِسُ يَعْقُوبَ ، فَأَمَرَ بِالْكَفِّ عَنْهُ(٦). قَالَ

---

(١) الطراز : الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة ، وثوب ينسج للسلطان ، ويقال ثوب طرازى ، والطرازى الرقام والذى يعمل الطراز (٢) تقدم شرحه (٣) المريش : البرد الموشى بخطوط جميلة على أشكال الريش ، كقولهم برد مسهم اذا كان فيه خطوط كالسهام (٤) جمع نمط : وهو ظهارة الفراش « ملاءة » وضرب من البسط ، ونوع من الثياب المصبغة له خمل رقيق ، ولا يكادون يقولون نمط الا لما كان ذالون من حمرة أو صفرة أو خضرة (٥) سبق شرحه . (٦) بدا لنا هنا أن نعرض على القارىء صورة موجزة لحال مسلمى الأندلس مع الفرنجة سكان البلاد الأصليين فى مدة المنصور بن أبى عامر ومن قبله ومن بعده فنقول : لما افتتح المسلمون الأندلس أجفلت أمم

النصرانية أمامهم وانحازوا الى سيف البحر من جانب الجوف وتجاوزوا
الدروب من وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية وملكوا عليهم « بلايه »
كما تقدم وتوفى سنة ١٣٣ ، ثم اتصل ملكهم فى أعقاب « أذفونش »
من الجلالقة بعد أن انتهوا الى جليقية وأمكنهم استرداد بعض مدنهم التى
كانت العرب قد افتتحتها كلها ، وذلك حين اشتغال عبد الرحمن الداخل
بتمهيد أمره وتوطيد ملكه ، الى أن ولى منهم « ردمير بن أردون »
آخر ملوكهم المستبدين بأمرهم سنة ٣١٩ فى زمن الخليفة الناصر فأتيح
للناصر التغلب عليه ، حتى كانت وقعة الخندق وابتلى الله المؤمنين ليمحص
مافى قلوبهم . ثم مات ردمير سنة ٣٣٩ فدب دبيب الشقاق فى ملك الجلالقة
الى أن قام بأمرهم « ردمير بن شانجة » فقوى سلطانه بعد وفاة أمير المؤمنين
الحكم المستنصر بالله وعظمت نكايته فى المسلمين حتى قيض الله لهم
الغازى العظيم والفاتح الشهير المنصور بن أبى عامر فأثخن فى أرض ردمير
وأغار على أعماله وغزاه مرارا وحاصره فى عقرداره وافتتح « سانتمانكش »
وخربها فتطيرت الجلالقة بردمير فعاد الى طاعة المنصور سنة ٣٧٤ وتوفى
على أثر ذلك ، واتفقت الجلالقة على « برمند بن أردون » فعقد له المنصور
على سمورة وليون وما اتصل بهما من أعمال غليسية الى البحر المحيط ،
ثم انتقض على المنصور فغزاه سنة ٣٧٨ واسترد ليون وسمورة وغيرها
ولم يبق بعدها للجلالقة الا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بينهم وبين البحر
ولم يزل المنصور به حتى فرض عليه الجزية فأعطاها عن يد صاغرا ، ونزل
المسلمون بمدينة سمورة سنة ٣٨٩ وولى المنصور عليها « أبا الأحوص
معن بن عبد العزيز التجيبى » وصار الجلالقة كلهم فى طاعة المنصور
كأنهم عمال له ، ثم انتقض « برمند بن أردون » فغزاه المنصور ودوخ
بلاده حتى بلغ « شنت ياقب » فهدمها ونقل أبوابها الى مدينة قرطبة
فجعلها فى نصف الزيادة التى أضافها الى المسجد الأعظم . ثم جاءت بعد

قَدْ أَفْرَطَ مَوْلَانَا فِي السَّهَرِ وَبَدَنُهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا النَّوْمِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُحَرِّكُهُ عَدَمُ النَّوْمِ مِنْ عِلَّةِ الْعَصَبِ ، فَقَالَ : يَاشُعْلَةُ الْمَلِكُ لَا يَنَامُ إِذَا نَامَتِ الرَّعِيَّةُ وَلَوِ اسْتَوْفَيْتُ نَوْمِي لَمَا كَانَ فِي دُورِ هٰذَا الْبَلَدِ الْعَظِيمِ عَيْنٌ نَائِمَةٌ . انْتَهَى مَانَقَلْتُهُ مِنَ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ

وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَذْكُرَ هُنَا أَخْبَارًا نَقَلْتُهَا مِنْ كِتَابِ الْأَزْهَارِ الْمَنْثُورَةِ فِي الْأَخْبَارِ الْمَأْثُورَةِ :

***

المنصور وواترمار البرزالى

« قَالَ فِي الزَّهْرَةِ التَّاسِعَةِ وَالْعِشْرِينَ » تَقَدَّمَ إِلَى الْمَنْصُورِ وَاتِرَ مَارُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْبَرْزَالِيُّ(١) أَحَدُ جُنُودِ الْمَغَارِبَةِ وَقَدْ جَلَسَ لِلْعَرْضِ وَالتَّمْيِيزِ وَالْمَيْدَانُ غَاصٌّ بِالنَّاسِ

ذلك الفتنة البربرية فضعف أمر المسلمين وتغلب أعداؤهم على ما كان المنصور قد تغلب عليه من قبل بقشتالة وجليقية ، ثم أخذوا ينقصون البلادمن أطرافها، لابل نسلواثوب الجزيرة من أواسطه فاستولوا على البلاد والمدن شيئا فشيئا . وزحف ملك أرغون فاستولى على كثير من المدن ومنها الزهراء والزاهرة وسائر القواعد والثغور الشرقية وانحاز المسلمون الى سيف البحر وملكوا عليهم ابن الأحمر بعدولاية ابن هود، ثم نفذفيهم قضاء ربك وعادل حكمه بينهم بالحق وهو خير الحاكمين. «أحمد يوسف نجاتى»

(١) فى الأصل (البربرى والى) وهو تصحيف ، والتصحيح من القطعة الأوربية

فَقَالَ لَهُ بِكَلَامٍ يُضْحِكُ الثَّكْلَى : يَامَوْلَايَ مَالِي وَلَكَ أَشْكُنِي فَإِنِّي فِي الْفَحْصِ ، فَقَالَ وَمَا ذَاكَ يَاوَانْزَمَارُ ، وَأَيْنَ دَارُكَ الْوَاسِعَةُ الْأَقْطَارِ ؟ فَقَالَ أَخْرَجَتْنِي عَنْهَا وَاللَّهِ نِعْمَتُكَ ، أَعْطَيْتَنِي مِنَ الضِّيَاعِ مَا انْصَبَّ عَلَيَّ مِنْهَا مِنَ الْأَطْعِمَةِ مَا مَلَأَ بُيُوتِي وَأَخْرَجَنِي عَنْهَا ، وَأَنَا بَرْبَرِيٌّ مُجَوَّعٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْبُؤْسِ ، أَتُرَانِي أُبْعِدُ الْقَمْحَ عَنِّي ؟ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِي ، فَتَطَلَّقَ[1] الْمَنْصُورُ وَقَالَ لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ فَذٍّ عَيٍّ ، لَعِيُّكَ فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ أَبْلَغُ عِنْدَنَا وَآخَذُ بِقُلُوبِنَا مِنْ كَلَامِ كُلِّ أَشْدَقَ[2] مُتَزَيِّدٍ وَبَلِيغٍ مُتَفَنِّنٍ[3] وَأَقْبَلَ عَلَى

---

(١) انبسط وجهه مشرقا بشرا وسرورا (٢) أصل الشدق سعة الشدقين ويكنى به عن البلاغة وقوة اللسن فيقال : خطيب أشدق ، أى بليغ مجيد ، ورجل أشدق أى متفوه ذو بيان ، ولقب بالأشدق سعيد بن خالد ابن سعيد بن العاص لفصاحته ، وولده عمرو بن سعيد الأشدق أحد خطباء العرب المصاقع . وفى الحديث : « كان يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه » ، أى بجوانب الفم وانما يكون ذلك لرحب شدقيه ، والعرب تتمدح بذلك ، وفى حديث جابر رضى الله عنه أنه حدثه رجل بشىء ، فقال ممن سمعت هذا ؟ فقال من ابن عباس ، قال من الشدقم ، أى الواسع الشدق ، ويوصف به البليغ المنطيق المفوه ، ويقال : تشدق اذا لوى شدقه للتفصح ، ويقال هو متشدق فى منطقه ومتفيهق اذا كان يتوسع فيه ويتزيد ، والمتشدق أيضا المتوسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز ، وقد نهى عن ذلك (٣) افتن الرجل وتفنن اذا أخذ فى فنون من القول ،

مَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فَقَالَ يَا أَصْحَابَنَا هٰكَذَا فَلْتُشْكَرِ ٱلْأَيَادِي وَتُسْتَدَامُ ٱلنِّعَمُ، لَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْجَحْدِ ٱللَّازِمِ وَٱلتَّشَكِّي ٱلْمُبَرِّحِ (١) ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَفْضَلِ ٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ .

***

المنصور والبرابرة الثلاثة

« وَفِي ٱلْمُوفِيَةِ ثَلَاثِينَ » مَا نَصُّهُ : أَصْبَحَ ٱلْمَنْصُورُ صَبِيحَةَ أَحَدٍ وَكَانَ يَوْمَ رَاحَةٍ لِلْخَدَمَةِ ٱلَّذِينَ أُعْفُوا فِيهِ مِنْ قَصْدِ ٱلْخِدْمَةِ فِي مَطَرٍ وَابِلٍ غِبَّ (٢) أَيَّامٍ مِثْلِهِ ، فَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ لَا عَهْدَ بِمِثْلِهِ وَلَا حِيلَةَ لِلْمُوَاظِبِينَ لِقَصْدِنَا فِي مُكَابَدَتِهِ فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ شَذَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنِ ٱلتَّقْرِيرِ (٣) فَأَغْرَبَ

وافتن فى حديثه وفى خطبته اذا جاء بالأفانين « وأفانين الكلام أساليبه وطرقه » وافتن فى خصومته اذا توسع وتصرف ، وفنن وتفنن اذا اشتق فى فن بعد فن ، ويقال : رجل مفن يأتى فى حديثه بالعجائب ، ورجل معن مفن ، ذو عنن واعتراض واجادة لكل ما يعن له ،وذو فنون من الكلام يذهب فيه كل مذهب (١) الشديد من البرح وهو الشدة والأذى والمشقة والعذاب الشديد (٢) عقب ، بعد ، اثر ،ومنه :غب الصباح يحمد القوم السرى (٣) لعله من قر بالمكان يقر قرارا اذا ثبت وسكن ، وأقره فيه وقرره، وفى بعض المراجع « التقدير » وهو أظهر ، وأغرب الفرس فى جريه والرجل فى ضحكه اذا بالغ . والغرب:النشاط والتمادى فى الأمر

فِي الْبُكُورِ ؟ اُخْرُجْ وَتَأَمَّلْ - يَقُولُهُ لِحَاجِبِهِ - فَخَرَجَ وَعَادَ إِلَيْهِ ضَاحِكاً وَقَالَ يَامَوْلَايَ عَلَى الْبَابِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْبَرَابِرَةِ: أَبُو النَّامِسِ بْنُ صَالِحٍ وَاثْنَانِ مَعَهُ ، وَهُمْ بِحَالٍ مِنَ الْبَلَلِ إِنَّمَا تُوصَفُ بِالْمُشَاهَدَةِ ، فَقَالَ أَوْصِلْهُمْ إِلَيَّ وَعَجِّلْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فِي حَالِ الْمَلَّاحِ بَلَلًا وَنَدَاوَةً ، فَضَحِكَ إِلَيْهِمْ وَأَدْنَى مَجْلِسَهُمْ ، وَقَالَ خَبِّرُونِي كَيْفَ جِئْتُمْ وَعَلَى أَيِّ حَالٍ وَصَلْتُمْ ، وَقَدِ اسْتَكَانَ[1] كُلُّ ذِي رُوحٍ فِي كِنِّهِ ، وَلَاذَ كُلُّ طَائِرٍ بِوَكْرِهِ[2] ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو النَّاسِ بِكَلَامِهِ : يَامَوْلَايَ لَيْسَ كُلُّ التُّجَّارِ قَعَدَ عَنْ سُوقِهِ ، وَإِذَا عُذِرَ التُّجَّارُ عَلَى طَلَبِ الرِّبْحِ بِالْفُلُوسِ فَنَحْنُ أَعْذَرُ بِإِدْرَاكِهَا بِالْبِدَرِ وَمِنْ غَيْرِ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ[3] وَهُمْ يَتَنَاوَبُونَ الْأَسْوَاقَ عَلَى

(١) ربما كان محرفا عن (استكن) أى استتر ، والكن : البيت يرد البرد والحر ، ومنه قوله تعالى « وجعل لكم من الجبال أكنانا » والكن : وقاء كل شيء وستره . أما استكان الرجل فمعناه خضع وذل ، وهو اما على وزن افتعل من السكون أشبعت حركة عينه فجاءت ألفا ، وأمااستفعل من الكون أو من كان يكين اذا خضع وذل

(٢) لاذ بالشيء يلوذ اذا استتر به وتحصن ، ولاذ به : لجأ اليه وعاذ به . والوكر : عش الطائر وموضعه الذى يبيض فيه ويفرخ ، ووكر الطائر (كوعد) : أتى الوكر أو دخله (٣) الفلوس جمع فلس وهو فى الأصل اسم

أَقْدَامِهِمْ وَيُذِيلُونَ فِي قَصْدِهَا ثِيَابَهُمْ ، وَنَحْنُ نَأْتِيكَ عَلَى خَيْلِكَ ، وَنُذِيلُ(١) عَلَى صَهَوَاتِهَا مَلَابِسَكَ ، وَنَجْعَلُ الْفَضْلَ فِي قَصْدِكَ مَضْمُونًا إِذْ جَعَلَهُ أُولَئِكَ طَمَعًا وَرَجَاءً ، فَتَرَى لَنَا أَنْ نَجْلِسَ عَنْ سُوقِنَا هٰذَا ؟ فَضَحِكَ الْمَنْصُورُ وَدَعَا بِالْكِسَا وَالصِّلَاتِ فَدُفِعَتْ لَهُمْ ، وَانْصَرَفُوا مَسْرُورِينَ بِغَدْوَتِهِمْ .

***

المنصور والفتى الأديب

« وَفِي الزَّهْرَةِ الرَّابِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ » مَا نَصُّهُ : كَانَ

لأقل ما يتعامل به قيمة ، ومن ذلك قولهم أفلس الرجل اذا لم يبق له مال كأنما صارت دراهمه فلوسا و زيوفا بعد أن كان ذا دنانير ودراهم ، والبدرة كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار

(١) تناوب المكان : تردد عليه مرة بعد مرة ، وتناوبوا الأمر اذا قاموا به نوبة بعد نوبة . أذال الشيء : أهانه « ضد صانه » ولم يحسن القيام عليه ، ومنه اذالة الخيل أي امتهانها والحمل عليها ، وأذالت المرأة قناعها اذا أرسلته وأرخته . وصهوة الفرس مقعد الفارس أو موضع اللبد منه . وصهوة الجبل أعلاه . ومعنى قول أبي الناس البربري مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي في سيف الدولة بن حمدان :

أسير الى أقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه

وقد سبقه النابغة بقوله

وان تلادى ان نظرت وشكتى ومهرى وما ضمت الى الأنامل

حباؤك والعيس العتاق كأنها هجان المها تردى عليها الرحائل

بِقُرْطُبَةَ عَلَى عَهْدِ الْحَاجِبِ الْمَنْصُورِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ فَتًى مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ ، قَدْ رَقَّتْ حَالُهُ[1] فِي الطَّلَبِ ، فَتَعَلَّقَ بِكُتَّابِ الْعَمَلِ ، وَاخْتَلَفَ إِلَى الْخِزَانَةِ مُدَّةً حَتَّى قُلِّدَ بَعْضَ الْأَعْمَالِ ، فَاسْتَهْلَكَ كَثِيرًا مِنَ الْمَالِ ، فَلَمَّا ضُمَّ إِلَى الْحِسَابِ أُبْرِزَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ[2] فَرُفِعَ خَبَرُهُ إِلَى الْمَنْصُورِ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَزِمَ الْإِقْرَارَ بِمَا بَرَزَ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ : يَافَاسِقُ مَا الَّذِي جَرَّأَكَ عَلَى مَالِ السُّلْطَانِ تَنْتَهِبُهُ ؟ فَقَالَ : قَضَاءٌ غَلَبَ الرَّأْيَ وَفَقْرٌ أَفْسَدَ الْأَمَانَةَ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ وَاللهِ لَأَجْعَلَنَّكَ نَكَالًا[3] لِغَيْرِكَ ، لِيُحْضَرْ كَبْلٌ[4] وَحَدَّادٌ

---

(١) يقال فلان رقيق الحال ورقيق الدين اذا لم يكن له حظ من دنيا أو دين . وفى ماله رقق أى قلة (٢) أى ظهر أنه اختلس من الخزانة هذا المبلغ ، وكل ما ظهر بعد خفاء فقد برز (٣) النكال العبرة والعقوبة التى تجعل المرء وغيره ينكل عن الأمر أى ينكص عنه و يرجع و يجبن ، ونكل به اذا عاقبه فى جرم أجرمه عقوبة تنكل غيره ، وصنع به صنيعا يحذر سواه عن ارتكاب مثله اذا رآه . وقوله تعالى « فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها » معناه والله أعلم جعلنا هذه الفعلة عبرة تنكل أن يفعل مثلها فاعل فيناله مثل الذى نال اليهود المعتدين فى السبت . (٤) الكبل « وقد تكسر الكاف» القيد ، وكبله « كضرب » وكبله : حبسه فى سجن أو غيره

فَأُحْضِرَ افَكُبِّلَ الْفَتَى، وَقَالَ احْمِلُوهُ إِلَى السِّجْنِ، وَأَمَرَ الضَّابِطَ بِامْتِحَانِهِ وَالشِّدَّةِ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَوَّاهِ أَوَّاهِ وَكَمْ ذَا أَرَى
أَكْثَرَ مِنْ تَكْرَارِ أَوَّاهِ؟
مَا لِامْرِئٍ حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ
الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ لِلَّهِ

فَقَالَ الْمَنْصُورُ رُدُّوهُ. فَلَمَّا رُدَّ قَالَ: أَتَمَثَّلْتَ أَمْ قُلْتَ؟ قَالَ لَا بَلْ قُلْتُ، فَقَالَ حُلُّوا عَنْهُ كَبْلَهُ، فَلَمَّا حُلَّ عَنْهُ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَمَا تَرَى عَفْوَ أَبِي عَامِرٍ
لَا بُدَّ أَنْ تَتْبَعَهُ مِنَّهْ
كَذَلِكَ اللهُ إِذَا مَا عَفَا
عَنْ عَبْدِهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّهْ

فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ، وَسَوَّغَهُ ذَلِكَ الْمَالَ وَأَبْرَأَهُ مِنَ التَّبِعَةِ فِيهِ.

***

المنصور والسجين

« وَفِي ٱلْخَامِسَةِ وَٱلْأَرْبَعِينَ » عُرِضَ عَلَى ٱلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ٱسْمُ أَحَدِ خَدَمِهِ فِي جُمْلَةِ مَنْ طَالَ سِجْنُهُ – وَكَانَ شَدِيدَ ٱلْحِقْدِ عَلَيْهِ – فَوَقَّعَ عَلَى ٱسْمِهِ بِأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى إِطْلَاقِهِ حَتَّى يَلْحَقَ بِأُمِّهِ ٱلْهَاوِيَةِ(١) ، وَعُرِّفَ ٱلرَّجُلُ بِتَوْقِيعِهِ فَاهْتَمَّ وَٱغْتَمَّ وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي ٱلدُّعَاءِ وَٱلْمُنَاجَاةِ ، فَأَرِقَ ٱلْمَنْصُورُ إِثْرَ ذَلِكَ وَٱسْتَدْعَى ٱلنَّوْمَ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَأْتِيهِ عِنْدَ تَنْوِيمِهِ آتٍ(٢) كَرِيهُ ٱلشَّخْصِ عَنِيفُ ٱلْأَخْذِ

---

(١) أي الهالكة ، من هوى فلان اذا مات ، قال النابغة :

وقال الشامتون هوى زياد لكل منية سبب متين

وهوى يهوى هويا: سقط من علو الى سفل ، وأمه هاوية : دعاء، أي هلكت أمه ، وهوت أمه فهي هاوية أي ثاكلة، وقيل في قوله تعالى « فأمه هاوية » ان مسكنه النار ، وقيل أم رأسه هاوية فيها أي ساقطة . وقد يستعمل « هوت أمه » على جهة التعجب والمدح كقولهم « قاتله الله ماأفصحه » ومنه قول سعد بن كعب في مرثية أخيه :

هوت أمه مايبعث الصبح غاديا وماذا يؤدى الليل وحين يؤوب

يقول : أي شيء يبعث من أخي ، أي اذا أيقظه الصبح تصرف في فعل مايريده ، وغاديا ، منصوب على الحال ، و يؤوب يرجع، يريد ان اقبال الليل سبب رجوعه الى بيته كما أن اقبال النهار سبب لتصرفه (٢) طارق في المنام — والأخذ هنا معناه القهر والغلبة والايقاع بالشخص والمؤاخذة

يَأْمُرُهُ بِإِطْلَاقِ الرَّجُلِ وَيَتَوَعَّدُهُ عَلَى حَبْسِهِ ، فَاسْتَدْفَعَ شَأْنَهُ مِرَارًا إِلَى أَنْ عَلِمَ أَنَّهُ نَذِيرٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَدَعَا بِالدَّوَاةِ فِي مَرْقَدِهِ فَكَتَبَ بِإِطْلَاقِهِ وَقَالَ فِي كِتَابِهِ : هٰذَا طَلِيقُ اللّٰهِ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ زَمَانًا بِمَا كَانَ مِنْهُ

***

هيبة المنصور مع جنده

« وَفِي السَّادِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ » مَا نَصُّهُ : انْتَهَتْ هَيْبَةُ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَضَبْطُهُ لِلْجُنْدِ وَاسْتِخْدَامُ ذُكُورِ[1] الرِّجَالِ وَقُوَّامِ الْمُلْكِ إِلَى غَايَةٍ لَمْ يَصِلْهَا مَلِكٌ قَبْلَهُ ، فَكَانَتْ مَوَاقِفُهُمْ فِي الْمَيْدَانِ عَلَى احْتِفَالِهِ[2] مَثَلًا فِي الْإِطْرَاقِ[3] حَتَّى إِنَّ الْخَيْلَ لَتَتَمَثَّلُ إِطْرَاقَ فُرْسَانِهَا فَلَا تُكْثِرُ الصَّهِيلَ

والعقوبة الشديدة ، ومن الأخذ بمعنى العذاب والعقوبة قوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد »

(١) الذكر من الرجال : هو القوى الشجاع الشهم الماضي فى الأمور والأبى الأنف « والذكر من المطر : الوابل الشديد ، ومن القول: الصلب المتين ، ومن الشعر : ما كا جزلا فحلا » (٢) امتلائه بالجند والناس : وكثرة المجتمعين فيه (٣) أى مما يضرب به المثل ـ وأطرق الرجل اذا سكت ساكنا ، وأطرق بصره اذا أقبل به الى صدره وسكن ساكتا

وَالْحَمْحَمَةَ[1] ، وَلَقَدْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى بَارِقَةِ سَيْفٍ قَدْ سَلَّهُ بَعْضُ الْجُنْدِ بِأَقْصَى الْمَيْدَانِ لِهَزْلٍ أَوْ جِدٍّ بِحَيْثُ ظَنَّ أَنَّ لَحْظَ الْمَنْصُورِ لَا يَنَالُهُ ، فَقَالَ عَلَيَّ بِشَاهِرِ السَّيْفِ ، فَمُثِّلَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِوَقْتِهِ ، فَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ شَهَرْتَ سَيْفَكَ فِي مَكَانٍ لَا يُشْهَرُ فِيهِ إِلَّا عَنْ إِذْنٍ ؟ فَقَالَ إِنِّي أَشَرْتُ بِهِ إِلَى صَاحِبِي مُغْمَدًا فَذَلِقَ[2] مِنْ غِمْدِهِ ، فَقَالَ إِنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَسُوغُ بِالدَّعْوَى ، وَأَمَرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ بِسَيْفِهِ ، وَطِيفَ بِرَأْسِهِ ، وَنُودِيَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ .

***

جلد المنصور وقوة احتماله

« وَفِي السَّابِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ » أَنَّ الْمَنْصُورَ كَانَ بِهِ دَاءٌ فِي رِجْلِهِ ، وَاحْتَاجَ إِلَى الْكَيِّ ، فَأَمَرَ الَّذِي يَكْوِيهِ بِذَلِكَ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي مَوْضِعٍ مُشْرِفٍ عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، فَجَعَلَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَفْرِي الْفَرِيَّ[3] فِي أُمُورِهِ وَرِجْلُهُ تُكْوَى

(١) صوت الخيل دون الصهيل ، وصوت الفرس عند طلب العلف ، أو اذا رأى صاحبه الذى كان ألفه فاستأنس اليه (٢) الذلق : القلق ، وربما كانت محرفة عن (دلق) أو زلق بالزاى « كفرح ونصر » اذا زل وتباعد عن موضعه
(٣) يقال هو يفرى الفرى أى يأتى بالعجب فى عمله ، وقد يقال « الفرى » بفتح الفاء وسكون الراء وتخفيف الياء وفى حديث الرؤيا : « فلم أر عبقريا

وَٱلنَّاسُ لَا يَشْعُرُونَ حَتَّى شَمُّوا رَائِحَةَ ٱلْجِلْدِ وَٱللَّحْمِ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذَٰلِكَ وَهُوَ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ .

« وَأَخْبَارُهُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ » تَحْتَمِلُ مُجَلَّدَاتٍ فَلْنُمْسِكِ ٱلْعِنَانَ ، عَلَى أَنَّا ذَكَرْنَا فِي ٱلْبَابِ ٱلرَّابِعِ وَٱلسَّادِسِ مِنْ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ جُمْلَةً مِنْ أَخْبَارِهِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ فَلْتُرَاجَعْ إِلَى آخِرِهِ .

***

المنصور والوزراء والمصحفي

« وَفِي ٱلثَّامِنَةِ وَٱلْأَرْبَعِينَ » وَكَانَ مِمَّا أُعِينَ بِهِ ٱلْمَنْصُورُ عَلَى ٱلْمُصْحَفِيِّ مَيْلُ ٱلْوُزَرَاءِ إِلَيْهِ ، وَإِيثَارُهُمْ عَلَيْهِ ، وَسَعْيُهُمْ فِي تَرَقِّيهِ ، وَأَخْذُهُمْ بِالْعَصَبِيَّةِ فِيهِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَمِيَّةً[1] أَعْرَابِيَّةً ، فَقَدْ كَانَتْ سَلَفِيَّةً سُلْطَانِيَّةً ، يَقْتَفِي ٱلْقَوْمُ فِيهَا سَبِيلَ سَلَفِهِمْ ، وَيَحْفِلُونَ[2] بِهَا ٱبْتِذَالَ شَرَفِهِمْ ،

يفرى فريه » ، أى يعمل عمله و يقطع قطعه ـ والعرب تقول : تركته يفرى الفرى : اذا عمل العمل فأجاده وأتقنه (١) أنفة وغيرة ، وحمى من الشئ وعنه « كرضى » حمية ومحمية : أنف منه وداخله عار وأنفة أن يفعله (٢) حفل بالشئ : اذا عنى به وبالى بشأنه « وابتذال » هنا مفعول لأجله على حذف مضاف ، أى خوف أو خشية ابتذال شرفهم

غَادَرُوهَا سِيرَةً ، وَتَخَلَّقُوهَا عَادَةً أَثِيرَةً(١) ، تَشَاحَّ الْخَلَفُ فِيهَا تَشَاحَّ(٢) سَلَفِهِمْ أَهْلِ الدِّيَانَةِ ، وَصَانُوا بِهَا مَرَاتِبَهُمْ أَعْظَمَ صِيَانَةٍ ، وَرَأَوْا أَنَّ أَحَدًا لَا يَلْحَقُ فِيهَا غَايَةً ، وَلَا يَتَعَاقَدُ لَهَا رَايَةً(٣) ، فَلَمَّا اصْطَفَى الْحَكَمُ الْمُسْتَنْصِرُ بِاللهِ جَعْفَرَ ابْنَ عُثْمَانَ الْمُصْحَفِيَّ وَاصْطَنَعَهُ ، وَوَضَعَهُ مِنْ أَثَرَتِهِ حَيْثُ وَضَعَهُ ـ وَهُوَ نَزِيعٌ(٤) بَيْنَهُمْ وَنَابِغٌ فِيهِمْ ـ حَسَدُوهُ وَذَمُّوهُ ،

والاحتفال: حسن القيام بالأمور ، ورجل حفيل فى أمره وذو حفل : أى مبالغ فيما أخذ فيه من الأمور ، وأخذ للأمر حفلته اذا جد فيه ، وهو محافظ على حسبه محافل : أى يصونه أن يبتذل أو يذال . والتبذل : ترك التصون ، والابتذال ضد الصيانة ، وقد ابتذله : اذا أهانه . وفى بعض المراجع « سليقة » بدل سلفية و « يعنعون » بدل يحفلون (١) قديمة منقولة متوارثة ، والأثرة : المكرمة لأنها تؤثر أى تذكر ويذكرها قرن عن قرن يتحدثون بها . والأثير : الذى يؤثر على غيره ويختار لفضله . وفلان أثيرى : أى من خلصائى وذو أثرة عندى فهو مكين مكرم مقدم وفى بعض المراجع (وخلفوها) (٢) تشاحا على الأمر : اذا تنازعاه لا يريد كلاهما أن يفوته ، وتشاح القوم فى الأمر وعليه اذا شح به بعضهم على بعض وتبادروا اليه حذر فوته ، وضنا به أن يضيع منهم (٣) أى لا يستولى عليه ولا يعرف به ، وعقد الأمير الراية لفلان اذا ولاه جهة أو عملا ، والعقدة: الولاية. على البلد وتعاقدوا : تعاهدوا (٤) النزيع والنازع: الغريب والبعيد، وفى الحديث « طوبى للغرباء قيل من هم يارسول الله ؟ قال النزاع من القبائل » وهو الذى نزع عن أهله وعشيرته أى بعد وغاب ، أوسمى الغريب نزيعا لأنه ينزع الى وطنه أى ينجذب ويميل ـ والنزيع من أمه سبية

وَخَصُّوهُ بِالْمُطَالَبَةِ وَعَمُّوهُ ، وَكَانَ أَسْرَعَ هٰذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ أَعَالِي الْوُزَرَاءِ وَأَعَاظِمِ الدَّوْلَةِ عَلَى مُهَاوَدَةِ الْمَنْصُورِ عَلَيْهِ ، وَالِانْحِرَافِ عَنْهُ إِلَيْهِ ، آلُ أَبِي عُبَيْدَةَ(١) وَآلُ شُهَيْدٍ وَآلُ فُطَيْسٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَأَصْحَابِ السِّدَانَةِ(٢) مِنْ أُولِي الشَّرَفِ وَالْأَمَانَةِ ، وَكَانُوا فِي الْوَقْتِ أَزِمَّةَ(٣) الْمُلْكِ وَقُوَّامَ الْخِدْمَةِ ، وَمَصَابِيحَ الْأُمَّةِ ، وَأَغْيَرَ الْخَلْقِ عَلَى جَاهٍ وَحُرْمَةٍ ، فَأَحْظَوْا مُحَمَّدَ ابْنَ أَبِي عَامِرٍ مُشَايَعَةً(٤) وَبِبَعْضِ أَسْبَابِهِ الْجَامِعَةِ مُتَابَعَةً ،

---

(١) كذا بالأصل وأرى أنها محرفة عن « عبدة » وآل أبي عبدة هم بنو جهور وأبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله ابن محمد بن الغمر بن يحيي بن عبد الغافر بن أبي عبدة هو الوزير الذى صار اليه تدبير أمر قرطبة بعد خلع هشام بن محمد المعتمد بالله ، وكان موصوفا بالفضل مقدما فى الدهاء ولطف الاحتيال والعقل توفى سنة ٤٣٥ ومولده سنة ٣٦٤ وقد سبق التعريف ببعض أفراد هذه الأسرات الثلاث ، ويأتى حديث عن بعضهم فى أثناء الكتاب وفى تعليقنا عليه« أحمد نجاتى »(٢) سدن: عمل الحجابة فهو سادن . وقال ابن برى : الفرق بين السادن والحاجب أن الحاجب يحجب واذنه لغيره والسادن يحجب واذنه لنفسه وفى بعض المراجع (الردافة) بدل السدانة و (الأنافة) بدل الأمانة ، وهو أولى (٣) جمع زمام — ويقال : هو زمام قومه وهم أزمة قومهم ، وألقى فى يده زمام أمره ، ويصرف أزمة الأمور . وزمام الأمر : ملاكه وقوامه (٤) شايعه على الأمر : إذا تابعه ووافقه وشجعه ، وشايع فلانا : اذا تابعه على أمر أو رأى وقواه وطاوعه .

وَشَادُوا بِنَاءَهُ ، وَقَادُوا إِلَى عُنْصُرَةِ[١] سَنَاءَهُ ، حَتَّى بَلَغَ الْأَمَلُ ، وَالْتَحَفَ بِغُنَاهُ وَاكْتَحَلَ[٢] . وَعِنْدَ الْتِئَامِ هَذِهِ الْأُمُورِ لِابْنِ أَبِي عَامِرٍ اسْتَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ عُثْمَانَ لِلْحَادِثَةِ وَأَيْقَنَ بِالنَّكْبَةِ ، وَزَوَالِ الْحَالِ وَانْتِقَالِ الرُّتْبَةِ ، وَكَفَّ عَنِ اعْتِرَاضِ مُحَمَّدٍ وَشَرِكَتِهِ فِي التَّدْبِيرِ ، وَانْقَبَضَ النَّاسُ مِنَ الرَّوَاحِ إِلَيْهِ وَالتَّبْكِيرِ[٣] وَانْثَالُوا عَلَى ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فَخَفَّ مَوْكِبُهُ[٤] ، وَغَارَ مِنْ سَمَاءِ الْعِزِّ كَوْكَبُهُ ، وَتَوَالَى عَلَيْهِ سَعْيُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَطَلَبُهُ إِلَى أَنْ صَارَ يَغْدُو إِلَى قُرْطُبَةَ وَيَرُوحُ وَلَيْسَ بِيَدِهِ مِنَ الْحِجَابَةِ إِلَّا مُجَرَّدُ اسْمِهَا ،

---

(١) العنصر : الأصل، والسناء : الشرف (٢) كناية عن شدة تمكنه منه واستيلائه على كل ما كان يطمح اليه . والتحف بالشيء : تغطى به ويقال : لحفني فضل لحافه : أي أعطاني فضل عطائه ، قال جرير :

كم قد نزلت بكم ضيفا فتلحفني   فضل اللحاف ونعم الفضل يلتحف

أى أنلتني معروفك وفضلك وزودتني . ولو قال « واشتمل » لكان أولى ، مع وضوح المعنى ومناسبته (٣) الرواح : يكون ليلا ضد البكور والتبكير يريد الاختلاف اليه والتردد عليه ـ وانثال : تتابع وانصب من كل جهة (٤) الموكب : اسم الجماعة من الناس ركبانا أومشاة أو ركاب الابل للزينة والتنزه وكذلك جماعة الفرسان ، وفي الحديث : أنه كان يسير فى الافاضة سير الموكب ، أراد أنه لم يكن يسرع السير فيها «من وكب يكب وكوبا ، ووكبانا ، اذا مشى فى تؤدة ودرجان

وَٱبْنُ أَبِي عَامِرٍ مُشْتَمِلٌ عَلَى رَمْسِهَا، حَتَّى مَحَاهُ، وَهَتَكَ ظِلَّهُ (١) وَأَضْحَاهُ، قَالَ ٱبْنُ إِسْمَاعِيلَ رَأَيْتُهُ يُسَاقُ إِلَى مَجْلِسِ ٱلْوِزَارَةِ لِلْمُحَاسَبَةِ رَاجِلًا، فَأَقْبَلَ يَدْرِمُ (٢) وَجَوَارِحُهُ (٣) بِٱللَّوَاعِجِ تَضْطَرِمُ، وَوَاثِقٌ (٤) ٱلضَّاغِطُ يَنْهَرُهُ، وَٱلزَّمَعُ يَقْهَرُهُ، وَٱلْبُهْرُ وَٱلنَّفَسُ قَدْ هَاضَاهُ (٥)، وَقَصَّرَا خُطَاهُ،

---

(١) يقال ضحا ظله، أى مات ـ وضحا ظله: معناه صار شمسا، واذا صار ظل الانسان شمسا فقد بطل صاحبه، وهتك الستر وغيره: جذبه فقطعه من موضعه أو خرقه عما وراءه وشقه (٢) من درم القنفذ والفأرة والأرنب ونحوها «كضرب» درما، اذا قارب الخطو فى عجلة، ومنه سمى الرجل دارما والمدارمة: مشى فى ثقل وعجلة (٣) لعل جوارحه هنا محرفة عن «جوانحه» فنسبة الاضطرام اليها أبلغ وأشهر وأكثر استعمالا، والجوانح أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر كالضلوع مما يلى الظهر، وقيل الجوانح الضلوع القصار التى فى مقدم الصدر، واحده جانحة ـ واللاعج: اللوعة والحرقة. والتعج الرجل: اذا ارتمض وتألم من هم يصيبه، ويقال هوى لاعج، وحزن أو هم لاعج لحرقته الفؤاد، ولعج الحزن فؤاده: اذا استحر فى قلبه (٤) واثق علم. والزمع شبه رعدة تأخذ الانسان من خوف أو نشاط، والزمع: الدهشة والخوف والجزع والقلق. والزمع أيضا: رذال الناس وأتباعهم. وقد يكون (واثق) علم جنس للوثاق لما يوثق به ويربط كالوثاق، ومنه قوله تعالى: «فشدوا الوثاق» (٥) البهر: انقطاع النفس من الاعياء، بهره الحمل وغيره بهرا فانبهر وابتهر، أى تتابع نفسه ـ والبهر: الكرب يعترى الانسان اذا كلف فوق جهده، وهاض العظم يهيضه اذا كسره بعد الجبور وهو أشد ما يكون من الكسر، ويستعار لغير العظم والجناح ومنه قول

فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : رِفْقاً بِي فَسَتُدْرِكُ مَا تُحِبُّهُ وَتَشْتَهِيهِ ، وَتَرَى مَا كُنْتَ تَرْتَجِيهِ ، وَيَا لَيْتَ أَنَّ الْمَوْتَ يُبَاعُ فَأُغْلِيَ سَوْمَهُ ، حَتَّى يَرِدَهُ مَنْ أَطَالَ عَلَيْهِ حَوْمَهُ(١)

لَا تَأْمَنَنَّ مِنَ الزَّمَانِ تَقَلُّباً إِنَّ الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ يَتَقَلَّبُ

وَلَقَــدْ أَرَانِيَ وَاللُّيُوثُ تَخَافُنِي
فَأَخَافَنِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الثَّعْلَبُ
حَسْبُ الْكَرِيمِ مَذَلَّةً وَمَهَانَةً
أَلَّا يَزَالُ إِلَى لَئِيمٍ يَطْلُبُ

فَلَمَّا بَلَغَ الْمَجْلِسَ جَلَسَ فِي آخِرِهِ دُونَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَى أَحَدٍ ، أَوْ يُومِيَ إِلَيْهِ بِعَيْنٍ أَوْ يَدٍ ، فَلَمَّا أَخَذَ مَجْلِسَهُ تَسَرَّعَ

عمر بن عبد العزيز وهو يدعو على يزيد بن المهلب لما كسر سجنه وأفلت: اللهم انه قد هاضني فهضه ، أى كسرني وأدخل الخلل على فا كسره وجازه بافعل ، وكل وجع على وجع فهو هيض ونكس ، ومنه : فان هذا يهيضك الى مابك أى ينكسك الى مرضك (١) سام الرجل السلعة : اذا عرض على البائع ثمنها . وأغلاه : جعله غاليا . وحام الطير وغيره على الشيء وحوله اذا دار ، وحام فلان على الأمر حوما : اذا رامه وطلبه ، وحام على قرابته اذا عطف كفعل الحائم على الماء

إِلَيْهِ الْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ حَفْصِ بْنِ جَابِرٍ[1] فَعَنَّفَهُ وَاسْتَحْفَاهُ[2] ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ تَرْكَ السَّلَامِ وَجَفَاهُ ، وَجَعْفَرٌ مُعْرِضٌ عَنْهُ ، إِلَى أَنْ كَثُرَ الْقَوْلُ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ يَاهَذَا جَهِلْتَ الْمَبَرَّةَ فَاسْتَجْهَلْتَ مَعْلَمَهَا[3] ، وَكَفَرْتَ النِّعَمَ فَقَصَدْتَ بِالْأَذَى وَلَمْ تَرْهَبْ مُقَدِّمَهَا ، وَلَوْ أَتَيْتُ نُكْرًا ، لَكَانَ غَيْرُكَ أَدْرَى ، وَقَدْ وَقَعْتَ فِي أَمْرٍ مَا أَظُنُّكَ تَخْلُصَ مِنْهُ ، وَلَا يَسَعُكَ السُّكُوتُ عَنْهُ ، وَنَسِيتَ الْأَيَادِيَ الْجَمِيلَةَ ، وَالْمَبَرَّاتِ الْجَلِيلَةَ . فَلَمَّا سَمِعَ مُحَمَّدُ بْنُ حَفْصٍ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ قَالَ : هَذَا الْبَهْتُ[4] بِعَيْنِهِ ، وَأَيُّ أَيَادِيكَ الْغُرُّ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا ، وَعَنَيْتَ أَدَاءَ وَاجِبِهَا ؟ أَيَدٌ كَذَا أَمْ يَدٌ كَذَا ؟

---

(١) ليت شعرى أهو غير أبى عامر بن حفص بن أشعث القرطبى الذى كان فى عداد الفقهاء المشاورين والمشرفين باسم الوزارة فى مدة الفتنة ذلك كان عفيفا سهل الخلق أديبا من أماثل طبقته توفى سنة ٤٢٩ ، ولعلنا نبحث ذلك « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) من حافاه اذا ماراه ونازعه فى الكلام ، و بالغ فى مشارته ، وأحفى به: أزرى. وقد تكون استجفاه بالجيم (٣) معلم الشىء: مظنته ويقال هو معلم الخير من ذلك ، والمعلم ما يستدل به على الطريق من الاثر ، والأولى أن تقرأ معلمها (٤) بهته « كمنعه » بهتا اذا قال عليه مالم يفعل ، والبهت الكذب والباطل

ـ وَعَيَّنَ أَشْيَاءَ أَنْكَرَهَا مِنْهُ أَيَّامَ إِمَارَتِهِ ، وَتَصَرُّفِ الدَّهْرِ طَوْعَ إِشَارَتِهِ ـ فَقَالَ جَعْفَرٌ هَـذَا مَالَا يُعْرَفُ ، وَالْحَقُّ الَّذِي لَا يُرَدُّ وَلَا يُصْرَفُ ، رَفْعِي الْقَطْعَ عَنْ يُمْنَاكَ (٧) وَتَبْلِيغِي لَكَ إِلَى مُنَاكَ ، فَأَصَرَّ مُحَمَّدُ بْنُ حَفْصٍ عَلَى الْجَحْدِ . فَقَالَ جَعْفَرٌ : أَنْشُدُ اللَّهَ مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِمَا أَذْكُرُهُ ، إِلَّا اعْتَرَفَ بِهِ فَلَا يُنْكِرُهُ ، وَأَنَا أَحْوَجُ الْيَوْمَ إِلَى السُّكُوتِ ، وَلَا تُحْجَبُ دَعْوَتِي فِيهِ عَنِ الْمَلَكُوتِ . فَقَالَ الْوَزِيرُ أَحْمَدُ بْنُ عَبَّاسٍ : قَدْ كَانَ بَعْضُ مَا ذَكَرْتَهُ يَا أَبَا الْحَسَنِ وَغَيْرُ هَذَا أَوْلَى بِكَ ، وَأَنْتَ فِيمَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ مِحْنَتِكَ وَطَلَبِكَ . فَقَالَ أَحْرَجَنِي الرَّجُلُ فَتَكَلَّمْتُ ، وَأَحْوَجَنِي إِلَى مَا بِهِ أَعْلَمْتُ . فَأَقْبَلَ الْوَزِيرُ ابْنُ جَهْوَرٍ عَلَى مُحَمَّدِ ابْنِ حَفْصٍ وَقَالَ : أَسَأْتَ إِلَى الْحَاجِبِ ، وَأَوْجَبْتَ عَلَيْهِ غَيْرَ الْوَاجِبِ ، أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ مَنْكُوبَ السُّلْطَانِ لَا يُسَلِّمُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ؟ لِأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ أَلْزَمَهُمُ الرَّدَّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى

(١) يتهمه بالسرقة والخيانة واحتجان الأموال

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا » . فَإِنْ فَعَلُوا طَافَ بِهِمْ مِنْ إِنْكَارِ السُّلْطَانِ مَا يُخْشَى وَيُخَافُ ، لِأَنَّهُ تَأْنِيسٌ لِمَنْ أَوْحَشَ وَتَأْمِينٌ لِمَنْ أَخَافُ ، وَإِنْ تَرَكُوا الرَّدَّ أَسْخَطُوا اللهَ ، فَصَارَ الْإِمْسَاكُ أَحْسَنَ ، وَمِثْلُ هَذَا لا يَخْفَى عَلَى أَبِي الْحَسَنِ . فَانْكَسَرَ ابْنُ حَفْصٍ ، وَخَجِلَ مِمَّا أَتَى بِهِ مِنَ النَّقْصِ . وَبَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا تَوَجَّعُوا لَهُ ، وَتَفَجَّعُوا مِمَّا وَصَلَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ :

أَحِنُّ إِلَى أَنْفَاسِكُمْ فَأَظُنُّهَا
بَوَاعِثَ أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ إِلَى نَفْسِي

وَإِنَّ زَمَانًا صِرْتُ فِيهِ مُقَيَّدًا
لَأَثْقَلُ مِنْ رَضْوَى (١) وَأَضْيَقُ مِنْ أَمْسِ (٢)

---

(١) رضوى : جبل عظيم بالمدينة ، وهو الجبل الذى يزعم الكيسانية أن محمد بن الحنفية به مقيم حى يرزق

تغيب لا يرى فيهم زمانا   برضوى عنده عسل وماء

(٢) يجوز أن تكون أمس محرفة عن «رمس» وهو الأظهر والا فقد بالغ فى وصف الزمان بالضيق كما بالغ من قال :

براني الهوى برى المدى وأذابنى   صدودك حتى صرت أنحل من أمس
فلست أرى حتى أراك وانما   يبين هباء الذر فى ألق الشمس

انْتَهَى مَا تُرْجِمَ بِهِ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ ، وَلْنَرْجِعْ فَنَقُولُ

***

وَلَمَّا تُوُفِّيَ الْمَنْصُورُ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ* المظفر عبد الملك ابن المنصور

* ترجم له فى كتاب المغرب ، فى حلى المغرب « ص ٢٦ ج أول » بما يأتى :

« المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر »

ذكر ابن حيان ضبطه للدولة بعد موت أبيه ، ونفيه من خاف فتنته من الغلمان الى سبتة ، وأحبه الناس ، وانصب التأييد والاقبال عليه انصبابا لم يسمع بمثله ، وسكن الناس منه الى عفاف ونزاهة ، فأخذوا فى المكاسب والزينة ، وبلغت الأندلس فى أيامه الى نهاية الجمال والكمال ، وكان أحمد ابن فارس المنجم قد قال : لم يولد بالأندلس قط أسعد من المظفر على نفسه وعلى أبيه وحاشيته ، نعم وعلى أهل الأندلس طرا ، وانها لاتزال بخير حياته ، فاذا هلك لم تفلح ، فكان كذلك ، وكانت نفائس الأعلاق والآلات الملوكية قد ارتفعت فى وقته ارتفاعا عظيما ، وبلغت الأندلس فى مدته الى نهاية الهدوء والرفاهية ، وجرى على سنن أبيه من غزو النصارى ، وضبط الدولة ، ورام صهره عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع أن يأخذ الدولة ففطن به وعاجله وقتل فى مجلس المنادمة ، إلا أنه لم يكن فيه للأدب ما كان له من أبيه ، فقد وصفه ابن حيان بأنه كان مائلا الى مجالسة العجم الجفاة من البرابر والافرنج ، منهمكا فى الفروسية وآلاتها ، إلا أن أصحاب أبيه لم يخل بهم ولا جفاهم ، بل أبقاهم على رسمهم .

ٱلْمُظَفَّرُ أَبُو مَرْوَانَ فَجَرَى عَلَى سَنَنِ[1] أَبِيهِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلْغَزْوِ ، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ أَعْيَادًا دَامَتْ مُدَّةَ سَبْعِ سِنِينَ ، وَكَانَتْ تُسَمَّى بِالسَّابِعِ تَشْبِيهًا بِسَابِعِ ٱلْعَرُوسِ ، وَلَمْ يَزَلْ مِثْلَ ٱسْمِهِ مُظَفَّرًا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ فِي ٱلْمُحَرَّمِ ، وَقِيلَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ ، وَكَاتَبَهُ ٱلْمُعِزُّ بْنُ زِيرِي مَلِكُ مَغْرَاوَةَ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَرْجَعَ فَاسًا وَٱلْمَغْرِبَ إِثْرَ مَوْتِ أَبِيهِ[2] فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْعَهْدَ عَلَى ٱلْمَغْرِبِ ، وَثَارَتْ

---

(١) السنن : الطريقة، وسنن الطريق « بتثليث السين و بضمتين » ففيه أر بع لغات » نهجه وجهته ومحجته

(٢) بينا فيما سبق كيف انقرض أمر مكناسة من المغرب وانتقلت الدولة الى مغراوة و بنى يفرن ، وذلك فى مدة حجابة المنصور بن أبى عامر بقرطبة وعقد هشام لخزرون بن فلفول من ملوك مغراوة على سجلماسة وأعمالها وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها حتى توفى ، فولى أمر سلجلماسة من بعده ابنه « وانودين بن خزرون » حتى غلب ز يرى بن مناد على المغرب فعقد على سلجلماسة لحميد بن فضل المكناسى ، وفر وانودين بن خزرون عنها، ثم أعاده عبد الملك الى سلجلماسة بعد ذلك على قطيعة يؤديها اليه ، ثم استقل بها من سنة ٣٩٠ مقيما للدعوة الأموية بالأندلس ،وعاد المعز بن ز يرى بولاية المغرب عن المظفر بن أبى عامر وحاز عنه ولاية سجلماسة لكونها بيد وانودين الذى عظم ملكه وأضاف الى

اَلطَّوَائِفُ فِي مَمَالِكِهِمْ، وَتَحَرَّكَتِ الْجَلَالِقَةُ لِاسْتِرْجَاعِ مَعَاقِلِهِمْ وَحُصُونِهِمْ .

سلجلماسة غيرها من أعمال المغرب ، ولما توفى قام بالأمر بعده ولده مسعود ابن وانودين الى أن خرج عبد الله بن ياسين شيخ المرابطين فقتل مسعودا سنة ٤٤٥ وملك سلجلماسة ، فدخلت فى ملك المرابطين لأول أمرهم وانقرضت دولة بنى خزرون منها ثم تداولها من بعدهم ملوك الموحدين ثم ملوك بنى مرين — وتقدم أن زيرى بن عطية بن عبد الله «من مغراوة» توفى سنة ٣٩١ فبويع من بعده لابنه المعز بن زيرى فجرى على سنن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصور من بعده حتى توفى المنصور وقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر و بعث المعز بن زيرى يرغب الى المظفر فى عمل فاس والمغرب الاقصى فأجابه الى ذلك وكتب له عهده به « خلا سلجلماسة كما تقدم » و بقى المعز فى ولايته حتى توفى سنة ٤١٧ وولى من بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية بن زيرى . . ثم افتتح يوسف بن تاشفين مدينة فاس سنة ٤٦٢ « أحمد يوسف نجاتى »



﴿ انتهى الجزء الثالث من كتاب نفح الطيب ﴾
ويليه الجزء الرابع إن شاء الله وأوله
﴿ عبد الرحمن الناصر لدين الله بن أبى عامر ﴾

مسألة كلامية

مسألةعرض ، ليوم العرض ، لاموضوع فرض ،ولا انتحال قرض ، فهي روحانية الحوار ، أدبية النشوار ، نورانية الاصدار ، قامت بين أربعة من السلف الأخيار ، أئمة العربية الجهابذة الأحبار ، عن صديق لهم خامس مختار ، وقرين فيما استظهروه من أسفار ، وان كان فى تواضعه العلمى ، وتنكبه عن الأنظار ، قد حير العقول ، والأفهام ، والأبصار .

أما الأربعة الكرام : فهم المرحومون . السيد بن على المرصفى ، والسيد الشنقيطى ، والسيد توفيق البكرى ، وأستاذنا المرحوم السيد حمزة فتح الله ، وهم ممن ذهبوا بعظان الأدب العربى ، وذهبت بهم ، وتغلغلوا فى مبانيها ومعانيها ، بقدر ما تغلغلت فى دمائهم ، وآثروا العزلة والعلم والدرس والفهم ، على لذة الجاه والمنصب ، والمال والنشب ، فأحبوا من هذه الخلال خلاله ، وأجلوا من تلك الخصال خصاله ، فراح كل للأدب نصيرا ، و باللغة بصيرا ، وبمداخلها ومخارجها عليما خبيرا .

أما موضوع العرض ؛ فهو نداء إلى مصدر نفح الطيب للمقرى ، أن يمهد السبيل لنفسه من الآن ، ويعد العدة لمال جديد ، لأن أجزاءه ستزيد عما حدده من قبل ، لاعتبارات سردوها ، نشأت عن خصال ركبت فى شخص صاحبهم الخامس ، الذى أهداه الينا القدر ، ليكون مراجع الكتاب

و إننى قد صممت أن أنتقم للمال هنا ، وإن كنت أكره الانتقام دواما ، فأعرض عن ذكر اسمه ، وإن كان هو فى العرض مدرارا ، وفى الشرح مكثارا ، وان اتقى زلات وعثارا ، وكيف لا أفعل ذلك ، وستزاد الأجزاء حوالى الثلث ، ناهيك بليال سيضنى سهدها ، ومال سينفد ، وصحة ستفنى .

وما يغنيني من ذكر إجماع هؤلاء الأئمة ، لأن خامسهم هو أستاذنا مراجع الوزارة ، المنتدب للاشراف على نفح الطيب ، وقول السيد ابن على المرصفى : حياك الله و بياك . خامسنا فى المهنة والصناعة ، وولدنا فى الذكاوة والبضاعة ، والنزعة والرضاعة ، فقد والله أرحت نفوسنا ، وأثلجت صدورنا ، يابن نجاتى ، وقد والله انقعت الغلة ، وأعدت الروعة ، فأنت الخليق من بعدنا بوراثة البيان ، فى غير إجحاف بما لزملائك الكرام ، من أسهم صائبات ، وحسنات فى خدمة اللغة إثر حسنات ، فكلكم والله باعثو نهضتها ، وناشرو جدتها .

ثم قول الشنقيطى : ولا تنس وقد ذكرت ولدنا « أحمد بن يوسف نجاتى » أن تهتف للقرآن وللعربية ، وللغة وللمحمدية ، وللبلاغة والعدنانية ، فلنثبت ونحن فى دار البقاء ، ما يمنع النفاق نشره فى دار الفناء ، فنقول عنه ونعدد فى سجل حسناته ، وتثبت فى صحيفة بلائه ، أنه كم فى اللغة والأدب ، لمتباين النشر ، وهاتن الثأى ، ضم ورأب ، وكم لمتسع الثغر ومستعصى الصدع ، سد وشعب ، وكم خال أصلح ، وخطأ أفصح ، ومبهم أوضح ، وكم فى اصابة هدف الصواب أفلح ، وأنجح وأسجح . وكم لكلام الكلام نكأ وأنهر ، ولزيغ مخارق النساخ أصلح وأظهر ، وكان — علم الله — لطلاسمهم المعماة ، وأحاجيهم المدجاة ، مبصر عشاة ، وزعيم أساة ، بل كان وايم الحق امام نحاة ، وشيخ رواة .

ولقد أبى صاحب الصهاريج ، وأراجيز العرب ، الا أن يمتح بدلائه ، ويعرض لآلائه فقال عنه :

أما فى الشعر وقوافيه ، وما طار من قوادمه وخوافيه ، أو طمس من أواسطه ومبانيه ، فلقد كان — والله — زميلنا «أحمد» نعم الحادى والرائض والهادى والقارض ، والأصمعى وابن الفارض ، فى براءة من صنعة حماد ، وفى طراوة من بلاغة ابن العماد .

وهنا أمسك شيخنا السيد حمزة فتح الله بعثنونه ، فقال كعادته :

أما فى الشرح والايضاح ، والتذييل وحوك الوشاح ، وصبر أيوب فى الابانة والافصاح ، فان صاحبنا فى هذه الدروب والنواحى ، والفجاج والمناحى — حرسه الله من الحسود الحقود المتشكك — عذيقها المرجب ، وجذيلها المحكك . أقول :

وماذا يعنينا المضى فى اثبات نصوص ذلك الحوار ، بعد ما أصابنا ما أصابنا من وراء جهد صاحبه المختار ، من زيادة الورق والأسفار ، ومواصلة الليالى بالآصال ، والبكور بالأسحار ، فلنصر على انتقامنا — أستغفر الله من هذه الخصلة الذميمة — ولنعرض عن ذكر اسمه كاملا . والحمد لله أولا وآخرا ، عليه توكلى واليه المآب .

احمد فريد رفاعى

دار المأمون فى { ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٥ / ٥ ديسمبر سنة ١٩٣٦ }

شُكْرًا شُكْرًا

وَهَلْ يَخْتَفِى اسْمِى أَيْنَ كُنْتُ وَقَدْ وَشَى

بِرَيَّاهُ نَفْحُ الطِّيبِ لَمَّا تَضَوَّعَا ؟

احمد يوسف نجاتى

الجيزة فى { ٢١ من رمضان سنة ١٣٥٥ / ٦ من ديسمبر سنة ١٩٣٦ }

فهرس

الجزء الثالث من كتاب نفح الطيب



مطبوعات دار المأمون

الدكتور أحمد فريد رفاعى
مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة
المصرية

الوقت من ذهب
مكتبة القراءة والثقافة
الأدبية

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري

مضبوطة ومشروحة ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الرابع

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن. ولو قدم هذا لكان أفضل. ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

***

عبد الرحمن الناصر لدين الله

« قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ » ثُمَّ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ أَخُوهُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ ، وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللّٰهِ وَقِيلَ بِالْمَأْمُونِ ، وَجَرَى عَلَى سَنَنِ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فِي الْحَجْرِ عَلَى الْخَلِيفَةِ هِشَامٍ وَالِاسْتِبْدَادِ عَلَيْهِ ، وَالِاسْتِقْلَالِ بِالْمُلْكِ دُونَهُ ، ثُمَّ ثَابَ[1] لَهُ رَأْيٌ فِي الِاسْتِئْثَارِ بِمَا بَقِيَ مِنْ رُسُومِ الْخِلَافَةِ ، فَطَلَبَ مِنْ هِشَامٍ الْمُؤَيَّدِ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَهْدَهُ فَأَجَابَهُ ، وَأَحْضَرَ لِذَلِكَ الْمَلَأَ مِنْ أَرْبَابِ الشُّورَى وَأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، فَكَانَ يَوْمًا

(١) ثاب له رأى : عرض له .

مَشْهُودًا، فَكَتَبَ عَهْدَهُ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي حَفْصِ بْنِ بُرْدٍ[1] بِمَا نَصُّهُ :

***

عهد هشام المؤيد بالله

هَذَا مَا عَهِدَ بِهِ هِشَامٌ الْمُؤَيَّدُ بِاللهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ، وَعَاهَدَ اللهَ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ خَاصَّةً، وَأَعْطَى بِهِ صَفْقَةَ يَمِينِهِ بَيْعَةً تَامَّةً ، بَعْدَ أَنْ أَمْعَنَ فِي النَّظَرِ ، وَأَطَالَ الِاسْتِخَارَةَ[2] وَأَهَمَّهُ مَا جَعَلَ اللهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِمَامَةِ ، وَعُصِبَ[3] بِهِ

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن برد من أهل قرطبة مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد ، كان ابن برد من فحول البيان وأقطاب البلاغة كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا مليح الشعر حسن الديباجة، وهو من أهل بيت رياسة وأدب ، وله رسالة فى السيف والقلم والمفاخرة بينهما وهو أول من سبق بالقول فى ذلك بالأندلس ، وكان من كتاب ديوان الانشاء فى دولة العامريين وكتب للمظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر وله رسائل كثيرة تدل على قدرته فى البلاغة وطول باعه فى السياسة توفى سنة ٤٢٨ «ومن شعره » أوهو حفيده أبو حفص بن برد الأصغر :

تأمل فقد شق البهار مغلسا كمامه عن نواره الخضر الندى
مداهن تبر فى أنامل فضة على أذرع مخروطة من زبرجد

(٢) استخار : طلب الخيرة ، ويقال استخر الله يخر لك ، والله يخير العبد اذا استخاره (٣) العصب الشد ولزوم الشىء ، ويقال عصب الرجل بيته « كضرب » اذا أقام فيه لازما له لايبرحه ، وفى حديث على كرم الله وجهه فروا الى الله وقوموا بما عصبه بكم ، أى بما افترضه عليكم وقرنه بكم من أوامره ونواهيه ، وفلان تعصب الأمور برأسه : أى تناط به

مِنْ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاتَّقَى حُلُولَ الْقَدَرِ بِمَالَا يُؤْمَنُ ، وَخَافَ نُزُولَ الْقَضَاءِ بِمَالَا يُصْرَفُ ، وَخَشِيَ إِنْ هَجَمَ مَحْتُومُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَنَزَلَ مَقْدُورُهُ بِهِ ، وَلَمْ يَرْفَعْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَمًا تَأْوِي إِلَيْهِ ، وَمَلْجَأً تَنْعَطِفُ عَلَيْهِ ، أَنْ يَكُونَ يَلْقَى رَبَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مُفَرِّطًا سَاهِيًا عَنْ أَدَاءِ الْحَقِّ إِلَيْهَا ، وَتَقَصَّى[1] عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ أَحْيَاءِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهَا مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسْنَدَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَيْهِ ، وَيُعَوَّلَ فِي الْقِيَامِ بِهِ عَلَيْهِ ، مِمَّنْ يَسْتَوْجِبُهُ بِدِينِهِ وَأَمَانَتِهِ ، وَهَدْيِهِ وَصِيَانَتِهِ ، بَعْدَ اطِّرَاحِ الْهَوَى[2] وَالتَّحَرِّي لِلْحَقِّ ، وَالزُّلْفَى[3] إِلَى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِمَا يُرْضِيهِ ، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعَ الْأَوَاصِرَ[4] وَأَسْخَطَ الْأَقَارِبَ ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا أَجْدَرَ أَنْ

---

(١) تقصى فى الأمر واستقصى : بلغ غايته القصوى ، وكذا تقصى الأمر واستقصاه وفى الأصل «نقص» محرفة (٢) ميل النفس ومحبة الانسان للشئ وغلبته على قلبه (٣) التقرب ، والمنزلة والرتبة والدرجة ، ومنه قوله تعالى : «وماأموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى» (٤) جمع آصرة : وهو مايعطف المرء على غيره من رحم أو قرابة أو معروف ومنة — يقال ماتعطفنى على فلان آصرة ، أى ماتعطفنى عليه عاطفة من قرابة أو منة ، و بينهم آصار يرعونها : أى عهود ومواثيق ، وعطف مولاى علىّ بغير آصرة ونظر فى أمرى بعين باصرة

يُوَلِّيَهُ عَهْدَهُ، وَيُفَوِّضَ إِلَيْهِ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ، لِفَضْلِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ خِيمِهِ[1] وَشَرَفِ مَرْتَبَتِهِ وَعُلُوِّ مَنْصِبِهِ، مَعَ تُقَاهُ وَعَفَافِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحَزْمِهِ، مِنَ الْمَأْمُونِ الْغَيْبِ، النَّاصِحِ الْجَيْبِ[2]، أَبِي الْمُطَرِّفِ[3] عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ الْمَنْصُورِ أَبِي عَامِرٍ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ ـ وَفَّقَهُ اللهُ ـ، إِذْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ـ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى ـ قَدِ ابْتَلَاهُ[4] وَاخْتَبَرَهُ، وَنَظَرَ فِي شَأْنِهِ وَاعْتَبَرَهُ فَرَآهُ مُسَارِعًا فِي الْخَيْرَاتِ، سَابِقًا فِي الْحَلَبَاتِ[5]، مُسْتَوْلِيًا عَلَى الْغَايَاتِ، جَامِعًا لِلْمَأْثُرَاتِ، وَمَنْ كَانَ الْمَنْصُورُ أَبَاهُ وَالْمُظَفَّرُ أَخَاهُ، فَلَا غَرْوَ[6] أَنْ يَبْلُغَ مِنْ سُبُلِ الْبِرِّ مَدَاهُ، وَيَحْوِيَ مِنْ خِلَالِ الْخَيْرِ مَا حَوَاهُ. مَعَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ـ أَيَّدَهُ اللهُ ـ بِمَا طَالَعَ مِنْ مَكْنُونِ الْعِلْمِ، وَوَعَاهُ مِنْ مَخْزُونِ

---

(١) طبعه وسجيته وأصله ـ أو هو الخلق وسعة الصدر وقال الشاعر:

ومن يبتدع ماليس من خيم نفسه ... يدعه ويغلبه على النفس خيمها

(٢) يقال هو ناصح الجيب: أى القلب والصدر يعنى أمينهما قال عنترة:

لعمرى لقد أعذرت لو تعذرينى ... وخشنت صدرا جيبه لك ناصح

(٣) فى الاصل «الظفر» وهو تحريف، وأبو المطرف كنية تغلب جدا فيمن يسمى عبد الرحمن (٤) أى امتحنه وجربه (٥) الحلبات: ميادين الحروب والسباق (٦) لاغرو: لاعجب

ٱلْأَثَرِ، يَرَى أَنْ يَكُونَ وَلِيَّ عَهْدِهِ ٱلْقَحْطَانِيُّ ٱلَّذِي حَدَّثَ عَنْهُ عَبْدُ ٱللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِي وَأَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ يَسُوقُ ٱلنَّاسَ بِعَصَاهُ[1]».

---

(١) الحديث: رواه البخاري ومسلم، وفي البخاري: حدثنا عبدالعزيز ابن عبد الله قال حدثني سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال: لاتقوم الساعة حتى يقوم رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه» اه، وفي رواية حتى يخرج رجل. وقوله « حتى يسوق الناس بعصاه » كناية عن تملكه وغلبته على الناس وانقيادهم له، شبهه بالراعي وشبه الناس بالغنم اشارة الى قوة التصرف الذي يملكه الراعي في الغنم، ولم يرد العصا نفسها وان كان قد يشار بذكرها الى قسوته عليهم وعنفه بهم وأخذه اياهم بالشدة. وهذا الحديث يدخل في علامات النبوة من جملة ما أخبر به النبي — صلى الله عليه وسلم — قبل حدوثه ولم يقع بعد، واستدل به بعض العلماء على أن الخلافة يجوز أن تكون في غير قريش، وأجاب ابن العربي عن ذلك بأنه انذار بما سيكون من الشر في آخر الزمان من تسور العامة على منازل الامارة والاستقامة، فليس فيه حجة لأنه لايدل على المدعى ولا يعارض ماثبت من أن الأئمة من قريش. وفي البخاري في موضع آخر: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية وهو عنده « بالشام » في وفد من قريش « عند ما بويع بالخلافة لما سلم له الحسن بن علي فأرسل أهل المدينة اليه جماعة منهم ليبايعوه » أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك من قحطان،

فغضب معاوية فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فانه بلغنى أن رجالا منكم يتحدثون أحاديث ليست فى كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأولئك جهالكم فاياكم والأمانى التى تضل أهلها فانى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول ان هذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ماأقاموا الدين » اه .

وقول سيدنا معاوية « فأولئك جهالكم » يريد الذين يتحدثون بأمور من حوادث الغيب وشؤون المستقبل لايستندون فيها الى الكتاب أو السنة ومناسبة قوله « فاياكم والأمانى التى تضل أهلها » أن ذكر ذلك تحذير لمن يسمع من القحطانيين من التمسك بالخبر المذكور فتحدثه نفسه أن يكون هو القحطانى ، وقد تكون له عصبية وعشيرة ذات قوة فيطمع فى الملك مستندا الى هذا الحديث فيضل لمخالفة الحكم الشرعى من أن الأئمة من قريش ، وقوله « لايعاديهم الخ » أى لاينازعهم أحد فى أمر الخلافة ولا يبدى لهم صفحته مجاهرا بالخلاف والعداء الا كان مقهورا فى الدنيا معذبا فى الآخرة . وفى انكار سيدنا معاوية ذلك نظر فان الحديث الذى استدل به مقيد باقامة الدين فيحتمل أن يكون خروج القحطانى اذا لم تقم قريش بأمر الدين وقد وجد ذلك فان الخلافة كانت فى قريش والناس فى طاعتهم حتى استخفوا بأمر الدين فضعف أمرهم وتلاشى الى أن لم يبق لهم من الخلافة سوى اسمها المجرد فى بعض الأقطار دون أكثرها ، وانما أنكر معاوية على عبد الله بن عمرو لأنه حمل حديث عبدالله على ظاهره ، وقد يكون الغرض منه أن قحطانيا يخرج فى ناحية من النواحى لاأن حكمه يشمل الأقطار كلها كما تقدم فلا يعارض حديث معاوية ، على أنه يجوز أن يكون ملك يغلب على الناس من غير أن يكون خليفة ، ولأنه أراد أن يقطع طمع النازعين الى الأمر من غير قريش خشية أن يظن أحد أن الخلافة تجوز فى غيرهم فلما خطب بذلك دل على أن الأمر عندهم كما قال اذ لم ينقل أن أحدا منهم أنكر عليه ، وان كان لايلزم من

***

تفويض الخلافة

فَلَمَّا اُسْتَوَى[١] لَهُ ٱلِاخْتِيَارُ ، وَتَقَابَلَتْ عِنْدَهُ فِيهِ ٱلْآثَارُ ، وَلَمْ يَجِدْ عَنْهُ مَذْهَباً ، وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مَعْدِلًا[٢] خَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ تَدْبِيرِ ٱلْأُمُورِ فِي حَيَاتِهِ ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ ٱلْخِلَافَةَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، طَائِعاً رَاضِياً مُجْتَهِداً ، وَأَمْضَى أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ هَذَا وَأَجَازَهُ ، وَأَنْجَزَهُ وَأَنْفَذَهُ ، وَلَمْ يَشْرِطْ فِيهِ

عدم انكارهم صحة انكار معاوية ماذكره عبد الله بن عمرو فان فى حديثه مايقوى ماأنكره لقوله «ماأقاموا الدين» فهذا القيد المؤقت يدل على أنه ربما كان فى قريش من لا يقيم الدين فيتسلط القحطانى عليه. وأخرج الطبرانى من طريق قيس بن جابر الصدفى عن أبيه عن جده رفعه: «سيكون من بعدى خلفاء ثم من بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك ومن بعد الملوك جبابرة ثم يخرج رجل من أهل بيتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ثم يؤمر القحطانى فوالذى بعثنى بالحق ماهو دونه» اه. وروى أحمد والطبرانى من حديث ذى مخمر الحبشى مرفوعا: كان الملك قبل قريش فى حمير وسيعود اليهم. اه. هذا خلاصة كل مايتعلق بحديث القحطانى من البخارى ومسلم وغيرهما من كتب الحديث، ولنا فى هذا الموضوع رأى واليه عودة ان شاء الله. «وذو مخمر» كمنبر الحبشى ويقال مخبر بالباء هو ابن أخى النجاشى ملك الحبشة صحابى خدم النبى صلى الله عليه وسلم وله خمسة أحاديث ونزل الشام وحديثه عند الدمشقيين «أحمد يوسف نجاتى».

(١) أى استقام وتم (٢) المذهب: موضع الذهاب والانصراف، والمعدل: محل العدول عن الشئ والاعراض عنه والابتعاد.

مَثْنَوِيَّةً(١) وَلَا خِيَارًا، وَأَعْطَى عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَذِمَمَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَذِمَّةَ نَفْسِهِ أَلَّا يُبَدِّلَ وَلَا يُغَيِّرَ وَلَا يَحُولَ وَلَا يَزُولَ، وَأَشْهَدَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، وَأَشْهَدَ مَنْ أَوْقَعَ اسْمَهُ فِي هَذَا وَهُوَ جَائِزُ(٢) الْأَمْرِ، مَاضِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، بِمَحْضَرٍ مِنْ وَلِيِّ عَهْدِهِ الْمَأْمُونِ أَبِي الْمُطَرِّفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْمَنْصُورِ - وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَبُولِهِ مَا قَلَّدَهُ، وَإِلْزَامِهِ نَفْسَهُ مَا أَلْزَمَهُ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَكَتَبَ الْوُزَرَاءُ وَالْقُضَاةُ وَسَائِرُ النَّاسِ شَهَادَاتِهِمْ بِخُطُوطِ أَيْدِيهِمْ، وَتَسَمَّى بَعْدَهَا بِوَلِيِّ الْعَهْدِ. وَنَقِمَ(٣) عَلَيْهِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ ذَلِكَ، فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ(٤) وَانْقِرَاضُ دَوْلَتِهِ وَدَوْلَةِ قَوْمِهِ، وَكَانَ أَسْرَعُ

(١) يقال حلف فلان يمينا ليس فيها ثنيا، ولا ثنوى ولا ثنوية ولا ثنية أي استثناء. وحلفة غير ذات مثنوية أي غير محللة قال النابغة:

حلفت يمينا غير ذي مثنوية ... ولا علم الا حسن ظن بصاحب

(٢) أي نافذ: ماض (٣) نقم عليه: أنكر عليه وكره وعاب (٤) الحتف: الهلاك والموت، وتذكرت عند ذلك قول الشاعر:

واذا استوت للنمل أجنحة ... حتى يطير فقد دنا عطبه

ٱلنَّاسِ كَرَاهَةً لِذَلِكَ ٱلْأُمَوِيِّينَ وَٱلْقُرَشِيِّينَ[١]، فَغَصُّوا بِأَمْرِهِ[٢] وَأَسِفُوا مِنْ تَحْوِيلِ ٱلْأَمْرِ جُمْلَةً مِنَ ٱلْمُضَرِيَّةِ إِلَى ٱلْيَمَنِيَّةِ، فَٱجْتَمَعُوا لِشَأْنِهِمْ، وَتَمَشَّتْ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ رِجَالَاتُهُمْ وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ فِي غَيْبَةٍ مِنَ ٱلْمَذْكُورِ بِبِلَادِ ٱلْجَلَالِقَةِ فِي غَزَاةٍ مِنْ صَوَائِفِهِ، وَوَثَبُوا بِصَاحِبِ ٱلشُّرْطَةِ فَقَتَلُوهُ بِمَقْعَدِهِ مِنْ بَابِ قَصْرِ ٱلْخِلَافَةِ بِقُرْطُبَةَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ وَخَلَعُوا هِشَامًا ٱلْمُؤَيَّدَ.

***

بيعة محمد بن هشام

وَبَايَعُوا مُحَمَّدَ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ مِنْ أَعْقَابِ ٱلْخُلَفَاءِ وَلَقَّبُوهُ ٱلْمَهْدِيَّ[*] بِٱللهِ،

---

(١) كذا بالأصل، والأولى أن يكون «الأمويون والقرشيون» بالرفع اسما لكان وأسرع بالنصب خبرها مقدما (٢) مجاز من الغصة «أي تألموا واغتاظوا وحقدوا — وغص بالطعام أو بالماء اذا شرق به أو وقف فى حلقه فلم يكد يسيغه — وأغصه بريقه: أضجره وأقلقه

* ترجم له فى كتاب الدروس التاريخية «ج ١» للخضرى بما يأتى:
محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ادريس المتلقب بالمهدى. بويع من أهل الدولة عقب خلع هشام المؤيد، وعلى يده قتل عبدالرحمن الحاجب حين رجع من غزوته، وولاية المهدى أثارت ثائرة عصبية جديدة

وَطَارَ ٱلْخَبَرُ إِلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْحَاجِبِ بْنِ ٱلْمَنْصُورِ بِمَكَانِهِ مِنَ ٱلثَّغْرِ فَانْفَضَّ جَمْعُهُ ، وَقَفَلَ إِلَى ٱلْحَضْرَةِ مُدِلًّا بِمَكَانِهِ ، زَعِيماً بِنَفْسِهِ ، حَتَّى إِذَا قَرُبَ مِنَ ٱلْحَضْرَةِ تَسَلَّلَ[١] عَنْهُ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْجُنْدِ وَوُجُوهِ ٱلْبَرْبَرِ وَلَحِقُوا بِقُرْطُبَةَ

***

قتل عبد الرحمن الحاجب

وَبَايَعُوا ٱلْمَهْدِيَّ ٱلْقَائِمَ بِٱلْأَمْرِ وَأَغْرَوْهُ بِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْحَاجِبِ لِكَوْنِهِ مَاجِناً مُسْتَهْتَراً[٢] غَيْرَ صَالِحٍ لِلْأَمْرِ ، فَاعْتَرَضَهُ مِنْهُمْ مَنْ قَبَضَ عَلَيْهِ وَٱحْتَزَّ رَأْسَهُ وَحَمَلَهُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ وَإِلَى ٱلْجَمَاعَةِ ، وَذَهَبَتْ دَوْلَةُ ٱلْعَامِرِيِّينَ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ، وَفِي ٱلْمَهْدِيِّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ :

فان البرابرة الذين جندهم المنصور الحاجب نقم عليهم المهدى وأهل الدولة فلما رأوا ذلك أسروا الخروج على المهدى ومبايعة هشام بن سليمان بن الناصر فظهر أمرهم وأخذ هشام هذا فقتل وطرد البربر خارج قرطبة ولحق بهم سليمان بن الحكم فاتفقوا على خلع المهدى ومبايعته ولقبوه بالمستعين بالله .

(١) هربوا فى خفية بعضهم وراء بعض (٢) المستهتر بالشىء : المولع به لايتحدث بغيره لايبالى بما يقال فيه لأجله ، والذى كثرت أباطيله — وفى حديث ابن عمر «اللهم انى أعوذ بك أن أكون من المستهترين» — وقد استهتر بكذا « بالبناء للمفعول » اذا فتن به وذهب عقله فيه وانصرفت همه اليه حتى أكثر القول فيه بالباطل

قَدْ قَامَ مَهْدِيُّنَا وَلَكِنْ بِمِلَّةِ الْفِسْقِ وَالْمُجُونِ (١)
وَشَارَكَ النَّاسَ فِي حَرِيمٍ لَوْلَاهُ مَا زَالَ بِالْمَصُونِ
مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَا أَجَمًّا (٢) فَالْيَوْمَ قَدْ صَارَ ذَا قُرُونِ

---

(١) المجون صلابة الوجه وقلة الحياء ، من مجن الشيء مجونا اذا صلب وغلظ ، والماجن من لا يبالي ماقيل له ولا ماصنع كأنه لقلة استحيائه صلب الوجه — والمجون بهذا المعنى كلة مولدة دخيلة لاتعرفها العرب وانما تعرف أصلها المتقدم ، وقيل الماجن عند العرب هو الذى يرتكب القابح المردية والفضائح المخزيه ولا يمضه عذل عاذله ولا تقريع من يقرعه (٢) الأجم الكبش بغير قرن « ومثله فى البقر الأجلح » واطلاق « قرنان » وذى القرون على من لايغار على عرضه وحريمه عامى مولد كأنهم جعلوه حيوانا لايغار على أهله ، وقال ابن طباطبا فى على بن رستم وقد هدم شيئا من من سور أصبهان « الذى بناه ذو القرنين قديما » ليزيد فى داره :

وقد كان ذوالقرنين يبنى مدينة فما بال ذى القرنين يهدم سورها
على أنه لو حل فى صحن داره بقرن له سيناء هدم طورها

وقال ابن نباتة :

سلبت محاسنك الغزال صفاته حتى تحير كل ظبي فيكا
لك جيده ولحاظه ونفاره وكذا نظير قرونه لأبيكا

وقال بعض المحدثين :

قالت لجارتها يوما تعيرها قرنت زوجك والتقرين يفضحه
قالت أأتركه زوجا بلا قرن يجيء زوجك ذو القرنين ينطحه

***

الإيقاع برؤساء البربر وزناتة

وَكَانَ رُؤَسَاءِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ لَحِقُوا بِالْمَهْدِيِّ لِمَا رَأَوْا مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَاجِبِ وَانْتِقَاضِ أَمْرِهِ ، وَكَانَتِ الْأُمَوِيَّةُ تَعْتَدُّ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ مِنْ مُظَاهَرَتِهِمُ الْعَامِرِيِّينَ، وَتَنْسُبُ تَغَلُّبَ الْمَنْصُورِ وَبَنِيهِ[1] عَلَى الدَّوْلَةِ إِلَيْهِمْ فَسَخِطَتْهُمُ الْقُلُوبُ ، وَخَزَرَتْهُمُ[2] الْعُيُونُ ، وَلَوْلَا مَالَهُمْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ لَاسْتَأْصَلَهُمُ النَّاسُ ، وَلَغَطَتْ أَلْسِنَةُ الدَّهْمَاءِ[3] مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِكَرَاهَتِهِمْ ، وَأَمَرَ الْمَهْدِيُّ أَلَّا يَرْكَبُوا وَلَا يَتَسَلَّحُوا ، وَرَدَّ بَعْضَ رُؤَسَائِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ مِنْ بَابِ الْقَصْرِ ، فَانْتَهَبَتِ الْعَامَّةُ دُورَهُمْ ، وَشَكَا بَعْضُهُمْ إِلَى الْمَهْدِيِّ مَا أَصَابَهُمْ ، فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ وَقَتَلَ مَنِ اتُّهِمَ مِنَ الْعَامَّةِ فِي

---

(١) في الأصل « وغيره » وهو تحريف (٢) خزره خزرا إذا نظر إليه بلحاظ العين يفعل الرجل ذلك كبرا واستخفافا بالمنظور إليه وسخطا عليه وغيظا منه

(٣) الدهماء العامة والعدد الكثير وجماعة الناس وكثرتهم ، أو السواد الأعظم من الناس ـ واللغط الصوت والجلبة أو أصوات مبهمة لا تفهم ـ وفي الأصل لفظت أي نطقت وصرحت .

أَمْرِهِمْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُظْهِرٌ لِبُغْضِهِمْ ، مُجَاهِرٌ بِسُوءِ ٱلثَّنَاءِ[1] عَلَيْهِمْ ، وَبَلَغَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ ٱلْفَتْكَ بِهِمْ ، فَتَمَشَّتْ رِجَالَاتُهُمْ وَأَسَرُّوا نَجْوَاهُمْ[2] ، وَٱشْتَوَرُوا فِي تَقْدِيمِ هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ ٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرِ ، وَفَشَا فِي ٱلْخَاصَّةِ حَدِيثُهُمْ ، فَعُوجِلُوا عَنْ مَرَامِهِمْ ذَلِكَ ، وَأُغْرِيَ بِهِمُ ٱلسَّوَادُ ٱلْأَعْظَمُ ، فَثَارُوا بِهِمْ وَأَزْعَجُوهُمْ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ ، وَقُبِضَ عَلَى هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ ، وَأَخِيهِ أَبِي بَكْرٍ ، وَأُحْضِرَا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَهْدِيِّ فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمَا .

---

(١) الثناء وصف بمدح أو بذم قال الليث : الثناء تعمدك لتثنى على انسان بحسن أو قبيح ، أو خاص بالمدح وهو الغالب المستعمل ، وان كان عموم الثناء فى الخير والشر هو الذى جزم به كثيرون واستدلوا بالحديث : «من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار » ومثله : ثبوت له خيرا أو شرا اذا وجهته اليه ، وكذلك الثنا ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو قبيح ، قال :

فاضل كامل جميل ثناه أريحى مهذب منصور

وقال جميل :

ألوب الخدر واضحة المحيا لعوب دلها حسن ثناها

(٢) النجوى : السر ، وناجاه : ساره

***

سليمان بن الحكم

وَلَحِقَ سُلَيْمَانُ(١) ابْنُ أَخِيهِمَا الْحَكَمِ * بِجُنُودِ الْبَرْبَرِ ، وَقَدِ اجْتَمَعُوا بِظَاهِرِ قُرْطُبَةَ وَتَوَامَرُوا(٢) ، فَبَايَعُوهُ وَلَقَّبُوهُ الْمُسْتَعِينَ بِاللهِ ، وَنَهَضُوا بِهِ إِلَى ثَغْرِ طُلَيْطُلَةَ فَاسْتَجَاشَ(٣) بِابْنِ أَذْفُونْشَ ، ثُمَّ نَهَضَ فِي جُمُوعِ الْبَرَابِرَةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ إِلَى قُرْطُبَةَ ، وَبَرَزَ إِلَيْهِ الْمَهْدِيُّ فِي كَافَّةِ أَهْلِ الْبَلَدِ ، وَخَاصَّةِ

---

(١) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر عبد الرحمن

* ترجم له فى كتاب الدروس التاريخية للخضرى «ج ١ ص ١٠٥» سليمان بن عبد الحكم الملقب بالمستعين بالله

بعد خلع هشام اتفق البربر على مبايعة سليمان بن الحكم وتلقيبه بالمستعين بالله ولدوء رأيهم استجاشوا بملك قشتالة الفونس الخامس فأمدهم بجند كثيف وذهب معهم الى قرطبة فحاربوا المهدى وقتلوا من جنده نحو عشرين ألفا وملك المستعين قرطبة ورجع الفونس الى مقر ملكه فخرج المهدى اليه مستنجدا به فأنجده وهذا هو كل مايتمناه من وقوع الخلاف بين هؤلاء البله الذين لايريدون الا مصالح أنفسهم فجاء المهدى والفونس الى قرطبة وحارب المستعين بالله حتى استولى المهدى ثانية على قرطبة وخرج المستعين والبربر يعيثون فى الأرض فسادا فتعقبهما المهدى والفونس فكر عليهم المستعين وقاتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم

(٢) توامروا وتآمروا : تشاوروا .

(٣) استجاشه: طلب منه جيشا واستغاثه واستنصره

ٱلدَّوْلَةِ ، فَكَانَتِ ٱلدَّائِرَةُ عَلَيْهِمْ ، وَٱسْتُلْحِمَ مِنْهُمْ مَا يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ أَلْفاً ، وَهَلَكَ مِنْ خِيَارِ ٱلنَّاسِ وَأَئِمَّةِ ٱلْمَسَاجِدِ وَسَدَنَتِهَا وَمُؤَذِّنِيهَا عَالَمٌ ، وَدَخَلَ ٱلْمُسْتَعِينُ قُرْطُبَةَ خِتَامَ ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ ، وَلَحِقَ ٱلْمَهْدِيُّ بِطُلَيْطُلَةَ ، وَٱسْتَجَاشَ بِابْنِ أَذْفُونْشَ ثَانِيَةً فَنَهَضَ مَعَهُ إِلَى قُرْطُبَةَ وَهَزَمَ ٱلْمُسْتَعِينَ وَٱلْبَرَابِرَةَ بِعَقَبَةِ ٱلْبَقَرِ (١) مِنْ ظَاهِرِ قُرْطُبَةَ (٢) وَدَخَلَ قُرْطُبَةَ أَغْنِي ٱلْمَهْدِيَّ

---

(١) موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلا منها (٢) قتل فى هذه الواقعة كثير ومن ممن خرجوا مع سليمان المستعين من أكابر الفقهاء والقراء والعلماء ولاسيما من أهل قرطبة. فممن استشهد منهم أبو محمد عبد الله بن عبد العزيز القرطبي قاضي ألبيرة ، وأبو عمر أحمد بن بريل أحد القراء المجودين والحفاظ الفضلاء ، ومنهم أبو الربيع سليمان بن هشام بن وليد بن كليب المقرى المعروف بابن القماز كان فى عصره أحفظ الناس وأعرفهم بالقراءات وأكثرهم ملازمة للاقراء ليلا ونهارا وأطيبهم بالذكر الحكيم صوتا وأعذبهم ترتيلا وتلاوة ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن قند اللغوى كان من أهل البراعة والمعرفة والنفاذ فى الفقه والحديث متفننا فى ضروب العلم ضليعا بعلم الغريب وحفظ اللغة وكان من أصحاب المستعين وممن رفع ذكره وقرب مجلسه — ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بابن البريلى من أهل تطيلة وقاضيها وفد الى مصر سنة ٣٨١ وأخذ عن علمائها وكان موصوفا بالعلم والصلاح والعفة والشجاعة والجهاد بثغره وخرج مع محمد المهدى بن هشام لنصرته فقتل فى صدر شوال سنة ٤٠٠ — رحمه الله — « أحمد يوسف نجاتى »

وَمَلَكَهَا، وَخَرَجَ ٱلْمُسْتَعِينُ مَعَ ٱلْبَرْبَرِ وَتَفَرَّقُوا فِى ٱلْبَسَائِطِ يَنْهَبُونَ وَلَا يُبْقُون عَلَى أَحَدٍ ، ثُمَّ ٱرْتَحَلُوا إِلَى ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ، فَخَرَجَ ٱلْمَهْدِىُّ وَمَعَهُ ٱبْنُ أَذْفُونْشَ لِإِتْبَاعِهِمْ فَكَرُّوا عَلَيْهِمْ ، فَٱنْهَزَمَ ٱلْمَهْدِىُّ وَٱبْنُ أَذْفُونْشَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلنَّصَارَى ، وَأَتْبَعَهُمُ ٱلْمُسْتَعِينُ إِلَى قُرْطُبَةَ

***

بيعة هشام وقتل المهدى

فَأَخْرَجَ ٱلْمَهْدِىُّ هِشَامًا ٱلْمُؤَيَّدَ لِلنَّاسِ وَبَايَعَ لَهُ وَقَامَ بِأَمْرِ حِجَابَتِهِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ وَهَيْهَاتَ ، وَحَاصَرَهُمُ ٱلْمُسْتَعِينُ وَٱلْبَرْبَرُ فَخَشِىَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ مِنَ ٱقْتِحَامِهِمْ عَلَيْهِمْ فَأَغْرَوْا أَهْلَ ٱلْقَصْرِ وَحَاشِيَةَ ٱلْمُؤَيَّدِ بِالْمَهْدِىِّ ، وَأَنَّ ٱلفِتْنَةَ إِنَّمَا جَاءَتْ مِنْ قِبَلِهِ ، وَتَوَلَّى كِبْرَ ذَلِكَ[1] وَاضِحٌ ٱلْعَامِرِىُّ ، فَقَتَلُوا ٱلْمَهْدِىَّ[2] وَٱجْتَمَعَ ٱلْكَافَّةُ عَلَى ٱلْمُؤَيَّدِ

(١) الكبر : الاثم ومعظم الشيء ، و به فسر قوله تعالى : « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » يعنى « معظم الافك » وقال قيس بن الخطيم :

تنام عن كبر شأنها فاذا قامت رويدا تكاد تنفرق

(٢) قتل يوم منى سنة ٤٠٠ و واضح العامرى هو واضح الصقلبي. وأم المهدى أم ولد اسمها مزنة وكان له ولد اسمه عبد الله انقرض فلم يكن للمهدى عقب ، وكان مولده سنة ٣٦٦ وكان الحكم فى دولة المؤيد هذه اليه

***

فتنة واضح العامرى

وَقَامَ وَاضِحٌ بِحِجَابَتِهِ وَاسْتَمَرَّ ٱلْحِصَارُ وَلَمْ يُغْنِ عَنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ مَافَعَلُوهُ شَيْئًا إِلَى أَنْ هَلَكَتِ ٱلْقُرَى وَٱلْبَسَائِطُ بِقُرْطُبَةَ وَعُدِمَتِ ٱلْمَرَافِقُ وَجَهَدَهُمُ ٱلْحِصَارُ، وَبَعَثَ ٱلْمُسْتَعِينُ إِلَى أَهْلِ أَذْفُونْشَ يَسْتَعْدِيهِمْ لِمُظَاهَرَتِهِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ هِشَامٌ وَحَاجِبُهُ وَاضِحٌ يَكُفُّونَهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَنْزِلُوا لَهُمْ عَنْ ثُغُورِ قَشْتَالَةَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْمَنْصُورُ ٱفْتَتَحَهَا ، فَسَكَنَ عَنْ مُظَاهَرَتِهِمْ عَزْمُ أَذْفُونْشَ ، وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرُ حَتَّى دَخَلَ ٱلْمُسْتَعِينُ قُرْطُبَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ عَنْوَةً سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَقَتَلَ

وفى سنة ٤٠١ بلغ المؤيد أن واضحا كتب الى سليمان المستعين يعرفه أنه يريد الانتقال عن قرطبة سرا ويشير عليه بمنازلته بعد مسيره عنها فقبض عليه وقتله وفتك بكل من يميل الى سليمان . ثم ان البربر وسليمان لازموا الحصار والقتال لأهل قرطبة وضيقوا عليهم حتى اشتد الخطب فيها وفى مدة هذا الحصار ظهر بطليطلة عبيد الله بن محمد بن عبد الجبار وبايعه أهلها فسير اليهم المؤيد جيشا فحصرهم فعادوا الى الطاعة وأخذ عبيد الله أسيرا وقتل فى شعبان سنة ٤٠١ — ثم ملك سليمان قرطبة وقلعة رباح التى اتخذها البربر دارا وأخرج المؤيد من القصر وحمل الى سليمان ودخل سليمان قرطبة فى منتصف شوال سنة ٤٠٣ وبويع له وخرج اليه أهل قرطبة يسلمون عليه فأنشد متمثلا :

اذا ما رأونى طالعا من ثنية ... يقولون من هذا وقد عرفونى؟
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبا ... ولو ظفروا بى ساعة قتلونى

هِشَامٌ سِرًّا ، وَلَحِقَ بُيُوتَاتِ قُرْطُبَةَ مَعَرَّةٌ[1] فِي نِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ، وَظَنَّ ٱلْمُسْتَعِينُ أَنْ قَدِ ٱسْتَحْكَمَ أَمْرُهُ

***

استيلاء البرابرة والعبيد على الأعمال

وَتَوَثَّبَتِ ٱلْبَرَابِرَةَ وَٱلْعَبِيدُ عَلَى ٱلْأَعْمَالِ فَوَلُّوا ٱلْمُدُنَ ٱلْعَظِيمَةَ ، وَتَقَلَّدُوا ٱلْبِلَادَ ٱلْوَاسِعَةَ مِثْلُ بَادِيسَ بْنِ حَبُّوسَ فِي غَرْنَاطَةَ ، وَٱلْبَرْزَالِي فِي قَرْمُونَةَ ، وَٱلْيَفْرَنِيٌّ فِي رُنْدَةَ ، وَخَزْرُونَ فِي شَرِيشَ ، وَٱفْتَرَقَ شَمْلُ ٱلْجَمَاعَةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَصَارَ ٱلْمُلْكُ طَوَائِفَ فِي آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ مِثْلُ ٱبْنِ عَبَّادٍ بِإِشْبِيلِيَةِ ، وَٱبْنِ ٱلْأَفْطَسِ بِبَطَلْيَوْسَ ، وَٱبْنِ ذِي ٱلنُّونِ بِطُلَيْطُلَةَ ، وَٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ بِبَلَنْسِيَةَ ، وَٱبْنِ هُودٍ بِسَرَقُسْطَةَ ، وَمُجَاهِدٍ ٱلْعَامِرِيٍّ بِدَانِيَةَ وَٱلْجَزَائِرِ .

***

هجو ابن خلدون لسليمان المستعين

قَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ[2] : وَكَانَ مَائِلًا لِبَنِي حَمُّودٍ يَهْجُو سُلَيْمَانَ ٱلْمُسْتَعِينَ .

لَا رَحِمَ ٱللهُ سُلَيْمَانَكُمْ فَإِنَّهُ ضِدُّ سُلَيْمَانَ

---

(١) المعرة : الأمر القبيح الشديد والمسبة والاهانة والأذى (٢) من وزراء بني عباد وهناك أيضا الأديب ذوالنون بن خلدون من هذا العصر

ذَاكَ بِهِ غُلَّتْ[١] شَيَاطِينُهَا وَحَلَّ هَذَا كُلَّ شَيْطَانِ
فَبِاسْمِهِ سَاحَتْ عَلَى أَرْضِنَا لِهُلْكِ سُكَّانٍ وَأَوْطَانِ

***

أسباب فساد دولة المستعين

« وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ ٱلْأَسْبَابِ » فِي فَسَادِ دَوْلَةِ ٱلْمُسْتَعِينِ أَنَّهُ قَالَ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ مُسْتَرِيحاً بِهَا إِلَى خَوَاصِّهِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ :

حَلَفْتُ بِمَنْ صَلَّى وَصَامَ وَكَبَّرَا
لَأُغْمِدُهَا فِيمَنْ طَغَى وَتَجَبَّرَا
وَأَنْصُرَ دِينَ ٱللهِ تُحْيَا رُسُومُهُ[٢]
فَبَدَّلَ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُ وَغَيَّرَا
فَوَا عَجَبًا مِنْ عَبْشَمِيٍّ[٣] مُمَلَّكٍ
بِرَغْمِ ٱلْعَوَالِي وَٱلْمَعَالِي تَبَرْبَرَا
فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ
وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْفِ حُكْماً مُحَرَّرَا[٤]

---

(١) غلت: قيدت وسلسلت (٢) أى أحكامه، من رسم له كذا اذا أمره به فارتسم أى امتثل (٣) نسبة الى عبد شمس جد بنى أمية (٤) من حرر الشيء اذا قومه وخلصه وضبطه

فإِمَّا حيَاةٌ تُستَلذُّ بفقدِهِمْ

وَإِمَّا حِمَامٌ لا نَرَى فيه مأْزَرَا(١)

وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ ٱلْمُرْتَضَى ٱلْمَرْوَانِيُّ فَقَالَ :

قَدْ بَلَغَ ٱلْبَرْبَرُ فِينَا بِنَا ... مَا أَفْسَدَ ٱلْأَحْوَالَ وَٱلنُّظْمَا

كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلَا ٱلَّذِي ... فِيهِ مِنَ ٱلرِّيشِ لَمَا أَصْمَى(٢)

قُومُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمَةً ... تُزِيلُ عَنَّا ٱلْعَارَ وَٱلرَّغْمَا(٣)

إِمَّا بِهَا نَمْلِكُ أَوْلَا نَرَى ... مَا يَرْجِعُ ٱلطَّرْفُ بِهِ أَعْمَى(٤)

(١) أى ضعفاء أو أثما وعارا (٢) أصمى : أصاب وقتل ، وأصمى الصيد اذا رماه فقتله مكانه ، وأصمت القوس الرمية. أنفذتها : و راش السهم اذا لزق عليه الريش و ركبه عليه ومنه يقال : راش فلانا اذا قواه وأعانه على معاشه وأصلح حاله ونفعه كما يقوى الريش السهم ويجعله قاصدا صائبا وسريعا مستقيما وقال الشاعر :

مالقوى عن ضعيف غنى ... لابد للسهم من الريش

يريد المستعين أنهم هم الذين قووا البربر وأرادوا أن يكونوا درعا وحصينة على أعدائهم فكانوا هم الأعداء، ونبالهم (٣) الرغم : الكره والذل (٤) أى رؤية ماتتألم منه نفوسهم وتقذى به عيونهم مما يكرهون و يرغمون عليه . هذا وقد كان سليمان المستعين أديبا شاعرا بليغا ، ولكن أريق فى أيامه دماء كثيرة ، وكان البربر هم الحاكمين فى دولته لايقدر على خلافهم لأنهم كانوا عامة جنده وهم الذين قاموا معه حتى ملكوه .

*
**

دولة بني حمود العلويين

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ* اُلْحَسَنِيُّ وَأَخوهُ قَاسِمٌ[1] مِنْ

* ترجم له فى كتاب الدروس التاريخية للخضرى « ج ١ ص١٠٦» بما يأتى :

على بن حمود الحسنى الملقب بالناصر . كانت قرطبة قاعدة البلاد الكبرى وكانت مشهدا لفظائع متتالية فان الأمويين ضعفوا واستكانوا وكان اذ ذاك بسبتة رجل من العلويين مالكا لها اسمه على بن حمود الحسنى ولما رأى ضعف بنى أمية عبر البحر الى الأندلس وسار الى قرطبة فبايعه أهلها على طاعة هشام المؤيد إن ظهر خبره فأقام على ذلك مدة ، ولما لم يجدوا له أثرا دعا على بن حمود الناس الى بيعته فبايعوه ولقبوه بالناصر . وهو أول الدولة العلوية بالأندلس وكانت هذه الدولة أشبه بحلم النائم فانها لم تمكث كثيرا حتى لم يبق لها أثر وأخذت بين أيديها الدولة الأموية فلم يبق بالأندلس أمر خلافة منتظم وتفرقت البلاد ووجد فيها مايسميه التاريخ « ملوك الطوائف » .

(١) على والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله ابن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، من أعقاب بنى ادريس الذين كان لهم دولة بالمغرب الأقصى من نحو سنة ١٧٠ حتى كان آخرهم الحسن بن القاسم بن محمد ابن القاسم بن ادريس الذى قتل بأمر المنصور بن أبى عامر سنة ٣٧٥ وبقتله ركدت ريح العلويين بالمغرب وتفرق جمعهم وانقرضت دولتهم وتفرقت الأدارسة فى قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء الى أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف واستحالت صبغتهم منه الى البداوة واستمرت الحال على ذلك الى أن أشرفت دولة بنى أمية بالأندلس على الانقراض وكان

عَقِبِ إِدْرِيسَ مَلِكِ فَارِسَ وَبَانِيهَا قَدْ أَجَازُوا مَعَ الْبَرْبَرِ مِنَ الْعُدْوَةِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ فَدَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ وَاعْصَوْصَبَ(١) عَلَيْهِمُ الْبَرْبَرُ، فَمَلَكُوا قُرْطُبَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَقَتَلُوا الْمُسْتَعِينَ، وَمَحَوْا مُلْكَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَاتَّصَلَ ذَلِكَ فِي خَلَفٍ مِنْهُمْ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ رَجَعَ الْمُلْكُ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ ،

****

معارضة المستعين لهارون الرشيد

وَكَانَ الْمُسْتَعِينُ الْمَذْكُورُ أَدِيباً بَلِيغًا. وَمِنْ شِعْرِهِ يُعَارِضُ هَرُونَ الرَّشِيدَ فِي قَوْلِهِ * مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآنِسَاتُ عِنَانِي(٢) * الْأَبْيَاتَ قَوْلُهُ :

بالأندلس هذان الرجلان على والقاسم ابنا حمود من آل ادريس دخلاها في جملة البربر الذين كانوا هناك وكانا من جملة جند سليمان المستعين . فطار لهما ذكر في الشجاعة والاقدام فقواهما على المغاربة وولى عليا سبتة وطنجة وهو أصغرهما وولى القاسم الجزيرة الخضراء، ثم ترقت بهما الأحوال الى أن كانت لهما خلافة بالأندلس ورثوها من يد الأمويين في خبر طويل « أحمد يوسف نجاتي » (١) اعصوصب القوم: اذا اجتمعوا وصاروا عصابة

(٢) الذى أراه أن هذه الأبيات المنسوبة الى أمير المؤمنين هرون الرشيد انما قالها على لسان خاله العباس بن الأحنف الشاعر الغزلي المشهور ، وهي :

ملك الثلاث الآنسات عنانى	وحللن من قلبي بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها	وأطيعهن وهن فى عصيانى
ماذاك الا أن سلطان الهوى	وبه قوين أعز من سلطانى

عَجبًا يهَابُ ٱللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِى

وَأَهَابُ لَحْظَ فوَاتِرِ ٱلْاجْفَانِ[1]

وَأُقَارِعُ ٱلْأَهْوَالَ[2] لَا مُتَهَيِّبًا

مِنْهَا سِوَى ٱلْإِعْرَاضِ وَٱلْهِجْرَانِ

وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِى ثَلَاثٌ كَالدُّمَى[3]

زُهْرُ ٱلْوُجُوهِ نَوَاعِمُ ٱلْأَبْدَانِ

كَكَوَاكِبِ ٱلظَّلْمَاءِ لُحْنَ لِنَاظِرِى

مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَى كُثْبَانِ

حَاكَمْتُ فِيهِنَّ ٱلسُّلُوَّ إِلَى ٱلْهوَى

فَقَضَى بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِى

هٰذِى ٱلْهِلَالُ وَتِلْكَ بِنْتُ ٱلْمُشْتَرِى

حُسْنًا وَهٰذِى أُخْتُ غُصْنِ ٱلْبَانِ

---

(١) فواتر الأجفان : ناعسات الأطراف فيها فتور وضعف مستحسن « قابل بين حدة سنانه وفتور أجفانهن » (٢) أقارع الأهوال : أغالب الشدائد وأجاهد الخطوب (٣) الدمى جمع : دمية : وهى الصورة من العاج ونحوه .

فَأَبَحْنَ مِنْ قَلْبِي الْحِمَى وَتَرَكْنَنِي

فِي عِزِّ مُلْكِي كَالأسِيرِ الْعَانِي

لَا تَعْذِلُوا مَلِكاً تَذَلَّلَ فِي الْهَوَى

ذُلُّ الْهَوَى عِزٌّ وَمُلْكٌ ثَانِ

مَاضَرَّ أَنِّي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً

وَبَنُو الزَّمَانِ وَهُنَّ مِنْ عُبْدَانِي

إِنْ لَمْ أُطِعْ فِيهِنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى

كَلَفاً بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ

***

ابن حمود الحسنى

« وَوَلِيَ » الْأَمْرَ بَعْدَهُ ابْنُ حَمُّودٍ الْحَسَنِيُّ(١) تَلَقَّبَ

(١) لما دخل البربر قرطبة مع سليمان وافترق العبيد ملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا بها فراسلهم على بن حمود من المغرب وقد حدث له طمح فى ولاية الأندلس وكتب اليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم اذ كان محاصرا بقرطبة كتب اليه يوليه عهده فاستجابوا له وبايعوه فزحف من سبتة الى مالقة وفيها عامر بن فتوح الفائقى مولى فائق مولى الحكم المستنصر فطاع له ودخل مالقة وتملكها وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف مع خيران الفتى وجماعة العبيد الى قرطبة فخرج اليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر فانهزم محمد بن سليمان ودخل على بن حمود قرطبة وقتل سليمان بن الحكم صبرا ضرب عنقه بيده فى المحرم سنة ٤٠٧

بِالنَّاصِرِ وَخَرَجَ عَلَيْهِ الْعَبِيدُ وَبَعْضُ الْمَغَارِبَةِ ، وبَايَعُوا الْمُرْتَضَى[1] أَخَا الْمَهْدِيِّ ، ثُمَّ اغْتِيلَ[2] الْمُرْتَضَى ، وَاسْتَقَامَ الْمُلْكُ لِعَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ نَحْوَ عَامَيْنِ إِلَى أَنْ قَتَلَتْهُ صَقَالِبَتُهُ بِالْحَمَّامِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ

***

القاسم بن حمود الملقب بالمأمون

فَوُلِّيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ الْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ وَتَلَقَّبَ بِالْمَأْمُونِ وَنَازَعَهُ الْأَمْرَ بَعْدَ أَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ خِلَافَتِهِ يَحْيَى ابْنُ أَخِيهِ «عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ» وَكَانَ عَلَى سَبْتَةَ فَأَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ عَشْرٍ

---

(١) لما بويع علي بن حمود أظهر له الفتى خيران العامري الخلاف بعد أن كان يؤيده وذلك لأسباب منها أن خيران كان طامعا أن يجد المؤيد الذي كان يميل الى دولته ويرغب فيها فلما لم يجده تغير ، ومنها أنه نقل اليه أن علي بن حمود يريد قتله فخرج عن قرطبة وأظهر الخلاف عليه وأرسل يسأل عن بني أمية فدل على عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وكان قد خرج من قرطبة مستخفيا ونزل بمدينة جيان وكان أصلح من بقي من بني أمية فبايعه خيران وغيره ولقبوه بالمرتضى — وبعد حوادث قتل المرتضى وعمره أربعون سنة وهو أصغر من أخيه هشام وسار أخوه هشام الى البونت وأقام بها الى أن خوطب بالخلافة « أحمد يوسف نجاتي »

(٢) اغتيل : قتل على غرة .

وَاحْتَلَّ بِمَالَقَةَ وَكَانَ أَخُوهُ إِدْرِيسُ « بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ » بِهَا مُنْذُ عَهْدِ أَبِيهِمَا فَبَعَثَهُ إِلَى سَبْتَةَ ، ثُمَّ زَحَفَ يَحْيَى إِلَى قُرْطُبَةَ فَمَلَكَهَا سَنَةَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَتَلَقَّبَ الْمُعْتَلِي وَفَرَّ عَمُّهُ الْمَأْمُونُ « الْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ » إِلَى إِشْبِيلِيَةَ ، وَبَايَعَ لَهُ الْقَاضِي ابْنُ عَبَّادٍ[1] وَاسْتَجَاشَ بَعْضَ الْبَرَابِرَةِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قُرْطُبَةَ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمَلَكَهَا ، ثُمَّ لَحِقَ الْمُعْتَلِي « يَحْيَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ » بِمَكَانِهِ مِنْ مَالَقَةَ وَتَغَلَّبَ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ، وَتَغَلَّبَ أَخُوهُ إِدْرِيسُ « بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ » عَلَى طَنْجَةَ مِنْ وَرَاءِ الْبَحْرِ ، وَكَانَ الْمَأْمُونُ « الْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ عَمُّ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ وَإِدْرِيسَ بْنِ عَلِي بْنِ حَمُّودٍ »

(١) هو أبو القاسم « الظافر المؤيد بالله » محمد بن اسمعيل بن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمى من ولد النعمان بن المنذر اللخمى آخر ملوك الحيرة ، وهو جد المعتمد على الله محمد بن عباد ، وهو أول من نبغ من بنى نعيم بن عطاف فى بلاد الأندلس وتقدم باشبيلية الى أن ولى القضاء بها فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم فرمقته القلوب وتعلقت به النفوس ، وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول . توفى سنة ٤٣٣ . « أحمد يوسف نجاتى »

يتخذها حصنًا لنفسه وفيها ذخائره ، فلمَّا بلغه الخبر اضطرب وثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته وخرج فحاصرهم فدافعوه ولحق بإشبيلية فمنعوه ، وكان بها ابنه فأخرجوه إليه وضبطوا بلدهم ، واستبد ابن عباد بملكها ، ولحق المأمون بشريش

***

بيعة يحيى الملقب المعتلى

ورجع عنه البربر إلى يحيى * المعتلى ابن أخيه على بن حمود فبايعوه سنة خمس عشرة وأربعمائة ، وزحف إلى عمه المأمون القاسم بن حمود فتغلب عليه ولم يزل عنده أسيرًا وعند أخيه إدريس بن على بن حمود بمالقة إلى أن هلك بحبسه سنة سبع وعشرين وقيل : إنه خنق كما سيأتى ، واستقل

* هو يحيى بن محمد بن ادريس بن ادريس الذى قام بأمر المغرب بعد وفاة أخيه على بن محمد بن ادريس سنة ٢٦٤ هجرية فهو يحيى بن على بن حمود وأخوه ادريس بن على بن حمود الذى زحف الى قرطبة سنة ٤١٢ هجرية وتلقب بالمعتلى والذى قطعت دعوته من قرطبة سنة ٤١٧ هجرية وقتل سنة ٤١٧ . انتهى .

ٱلْمُعْتَلِي يَحْيَي بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ بِالْأَمْرِ ، وَٱعْتَقَلَ ٱبْنَيْ عَمِّهِ ٱلْقَاسِمِ . « وَكَانَ ٱلْمُسْتَكْفِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ مِنَ ٱلْأُمَوِيِّينَ ٱسْتَوْلَى عَلَى قُرْطُبَةَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُدَّةِ عِنْدَ مَا أَخْرَجَ أَهْلُهَا ٱلْعَلَوِيَّةَ » ثُمَّ خَلَعَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ ٱلْمُسْتَكْفِيَ ٱلْأُمَوِيَّ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَصَارُوا إِلَى طَاعَةِ ٱلْمُعْتَلِي يَحْيَي بْنِ عَلِيِّ ٱبْنَ حَمُّودٍ

***

ابن عطاف

وَٱسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ ٱبْنَ عَطَّافٍ[1] مِنْ قِبَلِهِ ، ثُمَّ نَقَضُوا سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَصَرَفُوا عَامِلَهُمْ ، وَبَايَعُوا ٱلْمُعْتَدَّ بِاللهِ هِشَامَ بْنَ مُحَمَّدٍ

---

(١) هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني من زعماء البربر أرسله المعتلى والياعلى أهل قرطبة ولم يحضر هو باختياره فبقى عبدالرحمن فيها الى شهر المحرم سنة ٤١٧ فسار اليه مجاهد وخيران العامريان فى جيش كثيف فلما دنوا من قرطبة ثار أهلها بعبد الرحمن فأخرجوه وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة ونجا الباقون، وأقام خيران ومجاهد بها نحو شهر ثم اختلفا فخاف كلاهما صاحبه فخرج خيران الى المرية و بقى بها حتى توفى سنة ٤١٨ . وصارت المرية بعده لصاحبه زهير العامرى

ٱلْأُمَوِيَّ أَخَا ٱلْمُرْتَضَى وَبَقِيَ ٱلْمُعْتَلِي بْنُ حَمُّودٍ يُرَدِّدُ لِحِصَارِهِمُ ٱلْعَسَاكِرَ إِلَى أَنِ ٱتَّفَقَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى إِسْلَامِ ٱلْحُصُونِ وَٱلْمَدَائِنِ لَهُ ، فَعَلَا سُلْطَانُهُ وَٱشْتَدَّ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ (١) ٱغْتَالَهُ أَصْحَابُهُ بِدَسِيسَةِ ٱبْنِ عَبَّادٍ ٱلثَّائِرِ بِإِشْبِيلِيَةَ (٢)

***

إدريس بن حمود

فَٱسْتَدْعَى أَصْحَابُهُ أَخَاهُ إِدْرِيسَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ مِنْ سَبْتَةَ ، وَمَلَّكُوهُ وَلَقَّبُوهُ ٱلْمُتَأَيِّدَ ، وَبَايَعَتْهُ رُنْدَةُ وَأَعْمَالُهَا ، وَٱلْمَرِيَّةُ ، وَٱلْجَزِيرَةُ ٱلْخَضْرَاءُ ، وَبَعَثَ عَسَاكِرَهُ لِحَرْبِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبَّادٍ وَالِدِ ٱلْمُعْتَضِدِ بْنِ عَبَّادٍ ، فَجَاءُوهُ بِرَأْسِهِ

(١) فى الأصل سنة تسع وعشرين وهى محرفة عن « سبع » كما رجحناه

(٢) كان على بن حمود قد سار الى قرمونة وأقام بها محاصرا لأشبيلية طامعا فى أخذها فبلغه يوما أن خيلا لأهل اشبيلية قد أخرجها القاضى أبو القاسم ابن عباد الى نواحى قرمونة فركب اليهم ولقيهم وقد كمنوا له فلم يكن بأسرع من أن قتل فى المحرم سنة ٤٢٧ وخلف من الولد الحسن وادريس لأمى ولد وكان على بن حمود وقورا هينا لينا وأمه بربرية ، وتوفى عن اثنتين وأربعين سنة. « أحمد يوسف نجاتى » .

بَعْدَ حُرُوبٍ[1] ، وَهَلَكَ لِيَوْمَيْنِ بَعْدَ ذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلاثِينَ .

***

بيعة يحيى بن إدريس بن على ابن حمود ووفاته

وَبُويِعَ ابْنُهُ يَحْيَى بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ ، وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ، وَبُويِعَ حَسَنٌ الْمُسْتَنْصِرُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ ابْنِ حَمُّودٍ الْمُعْتَلِي ،وَفَرَّ يَحْيَى إِلَى حِصْنِ كَمَارِشَ[2] ، فَهَلَكَ بِهَا سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاثِينَ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ قَتَلَهُ نَجَا[3]

(١) فى سنة ٤٣١ سير القاضى أبو القاسم بن عباد ولده اسمعيل فى عسكر ليتغلب على تلك البلاد فأخذ قرمونة وأشبونة واستجة ، فأرسل صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى الى ادريس بن على بن حمود والى باديس بن حيوس صاحب صنهاجة فأتاه صاحب صنهاجة بنفسه وأمده ادريس بعسكر يقوده ابن بقنة مدبر دولته فلم يجسروا على اسمعيل ابن عبادفعادوا عنه ، فسار اسمعيل مجدا ليأخذ على صنهاجة الطريق فأدركهم وقد فارقهم عسكر ادريس قبل ذلك بساعة فأرسلت صنهاجة من ردهم فعادوا وقاتلوا اسمعيل بن عباد فلم يلبث أصحابه أن انهزموا وأسلموه فقتل وحمل رأسه الى ادريس وكان ادريس قد أيقن بالهلاك وانتقل عن مالقة الى جبل يحتمى به وهو مريض فلما أتاه الرأس عاش بعده يومين ومات وترك من الأولاد يحيى ومحمدا وحسنا المعروف بالسامى وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه على مات فى حياة أبيه وترك ابنا اسمه عبد الله أخرجه عمه ونفاه لما ولى (٢) حصن كمارش أو قمارش على ثمانية عشر ميلامن مالقة (٣) نجا : هو الخادم الصقلبي وكان هو وأبو جعفر أحمد بن أبى موسى المعروف بابن بقنة مدبرى دولة العلويين

***

وفاة حسن بن يحي ابن علي بن حمود

وَهَلَكَ حَسَنٌ مَسْمُومًا بِيَدِ ٱبْنَةِ عَمِّهِ إِدْرِيسَ بْنِ عَلِيٍّ ٱبْنِ حَمُّودٍ ثَأَرَتْ مِنْهُ بِأَخِيهَا[1]

***

إدريس بن يحي الملقب العالي

وَكَانَ إِدْرِيسُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ بْنِ حَمُّودٍ ٱلْمُعْتَلِي مُعْتَقَلًا بِمَالَقَةَ فَأُخْرِجَ بَعْدَ خُطُوبٍ وَبُويِعَ بِهَا فَأَطَاعَتْهُ غَرْنَاطَةُ وَقَرْمُونَةُ ، وَلُقِّبَ ٱلْعَالِي ، وَهُوَ ٱلْمَمْدُوحُ بِالْقَصِيدَةِ ٱلْمَشْهُورَةِ بِالْمَغْرِبِ ٱلَّتِي قَالَهَا فِيهِ أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ مَقَانَا ٱلْفَنْدَاقِيُّ ٱلْأَشْبُونِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلذَّخِيرَةِ وَهِيَ :

أَلِبَرْقٍ لَائِحٍ مِنْ أَنْدَرِينْ[2]
ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ بِالْمَاءِ ٱلْمَعِينْ[3] ؟

---

(١) وكانت ابنة عمه هذه زوجة له فيقال انها سمت زوجها حسنا السامى أسفا على أخيها يحي بن ادريس بن على بن حمود

(٢) أندرين اسم قرية كانت فى جنوبى حلب وإياها عنى عمرو بن كلثوم بقوله :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

وفى هذه المعلقة يقول :

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبينا

(٣) ذرفت : سالت ، والمعين : الجارى الكثير

لَعِبَتْ أَسْيَافُهُ عَارِيَةً
كَمَخَارِيقَ(١) بِأَيْدِى ٱللَّاعِبِينْ
وَلِصَوْتِ ٱلرَّعْدِ زَجْرٌ وَحَنِينْ
وَلِقَلْبِي زَفَرَاتٌ(٢) وَأَنِينْ
وَأُنَاجِى فِى ٱلدُّجَى عَاذِلَتِى
وَيْكِ لَا أَسْمَعُ قَوْلَ ٱلْعَاذِلِينْ
عَيَّرَتْنِى بِسَقَامٍ وَضَنًى
إِنَّ هَـذَيْنِ لَدِينُ ٱلْعَاشِقِينْ
قَدْ بَدَا لِى وَضَحُ ٱلصُّبْحِ ٱلْمُبِينْ
فَاسْقِنِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ ٱلْأَذِينْ(٣)

---

(١) المخاريق جمع مخراق وهو السيف ، والمنديل أو نحوه يلف ليضرب به أو يفزع قال :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

(٢) «زفر يزفر كضرب» وزفيرا: أخرج نفسه بعد مده اياه (٣) الوضح: بياض الصبح « وقد يراد به مطلق الضوء والبياض من كل شيء » والأذين الأذان ، والمؤذن ، قال جرير :

هل تشهدون من الشاعر مشعرا أو تسمعون من الأذان أذينا

إسْـقِنِيهَا مُزَّةً مَشْـمُولَةً

لَبِثَتْ فِي دَنِّهَا بِضْعَ سِـنِينْ

تَنْثُرُ الْمَـزْجُ عَلَى مَفْـرِقِهَا

دُرَرًا عَامَتْ فَعَادَتْ كَالْبُرِينْ(١)

مَعَ فِتْيَانٍ كِرَامٍ نُجُبٍ

يَتَهَادَوْنَ رَيَاحِـينَ الْمُجُون

فى الأصل « مرة » وأراها محرفة عن « مزة » وهى الخمر اللذيذة الطعم سميت بذلك للذعها اللسان وليست بالحامضة ، قال الأعشى :

نازعتهم قضب الريحان متكئا   وقهوة مزة راووقها خضل

وقال حسان :

كأن فاها قهوة مزة   حديثة العهد بفض الختام

والمزة « بضم الميم » الخمر التى فيها مزازة وهو طعم بين الحلاوة والحموضة قال عدى بن زيد :

مزة قبـــل مزجها فاذاما   مزجت لذ طعمها من يذوق

(١) المفرق فى الأصل وسط الرأس وهو الذى يفرق فيه الشعر ، ومفرق الطريق الموضع الذى يتشعب منه طريق آخر ـ والبرين جمع برة وهى كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال ونحوها ، وحلقة فى أنف البعير رقيقة يريد أن الخمر لما مزجت نشأت فيها فقاعات بيض كالدر ثم عامت وانداحت فصارت حلقات مصوغة من هذه الدرر . وهو خيال بديع

شَرِبُوا الرَّاحَ عَلَى خَدِّ رَشًا
نَوَّرَ الْوَرْدُ بِهِ وَالْيَاسمِينْ[(١)]

وَجَلَتْ آيَاتُهُ عَامِرَةً
سَبَجَ الشَّعْرِ عَلَى عَاجِ الْجَبِينْ[(٢)]

لَوَتِ الصُّدْغَ عَلَى حَاجِبِهِ
ضَمَّةَ اللَّامِ عَلَى عَطْفَةِ نُونْ[(٣)]

فَتَرَى غُصْناً عَلَى دِعْصٍ نَقاً
وَتَرَى لَيْلًا عَلَى صُبْحٍ مُبِينْ[(٤)]

---

(١) الرشأ الظبي اذا قوى وتحرك ومشى مع أمه. وأراد بالورد الوجنة وبالياسمين سائر الخد الغض (٢) السبج خرز أسود وهو لفظ دخيل (٣) الصدغ: الشعر المتدلى على «الصدغين» من اطلاق اسم المحل على الحال شبهه باللام فى التوائه وأراد بالنون الحاجب « وقد بدالى أنه يتولد من هذين الحرفين « لن » وان الشاعر ليود أن يجعلها فعل دعاء من لان يلين اذا رق قلبه وعطف، أما المحبوب فكأنه يكتب بهما « لن » ترانى أو « لن » أسمح لك بوصال ومن التوليد البديع فى هذا المعنى قول بعض الأدباء :

كأن عذاره فى الخد لام ومبسمه الشهى الطعم صاد
وطرة شعره ليل بهيم فلا عجب اذا سرق الرقاد

وقال آخر :

أرى فى صدغك المعوج دالا ولكن نقطت من مسك خالك
فصارت داله بالنقط ذالا وأنى هالك من أجل ذلك

(٤) الدعص والدعصة الكثيب «قطعة من الرمل مستديرة» المجتمع، قال:

وَسَيُسْقَوْنَ إِذَا مَا شَرِبُوا
بِأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينْ
وَمَصَابِيحُ ٱلدُّجَى قَدْ طُفِئَتْ
فِي بَقَايَا مِنْ سَوَادِ ٱللَّيْلِ جُونْ(١)
وَكَأَنَّ ٱلطَّلَّ مِسْكٌ فِي ٱلثَّرَى
وَكَأَنَّ ٱلطَّلَّ دُرٌّ فِي ٱلْغُصُونْ
وَٱلنَّدَى يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسِهِ
كَدُمُوعٍ أَسْبَلَتْهُنَّ ٱلْجُفُونْ
وَٱلثُّرَيَّا قَدْ هَوَتْ مِنْ أُفْقِهَا
كَقَضِيبٍ زَاهِرٍ مِنْ يَاسَمِينْ(٢)

خلقت غير خلقة النسوان ان قمت فالأعلى قضيب بان
وان توليت فدعصتان وكل إدّ تفعـــل العينان

والنقا من الرمل القطعة تنقاد محدودبة ، أو الـكثيب منه المجتمع الأبيض الذى لاينبت شيئا « أراد بالغصن القد » وبدعص النقا : الردف ، وبالليل الشعر وبالصدغ : الطرة وبالصبح الوجه أو الجبهة

فتأمل اطرة وجبين ان فى الليل والنهار عجائب

(١) الجون الأسود « وهو من الأضداد فقد يطلق على الأبيض » أو الأسود المشرب حمرة ، وجمعه جون (٢) الياسمين معروف « معرب » وهو نوعان أبيض وأصفر فالأبيض مشرب حمرة «ولهذا شبه الخد به » والأصفر أعرض منه

وَأَنْبَرَى[1] جُنْحُ ٱلدُّجَى عَنْ صُبْحِهِ
كَغُرَابٍ طَارَ عَنْ بَيْضٍ كَنِينْ[2]
وَكَأَنَّ ٱلشَّمْسَ لَمَّا أَشْرَقَتْ
فَانْثَنَتْ عَنْهَا عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينْ
وَجْهُ إِدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَلِـ
ـيٍّ بْنِ حَمُّودٍ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينْ
مَلِكٌ ذُو هَيْبَـةٍ لَـكِنَّهُ
خَاشِـعٌ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينْ
خَـطَّ بِالْمِسْكِ عَلَى أَبْوَابِهِ
« أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِـينْ »
فَإِذَا مَا رُفِعَتْ رَايَاتُهُ
خَفَقَتْ بَيْنَ جَنَاحَيْ جَبْرَئِينْ[3]
وَإِذَا أَشْكَلَ خَطْبٌ مُعْضِلٌ
صَدَعَ ٱلشَّكَّ بِمِصْبَاحِ ٱلْيَقِينْ[4]

---

(١) انبرى : انكشف وزال (٢) الكنين : المستور المكنون
(٣) لغة فى جبريل من لغات كثيرة (٤) أى كشف وأظهر وأوضح

فَبِيُسْرَاهُ يَسَارُ ٱلْمُعْسِرِينْ

وَبِيُمْنَاهُ لِوَاءُ ٱلسَّابِقِينْ

يَا بَنِي أَحْمَدَ يَا خَيْرَ ٱلْوَرَى

لِأَبِيكُمْ كَانَ وَفْدُ ٱلْمُسْلِمِينْ

نَزَلَ ٱلْوَحْيُ عَلَيْهِ فَاخْتَبَى

فِي ٱلدُّجَا فَوْقَهُمُ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينْ(١)

خُلِقُوا مِنْ مَاءِ عَدْلٍ وَتُقًى

وَجَمِيعُ ٱلنَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَطِينْ

« أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »

إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينْ

من قوله تعالى : فاصدع بما تؤمر « فما قيل فيها » ان المعنى : أظهر ما تؤمر به ولا تخف أحدا. من الصديع : وهو الصبح ، أو من صدع الشيء : أظهره وقيل المعنى افصل بالأمر مستعار من صدع الأجسام أي شقها شبه الجهل « ومثله الشك » بظلمة الليل ، وشبه القرآن « ومثله اليقين » بالنور فصدع به تلك الظلمة كما يصدع الفجر ظلمة الليل .

(١) أو (فاختبى) أي اختبأ وكأنه يشير الى معنى :

أنا لا أستطيع أمدح قوما كان جبريل خادما لأبيهم

قِيلَ: إِنَّهُ أَنْشَدَهُ إِيَّاهَا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ اقْتِفَاءً لِطَرِيقَةِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ:

انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ   إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينْ

أَمَرَ حَاجِبَهُ أَنْ يَرْفَعَ الْحِجَابَ، وَقَابَلَ وَجْهُهُ وَجْهَ الشَّاعِرِ دُونَ حِجَابٍ، وَأَمَرَ لَهُ بِإِحْسَانٍ جَزِيلٍ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَنْبَلِ مَا يُحْكَي عَنْهُ، وَخُلِعَ الْعَالِي سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ

***

محمد بن إدريس الملقب الموفق

وَوَلِيَ ابْنُ عَمِّهِ مُحَمَّدُ(١) بْنُ إِدْرِيسَ «بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ» وَلُقِّبَ الْمُوَفَّقَ، وَلَمْ يُخْطَبْ لَهُ بِالْخِلَافَةِ، وَزَحَفَ الْعَالِي إِدْرِيسُ «ابْنُ يَحْيَي بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ» الْمَخْلُوعُ الْمَمْدُوحُ بِالْقَصِيدَةِ السَّابِقَةِ، وَكَانَ بِقِمَارِشَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَالَقَةَ وَأَطْلَقَ أَيْدِيَ عَبِيدِهِ عَلَيْهَا بِحِقْدِهِ عَلَيْهِمْ فَفَرَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَتُوُفِّيَ «مُحَمَّدُ ابْنُ إِدْرِيسَ» الْعَالِي سَنَةَ سِتٍّ أَوْ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَبُويِعَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ وَلُقِّبَ الْمُسْتَعْلِي، ثُمَّ صَارَ إِلَيْهِ بَادِيسُ

(١) ابن علي وتلقب بالمهدي وتوفي سنة أربع وأربعين، وبويع ادريس ابن يحيي بن ادريس ولقب بالموفق.

ابْنُ حَبُّوسَ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَتَغَلَّبَ عَلَى مَالَقَةَ وَسَارَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنُ يَحْيَى إِلَى الْمَرِيَّةِ مَخْلُوعًا ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ إِلَى مَلِيلَةَ[1] وَبَايَعُوهُ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَتُوُفِّيَ سَنَةَ سِتِّينَ ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ حَمُّودٍ لَمَّا اعْتُقِلَ أَبُوهُ الْقَاسِمُ بِمَالَقَةَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ فَرَّ مِنَ الاعْتِقَالِ وَلَحِقَ بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَمَلَكَهَا وَتَلَقَّبَ بِالْمُعْتَصِمِ[2] إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ . ثُمَّ مَلَكَهَا بَعْدَهُ ابْنُهُ الْقَاسِمُ الْوَاثِقُ[3] إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ خَمْسِينَ ، وَصَارَتِ الْجَزِيرَةُ لِلْمُعْتَضِدِ بْنِ عَبَّادٍ وَمَالَقَةُ لِابْنِ حَبُّوسَ مُزَاحِمًا لِابْنِ عَبَّادٍ ، وَانْقَرَضَتْ

(١) مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر ينسب اليها أبوجعفر أحمد بن الفتح المليلى وكان قاضيا بها وقدم على الناصر قرطبة سنة ٣٢٥ لما خشى من عساكر الشيعة فأجاره الناصر وسجل له على قضاء ناحيته . كان عظيم القدر جليلا حافظا للأخبار والآداب راويا ثقة وتوفى بمليلة سنة ٣٣٢ وبها ولد أبو سعيد خلف بن مسعود الجراوى المالقى قتل بمالقة سنة ٤٠٠ حين ثورة الأندلس بالبرابرة عند قيام المهدى وقتل العامة البرابرة (٢) الذى فى ابن الأثير وغيره أنه تلقب بالمهدى أيضا (٣) لكنه لم يتسم بالخلافة ، وبقى محمد بن ادريس بمالقة حتى توفى سنة ٤٤٥ وكان ادريس بن يحيى العالى عند بنى يفرن بمدينة تاكرنة بالمغرب ـ فلما توفى محمد بن ادريس ردته العامة الى مالقة واستولى عليها .

دَوْلَةُ ٱلْأَشْرَافِ ٱلْحَمُّودِيِّينَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَدَّعُونَ ٱلْخِلَافَةَ .

***

قرطبة فى عصر بنى حمود وورد الأمر فيها إلى بنى أمية.

وَأَمَّا قُرْطُبَةُ فَإِنَّ أَهْلَهَا لَمَّا قَطَعُوا دَعْوَةَ ٱلْحَمُّودِيِّينَ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ مِنْ مُلْكِهِمْ زَحَفَ إِلَيْهِمُ ٱلْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ فِى ٱلْبَرْبَرِ فَهَزَمَهُمْ أَهْلُ قُرْطُبَةَ ، ثُمَّ ٱجْتَمَعُوا وَٱتَّفَقُوا عَلَى رَدِّ ٱلْأَمْرِ لِبَنِى أُمَيَّةَ وَٱخْتَارُوا لِذَلِكَ

***

المستظهر بالله الأموى

عَبْدَ ٱلرَّحْمَنِ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ أَخَا ٱلْمَهْدِيِّ وَبَايَعُوهُ فِى رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَلَقَّبُوهُ ٱلْمُسْتَظْهِرَ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ [1] . وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ :

---

(١) وكان عمره حينئذ اثنتين وعشرين سنة ، وكنيته أبو المطرف وأمه أم ولد ، وكان رحب الصدر رقيق الطبع أديبا خطيبا بليغا ولم يعقب ذرية ، وكان سليمان بن المرتضى قد مات قبل قتله بعشرة أيام

طَالَ عُمْرُ ٱللَّيْلِ عِنْدِي مُذْ تَوَلَّعْتَ بِصَدِّي[١]

يَا غَزَالًا نَقَضَ ٱلْعَهْـــدَ وَلَمْ يُوفِ بِوَعْدِ

أَنَسِيتَ ٱلْعَهْدَ إِذْ بِتْـ نَا عَلَى مَفْرَشِ وَرْدِ ؟

وَٱجْتَمَعْنَا فِي وُشَاحٍ وَٱنْتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ

وَنُجُومُ ٱللَّيْلِ تَحْكِي ذَهَبًــا فِي لَازَوَرْدِ

قَالَ ٱلْحِجَارِيُّ : لَوْ قَالَ لُؤْلُؤًا فِي لَازَوَرْدِ[٢] لَكَانَ أَحْسَنَ تَشْبِيهاً ، وَأَنْشَدَ مُتَمَثِّلًا :

---

(١) فى الأصل (قد) محرفة ـ وقد صدق وأنصف من قال :

وما طال ليلى غير أنى سهرته فبت على جمر الغضا أتقلب

(٢) حجر معروف يشبه به البنفسج لانه على لونه قال :

ولا زوردية تزهى بزرقتهــا بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

وانما آثر الحجارى اللؤلؤ على الذهب فى تشبيه نجوم الليل ليكون التشبيه أتم والوجه أظهر لاشراق اللؤلؤ ولمعانه وصفائه وبريقه ، وهو المستعمل فى مثل هذا التشبيه يشبهون النجوم بالدرر واللآلىء وأديم السماء صافى الزرقة باللازورد ، قال أبو طالب الرقى :

وكأن أجرام النجوم لوامعـا درر نثرن على بساط أزرق

آخر :

قد رصعت زهر النجوم سماءها فكأنما هى لؤلؤ موضـون

غيره .

كأن الثريا قبة من زبرجد ترصع فيهـــا لؤلؤ بجمال

آخر :

والثريا كالكأس يظهر فيها حبب مثل لؤلؤ منثـور

إِنَّا عِصَابَتُكَ ٱلْأُلَى   كُنَّا نُكَابِدُ مَا تُكَابِدْ

هَذَا أَوَانُ بُلُوغِكَ ٱلنُّـــعْمَى وَأُنْجَازِ ٱلْمَوَاعِدْ

وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي عُبَيْدَةَ(١) مِنْ وُزَرَاءِ ٱلْمُسْتَظْهِرِ ، وَلَمَّا أَكْثَرَ ٱلْمُسْتَظْهِرُ دُونَهُ ٱلاسْتِبْدَادَ كَتَبَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ :

إِذَا غِبْتُ لَمْ أُحْضَرْ وَإِنْ جِئْتُ لَمْ أُسَلْ

فَسِيَّانِ مِنِّي مَشْهَدٌ وَمَغِيبُ

ولا بأس أيضا بتشبيه المستظهر فمثله مألوف ولاسيما لدى شعراء المغرب ومنه قول عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي من قصيدة بديعة :

اذا تبلج نجم فوق زرقته   حسبته فرسا دهماء فى بلق

أولاز ورداجرى فى متنه ذهب   فلاح فى شارق من مائه شرق

وقال أبو بكر الخالدى « وان لم يكن من شعراء المغرب » :

والمشترى وسط السماء تخاله   وسناه مثل الزئبق المترجرج

مسمار تبر أصفر ركبته   فى فص خاتم فضة فيروزج

(١) أبو عبدة حسان بن مالك بن أبى عبدة الوزير من أهل قرطبة ومن بيت وزارة و رياسة (و بنو أبى عبدة ينتمون الى قبيلة كلب وكانوا مع مروان يوم المرج) وكان الوزير حسان من الأئمة فى اللغة والأدب ومن أجلاء الأدباء وعلمائهم وله تأليف ممتع جامع بين رقيق الآداب والتاريخ والتراجم، وكان شاعرا رقيقا متصرفا فى فنون القول ، وكان ذا صلة بالمنصور بن أبى عامر واستوزره المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المسمى بالخلافة أيام الفتنة ، وتوفى سنة ٤١٦ . وفى الأصل (حسن) بدل حسان وهو تحريف « أحمد يوسف نجاتى » .

فَأَصْبَحْتُ تَيْمِيًّا وَمَا كُنْتُ قَبْلَهَا

لِتَيْمٍ وَلَكِنَّ ٱلشَّبِيهَ نَسِيبُ

يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

وَيُقْضَى ٱلْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ

وَلَا يُسْتَأْمَرُونَ وَهُمْ شُهُودُ

وَعَاتَبَهُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ :

إِذَا كَانَ مِثْلِي لَا يُجَازَى بِصَبْرِهِ

فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي بَعْدِي يُجَازَى عَلَى ٱلصَّبْرِ

وَكَمْ مَشْهَدٍ حَارَبْتُ فِيهِ عَدُوَّكُمْ

وَأَمَّلْتُ فِي حَرْبِي لَهُ رَاحَةَ ٱلدَّهْرِ ؟

أَخُوضُ إِلَى أَعْدَائِكُمْ لُجَجَ ٱلْوَغَى

وَأَسْرِي إِلَيْكُمْ حَيْثُ لَا أَحَدٌ يَسْرِي

وَقَدْ نَامَ عَنْهُمْ كُلُّ مُسْتَبْطِنِ ٱلْحَشَى

أَكُولٍ إِلَى ٱلْمُمْسَى نَئُومٍ إِلَى ٱلظُّهْرِ

فَمَا بَالُ هٰذَا ٱلْأَمْرِ أَصْبَحَ ضَائِعًا

وَأَنْتَ أَمِينُ ٱللّٰهِ تَحْكُمُ فِي ٱلْأَمْرِ ؟

وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى مِنْ كَلَامِ ٱلْوَزِيرِ ٱلْمَذْكُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِ ، وَهُنَاكَ نَذْكُرُ تَحْلِيَةَ ٱلْفَتْحِ لَهُ

***

محمد بن عبد الرحمن الملقب المستكفي

ثُمَّ ثَارَ عَلَيْهِ لِشَهْرَيْنِ مِنْ خِلَافَتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱبْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ ٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرِ لِدِينِ ٱللهِ ، فَٱتَّبَعَهُ ٱلْغَوْغَاءُ وَفَتَكَ بِٱلْمُسْتَظْهِرِ (١) وَتَلَقَّبَ بِٱلْمُسْتَكْفِي وَٱسْتَقَلَّ بِأَمْرِ قُرْطُبَةَ « وَهُوَ وَالِدُ ٱلْأَدِيبَةِ ٱلشَّهِيرَةِ وَلَّادَةَ . وَلَعَلَّنَا نُلِمُّ بِبَعْضِ أَخْبَارِهَا إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى فِيمَا بَعْدُ » وَكَانَ أَبُوهُ (٢) عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ قَتَلَهُ ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ لِسَعْيِهِ فِي

---

(١) في الأصل « أبو عبد الرحمن » وهو نقص يفسد المعنى والعبارة

(٢) وكان سبب قتله أنه أخذ جماعة من أعيان قرطبة فسجنهم لميلهم الى سليمان بن المرتضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وأخذ أموالهم فسعوا عليه من السجن وألبوا الناس فأجابهم صاحب الشرطة وغيره واجتمعوا وقصدوا السجن وأخرجوا من فيه ، وكان ممن وافقهم على ذلك أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن الأموى « كنية المستكفى » فى جماعة كثيرة فظفروا بالمستظهر فقتلوه فى ذى القعدة سنة ٤١٤ .

الْخِلَافَةِ ، ثُمَّ بَعْدَ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ بَيْعَةِ الْمُسْتَكْفِي(١) رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى الْمُعْتَلِي يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُّودٍ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَخَلَعَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ الْمُسْتَكْفِيَ وَوَلَّى عَلَيْهِمُ الْمُعْتَلِيَ مِنْ قِبَلِهِ ، وَفَرَّ الْمُسْتَكْفِي إِلَى نَاحِيَةِ الثَّغْرِ ، وَمَاتَ فِي فَرِّهِ(٢) ، ثُمَّ بَدَا لِأَهْلِ قُرْطُبَةَ فَخَلَعُوا الْمُعْتَلِيَ بْنَ حَمُّودٍ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ

***

هشام بن محمد أخو المرتضى

وَبَايَعَ الْوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ جَهْوَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَهْوَرٍ عَمِيدُ الْجَمَاعَةِ وَكَبِيرُ قُرْطُبَةَ لِهِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ* أَخِي الْمُرْتَضَى ـ

---

(١) كان المستكفى هذا همه لايعدو بطنه وفرجه ، وليس له فى سواهما هم ولاتفكير ، وثار عليه أهل قرطبة فى ربيع الأول سنة ٤١٦ فخلعوه وخرج عن قرطبة ومعه جماعة من أصحابه حتى صار الى أعمال مدينة سالم فضجر منه بعضهم « عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر » فكره التمادى معه فى سخفه فدس له السم فى الدسم فاستراح وأراح ، وكان عمره نحو خمسين سنة .

وانك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

« أحمد يوسف نجاتى » . (٢) أى مات فى أثناء هربه فى ربيع الآخر سنة ٤١٦ ولعلها محرفة عن (مفره) أى المكان الذى فر اليه

* ترجم له فى كتاب المغرب فى حلى المغرب « ج ١ ص ٤١ » بما يأتى المعتمد بالله أو المعتد بالله أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر

وَكَانَ بِالثَّغْرِ فِي لَارِدَةَ عِنْدَ ابْنِ هُودٍ[1] وَذَلِكَ سَنَةَ ثَمَانَ عَشْرَةَ، وَتَلَقَّبَ الْمُعْتَدَّ بِاللهِ، وَأَقَامَ مُتَرَدِّدًا فِي الثَّغْرِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ، وَاشْتَدَّتِ الْفِتَنُ بَيْنَ رُؤَسَاءِ الطَّوَائِفِ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَنْزِلَ دَارَ الْخِلَافَةِ بِقُرْطُبَةَ، فَاسْتَقْدَمَهُ ابْنُ جَهْوَرٍ وَالْجَمَاعَةُ، وَنَزَلَ آخِرَ سَنَةِ عِشْرِينَ وَأَقَامَ بِهَا يَسِيرًا، ثُمَّ خَلَعَهُ الْجُنْدُ سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِينَ[2]، وَفَرَّ إِلَى لَارِدَةَ فَهَلَكَ بِهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ، وَانْقَطَعَتِ الدَّوْلَةُ الْأُمَوِيَّةُ مِنَ الْأَرْضِ، وَانْتَثَرَ

المرواني. في كتاب الجذوة: أن أهل قرطبة اتفقوا ــ بعد ذهاب الدولة الحمودية بعد طول مدة ــ عليه، وكان مقيما بالبونت عند صاحبها محمد بن عبد الله بن القاسم، فبايعوه في ربيع الأول سنة ثمان عشرة وأربعمائة، فبقي مترددا في الثغور ثلاثة أعوام غير شهرين، الى أن سار الى قرطبة، ولم يبق الا يسيرا حتى خلع، وانقطعت الدولة المروانية من يومئذ في سنة عشرين وأربعمائة.

(١) كان مقيما بالبونت منذ قتل أخوه المرتضى وهو أسن من المرتضى. والبنت بلد وحصن بناحية بلنسية ومن عملها. وممن ينسب اليها أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن سعيد بن عقال الفهري البونتي كان أديبا كاتبا شاعرا توفي سنة ٥٦٧

(٢) كان سبب خلعه أن وزيره أبا عاصم سعيدا القزاز لم يكن له قديم رياسة، وكان يخالف الوزراء المتقدمين ويعديه لأخذ أموال التجار وغيرهم، وكان يصل البربر ويحسن اليهم ويقربهم، فنفر منه أهل قرطبة فدسوا اليه من قتله، فلما قتلوه استوحشوا من هشام فخلعوه بسببه.

سِلْكُ الْخِلَافَةِ بِالْمَغْرِبِ ، وَقَامَ الطَّوَائِفُ بَعْدَ انْقِرَاضِ الْخَلَائِفِ ، وَانْتَزَى(١) الْأُمَرَاءُ وَالرُّؤَسَاءُ مِنَ الْبَرْبَرِ وَالْعَرَبِ وَالْمَوَالِي بِالْجِهَاتِ وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا ، وَتَغَلَّبَ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ وَاسْتَقَلَّ أَخِيرًا بِأَمْرِهَا مِنْهُمْ مُلُوكٌ اسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ وَعَظُمَ شَأْنُهُمْ ، وَلَاذُوا بِالْجِزَى(٢) لِلطَّاغِيَةِ أَنْ يُظَاهِرَ عَلَيْهِمْ أَوْ يَبْتَزَّهُمْ(٣) مُلْكَهُمْ ، وَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ حَتَّى قَطَعَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرَ مَلِكُ الْعُدْوَةِ وَصَاحِبُ مَرَّاكُش أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ اللَّمْتُونِيُّ ، فَخَلَعَهُمْ وَأَخْلَى مِنْهُمُ الْأَرْضَ . فَمِنْ أَشْهَرِهِمْ : بَنُو عَبَّادٍ مُلُوكُ إِشْبِيلِيَةَ فِي غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ مِنْهُمُ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ الشَّهِيرُ الذِّكْرِ بِالْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ ، وَفِي الذَّخِيرَةِ وَالْقَلَائِدِ مِنْ أَخْبَارِهِ مَا هُوَ كَافٍ شَافٍ . وَمِنْهُمْ بَنُو جَهْوَرٍ ، كَانُوا بِقُرْطُبَةَ فِي صُورَةِ الْوِزَارَةِ(٤) حَتَّى اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ

---

(١) أي وثب مسرعا، وانتزى الى أرض كذا فأخذها أي تسرع اليها (٢) جمع جزية (٣) يسلبهم ، والبز والابتزاز : أخذ الشيء والتغلب عليه بجفاء وقهر (٤) كان لبني جهور وزارة بقرطبة أيام الدولة العامرية، ثم استبد أبو الحزم

وَأَخَذَ قُرْطُبَةَ وَجَعَلَ عَلَيْهَا وَلَدَهُ(١) ثُمَّ كَانَتْ لَهُ وَعَلَيْهِ حُرُوبٌ وَخُطُوبٌ . وَفَرَّقَ أَبْنَاءَهُ(٢) عَلَى قَوَاعِدِ الْمُلْكِ وَأَنْزَلَهُمْ بِهَا ، وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ بِغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ ، وَعَلَتْ يَدُهُ عَلَى مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ، مِثْلِ ابْنِ بَادِيسَ(٣) بِغَرْنَاطَةَ ،

جهور بن محمد بقرطبة سنة ٤٢٢ وتوفى سنة ٤٣٥ وقد تقدم ذكره، وولى مكانه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور فخلعه أهل قرطبة سنة ٤٦١ وفوض التدبير الى ابنه عبد الملك فأساء السيرة فأخرجوه عن قرطبة وتوفى معتقلا سنة ٤٦٢ (١) ولى عليها ابنه الظافر بالله سراج الدولة وكان صغير السن شجاعا ، ثم قتل فى ثورة سنة ٤٦٧ فأقام المعتمد بها ابنه المأمون حتى أخذها جيش يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة سنة ٤٨٤ (٢) هم الرشيد والمأمون والراضى والظافر وكانوا جميعا علماء فضلاء وأدباء شعراء كأبيهم وجدهم (٣) فى بعض المراجع « حبوس » . وقد ملك غرناطة حبوس بن ماكسن بن زيرى الصنهاجى ثم مات سنة ٤٢٩ فولى بعده باديس فلما توفى سنة ٤٦٧ ولى بعده ابن أخيه أبو محمد عبد الله ابن بلكين بن باديس ، وهو الذى صالح الأذفونش وظاهره على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وبعث اليه بمال واشتغل بتحصين بلده ، وفى ذلك يقول بعض شعراء عصره :

يبنى على نفسه سفاها ... كأنه دودة الحرير

دعوه يبنى فسوف يدرى ... اذا أتت قدرة القدير

واستولى المرابطون على ملكه سنة ٤٨٣ « أحمد يوسف نجاتى » .

وَابْنِ الْأَفْطَسِ(١) بِبَطَلْيَوْسَ ، وَابْنِ صُمَادِحَ(٢) بِالْمَرِيَّةِ

(١) ملك بطليوس من غرب الأندلس عند الفتنة واهتياجها أبو محمد عبد الله بن مسلمة التجيبي واستبدبها سنة ٤٣١ ولما توفى قام من بعده ابنه المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبي المعروف بابن الأفطس وكان كثير الأدب جم المعرفة محبا لأهل العلم جماعة للكتب ذا خزانة عظيمة ولم يكن فى ملوك الأندلس من يفوقه فى أدب ومعرفة بل كان أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، واستفحل ملكه وعظم شأنه وتوفى سنة ٤٦٠ وبعد وفاته ولى بعده ابنه المتوكل عمر بن محمد وقتل صبرا مع ولدين له عند تغلب ابن تاشفين على الأندلس سنة ٤٨٩ ورثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور ؟

« وابن الأفطس أصله من بربر مكناسة لكن ولد أبوه بالأندلس، ونشئوا بها وتخلقوا بأخلاق أهلها وانتسبوا الى تجيب فكانوا عربا فى النشأة والطبع . وللملك المظفر التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشهور باسم الكتاب المظفرى كان فى خمسين مجلدا » يشتمل على فنون وعلوم وأدب وتاريخ وكل شىء مفيد ممتع . وليت شعرى أين ذهبت به أيدى الضياع أو أى خزانة كتب غربية ظفرت بهذا الكنز الثمين مع ما ظفرت به ؟؟ حتى أشرقت بضوئه شمس العلوم من المغرب « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) كان صمادح وابنه معن من قواد الملك المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر وكانا يتوليان حروبه مع مجاهد العامرى صاحب دانية ــ وكانت المرية قد أخذها خيران العامرى فلما توفى سنة ٤١٩ صارت المرية بعده لصاحبه زهير العامرى واتسع ملكه الى شاطبة الى ما يجاور عمل طليطلة وبقى كذلك حتى قتل سنة ٤٢٩ وصارت مملكته الى المنصور أبى الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور

وَغَيْرِهِمْ ، فَكَانُوا يَخْطُبُونَ سِلْمَهُ، وَيَغْلُونَ فِي مَرْضَاتِهِ ،

ابن أبي عامر فولى بعده ابنه محمد ، فلما توفى عبد العزيز ببلنسية أقام ابنه محمد بالمرية وهو يدير بلنسية ، فانتهز الفرصة فيها المأمون يحيى بن ذى النون وأخذها منه، و بقى بالمرية الى أن استولى عليها صهره ذوالوزارتين أبو الأحوص المعتصم معن بن صمادح التجيبي ، ودانت له لورقة و بياسة وجيان وغيرها الى أن توفى سنة ٤٤٣ وغزا الموالى العامريين بشاطبة فغلبهم بها وتسمى ذا الوزارتين ، وولى بعده ابنه أبو يحيى محمد ابن معن وهو ابن أربع عشرة سنة فكفله عمه أبو عتبة ابن محمد الى أن توفى سنة ٤٤٦ فبقى أبو يحيى مستضعفا لصغره وأخذت منه بلاده البعيدة عنه ولم يبق له غير المرية ومايجاورها ، فلما كبر أخذ نفسه بالعلوم ومكارم الأخلاق فامتدصيته وارتفع ذكره وعظم سلطانه والتحق بأكابر الملوك، ودام بهاالى أن نازله جيش الملثمين فمرض فى أثناء ذلك وتوفى سنة ٤٨٤ هذا وأبو الأحوص هو معن بن محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي صهر عبدالعزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ووزيره ، كان مرضى السيرة عدلا باسطا للحق حاقنا للدماء عفا نزيها ذا حظ جزيل من العلم . وقد روى عن أبيه أبي يحيى مختصره لغريب القرآن الواقع فى تفسير ابن جرير الطبرى الكبير ، ولكن شهوة الملك حملته على أن يخرج على صهره وولى نعمته عبدالعزيز بن أبي عامر فقد خانه فى الأمانة وغدر به وطرده عن الامارة واستقل بالمرية التى كان عبد العزيز قد استخلفه بها حتى قيل انه لم يبق أحد من ملوك الطوائف بالأندلس الا ذمه على هذه الفعلة ولكنه استتب له الأمر وتم . وانتقل ملكه بعد موته الى ولده المعتصم وتسمى بأسماء الخلفاء ، وكان رحب الفناء، جزيل العطاء، حليما عن الدماء، طافت به الآمال، واتسع فى مدحه المقال وأعملت الى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء منهم أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن ابراهيم القيسى المعروف بابن الحداد، وله فيه

وَكُلُّهُمْ يُدَارُونَ الطَّاغِيَةَ وَيَتَّقُونَهُ بِالْجِزَى إِلَى أَنْ ظَهَرَ يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ وَاسْتَفْحَلَ مُلْكُهُ فَتَعَلَّقَتْ آمَالُ الْأَنْدَلُسِ بِإِعَانَتِهِ ، وَضَايَقَهُمُ الطَّاغِيَةُ فِى طَلَبِ الْجِزْيَةِ

مدائح سنية. ومنهم أبو القاسم الأسعد بن بليطة من فحول شعراء الأندلسيين فقد مدحه بقصيدته الطائية المشهورة التى مطلعها :

برامة ريم زارنى بعد ماشطا   فقنصته فى الحلم بالشط فاشتطا

رعى بكناس فى الحشا ثمر الحشى   ولم يدع النوار فيها ولا الخمطا

وهى طويلة تبلغ تسعين بيتا أحسن فيها ناظمها وأجاد مع وعورة مسلك رويها. وأبو يحيى محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح السرقسطى كان واليا على مدينة وشقة ثم تخلى عنها لابن عمه منذر بن يحيى التجيبى حين عزه عليها، وكان مع رياسته من أهل الفضل والعلم والأدب وله اختصار فى غريب القرآن استخرجه من تفسير الطبرى ورواه عنه ابنه أبو الأحوص معن بن محمد أمير المرية توفى عطبا بالبحر الرومى وكان قد ركبه من دانية يريد الحج فى مركب تأنق فى صنعته واستجاد عدته وآلته وتخير أعدل الأزمنة ومعه خلق كثير تشاحوا فى صحبته وتنافسوا فى السفر معه فعطب جميعهم سوى نفر منهم تخلصوا للأخبار عنهم، ومضى هو لم يغن عنه حزمه ولا قوته فكان اليم أقصى أثره وذلك سنة ٤١٩ بين جزيرة يابسة والأندلس . وجده محمد بن أحمد بن صمادح كان صاحب مدينة وشقة وأعمالها فى أيام المؤيد هشام بن الحكم الأموى وكان صاحب رأى ودهاء ولسان وعارضة ، ولم يكن فى أصحاب السيوف من يعدله فى هذه الخلال فى ذلك العصر . ومن نسل المعتصم أبو يحيى محمد بن عبيد الله بن المعتصم محمد بن معن، كان من ذوى العلم والأدب والرواية

***

قتل اليهودى وهزيمة النصارى

فَقَتَلَ ٱلْمُعْتَمِدُ[١] ٱلْيَهُودِىَّ ٱلَّذِى جَاءَ فِى طَلَبِ ٱلْجِزْيَةِ لِلطَّاغِيَةِ بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالَهَا آسَفَهُ بِهَا ، ثُمَّ أَجَازَ ٱلْبَحْرَ صَرِيخًا إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ ، فَأَجَازَ مَعَهُ ٱلْبَحْرَ ، وَٱلْتَقَوْا مَعَ ٱلطَّاغِيَةِ فِى ٱلزَّلَّاقَةِ[٢] فَكَانَتِ ٱلْهَزِيمَةُ ٱلْمَشْهُورَةُ عَلَى ٱلنَّصَارَى

---

(١) أخر المعتمد بن عباد فى سنة من السنين الضريبة التى كان يدفعها للأذفونش عن وقتها ثم أرسلها اليه بعد، فغضب الأذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن فى التجنى حتى طلب أن تأتى زوجه الى الجامع الأعظم بقرطبة فتلد فيه اذ كانت حاملا، وكان بالجانب الغربى من الجامع موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد فأشار عليه أطباؤه ورؤساء دينه أن تسكن زوجه قرب ولادتها بمدينة الزهراء وأن تردد فى أثناء اقامتها الى ذلك الجامع حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة، وكان رسوله فى ذلك يهوديا وكان وزيرا للأذفونش فأبى ابن عباد ذلك فراجعه اليهودى وأغلظ له فى القول ولسعه بكلمة آسفته «أى أثارت غضبه» فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس ذلك اليهودى فأسقط دماغه فى حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة ، ولما سكت عنه الغضب استفتى الفقهاء فى حكم ما فعله باليهودى فأفتوه بالرخصة فيه لتعدى الرسول حكم حدود الرسالة وتجاوزه حد الأدب الى ما استوجب به القتل وليس له ذلك ، ثم كان بعد هذا ما تكفلت كتب التاريخ بشرحه و بسطه . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) الزلاقة مكان أفيح من الأرض بالقرب من بطليوس بينهما أربعة فراسخ. و واقعة الزلاقة مشهورة انتصر فيها المسلمون نصرا مؤزرا واستحر القتل فى الفرنجة فلم يفلت منهم غير الأذفونش فى دون الثلاثين من أصحابه

وَنَصَرَ ٱللَّهُ تَعَالَى ٱلْإِسْلَامَ نَصْرًا لَا كِفَاءَ لَهُ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ: إِنَّهُ كَانَ عَدَدُ ٱلنَّصَارَى ثَلَثَمِائَةِ أَلْفٍ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ، وَصَبَرَ فِيهَا ٱلْمُعْتَمِدُ صَبْرَ ٱلْكِرَامِ، وَكَانَ قَدْ أَعْطَى يُوسُفَ بْنَ تَاشِفِينَ ٱلْجَزِيرَةَ ٱلْخَضْرَاءَ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلْجَوَازِ مَتَى شَاءَ(1).

***

الفقهاء ورفع الظلمات

ثُمَّ طَلَبَ ٱلْفُقَهَاءُ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ رَفْعَ ٱلْمُكُوسِ وَٱلظُّلَامَاتِ عَنْهُمْ، فَتَقَدَّمَ بِذَلِكَ إِلَى مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ فَأَجَابُوهُ بِالِامْتِثَالِ، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مِنْ بِلَادِهِمْ رَجَعُوا إِلَى حَالِهِمْ، وَهُوَ خِلَالَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ

فلحق بأصحابه على أسوأ حال، وغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاثه وسلبه ما ملأ أيديهم خيرا ــ وكانت تلك الواقعه فى ١٥ رجب سنة ٤٧٩ وتوافق سنة ١٠٨٦ م والأذفونش المقصود هنا هو الفونس السادس.

(١) كان جيش يوسف بن تاشفين قد تأخر فى أثناء المعركة فاستحر القتل فى أصحاب ابن عباد وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف بعض جيشه وفيهم ابنه عبد الله وأثخن هو جراحات فى رأسه و بدنه، وتذكر فى تلك الحال الحرجة ابناله صغيرا يكنى أباهاشم وكان قد تركه باشبيلية عليلا فقال:

أبا هاشم هشمتنى الشفار ... فلله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج ... فلم يثننى ذكره للفرار

عَسَا كِرُهُ لِلْجِهَادِ، ثُمَّ أَجَازَ إِلَيْهِمْ وَخَلَعَ جَمِيعَهُمْ وَنَازَلَتْ عَسَا كِرُهُ جَمِيعَ بِلَادِهِمْ

***

أسر المعتمد بن عباد

وَاسْتَوْلَى عَلَى قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَةَ وَبَطَلْيُوسَ وَغَرْنَاطَةَ وَغَيْرِهَا، وَصَارَ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ كَبِيرُ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ فِي قَبْضَتِهِ أَسِيرًا بَعْدَ حُرُوبٍ، وَنَقَلَهُ إِلَى أَغْمَاتَ قُرْبَ مَرَّا كُشَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَاعْتَقَلَهُ هُنَالِكَ إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ، وَسَنُلِمُّ بِمَا قَالَهُ الْوَزِيرُ لِسَانُ الدِّينِ بْنُ الْخَطِيبِ فِيهِ لَمَّا زَارَ قَبْرَهُ.

***

أخبار المعتمد

وَلِلْمُعْتَمِدِ هَذَا أَخْبَارٌ مَأْثُورَةٌ خُصُوصًا مَعَ زَوْجَتِهِ أُمِّ أَوْلَادِهِ الرُّمَيْكِيَّةِ[1] الْمُلَقَّبَةِ بِاعْتِمَادٍ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا رَأَتْ ذَاتَ

(١) كانت سرية للمعتمد اشتراها من رميك بن حجاج فنسبت اليه، وكان قد اشتراها فى أيام أبيه المعتضد وأفرط فى الميل اليها وغلبت عليه وكانت ذات جمال فائق وأدب بارع حتى قيل انه لشدة ميله اليها تورط فى الخلاعة ولم يكن يعنى منذ شغفته حبا بأمور دينه حق العناية حتى زعم أهل اشبيلية أنه كان يجاهر لأجلها بالمعاصى و بتعطيل صلوات الجمع فكتبوا عليه بذلك عقودا رفعوها الى يوسف بن تاشفين كانت من أقوى أسباب تغيره عليه، ومن اسمها اعتماد اختار لنفسه لقبا يناسبه وهو المعتمد وهى

يَوْمٍ بِإِشْبِيلِيَةَ نِسَاءَ ٱلْبَادِيَةِ يَبِعْنَ ٱللَّبَنَ فِي ٱلْقِرَبِ وَهُنَّ رَافِعَاتٌ عَنْ سُوقِهِنَّ فِي ٱلطِّينِ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَاسَيِّدِي أَشْتَهِي أَنْ أَفْعَلَ أَنَا وَجَوَارِيَّ مِثْلَ هٰؤُلَاءِ ٱلنِّسَاءِ ، فَأَمَرَ ٱلْمُعْتَمِدُ بِٱلْعَنْبَرِ وَٱلْمِسْكِ وَٱلْكَافُورِ وَمَاءِ ٱلْوَرْدِ ، وَصَيَّرَ ٱلْجَمِيعَ طِينًا فِي ٱلْقَصْرِ وَجَعَلَ لَهَا قِرَبًا وَحِبَالًا مِنْ إِبْرَيْسَمٍ ، وَخَرَجَتْ هِيَ وَجَوَارِيهَا تَخُوضُ فِي ذٰلِكَ ٱلطِّينِ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمَّا خُلِعَ وَكَانَتْ تَتَكَلَّمُ مَعَهُ مَرَّةً فَجَرَى بَيْنَهُمَا مَا يَجْرِي بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ قَالَتْ لَهُ وَٱللهِ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا ، فَقَالَ لَهَا : وَلَا يَوْمَ ٱلطِّينِ ؟ تَذْكِيرًا لَهَا بِهٰذَا ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي أَبَادَ فِيهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ مَالَا يَعْلَمُهُ إِلَّا ٱللهُ تَعَالَى، فَاسْتَحْيَتْ وَسَكَتَتْ .

وَوَلِيَ بَعْدَهُ غَيْرُ مَنْ تَقَدَّمَ بَنُو رَزِينٍ[1] أَصْحَابُ ٱلسَّهْلَةِ[2] .

أم بنيه ، وهي التي أغرت المعتمد على قتل وزيره أبي بكر محمد بن عمار سنة ٤٧٧ لكونه هجاها بشعر يقول فيه :

تخيرتها من بنات الهجان   رميكية لاتساوي عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع   لئيم التجارب عما وخالا

وقيل ان هذا الشعر ليس لابن عمار وانما نسبته اليه لكي توغر صدر المعتمد عليه — وتوفيت الرميكية بأغمات قبل المعتمد بأيام فلم ترقأ له عليها عبرة ولا فارقته حسرة حتى قضى نحبه أسفا وحزنا — رحمه الله تعالى — « أحمد يوسف نجاتي »

(١) في بعض المراجع « ومن أعظم ملوك الطوائف غير من تقدم بنو رزين » الخ وهو أظهر وقد ملك السهلة عبود الخ .

(٢) ملك السهلة عبود بن رزين وأصله بربري ومولده بالأندلس ، فلما

وَبَنُو ٱلْفِهْرِيِّ أَصْحَابُ ٱلْبُونْت(١) ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِمَا أَخِيرًا يُوسُفُ بْنُ تَاشِفِينَ .

***

بنو ذي النون

وَمِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بَنُو ذِى ٱلنُّونِ(٢) مُلُوكُ طُلَيْطُلَةَ مِنَ ٱلثَّغْرِ ٱلْجَوْفِيِّ، وَكَانَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ كَبِيرَةٌ وَبَلَغُوا فِى ٱلْبَذَخِ(٣) وَٱلتَّرَفِ إِلَى ٱلْغَايَةِ .

توفى ولى بعده ابنه عبد الملك وكان أديبا شاعرا، ثم ولى بعده ابنه عز الدولة ومنه ملكها الملثمون ــ وقال ابن خلدون : وكانت بالأندلس ثغور أخرى دون هذه لم يستول عليها ابن عباد، فمنها بلد السهلة استبد بها هذيل بن خلف بن رزين أول المائة الخامسة بدعوة هشام ويسمى مؤيد الدولة وهلك شهيدا سنة ٤٥٠ وملك بعده حسام الدولة عبد الملك ابن خلف، ولم يزل أميرا عليها الى أن ملكها المرابطون من يده عند تغلبهم على الأندلس (١) تغلب على البونت عبد الله بن قاسم الفهرى وسمى نظام الدولة ، وهو الذى كان المعتمد بن عباد عنده عند ماولاه الجماعة بقرطبة ومن عنده جاء اليها وتوفى سنة ٤٢١ فولى ابنه محمد يمين الدولة وكانت بينه وبين أبى الحسن الموفق مجاهد العامرى حروب ، وملك بعده ابنه أحمد عقد الدولة وتوفى سنة ٤٤٠ وملك بعده أخوه جناح الدولة الى أن خلعه المرابطون سنة ٤٨٥ (٢) جدهم اسمعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان ابن ذى النون أصله من قبائل هوارة، ورأس سلفه فى الدولة المروانية . وتوفى الظافر سنة ٤٦٧ فولى بعده ابنه أبو الحسن المأمون يحيى، وقتل القادر يحيى بن اسمعيل بن المأمون يحيى بن ذى النون سنة ٤٨١ .

(٣) البذخ : الكبر والعلو وتطاول الرجل بكلامه وافتخاره ، واستعمله المتأخرون بمعنى الاسراف والانغماس فى الترف كما هنا

***

الاعذار الذنونى

وَلَهُمُ ٱلْإِعْذَارُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلَّذِي يُقَالُ لَهُ ٱلْإِعْذَارُ ٱلذُّنُونِيُّ، وَبِهِ يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَغْرِبِ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ بِمَثَابَةِ عُرْسِ بُورَانَ[1] عِنْدَ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ. وَٱلْمَأْمُونُ مِنْ بَنِي ذِي ٱلنُّونِ هُوَ صَاحِبُ ذٰلِكَ، وَهُوَ ٱلَّذِي عَظُمَ بَيْنَ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ سُلْطَانُهُ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلطَّاغِيَةِ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ، وَغَلَبَ عَلَى قُرْطُبَةَ وَمَلَكَهَا مِنْ يَدِ ٱبْنِ عَبَّادٍ ٱلْمُعْتَمِدِ وَقَتَلَ ٱبْنَهُ أَبَا عَمْرٍو، وَغَلَبَ أَيْضًا عَلَى بَلَنْسِيَةَ وَأَخَذَهَا مِنْ يَدِ بَنِي ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ، وَفِي أَيَّامِ حَافِدِ ٱلْمَأْمُونِ وَهُوَ ٱلْقَادِرُ ٱبْنُ ذِي ٱلنُّونِ كَانَ ٱلطَّاغِيَةُ ٱبْنُ أَذْفُونْشَ قَدِ ٱسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ

---

(١) هى بوران بنت الحسن بن سهل تزوجها المأمون لمكان أبيها منه وعقد عليها واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح مالم يعهد مثله فى عصر من الأعصار. وأنفق المأمون كذلك نفقات باهظة وذلك سنة ٢١٠ وفرش للمأمون فى عرشه حصير منسوج بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلىء كثيرة فلما رأى تساقط اللآلىء المختلفة على الحصير المنسوج بالذهب قال: قاتل الله أبانواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال فى صفة الخمر والحباب الذى يعلوها عند المزاج:

كأن كبرى وصغرى من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

وتوفى المأمون وهى فى صحبته سنة ٢١٨ وبقيت بعده الى أن توفيت ببغداد سنة ٢٧١ عن ثمانين سنة. « أحمد يوسف نجاتى »

لَمَّا خَلَا ٱلْجَوُّ مِنْ مَكَانَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْخِلَافِيَّةِ وَخَفَّ مَا كَانَ عَلَى كَاهِلِهِ مِنْ أَثَرِ ٱلْعَرَبِ، فَٱكْتَسَحَ ٱلْبَسَائِطَ وَضَايَقَ ٱبْنَ ذِي ٱلنُّونِ حَتَّى أَخَذَ مِنْ يَدِهِ طُلَيْطُلَةَ، فَخَرَجَ لَهُ عَنْهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ كَمَا سَبَقَ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يُظَاهِرَهُ عَلَى أَهْلِ بَلَنْسِيَةَ فَقَبِلَ شَرْطَهُ وَتَسَلَّمَهَا ٱلْفُونْشُ، - وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ - وَمِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ ٱلْمَوَالِي ٱلْعَامِرِيُّونَ خَيْرَانُ وَزُهَيْرٌ وَأَشْبَاهُهُمَا، وَأَخْبَارُ ٱلْجَمِيعِ تَطُولُ.

***

بنو هود ملوك سرقسطة

وَمِنْ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ بِٱلْأَنْدَلُسِ بَنُو هُودٍ[1] مُلُوكُ

(١) كان أبو أيوب سليمان بن أحمد بن محمد بن هود « الداخل الى الاندلس » بن عبد الله بن موسى بن سالم ونسبه الى الازد الى سالم « وقيل ان هودا من ولد روح بن زنباع » مولى أبي حذيفة الجذامي من أهل نسبهم مستقلا بمدينة تطيلة ولاردة من أول الفتنة، ثم تغلب على المظفر يحيى بن المنذر بن يحيى بن مطرف بن عبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبي صاحب سرقسطة وقتله سنة ٤٣١ وملك سرقسطة والثغر الأعلى من أيديهم، وتحول اليها وتلقب بالمستعين وعظم ملكه، ثم ملك بلنسية ودانية وولى على لاردة ابنه أحمد المقتدر ومات المستعين سنة ٤٣٨ فولى بعده ابنه أحمد المقتدر وولى ابنه يوسف المظفر لاردة وتوفى المقتدر سنة ٤٧٤ فولى بعده ابنه يوسف المؤتمن وتوفى سنة ٤٧٨ فولى بعده

سَرَقُسْطَةَ وَمَا إِلَيْهَا ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ ٱلْمُقْتَدِرُ بِاللهِ وَٱبْنُهُ يُوسُفُ ٱلْمُؤْتَمَنُ ، وَكَانَ ٱلْمُؤْتَمَنُ قَائِمًا عَلَى ٱلْأُمُورِ ٱلرِّيَاضِيَّةِ ، وَلَهُ فِيهَا تَآلِيفُ وَمِنْهَا كِتَابُ ٱلِاسْتِهْلَالِ(١) وَٱلْمَنَاظِرِ ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ ٱلْمُسْتَعِينُ أَحْمَدُ سَنَةَ أَخْذِ طُلَيْطُلَةَ(٢) وَعَلَى يَدَيْهِ كَانَتْ وَقْعَةُ وَشْقَةَ(٣)

***

وقعة وشقة

وَكَانَ زَحَفَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ فِي آلَافٍ لَا تُحْصَى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ لِيُدَافِعَ ٱلطَّاغِيَةَ عَنْ وَشْقَةَ ، وَكَانَ مُحَاصِرًا لَهَا، فَلَقِيَهُ ٱلطَّاغِيَةُ وَهَزَمَهُ ، وَهَلَكَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ نَحْوُ

ابنه أحمد المستعين ولم يزل أميرا بسرقسطة الى أن مات شهيدا سنة ٥٠٣ الخ ومن بنى هود أبو عامر بن المستعين بالله أبى جعفر أحمد بن أبى عمر المؤتمن يوسف بن المقتدر بالله أبى جعفر أحمد بن المستعين بالله أبى أيوب سليمان كان ذا عناية بسماع العلم و روايته مقبلا عليه (١) وقيل (الاستكمال) (٢) استولى عليها الافرنج من يد القادر بن ذى النون سنة ٤٧٨ (٣) بليدة من ثغور الاندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم من أشهرهم أبو الحزم خلف بن عيسى ابن سعيد الخير المعروف بابن أبى درهم المحدث توفى سنة ٤٢١ ومنهم أبو مروان عبد الملك بن سليمان بن عبد الملك بن سلمة بن محمد مولى بنى أمية المعروف بابن الصقلى كان مقرئا محدثا أديبا لغويا توفى سنة ٥٤٠ وممن استشهد فى واقعة وشقة سنة ٤٨٩ أبو جعفر عبد الوهاب بن محمد ابن حكم الانصارى المقرىء العالم الفاضل وهذه الواقعة كانت احدى الوقائع الفاجعات بالاندلس . « أحمد يوسف نجاتى »

عَشَرَةِ آلافٍ ، وَهَلَكَ هُوَ شَهِيدًا سَنَةَ ثَلاثٍ وَخَمْسِمِائَةٍ بِظَاهِرِ سَرَقُسْطَةَ فِى زَحْفِ الطَّاغِيَةِ إِلَيْهَا ، وَوَلِىَ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ عِمَادُ الدَّوْلَةِ ، وَأَخْرَجَهُ الطَّاغِيَةُ مِنْ سَرَقُسْطَةَ سَنَةَ ثِنْتَىْ عَشْرَةَ ، وَتَوَلَّى ابْنُهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ وَبَالَغَ فِى النِّكَايَةِ بِالطَّاغِيَةِ ، ثُمَّ اتَّفَقَ مَعَهُ وَانْتَقَلَ بِحَشَمِهِ إِلَى طُلَيْطُلَةَ فَكَانَ فِيهَا حِمَامُهُ . وَمِنْ شِعْرِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودٍ قَوْلُهُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ فِى مَبَانِيهِ :

قَصْرَ السُّرُورِ وَمَجْلِسَ الذَّهَبِ[1]
بِكُمَا بَلَغْتُ نِهَايَةَ الْأَرَبِ
لَوْ لَمْ يَحُزْ مُلْكِى خِلَافَكُمَا
كَانَتْ لَدَىَّ كِفَايَةُ الطَّلَبِ

***

ملوك بنى الأفطس

وَمِنْ مَشَاهِيرِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَنُو الْأَفْطَسِ أَصْحَابُ بَطَلْيَوْسَ وَمَا إِلَيْهَا ، وَالْمُظَفَّرُ مِنْهُمْ هُوَ صَاحِبُ التَّأْلِيفِ الْمُسَمَّى

(١) كان هذان القصران يعدان من متنزهات مدينة سرقسطة التى كانت قاعدة الثغر الأعلى قد أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء والتفت عليها أربعة أنهار فأضحت بها مرصعة مجزعة . « أحمد يوسف نجاتى »

بِالْمُظَفَّرِيِّ فِي نَحْوِ الْخَمْسِينَ مُجَلَّدًا ، وَالْمُتَوَكِّلُ مِنْهُمْ قُتِلَ عَلَى يَدِ جَيْشِ يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ ، وَفِيهِ قَالَ ابْنُ عَبْدُونَ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ
فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ ؟

وَهِيَ مِنْ غُرَرِ الْقَصَائِدِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ فَلَمَّا اسْتَوْلَى مُلُوكُ لَمْتُونَةَ عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَأَزَالُوا مُلُوكَ الطَّوَائِفِ مِنْهَا ، وَبَقِيَتْ عُمَّالُهُمْ تَتَرَدَّدُ إِلَيْهَا وَبَنُوهُمْ حَتَّى فَشِلَتْ(١) رِيحُهُمْ ، وَهَبَّتْ رِيحُ الْمُوَحِّدِينَ أَعْنِي عَبْدَ الْمُؤْمِنِ ابْنَ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ ، فَحَارَبُوا لَمْتُونَةَ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مُلْكِهِمْ بِالْمَغْرِبِ بَعْدَ حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ ، ثُمَّ جَازُوا الْبَحْرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَمَلَكُوا أَكْثَرَ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَلَكَ(٢) بَنُو مَرْدَنِيشَ شَرْقَ الْأَنْدَلُسِ .

---

(١) فشلت ريحهم : كناية عن قرب زوال ملكهم . (٢) فى سنة ٥٦٦ رحل أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على صاحب المغرب وفى صحبته مائة ألف فارس من المغرب والموحدين الى الأندلس « بعد أن تمهدت له الأمور بالمغرب واستقرت قواعد مملكته » فنزل باشبيلية نخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعد الجذامى المعروف بابن مردنيش صاحب شرق الأندلس : مرسية وما انضاف اليها ، وحمل على قلبه فمرض مرضا شديدا ومات فى شهر رجب سنة ٥٦٧ باشبيلية ، وكان

****

قيام دولة الموحدين بالأندلس

وَمُلَخَّصُ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْأَنْدَلُسَ كَانَ مُلْكُهَا مَجْمُوعًا لِلَمْتُونَةَ بَعْدَ خَلْعِهِمْ مُلُوكَ ٱلطَّوَائِفِ ، فَلَمَّا ٱشْتَغَلَ لَمْتُونَةُ فِي ٱلْعُدْوَةِ بِحَرْبِ ٱلْمُوَحِّدِينَ اضْطَرَبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْدَلُسُ وَعَادَتْ إِلَى ٱلْفُرْقَةِ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ ، ثُمَّ خَلَصَ أَكْثَرُهَا لِعَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَبَنِيهِ بَعْدَ حُرُوبٍ ، وَمِنْهَا مَا حَصَلَ بَيْنَ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ ٱبْنِ مَرْدَنِيشَ(١) وَقَائِدِهِ ٱبْنِ

مولده سنة ٥١٨ ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده أو اخوته الى الأمير يوسف بن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا اليه جميع بلاد شرق الأندلس فأحسن اليهم الأمير يوسف وتزوج أختهم وأصبحوا عنده فى أعز مكان. وكان ابن مردنيش أديبا فاضلا (١) لما شغل لمتونة بحرب الموحدين سنة ٥٣٧ بايع أهل بلنسية للأمير أبى محمد عبد الله بن سعد بن مردنيش الجذامى وأقام مجاهدا الى أن استشهد سنة ٥٤٠ فى بعض أيامه مع النصارى ، ثم بويع لابن أخيه محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش وملك شاطبة ومدينة شقر ومرسية، وكان ابراهيم بن همشك صهره من قواده فعاث فى أقطار الأندلس وبقى ابن همشك تحت طاعة محمد بن مردنيش — وكان قد استخلفه على مرسية — الى أن قام عليه بعد سنة ٥٦٠ ثم استخلص البلاد من أيديهم عبد المؤمن بن على بعد حروب شديدة الخ — وفى سنة ٥٧٥ عقد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن لغانم بن محمد بن مردنيش على أسطوله وأغزاه مدينة أشبونة فغنم ورجع ظافرا وكان بنو مردنيش ذوى عصبية وأولى قوة وأولى بأس شديد. « أحمد يوسف نجاتى »

هَمَشْك(١) بِفَحْصِ غَرْنَاطَةَ ، وَقَدِ اُسْتَعَانَ اُبْنُ مَرْدَنِيش بِالنَّصَارَى عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَهَزَمَهُمْ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ وَقَتَلَهُمْ أَبْرَحَ قِتْلَةٍ ، وَاُسْتَخْلَصَ غَرْنَاطَةَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ مِنْ يَدِ اُبْنِ مَرْدَنِيش . وَوَلِيَ الْأَمْرَ بَعْدَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ اُبْنُهُ يُوسُفُ ، وَأَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَكَانَتْ لَهُ مَوَاقِفُ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ . وَوَلِيَ بَعْدَهُ اُبْنُهُ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ الطَّائِرُ الصِّيتِ ، وَكَانَتْ لَهُ فِي النَّصَارَى بِالْأَنْدَلُسِ نِكَايَةٌ كَبِيرَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِهَا غَزْوَةُ الْأَرْكِ(٢) الَّتِي تُضَاهِي وَقْعَةَ الزَّلَّاقَةِ أَوْ تَزِيدُ . وَالْأَرْكُ مَوْضِعٌ بِنَوَاحِي بَطَلْيَوْسَ وَكَانَتْ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَغَنِمَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ مَا عَظُمَ

(١) ابراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك ر ومى الأصل ، ومفرج أو همشك نصرانى أسلم على يد أحد ملوك بنى هود بسرقسطة ثم اتصل بابن الأحمر بقرطبة ويحيى بن غانية، ومازال يترقى حتى صاهره محمد بن مردنيش على ابنته فاتصلت له الرياسة والامارة ، ثم كان من ثوار الأندلس ذوى الشوكة الحادة والبأس الشديد حتى قال ابن صفوان :

وديار شكوى الزمان فشتك حدثتنا عن عزة ابن همشك

وتقلبت به الأحوال حتى هلك بمدينة مكناسة بالمغرب حوالى سنة ٥٧٥

(٢) مكان بالقرب من قلعة رباح الى الغرب منها وشمال قرطبة Alarcos

قَدْرُهُ ، وَكَانَ عِدَّةُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْفِرَنْجِ فِيمَا قِيلَ مِائَةَ أَلْفٍ وَسِتَّةً وَأَرْبَعِينَ[1] أَلْفاً ، وَعِدَّةُ الْأَسَارَى ثَلاثِينَ أَلْفاً ، وَعِدَّةُ الْخِيَامِ مِائَةَ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفَ خَيْمَةٍ ، وَالْخَيْلِ ثَمَانِينَ أَلْفاً ، وَالْبِغَالِ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَالْحَمِيرِ أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ - جَاءَ بِهَا الْكُفَّارُ تَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا إِبِلَ لَهُمْ - . وَأَمَّا الْجَوَاهِرُ وَالْأَمْوَالُ فَلا تُحْصَى ، وَبِيعَ الْأَسِيرُ بِدِرْهَمٍ ، وَالسَّيْفُ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ وَالْفَرَسُ بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ ، وَالْحِمَارُ بِدِرْهَمٍ ، وَقَسَّمَ يَعْقُوبُ الْغَنَائِمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِمُقْتَضَى الشَّرْعِ ، وَنَجَا الْفُنْشُ مَلِكُ النَّصَارَى إِلَى طُلَيْطُلَةَ فِي أَسْوَإِ حَالٍ[2] ، فَحَلَقَ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ ، وَنَكَّسَ صَلِيبَهُ ، وَآلَى أَلَّا يَنَامَ عَلَى فِرَاشٍ ، وَلَا يَقْرَبَ النِّسَاءَ ، وَلَا يَرْكَبَ فَرَساً وَلَا دَابَّةً حَتَّى يَأْخُذَ بِالثَّأْرِ ، وَصَارَ يَجْمَعُ مِنَ الْجَزَائِرِ وَالْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ وَيَسْتَعِدُّ

***

موازنة بين حكم المسلمين وحكم الفرنج

ثُمَّ لَقِيَهُ يَعْقُوبُ وَهَزَمَهُ ، وَسَاقَ خَلْفَهُ إِلَى طُلَيْطُلَةَ وَحَاصَرَهُ وَرَمَى عَلَيْهَا بِالْمَجَانِيقِ وَضَيَّقَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَتْحُهَا ، فَخَرَجَتْ

---

(١) فى بعض النسخ : وستة وخمسين ألفا . (٢) فر منهزما بعد أن عاين الحمام ونجا برأس طمرة ولجام ، وقنع من الغنيمة بالاياب «أحمد يوسف نجاتى»

إِلَيْهِ وَالِدَةُ الْأَذْفُونْشِ وَبَنَاتُهُ وَنِسَاؤُهُ، وَبَكَيْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَأَلْنَهُ إِبْقَاءَ الْبَلَدِ عَلَيْهِنَّ، فَرَقَّ لَهُنَّ وَمَنَّ عَلَيْهِنَّ بِهَا، وَوَهَبَ لَهُنَّ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ مَا جَلَّ، وَرَدَّهُنَّ مُكَرَّمَاتٍ، وَعَفَا بَعْدَ الْقُدْرَةِ(١)، وَعَادَ إِلَى قُرْطُبَةَ فَأَقَامَ شَهْرًا يُقَسِّمُ الْغَنَائِمَ، وَجَاءَتْهُ رُسُلُ الْفُنْشِ بِطَلَبِ الصُّلْحِ فَصَالَحَهُ، وَأَمِنَ النَّاسُ مُدَّتَهُ، وَفِيهِ يَقُولُ بَعْضُ شُعَرَاءِ عَصْرِهِ(٢):

أَهْلٌ بِأَنْ يُسْعَى إِلَيْهِ وَيُرْتَجَى

وَيُزَارَ مِنْ أَقْصَى الْبِلَادِ عَلَى الرَّجَا

مَنْ قَدْ غَدَا بِالْمَكْرُمَاتِ مُقَلَّدًا

وَمُوَشَّحًا وَمُخَتَّمًا وَمُتَوَّجَا

---

(١) شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا
وكان ذلك سنة ٥٩٣ فلم يبق للفرنجة بعد ذلك قدرة على لقائه وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأرسلوا اليه يلتمسون منه الصلح فأجابهم الى ذلك لما بلغه من أخبار على بن اسحق بن محمد بن على بن غانية المستولى اللثم « وأنه قد خرج عليه من جزيرة ميورقة وعاث فى بلاد افريقية » وتوفى الملك المنصور سنة ٥٩٥ وكان مولده سنة ٥٥٤ (٢) مدح بهذا الشعر حين طلب منه الفونس الصلح فأجابه اليه . « أحمد يوسف نجاتى »

عَمَرَتْ مَقَامَاتُ ٱلْمُلُوكِ بِذِكْرِهِ
وَتَعَطَّرَتْ مِنْـهُ ٱلرِّيَاحُ تَأَرُّجَا

***

مادار بين يعقوب وصلاح الدين الأيوبي

وَلَمَّا أَرْسَلَ لَهُ ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ بْنُ أَيُّوبَ شَمْسَ ٱلدِّينِ بْنَ مُنْقِذٍ (١) يَسْتَنْجِدُ بِهِ عَلَى ٱلْفِرَنْجِ ٱلْخَارِجِينَ عَلَيْهِ بِسَاحِلِ ٱلْبِلَادِ ٱلْمُقَدَّسَةِ وَلَمْ يُخَاطِبْهُ بِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَمْ يُجِبْـهُ إِلَى مَا طَلَبَهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ سَـنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَمَدَحَهُ ٱبْنُ مُنْقِذٍ بِقَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ :

سَأَشْـكُرُ بَحْرًا ذَا عُبَابٍ (٢) قَطَعْتُهُ
إِلَى بَحْرِ جُودٍ مَا لِأُخْرَاهُ سَاحِلُ

---

(١) هو شمس الدولة أبو الحرث عبد الرحمن بن نجم الدولة أبى عبد الله محمد بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى ، وكان عمه أسامة بن مرشد الملقب مؤيد الدولة مجد الدين من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وكان يسكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم فانتقل الى مصر مكرمة الضيوف وملجأ كل مظلوم ملهوف فبقى بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم الى أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد الى الشام وسكن دمشق وتوفى بها سنة ٥٨٤ وتوفى والده أبو أسامة مرشد سنة ٥٣١ — أما أبو الحرث رسول الملك صلاح الدين فتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ومولده فى شيزر سنة ٥٢٣ وكان أديبا له نظم ونثر جيـدان « أحمد يوسف نجاتى » (٢) عباب : موج متلاطم

إِلَى مَعْدِنِ ٱلتَّقْوَى إِلَى كَعْبَةِ ٱلنَّدَى

إِلَى مَنْ سَمَتْ بِالذِّكْرِ مِنْهُ ٱلْأَوَائِلُ

إِلَيْكَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تَزَلْ

إِلَى بَابِكَ ٱلْمَأْمُولِ تُزْجَى ٱلرَّوَاحِلُ(١)

قَطَعْتُ إِلَيْكَ ٱلْبَرَّ وَٱلْبَحْرَ مُؤْمِناً

بِأَنَّ نَدَاكَ ٱلْغَمْرَ بِالنُّجْحِ كَافِلُ

وَحُزْتُ بِقَصْدِيكَ ٱلْعُلَا فَبَلَغْتُهَا

وَأَدْنَى عَطَايَاكَ ٱلْعُلَا وَٱلْفَوَاضِلُ

فَلَا زِلْتَ لِلْعَلْيَاءِ وَٱلْجُودِ بَانِياً

تُبَلِّغُكَ ٱلْآمَالُ مَا أَنْتَ آمِلُ

وَعِدَّتُهَا أَرْبَعُونَ بَيْتاً ، فَأَعْطَاهُ بِكُلِّ بَيْتٍ أَلْفاً وَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا أَعْطَيْنَاكَ لِفَضْلِكَ وَلِبَيْتِكَ . وَكَانَ عُنْوَانُ ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَرْسَلَهُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ « إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُسْلِمِينَ » وَفِي أَوَّلِهِ

(١) تزجى: تساق ،والرواحل جمع راحلة،وهي مايرحل عليه من الابل،يريد أنه مقصد الطالبين واليه تضرب أكباد الابل،والى بابه يقصد العافون والراجون

ٱلْفَقِيرُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ ، وَبَعْدَهُ مِنْ إِنْشَاءِ ٱلْفَاضِلِ (١) : ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِى ٱسْتَعْمَلَ عَلَى ٱلْمِلَّةِ ٱلْحَنِيفِيَّةِ (٢) مَنِ ٱسْتَعْمَرَ ٱلْأَرْضَ (٣) ، وَأَغْنَى مِنْ أَهْلِهَا مَنْ سَأَلَهُ ٱلْقَرْضَ (٤) ، وَأَجْرَى مَنْ أَجْرَى (٥) عَلَى يَدِهِ ٱلنَّافِلَةَ

---

(١) هو القاضى الفاضل مجير الدين أبو علي عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على بن القاضى السعيد أبى محمد محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن المفرج بن أحمد اللخمى البيسانى العسقلانى المولد المصرى الدار ، كان صاحب دواوين الانشاء ووزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن وبرز فى صناعة الانشاء وله فيه غرائب ، وهو صاحب الطريقة الفاضلية فى الكتابة وهو من الشهرة بحيث لا يخفى ، ولد بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ «وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان فلهذا نسبوا اليها » وتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ ودفن هو والشاطبى فى قبر واحد بالقرافة (٢) يريد ملة الاسلام وفى الحديث : « بعثت بالحنيفية السمحة» : السهلة والحنيف هو المائل الى الاستقامة ، والمستقيم. قال الشاعر

تعلم أن سيهديكم الينا طريق لا يجور بكم حنيف

(٣) يشير الى قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » وقوله تعالى : « ان الأرض يرثها عبادى الصالحون » (٤) يشير الى قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له الخ » (٥) أظن أن أجرى الأولى من الجرى وهو الوكيل والرسول الجارى فى الأمر ، وقد أجراه فى حاجته ، وأجرى أرسل وكيلا ، وأجرى الثانية جعله جاريا دائما ، وجرت الأمور على يد فلان اذا انتظمت سائرة. وأرى أن أجرى الأولى هنا محرفة عن « آجر » من الأجر وهو حسن الجزاء أو عن (أجزى)

وَٱلْفَرْضَ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ ٱلْمِلَّةِ بِدَرَارِي ٱلذَّرَارِي ٱلَّتِي بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ (١) . وَهُوَ كِتَابٌ طَوِيلٌ سَأَلَهُ فِيهِ أَنْ يَقْطَعَ عَنْهُ مَادَّةَ ٱلْبَحْرِ (٢)، وَٱسْتَنْجَدَهُ عَلَى ٱلْأَفْرَنْجِ إِذْ كَانَتْ لَهُ ٱلْيَدُ عَلَيْهِمْ . وَعَادَ ٱبْنُ مُنْقِذٍ مِنْ هَـذِهِ ٱلرِّسَالَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَبَعَثَ مَعَهُ هَدِيَّةً حَقِيرَةً .

وَأَمَّا ٱبْنُ مُنْقِذٍ فَإِنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَغْنَاهُ ، لَا لِأَجْـلِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ بَلْ لِبَيْتِهِ وَفَضْلِهِ كَمَا مَرَّ . وَمَا وَقَعَ مِنْ يَعْقُوبَ فِي صَلَاحِ ٱلدِّينِ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يُوَفِّهِ حَقَّهُ فِي ٱلْخِطَابِ (٣) .

---

(١) يشير الى قوله تعـالى : « ذرية بعضها من بعض » والدرارى جمع درى وهو الـكوكب الساطع (٢) يريد الاستعانة به فى الحروب الصليبية التى أجلبت فيها الأمم المسيحية بخيلها ورجلها على صلاح الدين وانقضت عـلى البلاد من كل جهة وتتابعت أساطيلهم بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس « وكان صـلاح الدين قد افتتحه سنة ٥٨٣ » واعترضوا أسطول صلاح الدين فى البحر ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لضعفها يومئذ عن ممانعتهم فبعث صلاح الدين صريخه الى المنصور سنة ٥٨٥ يطلب منه اعانته بالأساطيل وامداده بها لمنازلة عـكا وصور وطرابلس الشام، ولتحول فى البحر بين أساطيل الفرنج وامداد دول أوربة بها فيقطع عنهم تلك المادة ويكفى صلاح الدين شر موالاتها

(٣) يعنى أنه تجافى عن خطابه بأمـير المؤمنين فلم يرقه ذلك وأسرها فى

***

استعمال السادة على الأندلس

« رَجَعَ » وَلَمَّا اسْتَفْحَلَ أَمْرُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْأَنْدَلُسِ اسْتَعْمَلُوا الْقَرَابَةَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُمُ السَّادَةَ ، وَاقْتَسَمُوا وِلَايَتَهَا بَيْنَهُمْ ، وَلَهُمْ مَوَاقِفُ فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ مَذْكُورَةٌ . وَكَانَ صَاحِبُ الْأَمْرِ بِمَرَّاكُشَ يَأْتِي الْأَنْدَلُسَ لِلْجِهَادِ ، وَهَزَمَ يَعْقُوبُ الْمَنْصُورُ كَمَا سَبَقَ قَرِيباً بِالْأَرْكِ ابْنَ أَذْفُونْشَ مَلِكَ الْجَلَالِقَةِ الْهَزِيمَةَ الشَّنْعَاءَ ، وَأَجَازَ ابْنُهُ النَّاصِرُ[1] الْوَالِي بَعْدَهُ الْبَحْرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمَغْرِبِ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّمِائَةٍ وَمَعَهُ مِنَ الْجُنُودِ مَالَا يُحْصَى ، حَتَّى حَكَى بَعْضُ الثِّقَاتِ مِنْ مُؤَرِّخِي الْمَغْرِبِ أَنَّهُ اجْتَمَعَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ سِتُّمِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، فَمَحَّصَ[2] اللهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِالْعِقَابِ[3] وَاسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ عِدَّةٌ ، وَكَانَتْ سَبَبَ

نفسه و « لله الأمر من قبل ومن بعد » (١) هو أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله . بويع يوم وفاة أبيه فى شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ وتوفى فى شعبان سنة ٦١٠ (٢) أى بلاهم واختبرهم (٣) التقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان ـ والعقاب « بكسر العين » جمع

ضَعفِ ٱلْمَغْرِبِ وَٱلْأَنْدَلُسِ، أَمَّا ٱلْمَغْرِبُ فَبِخَلَاءِ[1] كَثِيرٍ مِنْ قُرَاهُ وَأَقطَارِهِ ، وَأَمَّا ٱلْأَنْدَلُسُ فَبِغَلَبِ ٱلْعَدُوِّ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُ لَمَّا ٱلْتَاثَ[2] أَمْرُ ٱلْمُوَحِّدِينَ بَعْدَ ٱلنَّاصِرِ بْنِ ٱلْمَنْصُورِ ٱنْتَزَى ٱلسَّادَةُ بِنَوَاحِي ٱلْأَنْدَلُسِ كُلٌّ فِي عَمَلِهِ ، وَضَعُفَ مُلْكُهُمْ بِمَرَّاكُشَ ، فَصَارُوا إِلَى ٱلِاسْتِجَاشَةِ[3] بِالطَّاغِيَةِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَإِسْلَامِ حُصُونِ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَمَشَتْ رِجَالَاتُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَأَعْقَابُ ٱلْعَرَبِ مُنْذُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ وَأَجْمَعُوا عَلَى إِخْرَاجِهِمْ، فَثَارُوا بِهِمْ[4] لِحِينٍ وَاحِدٍ وَأَخْرَجُوهُمْ، وَتَوَلَّى كِبْرَ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ هُودٍ ٱلْجُذَامِيُّ ٱلثَّائِرُ بِالْأَنْدَلُسِ وَٱبْنُ مَرْدَنِيشَ وَثُوَّارٌ آخَرُونَ .

عقبة ، وتسمى الواقعة بذلك أيضا ، سمت العرب تلك السهول بهذا الاسم لكثرة ما كان فيها من العقبات التى كانت سببا فى خذلانهم وانتصار جيوش النصرانية عليهم انتصارا باهرا تمزقت معه جيوش المسلمين على كثرتها حتى لم ينج منهم الاعدد قليل وقد تسمى (العقاب) بضم العين أيضا

(١) أى خلو ، وفى بعض المراجع (فبجلاء) (٢) أى اختلط واضطرب (٣) أى الاستعانة وطلب الأمداد بالجيوش (٤) فى الأصل « فساروا به » وفى ابن خلدون «فثاروا بهم» فآثرناما فيه «على كثرة تصحيفه وتحريفه»

***

دولة بنى هود

وَقَالَ ٱبْنُ خَلْدُونَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَى ٱبْنِ هُودٍ فِى دَوْلَتِهِ مِنْ أَعْقَابِ دَوْلَةِ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا وَأَهْلِ نَسَبِهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ نَصْرٍ ٱلْمَعْرُوفُ بِابْنِ ٱلْأَحْمَرِ، وَتَلَقَّبَ مُحَمَّدٌ هَذَا بِالشَّيْخِ، فَجَاذَبَهُ ٱلْحَبْلَ، وَكَانَتْ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دَوْلَةٌ أَوْرَثَهَا بَنِيهِ. ٱنْتَهَى.

وَكَانَ ٱبْنُ هُودٍ[1] يَخْطُبُ لِلْعَبَّاسِيِّ صَاحِبِ بَغْدَادَ، ثُمَّ حَصَلَتْ لِابْنِ هُودٍ وَأَعْقَابِهِ حُرُوبٌ وَخُطُوبٌ إِلَى أَنْ كَانَ

(١) هو الأمير محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود ثار بجهة مرسية بعد موت المستنصر سنة ٦٢٠ وفشل دولة الموحدين واختلاف السادة الذين كانوا أمراء ببلنسية، وهو من أعقاب بنى هود من ملوك الطوائف، وخطب للخليفة المستنصر العباسى، وهزم جيش الموحدين وتسمى بأمير المسلمين، وبعد حروب وثورات استولى على كثير من البلاد حتى بويع للسلطان محمد ابن يوسف بن نصر سنة ٦٢٩ بأرجونة، ودعا لأبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية. وتنازع ابن الأحمر وابن هود رياسة الأندلس، وفى سنة ٦٣١ وصل خطاب الخليفة المستنصر العباسى الى ابن هود من بغداد ولقبه المتوكل، وفد به أبو على الحسن بن على بن حسن بن الحسين الكرى الملقب بالكمال، وجاء بالراية والخلع والعهد، وقدم على ابن هود بذلك فى غرناطة فى يوم مشهود — ثم توفى المتوكل سنة ٦٣٥ فولى من بعده بمرسية ابنه أبو بكر محمد وتلقب بالواثق الخ وكانت خطوب استولى الافرنج فيها على كثير من حصون الأندلس، ثم استقرت قدم ابن الأحمر فى الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره «أحمد يوسف نجاتى»

آخِرَهُمُ ٱلْوَاثِقُ بْنُ ٱلْمُتَوَكِّلِ ، فَضَايَقَهُ ٱلْفُنْشُ وَٱلْبَرْشِلُونِيُّ ، فَبَعَثَ بِالطَّاعَةِ لِابْنِ ٱلْأَحْمَرِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ ٱبْنَ أَشْقِيلُولَةَ[1] وَتَسَلَّمَ مُرْسِيَةَ مِنْهُ ، وَخَطَبَ لِابْنِ ٱلْأَحْمَرِ بِهَا ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا رَاجِعاً إِلَى ٱبْنِ ٱلْأَحْمَرِ ، فَأَوْقَعَ بِهِ ٱلنَّصَارَى فِي طَرِيقِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ ٱلْوَاثِقُ إِلَى مُرْسِيَةَ ثَالِثَةً ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا إِلَى أَنْ مَلَكَهَا ٱلْعَدُوُّ مِنْ يَدِهِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَعَوَّضَهُ عَنْهَا حِصْناً يُسَمَّى يُسْرَ وَهُوَ مِنْ عَمَلِهَا ، فَبَقِيَ فِيهِ إِلَى أَنْ هَلَكَ وَٱنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ ٱبْنِ هُودٍ ، وَٱللهُ وَارِثُ ٱلْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ

***

دولة بنى الاحمر

« رَجْعٌ » إِلَى ذِكْرِ دَوْلَةِ أَوْلَادِ ٱلْأَحْمَرِ لِأَنَّ لِسَانَ ٱلدِّينِ وَزِيرُ أَحَدِهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ آخِرُ مُلُوكِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْ يَدِهِمُ ٱسْتَوْلَى ٱلنَّصَارَى عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا سَنَذْكُرُهُ ،

---

(١) هو عبدالله بن على، وكان بنو أشقيلولة «وهم من سادة البربر» أصهارا لبنى نصر قرابة ابن الأحمر، وبهم كانت له عصبية، وكانوا من وجوه الأندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الأحمر بابنته وأخته وقاموا معه فى رفع قواعد ملكه ، ثم انحرفوا عنه الى موالاة بنى مرين، ونزل محمد بن عبد الله بن أبى الحسن منهم الى السلطان يعقوب عن مالقة ، وكان انقراضهم فى آخر دولة بنى مرين . « أحمد يوسف نجاتى »

وَقِيلَ: أَصْلُهُمْ مِنْ أَرْجُونَةَ(١) مِنْ حُصُونِ قُرْطُبَةَ، وَلَهُمْ فِيهَا سَلَفٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْجُنْدِ، وَيُعْرَفُونَ بِبَنِي نَصْرٍ، وَيَنْتَسِبُونَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ سَيِّدِ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ كَبِيرُهُمْ لِآخِرِ دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدُ(٢) بْنُ يُوسُفَ بْنِ نَصْرٍ، وَيُعْرَفُ بِالشَّيْخِ وَأَخُوهُ إِسْمَعِيلُ، وَكَانَتْ لَهُ وَجَاهَةٌ فِي نَاحِيَتِهِمْ. وَلَمَّا فَشِلَتْ(٣) رِيحُ الْمُوَحِّدِينَ، وَانْتَزَى(٤) الثُّوَّارُ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَعْطَى السَّادَةُ حُصُونَهَا لِلطَّاغِيَةِ، وَاسْتَقَلَّ بِأَمْرِ الْجَمَاعَةِ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ هُودٍ الثَّائِرُ بِمُرْسِيَةَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَتَغَلَّبَ عَلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ أَجْمَعَ تَصَدَّى الشَّيْخُ هَذَا لِلثَّوْرَةِ عَلَيْهِ، وَبُويِعَ لَهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَدَعَا لِأَبِي زَكَرِيَّا صَاحِبِ إِفْرِيقِيَّةَ(٥)، وَأَطَاعَتْهُ جَيَّانُ وَشَرِيشُ سَنَةَ

---

(١) أرجونة : بلد من ناحية جيان جنوبى قرطبة (٢) فى الأصل (نصر) ابن يوسف وهو خطأ (٣) أى ضعف أمرهم وولت دولتهم (٤) انتزى الثوار الخ : طمحوا ونازعوا اليها . (٥) هو الأمير المولى أبو زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن أبى حفص عمر بن يحيى بن محمد « الهنتاتى » « من قبيلة هنتانة من أكثر قبائل المصامدة جمعا ، وهم القائمون بدعوة المهدى بن تومرت والسابقون اليها » من دولة بنى حفص ، من بقية الموحدين ، ولد الأمير أبو زكريا

ثَلاثِينَ بَعْدَهَا ، وَاُسْتَظْهَرَ عَلَى أَمْرِهِ بِقَرَابَتِهِ مِنْ بَنِي نَصْرٍ وَأَصْهَارِهِ بَنِي أَشْقَيْلُولَةَ ، ثُمَّ بَايَعَ لِبَنِي هُودٍ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلاثِينَ عِنْدَ مَا بَلَغَهُ خِطَابُ اُلْخَلِيفَةِ مِنْ بَغْدَادَ ، ثُمَّ ثَارَ بِإِشْبِيلِيَةَ أَبُو مَرْوَانَ(١) اُلْبَاجِيُّ عِنْدَ خُرُوجِ اُبْنِ هُودٍ عَنْهَا وَرُجُوعِهِ إِلَى مُرْسِيَةَ، فَدَاخَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ اُلْأَحْمَرِ فِي اُلصُّلْحِ عَلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ اُبْنَتَهُ ،فَأَطَاعَهُ وَدَخَلَ إِشْبِيلِيَةَ سَنَةَ اُثْنَتَيْنِ وَثَلاثِينَ ، ثُمَّ فَتَكَ بِابْنِ اُلْبَاجِيِّ فَقَتَلَهُ ، وَتَنَاوَلَ اُلْبَطْشَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَشْقَيْلُولَةَ ،ثُمَّ رَاجَعَ أَهْلُ إِشْبِيلِيَةَ بَعْدَهَا بِشَهْرٍ دَعْوَةَ اُبْنِ هُودٍ ،وَأُخْرِجَ اُبْنُ اُلْأَحْمَرِ ، ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى غَرْنَاطَةَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلاثِينَ بِمُدَاخَلَةِ أَهْلِهَا، حِينَ ثَارَ اُبْنُ أَبِي خَالِدٍ بِدَعْوَتِهِ فِيهَا ، وَوَصَلَتْهُ بَيْعَتُهَا وَهُوَ بِجَيَّانَ ، فَقَدِمَ إِلَيْهَا عَلِيُّ بْنُ أَشْقَيْلُولَةَ ، ثُمَّ جَاءَ عَلَى أَثَرِهِ وَنَزَلَهَا ، وَاُبْتَنَى بِهَا حِصْنَ

بمراكش سنة ٥٩٩ وبويع بالقيران فى شهر رجب سنة ٦٢٥ ، ثم بويع له بكثير من مدن الأندلس ـ وكان من العلماء الصالحين العاملين فقيها أديبا ، وجمعت دولته من رؤساء العلماء والشعراء وأهل الصلاح مالم يجتمع لغيره ، وتوفى سنة ٦٤٧ . (١) هو أحمد بن محمد ، وكان أهل اشبيلية قد ثاروا وأخرجوا ابن هود وبايعوا لأبى مروان الباجى « أحمد يوسف نجاتى »

اَلْحَمْرَاءِ لِنُزُولِهِ ، ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى مَالَقَـةَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَ اَلْمَرِيَّةَ(١) مِنْ يَدِ اُبْنِ اُلرُّمَيْمِي(٢) وَزِيرِ اُبْنِ هُودٍ اُلثَّائِرِ بِهَا سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ ، ثُمَّ بَايَعَهُ أَهْلُ لُورَقَةَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ . وَكَانَ اُبْنُ اُلْأَحْمَرِ أَوَّلَ أَمْرِهِ وَصَلَ يَدَهُ بِالطَّاغِيَةِ اُسْتِظْهَارًا عَلَى أَمْرِهِ فَعَضَدَهُ ، وَأَعْطَاهُ اُبْنُ هُودٍ ثَلَاثِينَ حِصْنًا فِي كَفِّ(٣) غَرْبِهِ ، بِسَبَبِ اُبْنِ اُلْأَحْمَرِ ، وَلِيُعِينَهُ عَلَى مِلْكِ قُرْطُبَةَ فَتَسَلَّمَهَا ، ثُمَّ تَغَلَّبَ عَلَى قُرْطُبَةَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ـ أَعَادَهَا اُللهُ ـ ثُمَّ نَازَلَ إِشْبِيلِيَةَ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ ،

(١) المرية Almeria مدينة كبيرة من كورة ألبيرة « وقد سبق التعريف بها » وهى بين مملكتى مالقة ومرسية على حافة بحر الزقاق . وكانت مسورة حصينة ومعدودة باب الشرق ومفتاح الرزق ، ولها بر فضى ، وساحل تبرى ، وبحر زبرجدى ، وأسوارها عالية ، وقلعتها منيعة شامخة وهواؤها معتدل ، وكان يعمل بها نوع من الحرير يفوق فى جمال الوصف ماعداه ، والمرية ثلاث مدن الأولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلى كان لها سور محفوظ من الأعداء بالسمار والحرس ولا عمارة فيها ، ويليها الى الشرق المدينة القديمة ، وتليها المدينة الثالثة المعروفة بعصلى المرية وهى أكبر الثلاث. وجامعها الكبير بالمدينة القديمة وكان من بديع الجوامع وأفخمها ، وكان بها دار لصناعة السفن وعمارة المراكب (٢) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن عبد الملك الأموى الرميمى وزير ابن هود . وكان يدعوه ذاالوزارتين « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) غربه : حدته وقوته وشدته .

وَٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ مَعَهُ ، ثُمَّ دَخَلَهَا صُلْحًا وَمَلَكَ أَعْمَالَهَا ، ثُمَّ مَلَكَ مُرْسِيَةَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ ، وَلَمْ يَزَلْ ٱلطَّاغِيَةُ يَقْتَطِعُ مَمَالِكَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، كُورَةً كُورَةً ، وَثَغْرًا ثَغْرًا ، إِلَى أَنْ أَلْجَأَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى سِيفِ ٱلْبَحْرِ مَا بَيْنَ رُنْدَةَ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ إِلَى إِلْبِيرَةَ مِنْ مَشْرِقِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَذَلِكَ نَحْوُ عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ ٱلْغَرْبِ إِلَى ٱلشَّرْقِ(١) ثُمَّ سَخِطَ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ ، وَطَمِعَ فِي ٱلِاسْتِيلَاءِ عَلَى سَائِرِ ٱلْجَزِيرَةِ ، فَٱمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ ، وَتَلَاحَقَ بِالْأَنْدَلُسِ ٱلْغُزَاةُ مِنْ بَنِي مَرِينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَعَقَدَ مَلِكُ ٱلْمَغْرِبِ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ ٱلْحَقِّ(٢) لِنَحْوِ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْهُمْ

(١) خلاصة ذلك أنه فى أيام الشيخ ابن الأحمر وأيام ابن هود الثائر استعاد العدو المخذول من المسلمين أكثر بلاد الأندلس وحصونها وبقيت بيدهم حتى خرج المسلمون جميعا منها ، وقد قال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، صدق الله العظيم (٢) هو السلطان يعقوب بن عبدالحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد المرينى « وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى من مشهورى قبائل زناتة بالمغرب » قام السلطان يعقوب بالأمر سنة ٦٥٧ وتوفى سنة ٦٨٤ وكان ملكا جليل القدر عظيم الشأن بل هو سيد بنى مرين وأعظمهم همة وأكثرهم فى العدو جهادا ، وهو رابع اخوة أربعة ولوا الأمر بالمغرب من

فَأَجَازُوا فِي حُدُودِ ٱلسِّتِّينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَتَقَبَّلَ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ إِجَازَتَهُمْ ، وَدَفَعَ بِهِمْ فِي نَحْرِ عَدُوِّهِ وَرَجَعُوا ، ثُمَّ تَنَاسَلُوا[١] إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ . وَلَمْ يَزَلِ ٱلْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ ٱلشَّيْخُ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَوَلِيَ بَعْدَهُ ٱبْنُهُ مُحَمَّدٌ ٱلْفَقِيهُ[٢] وَأَوْصَاهُ بِاسْتِصْرَاخِ بَنِي مَرِينَ مُلُوكِ ٱلْمَغْرِبِ بَعْدَ ٱلْمُوَحِّدِينَ إِنْ طَرَقَهُ أَمْرٌ أَنْ يَعْتَضِدَ بِهِمْ ، فَأَجَازَ ٱلْفَقِيهُ إِلَى يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ ٱلْحَقِّ سُلْطَانِ فَاسَ وَٱلْمَغْرِبِ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ ، فَأَجَابَ صَرِيخَهُ وَأَرْسَلَ ٱبْنَهُ[٣] وَعَسَاكِرَهُ مَعَهُ ، ثُمَّ أَجَازَ عَلَى أَثَرِهِ ، وَتَسَلَّمَ ٱلْجَزِيرَةَ ٱلْخَضْرَاءَ مِنْ ثَائِرٍ كَانَ بِهَا[٤] ، وَجَعَلَهَا رِكَابًا لِجِهَادِهِ وَنَزَلَ إِلَيْهِ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ عَنْ طَرِيفَ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ ٱلْحُصُونِ ، وَهَزَمَ هُوَ وَٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ زَعِيمَ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ

بني عبدالحق. وأمه اسمها أم اليمن بنت علي ، وكان حليما متواضعا صالحا برا مصلحا جوادا مظفرا منصور الراية ميمون النقيبة ، لم يقصد جيشا الا هزمه ولاعدوا الاقهره ، ولابلدا الافتحه رحمه الله تعالى . «أحمد يوسف نجاتي»

(١) أو (تسايلوا) من السيل (٢) عرف بالفقيه لما كان يقرأ الكتب من بين أهل بيته لاتنحاله طلب العلم ومطالعة كتبه في صغره (٣) هو القائد المظفر الغازي المنصور الأمير أبو زيان منديل (٤) يدعى ابن هشام

« دِنَّه[1] » وَفَرَّقَ جَمْعَهُ[2] وَأَوْقَعَ بِجُمُوعِ ٱلطَّاغِيَةِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ وَبُعُوثَهُ فِي أَرْضِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ ، ثُمَّ خَافَ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ عَلَى مُلْكِهِ وَصَالَحَ ٱلطَّاغِيَةَ ثُمَّ عَادَ . انْتَهَى كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ مُلَخَّصًا .

***

ثبوت قدم بنى الأحمر بالأندلس

وَثَبَتَتْ عَقِبُ بَنِي ٱلْأَحْمَرِ بِالْأَنْدَلُسِ وَٱسْتَوْلَوْا عَلَى جَمِيعِ مَا بِأَيْدِي ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ مُلْكِهَا مِثْلِ ٱلْجَزِيرَةِ وَطَرِيفَ وَرُنْدَةَ ٱلَّتِي كَانَتْ بِيَدِ بَنِي مَرِينَ ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ[3]

---

(١) فى الأصل « ديته » وهو تحريف (٢) كان ذلك سنة ٦٧٤ .

(٣) فى الأصل « وقعد مدة » وهو تحريف غريب مفسد ، وانما يستقيم المعنى ويصلح الكلام ويطابق الواقع ويوافق التاريخ بما عملناه « و بعد مدة » ـ وألب القوم اليه اذا أتوه من كل جانب ، وألب الجيش اذا تجمع كتألب ، وقد تألبوا عليه أى تظاهروا ، وألب : أسرع ، وألب اليه « كضرب » عاد ورجع ـ والألب التدبير على العدو من حيث لا يعلم وهم عليه إلب واحد : أى مجتمعون عليه بالظلم والعداوة ـ و بيان ما يريده أن الملوك من بنى مرين كان قد انقطع غزوهم عن الأندلس حينا من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله فى آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة التى استراح فيها من شدة بنى مرين الذين كانوا شجى فى صدره وغصة فى حلقه وقذى فى عينه ، فاشتد كلبه على ثغور البلاد ، ولما أفضى أمر المغرب الى السلطان أبى سعيد

أَلَّبَ مُلُوكُ ٱلنَّصَارَى سَنَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ وَسَبْعِمِائَةٍ عَلَى غَرْنَاطَة ، وَجَاءَهَا ٱلطَّاغِيَةُ دُونْ بِطرُهْ فِي جَيْشٍ لَا يُحْصَى وَمَعَهُ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ مَلِكاً .

***

وقعة بطرة

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ هٰذِهِ ٱلْوَقْعَةِ أَنَّ ٱلْأَفْرَنْجَ حشَدُوا وَجَمَعُوا وَذَهَبَ سُلْطَانُهُمْ « دُونْ بِطرُهْ » إِلَى طُلَيْطُلَةَ وَدَخَلَ عَلَى مَرْجِعِهِمُ ٱلَّذِي يُقَالُ لَهُ ٱلْبَابَا، وَسَجَدَ لَهُ وَتَضَرَّعَ وَطَلَبَ مِنْهُ ٱسْتِئْصَالَ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكَّدَ عَزْمَهُ ، فَقَلِقَ[1] ٱلْمُسْلِمُونَ بِغَرْنَاطَةَ وَغَيْرِهَا، وَعَزَمُوا عَلَى ٱلِاسْتِنْجَادِ بِالْمَرِينِيِّ أَبِي سَعِيدٍ صَاحِبِ فَاسَ ، وَأَنْفَذُوا إِلَيْهِ رُسُلًا ، فَلَمْ يَنْجَعْ ذَلِكَ ٱلدَّوَاءُ ، فَرَجَعُوا إِلَى أَعْظَمِ ٱلْأَدْوِيَةِ وَهُوَ ٱللَّجَأُ إِلَى ٱللهِ ـ تَعَالَى ـ وَأَخْلَصُوا ٱلنِّيَّاتِ ، وَأَقْبَلَ ٱلْأَفْرَنْجُ فِي جُمُوعٍ لَا تُحْصَى، فَقَضَى نَاصِرُ مَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ

عثمان بن يعقوب بن عبد الحق « تولى سنة ٧١٠ » اشتغل فى صدر دولته بأمر ولده أبى على عمر وخروجه عليه «وأمه كانت من سبايا الفرنجة» فانتهز العدو بطره بن شانجة هذه الفرصة وارتقب هذه الغرة فى الأندلس وزحف فى جموعه الى غرناطة سنة ٧١٨ وكان منه ما هو مذكور هنا « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) فى الأصل « فلق » وهو تحريف يجعل المعنى معلقا قلقا .

سِوَاهُ بِهَزْمِ أُمَمِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَقَتْلِ طَاغِيَتِهِمْ « دُونْ بِطْرُهْ » وَمَنْ مَعَهُ ، وَكَانَ نَصْرًا عَزِيزًا وَيَوْمًا مَشْهُورًا مَشْهُودًا ، وَكَانَ ٱلسُّلْطَانَ إِذْ ذَاكَ بِالْأَنْدَلُسِ ٱلْغَالِبُ بِاللهِ أَبُو ٱلْوَلِيدِ إِسْمٰعِيلُ بْنُ ٱلرَّئِيسِ أَبِي سَعِيدٍ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ ٱلْمَعْرُوفِ بِابْنِ ٱلْأَحْمَرِ[1] رَغِبَ أَنْ يُحَصِّنَ ٱلْبِلَادَ وَٱلثُّغُورَ ، فَلَمَّا بَلَغَ ٱلنَّصَارَى ذَلِكَ عَزَمُوا عَلَى مُنَازَلَةِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ، فَانْتَدَبَ ٱلسُّلْطَانُ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ لِرَدِّهِمْ ، وَجَهَّزَ ٱلْأَسَاطِيلَ وَٱلرِّجَالَ . فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ طَلَبُوا إِلَى طُلَيْطُلَةَ وَعَزَمُوا عَلَى ٱسْتِئْصَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَبِلَادِهِمْ ، وَتَأَهَّبُوا لِذَلِكَ غَايَةَ ٱلْأُهْبَةِ ، وَوَصَلَتِ ٱلْأَثْقَالُ وَٱلْمَجَانِيقُ وَآلَاتُ ٱلْحِصَارِ وَٱلْأَقْوَاتُ فِي ٱلْمَرَاكِبِ ، وَوَصَلَ ٱلْعَدُوُّ إِلَى غَرْنَاطَةَ ، وَٱمْتَلَأَتِ ٱلْأَرْضُ بِهِمْ فَتَقَدَّمَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى شَيْخِ ٱلْغُزَاةِ ٱلشَّيْخِ ٱلْعَالِمِ أَبِي سَعِيدٍ عُثْمَانَ ٱبْنِ أَبِي ٱلْعَلَاءِ[1] ٱلْمَرِينِيِّ بِالْخُرُوجِ إِلَى لِقَائِهِمْ بِأَنْجَادِ

(١) هو عثمان بن أبي العلاء ادريس بن عبد الله بن عبدالحق، ولي مشيخة الغزاة بالأندلس وكانت له في جهاد الأعداء اليد البيضاء ، وكان بطلا مقداما وعلا أمره بالأندلس ، وزاحم بني الأحمر ملوكها في رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولي على الأمر من أيديهم، وشرقوا بدائه ومارسهم ومارسوه مدة طويلة ، وعدلوا في أمره الى المصانعة والمجاملة الى أن توفي سنة ٧٣٠

اَلْمُسْلِمِينَ وَشُجْعَانِهِمْ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الْمُوفِي عِشْرِينَ لِرَبِيعٍ الْأَوَّلِ ، وَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ الْأَحَدِ أَغَارَتْ سَرِيَّةٌ مِنَ الْعَدُوِّ عَلَى سَرِيَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنْ فُرْسَانِ الْأَنْدَلُسِ الرُّمَاةِ فَقَطَعُوهُمْ عَنِ الْجَيْشِ ، وَفَرَّتْ تِلْكَ السَّرِيَّةُ أَمَامَهُمْ إِلَى جِهَةِ سُلْطَانِهِمْ ، فَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الصُّبْحِ فَاسْتَأْصَلُوهُمْ ، وَكَانَ هٰذَا أَوَّلَ النَّصْرِ (١) ، وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحَدِ رَكِبَ الشَّيْخُ أَبُو سَعِيدٍ لِقِتَالِ الْعَدُوِّ فِي خَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْهُورِينَ ، فَلَمَّا شَاهَدَهُمُ الْفَرَنْجُ عَجِبُوا مِنْ إِقْدَامِهِمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ فِي تِلْكَ الْجُيُوشِ الْعَظِيمَةِ ، فَرَكِبُوا وَحَمَلُوا بِجُمْلَتِهِمْ عَلَيْهِمْ ، فَانْهَزَمَ الْفَرَنْجُ أَقْبَحَ هَزِيمَةٍ ، وَأَخَذَتْهُمُ السُّيُوفُ ، وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . وَخَرَجَ أَهْلُ غَرْنَاطَةَ

(١) اياك أن تظن أن ذلك بفضل الدعاء وبركة الذكر وقراءة الاوراد، ولكنه كان بالعمل بقوله تعالى : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وبالاقتداء بالقول المأثور الذى يعمل به كثيرا دول أوربة « الحرب خدعة » وارجع الى كتب التاريخ فى هذه الغزوة سنة ٧١٩ تعرف صدق ذلك «أحمد يوسف نجاتى»

لِجَمْعِ ٱلْأَمْـوَالِ وَأَخْذِ ٱلْأَسْرَى ، فَاسْتَوْلَوْا عَلَى أَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ مِنْهَا مِنَ ٱلذَّهَبِ فِيما قِيلَ: ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ قِنْطَارًا ، وَمِنَ ٱلْفِضَّـةِ مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ قِنْطَارًا ، وَمِنَ ٱلسَّبْيِ سَـبْعَةُ آلَافِ نَفْسٍ ، حَسْبَمَا كَتَبَ بِذَلِكَ بَعْضُ ٱلْغَرْنَاطِيِّينَ إِلَى ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ . وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأُسَارَى أَمْرَأَةُ ٱلطَّاغِيَةِ وَأَوْلَادُهُ فَبَذَلَتْ فِي نَفْسِهَا مَدِينَةَ طَرِيفَ وَجَبَلَ ٱلْفَتْحِ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ حِصْنًا فِيمَا حَكَى بَعْضُ ٱلْمُؤَرِّخِينَ ، فَلَمْ يَقْبَلِ ٱلْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ[1] ، وَزَادَتْ عِدَّةُ ٱلْقَتْلَى فِي هَذِهِ ٱلْغَزْوَةِ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفًا ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ هَلَكَ مِنْهُمْ بِالْوَادِي مِثْلُ هَذَا ٱلْعَدَدِ ، لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِالطَّرِيقِ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ هَلَـكُوا بِالْجِبَالِ وَٱلشِّعَابِ فَلَا يُحْصَوْنَ ، وَقُتِلَ ٱلْمُلُوكُ ٱلْخَمْسَةُ وَٱلْعِشْرُونَ جَمِيعُهُمْ ، وَٱسْتَمَرَّ ٱلْبَيْعُ فِي ٱلْأَسْرَى وَٱلْأَسْلَابِ وَٱلدَّوَابِّ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَوَرَدَتِ ٱلْبَشَائِرُ بِهَذَا

(١) قد يكون ذلك فى مثل تلك الأيام، وهذه الأحوال من خطأ الرأى وضعف السياسة أو لعل لهم غرضا من ذلك . «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلنَّصْرِ ٱلْعَظِيمِ إِلَى سَائِرِ ٱلْبِلَادِ . وَمِنَ ٱلْعَجَبِ : أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْأَجْنَادِ سِوَى ثَلَاثَةَ عَشَرَ فَارِسًا ، وَقِيلَ عَشْرَةُ أَنْفُسٍ ، وَقِيلَ : كَانَ عَسْكَرُ ٱلْإِسْلَامِ نَحْوَ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ فَارِسٍ ، وَٱلرَّجَّالَةُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافِ رَاجِلٍ ، وَقِيلَ دُونَ ذَلِكَ ، وَكَانَتِ ٱلْغَنِيمَةُ تَفُوقُ ٱلْوَصْفَ ، وَسُلِخَ ٱلطَّاغِيَةُ « دُونَ بِطْرُهْ » وَحُشِيَ جِلْدُهُ قُطْنًا ، وَعُلِّقَ عَلَى بَابِ غَرْنَاطَةَ ، وَبَقِيَ مُعَلَّقًا سَنَوَاتٍ ، وَطَلَبَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْهُدْنَةَ فَعُقِدَتْ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ مَلَكُوا جَبَلَ ٱلْفَتْحِ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ أَعْمَالِ سُلْطَانِ فَاسَ وَٱلْمَغْرِبِ — وَهُوَ جَبَلُ طَارِقٍ — وَلَمْ يَزَلْ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى أَنِ ٱرْتَجَعَهُ أَمِيرُ ٱلْمُسْلِمِينَ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَرِينِيُّ[1] صَاحِبُ فَاسَ وَٱلْمَغْرِبِ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِ ٱلْأَمْوَالَ ، وَصَرَفَ

(١) هو السلطان المنصور بالله أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق قام بالأمر بعد وفاة أبيه السلطان أبى سعيد سنة ٧٣١ وهو أفخم ملوك بنى مرين دولة، وأضخمهم ملكا، وأبعدهم صيتا، وأعظمهم أبهة، وأكثرهم بالمغربين والأندلس آثارا توفى — رحمه الله — سنة ٧٥٢ — وفد عليه السلطان محمد بن اسمعيل بن الأحمر سنة ٧٣٢ بدار ملكه فاس فأمده بالجند وعقد لابنه أبى مالك على جيش استرد جبل الفتح سنة ٧٣٣ وكان الافرنج قد استولوا عليه سنة ٧٠٩

إِلَيْهِ ٱلْجُنُودَ وَٱلْحُشُودَ وَنَازَلَتْهُ جُيُوشُهُ مَعَ وَلَدِهِ وَخَوَاصِّهِ وَضَيَّقُوا بِهِ إِلَى أَنِ ٱسْتَرْجَعُوهُ لِيَدِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَٱهْتَمَّ بِبِنَائِهِ وَتَحْصِينِهِ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ أَحْمَالَ مَالٍ فِي بِنَائِهِ وَحَصَّنَهُ وَسَوَّرَهُ وَبَنَى أَبْرَاجَهُ وَجَامِعَهُ وَدُورَهُ وَمَحَارِبَهُ[1] ، وَلَمَّا كَادَ يَتِمُّ ذَلِكَ نَازَلَهُ ٱلْعَدُوُّ بَرًّا وَبَحْرًا ، فَصَبَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ وَخَيَّبَ ٱللّٰهُ سَعْيَ ٱلْكَافِرِينَ ، فَأَرَادَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلْمَذْكُورُ أَنْ يُحَصِّنَ سَفْحَ ٱلْجَبَلِ بِسُورٍ مُحِيطٍ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ عَدُوٌّ فِي مُنَازَلَتِهِ ، وَلَا يَجِدَ سَبِيلًا لِلتَّضْيِيقِ بِمُحَاصَرَتِهِ ، وَرَأَى ٱلنَّاسُ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمُحَالِ ، فَأَنْفَقَ ٱلْأَمْوَالَ ، وَأَنْصَفَ ٱلْعُمَّالَ فَأَحَاطَ بِمَجْمُوعِهِ إِحَاطَةَ ٱلْهَالَةِ بِٱلْهِلَالِ ، وَكَانَ بَقَاءُ هٰذَا ٱلْجَبَلِ بِيَدِ ٱلْعَدُوِّ نَيِّفًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَحَاصَرَهُ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو ٱلْحَسَنِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَزَادَ فِي تَحْصِينِهِ ٱبْنُهُ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ[2] . وَلَمَّا أَجَازَ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو ٱلْحَسَنِ ٱلْمَذْكُورُ إِلَى

---

(١) في بعض النسخ (ومخازنه) (٢) هو السلطان المتوكل على الله أبو عنان فارس بن السلطان أبي الحسن . ولد أبو عنان سنة ٧٢٩ وأمه أم ولد رومية توفيت سنة ٧٥٠ وولي الأمر سنة ٧٥٢ وكان سلطانا محبوبا في قومه وعشيرته، أثيرا عند

ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱبْنُ ٱلْأَحْمَرِ[١] وَقَاتَلَهُمُ ٱلطَّاغِيَةُ هَزَمَهُمْ فِي وَقْعَةِ طَرِيفَ، وَٱسْتَوْلَى عَلَى ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ حَتَّى قَيَّضَ[٢] ٱللهُ مِنْ بَنِي ٱلْأَحْمَرِ ٱلْغَنِيَّ بِٱللهِ مُحَمَّدًا ٱلَّذِي كَانَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ[٣] وَزِيرَهُ، فَٱسْتَرْجَعَهَا وَجُمْلَةَ بِلَادٍ كَجَيَّانَ وَغَيْرِهَا، وَكَانَتْ لَهُ فِي ٱلْجِهَادِ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ، وَٱمْتَدَّ مُلْكُهُ وَٱشْتَدَّ حَتَّى حَادَوْلَهُ سَلَاطِينِ فَاسَ مِمَّا وَرَاءَ ٱلْبَحْرِ وَمَلَكَ جَبَلَ ٱلْفَتْحِ، وَنَصَرَ ٱللهُ ٱلْإِسْلَامَ عَلَى يَدِهِ كَمَا سَتَقِفُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ مُكَاتَبَاتِ لِسَانِ ٱلدِّينِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ فِي مَوَاضِعَ

والده وغيره لفضله وعلمه ودينه وعظيم خلقه وتوفى سنة ٧٥٩ (١) كان ذلك سنة ٧٤١ فى مدة سلطان الأندلس أبى الحجاج يوسف بن اسمعيل ابن الأحمر الذى ولى الأمر بعد وفاة أخيه محمد سنة ٧٣٣ (٢) قيض: هيأ ـ وقيض الله فلانا لفلان: جاء به وأتاحه له وسببه، ومنه حديث: «ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له عند سنه من يكرمه» (٣) وكان السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبى عنان عند وفاة والده معزيا له، فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلى فى أغراض تلك السفارة وعاد الى غرناطة، ثم توفى السلطان أبو الحجاج سنة ٧٥٥ وبايع الناس ابنه محمد بن يوسف الغنى بالله ـ ثم بعث وزيره ابن الخطيب سفيرا عنه الى السلطان أبى عنان مستمدا له على عدوه «أحمد يوسف نجاتى»

مِنْ هٰذَا الْكِتَابِ . وَسَعْدُ هٰـذَا الْغَنِيِّ بِاللهِ مِنَ الْعَجَائِبِ ، وَبَقِيَ مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ فِي عَقِبِهِ إِلَى أَنْ أَخَذَ مَا بَقِيَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ الْعَدُوُّ الْكَافِرُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَى حَضْرَةِ الْمُلْكِ غَرْنَاطَةَ — أَعَادَهَا اللهُ لِلْإِسْلَامِ — كَمَا نُبَيِّنُ ذٰلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ . وَخَلَتْ جَزِيرَةُ الْأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَأُبْدِلَتْ مِنَ النُّورِ بِالظَّلَامِ ، حَسْبَمَا اقْتَضَتْهُ الْأَقْدَارُ النَّافِذَةُ وَالْأَحْكَامُ ، وَاللهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

***

أقارب بنى مرين ومشيخة الغزاة

قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ : وَاتَّفَقَ بَنُو الْأَحْمَرِ سَلَاطِينُ غَرْنَاطَةَ أَنْ يَجْعَلُوا مَشْيَخَةَ الْغُزَاةِ لِوَاحِدٍ يَكُونُ مِنْ أَقَارِبِ بَنِي مَرِينَ سَلَاطِينِ الْمَغْرِبِ لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ أَوَى إِلَى الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ اسْتِيلَاءِ بَنِي عَمِّهِمْ عَلَى مُلْكِ الْمَغْرِبِ لِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُنَافَسَةِ ، وَكَانَ لِهٰؤُلَاءِ فِي الْجِهَادِ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ ، مِنْهَا : مَا كُتِبَ عَلَى قَبْرِ شَيْخِ الْغُزَاةِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَلَاءِ — لِتَسْتَدِلَّ عِنْدَ ذٰلِكَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ — : بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى «هٰذَا قَبْرُ شَيْخِ الْحُمَاةِ ، وَصَدْرِ

ٱلْأَبْطَالِ وَٱلْـكُمَاةِ ، وَاحِدُ ٱلْجَلَالَةِ ، لَيْثُ ٱلْإِقْدَامِ وَٱلْبَسَالَةِ
عَلَمِ ٱلْأَعْـلَامِ ، حَامِي ذِمَارِ ٱلْإِسْلَامِ ، صَاحِبِ ٱلْـكَتَائِبِ
ٱلْمَنْصُورَةِ، وَٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَشْهُورَةِ،وَٱلْمَغَازِي ٱلْمَسْطُورَةِ ،وَ إِمَامِ
ٱلصُّفُوفِ ، ٱلْقَائِمِ بِبَابِ ٱلْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ ٱلسُّيُوفِ ، سَيْفِ
ٱلْجِهَادِ ، وَقَاصِمِ ٱلْأَعَادِ ، وَأَسَدُ ٱلْآسَادِ ، ٱلْعَالِي ٱلْهِمَمِ ،
ٱلثَّابِتِ ٱلْقَدَمِ ، ٱلْهُمَامُ ٱلْمُجَاهِدُ ٱلْأَرْضَى ، ٱلْبَطَلُ ٱلْبَاسِلُ
ٱلْأَمْضَى ، ٱلْمُقَدَّسُ ٱلْمَرْحُومُ أَبِي سَعِيدٍ عُثْمَانَ بْنِ ٱلشَّيْخِ
ٱلْجَلِيـــلِ ٱلْهُمَامِ ٱلْـكَبِيرِ ، ٱلْأَصِيلِ ٱلشَّهِيرِ ، ٱلْمُقَدَّسِ
ٱلْمَرْحُومِ أَبِي ٱلْعَلَاءِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْـدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْحَقِّ ،
كَانَ عُمْرُهُ ثَمَانِياً وَثَمَانِينَ سَنَةً ، أَنْفَقَهُ مَا بَيْنَ رَوْحَةٍ فِي سَبِيلِ
ٱللّٰهِ وَغَدْوَةٍ ، حَتَّى ٱسْتَوْفَى فِي ٱلْمَشْهُورِ سَبْعَمِائَةٍ وَٱثْنَتَيْنِ
وَثَلَاثِينَ غَزْوَةً ، وَقَطَعَ عُمُرَهُ مُجَاهِدًا مُجْتَهِدًا فِي طَاعَةِ ٱلرَّبِّ
مُحْتَسِباً فِي إِدَارَةِ ٱلْحَرْبِ ، مَاضِيَ ٱلْعَزَائِمِ فِي جِهَادِ ٱلْـكُفَّارِ ،
مُصَادِمًا بَيْنَ جُمُوعِهِمْ تَدَفُّقَ ٱلتَّيَّارِ ، وَصَنَعَ ٱللّٰهُ تَعَالَى لَهُ فِيهِمْ
مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْـكِبَارِ ، مَاسَارَ ذِكْرُهُ فِي ٱلْأَقْطَارِ ، أَشْهَرَ

مِنَ ٱلْمَثَلِ ٱلسَّيَّارِ حَتَّى تُوُفِّيَ - رَحِمَهُ ٱللّٰهُ - وَغُبَارُ ٱلْجِهَادِ طَيُّ أَثْوَابِهِ ، وَهُوَ مُرَاقِبٌ لِطَاغِيَةِ ٱلْكُفَّارِ وَأَحْزَابِهِ ، فَمَاتَ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ ، وَفِي مَلْحَمَةِ[1] ٱلْجِهَادِ قَبَضَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، وَٱسْتَأْثَرَ بِهِ سَعِيدًا مُرْتَضًى ، وَسَيْفُهُ عَلَى رَأْسِ مَلِكِ ٱلرُّومِ مُنْتَضًى[2] مُقَدِّمَةَ قَبُولٍ وَإِسْعَادٍ ، وَنَتِيجَةَ جِهَادٍ وَجِلَادٍ[3] ، وَدَلِيلًا عَلَى نِيَّتِهِ ٱلصَّالِحَةِ وَتِجَارَتِهِ ٱلرَّابِحَةِ ، فَٱرْتَجَّتِ ٱلْأَنْدَلُسُ لِبُعْدِهِ ، أَتْحَفَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ - تُوُفِّيَ يَوْمَ ٱلْأَحَدِ ٱلثَّانِي لِذِي ٱلْحِجَّةِ مِنْ عَامِ ثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ » . ٱنْتَهَى .

***

كتاب لسان الدين ابن الخطيب فى تولية على بن بدر الدين

وَمِنْهَا مَا كَتَبَ بِهِ لِسَانُ ٱلدِّينِ ٱبْنُ ٱلْخَطِيبِ - رَحِمَهُ ٱللّٰهُ - فِي تَوْلِيَةِ عَلِيِّ بْنِ بَدْرِ ٱلدِّينِ[4] مَشْيَخَةَ ٱلْغُزَاةِ مَا نَصُّهُ : «هٰذَا شَيْخُ ٱلْغُزَاةِ ٱلَّذِي فُتِحَ بِهِ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ أَبْوَابُ ٱلسَّرَّاءِ ،

(١) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل فى الحرب (٢) منتضى : مستل من غمده (٣) جالدوا بالسيوف وتجالدوا : تضاربوا وتقاتلوا

(٤) هو أبو الحسن على بن بدر الدين بن موسى بن حمو بن عبد الله

وَرَاقَ طِرَازًا مُذَهَّبًا عَلَى عَاتِقِ الدَّوْلَةِ الْغَرَّاءِ ، وَأَعْمَلَ عَوَامِلَ الْجِهَادِ فِي طَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ ، شَارِعَةً لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ مِنْ بَابِ الْإِعْمَالِ وَالْإِغْرَاءِ ، أَمَرَ بِهِ فُلَانٌ صَدْرُ صُدُورِ أَوِدَّائِهِ ، وَحُسَامُهُ الْمَشْهُورُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَوَلِيُّهُ الَّذِي خَبَرَ صِدْقَ وَفَائِهِ ، وَجَلَّى فِي مِضْمَارِ الْخُلُوصِ لَهُ مُغَبِّرًا فِي وُجُوهِ أَكْفَائِهِ[1] شَيْخُ شُيُوخِ الْمُجَاهِدِينَ ، وَقَائِدُ كَتَائِبِهِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى غَزْوِ الْكَافِرِينَ وَالْمُعْتَدِينَ ، وَعِتْرَتِهِ الَّتِي

ابن عبد الحق قلد مشيخة الغزاة بعد سنة ٧٦٤ « بعد شيخ الغزاة أبي زكريا يحيي بن عمر بن عبد الله بن عبد الحق » واستمر حتى قفل من غزوة جيان في أوائل سنة ٧٦٩ فتوفى رحمه الله حتف أنفه وتولى مشيخة الغزاة بعده الأمير عبد الرحمن بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وذلك في مدة السلطان الغني بالله محمد بن يوسف ابن اسمعيل بن فرج بن اسمعيل بن فرج بن يوسف بن نصر الذي تولى الملك سنة ٧٥٥ «وكان مولده سنة ٧٣٩ هـ توافق سنة ١٣٧٧م» وخلع سنة ٧٦٠ وكانت فتن وثورات قبض فيها على ابن الخطيب وأودع السجن ، ثم شفع هو والغني بالله السلطان أبو سالم المريني فقدما اليه أول سنة ٧٦١ ، ثم عاد الغني بالله الى ملكه بالأندلس بسعي السلطان المريني فاستدعى اليه ابن الخطيب فأجاب الدعوة حياء لا رغبة، ومكرها لا بطلا ، وتوفى الغني بالله سنة ٧٩٣ « أحمد يوسف نجاتي » (١) غبر في وجهه أي ألقى عليه غبارا كناية عن سبقه اياه، ومنه يقال: فلان لا يشق غباره

يُدَافِعُ بِهَا عَنِ الدِّينِ ، وَسَابِقَ وُدِّهِ الْمُبَرِّزِ فِي الْمَيَادِينِ ، الشَّيْخُ الأجَلُّ ، إِلَى آخِرِ مَا وَصَفَهُ بِهِ مِمَّا ضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ مِثْلِهِ . وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ

***

﴿ الْبَابُ الرَّابِعُ ﴾

وصف قرطبة

فِي ذِكْرِ قُرْطُبَةَ الَّتِي كَانَتِ الْخِلَافَةُ بِمِصْرِهَا لِلْأَعْدَاءِ قَاهِرَةً ، وَجَامِعِهَا الْأُمَوِيِّ ذِي الْبَدَائِعِ الْبَاهِيَةِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْإِلْمَاعِ بِحَضْرَةِ الْمُلْكِ النَّاصِرِيَّةِ النَّاصِرَةِ ، وَالْعَامِرِيَّةِ الزَّاهِرَةِ ، وَوَصْفِ جُمْلَةٍ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ تِلْكَ الْأَقْطَارِ وَمَصَانِعِهَا ذَاتِ الْمَحَاسِنِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، وَمَا يَجُرُّ إِلَيْهِ شُجُونُ[1] الْحَدِيثِ ، مِنْ أُمُورٍ تَقْضِي بِحُسْنِ أَدَائِهَا الْقَرَائِحُ الْوَقَّادَةُ وَالْأَفْكَارُ الْمَاهِرَةُ .

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : مَمْلَكَةُ قُرْطُبَةَ فِي

---

(١) شجون الحديث : فنونه المتشعبة التي يتفرع بعضها عن بعض

ٱلْإِقْلِيمِ ٱلرَّابِعِ ، وَإِيَالَتُهُ لِلشَّمْسِ ، وَفِي هٰذِهِ ٱلْمَمْلَكَةِ مُدُنُ ٱلْفِضَّةِ ٱلْخَالِصَةِ فِي قَرْيَةِ « كَرَتْش(١) » وَمَعْدِنُ ٱلزِّئْبَقِ وَٱلزُّنْجُفْرِ(٢) فِي بَلَدِ « بَسْطَائِسَةَ(٣) » وَلِأَجْزَائِهَا خَوَاصُّ مَذْكُورَةٌ فِي مُتَفَرِّقَاتِهَا ؛ وَأَرْضُهَا أَرْضٌ كَرِيمَةُ ٱلنَّبَاتِ . انْتَهَى .

---

(١) قد تكون كذلك وقد تكون محرفة عن أركش الى الجنوب الغربى من قرطبة (٢) صبغ أحمر يكتب به و يصبغ وكان المصورون يستعملونه فى تلاوين الصور التى يتأنقون فيها، وهو صنفان: معدنى طبيعى ومصنوع، أما المعدنى فهو استحالة شىء من الكبريت الى معدن الزئبق ، وأما المصنوع فأنواع، و يصنع من الكبريت والزئبق ، وكانوا أيضا ربما استعملوه فى أدوية العين وقطع الدم وفى علاج البثور وحرق النار ويدملون به الجراحات ويسكنون به تأكل الأسنان ، والى عمل الزنجفر ينسب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد البغدادى الزنجفرى كان شاعرا جيد الشعر توفى سنة ٣٤٣ هـ (٣) كذا بالأصل وقد تكون هى « بسطة » مدينة بالأندلس من أعمال جيان ينسب اليها المصليات البسطية، منها أبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن معلى الحضرمى البسطى الوراق سكن قرطبة وأصله من بسطة ولد بها سنة ٣١٧ وتوفى بقرطبة سنة ٣٩٦ ومنها أبو عبد الله محمد بن خلف بن ابراهيم بن أيوب بن ابراهيم بن عبادة بن بالغ الهاشمى من أهل بسطة وصاحب الصلاة والخطبة بها ، كان فقيها محدثا فاضلا صالحا توفى ببلدة بسطة سنة ٦١١ ولعلها « مسطاسة » وهى حصن من أعمال أوريط من أعمال فحص البلوط و بمعدن الزئبق وهو الى الشمال الشرقى من قرطبة على نهر متفرع من نهر بطليوس « أحمد يوسف نجاتى » .

وَقَدَّمَ — رَحِمَهُ ٱللهُ — فِي ٱلْمُغْرِبِ ٱلْكَلَامَ عَلَيْهَا عَلَى سَائِرِ أَقْطَارِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَقَالَ : إِنَّمَا قَدَّمْنَا هٰذِهِ ٱلْمَمْلَكَةَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْمَمَالِكِ ٱلْأَنْدَلُسِيَّةِ لِكَوْنِ سَلَاطِينِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْأُوَلِ ٱتَّخَذُوهَا سَرِيرًا لِسَلْطَنَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَلَمْ يَعْدِلُوا عَنْ حَضْرَتِهَا قُرْطُبَةَ ، ثُمَّ سَلَاطِينِ بَنِي أُمَيَّةَ وَخُلَفَائِهِمْ ، وَلَمْ يَعْدِلُوا عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَمْلَكَةِ ، وَتَقَلَّبُوا مِنْهَا فِي ثَلَاثَةِ أَقْطَارٍ أَدَارُوا فِيهَا خِلَافَتَهُمْ : قُرْطُبَةَ وَٱلزَّهْرَاءِ[1] وَٱلزَّاهِرَةِ ، وَإِنَّمَا ٱتَّخَذُوهَا لِهٰذَا ٱلشَّأْنِ لَمَّا رَأَوْهَا لِذَلِكَ أَهْلًا . وَقُرْطُبَةُ أَعْظَمُ عِلْمًا وَأَكْثَرُ فَضْلًا بِالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ ٱلْمَمَالِكِ ، لِاتِّصَالِ ٱلْحَضَارَةِ ٱلْعَظِيمَةِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْمُتَوَارَثَةِ فِيهَا . ثُمَّ قَسَّمَ ٱبْنُ سَعِيدٍ كِتَابَ « ٱلْحُلَّةِ ٱلْمُذَهَّبَةِ ، فِي حُلَى مَمَالِكِ قُرْطُبَةَ » بِالنَّظَرِ إِلَى ٱلْكُوَرِ إِلَى أَحَدَ عَشَرَ كِتَابًا : ٱلْكِتَابُ ٱلْأَوَّلُ « كِتَابُ ٱلْحُلَى ٱلذَّهَبِيَّةِ فِي حُلَى ٱلْكُورَةِ ٱلْقُرْطُبِيَّةِ » ٱلْكِتَابُ ٱلثَّانِي « كِتَابُ ٱلدُّرَرِ

---

(١) هي المدينة الزهراء التي بناها الناصر الأموي في غربي قرطبة في سفح جبل

ٱلْمَصُونَةِ، فِي حُلَى كُورَةِ بَلْكُونَةَ» «ٱلْكِتَابُ ٱلثَّالِثُ»
«كِتَابُ مُحَادَثَةِ ٱلسِّيَرِ، فِي حُلَى كُورَةِ ٱلْقُصَيْرِ[1]» «ٱلْكِتَابُ
ٱلرَّابِعُ» «كِتَابُ ٱلْوَشْيِ ٱلْمُصَوَّرِ، فِي حُلَى كُورَةِ ٱلْمُدَوَّرِ»
«ٱلْكِتَابُ ٱلْخَامِسُ» «كِتَابُ نَيْلِ ٱلْمُرَادِ، فِي حُلَى كُورَةِ
مُرَادِ[2]» «ٱلْكِتَابُ ٱلسَّادِسُ» كِتَابُ ٱلْمُزْنَةِ، فِي حُلَى كُورَةِ
كُزْنَةَ[3]» «ٱلْكِتَابُ ٱلسَّابِعُ» «كِتَابُ ٱلدُّرِّ ٱلنَّافِقِ، فِي حُلَى
كُورَةِ غَافِقَ، «ٱلْكِتَابُ ٱلثَّامِنُ» كِتَابُ ٱلنَّفْحَةِ ٱلْأَرِجَةِ
فِي حُلَى كُورَةِ إِسْتِجَةَ»، «ٱلْكِتَابُ ٱلتَّاسِعُ» «كِتَابُ
ٱلْكَوَاكِبِ ٱلدُّرِّيَّةِ، فِي حُلَى ٱلْكُورَةِ ٱلْقَبْرِيَّةِ» «ٱلْكِتَابُ

---

(١) القصير حصن فى شرقى قرطبة على النهر وله كورة من أشهر كورها
(٢) مراد حصن قريب من قرطبة الى الغرب منها (٣) قال ياقوت : موضع فى فحص البلوط ينسب اليه القاضى المنذر بن سعيد البلوطى : والقاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الكزنى القرطبي توفى سنة ٥٨٩ اهـ «قلت» ومنها أبو مروان عبيد الله محمد بن قاسم الكزنى حدث عنه أبو عمر بن عبد البر وقال: كان من ثقات الناس وعقلائهم رحمه الله ومنها أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن سعدان الكزنى رحل وحج ولقى القاضى عبد الوهاب المالكى ثم عاد وتوفى بغافق سنة ٤٤٥
«أحمد يوسف نجاتى».

اَلْعَاشِرُ» «كِتَابُ رِقَّةِ اَلْمَحَبَّةِ، فِي حُلَى كُورَةِ أَسْتَبَةَ[١]»، «اَلْكِتَابُ اَلْحَادِي عَشَرَ» «كِتَابُ اَلسَّوْسَانَةِ، فِي حُلَى كُورَةِ اَلْبَسَّانَةِ[٢]». انْتَهَى.

***

قرطبة وأعمالها

قَالَ ـ رَحِمَهُ اَللهُ تَعَالَى ـ : إِنَّ اَلْعِمَارَةَ اتَّصَلَتْ فِي مَبَانِي قُرْطُبَةَ وَاَلزَّهْرَاءِ وَاَلزَّاهِرَةِ بِحَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يُمْشَى فِيهَا لِضَوْءِ اَلسُّرُجِ اَلْمُمْتَدَّةِ عَشَرَةَ أَمْيَالٍ حَسْبَمَا ذَكَرَهُ اَلشَّقَنْدِيُّ فِي رِسَالَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَلِكُلِّ مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ قُرْطُبَةَ وَأَعْمَالِهَا ذِكْرٌ مُخْتَصٌّ بِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ اَلْمَسَافَاتِ اَلَّتِي بَيْنَ مَمَالِكِ قُرْطُبَةَ اَلْمَذْكُورَةِ فَقَالَ: بَيْنَ اَلْمُدَوَّرِ وَقُرْطُبَةَ سِتَّةَ عَشَرَ مِيلًا، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَمُرَادٍ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ مِيلًا، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَاَلْقُصَيْرِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَغَافِقٍ مَرْحَلَتَانِ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَأَسْتَبَةَ سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ مِيلًا، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَمَلْكُونَةَ مَرْحَلَتَانِ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَاَلْبَسَّانَةِ[٢] أَرْبَعُونَ مِيلًا، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَقَبْرَةَ ثَلَاثُونَ مِيلًا، وَبَيْنَ

(١) سبق القول فى مدينة «أسطبة»، وكذلك «قبرة» وهى الى الجنوب من قرطبة، وكانت مدينة بيانة قصبة كورة قبرة بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا. (٢) فى بعض المراجع (اليسانة)

قُرْطُبَةَ وَبيَّانَةَ مَرْحَلَتَانِ ، وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ وَإِسْتِجَةَ ثَلاثُونَ مِيلًا . وَ كُورَةُ رُنْدَةَ(١) كَانَتْ فِي ٱلْقَدِيمِ مِنْ عَمَلِ قُرْطُبَةَ ثُمَّ صَارَتْ مِنْ مَمْلَكَةِ إِشْبِيلِيَةَ ، وَهِيَ أَقْرَبُ وَأَدْخَلُ فِي ٱلْمَمْلَكَةِ ٱلْإِشْبِيلِيَّةِ . انْتَهَى .

« ثُمَّ قَسَّمَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ « كِتَابَ ٱلْحُلَّةِ ٱلذَّهَبِيَّةِ ، فِي حُلَى ٱلْكُورَةِ ٱلْقُرْطُبِيَّةِ » إِلَى خَمْسَةِ كُتُبٍ : ٱلْكِتَابُ ٱلْأَوَّلُ « كِتَابُ ٱلنَّغَمِ ٱلْمُطْرِبَةِ ، فِي حُلِي حَضْرَةِ قُرْطُبَةَ » ٱلْكِتَابُ ٱلثَّانِي « كِتَابُ ٱلصَّبِيحَةِ ٱلْغَرَّاءِ ، فِي حُلَى حَضْرَةِ ٱلزَّهْرَاءِ » ٱلْكِتَابُ ٱلثَّالِثُ « كِتَابُ ٱلْبَدَائِعِ ٱلْبَاهِرَةِ ، فِي حُلَى حَضْرَةِ ٱلزَّاهِرَةِ » ٱلْكِتَابُ ٱلرَّابِعُ كِتَابُ ٱلْوَرْدَةِ فِي حُلَى مَدِينَةِ شَقَنْدَةَ » ٱلْكِتَابُ ٱلْخَامِسُ « كِتَابُ ٱلْجُرْعَةِ ٱلسَّيِّغَةِ ، فِي حُلَى كُورَةِ وَزَغَةِ » وَقَالَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ فِي

---

(١) معقل حصين ومدينة قديمة بين اشبيلية ومالقة على نهر جار كان بها زرع واسع وضرع سابغ ، وكان بها معقل تعمم بالسحاب ، وتوشح بالأنهار العذاب ، وكانت بلدة جليلة كثيرة الفواكه والمياه والحرث والماشية ويتصف أهلها بالجمال ورقة البشرة واللطافة .

كِتَابَ ٱلنِّعَمِ ٱلْمُطْرِبَةِ، فِي حُلَى حَضْرَةِ قُرْطُبَةَ : إِنَّ حَضْرَةَ قُرْطُبَةَ إِحْدَى عَرَائِسِ مَمْلَكَتِهَا ، وَفِي إِصْطِلَاحِ ٱلْكُتَّابِ إِنَّ لِلْعَرُوسِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلزِّينَةِ مِنَصَّةً[١] وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِذِكْرِ ٱلْمَدِينَةِ فِي نَفْسِهَا ، وَتَاجًا[٢] وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِالإِيَالَةِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ، وَسِلْكًا[٣] وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِأَصْحَابِ دُرَرِ ٱلْكَلَامِ ، مِنَ ٱلنُّثَّارِ وَٱلنُّظَّامِ ، وَحُلَّةً[٤] وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِأَعْلَامِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمُصَنِّفِينَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ نَظْمٌ وَلَا نَثْرٌ، وَلَا يَجِبُ[٥] إِهْمَالُ تَرَاجِمِهِمْ ، وأَهْدَابًا[٦] وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِأَصْحَابِ فُنُونِ ٱلْهَزْلِ وَمَا يَنْحُو مَنْحَاهُ . انْتَهَى

ثُمَّ فَصَّلَ ـ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ ـ ذٰلِكَ كُلَّهُ بِمَا تَعَدَّدَتْ مِنْهُ ٱلْأَجْزَاءِ ، وَقَدْ لَخَّصْتُ مِنْهُ هُنَا بَعْضَ مَا ذَكَرَ، ثُمَّ أَرْدَفْتُهُ[٧]

---

(١) المنصة بالكسر : الكرسى الذى ترفع عليه العروس فى جلائها. والمنصة بالفتح : الحجلة تعد للعروس (٢) التاج : الذى تلبسه العروس على رأسها وقت زفافها (٣) السلك : الخيط الذى ينظم فيه الخرز ونحوه من حبات العقد (٤) الحلة : الثوب الجديد الجيد ولا تكون حلة الا من ثوبين أو ثلاثة ، وقد تكون « حلة » محرفة عن حلية (٥) قد تكون (يحسن) (٦) هدب الثوب: خمله وطرفه مما يلى طرته، وقد يفتل ويحفظ به طرف الثوب (٧) أردفته : أعقبته وأتبعته :

بِكَلَامٍ غَيْرِهِ ، فَأَقُولُ : قَالَ فِي كِتَابِ «إِجَارَ» (١) : إِنَّ قُرْطُبَةَ بِالظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ ، وَمَعْنَاهُ أَجِرْ سَاكِنَهَا ، يَعْنِي عُرِّبَتْ بِالطَّاءِ ثُمَّ قَالَ : وَدَوْرُ مَدِينَةِ قُرْطُبَةَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ . انْتَهَى . وَقَالَ غَيْرُهُ : إِنَّ تَكْسِيرَهَا وَمِسَاحَتَهَا الَّتِي دَارَ السُّورُ عَلَيْهَا دُونَ الْأَرْبَاضِ طُولًا مِنَ الْقِبْلَةِ (٢) إِلَى الْجَوْفِ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَاتَّصَلَتِ الْعِمَارَةُ بِهَا أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ثَمَانِيَةَ فَرَاسِخَ طُولًا وَفَرْسَخَيْنِ عَرْضًا ، وَذَلِكَ مِنَ الْأَمْيَالِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ فِي الطُّولِ ، وَفِي الْعَرْضِ سِتَّةٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ دِيَارٌ وَقُصُورٌ وَمَسَاجِدُ وَبَسَاتِينُ بِطُولِ ضَفَّةِ الْوَادِي الْكَبِيرِ ، وَلَيْسَ فِي الْأَنْدَلُسِ وَادٍ يُسَمَّى بِاسْمٍ عَرَبِيٍّ غَيْرُهُ . وَلَمْ تَزَلْ قُرْطُبَةُ فِي الزِّيَادَةِ مُنْذُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ فَانْحَطَّتْ ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْخَرَابُ بِكَثْرَةِ الْفِتَنِ ، إِلَى أَنْ كَانَتِ الطَّامَّةُ (٣) الْكُبْرَى عَلَيْهَا بِأَخْذِ الْعَدُوِّ الْكَافِرِ لَهَا

(١) أظن أنه يريد «روجار» ملك صقلية الذى ألف له الشريف الادريسى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (٢) فى الأصل (القبة) وهو تحريف ظاهر (٣) الطامة : الداهية تفوق ما سواها تطم على ما عداها.

فِي ثَانِي وَعِشْرِي شَوَّالٍ سَنَةَ سِتِّمِائَةٍ وَثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ

ثُمَّ قَالَ هَذَا الْقَائِلُ : وَدَوْرُ قُرْطُبَةَ الْمُصَوَّرُ[١] مِنْهَا دُونَ الْأَرْبَاض ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ ، وَدَوْرُ قَصْرِ إِمَارَتِهَا أَلْفُ ذِرَاعٍ وَمِائَةُ ذِرَاعٍ . انْتَهَى . وَعَدَدُ أَرْبَاضِهَا أَحَدٌ وَعِشْرُونَ ، فِي كُلِّ رَبَضٍ مِنْهَا مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْحَمَّامَاتِ مَا يَقُومُ بِأَهْلِهِ وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى غَيْرِهِ .

وَبِخَارِجِ قُرْطُبَةَ ثَلَاثَةُ آلَافِ قَرْيَةٍ ، فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْبَرٌ وَفَقِيهٌ مُقَلِّصٌ[٢] تَكُونُ الْفُتْيَا فِي الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ لَهُ ، وَكَانَ لَا يَجْعَلُ الْقَالِصَ مِنْهُمْ عَلَى رَأْسِهِ إِلَّا مَنْ حَفِظَ الْمُوَطَّأَ ، وَقِيلَ : مَنْ حَفِظَ عَشَرَةَ آلَافِ حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَحَفِظَ الْمُدَوَّنَةَ ، وَكَانَ

---

(١) كذا بالأصل وأظنه محرفا عن « المسور » أى المحوط بالسور ، وكان على قرطبة سور ضخم من الحجر ذو سبعة أبواب (٢) أصلها بالسين وهى من القلنسوة ، والمقلس هو الذى يلبس القالس أو القلنسوة ، وقد تكتب بالصاد « قاله دوزى فى ملحقه على المعجمات العربية » والتقليس لبس القلنسوة ، والقلاس صانعها — يعنى انهم كان لعلمائهم زى خاص كالعمائم فوق الرءوس لا يتوج رأسه بها الا من كان ذا حظ عظيم من الفقه والحديث ومعرفة الكتاب والسنة . «أحمد يوسف نجاتى»

هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة، ويسلمون عليه، ويطالعونه بأحوال بلدهم . انتهى . قال : وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار بالإنصاف، وقد ذكرنا في موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا . فالله أعلم .

وما أحسن قول بعضهم :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها
ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة
وما مشى فوقها مثل ابن حمدين[1]

***

وصف قرطبة

« قال بعضهم »: قرطبة قاعدة الأندلس، ودار الملك التي تجبى لها ثمرات كل جهة، وخيرات كل ناحية، واسطة بين الكور، موفية[2] على النهر، زاهرة مشرقة، أحدقت بها المنى، فحسن مرآها، وطاب جناها .

---

(١) تقدمت منا كلمة في التعريف ببني حمدين فارجع اليها ان شئت
(٢) أي مشرفة مطلة

وَفِى كِتَابِ فَرْحَةِ(١) ٱلْأَنْفُسِ لِابْنِ غَالِبٍ : أَمَّا قُرْطُبَةُ : فَإِنَّهَا لَفْظٌ يَنْحُو إِلَى لَفْظِ ٱلْيُونَانِيِّينَ ، وَتَأْوِيلُهُ ٱلْقُلُوبُ ٱلْمُشَكَّكَةُ(٢) وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلْبَكْرِىُّ : إِنَّهَا فِى لَفْظِ ٱلْقُوطِ بِالظَّاءِ ٱلْمُعْجَمَةِ . وَقَالَ ٱلْحِجَارِىُّ : ٱلضَّبْطُ فِيهَا بِإِهْمَالِ ٱلطَّاءِ وَضَمِّهَا ، وَقَدْ يَكْسِرُهَا ٱلْمَشْرِقِيُّونَ فِى ٱلضَّبْطِ كَمَا يُعْجِمُهَا آخَرُونَ . ٱنْتَهَى

« وَقَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ » : أَمَّا قُرْطُبَةُ فَهِىَ قَاعِدَةُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَقُطْبُهَا ، وَقُطْرُهَا ٱلْأَعْظَمُ ، وَأُمُّ مَدَائِنِهَا وَمَسَاكِنِهَا ، وَمُسْتَقَرُّ ٱلْخُلَفَاءِ ، وَدَارُ ٱلْمَمْلَكَةِ فِى ٱلنَّصْرَانِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ ، وَمَدِينَةُ ٱلْعِلْمِ ، وَمُسْتَقَرُّ ٱلسُّنَّةِ وَٱلْجَمَاعَةِ ، نَزَلَهَا جُمْلَةٌ مِنَ ٱلتَّابِعِينَ

(١) أظنها (فرجة) (٢)لعل هذا أقرب من غيره لمساعدة اللفظ اللاتينى فهو حينئذ منقول من Dobia — Cœur ، Cœur ومعناه القلب ، و Dobia ومعناه الشك والريب » كما أنى تذكرت الآن بهذه المناسبة أن اسم « أسبانيا » الأقرب فيه أن يكون مأخوذا من اللفظ الفينيقى « أىسفون » I — spania (أى جزيرة الشمال) فهو أولى من الأسباب الأخرى المتقدمة . وفى ذلك آراء « أحمد يوسف نجاتى »

وَتَابِعِى ٱلتَّابِعِينَ . وَيُقَالُ : نَزَلَهَا بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ ، وَفِيهِ كَلَامٌ . وَهِىَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ مِنْ بُنْيَانِ ٱلْأَوَائِلِ طَيِّبَةُ ٱلْمَاءِ وَٱلْهَوَاءِ، أَحْدَقَتْ بِهَا ٱلْبَسَاتِينُ وَٱلزَّيْتُونُ، وَٱلْقُرَى وَٱلْحُصُونُ ، وَٱلْمِيَاهُ وَٱلْعُيُونُ ، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَبِهَا ٱلْمَحْرَثُ (١) ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِى لَيْسَ لَهُ فِى بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ نَظِيرٌ

(١) يريد بالمحرث أراضيها الزراعية الخصبة ذات الحدائق والبهجة . ولايبعد ـ وان كان الظاهر ماتقدم ـ أن تكون محرفة عن « محراب » ففى مسجد قرطبة الجامع الذى كان من أعظم مساجد الاسلام محراب لايزال محفوظا ، وهو موضع دهشة وعجب الى اليوم، وارتفاع قبته نحو تسعة أمتار، حفر فى قطعة واحدة من المرمر الرائق، وصنع بالفسيفساء ونقشت عليه آيات من القرآن الكريم ، ولعل الأيام تنقذ هذا الأثر الجليل من يد الثورة الأسبانية التى قضت على كثير من الآثار العربية العظيمة بالأندلس ـ وقد كان هذا المسجد الجامع من أفخم الأبنية، ولا يزال الأثر الباقى منه باعثا على اجلال من شيدوه ورفعوا قواعده وأقاموا عمده ، ومن زاره اليوم ـ ان أفلت من طيش الثورة ـ لايملك نفسه من التأثر العظيم الذى يستدعى الاعجاب والحسرة معا، اذ يقف أمام تلك الآثار الماثلة منشدا نفسه :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد مايبين كلامها ؟

ثم يعود مناجيا نفسه وعبرته :

فاسألنها واجعل بكاك جوابا تجد الدمع سائلا ومجيبا

« أحمد يوسف نجاتى »

وَلا أَعْظَمُ مِنْهُ بَرَكَةً . وَقَالَ الرَّازِيُّ : قُرْطُبَةُ أُمُّ الْمَدَائِنِ، وَسُرَّةُ الْأَنْدَلُسِ ، وَقَرَارَةُ الْمُلْكِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَنَهْرُهَا أَعْظَمُ أَنْهَارِ الْأَنْدَلُسِ ، وَبِهَا الْقَنْطَرَةُ الَّتِي هِيَ إِحْدَى غَرَائِبِ الْأَرْضِ فِي الصَّنْعَةِ وَالْإِحْكَامِ ، وَالْجَامِعُ الَّذِي لَيْسَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْإِسْلَامِ أَكْبَرُ مِنْهُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ أَعْظَمُ مَدِينَةٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَلَيْسَ بِجَمِيعِ الْمَغْرِبِ لَهَا عِنْدِي شَبِيهٌ فِي كَثْرَةِ أَهْلٍ ، وَسَعَةِ مَحَلٍّ ، وَفُسْحَةِ أَسْوَاقٍ ، وَنَظَافَةِ مَحَالَّ ، وَعِمَارَةِ مَسَاجِدَ ، وَكَثْرَةِ حَمَّامَاتٍ وَفَنَادِقَ . وَيَزْعُمُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِهَا أَنَّهَا كَأَحَدِ جَانِبَيْ بَغْدَادَ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ كَأَحَدِ جَانِبَيْ بَغْدَادَ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَاحِقَةٌ بِهِ . وَهِيَ مَدِينَةٌ حَصِينَةٌ ذَاتُ سُورٍ مِنْ حِجَارَةٍ وَمَحَالَّ حَسَنَةٍ . وَفِيهَا كَانَ سَلَاطِينُهُمْ قَدِيمًا ، وَدُورُهُمْ دَاخِلَ سُورِهَا الْمُحِيطِ بِهَا ، وَأَكْثَرُ أَبْوَابِ الْقَصْرِ السُّلْطَانِيِّ مِنَ الْبَلَدِ وَجَنُوبِ قُرْطُبَةَ عَلَى نَهْرِهَا . قَالَ : وَقُرْطُبَةُ هَذِهِ بَائِنَةٌ[١]

---

(١) بائنة : بعيدة، أوظاهرة متميزة

عَنْ مَسَاكِنِ أَرْبَاضِهَا ظَاهِرَةٌ (١)، وَدُرْتُ بِهَا فِي غَيْرِ يَوْمٍ فِي قَدْرِ سَاعَةٍ ـ وَقَدْ قَطَعَتِ الشَّمْسُ خَمْسَ عَشْرَةَ دَرَجَةً ـ مَاشِياً . وَقَالَ : وَكَانَتْ قُرْطُبَةُ فِي الدَّوْلَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ قُبَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَمُجْتَمَعَ عُلَمَاءِ الْأَنَامِ الْأَعْلَامِ (٢)، بِهَا اسْتَقَرَّ سَرِيرُ الْخِلَافَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ ، وفِيهَا تَمَحَّضَتْ خُلَاصَةُ الْقَبَائِلِ الْمَعَدِّيَّةِ وَالْيَمَانِيَّةِ، وَإِلَيْهَا كَانَتِ الرِّحْلَةُ فِي رِوَايَةِ الشِّعْرِ (٣) وَالشُّعَرَاءِ ، إِذْ كَانَتْ مَرْكَزَ الْكُرَمَاءِ ، وَمَعْدِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَمْ تَزَلْ تُمْلَأُ الصُّدُورُ مِنْهَا وَالْحَقَائِبُ (٤) ، وَيُبَارِي فِيهَا أَصْحَابُ الْكُتُبِ أَصْحَابَ الْكَتَائِبِ (٥) ، وَلَمْ تَبْرَحْ سَاحَاتُهَا مَجَرَّ عَوَالِي، وَمَجْرَى سَوَابِقَ (٦)، وَمَحَطَّ مَعَالِي، وَحِمَى

(١) ظاهرة : خارجة (٢) الأعلام : الظاهرين ذوى الشهرة والهداية

(٣) ألا يكون الأصل : فى رواية الشريعة الغراء ، وشعر الشعراء ؟

(٤) ملء الصدور كناية عن تحصيل العلم فهو راجع الى العلماء ، وملء الحقائب كناية عن الحصول على الهبات والمال وهو راجع الى الكرماء، قال :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(٥) يريد أنها جمعت بين أرباب الأقلام والعلماء وأرباب السيوف والقواد، ولكل منهما مقامه ومنزلته (٦) العوالى : الرماح، والسوابق: الجياد ، وهو من قول أبى الطيب :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

حَقَائِق(١) ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَالزَّوْرِ(٢) مِنَ الْأَسَدِ ، وَلَهَا الدَّاخِلُ الْفَسِيحُ ، وَالْخَارِجُ الَّذِي يُمَتِّعُ الْبَصَرُ بِامْتِدَادِهِ فَلَا يَزَالُ مُسْتَرِيحًا وَهُوَ مِنْ تَرَدُّدِ النَّظَرِ طَلِيحٌ(٣) . وَقَالَ الْحِجَارِيُّ « حَضْرَةُ قُرْطُبَةَ » مُنْذُ افْتُتِحَتِ الْجَزِيرَةُ هِيَ كَانَتِ الْغَايَةَ ، وَمَرْكَزَ الرَّايَةِ ، وَأُمَّ الْقُرَى ، وَقَرَارَةَ أُولِي الْفَضْلِ وَالتُّقَى ، وَوَطَنَ أُولِي الْعِلْمِ وَالنُّهَى ، وَقَلْبَ الْإِقْلِيمِ ، وَيَنْبُوعَ مُتَفَجَّرِ الْعُلُومِ ، وَقُبَّةَ الْإِسْلَامِ ، وَحَضْرَةَ الْإِمَامِ . وَدَارَ صَوْبِ(٤) الْعُقُولِ ،

---

(١) المعالى : جمع معلاة : وهى كسب الشرف ونيل المجد ، والحقائق هنا جمع حقيقة : وهى مايحق على المرء أن يحميه ويجب عليه أن يذود عنه ومايلزمه حفظه ومنعه والدفاع دونه ، والحقيقة أيضا الرايةوالعلم ، ويصح ارادته هنا ، ويقال فلان حامى الحقيقة ، قال عامر بن الطفيل بن مالك ابن جعفر بن كلاب :

لقد علمت عليا هوازن أننى ... أنا الفارس الحامى حقيقة جعفر

(٢) الزور : الصدر أو وسطه أو أعلاه ، وهو ماارتفع منه الى الكتفين

(٣) أى متعب ، وطلح البعير « كمنع » طلحا وطلاحة اذا أعيا وكل وبلغ منه الجهد (٤) الصوب : الانصباب كالانصياب ، يقال صاب المطر وانصاب اذا كان كثير الانسكاب ، والعبارة هنامن قول أبى تمام :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت ... حياضك منه فى العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول اذا انجلت ... سحائب منه أعقبت بسحائب

وَبُسْتَانَ ثَمَرِ الْخَوَاطِرِ ، وَبَحْرَ دُرَرِ الْقَرَائِحِ ، وَمِنْ أُفقِهَا طَلَعَتْ نُجُومُ الْأَرْضِ(١) وَأَعْلَامُ الْعَصْرِ ، وَفُرْسَانُ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ، وَبِهَا أُنْشِئَتِ التَّأْلِيفَاتُ الرَّائِقَةُ ، وَصُنِّفَتِ التَّصْنِيفَاتُ الْفَائِقَةُ . وَالسَّبَبُ فِي تَبْرِيزِ الْقَوْمِ حَدِيثاً وَقَدِيماً عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ : أَنَّ أُفُقَهُمُ الْقُرْطُبِيَّ لَمْ يَشْتَمِلْ قَطُّ إِلَّا عَلَى الْبَحْثِ وَالطَّلَبِ ، لِأَنْوَاعِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ . انْتَهَى . « وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ » أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّ السُّلْطَانَ الْأَعْظَمَ أَبَا يَعْقُوبَ ابْنَ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ قَالَ لِوَالِدِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ : مَا عِنْدَكَ فِي قُرْطُبَةَ ؟ قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : مَا كَانَ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ حَتَّى أَسْمَعَ مَذْهَبَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا ، فَقَالَ السُّلْطَانُ : إِنَّ مُلُوكَ بَنِي أُمَيَّةَ حِينَ اتَّخَذُوهَا حَضْرَةَ مُلْكِهِمْ لَعَلَى بَصِيرَةٍ : الدِّيَارُ الْكَثِيرَةُ الْمُنْفَسِحَةُ ، وَالشَّوَارِعُ الْمُتَّسِعَةُ وَالْمَبَانِي الضَّخْمَةُ ، وَالنَّهْرُ الْجَارِي ، وَالْهَوَاءُ الْمُعْتَدِلُ ، وَالْخَارِجُ النَّضْرُ ، وَالْمَحْرَثُ الْعَظِيمُ ، وَالشَّعْرَاءُ(٢) الْكَافِيَةُ ،

---

(١) يريد بنجوم الأرض النابغين فى العلوم والمعارف والمبرزين فى الفنون والآداب .(٢) الشعراء من الأرض : ذات الشجر أو كثيرته .

وَٱلتَّوَسُّطُ بَيْنَ شَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَغَرْبِهَا[١] . قَالَ : فَقُلْتُ مَا
أَبْقَى لِي أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا أَقُولُ . ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : وَمِنْ
كَلَامِ وَالِدِي فِي شَأْنِهَا : هِيَ مِنْ أَحْسَنِ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ
مَبَانِيَ ، وَأَوْسَعِهَا مَسَالِكَ ، وَأَبْرَعِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَتَفْضُلُ
إِشْبِيلِيَةَ بِسَلَامَتِهَا فِي فَصْلِ ٱلشِّتَاءِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلطِّينِ ،
وَلِأَهْلِهَا رِيَاسَةٌ وَوَقَارٌ ، وَلَا تَزَالُ سَعَةُ[٢] ٱلْعِلْمِ مُتَوَارَثَةً فِيهِمْ ،
إِلَّا أَنَّ عَامَّتَهَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ فُضُولًا[٣] وَأَشَدُّهُمْ تَشْنِيعاً
وَتَشْغِيباً ، وَيُضْرَبُ بِهِمُ ٱلْمَثَلُ مَا بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي
ٱلْقِيَامِ عَلَى ٱلْمُلُوكِ وَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْوُلَاةِ وَقِلَّةِ ٱلرِّضَا
بِأُمُورِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ ٱلسَّيِّدَ أَبَا يَحْيَى بْنَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ
لَمَّا ٱنْفَصَلَ عَنْ وِلَايَتِهَا قِيلَ لَهُ : كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَ قُرْطُبَةَ ؟
قَالَ : مِثْلُ ٱلْجَمَلِ إِنْ خَفَّفْتَ عَنْهُ ٱلْحِمْلَ صَاحَ ، وَإِنْ أَثْقَلْتَهُ
بِهِ صَاحَ ، مَا نَدْرِي أَيْنَ رِضَاهُمْ فَنَقْصِدَهُ ، وَلَا أَيْنَ سَخَطُهُمْ

---

(١) سبق فى الجزء الأول هذه العبارة وشرحها (٢) أوسمة (٣) الفضول: التعرض لما لا يعنى والاشتغال بما لا خير فيه ولا عائدة نفع، وهم فى ذلك مثل كثير من عامة مصر، و«من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه» «أحمد يوسف نجاتى»

فَتَجْتَنِبهُ ! وَمَا سَلَّطَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ حَجَّاجَ ٱلْفِتْنَةِ[1] حَتَّى كَانَ عَامَّتُهَا شَرًّا مِنْ عَامَّةِ ٱلْعِرَاقِ ، وَإِنَّ ٱلْعَزْلَ عَنْهَا لِمَا قَاسَيْتُ مِنْ أَهْلِهَا عِنْدِي وِلَايَةٌ ، وَإِنِّي إِنْ كُلِّفْتُ ٱلْعَوْدَ إِلَيْهَا لَقَائِلٌ : « لَا يُلْدَغُ ٱلْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » .

***

محاسن أهل قرطبة

« قَالَ وَالِدِي » وَمِنْ مَحَاسِنِهَا ظَرْفُ ٱللِّبَاسِ ، وَٱلتَّظَاهُرُ بِالدِّينِ ، وَٱلْمُوَاظَبَةُ عَلَى ٱلصَّلَاةِ ، وَتَعْظِيمُ أَهْلِهَا لِجَامِعِهَا ٱلْأَعْظَمِ ، وَكَسْرُ أَوَانِي ٱلْخَمْرِ حَيْثُمَا وَقَعَ عَيْنُ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا عَلَيْهَا ، وَٱلتَّسَتُّرُ بِأَنْوَاعِ ٱلْمُنْكَرَاتِ ، وَٱلتَّفَاخُرُ بِأَصَالَةِ ٱلْبَيْتِ، وَبِٱلْجُنْدِيَّةِ، وَبِالْعِلْمِ ، وَهِيَ أَكْثَرُ بِلَادِ ٱلْأَنْدَلُسِ كُتُبًا ، وَأَشَدُّ ٱلنَّاسِ اعْتِنَاءً بِخَزَائِنِ ٱلْكُتُبِ ، صَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ آلَاتِ ٱلتَّعَيُّنِ[2] وَٱلرِّيَاسَةِ، حَتَّى إِنَّ ٱلرَّئِيسَ مِنْهُمُ ٱلَّذِي لَا تَكُونُ عِنْدَهُ مَعْرِفَةٌ يَحْتَفِلُ فِي أَنْ تَكُونَ

---

(١) يريد الفتنة التي استأصلت كثيرا منهم فكانت عليهم في الشدة والقسوة وكثرة الفتك مثل الحجاج بن يوسف الثقفي عامل العراق لعبد الملك بن مروان والوليد بعده (٢) يظهر أن التعين هنا من « عين » بمعنى سيد، والعين : كبير القوم وجمعه أعيان، وهم الأشراف الأماثل والسادة الأفاضل .

فِي بَيْتِهِ خِزَانَةُ كُتُبٍ، وَيَنْتَخِبُ فِيهَا، لَيْسَ إِلَّا لِأَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ عِنْدَهُ خِزَانَةُ كُتُبٍ، وَالْكِتَابُ الْفُلَانِيُّ لَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، وَالْكِتَابُ الَّذِي هُوَ بِخَطِّ فُلَانٍ قَدْ حَصَّلَهُ وَظَفِرَ بِهِ.

***

ولع أهل قرطبة باقتناء الكتب

«قَالَ الْحَضْرَمِيُّ» أَقَمْتُ مَرَّةً بِقُرْطُبَةَ وَلَازَمْتُ سُوقَ كُتُبِهَا مُدَّةً أَتَرَقَّبُ فِيهِ وُقُوعَ كِتَابٍ كَانَ لِي بِطَلَبِهِ اعْتِنَاءٌ إِلَى أَنْ وَقَعَ وَهُوَ بِخَطٍّ[1] فَصِيحٍ وَتَفْسِيرٍ مَلِيحٍ، فَفَرِحْتُ بِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ، فَجَعَلْتُ أَزِيدُ فِي ثَمَنِهِ، فَيَرْجِعُ إِلَيَّ الْمُنَادِي بِالزِّيَادَةِ عَلَيَّ إِلَى أَنْ بَلَغَ فَوْقَ حَدِّهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَاهٰذَا أَرِنِي مَنْ يَزِيدُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ حَتَّى بَلَّغَهُ إِلَى مَالَا يُسَاوِي، قَالَ فَأَرَانِي شَخْصًا عَلَيْهِ لِبَاسُ رِيَاسَةٍ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ أَعَزَّ اللهُ سَيِّدَنَا الْفَقِيهَ: إِنْ كَانَ لَكَ غَرَضٌ فِي هٰذَا الْكِتَابِ تَرَكْتُهُ لَكَ، فَقَدْ بَلَغَتْ بِهِ الزِّيَادَةُ بَيْنَنَا فَوْقَ حَدِّهِ، قَالَ فَقَالَ لِي: لَسْتُ بِفَقِيهٍ، وَلَا أَدْرِي مَا فِيهِ، وَلٰكِنِّي أَقَمْتُ خِزَانَةَ كُتُبٍ، وَاحْتَفَلْتُ فِيهَا لِأَتَجَمَّلَ بِهَا بَيْنَ أَعْيَانِ الْبَلَدِ

---

(١) أى واضح ظاهر بين

وَبَقِيَ فِيهَا مَوْضِعٌ يَسَعُ هٰذَا الْكِتَابَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ حَسَنَ الْخَطِّ جَيِّدَ التَّجْلِيدِ اسْتَحْسَنْتُهُ ، وَلَمْ أُبَالِ بِمَا أَزِيدُ فِيهِ ، —وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنَ الرِّزْقِ فَهُوَ كَثِيرٌ—. قَالَ الْحَضْرَمِيُّ: فَأَحْرَجَنِي وَحَمَلَنِي عَلَى أَنْ قُلْتُ لَهُ : نَعَمْ لَا يَكُونُ الرِّزْقُ كَثِيرًا إِلَّا عِنْدَ مِثْلِكَ ، يُعْطِي الْجَوْزَ مَنْ لَا لَهُ أَسْنَانٌ وَأَنَا الَّذِي أَعْلَمُ مَا فِي هٰذَا الْكِتَابِ وَأَطْلُبُ الِانْتِفَاعَ بِهِ يَكُونُ الرِّزْقُ عِنْدِي قَلِيلًا ، وَتَحُولُ قِلَّةُ مَا بِيَدِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ .

« قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ » : وَجَرَتْ مُنَاظَرَةٌ بَيْنَ يَدَيْ مَنْصُورِ بَنِي[1] عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ الْفَقِيهِ الْعَالِمِ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ رُشْدٍ وَالرَّئِيسِ أَبِي بَكْرِ بْنِ زُهْرٍ ، فَقَالَ ابْنُ رُشْدٍ لِابْنِ زُهْرٍ فِي كَلَامِهِ : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ ؟ : غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ عَالِمٌ بِإِشْبِيلِيَةَ فَأُرِيدَ بَيْعُ كُتُبِهِ حُمِلَتْ إِلَى قُرْطُبَةَ حَتَّى تُبَاعَ فِيهَا ، وَإِذَا مَاتَ مُطْرِبٌ بِقُرْطُبَةَ فَأُرِيدَ بَيْعُ تَرِكَتِهِ حُمِلَتْ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ .

---

(١) فى الأصل (بن) وهو تحريف

***

وصف قصر قرطبة

« وَسُئِلَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ » عَنْ قَصْرِ قُرْطُبَةَ فَقَالَ: هُوَ قَصْرٌ أَوَّلِيٌّ[1] تَدَاوَلَتْهُ مُلُوكُ ٱلْأُمَمِ مِنْ لَدُنْ عَهْدِ مُوسَى ٱلنَّبِيِّ - صَلَّى ٱللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِيهِ مِنَ ٱلْمَبَانِي ٱلْأَوَّلِيَّةِ وَٱلْآثَارِ ٱلْعَجِيبَةِ لِلْيُونَانِيِّينَ ثُمَّ لِلرُّومِ وَٱلْقُوطِ وَٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ مَا يُعْجِزُ ٱلْوَصْفَ، ثُمَّ ٱبْتَدَعَ ٱلْخُلَفَاءُ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ - مُنْذُ فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْدَلُسَ بِمَا فِيهَا - فِي قَصْرِهَا ٱلْبَدَائِعَ ٱلْحِسَانَ، وَأَثَّرُوا فِيهِ ٱلْآثَارَ ٱلْعَجِيبَةَ، وَٱلرِّيَاضَ ٱلْأَنِيقَةَ، وَأَجْرَوْا فِيهِ ٱلْمِيَاهَ ٱلْعَذْبَةَ ٱلْمَجْلُوبَةَ مِنْ جِبَالِ قُرْطُبَةَ عَلَى ٱلْمَسَافَاتِ ٱلْبَعِيدَةِ، وَتَمَوَّنُوا ٱلْمُؤَنَ[2] ٱلْجَسِيمَةَ حَتَّى أَوْصَلُوهَا إِلَى ٱلْقَصْرِ ٱلْكَرِيمِ، وَأَجْرَوْهَا فِي كُلِّ سَاحَةٍ مِنْ سَاحَاتِهِ وَنَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِيهِ فِي قَنَوَاتِ ٱلرَّصَاصِ، تُؤَدِّيهَا مِنْهَا إِلَى ٱلْمَصَانِعِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةُ ٱلْأَشْكَالِ مِنَ

---

(١) لعله أزلي: وأولى منسوب الى أول كأنه يريد أولية الخليقة، وعلى كلا الأمرين فالمراد القدم المجهول الأولية: كما يقال فى القديم أيضا عادى نسبة الى عاد (٢) أى أنفقوا النفقات الكثيرة وتحملوا التكاليف الباهظة

الذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ وَالْفِضَّةِ الْخَالِصَةِ وَالنُّحَاسِ الْمُمَوَّهِ(١) إِلَى الْبُحَيْرَاتِ الْهَائِلَةِ ، وَالْبِرَكِ الْبَدِيعَةِ ، وَالصَّهَارِيجِ الْغَرِيبَةِ فِي أَحْوَاضِ الرُّخَامِ الرُّومِيَّةِ الْمَنْقُوشَةِ الْعَجِيبَةِ . قَالَ : وَفِي هٰذَا الْقَصْرِ الْقِصَابُ(٢) الْعَالِيَةُ السُّمُوِّ ، الْمُنِيفَةُ الْعُلُوِّ الَّتِي لَمْ يَرَ الرَّاءُونَ مِثْلَهَا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا .

« قَالَ » وَمِنْ قُصُورِهِ الْمَشْهُورَةِ وَبَسَاتِينِهِ الْمَعْرُوفَةِ الْكَامِلُ ، وَالْمُجَدَّدُ ، وَالْحَائِرُ ، وَالرَّوْضَةُ ، وَالزَّاهِرُ ، وَالْمَعْشُوقُ ، وَالْمُبَارَكُ ، وَالرَّشِيقُ(٣) وَقَصْرُ السُّرُورِ وَالتَّاجُ ، وَالْبَدِيعُ(٤)

(١) أى المطلى بفضة أو ذهب (٢) لعله يريد أنابيب المياه ــ ومخرج الماء من القصب وهى مجارى الماء من العيون ومنابعها ــ ومن معانى القصبة القصر أو جوفه يبنى فيه بناء هو أوسطه ــ والقصاب مسناة تبنى فى اللخف لئلا يجتمع السيل ويوبل فينهدم أصل الحائط بسببه (٣) فى الأصل (الرستق) وهو تصحيف (٤) أغلب أسماء هذه القصور والبساتين منقولة عن أسماء قصور مشهورة بناها الخلفاء العباسيون فى بغداد وسامراء وضواحيهما وربما أفردنا هذه القصور بمقال خاص ان شاء الله . وكان بوابا على باب الكامل وأمينا فى الزهراء محمد بن عبد الحميد بن طالب بن مدرك بن عبد الحميد بن غانم البواب القرطبي مولى معاوية بن هشام وكان من أهل الخير والشرف رحل الى المشرق سنة ٣١٣ فسمع من علمائه وعاد الى بلده فتوفى به سنة ٣٣٢ « أحمد يوسف نجاتى » .

***

أبواب القصر

« قَالَ » وَمِنْ أَبْوَابِهِ ٱلَّتِي فَتَحَهَا ٱللهُ لِنَصْرِ ٱلْمَظْلُومِينَ وَغِيَاثِ ٱلْمَلْهُوفِينَ وَٱلْحُكْمِ بِالْحَقِّ : ٱلْبَابُ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلسَّطْحُ ٱلْمُشْرِفُ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَعَلَى هَـذَا ٱلْبَابِ بَابٌ حَدِيدٌ وَفِيهِ حَلَقُ لَاطُونٍ[١] قَدْ أُثْبِتَتْ فِي قَوَاعِدِهَا، وَقَدْ صُوِّرَتْ صُورَةَ إِنْسَانٍ فَتَحَ فَمَهُ ، وَهِيَ حَلَقُ بَابِ مَدِينَةِ أَرْبُونَةَ مِنْ بَلَدِ ٱلْأَفْرَنْجِ ، وَكَانَ ٱلْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ قَدْ ٱفْتَتَحَهَا فَجَلَبَ حَلَقَهَا إِلَى هٰذَا ٱلْبَابِ ، وَلَهُ بَابٌ قِبْلِيٌّ أَيْضًا وَهُوَ ٱلْمَعْرُوفُ بِبَابِ ٱلْجِنَانِ ، وَقُدَّامَ هٰـذَيْنِ ٱلْبَابَيْنِ ٱلْمَذْكُورَيْنِ عَلَى ٱلرَّصِيفِ ٱلْمُشْرِفِ عَلَى ٱلنَّهْرِ ٱلْأَعْظَمِ مَسْجِدَانِ مَشْهُورَانِ بِالْفَضْلِ ، كَانَ ٱلْأَمِيرُ هِشَامٌ ٱلرَّضِيُّ يَسْتَعْمِلُ ٱلْحُكْمَ فِي ٱلْمَظَالِمِ فِيهِمَا ٱبْتِغَاءَ ثَوَابِ ٱللهِ ٱلْجَزِيلِ ، وَلَهُ بَابٌ ثَالِثٌ يُعْرَفُ بِبَابِ ٱلْوَادِي ، وَلَهُ بَابٌ بِشَمَالِيِّهِ يُعْرَفُ بِبَابِ قُورِيَةَ ، وَلَهُ بَابٌ رَابِعٌ يُدْعَى بِبَابِ ٱلْجَامِعِ وَهُوَ بَابٌ قَدِيمٌ كَانَ يَدْخُلُ مِنْهُ ٱلْخُلَفَاءُ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ عَلَى ٱلسَّابَاطِ[٢] . وَعَدَّدَ أَبْوَابًا بَعْدَ هَـذَا

---

(١) اللاطون : هو النحاس الأصفر (٢) الساباط سقيفة بين دارين

طُمِسَتْ أَيَّامَ فِتْنَةِ ٱلْمَهْدِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّار .

***

أبواب قرطبة

« وَذَكَرَ ٱبْنُ بَشْكُوَالَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ » أَنَّ أَبْوَابَ قُرْطُبَةَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ : بَابُ ٱلْقَنْطَرَةِ إِلَى جِهَةِ ٱلْقِبْلَةِ[1]، وَيُعْرَفُ بِبَابِ ٱلْوَادِي وَبِبَابِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ ، وَهُوَ عَلَى

أو حائطين من تحتها طريق نافذ، وكان الأمير عبد الله بن محمد قد أنشأ ساباطا معقودا على حنايا وصل فيه مابين قصر الامارة وباب فتح فى جدران المسجد ، وفى أيام الحكم المستنصر زيد فى المسجد من جنوبيه فقطع من هذا الجانب ساباط القصر المتخذ لخروج الخليفة الى الصلاة وبدئ بناء هذا المسجد العظيم فى سنة ١٦٩ فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، وانتهى العمل فيه فى مدة ابنه هشام سنة ١٧٧ فجاء آية فى الفن وحسن الزخرفة والبهاء . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) كان بقرب هذا الباب مقبرة دفن بها كثير من العلماء ، منهم أبو على الحسن بن أيوب بن محمد بن أيوب الأنصارى القرطبي المعروف بالحداد الفقيه العالم المحدث الراوية اللغوى الأديب كان ذا شعر حسن فى الزهد والرثاء وذا دين وفضل ، ولد سنة ٣٣٨ وتوفى سنة ٤٥٢ ودفن خلف باب القنطرة . ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن هرون الفهمى المقرى المعروف بابن الوراق المقرى، تولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة وكان ثقة ولد سنة ٤٤٢ وتوفى سنة ٥٢٢ ودفن بباب القنطرة « أحمد يوسف نجاتى » .

ٱلنَّهْرِ ، وَبَابُ ٱلْحَدِيدِ[١] وَيُعْرَفُ بِبَابِ سَرَقُسْطَةَ ، وَبَابُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْجَبَّارِ[٢] وَهُوَ بَابُ طُلَيْطُلَةَ ، وَبَابُ رُومِيَةَ ، وَفِيهِ تَجْتَمِعُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلرُّصُفُ ٱلَّتِي تَشُقُّ دَائِرَةَ ٱلْأَرْضِ مِنْ جَزِيرَةِ قَادِسَ إِلَى قَرْمُونَةَ إِلَى قُرْطُبَةَ إِلَى سَرَقُسْطَةَ إِلَى طَرَّكُونَةَ[٣] إِلَى أَرْبُونَةَ مَارَّةً فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْكَبِيرَةِ ، ثُمَّ بَابُ طَلَبِيرَةَ وَهُوَ أَيْضًا بَابُ لِيُونَ[٤] ، ثُمَّ بَابُ عَامِرٍ

---

(١) وفى بعض المراجع الباب الجديد ، وكان بالربض الشرقى من قرطبة

(٢) هو عبد الجبار بن خطاب بن مروان بن نذير مولى مروان بن الحكم ، واليه نسب ذلك الباب الشرقى بقرطبة ، وهو جد بنى خطاب التدمريين ،ومنتماهم فى الأزد ،منهم مروان بن خطاب بن عبد الجبار ابن خطاب — ومن فضلاء ذريته أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك ابن موسى بن عبد الملك بن الوليد بن محمد بن الوليد بن مروان بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار من أهل مرسية كان فقيها جليلا وعالما فاضلا ومحدثا نبيلا وأديبا بليغا ،وله مؤلفات نافعة فى فنون مختلفة وتوفى سنة ٥٩٩ . وسنفرد بنى خطاب بمقال مسهب ان شاء الله « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) طركونة : هى موضع من أعمال لبلة الى الغرب من قرطبة ، ولبلة كانت قصبة كورة كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية ، وهى شرق من أكشونية وغرب من قرطبة . وتقدم وصفها

(٤) أى يسمى أيضا باب « ليون » وليون شمال طليرة وان بعدت عنها جدا ، وطليرة شمال قرطبة ، وبينهما مسافة شاسعة كذلك

ٱلْقُرَشِيِّ ـ وَقُدَّامَهُ ٱلْمَقْبَرَةُ(١) ٱلْمَنْسُوبَةُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ بَابُ ٱلْحُـورِ(٢) وَيُعْرَفُ بِبَابِ بَطَلْيُوْسَ ، ثُمَّ بَابُ ٱلْعَطَّارِينَ وَهُوَ بَابُ إِشْبِيلِيَةَ . ٱنْتَهَى .

***

أرباض قرطبة

وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ عَدَدَ أَرْبَاضِ قُرْطُبَةَ عِنْدَ ٱنْتِهَائِهَا فِي ٱلتَّوَسُّعِ وَٱلْعِمَارَةِ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ رَبَضًا ، مِنْهَا ٱلْقِبْلِيَّةُ بِعُدْوَةِ ٱلنَّهْرِ : رَبَضُ شَقَنْدَةَ ، وَرَبَضُ مُنْيَةِ عَجَبٍ(٣) . وَأَمَّا ٱلْغَرْبِيَّةُ فَتِسْعَةٌ : رَبَضُ حَوَانِيتِ

(١) ممن دفن بهذه المقبرة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مطرف الكنانى القرطبي المقرى الجليل والفقيه الصالح ولد سنة ٣٨٧ وتوفى سنة ٤٥٤ ودفن عند باب عامر ـ وأبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن بن سليمان بن معاوية بن سوار اللخمي المؤذن القرطبي المقرى الفقيه المحدث كان أحد أئمة المسجد الجامع ولد سنة ٣١٠ وتوفى سنة ٣٨٢ ودفن بمقبرة باب عامر (٢) كذا بالأصل وأظنه باب الجوز وعنده كان مسكن أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن حسان بن يحيى الأموى العطار القرطبي العالم الفقيه ولد سنة ٣٣٠ وتوفى سنة ٤٠٩ (٣) وممن كان يسكن منية عجب خلف بن سعيد المنيي المحدث الفقيه المقرىء الفاضل ، توفى شهيدا سنة ٣٠٥ ـ وأبو زيد خالد بن محمد بن أحمد بن خالد القرطبي حفيد أحمد ابن خالد الفقيه المعروف بابن الحباب وكان فقيها صالحا ورعا عالما محدثا توفى سنة ٣١٨ ـ وأبو القاسم محمد بن محمد بن مسرور الأموى الصيدلانى القرطبي المعروف بالحذاء كانت له عناية بالعلم ورواية الحديث وسكناه بمنية عجب ولد سنة ٣١١ وتوفى سنة ٣٩١ «أحمد يوسف نجاتى»

اَلرَّيْحَانِ ، وَرَبَضُ اَلرَّقَّاقِينَ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ اَلْكَهْفِ ، وَرَبَضُ بَلَاطِ مُغِيثٍ [١] ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ اَلشِّفَاءِ [٢] ، وَرَبَضُ حَمَّامِ اَلْإِلْبِيرِيِّ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ اَلسُّرُورِ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ اَلرَّوْضَةِ ، وَرَبَضُ اَلسِّجْنِ اَلْقَدِيمِ . وَأَمَّا اَلشَّمَالِيَّةُ فَثَلَاثَةٌ : رَبَضُ بَابِ اَلْيَهُودِ ، وَرَبَضُ مَسْجِدِ أُمِّ سَلَمَةَ ، وَرَبَضُ اَلرُّصَافَةِ . وَأَمَّا اَلشَّرْقِيَّةُ فَسَبْعَةٌ : رَبَضُ شَبْلَارَ [٣] وَرَبَضُ

(١) ممن كان يسكن بلاط مغيث أبو عثمان سعيد بن خمير بن عبد الرحمن القرطبي رحل الى المشرق فسمع من يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهما، وكان يسكن بلاط مغيث فنقله الأمير عبد الله الى المدينة بقرب المسجد الجامع، فكان يجلس به ويجتمع اليه الناس وكان فقيها عالما فاضلا ولد سنة ٢٣٠ وتوفى سنه ٣٠١ (٢) لاأدرى أهو كذلك كما فى الأصل أم هو مسجد السقاء الذى كان امامه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى الأديب من أهل قرطبة كان عالما فقيها حميد الدين حسن العقل سهل الخلق دمث الطباع مع نبله وبراعته وتقدمه فى علوم العربية واللغة ورواية الشعر والأدب وكان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق غيورا على افادتهم متلطفا فى ذلك ، ولد سنة ٣٧٦ وتوفى سنة ٤٣٣ـ رحمه الله ـ ولنا كلمة طويلة فى مغيث هذا ومن ينسب اليه «أحمد يوسف نجاتى» . (٣) فى الأصل سبلار ، وفى ياقوت: «شبلار» وكان يسكن بها عبد الله بن محمد بن جعفر القرطبي المتوفى سنة ٣١٩ ـ اهـ وأرجح أنها «شبلار» وكان يسكن بها أبو بكر محمد بن سعيد بن عبد الله بن حمدون بن

قَرْنِ بِرِّيل[١] وَرَبَضُ ٱلْبُرْجِ : وَرَبَضُ مُنْيَةِ عَبْدِ ٱللهِ ، وَرَبَضُ مُنْيَةِ ٱلْمُغِيرَةِ[٢] وَرَبَضُ ٱلزَّاهِرَةِ ، وَرَبَضُ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْعَتِيقَةِ .

قَالَ : وَوَسَطَ هَذِهِ ٱلْأَرْبَاضِ قَصَبَةُ قُرْطُبَةَ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِالسُّورِ دُونَهَا. وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْأَرْبَاضُ بِدُونِ سُورٍ، فَلَمَّا كَانَتْ أَيَّامُ ٱلْفِتْنَةِ صُنِعَ لَهَا خَنْدَقٌ يَدُورُ بِجَمِيعِهَا وَحَائِطٌ مَانِعٌ .

« وَذَكَرَ ٱبْنُ غَالِبٍ » أَنَّهُ كَانَ دَوْرُ هَذَا ٱلْحَائِطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ مِيلًا . وَشَقَنْدَةُ مَعْدُودَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِأَنَّهَا مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ كَانَتْ مُسَوَّرَةً[٣] .

علقمة الحجرى القرطبي ، قال ابن الفرضي : كان يسكن بشبلار قرب زقاق زرعة و يصلى بمسجد ابن عبيد ، وقد حدث عنه القاضي يونس ابن عبد الله فى بعض تصانيفه وكان جاره ، وقال فى موضع آخر فى ترجمة أبى عبد الله « شمر بن نمير » مولى بنى أمية : لما قدم من المدينة الى قرطبة فى أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ضمه الى تأديب ولده وأنزله فى الدار المعروفة بشبلار بدار ابن الشمر ، وكان له ابن شاعر جلس للأمير عبد الرحمن بن الحكم اسمه عبد الله «أحمد يوسف نجاتى »(١) فى بعض المراجع «قرن بريل» (٢) وممن كان يسكن منية المغيرة الوزير أبو مروان عبد الملك بن أحمد ابن عبد الملك بن شهيد ، وتقدم التعريف به. ومنهم أبو عبد الله محمد ابن سعيد بن أبى عتبة القشيرى النحوى القرطبي الأديب توفى سنة ٣٧٧ و بربض منية المغيرة ولد أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الامام المشهور سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ (٣) تقدم القول فى « شقندة »

***

متنزهات قرطبة

« قَالَ أبْنُ سَعِيدٍ » فِي ٱلْمُغْرِب : وَلْنَذْكُرِ ٱلآنَ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ وَمَعَاهِدِهَا ٱلْمَذْكُورَةِ فِي ٱلْأَلْسُنِ نَظْماً وَنَثْرًا مَا أُنْتَهَى إِلَيْهِ ٱلضَّبْطُ مِنْ غَيْرِ تَغَلْغُلٍ فِي غَيْرِ ٱلْمَشْهُورِ مِنْهَا وَٱلْأَهَمِّ ، وَنُوَشِّي ذَلِكَ بِجَمِيعِ مَا يَحْضُرُنِي مِنْ مُخْتَارِ ٱلنَّظْمِ فِي قُرْطُبَةَ ، وَمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ نِطَاقُهَا ٱلْمَذْكُورُ .

فَأَوَّلُ مَا نَذْكُرُ مِنَ ٱلْمُتَنَزَّهَاتِ مُتَنَزَّهَاتُ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْمَرْوَانِيَّةُ وَهُوَ قَصْرُ ٱلرُّصَافَةِ ، فَنَقُولُ : كَانَ هَذَا ٱلْقَصْرُ مِمَّا أُبْتَنَاهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ فِي أَوَّلِ أَيَّامِهِ لِتَنَزُّهِهِ ، وَسُكْنَاهُ أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ مُنْيَةُ ٱلرُّصَافَةِ ٱلَّتِي أُتَّخَذَهَا بِشَمَالِ قُرْطُبَةَ مُنْحَرِفَةً إِلَى ٱلْغَرْبِ ، فَاتَّخَذَ بِهَا قَصْرًا حَسَناً ، وَدَحَا[1] جِنَانًا وَاسِعَةً ، وَنَقَلَ إِلَيْهَا غَرَائِبَ ٱلْغُرُوسِ وَأَكَارِمَ ٱلشَّجَرِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَأَوْدَعَهَا مَا كَانَ أُسْتَجْلَبَهُ يَزِيدُ وَسَفْرٌ رَسُولَاهُ إِلَى ٱلشَّامِ مِنَ ٱلنَّوَى ٱلْمُخْتَارِ وَٱلْحُبُوبِ ٱلْغَرِيبَةِ ، حَتَّى نَمَتْ

وممن كان يسكن بها أبو عمر أحمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي القرطبي كان يسكن عدوة النهر بشقندة وكان فقيها محدثا توفى سنة ٣٩١

(١) دحا الله الأرض : بسطها وأوسعها

بِيَمِينِ ٱلْجِدِّ وَحُسْنِ ٱلتَّرْبِيَةِ فِي ٱلْمُدَّةِ ٱلْقَرِيبَةِ أَشْجَارًا مُعْتَمَّةً[١]، أَثْرَتْ بِغَرَائِبَ مِنَ ٱلْفَوَاكِهِ ٱنْتَشَرَتْ عَمَّا قَلِيلٍ بِأَرْضِ ٱلْأَنْدَلُسِ، فَاعْتُرِفَ بِفَضْلِهَا عَلَى أَنْوَاعِهَا. وَقَدْ سَمَّاهَا بِاسْمِ رُصَافَةِ جَدِّهِ هِشَامٍ بِأَرْضِ ٱلشَّامِ ٱلْأَثِيرَةِ لَدَيْهِ، وَلِمَيْلِهِ فِي ٱخْتِيَارِ هَذِهِ وَكَلَفِهِ بِهَا وَكَثْرَةِ تَرَدُّدِهِ عَلَيْهَا وَسُكْنَاهُ أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ بِهَا طَارَ لَهَا ٱلذِّكْرُ فِي أَيَّامِهِ، وَٱتَّصَلَ مِنْ بَعْدِهِ فِي إِيثَارِهَا، قَالَ: وَكُلُّهُمْ فَضَّلَهَا وَزَادَ فِي عِمَارَتِهَا، وَٱنْبَرَى وُصَّافُ ٱلشُّعَرَاءِ لَهَا فَتَنَاغَوْا[٢] فِي ذَلِكَ فِيمَا هُوَ إِلَى ٱلْآنَ مَشْهُورٌ مَأْثُورٌ عَنْهُمْ، مُسْتَجَادٌ مِنْهُمْ.

***

رمان الرصافة

وَقَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ: وَٱلرُّمَّانُ ٱلسَّفَرِيُّ ٱلَّذِي فَاضَ عَلَى أَرْجَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ وَصَارُوا لَا يُفَضِّلُونَ عَلَيْهِ سِوَاهُ أَصْلُهُ مِنْ هَذِهِ ٱلرُّصَافَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ ٱبْنُ حَيَّانَ شَأْنَهُ، وَأَفْرَدَ لَهُ فَصْلًا فَقَالَ: إِنَّهُ ٱلْمَوْصُوفُ بِالْفَضِيلَةِ، ٱلْمُقَدَّمُ عَلَى أَجْنَاسِ ٱلرُّمَّانِ

(١) من المجاز قولهم اعتم النبت اذا التف وطال، وروضة معتمة أى وافية النبات طويلته، واعتمت الآكام بالنبات تعممت. (٢) فى الأصل (فتنازعوا)

بِعُذُوبَةِ الطَّعْمِ وَدِقَّةِ الْعَجَمِ[١] وَغَزَارَةِ الْمَاءِ وَحُسْنِ الصُّورَةِ .
وَكَانَ رَسُولُهُ إِلَى الشَّامِ فِي تَوْصِيلِ أُخْتِهِ مِنْهَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ قَدْ جَلَبَ طَرَائِفَ فِيهَا مِنْ رُمَّانِ الرُّصَافَةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى هِشَامٍ ، قَالَ : فَعَرَضَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى خَوَاصِّ رِجَالِهِ مُبَاهِياً بِهِ ، وَكَانَ فِيمَنْ حَضَرَهُ مِنْهُمْ سَفْرُ بْنُ زَيْدٍ[٢] الْكَلَاعِيُّ مِنْ جُنْدِ الْأُرْدُنِّ ـ وَيُقَالُ : هُوَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْمِلُونَ أَلْوِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي غَزَوَاتِهِ قَالَ: وَهُمْ يَحْمِلُونَ الْأَلْوِيَةَ بَيْنَ يَدَيِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ـ فَأَعْطَاهُ مِنْ ذَلِكَ الرُّمَّانِ جُزْءًا ، فَرَاقَهُ حُسْنُهُ وَخَبَرُهُ ، فَسَارَ بِهِ إِلَى قَرْيَةٍ بِكُورَةِ رَيَّةَ ، فَعَالَجَ عَجَمَهُ وَاحْتَالَ لِغَرْسِهِ وَغِذَائِهِ وَتَنْقِيلِهِ حَتَّى طَلَعَ شَجَرًا أَثْمَرَ وَأَيْنَعَ ، فَنَزَعَ إِلَى عِرْقِهِ ، وَأَغْرَبَ فِي حُسْنِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَإِذَا هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِذَلِكَ الرُّصَافِيِّ ، فَسَأَلَهُ الْأَمِيرُ عَنْهُ فَعَرَّفَهُ وَجْهَ حِيلَتِهِ ، فَاسْتَبْرَعَ اسْتِنْبَاطَهُ ، وَاسْتَنْبَلَ هِمَّتَهُ ، وَشَكَرَ صُنْعَهُ ، وَأَجْزَلَ صِلَتَهُ ، وَاغْتَرَسَ مِنْهُ بِمُنْيَةِ

(١) العجم : بالتحريك : نوى كل شيء ، الواحدة عجمة .
(٢) كذا بالأصل ، وأظن أنه سفر بن عبيد

الرُّصَافَةِ وَبِغَيْرِهَا مِنْ جِنَانِهِ ، فَانْتَشَرَ نَوْعُهُ ، وَاسْتَوْسَعَ النَّاسُ فِي غِرَاسِهِ ، وَلَزِمَهُ النَّسَبُ إِلَيْهِ ، فَصَارَ يُعْرَفُ إِلَى الْآنَ بِالرُّمَّانِ السَّفَرِيِّ . قَالَ : وَقَدْ وَصَفَ هَذَا الرُّمَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ رَوْحٍ[1] الشَّاعِرُ فِي أَبْيَاتٍ كَتَبَ بِهَا إِلَى بَعْضِ مَنْ أَهْدَاهُ لَهُ فَقَالَ :

وَلَابِسَةٍ صَدَفاً أَحْمَـرَا ... أَتَتْكَ وَقَدْ مُلِئَتْ جَوْهَرَا

كَأَنَّكَ فَاتِحُ حُقٍّ لَطِيفٍ ... تَضَمَّنَ مَرْجَانُهُ الْأَحْمَرَا

حُبُوباً كَمِثْلِ لِثَاتِ الْحَبِيبِ ... رُضَاباً إِذَا شِئْتَ أَوْ مَنْظَرَا

وَلِلسَّفْرِ تُعْزَى وَمَا سَافَرَتْ

فَتَشْكُو النَّوَى أَوْ تُقَاسِي السُّرَى

بَلَى فَارَقَتْ أَيْكَهَا[2] نَاعِماً ... رَطِيباً وَأَغْصَانُهَا نُضَّرَا

---

(١) كذا بالأصل ، والذى أعرفه أن اسم قائل هذه الأبيات هو أبو عمر أحمد بن محمد بن فرح الجيانى وكان شاعرا رقيقا وافر الأدب كثير الشعر وكان يعد فى العلماء والشعراء ، وكان فى أيام الحكم المستنصر — وأخوه سعيد بن محمد بن فرح كذلك كان عالما أديبا شاعرا رقيقا ، ولهم أخ ثالث كذلك وهو عبد الله وكلهم جمعوا بين العلم والأدب وجودة الشعر وبخاصة فى وصف الرياض وحسن مناظر الطبيعة ، ولكل منهم مؤلفات فى الأدب . وسنفردهم بمقال خاص نبين فيه حياتهم وآثارهم فى الأدب ان شاء الله . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٢) الأيك : الشجر الكثير الملتف واحده أيكة — ومما جاء فى وصف الرمان قول ابن شاه :

وَجَاءتْكَ مُعْتَاضَةً إِذْ أَتَتْكَ

بِأَكْرَمَ مِنْ عُودِهَا عُنْصُرَا

بِعُودٍ يُرَى فِيهِ مَاءُ النَّدَى

وَيُورِقُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُثْمِرَا

هَدِيَّةُ مَنْ لَوْ غَدَتْ نَفْسُهُ

هَدِيَّتَهُ ظَنَّهُ قَصَّرَا

***

طرفة قاسم بن عبود الرياحى

« وَقَالَ ابْنُ السَّعِيدِ » وَأَخْبَرَنِي وَالِدِي قَالَ أَخْبَرَنِي الْوَشَّاحُ الْمُبَرِّزُ الْمُحْسِنُ أَبُو الْحَسَنِ الْمَرِينِيُّ قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا أَشْرَبُ مَعَ نُدَمَائِي بِإِزَاءِ الرُّصَافَةِ إِذْ بِإِنْسَانٍ رَثِّ الْهَيْئَةِ مَجْفُوِّ الطَّلْعَةِ قَدْ جَاءَ فَجَلَسَ مَعَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: مَاهَذَا الْإِقْدَامُ عَلَى الْجُلُوسِ مَعَنَا دُونَ سَابِقِ مَعْرِفَةٍ ؟ فَقَالَ لَا تَعْجَلُوا عَلَيَّ ، ثُمَّ فَكَّرَ قَلِيلًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ فَأَنْشَدَنَا :

اسْقِنِيهَا إِزَاءَ قَصْرِ الرُّصَافَهْ

وَاعْتَبِرْ فِي مَآلِ أَمْرِ الْخِلَافَهْ

ورمانة شبهتها اذ رأيتها بثدى كعاب أو بحقة مرمر
منممنة صفراء نضد حولها يواقيت حمر فى ملاء معصفر
لها قشر عقيان ورأس مشرق وأغصان خيرى وأوراق عبهر

وَٱنْظُرِ ٱلْأُفْقَ كَيْفَ بُدِّلَ أَرْضًا

كَيْ يُطِيلَ ٱللَّبِيبُ فِيهِ ٱعْتِرَافَهْ؟

وَيَرَى أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِيهِ

مِنْ نَعِيمٍ وَعِزٍّ أَمْرٍ سَخَافَهْ

كُلُّ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ غَيْرُ شَيْءٍ

مَا خَلَا لَذَّةَ ٱلْهَوَى وَٱلسُّلَافَهْ

قَالَ ٱلْمَرِينِيُّ: فَقَبَّلْتُ رَأْسَهُ، وَقُلْتُ لَهُ بِاللهِ مَنْ تَكُونُ؟ فَقَالَ: قَاسِمُ بْنُ عَبُّودٍ ٱلرِّيَاحِيُّ ٱلَّذِي يَزْعُمُ ٱلنَّاسُ أَنَّهُ مُوَسْوِسٌ أَحْمَقُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: مَاهَذَا شِعْرُ أَحْمَقَ، وَإِنَّ ٱلْعُقَلَاءَ لَتَعْجِزُ عَنْهُ، فَبِاللهِ إِلَّا مَا تَمَّمْتَ مَسَرَّتَنَا بِمُؤَانَسَتِكَ وَمُنَادَمَتِكَ وَمُنَاشَدَةِ طُرَفِ أَشْعَارِكَ! فَنَادَمَ وَأَنْشَدَ، وَمَازِلْنَا مَعَهُ فِي طِيبَةِ عَيْشٍ إِلَى أَنْ وَدَّعْنَاهُ وَهُوَ يَتَلَاطَمُ مَعَ ٱلْحِيطَانِ سُكْرًا، وَيَقُولُ: ٱللَّهُمَّ غَفْرًا. ٱنْتَهَى.

***

قصور ضواحي قرطبة

«قَالَ» وَمِنْ قُصُورِ خَارِجِ قُرْطُبَةَ قَصْرُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي يَحْيَى بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ، وَهُوَ عَلَى مَتْنِ

النَّهْرِ الْأَعْظَمِ تَحْمِلُهُ أَقْوَاسٌ. وَقِيلَ لِلسَّيِّدِ: كَيْفَ تَأَنَّقْتَ فِي بُنْيَانِ هَذَا الْقَصْرِ مَعَ انْحِرَافِكَ عَنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ؟ فَقَالَ: عَلِمْتُ أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ وَالِيًا بَعْدَ عَزْلِهِ وَلَا لَهُ عِنْدَهُمْ قَدْرٌ - لِمَا بَقِيَ فِي رُؤُسِهِمْ مِنَ الْخِلَافَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ - فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَبْقَى لِي فِي بِلَادِهِمْ أَثَرٌ أُذْكَرُ بِهِ عَلَى رَغْمِهِمْ.

«قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ[1]» وَأَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّ نَاهِضَ بْنَ إِدْرِيسَ شَاعِرَ وَادِي آشَ فِي عَصْرِهِ أَنْشَدَ لِنَفْسِهِ فِي هَذَا الْقَصْرِ:

أَلَا حَبَّذَا الْقَصْرُ الَّذِي ارْتَفَعَتْ بِهِ
عَلَى الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْحَوَاجِبِ[2] أَقْوَاسُ
هُوَ الْمَصْنَعُ الْأَعْلَى الَّذِي أَنِفَ الثَّرَى
وَرَفَّعَهُ عَنْ لَثْمِهِ الْمَجْدُ وَالْبَاسُ[3]

(١) هو الأديب نور الدين علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسي المغربي ينتهي نسبه الى عمار بن ياسر، ورد من المغرب وجال في مصر والمشرق، وله كتاب المغرب في أخبار المغرب، والمشرق في أخبار المشرق، والمرقص والمطرب، وغيرها - توفي بدمشق سنة ٦٧٣ - وستأتي له ترجمة مسهبة. وأبوه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ولد سنة ٥٧٣ وتوفي بالأسكندرية سنة ٦٤٠ (٢) في بعض المراجع «الحجارة» (٣) في الأصل «والناس» وهو تحريف. «أحمد يوسف نجاتي»

فَأَرْكَبُ مَتْنَ ٱلنَّهْرِ عِزًّا وَرِفْعَةً
وَفِي مَوْضِعِ ٱلْأَقْدَامِ لَا يُوجَدُ ٱلرَّاسُ
فَلَا زَالَ مَعْمُورَ ٱلْجَنَابِ وَبَابُهُ
يَغَصُّ وَحَلَّتْ أُفْقَهُ ٱلدَّهْرَ أَعْرَاسُ

***

قصر الدمشق بقرطبة

وَقَالَ ٱلْفَتْحُ فِي قَلَائِدِهِ ـ لَمَّا ذَكَرَ ٱلْوَزِيرَ ٱبْنَ عَمَّارٍ ـ: وَتَنَزَّهَ بِالدِّمَشْقِ بِقُرْطُبَةَ، وَهُوَ قَصْرٌ شَيَّدَهُ بَنُو أُمَيَّةَ بِالصُّفَّاحِ[1] وَٱلْعَمَدِ، وَجَرَوْا فِي إِتْقَانِهِ إِلَى غَيْرِ أَمَدٍ، وَأَبْدَعَ بِنَاؤُهُ، وَنُمِّقَتْ سَاحَاتُهُ وَفِنَاؤُهُ، وَٱتَّخَذُوهُ مَيْدَانَ مَرَاحِهِمْ[2]، وَمِضْمَارَ أَفْرَاحِهِمْ وَٱنْشِرَاحِهِمْ، وَحَكَوْا بِهِ قَصْرَهُمْ بِالْمَشْرِقِ، وَأَطْلَعُوهُ كَالْكَوْكَبِ ٱلثَّاقِبِ ٱلْمُشْرِقِ. وَأَنْشَدَ فِيهِ لِابْنِ عَمَّارٍ:

---

(١) جمع صفاحة وهو العريض من الحجارة، ومثله صفيحة وصفائح. والعمد كالعمد «بضمتين» جمع عمود، ويريد بها هنا أساطين الرخام، وهو مأخوذ من قول النابغة الذبياني:

وجيش الجن انى قد أمرتهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

(٢) المراح «بفتح الميم» «كمفعل» الموضع الذى يروح اليه القوم أو يروحون منه، كالمغدى للموضع الذى يغدى منه. والمراح «بكسر الميم» «فعال»

كُلُّ قَصْرٍ بَعْـدَ الدِّمَشْقِ يُذَمُّ
فِيهِ طَابَ الْجَنَى وَلَذَّ الْمَشَمُّ[١]

مَنْظَرٌ رَائِقٌ وَمَاءٌ نَمِيرٌ[٢] وَثَرًى عَاطِرٌ وَقَصْرٌ أَشَمُّ[٣]

بِتُّ فِيهِ وَاللَّيْـلُ وَالْفَجْرُ عِنْدِي
عَنْبَرٌ أَشْهَبٌ وَمِسْكٌ أَحَمُّ[٤]

وَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلْحَاجِبِ أَبِي عُثْمَانَ جَعْفَرِ بْنِ عُثْمَانَ الْمُصْحَفِيِّ . وذَكَرَ الْحِجَارِيُّ فِي الْمُسْهِبِ أَنَّ الرَّئِيسَ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ جَعْفَرٍ الْمُصْحَفِيِّ اجْتَازَ بِالْمُنْيَةِ الْمُصْحَفِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ لِجَدِّهِ أَيَّامَ حِجَابَتِهِ لِلْخَلِيفَةِ الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ ، فَاسْتَعْبَرَ[٥] حِينَ تَذَكَّرَ مَا آلَ إِلَيْهِ حَالُ جَدِّهِ مَعَ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى مُلْكِهِ وَأَمْلَاكِهِ فَقَالَ :

اسم من المرح وهو شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره ، والمرح أيضا التبختر والاختيال (١) الجنى : مايجنى من الثمار والفواكه ، والمشم مايشم من الأزهار والرياحين، وفى القلائد «وفاح» بدل «ولذ» وفى البيت اشارة الى قول جرير :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقوام

(٢) نمير : عذب صاف وسهل سائغ (٣) أشم : مرتفع عال (٤) أحم : أسود ، والأشهب ما كان ذا بياض يصدعه سواد فى خلاله ــ أو البياض الذى غلب عليه السواد (٥) أى بكى وجرت عبرات عينه

قِفْ قَلِيلًا بِالْمُصْحَفِيَّةِ وَاُنْدُبْ

مُقْـلَةً أَصْبَحَتْ بِلَا إِنْسَانِ

وَاُسْأَلَنْهَا عَنْ جَعْفَرٍ وَسَطَاهُ[1]

وَنَدَاهُ فِي سَالِفِ ٱلْأَزْمَانِ

جَعْفَرٌ مِثْلُ جَعْفَرٍ[2] حَـكَمَ ٱلدَّهْـ

رُ عَلَيْـهِ بِعِزَّةٍ وَهَوَانِ

وَلَـكَمْ حَذَّرَ ٱلرَّدَى فَصَمِمْنَا

لَا أَمَانٌ لِصَاحِبِ ٱلسُّلْطَانِ

بَيْنَمَا يَعْتَلِي غَـدَا خَافِضًا مِنْـ

ـهُ أُكْتَابٌ كَـكِفَّةِ[3] ٱلْمِيزَانِ

وَمُنْيَةُ ٱلزُّبَيْرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى ٱلزُّبَيْرِ ٱبْنِ ٱلْمُلَثَّمِ عَمِّ مَلِكِ قُرْطُبَةَ[4].

---

(١) أى سطوته وصولته وشدته (٢) يريد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وزير هرون الرشيد توفى فى سجنه سنة ١٩٠ وفى بعض المراجع «بعسرة» بدل «بعزة» فيكون مشيرا الى ختام حياته ومآل حاله — وعلى ماهنا يريد أن الدهر قلبه بين عزة وهوان — والأول أحسن، ليناسب قوله «حكم الدهر عليه» فانما يحكم الدهر على الانسان بما يسوءه «أحمد يوسف نجاتى» (٣) الكفة «بالكسر» لكل مستدير (٤) هو الزبير بن عمر اللمتونى ابن عم يوسف بن تاشفين

« قَالَ اُبْنُ سَعِيدٍ » أَخْبَرَنِي وَالِدِي عَنْ أَبِيهِ[1] قَالَ : خَرَجَ مَعِي إِلَى هٰـذِهِ اُلْمُنْيَةِ فِي زَمَانِ فَتْحِ اُلنُّوَّارِ أَبُو بَكْرِ بْنُ بَقِيٍّ[2] اُلشَّاعِرُ اُلْمَشْهُورُ فَجَلَسْنَا تَحْتَ سَطْرٍ مِنْ أَشْجَارِ اُللَّوْزِ قَدْ نَوَّرَتْ، فَقَالَ اُبْنُ بَقِيٍّ :

سَطْرٌ مِنَ اُللَّوْزِ فِي اُلْبُسْتَانِ قَابَلَنِي

مَا زَادَ شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ وَلَا نَقَصَا

كَأَنَّمَا كُلُّ غُصْنٍ كُمُّ جَارِيَةٍ

إِذَا اُلنَّسِيمُ ثَنَى أَعْطَافَهُ رَقَصَا

ثُمَّ قَالَ شِعْرًا مِنْهُ :

عَجِبْتُ لِمَنْ أَبْقَى عَلَى خَمْرِ دَنِّهِ

غَدَاةَ رَأَى لَوْزَ اُلْحَدِيقَةِ نَوَّرَا

---

(١) هو محمد بن عبد الملك بن سعيد ولد سنة ٥١٤ وتوفى بمدينة غرناطة سنة ٥٨٩

(٢) هو الشاعر المشهور الأديب أبو بكر يحيي بن عبد الرحمن بن بقي القرطبي صاحب الموشحات البديعة والقصائد الرائقة، اتصل بالأمير يحيي بن علي بن القاسم بن حمود فأخذ بضبعه وأشرف به على اليفاع وغمره بنعمه، فصرف فيه أقواله، وشرف بقوافيه نواله. توفى سنة ٥٤٠ — وهناك أبو بكر يحيي بن أحمد بن بقي الطليطلي نزل اشبيلية بعد أن جال في الأندلس وكان يتقدم أدباء عصره تفننا في الآداب وتصرفا في النظم. توفى سنة ٥٤٥ . «أحمد يوسف نجاتي»

وَلَا أَذْكُرُ بَقِيَّةَ ٱلْأَبْيَاتِ - قَالَ جَدِّى: ثُمَّ ٱجْتَمَعْتُ بِهِ بَعْدَ ذٰلِكَ بِغَرْنَاطَةَ ، فَذَكَّرْتُهُ بِاجْتِمَاعَاتِهِ فِي مُنْيَةِ ٱلزُّبَيْرِ ، فَتَنَهَّدَ وَفَكَّرَ سَاعَةً وَقَالَ : اُكْتُبُوا عَنِّى ، فَكَتَبْنَا :

سَقَى ٱللّٰهُ بُسْتَانَ ٱلزُّبَيْرِ وَدَامَ فِي
ذَرَاهُ[1] مَسِيلُ ٱلنَّهْرِ مَا غَنَّتِ ٱلْوُرْقُ

فَكَانَ لَنَا مِنْ نِعْمَةٍ فِي جَنَابِهِ
كَبِزَّتِهِ[2] ٱلْخَضْرَاءِ طَالِعُهَا طَلْقُ

هوَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلزَّاهِي عَلَى كُلِّ مَوْضِعٍ
أَمَا ظِلُّهُ ضَافٍ[3] أَمَا مَاؤُهُ دَفْقُ[4] ؟

أَهِيمُ بِهِ فِي حَالَةِ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَى
وَحَقٌّ لَهُ مِنِّى ٱلتَّذَكُّرُ وَٱلْعِشْقُ

وَمِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّهْرِ ٱلْخَفُوقِ فُؤَادُهُ
بِقَلْبِي مَا غُيِّبْتُ عَنْ وَجْهِهِ خَفْقُ

---

(١) الذرا «بالفتح» الكن وكل ما استتر به ، يقال : أنا فى ظل فلان وفى ذراه : أى فى كنفه وستره ودفئه (٢) البزة : الهيئة والشارة واللبسة ، يقال انه لذو بزة حسنة أى هيئة ولباس جيد (٣) أى سابغ كثير ممتد (٤) أى متدفق منصب — ودفق النهر والوادي : اذا امتلأ حتى يفيض الماء من جوانبه .

قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: جَمَعَ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي تَشْتَهِي، قَالَ: ذَلِكَ لَكَ، قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَدْفَعُ لِي هَذَا السَّيْفَ الَّذِي تَقَلَّدْتَ بِهِ، أَتَزَوَّدُ مِنْهُ إِلَيْهِ وَأُنْفِقُ الْبَاقِيَ فِيهِ عَلَى مَا تَعْلَمُ، قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا السَّيْفُ شَرَّفَنِي بِهِ السُّلْطَانُ أَبُو زَكَرِيَّا[1] بْنُ غَانِيَةَ، وَمَا لِعَطَائِهِ سَبِيلٌ،

---

(١) هو الأمير يحي بن اسحق بن حمو بن على بن غانية الملثم الصنهاجي كان أبوه أبو ابراهيم اسحق بن حمو صاحب جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة «وهي ثلاث جزائر متجاورة في غرب البحر الأبيض» وتوفى سنة ٥٨٠ وترك أربعة بنين وهم: أبو عبد الله محمد ذهب بعد وفاة والده الى الموحدين بالأندلس فأعطوه مدينة دانية وبالغوا فى الافضال عليه والاحسان اليه، وأبو زكريا يحي «وهو هذا» فقد خرج من ميورقة الى بلاد افريقية مع أخيه على سنة ٥٨٠ وفعلا أفعالا عظيمة مشهورة فى التاريخ من الحروب وشن الغارات. وخرج على بن اسحق على يعقوب المنصور وطرق بأسطوله مدينة بجاية على حين غفلة من أهلها ـ وكان عليها يومئذ السيد أبو الربيع بن عبدالله بن عبد المؤمن بن على ـ وكان خارجا فى بعض أغراضه ـ فاستولى عليها ابن غانية سنة ٥٨١ وأتى أعمالا قاسية شديدة، ثم استولى بعد ذلك على مدن أخرى من افريقية، فجهز اليه الملك المنصور جيشا شرد به من خلفه، وفر على بن اسحق الى الصحراء، ثم عاد فعاث فى البلاد وهزم جيش الموحدين، ثم كانت الحرب بينهما سجالا الى أن دارت الدائرة على ابن غانية وأحزابه، فنجا بذماء نفسه، حتى توفى على سنة ٦٣٣ وكان أخوه يحي قد بقى على حاله بعد موت أبيه فطالت مدته

وَلٰكِنْ أُعْطِيكَ قِيمَتَهُ . فَخَرَجَ وَأَتَى بِشَخْصٍ يَعْرِفُ قِيمَةَ السُّيُوفِ فَقَدَّرَهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ: إِنَّهُ سَيْفُ السُّلْطَانِ ابْنِ غَانِيَةَ - لِيَعْظُمَ قَدْرُهُ فِي عَيْنِهِ فَيَزِيدَ فِي قِيمَتِهِ - ثُمَّ قَبَضَ مَا قَدَّرَ بِهِ وَأَنْشَدَ ارْتِجَالًا :

أَطَالَ اللّٰهُ عُمْرَ فَتًى سَعِيدٍ ... وَبَقَّاهُ وَرَقَّتْهُ السُّعُودُ

غَدَا لِي جُودُهُ سَبَبًا لِعَوْدِي ... إِلَى وَطَنِي فَهَا أَنَذَا أَعُودُ

وَأَلْثِمُ كَفَّهُ شُكْرًا وَيَتْلُو ... طَرِيقِي[1] آيَ نُعْمَاهُ النَّشِيدُ

حَبَانِي مِنْ ذَخَائِرِهِ بِسَيْفٍ ... بِهِ لَمْ يَبْقَ لِلْأَحْزَانِ جِيدُ[2]

واستولى على بلاد كثيرة ، وكان معروفا بالشهامة والشجاعة والاقدام وتوفى سنة ٦٣٣ فى البرية من قطر تلمسان ، وبقى أخوه الأصغر وهو أبو محمد عبد الله بن اسحق ملك ميورقة حتى سنة ٥٩٩ فجهز اليه الملك الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على صاحب بلاد المغرب أسطولا نزل بساحل ميورقة فبرز اليهم وكان كذلك شجاعا مقداما وكريما جوادا فكبا به جواده « ولكل جواد كبوة » فسقط الى الأرض فقتلوه وحملوا رأسه الى مراكش وعلقوا جثته على سورها واستولوا على ميورقة ، وبقيت بأيديهم الى أن تغلب عليها الفرنج سنة ٦٢٧ وارتكبوا فيها فظائع الأعمال ، ومنكرات الفعال ، والملك لله يؤتيه من يشاء . «أحمد يوسف نجاتى » . (١) فى بعض النسخ «طريقى» و«التليد» بدل «النشيد»
(٢) يعنى أن هذا السيف قضى على أحزانه فكأنه أزهق روحها وقطع جيدها.

***

القصر الفارسى

وَالْقَصْرُ الْفَارِسِيُّ مِنَ الْقُصُورِ الْمَقْصُودَةِ لِلنُّزْهَةِ[١] بِخَارِجِ قُرْطُبَةَ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ زَيْدُونَ فِي قَصِيدٍ ضَمَّنَهُ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ مَا تَقِفُ عَلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ فَرَّ مِنْ قُرْطُبَةَ أَيَّامَ بَنِي جَهْوَرٍ، فَحَضَرَهُ فِي فِرَارِهِ عِيدٌ ذَكَّرَهُ بِأَعْيَادِهِ فِي وَطَنِهِ وَمَعَاهِدِهِ الْأُنْسِيَّةِ مَعَ وَلَّادَةَ الَّتِي كَانَ يَهْوَاهَا وَيَتَغَزَّلُ فِيهَا فَقَالَ:

خَلِيلَيَّ لَا فِطْرٌ يَسُرُّ وَلَا أَضْحَى

فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقاً كَمَا أَضْحَى؟

وَسَتَأْتِي هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي هَـذَا الْبَابِ، كَمَا سَتَأْتِي قَصِيدَةُ أَبِي الْقَاسِمِ عَامِرِ بْنِ هِشَامٍ الْقُرْطُبِيِّ[٢] الَّتِي أَوَّلُهَا:

* يَا هَبَّةً بَاكَرَتْ مِنْ نَحْوِ دَارِينِ *

وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ. قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: كَانَ وَالِدِي كَثِيرًا مَا يَأْمُرُنِي بِقِرَاءَتِهَا عَلَيْهِ وَيَقُولُ: وَاللهِ لَقَدْ أَنْبَأَتْ عَنْ فَضْلٍ لِهٰذَا الرَّجُلِ. قَالَ وَكَانَ أَبُو يَحْيَى

(١) النزهة: اسم من التنزه، والأصل فيه التباعد واستعماله فى الخروج للرياضة مجاز شائع، وفى الأساس: وخرجوا يتنزهون يطلبون الأماكن النزهة

(٢) ينسب للأزد، كان أديبا كاتبا شاعرا مطبوعا، وله مقامات أدبية بديعة كمقامات الحريرى، وتوفى سنة ٦٢٣. «أحمد يوسف نجاتى».

ٱلْحَضْرَمِيُّ يَحْفَظُهَا، وَيَزِينُ بِهَا مَجَالِسَهُ، وَيَحْلِفُ أَلَّا يُنْشِدَهَا بِحَضْرَةِ جَاهِلٍ لَا يَفْهَمُ، أَوْ حَاسِدٍ لَا يُنْصِفُ فِي ٱلِاهْتِزَازِ لَهَا(١)، وَإِنَّهُ لَجَدِيرٌ بِذَلِكَ، فَإِنَّهَا لَمِنْ كُنُوزِ ٱلْأَدَبِ،

***

مرج الخز

ثُمَّ قَالَ: وَٱلْمَرْجُ(٢) ٱلنَّضِيرُ ٱلْمَذْكُورُ بِهَا هُوَ مَرْجُ ٱلْخَزِّ. أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّهُ حَضَرَ فِي زَمَانِ ٱلصِّبَا بِهَذَا ٱلْمَرْجِ عَلَى رَاحَةٍ، وَمَعَهُ ٱلرَّئِيسُ ٱلْفَاضِلُ أَبُو ٱلْحُسَيْنِ بْنُ ٱلْوَزِيرِ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْوَقَّشِيُّ(٣)، وَٱلْحَسَنُ بْنُ دُوَيْدَةَ(٤) ٱلْمَشْهُورُ بِخِفَّةِ ٱلرُّوحِ،

---

(١) هذان النوعان: الجاهل والحاسد، هما الآن آفة العلم والأدب بمصر، ولولا أن المصفين المخلصين للغة العربية وعلومها وآدابها قدمروا بلغوهما كراما وجعلوا سفاهتهما الجاهلة دبر آذانهم وتحت أقدامهم لحرمت مصر خيرا كثيرا، واذن لراج البهرج الزائف، واحتجب في كنوزه الذهب الأبريز المصفى، ولكن:

أو كلما طن الذباب زجرته   أن الذباب اذن على كريم!!

(٢) يريد ماذكره في البيت:

الى الرصافة فالمرج النضير فوا   دى الدير فالعطف من بطحاء عبدون

(٣) نسبة الى وقش مدينة من أعمال طليطلة منها الفقيه الجليل الحافظ أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن سعيد بن خالد الكناني المعروف بالوقشي القاضي الأديب المؤرخ توفي بمدينة دانية سنة ٤٨٩ وكان اماما في اللغة وآدابها متقدما عارفا (٤) كذا بالأصل في غير موضع، ورأيت في الاحاطة في أخبار غرناطة صفحة ٩٧ حديثا يرويه أبو الحسن بن سعيد عن «الحسن بن دويرة»، وهذا هو الذي رجحته. «أحمد يوسف نجاتي»

قَالَ : فَسَبَحَتْ أَمَامَنَا إِوَزٌّ ، وَجَعَلَتْ تَمْرَحُ وَتَنْثُرُ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ فَوْقَ الْمَرْجِ ، وَالْمَرْجُ قَدْ أَحْدَقَ بِهِ الْوَادِي ، وَالشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ عَلَيْهِ لِلْغُرُوبِ ـ فَقَالَ لِي أَبُو الْحُسَيْنِ : بِاللَّهِ صِفْ يَوْمَنَا وَحُسْنَ هَٰذَا الْمَنْظَرِ ، فَقُلْتُ : لَا أَصِفُهُ أَوْ تَصِفَهُ أَنْتَ فَقَالَ : وَلَكَ مِنِّي ذَلِكَ ، فَأَفْكَرَ كُلٌّ مِنَّا عَلَى انْفِرَادٍ بَعْدَ مَا ذَكَرْنَا مَا نَصِفُ نَثْرًا ، فَقَالَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْوَقَشِيُّ :

لِلَّهِ يَوْمٌ بِمَرْجِ الْخَزِّ طَابَ لَنَـا
فِيهِ النَّعِيمُ بِحَيْثُ الرَّوْضُ وَالنَّهَرُ
وَلِلْإِوَزِّ عَلَى أَرْجَائِهِ لَعِبٌ
إِذَا جَرَتْ بُدِّدَتْ مَا بَيْنَنَا الدُّرَرُ(١)
وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ نَحْوَ الْبَيْنِ مَائِلَةً
كَأَنَّ عَاشِقَهَا فِي الْغَرْبِ يَنْتَظِرُ
وَالْكَأْسُ جَائِلَةٌ بِاللُّبِّ جَائِرَةً(٢)
وَكُلُّنَا غَفَلَاتِ الدَّهْرِ نَبْتَدِرُ

قَالَ : فَقُلْتُ :

---

(١) يريد بالدرر رشاش الماء الذى تنثره الأوز عنها فوق المرج :

(٢) فى الأصل حائرة، وأرى أنه مع قصد الجناس يشير الى قول عمرو بن كلثوم :

تجور بذى اللبانة عن هواه   اذا ماذاقها حتى يلينـــا

أَلَا حَبَّـذَا يَوْمٌ ظَفِرْنَا بِطِيبِهِ

بِأَكْنَافِ(١) مَرْجِ ٱلْخَزِّ وَٱلنَّهْرُ يَبْسِمُ

وَقَدْ مَرِحَتْ فِيهِ ٱلْإِوَزُّ وَأَرْسَلَتْ

عَلَى سُنْدُسٍ دُرًّا بِهِ يَتَنَظَّمُ

وَمُدَّ بِهِ لِلشَّمْسِ فَهُوَ كَأَنَّهُ

لِثَامٌ لَهَا مُلْقًى مِنَ ٱلنَّوْرِ مِعْصَمُ

أَدَرْنَا عَلَيْهِ أَكْؤُسًا بَعَثَتْ بِهِ

مِنَ ٱلْأُنْسِ مَيْتًا عَادَ وَهُوَ يُكَلِّمُ

غَدَوْنَا إِلَيْهِ صَامِتِينَ سَكِينَةً

فَرُحْنَا وَكُلٌّ بِالْهَوَى يَتَرَنَّمُ

فَأَظْهَرَ كُلٌّ مِنَّا لِصَاحِبِهِ ٱسْتِحْسَانَ مَا قَالَ تَنْشِيطًا(٢)

---

(١) أى بنواح وجهات وأرجاء (٢) سبب للاستحسان لابأس به والآ فالقطعتان ليستا من جيد الشعر ، وقد عرف السن أو «الحسن» بخفة روحه قدرهما فأجزل صلتهما صلة تناسب قول ابن الرومى فى البديهة والروية :

نار البديهة نار جد منضجة — وفى البديهة نار ذات تلويح

وقد يفضلها قوم لعاجلها — لكنه عاجل يمضى مع «الريح»

على أنهما فكرا ورويا ولم يرتجلا على البديهة، ومع هذا كان عاجلهما

وَتَتْمِيماً لِلْمَسَرَّةِ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمُسِنِّ : مَا عِنْدَكَ أَنْتَ تُعَارِضُ بِهِ هَاتَيْنِ الْقِطْعَتَيْنِ ؟ قَالَ بِهٰذَا ـ وَرَفَعَ رِجْلَهُ وَحَبِقَ حَبْقَةً فَرُفِعَتْ[1] مِنْهَا أَرْجَاؤُهُ ـ فَقَالَ لَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ : مَاهٰذَا يَاشَيْخَ السُّوءِ ؟ فَقَالَ : الطَّلَاقُ يَلْزَمُهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَوْزَنَ مِنْ شِعْرِكُمَا ، وَأَطْيَبَ رَائِحَةً ، وَأَغَنَّ صَوْتاً ، وَأَطْرَبَ مَعْنًى ، فَضَحِكْنَا مِنْهُ أَشَدَّ ضَحِكٍ ، وَجَعَلْنَا نَهْتَزُّ غَايَةَ الِاهْتِزَازِ لِمَوْقِعِ نَادِرَتِهِ ، فَقَالَ : وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّكُمْ طَرِبْتُمْ لِمَا جِئْتُ بِهِ أَكْثَرَ مِمَّا طَرِبْتُمْ مِنْ شِعْرِكُمْ .

***

فحص السرادق

ثُمَّ قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : وَمِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ الْمَشْهُورَةِ : فَحْصُ السُّرَادِقِ ، مَقْصُودٌ لِلْفُرْجَةِ يَسْرَحُ فِيهِ الْبَصَرُ . وَتَبْتَهِجُ فِيهِ النَّفْسُ . أَخْبَرَنِي وَالِدِي عَنْ أَخِيهِ أَبِي جَعْفَرِ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ الشَّرِيفِ

ماضيا مع « ريح » ابن دويرة، ولعل القارىء فهم بذلك معنى « حبق حبقة » سبقه بمثلها وهب ، وان كانت الحبقة أخف من فعلة وهب قال ابن دريد : أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال لما قتل عثمان قال عدى بن حاتم « رضى الله عنهما » لاتحبق فيه عنز ، فأصيبت عينه يوم صفين وقتل ابنه طريف، ثم دخل على معاوية بعدمقتل على « رضى الله عنهما » فقال له معاوية : هل حبقت العنز فى قتل عثمان ؟ فقال اى والله والتيس الأعظم. « أحمد يوسف نجاتى » . (١)فى بعض المراجع « فرقعت »

ٱلْأَصَمُّ ٱلْقُرْطُبِيُّ إِلَى بَسِيطِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ وَقَدْ تَدَبَّجَ بِالنُّوَّارِ ، فَلَمَّا حَرَّكَنَا حُسْنُ ٱلْمَكَانِ ، وَتَشَوَّقْنَا إِلَى ٱلْأَرْكَانِ[١] ، قَالَ ٱلشَّرِيفُ : لَقَدْ ذَكَّرَنِي هٰـذَا ٱلْبَسِيطُ بَسِيطَ فَحْصِ ٱلسُّرَادِقِ ، فَقُلْتُ لَهُ : فَهَلْ ثَارَ فِي خَاطِرِ كَمْ نَظْمٌ فِيه ؟ قَالَ نَعَمْ ، ثُمَّ أَنْشَدَ :

أَلَا فَدَعُوا ذِكْرَ ٱلْعُذَيْبِ وَبَارِقِ
وَلَا تَسْأَمُوا مِنْ ذِكْرِ فَحْصِ ٱلسُّرَادِقِ[٢]

---

(١) فى بعض المراجع «الأوطان» (٢) يريد معارضة أبى الطيب المتنبى فى قوله مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر إيقاعه بقبائل العرب .

تذكرت مابين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

« مابين مفعول تذكرت ومجرى بدل اشتمال منه » . والعذيب وبارق موضعان بظاهر الكوفة ـ أما العذيب فاسم ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال، وبارق ماء أيضا وهو الحد بين القادسية والبصرة وهو من أعمال الكوفة يريد أبو الطيب أنهم كانوا يجرون الرماح عند مطاردة الفرسان، ويجرون الجياد السابقة فى الميدان ، فاستبدل الشريف القرطبي بجر الرماح جر الذيول نشوة وسكرا ، وبمجرى الجياد ادارة الكؤوس مترعة فائضة جارية فى ميدان اللهو متسابقة ، فانظر كيف نظر الشعراء الى العذيب وبارق « ولكل امرىء يومئذ شأن يغنيه » وأمر يعنيه ، والنفس وما تهواه ، وكل يغنى فى الأنام بليلاه . وقد ضمن ابن أبى الأصبع بيت أبى الطيب وزاده نكتة التورية اللطيفة والتشبيه المصيب مع اللف والنشر المرتب فقال :

مَجَرُّ ذُيُولِ ٱلسُّكْرِ مِنْ كلِّ مُتْرَفٍ
وَمَجْرَى ٱلْكُؤُوسِ ٱلْمُتْرَعَاتِ ٱلسَّوَابِقِ
قَصَرْتُ عَلَيْهِ ٱللَّحْظَ مَا دُمْتُ حَاضِرًا
وَفِكْرِيَ فِي غَيْبٍ لِمَرْآهُ شَائِقِ
أَيَا طِيبَ أَيَّامٍ تَقَضَّتْ بِرَوْضَةٍ
عَلَى لَمْحِ غُدْرَانٍ وَشَمِّ حَدَائِقِ
إِذَا غَرَّدَتْ فِيهَا حَمَائِمُ دَوْحِهَا
تَخَيَّلْتُهَا ٱلْكُتَّابَ بَيْنَ ٱلْمَهَارِقِ(١)
وَمَا بِاخْتِيَارِ ٱلطَّرْفِ فَارَقْتُ حُسْنَهَا
وَلَكِنْ بِكَيْدٍ مِنْ زَمَانٍ مُنَافِقِ(٢)
قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ فَلَمَّا سَمِعْتُ هَذَا ٱلشِّعْرَ لَمْ أَتَمَالَكْ

اذا الوهم أبدى لى لماها وثغرها تذكرت مابين العذيب وبارق
ويذكرنى من قدها ومدامعى مجر عوالينا ومجرى السوابق
نقل العذيب من مكانه الى رضاب محبوبته وشفتها ، وبارقا الى فيها وثغرها وما بينهما هو رضابها الشهى، وخمر ريقتها العذبة « أحمد يوسف نجاتى »

(١) جمع مهرق أى الصحيفة « معرب » والدوح الشجر العظيم

(٢) مثله قول ابن الفارض :

ياجنة فارقتها النفس مكرهة لولا التأسى بدار الخلد مت أسى

مِنَ ٱلِاسْتِعْبَارِ، وَحَرَّكَنِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ قُلْتُ فِي حَوْزِ مُؤَمَّلٍ سَيِّدِ مُتَنَزَّهَاتِ غَرْنَاطَةَ - وَلَمْ يَذْكُرْ هُنَا مَا قَالَهُ فِيهِ، وَذَكَرَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ لَمْ يَحْضُرْنِي ٱلْآنَ حَتَّى أُورِدَهُ هُنَا، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ -.

***

وَمِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ ٱلسَّدُّ، قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ: أَخْبَرَنِي وَالِدِي أَنَّ ٱلشَّاعِرَ ٱلْمُبَرِّزَ أَبَا شِهَابٍ ٱلْمَالَقِيَّ أَنْشَدَهُ لِنَفْسِهِ وَاصِفًا يَوْمَ رَاحَةٍ بِهَذَا ٱلسَّدِّ:

وَيَوْمٍ لَنَا بِالسَّدِّ لَوْ رُدَّ عَيْشُهُ
بِعِيشَةِ أَيَّامِ ٱلزَّمَانِ رَدَدْنَاهُ
بَكَرْنَا لَهُ وَٱلشَّمْسُ فِي خِدْرِ شَرْقِهَا
إِلَى أَنْ أَجَابَتْ إِذْ دَعَا ٱلْغَرْبُ دَعْوَاهُ(١)
قَطَعْنَاهُ شَدْوًا وَٱغْتِبَاقًا وَنَشْوَةً
وَرَجْعَ حَدِيثٍ لَوْ رَقَى ٱلْمَيْتَ أَحْيَاهُ(٢)

(١) يريد أنهم قضوا به من قبيل مطلع الشمس الى غروبها (٢) الشدو: الغناء، والاغتباق شرب الغبوق «ضد الصبوح» وهو الشرب مساء ويريد هنا مطلق الشرب، ويريد بعجز البيت أنهم أخذوا بأطراف الأحاديث الطيبة التي لو رقي بها الميت لردت اليه روحه - وفي معنى ذلك يقول

عَلَى مِثْلِهِ مِنْ مَنْزِهٍ تُبْتَغَى الْمُنَى

فَلِلّٰهِ مَا أَحْلَى وَأَبْدَعَ مَرْآهُ

شَدَتْنَا بِهِ الْأَرْحَا(١) وَأَلْقَتْ نُثَارَهَا

عَلَيْنَا فَأَصْغَيْنَا لَهُ وَقَبِلْنَاهُ

لَئِنْ بَانَ إِنَّا بِالْأَنِينِ لِفَقْدِهِ

وَبِالدَّمْعِ فِي إِثْرِ الْفِرَاقِ حَكَيْنَاهُ(٢)

وَأَنْشَدَنِي وَالِدِي مُوَشَّحَةً لِأَبِي الْحَسَنِ الْمَرِينِيِّ مُعَاصِرِهِ وَصَاحِبِهِ يَذْكُرُ فِيهَا هَذَا السَّدَّ وَهِيَ :

ابن المعتز :

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وماعداه كلام

ولآخر :

حديث لوان الميت توجى ببعضه لأصبح حيا بعد ماضمه القبر

(١) مخفف من أرحاء جمع رحا : وهى الحجر العظيم المستدير الذى يطحن به ، وتجمع على أرح وأرحاء وأرحية « قليلا » وأرحى ورحى وسيأتى القول فى هذه الأرحاء والسد. والنثار اسم لماينثر من نحو فاكهة أو سكر أوغيرها ،والنثار والنثارة فتات الشيء المتناثر منه — وفى البيت لف ونشر مرتب ، يريد أنه أصغى الى صوت الأرحاء وشدوها وقبل ماألقت به من نثارها(٢) يريد أنه بعد فراقه أكثر من الأنين والبكاء فحكاه فى صوته بأنينه ، وفى جارى مائه بفيض دموعه «أحمد يوسف نجاتى»

« مَطْلَعْ »

فِي نَغْمَةِ ٱلْعُودِ وَٱلسُّلَافَهْ[1]

وَٱلرَّوْضِ وَٱلنَّهْرِ وَٱلنَّدِيمْ

أَطَالَ مَنْ لَامَنِي خِلَافَهْ

فَظَلَّ فِي نُصْحِهِ مُلِيمْ[2]

« دَوْرْ »

دَعْنِي عَلَى مَنْهَجِ ٱلتَّصَابِي

مَا قَامَ لِي ٱلْعُذْرُ بِالشَّبَابْ

وَلَا تُطِلْ فِي ٱلْمُنَى عِتَابِي فَلَسْتُ أُصْغِي إِلَى عِتَابْ

لَا تَرْجُ رَدِّي إِلَى صَوَابِ[3] وَٱلْكَأْسُ تَفْتَرُّ عَنْ حَبَابْ

---

(١) أى الخمر أو أول ما يعصر منها (٢) أى آتيا ما يلام عليه ـ وألامه بمعنى لامه ، وألام أتى بما يلام عليه ، يقال لام فلان غير مليم ، وفى المثل : رب لائم مليم . وقال لبيد :

سفها عذلت ولمت غير مليم وهداك قبل اليوم غير حكيم

(٣) فى الأصل جواب وأرى أنها محرفة صوابها صواب ، لينظر فى المعنى إلى قول الشاعر :

يقولون تب والكأس فى يد أغيد وصوت المثانى والمثالث عالى

وَٱلْغُصْنُ يُبْدِى لَنَا ٱنْعِطَافَهْ   إِذَا هَفَا فَوْقَهُ ٱلنَّسِيمْ
وَٱلرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا قِطَافَهْ   وَٱخْتَالَ فِى بُرْدِهِ ٱلرَّقِيمْ(١)

« دَوْرٌ »

يَا حَبَّذَا عَهْدِىَ ٱلْقَدِيمُ   وَمَنْ بِهِ هِمْتُ مُسْعِدِى
رِيمٌ(٢) عَنِ ٱلْوَصْلِ لَا يَرِيمُ   مُوَلَّعٌ بِالتَّوَدُّدِ
مَا تَمَّ إِلَّا بِهِ ٱلنَّعِيمُ   طَوْعًا عَلَى رَغْمِ حُسَّدِى
مُعْتَدِلُ ٱلْقَدِّ ذُو نَحَافَهْ   أَسْقَمَنِى طَرْفُهُ ٱلسَّقِيمْ
وَرَامَ طَرْفِى بِهِ ٱنْتِصَافَهْ   فَخَدَّ(٣) فِى خَدِّهِ ٱلْكَلِيمْ

فقلت لهم لو كنت أضمرت توبة   وأبصرت هذا كله لبدا لى

وافتر أى ضحك ضحكا حسنا وأبدى ثغره ، وافتر عن ثغره اذا ابتسم ضاحكا ، ومنه الحديث فى صفته صلى الله عليه وسلم « ويفتر عن مثل حب الغمام » أى يكشر اذا تبسم فى غير قهقهة، وحباب الماء ونحوه طرائقه كأنها الوشى ، ونفاخاته وفقاقيعه التى تطفو فوقه كأنها القوارير — ويقال طفا الحباب على الشراب . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) من رقم الثوب : اذا وشاه وخططه وعلمه (٢) الريم والرئم : الظبى الخالص البياض يسكن الرمل — ولا يريم أى لايبرح ولايتباعد (٣) خد: أثر ،ويقال خد الدمع فى خده اذا أثر فيه ، والكليم :الجريح يريد المتضرج حمرة ، ويشير هنا الى القول المشهور :

« دَوْرٌ »

غَضٌ[1] اُلصِّبَا عَاطِرُ اُلْمُقَبَّلْ   أَحْلَى مِنَ اُلْأَمْنِ وَاُلْأَمَلْ
ظَامِى اُلْحَشَا مُفْعَمُ اُلْمُخَلْخَلْ[2]
حُلْوُ اُللَّمَى[3] سَاحِرُ اُلْمُقَلْ
لِكُلِّ مَا[4] رَامَهُ تَوَصَّلْ   لَمْ يَخْشَ رَدًّا بِمَا فَعَلْ
أَشْكُو فَيُبْدِى لِىَ اُعْتِرَافَهْ   إِنْ حَادَ عَنْ نَهْجِهِ[5] اُلْقَوِيمْ
لَا أَعْدَمُ اُلدَّهْرَ فِيهِ رَافَهْ   فَحَقَّ لِى فِيهِ أَنْ أَهِيمْ

« دَوْرٌ »

لِلّٰهِ عَصْرٌ لَنَا تَقَضَّى   بِالسَّعْدِ وَاُلْمَنْبَرِ اُلْبَهِيجْ

ألحاظكم تجرحنا فى الحشا   ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا   فما الذى أوجب جرح الصدود

وقول الآخر:

جرحت بلحظى خده وهو جارح   بلحظيه قلبى والجروح قصاص

وقال أبو نواس من أبيات:

وقد خنقتها عبرة فدمعها   على خدها خد وفى نحرها نحر

(١) فى الأصل « غصن » محرفة (٢) المخلخل: موضع الخلخال من الساق — ومفعم ممتلىء ضد ظامىء أى ضامر، ويروى «طاوى» بدل ظامىء (٣) اللمى: سمرة فى الشفة واللثات تستحسن، والألمى: البرد الريق العذب الرضاب، والمقل: العيون (٤) فى الأصل « من » وأراها تضع من قيمة حبيبه، و « ما » ترفع من قدره فتأمل: « أحمد يوسف نجاتى ». (٥) النهج القويم: الطريق المستقيم يريد به طريق الاسعاد والوصل

أَرَى ٱدِّكَارِى إِلَيْهِ فَرْضًا وَشَوْقَهُ دَائِمًا يَهِيجْ
فَكَمْ خَلَعْنَا عَلَيْهِ غَمْضًا وَلِلصِّبَا مَسْرَحٌ أَرِيجْ
وِرْدٌ أَطَالَ ٱلْمُنَى ٱرْتِشَافَهْ حَتَّى ٱنْقَضَى شُرْبُهُ ٱلْكَرِيمْ
لِلّٰهِ مَا أَسْرَعَ ٱنْحِرَافَهْ وَهٰكَذَا ٱلدَّهْرُ لَا يُدِيمْ

« دَوْرٌ »

يَامَنْ يَحُثُّ ٱلْمَطِيَّ غَرْبًا عَرِّجْ عَلَى حَضْرَةِ ٱلْمُلُوكْ
وَٱنْثُرْ بِهَا إِنْ سَفَحْتَ غَرْبًا(١) مِنْ مَدْمَعٍ عَاطِلٍ سُلُوكْ

(١) الغرب الدلو العظيمة ، والراوية التى يحمل عليها الماء ، وعرق فى مجرى الدمع ، أو عرق فى العين يسقى ولا ينقطع سقيه ، يقال بعينه غرب اذا كانت تسيل ولا تنقطع دموعها — والغرب الدمع ، ومسيله انهماله من العين — وسفح الدمع والماء أراقه. وأصل العاطل المرأة يخلو جيدها من الحلى والقلائد وتتجرد من الزينة ، والتعطيل ترك الشىء ضياعا — والعطلة الدلو التى انقطع وذمها وعراها فتعطلت من الاستقاء بها وترك استعمالها — والسلك الخيط ينظم فيه العقد — وكأن معنى البيت أن دمعه مادام محبوسا فى عينه عاطل فهو يأمره أن ينثر من عيونه دررا تنتظم على خديه ، أو أن خديه ان لم يحليا بدرر الدموع عاطلان من الحلية، فاذا نثرت درر الدموع عليهما كان ذلك لهما زينة وحلى — ووصف الدمع بالعطل لأنه لم ينتفع به فى التحلية حتى ينثر درره من سلوكها « أحمد يوسف نجاتى »

وَاْسْمَعْ إِلَى مَنْ أَقَامَ صَبًّا وَاْحْكِ صَدَاهُ لَا فُضَّ فُوكْ
بَلِّغْ سَلَامِي قَصْرَ اْلرُّصَافَهْ وَذِكْرُهُ عَهْدِيَ اْلْقَدِيمْ[١]
وَحَيِّ عَنِّي دَارَ اْلْخِلَافَهْ وَقِفْ بِهَا وَقْفَةَ اْلْغَرِيمْ

قَالَ اْبْنُ سَعِيدٍ: وَاْلْمِنْبَرُ اْلْمَذْكُورُ فِي هٰذِهِ اْلْمُوَشَّحَةِ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ قُرْطُبَةَ، وَاْلسُّدُّ هُوَ اْلْأَرْحَاءُ اْلَّتِي ذَكَرَهَا فِي زَجَلِهِ[٢] قَاسِمُ بْنُ عَبُّودٍ اْلرِّيَاحِيُّ ـ رَوَيْتُهُ عَنْ وَالِدِي عَنْ قَائِلِهِ ـ وَهُوَ:

« مَطْلَعْ »

بِاللهْ أَيْنْ نُصِيبْ مَنْ لَيْسْ لِي فِيهْ نَصِيبْ
مَحْبُوباً مُخَـالِفْ وَمَعُـو رَقِيبْ

« دَوْرْ »

حِينْ تَقْصِدْ مَكَانُو يَقُومْ فِي اْلْمُقَامِ
وَيَبْخَـلْ عَلِينَـا بِرَدِّ اْلسَّـلَامِ

(١) يجوز أن يكون الأصل « وذكرنه عهدي القديم » .

(٢) لا يخفى أن هـذا الزجل عماده اللغة العامية، فإياك أن تفسد نظامه بالاعراب، أو تخطئ قصـد الاستقامة فيه بمحاولة الصواب، بل تناس النحو واللغة هنا هنيهة، وقل ما على المطرب من معرب «أحمد يوسف نجاتي»

أَدْخَلْتَ يَاقَلْبِي رُوحَكْ فِي زِحَامِ
سَلَامْتَكْ عِنْدِي هِيَ شِيْءْ عَجِيبْ
وَكَيْفَ بِاللهِ يَسْلَمْ مَنْ هُو فِي لَهِيبْ ؟

« دَوْرٌ »

بِاللهْ يَاحَبِيبِي أَتْرُكْ ذَا النِّفَارْ
وَاعْمِدْ أَنْ نَطِيبْ فِي هٰذَا النَّهَارْ
وَاخْرُجْ مَعِي لِلْوَادِي لِشُرْبِ الْعُقَارْ
نِتَمِّمْ نَهَارْنَا فِي لَذَّهْ وَطِيبْ
فِي الْأَرْحَا وَالَّا فِي الْمَرْجِ الْخَصِيبْ

« دَوْرٌ »

أَوْ عِنْدَ النَّوَاعِيرْ وَالرَّوْضِ الشَّرِيقْ (١)
أَوْ قَصْرِ الرُّصَافَهْ أَوْ وَادِي الْعَقِيقْ
رَحِيقْ (٢) وَاللهْ دُونَكْ هُوْ عِنْدِي الْحَرِيقْ
وَفِي حُبَّكْ أَمْسَيْتُ فِي أَهْلِي غَرِيبْ

---

(١) الناعورة الدولاب لنعيره أى صوته وهو ما يستقى به و يديره الماء — والشريق الشرق الحسن البهيج و نبت شرق أى ريان (٢) فى الأصل « حرق » محرفة

وَمَا الْمَوْتُ عِنْدِى إِلَّا حِينْ تَغِيبْ

« دَوْرٌ »

اتَّكِلْ عَلَى اللهْ وَكُنْ قَطْ جَسُورْ
وَإِنْ رَإِيْتَ فُضُولِى فَقُلْ أَىْ[1] تَمُورْ
كَمِّشْ عَنِّى وَجْهَكْ فَإِنْ رَآكَ نَفُورْ
يِهْرِبْ عَنَّكْ خَائِفْ وَيَبْقَى مُرِيبْ
وامْشِ أَنْتَ مُوَقَّرْ كَأَنَّكْ خَطِيبْ

« دَوْرٌ »

مَا أَعْجَبْ حَدِيثِى أَيِشْ هَذَا الْجُنُونْ
نُطْلُبْ وِنُدَبِّرْ أَمْرًا لَا يَكُونْ
وَكَمْ ذَا نُهَوِّنْ شَيْئًا لَا يَهُونْ
وَإِيشْ مِقْدَارْ مَا نَصْبِرْ لِبُعْدِ الْحَبِيبْ
رَبِّ اجْمَعْنِى مَعُو عَاجِلًا قَرِيبْ

***

نهر قرطبة

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : وَأَمَّا نَهْرُ قُرْطُبَةَ فَإِنَّهُ يَصْغُرُ عَنْ

---

(١) أظنها كلمة أسبانية تفيد معنى « فضول » .

عِظَمِهِ عِنْدَ إِشْبِيلِيَةَ، بِحَيْثُ صُنِعَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةٌ مِنْ حِجَارَةٍ لَا يَتَأَتَّى مِثْلُهَا فِي نَهْرِ إِشْبِيلِيَةَ، وَمَنْبَعُهُ مِنْ جِهَةِ شَقُورَةَ[١] يَمُرُّ النِّصْفُ مِنْهُ إِلَى مُرْسِيَةَ مُشَرِّقًا، وَالنِّصْفُ إِلَى قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلِيَةَ مُغَرِّبًا. وَلَمَّا ذَكَرَ الرَّازِيُّ قُرْطُبَةَ قَالَ: وَنَهْرُهَا السَّاكِنُ فِي جَرْيِهِ، اللَّيِّنُ فِي انْصِبَابِهِ، الَّذِي تُؤْمَنُ مَغَبَّةُ ضَرَرِهِ فِي حَمْلِهِ. وَقَالَ هَذَا لِأَنَّهُ يَعْظُمُ عِنْدَ إِشْبِيلِيَةَ، فَإِذَا حَانَ حَمْلُهُ فِي أَيَّامِ الْأَمْطَارِ أَشْفَتْ إِشْبِيلِيَةُ عَلَى الْغَرَقِ وَتَوَقَّعَ أَهْلُهَا الْهَلَاكَ.

***

وصف قنطرة الدهر

وَالْقَنْطَرَةُ الَّتِي عَلَى هَذَا النَّهْرِ عِنْدَ قُرْطُبَةَ مِنْ أَعْظَمِ آثَارِ الْأَنْدَلُسِ وَأَعْجَبِهَا، أَقْوَاسُهَا سَبْعَةَ عَشَرَ قَوْسًا، وَبَانِيهَا — عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُهُ — السَّمْحُ ابْنُ مَالِكٍ الْخَوْلَانِيُّ صَاحِبُ الْأَنْدَلُسِ بِأَمْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ —، وَشَيَّدَهَا بَنُو أُمَيَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسَّنُوهَا. قَالَ ابْنُ حَيَّانَ: وَقِيلَ إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ فِي

(١) شقورة مدينة الى الشمال الغربى من مرسية شرق الأندلس، وبها كانت دار امارة همشك أحد ملوك تلك النواحى «أحمد يوسف نجاتى»

هَذَا ٱلْمَكَانِ قَنْطَرَةٌ مِنْ بِنَاءِ ٱلْأَعَاجِمِ (١) قَبْلَ دُخُولِ ٱلْعَرَبِ

(١) الذى أعرفه أن هذه القنطرة التى على نهر الوادى الكبير بنيت فى أيام يوليوس قيصر قبل الميلاد بنحو نصف قرن ، وجددها على الأكتاف القديمة السمح بن مالك الخولانى عامل عمر بن عبد العزيز لما كانت ذات خطر عظيم فى الحروب والغزوات ولها شأن فى الرى والزراعة مع أنها تكون معبرا يصل مابين شاطئى النهر و يسهل به الانتقال مابين عدوتيه — وانتهى العمل فيها يوم مقتل السمح بن مالك فى يوم عرفات من سنة ١٠٢ هـ ثم جددها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل فأحكم بناءها وأتقن صنعها حتى كانت من أعظم آثار العرب باسبانيا وأوثقها بنيانا وأشدها مقاومة لحوادث الأيام وتحملا لفيضان نهر الوادى الكبير السريع صابرة على ذلك قرونا متطاولة — ثم كانت بعد متنزها عاما بديعا فى مكان تحلت فيه الطبيعة بأجمل حلاها حيث الماء الجارى ، والنسيم العليل ، والخضرة الناضرة ، والوجوه المشرقة السافرة — والذى رواه الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » أن عدد أقواس هذه القناطر سبعة عشر قوسا بين كل قوس خمسون شبرا ، وسعة القوس كذلك خمسون شبرا ، وسعة ظهرها الذى يعبر عليه ثلاثون شبرا ، وكان لها ستائر من كل جهة تستر القامة ، وارتفاعها من مكان المشى الى سطح الماء فى أيام الجفاف وقلة الماء ثلاثون ذراعا ، فاذا كان الفيضان وطمى السيل بلغ الماء فيها الى نحو حلوقها — وتحت القنطرة يعترض الوادى رصيف سد مصنوع من الأحجار والعمد البديعة من الرخام — وكان على ذلك السد ثلاثة بيوت أرحاء فى كل بيت منها أربعة مطاحن مائية « ولكن الذى تثبته الصور والرسوم التى عنى بأخذها لهذه الأماكن علماء الآثار والمهتمون بالآثار الاسلامية بالأندلس أن أقواس هذه القنطرة

بِنَحْوِ مِائَتَيْ سَنَةٍ ، أَثَّرَتْ فِيهَا ٱلْأَزْمَانُ بِمُكَابَدَةِ ٱلْمُدَدِ(١) حَتَّى سَقَطَتْ حَنَايَاهَا ، وَمُحِيَتْ أَعَالِيهَا ، وَبَقِيَتْ أَرْجُلُهَا وَأَسَافِلُهَا ، وَعَلَيْهَا بَنَى ٱلسَّمْحُ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَمِائَةٍ . ٱنْتَهَى

وَقَالَ فِي مَنَاهِجِ ٱلْفِكْرِ : إِنَّ قَنْطَرَةَ قُرْطُبَةَ إِحْدَى أَعَاجِيبِ ٱلدُّنْيَا بُنِيَتْ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ عَلَى يَدِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ ٱلْغَافِقِيِّ ، وَطُولُهَا ثَمَانِمَائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعَرْضُهَا عِشْرُونَ بَاعًا ، وَٱرْتِفَاعُهَا سِتُّونَ ذِرَاعًا ، وَعَدَدُ حَنَايَاهَا ثَمَانَ عَشْرَةَ حَنِيَّةً ، وَعَدَدُ أَبْرَاجِهَا تِسْعَةَ عَشَرَ بُرْجًا ٱنْتَهَى .

***

منشأ قرطبة

« رَجْعٌ إِلَى قُرْطُبَةَ » . ذَكَرَ ٱبْنُ حَيَّانَ وَٱلرَّازِيُّ وَٱلْحِجَارِيُّ أَنَّ ٱلتَّنْبَانَ(٢) ثَانِيَ قَيَاصِرَةِ ٱلرُّومِ ٱلَّذِي مَلَكَ

ستة عشر قوسا » وكان بالطرف الشرقى من هـذه القنطرة قلعة بناها العرب سموها القلعة الحرة لها برجان عظيمان وكان فيها نقطة للشرطة — فلا غرو بعد هذا أن كانت متنزها — وسل فؤادك الآن عن غادات النيل تزهى بين الجزيرة وجسر اسماعيل ، وسل بغـداد عن عيون المها بين الرصافة والجسر ،وعن ظباء القصر ،تلك معاهد تبعث الهوى ،وتثير الجوى :

تردد فى أرجائها الحسن فاغتدت قرارة من يصبي ونجعة من يصبو

(١) لعلها « المدود » من مد النهر « ضد الجزر » (٢) كذا بالأصل والمرجح المعروف أن قيصر الأول أغسطس Augustus

أَكْثَرَ الدُّنْيَا وَصَفَّحَ نَهْرَ رُومِيَةَ بِالصُّفْرِ ، فَأَرَّخَتِ الرُّومُ مِنْ ذٰلِكَ الْعَهْدِ – وَكَانَ مِنْ قَبْلِ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً – أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمُدُنِ الْعَظَمَةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَبُنِيَتْ فِي مُدَّتِهِ قُرْطُبَةُ وَإِشْبِيلِيَةُ وَمَارِدَةُ وَسَرَقُسْطَةُ . وَانْفَرَدَ الْحِجَارِيُّ بِأَنَّ التَّنْبَانَ(١) الْمَذْكُورَ وَجَّهَ أَرْبَعَةً مِنْ أَعْيَانِ مُلُوكِهِ لِلْأَنْدَلُسِ ، فَبَنَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَدِينَةً فِي الْجِهَةِ الَّتِي وَلَّاهُ عَلَيْهَا وَسَمَّاهَا بِاسْمِهِ ، وَأَنَّ هٰذِهِ الْأَسْمَاءَ الْأَرْبَعَةَ كَانَتْ أَسْمَاءً لِأُولٰئِكَ الْمُلُوكِ . وَغَيْرُ الْحِجَارِيِّ – جَعَلَ هٰذِهِ الْمُدُنَ مُشْتَقَّةً مِمَّا تَقْتَضِيهِ أَوْضَاعُهَا كَمَا مَرَّ . وَذَكَرُوا أَنَّهُ قَدْ تَدَاوَلَتْ عَلَى قُرْطُبَةَ وُلَاةُ الرُّومِ الْأَخِيرَةِ الَّذِينَ هُمْ بَنُو عِيصُو بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ – عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – إِلَى أَنِ انْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِيهِمُ الْقُوطُ مِنْ وَلَدِ يَافِثَ الْمُتَغَلِّبُونَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ، إِلَى أَنْ أَخَذَهَا مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ ، وَلَمْ تَكُنْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَرِيرًا لِسَلْطَنَةِ

ولى سنة ٢٧ قبل الميلاد ، والثانى « تبيرياس Tiberuis » تولى الملك سنة ١٤ بعدالميلاد (١) فى بعض المراجع « اكتبيان » بدل « التنبان » وكذا فيما تقدم وهو الظاهر « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْأَنْدَلُسِ بَلْ كُرْسِيًّا لِخَاصٍّ مَمْلَكَتِهَا ، وَسَعِدَتْ فِي ٱلْإِسْلَامِ فَصَارَتْ سَرِيرًا لِلسَّلْطَنَةِ ٱلْعُظْمَى ٱلشَّامِلَةِ ، وَقُطْبًا لِلْخِلَافَةِ ٱلْمَرْوَانِيَّةِ ، وَصَارَتْ إِشْبِيلِيَةُ وَطُلَيْطُلَةُ تَبَعًا لَهَا بَعْدَ مَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِالْعَكْسِ ، وَٱللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَٱلتَّدْبِيرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ .

وَقَالَ صَاحِبُ نَشْقِ ٱلْأَزْهَارِ — عِنْدَ مَا تَعَرَّضَ لِذِكْرِ قُرْطُبَةَ : هِيَ مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ دَارُ خِلَافَةٍ ، وَأَهْلُهَا أَعْيَانُ نَاسٍ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْفَضْلِ ، وَبِهَا جَامِعٌ لَيْسَ فِي ٱلْإِسْلَامِ مِثْلُهُ . ٱنْتَهَى .

***

اضمحلال قرطبة

وَمِنَ ٱلْأَسْبَابِ فِي سَلْبِ مَحَاسِنِ قُرْطُبَةَ عَيْثُ ٱلْبَرْبَرِ بِهَا فِي دُخُولِهِمْ مَعَ سُلَيْمَانَ ٱلْمُسْتَعِينِ ٱلْأُمَوِيِّ حِينَ ٱسْتَوْلَى عَلَى قُرْطُبَةَ فِي دَوْلَتِهِ ٱلَّتِي ٱفْتُتِحَتْ بِالْقَهْرِ وَسَفْكِ ٱلدِّمَاءِ . وَكَانَ مِنْ أُمَرَاءِ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْمُعَاضِدِينَ لِسُلَيْمَانَ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ مِنْ بَنِي عَلِيِّ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ ٱلْحَسَنِ

ٱبْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ـ رَضِيَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ وَجَدُّهُ إِدْرِيسُ هَرَبَ مِنْ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ إِلَى ٱلْبَرْبَرِ فَتَبَرْبَرَ وَلَدُهُ ، وَبَنَى ٱبْنُهُ إِدْرِيسُ مَدِينَةَ فَاسَ ، وَكَانَ ٱلْمُؤَيَّدُ هِشَامٌ يَشْتَغِلُ بِالْمَلَاحِمِ ،(١) وَوَقَفَ عَلَى أَنَّ دَوْلَةَ بَنِي أُمَيَّةَ تَنْقَرِضُ بِالْأَنْدَلُسِ عَلَى يَدِ عَلَوِيٍّ أَوَّلُ ٱسْمِهِ عَيْنٌ ، فَلَمَّا دَخَلَ سُلَيْمَانُ مَعَ ٱلْبَرْبَرِ قُرْطُبَةَ ، وَمَحَوْا كَثِيرًا مِنْ مَحَاسِنِهَا وَمَحَاسِنِ أَهْلِهَا ، كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أُمَرَائِهِمْ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ ، وَبَلَغَ هِشَامًا ٱلْمُؤَيَّدَ وَهُوَ مَحْبُوسٌ خَبَرُهُ وَٱسْمُهُ وَنَسَبُهُ ، فَدَسَّ إِلَيْهِ : إِنَّ ٱلدَّوْلَةَ صَائِرَةٌ إِلَيْكَ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّ خَاطِرِي يُحَدِّثُنِي أَنَّ هٰذَا ٱلرَّجُلَ يَقْتُلُنِي

---

(١) يريد بالملاحم هنا النظر فى حوادث المستقبل ومعرفتها ـ زعموا ـ بطرق مخصوصة وانتحال القضايا الغيبية والاشارة الى الكوائن الآتية ـ وانظر فى مقدمة ابن خلدون فى كتاب طبيعة العمران تعرف رأيه فى الملاحم وفى كتاب الجفر الذى ينسبه بعض الناس الى جعفر الصادق وفيه علم ماسيقع لأهل البيت عامة ولبعض الأشخاص منهم خاصة ، وفيه يقول أبو العلاء المعرى :

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أتاهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى ... أرته كل عامرة وقفر

« المسك » بفتح الميم الجلد والجفر مابلغ أربعة أشهر من أولاد المعز ، وكانوا يكتبون فى الجلود « أحمد يوسف نجاتى »

ـ يَعْنِي سُلَيْمَانَ ـ فَإِنْ فَعَلَ فَخُذْ بِثَأْرِي ، وَكَانَ هٰذَا الْأَمْرُ هُوَ الَّذِي قَوَّى نَفْسَ ابْنِ حَمُّودٍ عَلَى طَلَبِ الْإِمَامَةِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى الْأَخْذِ بِثَأْرِ هِشَامٍ الْمُؤَيَّدِ ، فَكَانَ الْمُؤَيَّدُ أَحَدَ مَنْ أَخَذَ[١] بِثَأْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ .

***

ولاية على ابن حمود

وَتَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ ، وَبُويِعَ بِقُرْطُبَةَ فِي قَصْرِهَا فِي الْيَوْمِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ سُلَيْمَانُ الْمُسْتَعِينُ ، وَأَخَذَ النَّاسَ بِالْإِرْهَابِ وَالسَّطْوَةِ ، وَأَذَلَّ رُؤُوسَ الْبَرْبَرِ ، وَبَرَقَتْ لِلْعَدْلِ فِي أَيَّامِهِ بَارِقَةٌ خُلَّبٌ لَمْ تَكَدْ تَقِدُ[٢] حَتَّى خَبَتْ ، وَجَلَسَ لِلْمَظَالِمِ ، وَقُدِّمَتْ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْبَرْبَرِ فِي أَجْرَامٍ ، فَضَرَبَ رِقَابَهُمْ وَأَهْلُهُمْ وَعَشَائِرُهُمْ يَنْظُرُونَ ، وَخَرَجَ يَوْمًا عَلَى بَابِ عَامِرٍ[٣] ، فَالْتَقَى فَارِسًا مِنَ الْبَرْبَرِ وَأَمَامَهُ حِمْلُ عِنَبٍ ، فَاسْتَوْقَفَهُ وَقَالَ لَهُ : مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ فَقَالَ أَخَذْتُهُ كَمَا يَأْخُذُ النَّاسُ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،

(١) أو « أخذ » بالبناء للمجهول (٢) وقدت النار تقد « كوعد » اتقدت ضد خبت . (٣) هو من أبواب قرطبة المتقدمة

وَوُضِعَ رَأْسُهُ وَسَطَ ٱلْحُمْلِ وَطِيفَ بِهِ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا مَعَ أَهْلِ قُرْطُبَةَ فِي أَحْسَنِ عِشْرَةٍ نَحْوَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ حَتَّى بَلَغَهُ قِيَامُ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ بِالْمُرْتَضَى ٱلْمَرْوَانِيِّ فِي مَشْرِقِ ٱلْأَنْدَلُسِ ، فَتَغَيَّرَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، وَعَزَمَ عَلَى إِخْلَاءِ قُرْطُبَةَ وَإِبَادَةِ أَهْلِهَا ، فَلَا يَعُودُ لِأَئِمَّتِهِمْ بِهَا سُلْطَانٌ آخِرَ ٱلدَّهْرِ ، وَأَغْضَى لِلْبَرْبَرِ عَنْ ظُلْمِهِمْ ، فَعَادَ ٱلْبَلَاءُ إِلَى حَالِهِ ، وَٱنْتَزَعَ أَهْلَ قُرْطُبَةَ ، وَهَدَّمَ ٱلْمَنَازِلَ ، وَٱسْتَهَانَ بِالْأَكَابِرِ ، وَوَضَعَ ٱلْمَغَارِمَ ، وَقَبَضَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَعْيَانِهِمْ وَأَلْزَمَهُمْ بِمَالٍ ، فَلَمَّا غَرِمُوهُ سَرَّحَهُمْ[1] ، فَلَمَّا جِيءَ إِلَيْهِمْ بِدَوَابِّهِمْ لِيَرْكَبُوهَا أَمَرَ مَنْ أَخَذَ ٱلدَّوَابَّ وَتَرَكَهُمْ يَنْزِلُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ ، وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو ٱلْحَزْمِ[2] ٱلَّذِي مَلَكَ قُرْطُبَةَ بَعْدُ وَصَارَتْ دَوْلَتُهُ بِوِرَاثَةِ وَلَدِهِ مَعْدُودَةً فِي دُوَلِ ٱلطَّوَائِفِ ، فَٱنْجَمَعَتْ[3] عَنْ عَلِيٍّ ٱلنُّفُوسُ ، وَتَوَالَى عَلَيْهِ ٱلدُّعَاءُ ، فَقَتَلَهُ صِبْيَانٌ أَغْمَارٌ[4] مِنْ صَقَالِبَةِ بَنِي مَرْوَانَ فِي ٱلْحَمَّامِ ، وَكَانَ قَتْلُهُ غُرَّةَ ذِي ٱلْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَكَانَ ٱلصَّقَالِبَةِ

---

(١) أى أطلقهم (٢) هو جهور بن محمد بن جهور — وتقدمت سيرته (٣) كذا بالأصل يريد انقبضت عنه وانصرفت وانفضت من حوله (٤) جمع غمر أى الجاهل الغر ومن لم يجرب الأمور، وكل من لا غناء عنده ولا رأى له

ثَلَاثَةً فَهَرَبُوا وَاُخْتَفَوْا فِي أَمَاكِنَ يَعْرِفُونَهَا ، وَصَحَّ عِنْدَ اُلنَّاسِ مَوْتُهُ فَفَرِحُوا ، وَكَانَتْ مُدَّتُهُ كَمَا مَرَّ نَحْوَ عَامَيْنِ ، وَحَقَّقَهَا بَعْضٌ فَقَالَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا وَسِتَّةُ أَيَّامٍ .

وَكَانَ اُلنَّاصِرُ عَلِيُّ بْنُ حَمُّودٍ عَلَى عُجْمَتِهِ وَبُعْدِهِ مِنَ اُلْفَضَائِلِ يُصْغِي إِلَى اُلْأَمْدَاحِ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا ، وَيُظْهِرُ فِي ذَلِكَ آثَارَ اُلنَّسَبِ اُلْعَرَبِيِّ وَاُلْكَرَمِ اُلْهَاشِمِيِّ ، وَمِنْ شُعَرَائِهِ اُلْمُخْتَصِّينَ بِهِ اُبْنُ اُلْخَيَّاطِ اُلْقُرْطُبِيُّ (١) ، وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ :

---

(١) كذا بالأصل في غير موضع ، وأنا أراها محرفة عن « ابن الحناط » وهو أبو عبد الله محمد بن سليمان الرعيني البصير من أهل قرطبة ، كان متقدما في البلاغة والأدب وعلوم اللغة شاعرا مفلقا مدح الملوك والرؤساء ونال صلاتهم ، وكان أول ظهوره ونجومه في الدولة الحمودية بقرطبة ، واليهم هاجر وبهم لحق ، واتصل بعلي بن حمود فرفع من ذكره وحماه من أبي الحزم بن جهور لما خاف منه ، وله مع أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد أخبار ومناقضات وكانت بينهما منافسة شريفة أدبية لم تمنع ابن الحناط حين نعي له ابن شهيد سنة ٤٢٦ أن يقول على البديهة :

لما نعى الناعي أبا عامر ... أيقنت أني لست بالصابر

أودى فتى الظرف وترب الندى ... وسيد الأول والآخر

وكان ابن الحناط مع مقدرته الشعرية كاتبا مجيدا ومترسلا ومفتناله الرسالة المهرجانية التي سماها « وشي القلم وحلي الكرم » بعث بها الى الحاجب المظفر

رَاحَتْ تُذَكِّرُ بِالنَّسِيمِ الرَّاحَا
وَطْفَاءُ تَكْسِرُ لِلْجُنُوحِ جَنَاحَا(١)
أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدَتْ
مِنْ بَرْقِهَا كَيْ تَهْتَدِي مِصْبَاحَا

أبي بكر بن الأفطس وهي من الرسائل البديعة ــ ولعلنا نخصه بكلمة وافية ونأتي بشيء من شعره ونثره ان شاء الله ، توفى ابن الخناط سنة ٤٣٧ « أحمد يوسف نجاتي » .

(١) يقال سحابة وطفاء اذا كانت مسترخية الجوانب لكثرة مائها ، أو هي دائمة السح الحثيثة طال مطرها أو قصر ، وسحابة ذات وطف أي قد تدلت ذيولها ، وكذلك ظلام أوطف وظلمة وطفاء اذا كان ملبسا دانيا وأكثر ما يطلق الوطف فى الشعر وهو كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول « والوطف انهمار المطر » والجنوح الميل والانصراف شبه السحابة بطائر وأثبت لها جناحا وساعده على ذلك الوصف بالوطف المشترك بينهما ، فهو يقول ان هذه السحابة مع رقة النسيم ذكرت بالراح وكانوا يستحبون الشرب اذا كانت الطبيعة كذلك حتى قال عضد الدولة ابن بويه من أبيات :

ليس شرب الراح إلا فى المطر وغناء من جوار فى السحر الخ

وعلل ابن الخناط فى البيت الثانى لمع البرق بأنه مصباح أوقدته السحابة لتهدى به الى مسالكها فى ظلمات الليل ــ ولعل ألطف منه قول ابن المعتز

عارض أقبل فى جنح الدجا يتهادى كتهادى ذى الوجى
أتلفت ريح الصبا لؤلؤه فانبرى يوقد عنها سرجا

والشاعر إنما يستمد من بيئته ، ويستملى مما يحيط به ، ويستوحى ما يحسه بمعونة طبعه وقريحته . « أحمد يوسف نجاتي » .

وَعُبَادَةُ بْنُ مَاءِ ٱلسَّمَاءِ(١) وَكَانَ مَعْرُوفاً بِالتَّشَيُّعِ ، وَفِيهِ يَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

أَبُوكُمْ عَلِيٌّ كَانَ بِالشَّرْقِ بَدْءَمَا
وَرِثْتُمْ وَذَا بِالْغَرْبِ أَيْضًا سَمِيُّهُ

فَصَلُّوا عَلَيْهِ أَجْمَعُونَ وَسَلِّمُوا
لَهُ ٱلْأَمْرَ إِذْ وَلَّاهُ فِيكُمْ وَلِيُّهُ

وَمَدَحَهُ ٱبْنُ دَرَّاجٍ ٱلْقَسْطَلِّيُّ(٢) بِقَوْلِهِ :

لَعَلَّكِ يَا شَمْسُ عِنْدَ ٱلْأَصِيلْ
شَجِيتِ لِشَجْوِ ٱلْغَرِيبِ ٱلذَّلِيلْ

فَكُونِى شَفِيعِىَ لِابْنِ ٱلشَّفِيعِ
وَكُونِى رَسُولِىَ لِابْنِ ٱلرَّسُولْ

---

(١) هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء كان من فحول شعراء الأندلس متقدما فيهم مع علم ورواية ومعرفة ودراية، وله كتاب فى أخبار شعراء الأندلس – توفى سنة ٤١٦ (٢) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج القسطلى الشاعر المفلق المجيد الأديب العالم المتفنن كان كاتب المنصور بن أبى عامر وشاعره ، ثم اتصل بابن حمود ومدحه – ولد سنة ٣٤٧ وتوفى سنة ٤٢١ «والقسطلى نسبة الى قسطلة مدينة بالأندلس يقال لها قسطلة دراج » . « أحمد يوسف نجاتى ».

***

اختلاف البربر على الولاة

وَكَانَ أَخُوهُ ٱلْقَاسِمُ بْنُ حَمُّودٍ أَكْبَرَ مِنْهُ بِعَشْرِ سِنِينَ، وَأُمُّهُمَا وَاحِدَةٌ، وَهِيَ عَلَوِيَّةٌ، وَلَمَّا قُتِلَ ٱلنَّاصِرُ كَانَ ٱلْقَاسِمُ وَالِياً عَلَى إِشْبِيلِيَةَ، وَكَانَ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ وَالِياً عَلَى سَبْتَةَ، فَٱخْتَلَفَ أَهْوَاءُ ٱلْبَرْبَرِ، فَمَالَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى ٱلْقَاسِمِ لِكَوْنِهِ غَبِنَ أَوَّلًا وَقُدِّمَ عَلَيْهِ أَخُوهُ ٱلْأَصْغَرُ وَكَوْنِهِ قَرِيباً مِنْ قُرْطُبَةَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَحْيَى ٱلْبَحْرُ، فَلَمَّا وَصَلَتْ رُسُلُهُمْ إِلَى ٱلْقَاسِمِ لَمْ يُظْهِرْ فَرَحًا بِالْإِمَامَةِ، وَخَافَ أَنْ تَكُونَ حِيلَةً مِنْ أَخِيهِ عَلَيْهِ، فَتَقَهْقَرَ إِلَى أَنِ ٱتَّضَحَ لَهُ ٱلْحَقُّ، فَرَكِبَ إِلَى قُرْطُبَةَ وَبُويِعَ فِيهَا بَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ قَتْلِ أَخِيهِ، وَأَحْسَنَ ٱلسِّيرَةَ، وَأَحَسَّ مِنَ ٱلْبَرْبَرِ ٱلْمَيْلَ إِلَى يَحْيَى ٱبْنِ أَخِيهِ عَلِيٍّ صَاحِبِ سَبْتَةَ، فَتَهَالَكَ فِي ٱقْتِنَاءِ ٱلسُّودَانِ وَٱبْتَاعَ مِنْهُمْ كَثِيرًا وَقَوَّدَهُمْ[1] عَلَى أَعْمَالِهِ فَأَنِفَتِ ٱلْبَرْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَٱنْحَرَفُوا عَنْهُ. وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ

(١) جعلهم قوادا لأغراضه السافلة « من القيادة حرفة ذوى النذالة والهمة الساقطة والتي يأنف منها أولو الآباء والحمية كالبربر » «أحمد يوسف نجاتى» .

وَأَرْبَعِمِائَةٍ قَامَ عَلَيْهِ بِشَرْقِ ٱلْأَنْدَلُسِ ٱلْمُرْتَضَى عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ مِنْ أَعْقَابِ ٱلنَّاصِرِ — لِأَنَّ أَهْلَ ٱلْأَنْدَلُسِ صَعُبَ عَلَيْهِمْ مُلْكُ بَنِي حَمُّودٍ ٱلْعَلَوِيِّينَ بِسَبَبِ ٱلْبَرْبَرِ ، فَأَرَادُوا رُجُوعَ ٱلْإِمَامَةِ إِلَى بَنِي مَرْوَانَ — وَٱجْتَمَعَ لَهُ أَكْثَرُ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ ، وَكَانَ مَعَهُ حِينَ أَقْبَلَ لِقُرْطُبَةَ مُنْذِرٌ (١) ٱلتُّجِيبِيُّ صَاحِبُ سَرَقُسْطَةَ وَخَيْرَانُ ٱلْعَامِرِيُّ ٱلصَّقْلَبِيُّ صَاحِبُ ٱلْمَرِيَّةِ ، وَٱنْضَافَ إِلَيْهِمْ جَمْعٌ مِنَ ٱلْفِرَنْجِ ، وَتَأَهَّبَ ٱلْقَاسِمُ وَٱلْبَرَابِرَةُ لِلِقَائِهِمْ ، فَكَانَ مِنَ ٱلِاتِّفَاقِ ٱلْعَجِيبِ أَنْ فَسَدَتْ نِيَّةُ مُنْذِرٍ وَخَيْرَانَ عَلَى ٱلْمُرْتَضَى وَقَالَا : أَرَانَا فِي ٱلْأَوَّلِ وَجْهاً لَيْسَ بِالْوَجْهِ ٱلَّذِي نَرَاهُ حِينَ ٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱلْجَمُّ ٱلْغَفِيرُ ! وَهٰذَا مَا كَرُ غَيْرُ صَافِي ٱلنِّيَّةِ ، فَكَتَبَ خَيْرَانُ إِلَى ٱبْنِ زِيرِي (٢) ٱلصِّنْهَاجِيِّ ٱلْمُتَغَلِّبِ

---

(١) هومنذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم الملقب بالمنصور صاحب سرقسطة والثغر الأعلى توفى سنة ٤١٤ وولى بعده ابنه يحيى وتلقب المظفر ، فتغلب عليه أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى من أهل نسبهم وكان من قبل مستبدا بمدينة تطيلة منذ أول الفتنة، وقتل يحيى المظفر سنة ٤٣١ — وقد تقدم ما كان بعد ذلك « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) هو زاوى بن زيرى بن مناد ، وتقدم الحديث عنه

عَلَى غَرْنَاطَةَ وَهُوَ دَاهِيَــةُ الْبَرْبَرِ، وَضَمِنَ لَهُ أَنَّهُ مَتَى قَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى الْمُرْتَضَى عِنْدَ اجْتِيَازِهِ عَلَيْهِ إِلَى قُرْطُبَةَ خَذَلَ[١] عَنْ نُصْرَتِهِ الْمَوَالِيَ الْعَامِرِيِّينَ أَعْدَاءَ الْمَرْوَانِيِّينَ وَأَصْحَابَ رِيَاسَةِ الثُّغُورِ ، فَأَصْغَى ابْنُ زِيرِى إِلَى ذَلِكَ ، وَكَتَبَ الْمُرْتَضَى إِلَى ابْنِ زِيرِى يَدْعُوهُ لِطَاعَتِهِ ، فَقَلَبَ الْكِتَابَ وَكَتَبَ فِي ظَهْرِهِ «قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ» السُّورَةَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كِتَاباً ثَانِياً يَقُولُ فِيهِ : جِئْتُكَ بِجَمِيعِ أَبْطَالِ الْأَنْدَلُسِ وَبِالْفِرَنْجِ فَمَاذَا تَصْنَعُ ؟ وَخَتَمَ الْكِتَابَ بِهَذَا الْبَيْتِ :

إِنْ كُنْتَ مِنَّا أَبْشِرْ[٢] بِخَيْرٍ أَوْ لَا فَأَيْقِنْ بِكُلِّ شَرٍّ

فَأَمَرَ الْكَاتِبَ أَنْ يُحَوِّلَ الْكِتَابَ وَيَكْتُبَ فِي ظَهْرِهِ «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» السُّورَةَ ، فَازْدَادَ حَنَقُهُ وَحَمَلَهُ الْغَيْظُ إِلَى أَنْ تَرَكَ السَّيْرَ إِلَى حَضْرَةِ الْإِمَامَةِ قُرْطُبَةَ ، وَعَدَلَ إِلَى مُحَارَبَتِهِ وَهُوَ يَرَى أَنْ يَصْطَلِمَهُ[٣] فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، وَدَامَتِ الْحَرْبُ أَيَّامًا ، وَأَرْسَلَ ابْنُ زِيرِى إِلَى خَيْرَانَ يَسْتَنْجِزُهُ وَعْدَهُ

(١) أو « خزل » (٢) فى الأصل «أشر» وهو تحريف (٣) أى يستأصله ، واصطلم القوم أبيدوا من أصلهم

فَأَجَابَهُ: إِنَّمَا تَوَقَّفْتُ حَتَّى تَرَى مِقْدَارَ حَرْبِنَا وَصَبْرِنَا وَلَوْ كُنَّا بِبَوَاطِنِنَا مَعَكَ ، فَأَثْبِتْ جَمْعَكَ لَنَا وَنَحْنُ نَنْهَزِمُ عَنْهُ وَنَخْذُلُهُ فِي غَدٍ . وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ رَأَى أَعْلَامَ خَيْرَانَ وَأَعْلَامَ مُنْذِرٍ وَأَصْحَابِ الثُّغُورِ قَدْ وَلَّتْ عَنْهُ ، فَسُقِطَ[١] فِي يَدِ الْمُرْتَضَى وَثَبَتَ حَتَّى كَادُوا يَأْخُذُونَهُ ، وَاسْتَحَرَّ[٢] الْقَتْلُ، وَصُرِعَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا خَافَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ وَلَّى، فَوَضَعَ عَلَيْهِ خَيْرَانُ عُيُونًا فَلَحِقُوهُ بِقُرْبِ وَادِي آشَ وَقَدْ جَاوَزَ بِلَادَ الْبَرْبَرِ وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ، فَهَجَمُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ وَجَاءُوا بِرَأْسِهِ إِلَى الْمَرِيَّةِ وَقَدْ حَلَّ بِهَا خَيْرَانُ وَمُنْذِرٌ ، فَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّهُمَا اصْطَبَحَا[٣] عَلَيْهِ سُرُورًا بِهَلَاكِهِ .
وَبَعْدَ هٰذِهِ الْوَاقِعَةِ أَذْعَنَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ لِلْبَرَابِرَةِ، وَلَمْ يَجْتَمِعْ لَهُمْ بَعْدَهَا جَمْعٌ يَنْهَضُونَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، وَضَرَبَ الْقَاسِمُ ابْنُ حَمُّودٍ سُرَادِقَ الْمُرْتَضَى عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ ، وَغَشِيَهُ خَلْقٌ

---

(١) سقط فى يده : ندم وتحير، وتحسر على مافرط منه (٢) أى اشتد وعظم
(٣) أى شربا الصبوح ، وهو شرب الصباح

مِنَ ٱلنَّظَّارَةِ وَقُلُوبُهُمْ تَتَقَطَّعُ حَسَرَاتٍ ، وَأَنْشَدَ عُبَادَةُ بْنُ مَاءِ ٱلسَّمَاءِ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا :

لَكَ ٱلْخَيْرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِهِ
وَأَصْبَحَ أَمْرُ ٱللهِ فِي ٱبْنِ رَسُولِهِ

***

القاسم بن حمود

وَتَمَكَّنَتْ أُمُورُ ٱلْقَاسِمِ ، وَوَلَّى وَعَزَلَ ، وَقَالَ وَفَعَلَ إِلَى أَنْ كَشَفَ وَجْهَهُ فِي خَلْعِ طَاعَتِهِ ٱبْنُ أَخِيهِ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ، وَكَتَبَ مِنْ سَبْتَةَ إِلَى أَكَابِرِ ٱلْبَرَابِرِ بِقُرْطُبَةَ : إِنَّ عَمِّي أَخَذَ مِيرَاثِي مِنْ أَبِي ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدَّمَ فِي وِلَايَاتِكُمْ ٱلَّتِي أَخَذْتُمُوهَا بِسُيُوفِكُمُ ٱلْعَبِيدَ وَٱلسُّودَانَ ، وَأَنَا أَطْلُبُ مِيرَاثِي وَأُوَلِّيكُمْ مَنَاصِبَكُمْ ، وَأَجْعَلُ ٱلْعَبِيدَ وَٱلسُّودَانَ كَمَا هُمْ عِنْدَ ٱلنَّاسِ . فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ ، فَجَمَعَ مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْمَرَاكِبِ ، وَأَعَانَهُ أَخُوهُ إِدْرِيسُ صَاحِبُ مَالَقَةَ ، فَجَازَ ٱلْبَحْرَ بِجَمْعٍ وَافِرٍ ، وَحَصَلَ بِمَالَقَةَ مَعَ أَخِيهِ ، وَكَتَبَ لَهُ خَيْرَانُ صَاحِبُ ٱلْمَرِيَّةِ مُذَكِّرًا لَهُ بِمَا أَسْلَفَهُ فِي إِعَانَةِ أَبِيهِ وَأَكَّدَ ٱلْمَوَدَّةَ ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ إِدْرِيسُ : إِنَّ خَيْرَانَ رَجُلٌ

خَدَّاعٌ ، فَقَالَ يَحْيَى : وَنَحْنُ مُنْخَدِعُونَ فِيمَا لَا يَضُرُّنَا .

***

مبايعة يحيى

ثُمَّ إِنَّ يَحْيَى أَقْبَلَ إِلَى قُرْطُبَةَ وَاثِقاً بِأَنَّ ٱلْبَرَابِرَ مَعَهُ ، فَفَرَّ ٱلْقَاسِمُ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ فِي خَمْسَةِ فُرْسَانٍ مِنْ خَوَاصِّهِ لَيْلَةَ ٱلسَّبْتِ فِي ٱلثَّامِنِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَحَلَّ يَحْيَى بِقُرْطُبَةَ ، فَبَايَعَهُ ٱلْبَرَابِرُ وَٱلسُّودَانُ وَأَهْلُ ٱلْبَلَدِ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ مُسْتَهَلَّ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ وَكَانَ يَحْيَى مِنَ ٱلنُّجَبَاءِ ، وَأُمُّهُ فَاطِمِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ آفَتُهُ ٱلْعُجْبَ وَٱصْطِنَاعَ ٱلسِّفْلَةِ ، وَٱشْتَطَّ[1] أَكَابِرُ ٱلْبَرَابِرِ عَلَيْهِ وَطَلَبُوا مَا وَعَدَهُمْ مِنْ إِسْقَاطِ مَرَاتِبِ ٱلسُّودَانِ ، فَبَذَلَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلَمْ يَقْنَعُوا مِنْهُ ، وَصَارُوا يَفْعَلُونَ مَعَهُ مَا يَخْرِقُ ٱلْهَيْبَةَ وَيُفْرِغُ بَيْتَ ٱلْمَالِ ، وَفَرَّ ٱلسُّودَانُ إِلَى عَمِّهِ بِإِشْبِيلِيَةَ وَمِنَ ٱلْبَرَابِرِ وَمِنْ جُنْدِ ٱلْأَنْدَلُسِ مَنِ ٱحْتَجَبَ عَنْهُمْ يَحْيَى وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمِلْ إِلَيْهِ مُلُوكُ ٱلطَّوَائِفِ ، وَبَقِيَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ عَلَى ٱلْخُطْبَةِ لِعَمِّهِ ٱلْقَاسِمِ إِلَى أَنِ ٱخْتَلَّتِ ٱلْحَالُ بِحَضْرَةِ قُرْطُبَةَ ، وَأَيْقَنَ يَحْيَى أَنَّهُ مَتَى أَقَامَ بِهَا قُبِضَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ

(١) أى تجاوزوا الحد فى مطالبهم

قَدْ وَلَّى عَلَى سَبْتَةَ أَخَاهُ إِدْرِيسَ ، وَبَلَغَهُ أَنَّ أَهْلَ مَالَقَةَ خَاطَبُوا خَيْرَانَ وَكَاتَبُوهُ ، فَطَمِعَ خَيْرَانُ فِيهَا ، وَفَرَّ يَحْيَى فِي خَوَاصِّهِ تَحْتَ اللَّيْلِ إِلَى مَالَقَةَ ، وَلَمَّا بَلَغَ الْقَاسِمَ فِرَارُهُ رَكِبَ مِنْ إِشْبِيلِيَةَ إِلَى قُرْطُبَةَ ، فَخُطِبَ لَهُ بِهَا يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَلَمْ تَصْلُحِ الْحَالُ لِلْقَاسِمِ مُنْذُ وَصَلَ إِلَى الْحَضْرَةِ ، وَوَقَعَ الِاخْتِلَافُ ، وَكَانَ هَوَى السُّودَانِ مَعَهُ ، وَهَوَى كَثِيرٍ مِنَ الْبَرَابِرَةِ مَعَ يَحْيَى ، وَهَوَى أَهْلِ قُرْطُبَةَ مَعَ قَائِمٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ يُشِيعُونَ ذِكْرَهُ وَلَا يَظْهَرُ ، وَكَثُرَ الْإِرْجَافُ[1] بِذَلِكَ وَوَقَعَ الطَّلَبُ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَدَخَلُوا فِي أَغْمَارِ[2] النَّاسِ وَأَخْفَوْا زِيَّهُمْ . ثُمَّ إِنَّ الْخِلَافَ وَقَعَ بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَأَهْلِ قُرْطُبَةَ ، وَتَكَاثَرَ الْبَلَدِيُّونَ وَأَخْرَجُوا الْقَاسِمَ

---

(١) أرجف القوم اذا خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها من الأحاديث السيئة ، ومنه قوله تعالى : « والمرجفون فى المدينة » وهم الذين يلفقون الأخبار الكاذبة التى قد يكون معها اضطراب الناس وفتنتهم — وقال الراغب : الارجاف إيقاع الرجفة إما بالقول وإما بالفعل .

(٢) الغمر من الناس جماعتهم ولفيفهم وكثرتهم وزحمتهم

وَبَرَابِرَتَهُ، فَضَرَبَ خَيْمَةً بِغَرْبِيِّهَا وَقَاتَلَهُمْ مُدَّةَ خَمْسِينَ يَوْمًا قِتَالًا شَدِيدًا ، وَبَنَى الْقُرْطُبِيُّونَ أَبْوَابَ مَدِينَتِهِمْ ، وَقَاتَلُوا الْقَاسِمَ مِنَ الْأَسْوَارِ إِلَى أَنْ طَالَ عَلَيْهِمُ الْحِصَارُ ، فَهَدَمُوا بَابًا مِنَ الْأَبْوَابِ وَخَرَجُوا خَرْجَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَصَبَرُوا فَمَنَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى الظَّفَرَ ، وَفَرَّ السُّودَانُ مَعَ الْقَاسِمِ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ ، وَفَرَّ الْبَرَابِرَةُ إِلَى يَحْيَى وَهُوَ بِمَالَقَةَ . وَكَانَ فِرَارُ الْقَاسِمِ مِنْ ظَاهِرِ قُرْطُبَةَ يَوْمَ الْخَمِيسِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ

***

فرار القاسم

وَكَانَ ابْنُهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ وَالِيًا عَلَى إِشْبِيلِيَةَ ، وَثِقَتُهُ الْمُدَبِّرُ لِأَمْرِهِ مُحَمَّدُ بْنُ زِيرِي مِنْ أَكَابِرِ الْبَرَابِرَةِ ، وَقَاضِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ[1] فَعَمِلَ الْقَاضِي لِنَفْسِهِ - وَهُوَ جَدُّ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ - وَأَطْمَعَ ابْنَ زِيرِي فِي التَّمَلُّكِ ، فَأَغْلَقَ الْأَبْوَابَ فِي وَجْهِ مُصْطَنِعِهِ وَحَارَبَهُ ، فَقُتِلَ مِنَ الْبَرَابِرِ وَالسُّودَانِ خَلْقٌ كَثِيرٌ

(١) هو ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عباد صاحب إشبيلية تغلب عليها أيام الفتن فساسها وانقادت له ، كان له في العلم والأدب باع ، ولذوي المعارف عنده سبق وارتفاع ، وكان أديبا بليغا ناظما ناثرا توفي حوالى سنة ٤٣٠

وَٱبْنُ عَبَّادٍ يَضْحَكُ عَلَى ٱلْجَمِيعِ ، فَيَئِسَ ٱلْقَاسِمُ وَقَنِعَ أَنْ يُخْرِجُوا إِلَيْهِ ٱبْنَهُ[1] وَأَصْحَابَهُ وَيَسِيرَ عَنْهُمْ ، فَأَخْرَجُوهُمْ إِلَيْهِ فَسَارَ بِهِمْ إِلَى شَرِيشَ ، وَعِنْدَ مَا ٱسْتَقَرَّ بِهَا وَصَلَ إِلَيْهِ يَحْيَى ٱبْنُ أَخِيهِ مِنْ مَالَقَةَ وَمَعَهُ جَمْعٌ عَظِيمٌ ، وَحَاصَرَهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ عِشْرِينَ يَوْمًا كَانَ فِيهَا حُرُوبٌ صِعَابٌ ، وَقُتِلَ مِنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَلْقٌ كَثِيرٌ .

***

أسر يحيي وقتله

وَأَجْلَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ قَهْرِ يَحْيَى لِعَمِّهِ وَإِسْلَامِ[2] أَهْلِ شَرِيشَ لَهُ ، وَفَرَّ سُودَانُهُ ، وَحَصَلَ ٱلْقَاسِمُ وَٱبْنُهُ فِي يَدِ يَحْيَى — وَكَانَ قَدْ أَقْسَمَ أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ فِي يَدِهِ لَيَقْتُلَنَّهُ وَلَا يَتْرُكُهُ حَتَّى يَلِيَ ٱلْإِمَامَةَ بِقُرْطُبَةَ مَرَّةً ثَالِثَةً — فَرَأَى ٱلتَّرَبُّصَ[3] فِي قَتْلِهِ حَتَّى يَرَى رَأْيَهُ فِيهِ ، فَحَدَّثَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ حَمَلَهُ بِقَيْدٍ إِلَى مَالَقَةَ وَحَبَسَهُ عِنْدَهُ ، وَكَانَ كُلَّمَا سَكِرَ وَأَرَادَ قَتْلَهُ رَغَّبَهُ نُدَمَاؤُهُ فِي ٱلْإِبْقَاءِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى ٱلْخَلَاصِ ، وَكَانَ كُلَّمَا نَامَ رَأَى وَالِدَهُ

(١) أظنها محرفة عن ابنيه — وهما محمد والحسن ابنا القاسم بن حمود
(٢) أي خذلان (٣) أي التمهل والانتظار

عَلِيًّا فِى ٱلنَّوْمِ يَنْهَاهُ عَنْ قَتْلِهِ وَيَقُولُ لَهُ : أَخِى أَكْبَرُ مِنِّى وَكَانَ مُحْسِناً إِلَىَّ فِى صِغَرِى وَمُسَلِّمًا إِلَىَّ عِنْدَ إِمَارَتِى أَللّٰهَ ٱللّٰهَ فِيهِ ، وَٱمْتَدَّتِ ٱلْحَالُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ خَنْقًا بَعْدَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ حِينِ ٱلْقَبْضِ عَلَيْهِ - لأَنَّهُ قَدْ كَانَ حَبَسَهُ فِى حِصْنٍ مِنْ حُصُونِ مَالَقَةَ فَنُمِىَ[1] إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ تَحَدَّثَ مَعَ أَهْلِ ٱلْحِصْنِ فِى ٱلْقِيَامِ وَٱلْعِصْيَانِ ، فَقَالَ أَوَ بَقِىَ فِى رَأْسِهِ حَدِيثٌ بَعْدَ هَذَا ٱلْعُمُرِ ؟ فَقَتَلَهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ ، وَبَقِىَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ بَعْدَ فِرَارِ ٱلْقَاسِمِ عَنْهَا نَيِّفًا عَنْ عِشْرِينَ يَرَوْنَ رَأْيَهُمْ فِيمَنْ يُبَايِعُونَهُ بِالْإِمَامَةِ .

***

مبايعة المستظهر

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلثُّلَاثَاءِ نِصْفُ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أُحْضِرَ ٱلْمُسْتَظْهِرُ وَسُلَيْمَانُ أَبْنُ ٱلْمُرْتَضَى وَأُمَوِىٌّ آخَرُ[2] مَعَهُ فَبَايَعَا ٱلْمُسْتَظْهِرَ وَقَبَّلَا

(١) أى وصل إليه و بلغه ونقل إليه (٢) هو محمد بن عبدالرحمن بن هشام ابن سليمان القائم على المهدى بن الناصر - والمستظهر هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر أخو المهدى المذكور « ولد سنة ٣٩٢ و ٤٠٠ أم ولد اسمها غانية » « أحمد يوسف نجاتى »

يَدَهُ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ كُتِبَ عَقْدُ ٱلْبَيْعَةِ بِاسْمِ سُلَيْمَانَ بْنِ ٱلْمُرْتَضَى عَلَى مَا ٱرْتَضَاهُ ٱلْأَمَاثِلُ(١) ، فَبُشِرَ(٢) ٱسْمُهُ وَكُتِبَ ٱسْمُ ٱلْمُسْتَظْهِرِ ، وَرَكِبَ إِلَى ٱلْقَصْرِ ، وَحَمَلَ مَعَهُ ٱبْنَيْ عَمِّهِ ٱلْمَذْكُورَيْنِ فَحَبَسَهُمَا ، وَكَانَ قَدْ رَفَعَ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْأَتْبَاعِ ذَهَبَ بِهِمُ ٱلْعُجْبُ كُلَّ مَذْهَبٍ كَأَبِي عَامِرِ بْنِ شُهَيْدٍ(٣) ٱلْمُنْهَمِكِ فِي بِطَالَتِهِ(٤) ، وَأَبِي مُحَمَّدِ بْنِ حَزْمٍ(٥) ٱلْمَشْهُورِ بِالرَّدِّ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ فِي مَقَالَتِهِ ، وَٱبْنِ عَمِّهِ عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ بْنِ حَزْمٍ(٦) ٱلْغَزِلِ ٱلْمُتْرَفِ فِي حَالَتِهِ ، فَأَحْقَدَ بِذَلِكَ مَشَايِخَ

(١) جمع الأمثل أى الأفضل والأشرف وذو العقل ، وفى الحديث : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، أى الأشرف فالأشرف والأعلى فالأعلى فى الرتبة والمنزلة (٢) أى محى وأزيل ـ والبشر والابشار القشر ، يقال بشر الجلد إذا قشر بشرته أو أخذ باطنه بشفرة .

(٣) أحمد بن عبد الملك بن شهيد تقدمت ترجمته (٤) البطالة اتباع اللهو والجهالة ، والاشتغال عما يعود بنفع دنيوى أو أخروى ، و بطل فى حديثه بطالة إذا هزل وكان بطالا (٥) على بن أحمد وتقدمت ترجمته (٦) هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم الوزير الكاتب من المتقدمين فى الآداب والشعر والبلاغة ، ومن شعره :

لما رأيت الهلال منطويا ... فى غرة الفجر قارن الزهره
شبهته والعيان يشهد لى ... بصولجان أو فى لضرب كره

ومن غزله :

ٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْأَكَابِرَ ، وَبَادَرَ ٱلْمُسْتَظْهِرُ بِاصْطِنَاعِ ٱلْبَرَابِرِ
وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُمْ ، وَأَحْسَنَ مَأْوَاهُمْ ، وَٱشْتَغَلَ مَعَ ٱبْنِ شُهَيْدٍ
وَٱبْنَيْ حَزْمٍ بِالْمُبَاحَثَةِ فِي ٱلْآدَابِ ، وَنَظْمِ ٱلشِّعْرِ وَٱلتَّمَسُّكِ
بِتِلْكَ ٱلْأَهْدَابِ ، وَٱلنَّاسُ فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ أَجْهَلُ مَا يَكُونُ
وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّرِّ فِي ٱلسُّجُونِ ، يَتَمَنَّى أَلَّا
يَخْرُجَ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ ، فَأَخْرَجَ مِنْهُمْ شَخْصًا يُقَالُ لَهُ أَبُو عِمْرَانَ
وَقَدْ كَانَ أَشَارَ بَعْضُ ٱلْوُزَرَاءِ عَلَيْهِ بِعَدَمِ إِخْرَاجِهِ فَأَخْرَجَهُ
وَخَالَفَهُ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَقْبَلِ ٱلنَّصِيحَةَ ، وَفَعَلَ مَا أَدَّاهُ إِلَى
ٱلْفَضِيحَةِ ، فَسَعَى ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ ٱلْحُبُوسِ ،
عَلَى إِفْسَادِ دَوْلَتِهِ وَإِبْدَالِ فَرَحِهِ بِالْبُوسِ ، لَمَّا ٱشْتَغَلَ عَنْهُمْ
بِالْأُدَبَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ حَسْبَمَا ٱقْتَضَاهُ رَأْيُهُ ٱلْمَعْكُوسُ ، فَسَعَوْا

ظعنت وفي أحداجهامن شكلها عين فضحن بحسنهن العينا
ضرن البدور بظل جثل فاحم وغرسن في كثبانهن غصونا
ماأنصفت في جنب توضح اذقرت
ضيف الوداد بلابلا وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده اذ لم يجد بالرقتين قطينا
توفي بعسكر ابن ذي النون صاحب طليطلة سنة ٤٣٨ « أحمد يوسف نجاتي »

فِي خَلْعِهِ مَعَ ٱلْبَرَابِرِ ، وَقُتِلَ فِي ذِي ٱلْقَعْدَةِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ٱلَّتِي بُويِعَ فِيهَا وَصَارَ كَأَمْسِ ٱلدَّابِرِ ، بَعْدَ سَبْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ يَوْمَ بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ ، وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَمْرًا فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ خِلَافَهُ ، وَعُمْرُهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، كَأَنَّهَا سِنَةٌ . وَمِنْ شِعْرِ ٱلْمُسْتَظْهِرِ ٱلْمَذْكُورِ ، وَهُوَ مِنَ ٱلْقَرِيضِ ٱلْمَمْدُوحِ صَاحِبُهُ بِالْبَلَاغَةِ ٱلْمَشْكُورِ :

طَالَ عُمْرُ ٱللَّيْلِ عِنْدِي ... مُذْ تَوَلَّعْتَ بِصَدِّي

يَا غَزَالًا نَقَضَ ٱلْعَهْـ ... ـدَ وَلَمْ يُوفِ بِوَعْدِي

أَنَسِيتَ ٱلْعَهْدَ إِذْ بِتْـ ... ـنَا عَلَى مَفْرَشِ وَرْدِ

وَٱعْتَنَقْنَا فِي وِشَاحٍ ... وَٱنْتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ

وَنُجُومُ ٱللَّيْلِ تَسْرِي ... ذَهَبًا فِي لَازَوَرْدِ

وَكَتَبَ إِلَيْهِ شَاعِرٌ فِي طِرْسٍ مَكْشُوطٍ[1] :

ٱلطِّرْسُ مَبْشُورٌ وَفِيهِ بِشَارَةٌ ... بِبَقَا ٱلْإِمَامِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْمُسْتَظْهِرِ

مَلِكٌ أَعَادَ ٱلْعَيْشَ غَضًّا[2] مُلْكُهُ ... وَكَذَا يَكُونُ بِهِ طِوَالَ ٱلْأَعْصُرِ

---

(١) كتب البيت الأول في الأصل منثور النظام ، محرف الكلام ، فأعيد الى نظامه — وكم كان في الكتاب من تصحيف وتحريف وسقط ! .

(٢) أي طريا ناضرا . « أحمد يوسف نجاتي »

فَأَجْزَلَ صِلَتَهُ، وَكَتَبَ فِي ظَهْرِ الْوَرَقَةِ[1]:

قَبِلْنَا الْعُذْرَ فِي بَشْرِ الْكِتَابِ

لِمَا أَحْكَمْتَ فِي فَصْلِ الْخِطَابِ

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي الْبَابِ الثَّالِثِ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَمَا حَصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقُرْطُبَةَ، إِلَى أَنْ تَوَلَّى الْأَمْرَ ابْنُ جَهْوَرٍ فِي صُورَةِ الْوِزَارَةِ، ثُمَّ ابْنُهُ إِلَى أَنْ أَخَذَ قُرْطُبَةَ مِنْهُ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ حَسْبَمَا ذُكِرَ فِي أَخْبَارِهِ. ثُمَّ آلَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اسْتِيلَاءِ مُلُوكِ الْعُدْوَةِ مِنَ الْمُلَثَّمِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ عَلَى قُرْطُبَةَ، إِلَى أَنْ تَسَلَّمَهَا النَّصَارَى ـ أَعَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى ـ لِلْإِسْلَامِ كَمَا يُذْكَرُ فِي الْبَابِ الثَّامِنِ. وَقَالَ صَاحِبُ مَنَاهِجِ الْفِكَرِ فِي ذِكْرِ قُرْطُبَةَ مَا مُلَخَّصُهُ: فَأَمَّا مَا اشْتَمَلَ

(١) ومن شعر المستظهر من قصيدة قالها أيام خطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين:

حمامة بنت العبشميين رفرفت	فطرت اليهم من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا	ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا
واني لطعان اذا الخيل أقبلت	جوانبها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي	وجاعل وفرى عند سائله وقرا

عَلَيْهِ غَرْبُ ٱلْجَزِيرَةِ ، مِنَ ٱلْبِلَادِ ٱلْخَطِيرَةِ ، فَمِنْهَا قُرْطُبَةُ
وَكَانَتْ مَقَرَّ ٱلْمُلْكِ ، وَدَارَ ٱلْإِمَارَةِ ، وَأُمَّ مَا عَدَاهَا مِنَ ٱلْبِلَادِ
مُنْذُ ٱفْتَتَحَهَا ٱلْمُسْلِمُونَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ زَمَنَ ٱلْوَلِيدِ
ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ إِلَى أَنْ خَرَجَتْ عَنْ أَيْدِيهِمْ ، وَتَنَقَّلَتْ فِي
أَيْدِي مُلُوكِ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى ٱلنَّاصِرِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ
فَبَنَى فِي تِجَاهِهَا مَدِينَةً سَمَّاهَا ٱلزَّهْرَاءَ يَجْرِي بَيْنَهُمَا نَهْرٌ
عَظِيمٌ . ٱنْتَهَى .

***

وصف الشعراء لقصور قرطبة

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْمَبَانِي دَالَّةٌ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ بَانِيهَا ، كَمَا
ذَكَرْنَاهُ فِي كَلَامِ ٱلنَّاصِرِ ٱلَّذِي طَابَتْ لَهُ مِنَ ٱلزَّهْرَاءِ
مَجَانِيهَا ، وَلَمْ يَزَلِ ٱلْبُلَغَاءُ يَصِفُونَ ٱلْمَبَانِيَ ، بِأَحْسَنِ ٱلْأَلْفَاظِ
وَٱلْمَعَانِي ، وَرَأَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ هُنَا بَعْضَ ذَلِكَ ، زِيَادَةً فِي
تَوْسِيعِ ٱلْمَسَالِكِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصَّقَلِّيِّ[1]
فِي دَارٍ بَنَاهَا ٱلْمُعْتَمِدُ عَلَى ٱللهِ :

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي السرقوسي الشاعر المشهور . قال ابن بسام في حقه : هو شاعر ماهر ، يقرطس أغراض المعاني البديعة ، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف في التشبيه المصيب ، ويغوص في بحر الكلم على در المعنى الغريب الخ دخل الأندلس

وَيَا حَبَّـذَا دَارٌ قَضَى ٱللهُ أَنَّهَا
يُجَدِّدُ فِيهَا كُلُّ عِزٍّ وَلَا يَبْلَى
مُقَدَّسَةٌ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَلِيمَهُ
مَشَى قَدَمًا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ ٱلنَّعْلَا(١)
وَمَا هِيَ إِلَّا خِطَّةُ ٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي
يَحُطُّ إِلَيْهِ كُلُّ ذِي أَمَلٍ رِجْلَا(٢)
إِذَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا خِلْتَ أَنَّهَا
تَقُولُ بِتَرْحِيبٍ لِدَاخِلِهَا: أَهْلَا
وَقَدْ نَقَلَتْ صُنَّاعُهَا مِنْ صِفَاتِهِ
إِلَيْهَا أَفَانِينًا(٣) فَأَحْسَنَتِ ٱلنَّقْلَا

سنة ٤٧١ ومدح المعتمد بن عباد فأحسن اليه وأجزل عطاياه ـ وتوفى سنة ٥٢٩ بجزيرة ميورقة « وانتزع الفرنج جزيرة صقلية من المسلمين سنة ٤٦٤ » وهذه الأبيات من قصيدة له عدتها ٥٧ بيتا مطلعها :

أعمر الهوى كم ذا تقطعني عذلا قتلت الهوى علما أتقتلني جهلا ؟

والبيت الأول من القطعة التي هنا يروى :

وياحبذا دار يد الله مسحت عليها بتجديد البقاء فما تبلى

(١) يشير الى قوله تعالى: «فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى» (٢) ويروى : يحط لديه كل ذي أمل رحلا ، وهو ألطف وأبلغ « أحمد يوسف نجاتي »

(٣) الأفنون : الفن والنوع من الشيء والضرب منه

فَمِنْ صَدْرِهِ رُحْبًا ، وَمِنْ نُورِهِ سَنًى

وَمِنْ صِيتِهِ فَرْعًا ، وَمِنْ حِلْمِهِ أَصْلَا (١)

فَأَعْلَتْ بِهِ فِي رُتْبَةِ ٱلْمُلْكِ نَادِيًا

وَقَلَّ لَهُ فَوْقَ ٱلسَّمَا كَيْفَ أَنْ يُعْلَى

نَسِيتُ بِهِ إِيوَانَ كِسْرَى لِأَنَّنِي

أَرَاهُ لَهُ مَوْلًى مِنَ ٱلْحُسْنِ لَا مِثْلَا

كَأَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ لَمْ تُبِحْ

مَخَافَتُهُ لِلجِنِّ فِي صُنْعِهِ مَهْلًا (٢)

تَرَى ٱلشَّمْسَ فِيهِ لِيقَةً (٣) تَسْتَمِدُّهَا

أَكُفٌّ أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شَكْلَا

---

(١) الرحب : السعة ، والسنى الضوء ، وفرع كل شيء أعلاه وأرفعه . ويروى « ومن وجهه سنا » (٢) يريد أنه لاتقان بنائه واحكام صنعه كأن الجن صنعته لسليمان ، وحملتهم هيبته أن يتأنقوا فى بنائه ويستجيدوا صناعته ، ولم يستبيحوا لأنفسهم فيه امهالا ولا اهمالا — ويروى « شيده » (٣) لاق الدواة يليقها جعل لها ليقة أو أصلح مدادها . والليقة الاسم من ذلك ، وليقة الدواة : ما اجتمع فى رقبتها من مدادها . والليقة أيضا الطينة اللزجة تلين باليد ثم يرمى بها الحائط فتلزق به — واستمد اذا طلب المدد ، وأخذ مدة من الدواة « والمدة » اسم مااستمددت من المداد على القلم ، وسمى الحبر مدادا لامداده الكاتب — يصف الشاعر النقوش والصور الذهبية الرائعة « أحمد يوسف نجاتى »

لَهَا حَرَكَاتٌ أُودِعَتْ فِي سُكُونِهَا
فَمَا تَبعَتْ فِي نَقْلِهِنَّ يَدٌ رِجْلَا[١]

وَلَمَّا عَشِينَا مِنْ تَوَقُّدِ نُورِهَا
تَخِذْنَا سَنَاهُ فِي نَوَاظِرِنَا كُحْلَا[٢]

وَقَالَ مِنْ أُخْرَى يَصِفُ دَارًا بَنَاهَا الْمَنْصُورُ بْنُ أَعْلَى النَّاسِ بِبِجَايَةَ[٣] :

أَعْمِرْ بِقَصْرِ الْمُلْكِ نَادِيكَ الَّذِي
أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيْتُهُ مَعْمُورَا

قَصْرٌ لَوَ انَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بِنُورِهِ
أَعْمَى لَعَادَ إِلَى الْمَقَامِ بَصِيرَا

---

(١) يريد أن هذه الصور المختلفة التي تمثل أنواع الحيوان يخيل لرائيها من اتقان صنعها أنها حية متحركة فكأن سكونها متحرك وان لم تنقل لمسير رجلا أو يدا (٢) بعد هذا البيت بيت هو ختام القصيدة :

فيادار أغضى الدهر عنك وأكثرت أسودك نسلا فيه تحتبك النسلا

(٣) بجاية : مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب أول من اختطها الناصر بن أعلى الناس بن حماد بن زيرى بن مناد بن بلكين فى حدود سنة ٤٥٧ وتسمى الناصرية وكانت قاعدة بنى حماد . « أحمد يوسف نجاتى »

وَاشْتُقَّ مِنْ مَعْنَى الْجِنَانِ نَسِيمُهُ
فَيَكَادُ يُحْدِثُ بِالْعِظَامِ نُشُورَا[1]

نُسِيَ الصَّبِيحُ مَعَ الْمَلِيحِ بِذِكْرِهِ
• وَسَمَا فَفَاقَ خَوَرْنَقًا وَسَدِيرَا[2]

لَوْ أَنَّ بِالْإِيوَانِ قُوبِلَ حُسْنُهُ
مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكُورَا

---

(١) النشر والنشور والانشار احياء الميت ، وفى القرآن الكريم : «وانظر الى العظام كيف ننشزها » : « قرئ بالزاى والراء » ويروى البيت :

* واشتق من ماء الحياة *

كما أن البيت الأول يروى: واعمر بقصر الملك ناديك الخ

(٢) الصبيح والمليح من قصور بنى العباس ، وفيهما يقول البحترى من قصيدة فى مدح المتوكل :

قد صفا جانب الهواء ولذت	رقة الماء فى مزاج المدام
واستتم الفصيح فى خير وقت	فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يسـ	طيع حياه معلنا بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا	ك فمن ضاحك ومن بسام
كالمحبين لو أطاقا التقاء	أفرطا فى العناق والالتزام

والخورنق : قصر كان بظاهر الحيرة ،واختلفوا فى بنائه : فقيل ان الذى أمر ببنائه هو الملك النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن نصر من يعرب بن قحطان بناه له بناء رومى حاذق يسمى سنمار .والسدير قصر قريب من الخورنق كان النعمان بن الأكبر قد اتخذه لبعض ملوك العجم وقد وصف الشعراء من قديم هذين القصرين وأكثروا وأحسنوا .

« أحمد يوسف نجاتى » .

أَعَيْتَ مَصَانِعُهُ عَلَى اُلْفُرْسِ اُلْأُلَى
رَفَعُوا اُلْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوا اُلتَّدْبِيرا

ومَضَتْ عَلَى اُلرُّومِ اُلدُّهُورُ وَمَا بَنَوْا
لِمُلُوكِهِمْ شِبْهًا لَهُ وَنَظِيرَا

أَذْكَرْتَنَا اُلْفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا
غُرَفًا رَفَعْتَ بِنَاءَهَا وَقُصُورَا

فَالْمُحْسِنُونَ تَزَيَّدُوا أَعْمَالَهُمْ
وَرَجَوْا بِذَلِكَ جَنَّةً وَحَرِيرَا

وَاُلْمُذْنِبُونَ هُدُوا اُلصِّرَاطَ وَكُفِّرَتْ
حَسَنَاتُهُمْ لِذُنُوبِهِمْ تَكْفِيرَا

فَلَكٌ مِنَ اُلْأَفْلَاكِ إِلَّا أَنَّهُ
حَقَرَ اُلْبُدُورَ فَأَطْلَعَ اُلْمَنْصُورَا

أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظَرٍ
ثُمَّ اُنْثَنَيْتُ بِنَاظِرِي مَحْسُورَا[1]

---

(١) حسر البصر يحسر «كضرب» حسورا: كل وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، فهو حسير ومحسور أي كليل

فظَنَنْتُ أَنِّى حَالِمٌ فِى جَنَّـةٍ

لَمَّا رَأَيْتُ ٱلْمُلْكَ فِيهِ كَبِيرَا(١)

وَإِذَا ٱلْوَلَائِدُ فَتَّحَتْ أَبْوَابَهُ

جَعَلَتْ تُرَحِّبُ بِالْعُفَاةِ صَرِيرَا(٢)

عَضَّتْ عَلَى حَلَقَاتِهِنَّ ضَرَاغِمٌ

فَغَرَتْ بِهَا أَفْوَاهَهَا تَـكْبِيرَا(٣)

فَـكَأَنَّهَا لَبَدَتْ لِتَهْصِرَ عِنْـدَهَا

مَنْ لَمْ يَـكُنْ بِدُخُولِهَا مَأْمُورَا(٤)

تَجْرِى ٱلْخَوَاطِرُ مُطْلَقَاتِ أَعِنَّـةٍ

فِيهِ فَتَـكْبُو عَنْ مَدَاهُ قُصُورَا(٥)

---

(١) من قوله تعالى : « واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملـكا كبيرا » (٢) الولائد الاماء والخدم جمع وليدة ، والعفاة : طلاب المعروف والحاجات : جمع عاف وصرير الباب : صوته — وفى البيت حسن تعليل لطيف ، اذ تخيل أن صرير الباب انما هو صوته للترحيب بالزائرين (٣) يصف حلقات الأبواب « التى يطرق بها » وكانت مصنوعة بحيث تعض عليها تماثيل أسود فاتحة أفواهها كأنها تـكبر الله لعجيب الصنع و بدائع الخلق وعظيم الملك الذى يؤتيه من يشاء. والذي فى الديوان « تـكسيرا » بدل « تـكبيرا » وهو أظهر ، أى تحاول تـكسيرها بأفواهها (٤) هصر الشيء : كسره (٥) كبا : أعيا وعجز — يريد أن الخواطر التى تجيش فى النفس مهما أطلقت لها الأعنة تتخيل كما

بِرُخَامِ ٱلسَّاحَاتِ تَحْسَبُ أَنَّهُ

فُرِشَ ٱلْمَهَا وَتَوَشَّحَ ٱلْكَافُورَا(١)

وَمُحَصَّبٍ بِالدُّرِّ تَحْسَبُ تُرْبَهُ

مِسْكاً تَضَوَّعَ نَشْرُهُ وَعَبِيرَا

تُسْتَخْلَفُ ٱلْأَبْصَارُ مِنْهُ إِذَا أَتَى

صُبْحًا عَلَى غَسَقِ ٱلزَّمَانِ مُنِيرَا(٢)

***

وصف بركة

ثُمَّ ذَكَرَ بِرْكَةً فِيهِ عَلَيْهَا أَشْجَارٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ تَرْمِي فُرُوعُهَا ٱلْمِيَاهَ، وَتَفَنَّنَ فَذَكَرَ أُسُودًا عَلَى حَافَاتِهَا قَاذِفَةً بِالْمِيَاهِ أَيْضًا فَقَالَ :

تشاء وتجول فى الظنون كل مذهب قصرت عن ادراك عظمته وتصور جلاله، وعجزت عن الوصول الى غاية رفعته، مع أن مجال الخواطر فسيح وميدان الظنون لاحد له . ومثل ذلك قول بعض الأدباء :

ديار قد بعدن مراد طرف   تسافر فى مسافتها العيون

يضيق مدى نطاق الوصف عنها   وتحسر فى محاسنها الظنون

(١) يصف لونه واشراقه وطيبه وتضوع أرجه . واللها هنا جمع مهاة وهى البلورة تبض من بياضها وتوهجها وصفائها، شبه به الرخام الذى وصف به القصر (٢) يريد أنه يجعل الليل نهارا ،والبيت يروى هكذا :

يستخلف الاصباح منه اذا انقضى   صبحا على غسق الظلام منيرا

وهى رواية واضحة والمعنى عليها أحسن « أحمد يوسف نجاتى »

وَضَرَاغِمٍ سَكَنَتْ عَرِينَ رِيَاسَةٍ

تَرَكَتْ خَرِيرَ ٱلْمَاءِ فِيهِ زَئِيرَا[١]

فَكَأَنَّمَا غَشَّى ٱلنُّضَارُ جُسُومَهَا

وَأَذَابَ فِي أَفْوَاهِهَا ٱلبَلُّورَا[٢]

أُسْدٌ كَأَنَّ سُكُونَهَا مُتَحَرِّكٌ

فِي ٱلنَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا

وَتَذَكَّرَتْ فَتَكَاتِهَا فَكَأَنَّمَا

أَقْعَتْ عَلَى أَدْبَارِهَا لِتَثُورَا

وَتَخَالُهَا وَٱلشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا

نَارًا وَأَلْسُنَهَا ٱللَّوَاحِسَ نُورَا

فَكَأَنَّمَا سَلَّتْ سُيُوفَ جَدَاوِلٍ

ذَابَتْ بِلَا نَارٍ فَعُدْنَ غَدِيرَا

(١) العرين مأوى الأسد ، جعل صوت المياه المتدفقة من أفواهها زئيرا لها (٢) غشى أى غطى ، يصف لون الأسود وصفاء الماء الذى تقذفه أفواهها . « أحمد يوسف نجاتى »

وَكَأَنَّمَا نَسَجَ النَّسِيمُ لِمَائِهِ
دِرْعًا فَقَدَّرَ سَرْدَهَا تَقْدِيرَا[١]
وَبَدِيعَـةِ الثَّمَرَاتِ تَعْبُرُ نَحْوَهَا
عَيْنَايَ بَحْرَ عَجَائِبٍ مَسْجُورَا[٢]
شَجَرِيَّةٍ ذَهَبِيَّـةٍ نَزَعَتْ إِلَى
سِحْرٍ يُؤَثِّرُ فِي النُّهَى تَأْثِيرَا
قَدْ صُوبِحَتْ[٣] أَغْصَانُهَا فَكَأَنَّمَا
قَبَضَتْ بِهِنَّ مِنَ الْفَضَاءِ طُيُورَا

---

(١) قدر سردها : أحكم نسجها وأتقن صنعها من قوله تعالى « وقدر فى السرد» (٢) شرع فى وصف صور الأشجار ، والمسجور : المملوء، وشجرية: صور على هيئة الشجر (٣) هذه الكلمة محرفة فى كل المراجع فهى فى بعضها « صوبحت » وفى بعضها « صوحبت » وفى بعضها « صولجت » « سرحت » ، « سرجت » الخ ولعل أولى هذه الروايات بالقبول — على مافيها « سرحت » ، و « صولجت » ، وسرح الشىء أرسله ومده وتسريح الشعر ترجيله وتخليص بعضه من بعض — وسرج الشىء : حسنه وبهجه — وصولجت « وهى رواية ديوانه » من الصولجان أو الصولجة أو الصولج وهو العود المعوج والعصا يعطف طرفها تضرب بها الكرة « معرب جوكان بالفارسية » فأما العصا التى اعوج طرفها خلقة فى شجرتها فهى محجن . وصلج بالعصا : ضرب — والصولج الفضة الخالصة والصافى الخالص . ويروى عجز البيت هكذا . « قنصت لهن من الفضاء طيورا »

وَكَأَنَّمَا تَأْبَى لِوُقَّعِ طَيْرِهَا
أَنْ تَسْتَقِلَّ بِنَهْضِهَا وَتَطِيرَا

مِنْ كُلِّ وَاقِعَةٍ تَرَى مِنْقَارَهَا
مَاءٍ كَسَلْسَالِ اللُّجَيْنِ نَمِيرَا

خُرْسٌ تُعَدُّ مِنَ الْفِصَاحِ فَإِنْ شَدَتْ
جَعَلَتْ تُغَرِّدُ بِالْمِيَاهِ صَفِيرَا

وَكَأَنَّمَا فِي كُلِّ غُصْنٍ فِضَّةٌ
لَانَتْ فَأُرْسِلَ خَيْطُهَا مَجْرُورَا

وَتُرِيكَ فِي الصِّهْرِيجِ مَوْقِعَ قَطْرِهَا
فَوْقَ الزَّبَرْجَدِ لُؤْلُؤًا مَنْثُورَا

ضَحِكَتْ مَحَاسِنُهُ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا
جُعِلَتْ لَهَا زُهْرُ النُّجُومِ ثُغُورَا

وقد كانت غصون هذه الأشجار المرسومة تعلوها طيور كأنها وقعت عليها فأمسكت بها وأبت أن ترسلها — ثم أخذ يصف تلك الطيور التي كانت ترسل المياه من مناقيرها بوساطة أنابيب تتصل بهـا ، يصف الماء المرسل من طيور هذه الأغصان كأنه خيوط من الفضة الذائبة

وَمُصَفَّحِ ٱلْأَبْوَابِ تِبْرًا نَظَّرُوا
بِالنَّقْشِ فَوْقَ شُكُولِهِ تَنْظِيرَا[1]

تَبْدُو مَسَامِيرُ ٱلنُّضَارِ كَمَا عَلَتْ
تِلْكَ ٱلنُّهُودُ مِنَ ٱلْحِسَانِ[2] صُدُورَا

خَلَعَتْ عَلَيْهِ غَلَائِلًا وَرْسِيَّةً[3]
شَمْسٌ تَرُدُّ ٱلطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرَا

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ سَقْفِهِ
أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي ٱلسَّمَاءِ نَضِيرَا[4]

وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَّافِ عَسْجَدِهِ ٱلَّتِي
حَامَتْ لِتَبْنِي فِي ذُرَاهُ وُكُورَا[5]

---

(١) أخذ يصف القصر وأبوابه .وفي الديوان « بين » بدل فوق (٢) في الأصل « الجنان » ويروى عجز البيت

* فلك النهود من الحسان صدورا *

وفلك ثدى الفتاة وأفلك وفلك وتفلك : استدار كالفلكة وهو دون النهود، وكل مستدير فلكة (٣) في الأصل «ووسية» وهو تحريف لامعنى له. والورس نبت أصفر يصبغ به (٤) يصف النقوش والصور والرسوم المختلفة المحلى بها السقف (٥) يصف صور طيور الخطاف مع حسن التعليل

وَضَعَتْ بِهِ صُنَّاعُهَا أَقْلَامَهَا
فَأَرَتْكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصْوِيرَا(١)

وَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لِيقَةٌ
مَشَقُوا بِهَا ٱلتَّزْوِيقَ وَٱلتَّشْجِيرَا(٢)

وَكَأَنَّمَا لِلَّازَوَرْدِ مُخَرَّمٌ(٣)
بِالْخَطِّ فِي وَرَقِ ٱلسَّمَاءِ سُطُورَا

وَكَأَنَّمَا وَشَّوْا عَلَيْهِ مُلَاءَةً
تَرَكُوا مَكَانَ وِشَاحِهَا مَقْصُورَا

ثُمَّ مَدَحَ ٱلْمَنْصُورَ بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَخَتَمَ ٱلْقَصِيدَةَ بِقَوْلِهِ :

---

(١) الطريدة : ماطردت من صيد ووحش ونحوه (٢) المشق فى الكتابة وهومد حروفها ، ومشق الشيء : جذبه ليمتد و يطول ، والمشق خط فيه خفة والمشق « بكسر الميم وفتحها » المغرة وهو ذلك الصبغ الأحمر ، والممشق والممشوق : الثوب المصبوغ به (٣) يروى بالراء والزاى ، خرم الشيء : ثقبه كخزمه ، وكأنه يصف مايتخلل لون الصور الذهبي من اللون الأزرق ــ واستعمل المولدون كلمة «مخزومة» لنوع من الدفاتر تخرق ، قال ابن نباتة :

لفلان فى الديوان صورة حاضر وكأنه من جملة الغياب
لم يدر ما مخزومة وجريدة سبحان رازقه بغير حساب

وصدر البيت فى الديوان * وكأنما للازورد مخرم * و يروى : مخزم

يَامَالِكَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى أَضْحَى لَهُ
مَلِكُ ٱلسَّمَاءِ عَلَى ٱلْعُدَاةِ نَصِيرَا
كَمْ مِنْ قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ
وَٱسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ ٱلتَّأْخِيرَا ؟
فَعَمَرْتَهَا وَمَلَكْتَ كُلَّ رِيَاسَةٍ
مِنْهَا وَدَمَّرْتَ ٱلْعِدَا تَدْمِيرَا

قُلْتُ : لَمْ أَرَ لِهٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مِنْ نَظِيرٍ ، فِى مَعْنَاهَا ٱلْيَانِعِ ٱلنَّضِيرِ ، وَلَفْظِهَا ٱلْعَذْبِ ٱلنَّمِيرِ ، ٱلَّذِى شَمَّرَ فِيهِ قَائِلُهَا عَنْ سَاعِدِ ٱلْإِجَادَةِ أَىَّ تَشْمِيرٍ ، غَيْرَ أَنَّ فِيهَا عِنْدِى عَيْبًا وَاحِدًا وَهُوَ خَتْمُهَا بِلَفْظِ ٱلتَّدْمِيرِ[1] . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَٱلْحُسْنُ وَٱلْإِحْسَانُ ، يُقَادَانِ فِى أَرْسَانٍ[2] لِعَبْدِ ٱلْجَبَّارِ بْنِ حَمْدِيسَ ٱلْمَذْكُورِ ذِى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْحِسَانِ ، وَخُصُوصًا فِى

(١) لابأس بهذا النقد الأدبى، فلحسن الختام تأثير فى النفس قوى حتى أنه لقد يغطى على عيوب سبقته فيكون آخر مايصل الى السمع وغاية مايثبت فى النفس « أحمد يوسف نجاتى »(٢) جمع رسن وهو الحبل تقاد به الدابة

وَصْفِ ٱلْمَبَانِي وَٱلْبِرَكِ ، فَمَا أَبْقَى لِسِوَاهُ فِى ذٰلِكَ حُسْنًا وَلَا تَرْكَ .

***

وصف بركة أخرى

« وَمِنْ ذَلِكَ » قَوْلُهُ فِي وَصْفِ بِرْكَةٍ تَجْرِى إِلَيْهَا ٱلْمِيَاهُ مِنْ شَاذَرْوَانٍ[1] مِنْ أَفْوَاهِ طُيُورٍ وَزَرَافَاتٍ وَأُسُودٍ ، وَكُلُّ ذٰلِكَ فِي قَصْرٍ أَطْنَبَ فِي وَصْفِهِ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ[2]

---

(١) لفظ دخيل ويسمى التأزير لأنه كالازار للبيت ، ويطلق على نوع من آلات المياه : قال ابن تميم فى بركة بشاذروان :

ألا رب يوم قد تقضى ببركة ... أقمت بها فيما جرى متحيرا
بعينى رأيت الماء فيها وقد جرى ... على رأسه من شاهق فتكسرا

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى :

وشاذروان ماء بات يجرى ... كعين الصب روع يوم بين
اذا ماقيل جد بالماء سريعا ... يقول نعم على رأسى وعينى

ولبرهان الدين القيراطى :

مذهب شاذرواننا الـ ... عالى المقام والرتب
نال الغنى المـاء به ... حين مشى على الذهب

وقال فيه أيضا :

لحسن شـاذرواننا ... كل القلـوب تعشق
من أجل ذا المـاء له ... قلـب به معلـق

ومن هذه الصفات يتجلى نعت الشاذروان وعمله « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) عدتها ٣٦ بيتا يمدح بها المنصور بن الناصر بن علناس مطلعها :

أعليت بين النجم والدبران ... قصرا بناه من السعادة بان

وَالْمَاءِ مِنْهُ سَبَائِكٌ مِنْ فِضَّةٍ(١)
ذَابَتْ عَلَى دَرَجَاتِ شَاذَرْوَانِ

وَكَأَنَّمَا سَيْفٌ هُنَاكَ مُشَطَّبٌ
أَلْقَتْهُ يَوْمَ الرَّوْعِ كَفُّ جَبَانِ(٢)

كَمْ شَاخِصٍ فِيهِ يُطِيلُ تَعَجُّبًا
مِنْ دَوْحَةٍ نَبَتَتْ مِنَ الْعِقْيَانِ ؟

عَجَبًا لَهَا تَسْقِي الرِّيَاضَ يَنَابِعًا
نَبَعَتْ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَغْصَانِ

خُصَّتْ بِطَائِرَةٍ عَلَى فَنَنٍ لَهَا
حَسُنَتْ فَأُفْرِدَ حُسْنُهَا مِنْ ثَانِ

قُسُّ الطُّيُورِ الْخَاشِعَاتِ(٣) بَلَاغَةً
وَفَصَاحَةً مِنْ مَنْطِقٍ وَبَيَانِ

(١) فى الديوان . . فضية (٢) سيف مشطب ومشطوب: فيه شطب أى طرائق فى متنه ، جمع شطبة مثلثة الشين. ولابن عبد ربه من أبيات فى السيف :

وذى شطب تقضى المنايا بحكمه ... وليس لما تقضى المنية دافع

(٣) كذا بالأصل والديوان ، وأرى أنها محرفة عن « الساجعات »

فَإِذَا أُتِيحَ لَهَا ٱلْكَلَامُ تَكَلَّمَتْ
بِخَرِيرِ مَاءٍ دَائِمِ ٱلْهَمَلَانِ
وَكَأَنَّ صَانِعَهَا ٱسْتَبَدَّ بِصَنْعَةٍ
فَخَرَ ٱلْجَمَادُ بِهَا عَلَى ٱلْحَيَوَانِ
أَوْفَتْ عَلَى حَوْضٍ لَهَا فَكَأَنَّهَا
مِنْهَا عَلَى ٱلْعَجَبِ ٱلْعُجَابِ رَوَانِى(١)
فَكَأَنَّهَا ظَنَّتْ حَلَاوَةَ مَائِهَا
شَهْدًا فَذَاقَتْهُ بِكُلِّ لِسَانِ
وَزَرَافَةٍ فِى ٱلْجَوْفِ مِنْ أُنْبُوبِهَا
مَاءٌ يُرِيكَ ٱلْجَرْىَ فِى ٱلطَّيَرَانِ(٢)

---

(١) أوفت : أشرفت وأطلت مرتفعة ، وروانى أى نواظر ، والرنو: ادامة النظر بسكون الطرف ، والرنو أيضا لهو مع شغل قلب و بصر وغلبة هوى له (٢) ولابن حمديس أيضا فى وصف الزرافة :

ونوبية فى الخلق منها خلائق متى مارق العين فيها تسفل
اذاما اسمها ألقاه فى السمع ذاكر رأى الطرف منه ماعناه بمقول
لها فخذا قرم وأظلاف قرهب وناظرتا ريم وهامة إيل
كأن الخطوط البيض والصفر أشبهت
على جسمها ترصيع عاج بصندل

مَرْكُوزَةٍ كَالرُّمْحِ حَيْثُ تَرَى لَهَا
مِنْ طَعْنَةِ ٱلْحَلَقِ[1] ٱنْعِطَافَ سِنَانِ
وَكَأَنَّهَا تَرْمِي ٱلسَّمَاءَ بِبُنْدُقٍ
مُسْتَنْبَطٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَجُمَانِ
لَوْ عَادَ ذَاكَ ٱلْمَاءُ نِفْطًا أُحْرِقَتْ
فِي ٱلْجَوِّ مِنْهُ قَمِيصُ كُلِّ عَنَانِ
فِي بِرْكَةٍ قَامَتْ عَلَى حَافَاتِهَا
أُسْدٌ تَذِلُّ لِعِزَّةِ ٱلسُّلْطَانِ
نَزَعَتْ إِلَى ظُلْمِ ٱلنُّفُوسِ نُفُوسُهَا
فَلِذَلِكَ ٱنْتُزِعَتْ مِنَ ٱلْأَبْدَانِ
وَكَأَنَّ بَرْدَ ٱلْمَاءِ مِنْهَا مُطْفِئٌ
نَارًا مُضَرَّمَةً مِنَ ٱلْعُدْوَانِ

تلفت أحيانا بعين كحيلة وجيد على طول اللواء المظلل
وعرف دقيق الشعر تحسب نبته اذا الريح هزته ذوائب سنبل
تنفس كبرا من يراع مثقب فتعطى جنوبا منه عن أخذ شمأل
وتحسبها من نفسها ان تبخترت تزف الى بعل عروسا وتنجلي
وكم منشد قول امرئ القيس عندها
أفاطم مهلا بعض هـذا التدلل ؟

(١) ويروى : من طعنه الحلق «بنصب الحلق مفعولا للمصدر طعن»

وَكَأَنَّمَا ٱلْحَيَّاتُ مِنْ أَفْوَاهِهَا

يَطْرَحْنَ أَنْفُسَهُنَّ فِي ٱلْغُدْرَانِ

وَكَأَنَّمَا ٱلْحِيتَانُ إِذْ لَمْ تَخْشَهَا

أَخَذَتْ مِنَ ٱلْمَنْصُورِ عَقْدَ أَمَانِ

وَهَاتَانِ ٱلْقَصِيدَتَانِ لِابْنِ حَمْدِيسَ ـ كَمَا فِي ٱلْمَنَاهِجِ ـ مَعَ طُولِهِمَا ـ تَدُلَّانِ عَلَى ٱلْإِبْدَاعِ ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ ، وَٱلِاخْتِرَاعِ ٱلَّذِي مَا وَلَجَ سَمْعَ أَحَدٍ مِنَ ٱلْفُضَلَاءِ إِلَّا شَكَرَهُ لَمَّا أَسْكَرَهُ .

***

منزل العز بمصر

وَقَالَ أَبُو ٱلصَّلْتِ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْأَنْدَلُسِيُّ(١) يَصِفُ قَصْرًا بِمِصْرَ يُسَمَّى « مَنْزِلَ ٱلْعِزِّ » بَنَاهُ حَسَنُ

(١) هو أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الدانى كان فاضلا فى البلاغة والآداب عارفا بفن الحكمة فكان يقال له الأديب الحكيم . وكان ماهرا فى علوم الأوائل «وصنف كتابه الممتع الذى سماه الحديقة على نمط يتيمة الدهر للثعالبى » وانتقل من الأندلس مع والدته وسكن ثغر الاسكندرية سنة ٤٨٩ ثم انتقل الى المهدية بالمغرب سنة ٥٠٦ فتوفى بها سنة ٥٢٩ وكان قد حل من صاحبها على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس أفضل محل ، وولد له بها ولد سماه عبد العزيز وكان كأبيه شاعرا ماهرا توفى بمدينة بجاية سنة٥٤٦ وكان مولد أمية بمدينة دانية سنة٤٦٠ وأخذ العلم عن جماعة من أهل الأندلس كأبى الوليد الوقشى قاضى دانية وغيره

أَبْنُ عَلِيِّ بْنِ تَمِيمِ بْنِ الْمُعِزِّ الْعُبَيْدِيُّ[١] :

مَنْزِلُ الْعِزِّ كَاسْمِهِ مَعْنَاهُ
لَا عَدَا الْعِزُّ مَنْ بِهِ سَمَّاهُ
مَنْزِلٌ وَدَّتِ الْمَنَازِلُ فِي أَعْ
لَى ذُرَاهُ لَوْ صُيِّرَتْ إِيَّاهُ

(١) يخيل الى أنه غير العبيدى وأن القصر الموصوف ليس بمصر ، بل لعله الأمير حسن بن على بن يحي بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ملك إفريقية وصاحب مدينة المهدية ، تم الأمر للأمير حسن يوم وفاة والده على سنة ٥١٥ « وكان فى عصره الملك روجار صاحب صقلية المستولى عليها سنة ٤٨٤ وكان بينهما حلف واتفاق وخضع له الأمير حسن فدانت له المهدية وجزيرة جربة وغيرها ثم كانت بينهما وحشة فغزا روجار المهدية واستولى عليها وفر الحسن سنة ٥٤٢ حتى كانت سنة ٥٥٥ فاسترد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على المهدية وأعاد اليها الأمير الحسن وهو آخر الصنهاجيين من بنى مناد » وجده المعز تولى الأمر من سنة ٤٠٦ الى سنة ٤٥٣ وبعده ابنه تميم الى سنة ٥٠١ وبعده ابنه يحي الى سنة ٥٠٩ فابنه على بن يحي الى سنة ٥١٥ أما الأمير تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى العبيدى فكان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب ، وكان شاعرا ماهرا لطيفا وفاضلا أديبا ظريفا ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه وتوفى الأمير تميم سنة ٣٧٤ بمصر — ومن هذه الخلاصة التاريخية يظهر أن أمية اتصل بذرية الأمير تميم الصنهاجى لا العبيدى والله أعلم «أحمد يوسف نجاتى»

فأَجِلْ فِيهِ لَحْظَ عَيْنَيْكَ تُبْصِرْ
أَيَّ حُسْنٍ دُونَ ٱلْقُصُورِ حَوَاهُ
سَالَ فِي سَقْفِهِ ٱلنُّضَارُ وَلَـكِنْ
جَمَـدَتْ فِي قَرَارِهِ ٱلْأَمْوَاهُ
وَبِأَرْجَائِهِ مَجَـالُ طِرَادٍ
لَيْسَ تَنْفَكُّ مِنْ وَغًى خَيْـلَاهُ[1]
تُبْصِرُ ٱلْفَارِسَ ٱلْمُدَجَّجَ فِيـهِ
لَيْسَ تَدْمَى مِنَ ٱلطِّعَانِ قَنَاهُ[2]
وَتَرَى ٱلنَّابِلَ ٱلْمُوَاصِلَ لِلنَّزْ
عِ بَعِيدًا مِنْ قِرْنِهِ مَرْمَاهُ[3]
وَصُفُوفًا مِنَ ٱلْوُحُوشِ وَطَيْرِ ٱلْ
جَوِّ كُلٌّ مُسْتَحْسَنٌ مَرْآهُ
سَـكَنَاتٌ تَخَالُهَا حَرَكَاتٍ
وَٱخْتِـلَافٌ كَأَنَّهُ أَشْبَاهُ

---

(١) الطراد : مطاردة الفرسان ومجالدتهم فى الوغى أى الحرب وحمل بعضهم عـلى بعض (٢) المدجج أى اللابس السلاح (٣) النابل : الرامى بالنبل، والنزع: شد القوس للرمى بها ، والقرن: الخصم والكفء فى الحرب

كَمُحَيَّا ٱلْحَبِيبِ حَرْفًا بِحَرْفٍ
مَا تَعَـدَّى صِفَاتِهِ إِذْ حَكَاهُ
وَرْدُهُ وَجْنَتَاهُ ، نَرْجِسُهُ ٱلْفَتَّا
نُ عَيْنَـاهُ ، آسُهُ عَارِضَاهُ
وَكَأَنَّ ٱلْكَافُورَ وَٱلْمِسْكَ فِي ٱلطِّيـ
ـبِ وَفِي ٱللَّوْنِ صُبْحُهُ وَمَسَاهُ
مَنْظَرٌ يَبْعَثُ ٱلسُّرُورَ وَمَرْأًى
يُذْكِرُ ٱلْمَرْءَ طِيبَ عَصْرِ صِبَاهُ

*
* *

وَقَالَ أَبُو ٱلصَّلْتِ أُمَيَّةُ ٱلْأَنْدَلُسِيُّ ٱلْمَذْكُورُ يَذْكُرُ بِنَاءً بَنَاهُ عَلِيُّ بْنُ تَمِيمِ بْنِ ٱلْمُعِزِّ (ٱلْعُبَيْدِيُّ) : وصف قصر

لِلّٰهِ مَجْلِسُكَ ٱلْمُنِيفُ قِبَابُهُ
بِمُوَطَّدٍ فَوْقَ ٱلسِّمَاكِ مُؤَسَّسِ
مُوفٍ عَلَى حُبُكِ ٱلْمَجَرَّةِ تَلْتَقِي
فِيهِ ٱلْجَوَارِي بِالْجَوَارِي ٱلْكُنَّسِ (١)

(١) الحبك من السماء : طرائق النجوم ، واحده حبيكة ، ومنه :

تَتقَابَلُ ٱلْانْوَارُ مِنْ جَنبَاتِهِ
فَاللَّيْلُ فِيهِ كَالنَّهَارِ ٱلْمُشْمِسِ
عُطِفَتْ حَنَايَاهُ دُوَيْنَ سَمَائِهِ
عَطفَ ٱلْأَهِلَّةِ وَٱلْحَوَاجِبِ وَٱلْقِسِى
وَٱسْتَشْرَفَتْ عُمُدُ ٱلرُّخَامِ وَظُوهِرَتْ
بِأَجَلَّ مِنْ زَهْرِ ٱلرَّبِيعِ وَأَنْفَسِ
فَهَوَاؤُهُ مِنْ كُلِّ قَدٍّ أَهْيَفٍ
وَقَرَارُهُ مِنْ كُلِّ خَدٍّ أَمْلَسِ
فَلَكٌ تَحَيَّرَ فِيهِ كُلُّ مُنَجِّمٍ
وَأَقَرَّ بِالتَّقْصِيرِ كُلُّ مُهَنْدِسِ
فَبَدَا لِلَحْظِ ٱلْعَيْنِ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ
وَغَدَا لِطِيبِ ٱلْعَيْشِ أَطْيَبَ مَغْرَسِ (١)

«والسماء ذات الحبك» وأراد بالجوارى الكنس : النجوم السيارة «وهى الخنس أيضا» لأنها تكنس فى المغيب أى تستتر ، أو هى كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتكنس « تختفى » نهارا ، قال الزجاج : الكنس : النجوم تطلع جارية ، وكنوسها أن تغيب فى مغاربها التى تغيب فيها — يصف فى البيت علو القصر حتى كأن له حاجة فى السماء، فجواريه الانسية تلتقى بجوارى السماء الفلكية (١) فى الأصل « طيب معرس »

فَاطْلُعْ بِهِ قَمَرًا إِذَا مَا أَطْلَعَتْ
شَمْسُ الْخُدُورِ[1] عَلَيْكَ شَمْسَ الْأَكْؤُسِ
فَالنَّاسُ أَجْمَعُ دُونَ قَدْرِكَ رُتْبَةً
وَالْأَرْضُ أَجْمَعُ دُونَ هٰذَا الْمَجْلِسِ

***

وصف زيادة النيل ونقصانه

وَيُعْجِبُنِي مِنْ قَوْلِ أَبِي الصَّلْتِ أُمَيَّةَ الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ يَصِفُ حَالَيْ زِيَادَةِ النِّيلِ وَنُقْصَانِهِ[2] :

وَلِلّٰهِ مَجْرَى النِّيلِ مِنْهَا إِذَا الصَّبَا
أَرَتْنَا بِهِ مِنْ مَرِّهَا عَسْكَرًا مَجْرَى
إِذَا زَادَ يَحْكِي الْوَرْدَ لَوْنًا[3] وَإِنْ صَفَا
حَكَى مَاءَهُ لَوْنًا وَلَمْ يَحْكِهِ مُرًّا

***

وصف الرصد

وَقَالَ - رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى - يَصِفُ الرَّصَدَ الَّذِي بِظَاهِرِ مِصْرَ :

يَا نُزْهَةَ الرَّصَدِ الَّتِي قَدِ اشْتَمَلَتْ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَا فِي جَانِبِ الْوَادِي

---

(١) أو (الخدود) (٢) ارجع الى البيتين وشرحهما بالجزء الأول

(٣) ويروى البيت هكذا :

اذا زاد يحكى الورد غضا وان صفا   حكى ماءه لونا ولم يعده نشرا

فَذَا غَدِيرٌ، وَذَا رَوْضٌ، وَذَا جَبَلٌ
وَٱلضَّبُّ وَٱلنُّونُ وَٱلْمَلَّاحُ وَٱلْحَادِي

***

قصر أنس بالبصرة

وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ يَصِفُ قَصْرَ أَنَسٍ[1] بِالْبَصْرَةِ:

زُرْوَادِيَ ٱلْقَصْرِ نِعْمَ ٱلْقَصْرُ وَٱلْوَادِي
لَا بُدَّ مِنْ زَوْرَةٍ مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ
زُرْهُ فَلَيْسَ لَهُ نِدٌّ يُشَاكِلُهُ
مِنْ مَنْزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شِئْتَ أَوْ بَادِي
تَلْقَى بِهِ ٱلسُّفْنَ وَٱلظُّلْمَانَ حَاضِرَةً
وَٱلضَّبَّ وَٱلنُّونَ وَٱلْمَلَّاحَ وَٱلْحَادِي

***

الهرمان بمصر

وَقَالَ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - يَذْكُرُ ٱلْهَرَمَيْنِ:

(١) بالأصل «قوله» والمعروف أن الأبيات لابن أبي عيينة المهلبي في قصر عيسى بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة، « وقد سبق تعليقنا على الأبيات - وقصر أنس بالبصرة أيضا ينسب الى أنس بن مالك خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن الشعر لم يقل فيه « أحمد يوسف نجاتي »

بِعَيْشِكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَحْسَنَ مَنْظَرًا
عَلَى طُولِ مَا عَايَنْتَ مِنْ هَرَمَيْ مِصْرِ
أَنَافَا بِأَكْنَافِ[1] ٱلسَّمَاءِ وَأَشْرَفَا
عَلَى ٱلْجَوِّ إِشْرَافَ ٱلسِّمَاكِ[2] عَلَى ٱلنَّسْرِ
وَقَدْ وَافِيَا نَشْزًا مِنَ ٱلْأَرْضِ عَالِيًا
كَأَنَّهُمَا نَهْدَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ

وَسَتَأْتِي تَرْجَمَتُهُ - إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى - فِي ٱلْبَابِ ٱلْخَامِسِ

***

وصف بركة عليها فوارات

وَعَلَى ذِكْرِ ٱلْأَنْهَارِ وَٱلْبِرَكِ فَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ بِرْكَةً عَلَيْهَا عِدَّةُ فَوَّارَاتٍ[3]:

غَضِبَتْ مَجَارِيهَا فَأَظْهَرَ غَيْظُهَا
مَا فِي حَشَاهَا مِنْ خَفِيٍّ مُضْمَرِ

---

(١) ويروى « بأعنان » (٢) ويروى « أو » (٣) الفوارة فى الأصل: منبع الماء، وهي بالمعنى المعروف مولدة، وللشعراء فيها معان لطيفة منها:

تخال أنبوبها لصحته ... والماء يعلو بها وينحدر
كصولجان من فضة سبكت ... فواقع الماء تحتها أكر

وقال ابن حجاج « توفى سنة ٣٩١ »:

صنعت فى دارك فوارة ... أغرقت فى الأرض بها الأنجما
فاض على نجم السما ماؤها ... فأصبحت أرضك تسقى السما

وَكَأَنَّ نَبْعَ ٱلْمَاءِ مِنْ جَنَبَاتِهَا

وَٱلْعَيْنُ تَنْظُرُ مِنْهُ أَحْسَنَ مَنْظَرِ

قُضُبٌ مِنَ ٱلْبِلَّوْرِ أَثْمَرَ فَرْعُهَا

لَمَّا ٱنْتَهَتْ بِاللُّؤْلُؤِ ٱلْمُتَحَدِّرِ

***

وصف ماء

وَقَالَ ٱبْنُ صَارَةَ ٱلْأَنْدَلُسِيُّ[1] يَصِفُ مَاءً بِالرِّقَّةِ وَٱلصَّفَا يَجْرِي عَلَى ٱلصَّفَا :

وَٱلنَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غِلَالَةُ خَصْرِهِ

وَعَلَيْـهِ مِنْ صِبْغِ ٱلْأَصِيلِ طِرَازُ

تَتَرَقْرَقُ ٱلْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّهَـا

عُـكَنُ ٱلْخُصُورِ تَهُزُّهَا ٱلْأَعْجَازُ[2]

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة البكرى من أهل شنترين وسكن اشبيلية وتجول فى بلاد الأندلس شرقا وغربا بالتعليم والوراقة وامتدح الولاة والرؤساء . وكان أديبا ماهرا وشاعرا مفلقا وبليغا مبتكرا ومخترعا مولدا . ضليعا فى اللغه وآدابها وعلومها ، وتوفى سنة ٥١٧ﻫ وصدر البيت الأول يروى : والنهر قد رقت غلالة صبغه (٢) عكن : جمع عكنة وهى ماانطوى وتثنى من لحم البطن سمنا وعكن جمع عكناء . ـ وجارية عكناء ومعكنة : ذات عكن ، وذلك اذا تعكن بطنها ـ وقد أصبحت غاداتنا ينفرن من ذلك ويملن الى الرشاقة والهيف وضمور البطن وان تغالى بعضهن فى ذلك ، وقد كانت جداتهن يأ كلن العكنة ، ليكن ذوات عكنة «أحمد يوسف نجاتى»

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأُدَبَاءِ ـ وَلَمْ يَحْضُرْنِى ٱلْآنَ أَسْمُهُ ـ :

وَٱلنَّهْرُ مَكْسُوٌّ غِلَالَةَ فِضَّةٍ
فَإِذَا جَرَى سَيْلًا فَثَوْبَ نُضَارِ
وَإِذَا ٱسْتَقَامَ رَأَيْتَ صَفْحَةَ مُنْصُلٍ
وَإِذَا ٱسْتَدَارَ رَأَيْتَ عَطْفَ سِوَارِ

وَقَالَ ٱبْنُ حَمْدِيسَ ٱلْمَغْرِبِىُّ يَصِفُ نَهْرًا بِالصَّفَاءِ :

وَمُطَّرِدِ(١) ٱلْأَمْوَاجِ يَصْقُلُ مَتْنَهُ
صَبًا أَعْلَنَتْ لِلعَيْنِ مَا فِى ضَمِيرِهِ
جَرِيحٌ بِأَطْرَافِ ٱلْحَصَى كُلَّمَا جَرَى
عَلَيْهَا شَكَا أَوْجَاعَهُ بِخَرِيرِهِ
كَأَنَّ حُبَابًا رِيعَ تَحْتَ حَبَابِهِ
فَأَقْبَلَ يُلْقِى نَفْسَهُ فِى غَدِيرِهِ(٢)

---

(١) جدول مطرد : سريع الجرية يتتابع ماؤه سائلا جاريا (٢) الحباب : الحية ـ وحباب الماء : معظمه ، وطرائقه كأنها الوشى

وَهٰذَا ٱلنَّهْجُ مُتَّسِعٌ ، وَلَمْ نُطِلِ ٱلسَّيْرَ فِي هٰـذِهِ ٱلْمَهَامِهِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا بَعْضَ كَلَامِ ٱلْمَغَارِبَةِ لِيَتَنَبَّهَ بِهِ مُنْتَقِصُهُمْ مِنْ سِنَةِ أَوْهَامِهِ ، وَلِأَنَّ فِي أَمْرِهَا عِبْرَةً لِمَنْ عَقَلَ ، إِذْ أَصْدَأَ مِرْآةَ حُسْنِهَا وَلَطَالَمَا كَانَ لِمَتْنِهَا[1] صَقَلَ .

***

ماقيل فى عفاء الديار

وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى كَلَامٍ لِصَاحِبِ ٱلْمَنَاهِجِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَأَحْبَبْتُ ذِكْرَهُ مُلَخَّصًا وَهُوَ : وَنُلْحِقُ بِذِكْرِ ٱلْمَنَازِلِ ٱلَّتِي رَاقَ مَنْظَرُهَا ، وَفَاقَ مَخْبَرُهَا ، وَٱرْتَفَعَ بِنَاؤُهَا ، وَٱتَّسَعَ فِنَاؤُهَا[2] طَرَفًا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَاعَفَاهُ ٱلدَّهْرُ مِنْ رُسُومِهَا ، وَمَحَاهُ مِنْ مَحَاسِنِ صُوَرٍ كَانَتْ أَرْوَاحًا لِجُسُومِهَا: وَصَفَ أَعْرَابِيٌّ مَحَلَّةَ قَوْمٍ ٱرْتَحَلُوا عَنْهَا فَقَالَ نَثْرًا : ٱرْتَحَلَتْ عَنْهَا رَبَّاتُ ٱلْخُدُورِ ، وَأَقَامَتْ بِهَا أَثَافِيُّ[3] ٱلْقُدُورِ ، وَلَقَدْ كَانَ أَهْلُهَا يُعْفُونَ آثَارَ ٱلرِّيَاحِ[4]

(١) فى الأصل (لمثلها) (٢) فناء الدار : مااتسع من أمامها، ومالمتد من جوانبها ، وجمعه أفنية وفنى (٣) جمع أثفية ، وهى الحجر توضع عليه القدر وتنصب عليه الآنية . وما كان من حديد ذى ثلاث قوائم يسمى المنصب ــ ويقال: رماه الله بثالثة الأثافى ، أى بالجبل لأنهم كانوا يجعلون صخرتين الى جانبه و ينصبون عليه وعليهما القدور ، فمعناه أنه رماه الله بما لا يقوم له ، أى بداهية شديدة ــ ويقال المثل أيضا فى رمى الرجل صاحبه بالمعضلات (٤) يصفهم بالكثرة والقوة والغنى والكرم « أحمد يوسف نجاتى »

فَعَفَتِ الرِّيَاحُ آثَارَهُمْ ، وَذَهَبَتْ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْقَتْ أَخْبَارَهُمْ ، وَالْعَهْدُ قَرِيبٌ ، وَاللِّقَاءُ بَعِيدٌ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ فَأَحْسَنَ :

يَا دَارُ(١) أَمْسَى دَارِسًا رَسْمُهَا
وَحْشًا قِفَارًا مَا بِهَا أَهْلُ

قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ بِهَا ذَيْلَهَا
وَاسْتَنَّ فِي أَطْلَالِهَا الْوَبْلُ(٢)

وَمِنْ كَلَامِ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ ، فِي قَلَائِدِ الْعِقْيَانِ ، يَذْكُرُ آلَ عَبَّادٍ — مِنْ فَصْلٍ أَكْثَرَ فِيهِ التَّفَجُّعَ ، وَأَطَالَ بِهِ التَّوَجُّعَ : وَالْغُصُونُ(٣) تَخْتَالُ فِي أَدْوَاحِهَا ، وَالْأَزَاهِرُ يُحْيِي مَيِّتَ الصَّبَابَةِ شَذَا أَرْوَاحِهَا ، وَأَطْيَارُ الرِّيَاضِ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَيْهِمْ كَثَكَالَى يَنُحْنَ عَلَى خَرَابِهَا ، وَانْقِرَاضِ أَتْرَابِهَا(٤) ، وَالْوَهْيُ(٥) بِمَشِيدِهَا

(١) يروى يادارا امسى (٢) استن الفرس فى مضماره : اذا عدا فى نشاطه على سننه فى جهة واحدة — وفى المثل : استنت الفصال حتى القرعى ، يضرب لمن يدخل نفسه فى قوم ليس منهم ، ويخوض معهم فى حديث لاعلم له به — والوبل والوابل: المطر الشديد الضخم القطر (٣) فى الأصل « والقصور » وهو تحريف (٤) فى القلائد « اطرابها » مصدر أطرب — وأتراب جمع ترب ، وهو من ولد معك فى سن واحدة ، وأكثر مايكون ذلك فى المؤنث وفى القرآن الكريم : « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » ، « كواعب أترابا » ، « عربا أترابا » أى أمثالا (٥) وهى الشىء : ضعف ، والحائط : اذا استرخى وأراد أن ينقض وهم بالسقوط . « أحمد يوسف نجاتى »

لَاعِبٌ، وَعَلَى كُلِّ جِدَارٍ مِنْهَا غُرَابٌ نَاعِبٌ ، وَقَدْ مَحَتِ الْحَوَادِثُ ضِيَاءَهَا ، وَقَلَّصَتْ ظِلَالَهَا وَأَفْيَاءَهَا (١) ، وَلَطَالَمَا أَشْرَقَتْ بِالْخَلَائِفِ (٢) وَابْتَهَجَتْ ، وَفَاحَتْ مِنْ شَذَاهُمْ وَتَأَرَّجَتْ ، أَيَّامَ نَزَلُوا خِلَالَهَا ، وَتَفَيَّئُوا ظِلَالَهَا ، وَعَمَرُوا حَدَائِقَهَا وَجَنَّاتِهَا ، وَنَبَّهُوا الْآمَالَ مِنْ سِنَاتِهَا ، وَرَاعُوا اللُّيُوثَ فِي آجَامِهَا ، وَأَخْجَلُوا الْغُيُوثَ عِنْدَ انْسِجَامِهَا ، فَأَصْبَحَتْ وَلَهَا بِالتَّدَاعِي تَلَفُّعٌ وَاعْتِجَارٌ (٣)،

(١) قلص الظل : اذا انقبض وانضم وانزوى ، وقلص : ذهب ــ والفيء ما كان شمسا فينسخه الظل ، أو ما بعد الزوال من الظل ، وقد يسمى الظل فيئا لفيئه أى رجوعه من جانب الى جانب ــ والجملة كناية عن تهدم هذه الجدران وعبث الحوادث بها (٢) فى الأصل «الخلائق» وفى القلائد «الخلائف» جمع خليفة وهو أحسن (٣) التلفع فى الأصل : التلحف يقال تلفعت المرأة بمرطها أو ردائها أو لفاعها اذا التحفت به «واللفاع هو الملحفة أو الكساء الغليظ الأسود» وتجللت وتغطت واشتملت به ــ والاعتجار : لى الثوب على الرأس من غير ادارة تحت الحنك ، ولبسة للمرأة شبه الالتحاف ــ وتداعى الحائط اذا أخذ فى الانقضاض بسرعة ، وتداعى اذا تهادم وآذن بالخراب ــ وفى الأصل «ولها تلفع واعتجار» بسقوط كلمة «بالتداعى» الثابتة فى القلائد و بسقوطها يقلق المعنى وترك العبارة

وَلَمْ يَبْقَ مِنْ آثَارِهَا الَّا نُؤْىٌ(١) وَأَحْجَارٌ ، وَقَدْهَوَتْ قِبَابُهَا ، وَهَرِمَ شَبَابُهَا ، وَقَدْ يَلِينُ الْحَدِيدُ ، وَيَبْلَى عَلَى طَيِّهِ الْجَدِيدُ .

وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ(٢) الْقُرْطُبِيُّ يَذْكُرُ ذَلِكَ مِنْ أَبْيَاتٍ يَنْعَاهُمْ بِهَا :

دِيَارٌ عَلَيْهَا مِنْ بَشَاشَةِ أَهْلِهَا
بَقَايَا تَسُرُّ النَّفْسَ أُنْسًا وَمَنْظَرَا

رُبُوعٌ كَسَاهَا الْمُزْنُ مِنْ خِلَعِ الْحَيَا
بُرُودًا وَحَلَّاهَا مِنَ النَّوْرِ جَوْهَرَا

---

(١) النؤى :أصله الحفير أو الحاجز حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل أو يبعده وجمعه نئى (٢) هو يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث بن محمد بن عبدالله الفقيه الصالح الأديب قاضى الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة فى زمن المعتمد بالله هشام بن محمد المروانى سنة ٤١٩ كان وافر الحظ من الفقه والحديث والبلاغة والأدب وعلوم اللغة، وأكثر شعره فى الزهد وماشابهه وله خطب بليغة كذلك قوية التأثير فى النفس لصدورها عن القلب. ومن شعره قوله :

أتوا خشية أن قيل جد نحوله ... فلم يبق من لحم عليه ولا عظم
فعادوا قميصا فى فراش فلم يروا ... ولا لمسوا شيئا يدل على جسم
طواه الهوى فى ثوب سقم من الضنى ... وليس بمحسوس بعين ولا وهم

وقضى حياته ـ رضى الله عنه ـ فى علم وافادة وورع وعدل واصلاح القلوب بوعظه الذى كان فيه قدوة بنفسه، وله مؤلفات نفيسة ممتعة فى فضائل الأعمال والتصوف ولد سنة ٣٣٨ وتوفى سنة ٤٢٩ ـ رحمه الله تعالى ـ «أحمد يوسف نجاتى»

تَسُرُّكَ طَوْرًا ثُمَّ تُشْجِيكَ تَارَةً
فَتَرْتَاحُ تَأْنِيسًا وَتَشْجَى تَذَكُّرَا

« وَمِنْ كَلَامِ أَبِي الْحَسَنِ الْقَاشَانِيِّ » يَصِفُ نَادِيَ رَئِيسٍ خَلَا، مِنِ ازْدِحَامِ الْمَلَا ، وَعَوَّضَهُ الزَّمَانُ عَنْ تَوَاصُلِ أَحبَابِهِ هَجْرًا وَقِلًا[1] : قَدْ كَانَ مَنْزِلُهُ مَأْلَفَ الْأَضْيَافِ ، وَمَأْنَسَ الْأَشْرَافِ ، وَمُنْتَجَعَ الرَّكْبِ وَمَقْصِدَ الْوَفْدِ ، فَاسْتَبْدَلَ بِالْأُنْسِ وَحْشَةً ، وَبِالضِّيَاءِ ظُلْمَةً ، وَاعْتَاضَ مِنْ تَزَاحُمِ الْمَوَاكِبِ ، تَلَاطُمَ النَّوَادِبِ ، وَمِنْ ضَجِيجِ النِّدَاءِ وَالصَّهِيلِ ، عَجِيجَ الْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ .

« وَمِنْ رِسَالَةٍ لِابْنِ الْأَثِيرِ الْجَزَرِيِّ[2] يَصِفُ دِمْنَةَ دَارٍ

(١) أى بغضا وكراهة (٢) هو أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى ويلقب ضياء الدين، وهو ذلك الأديب الكبير والكاتب القدير صاحب المثل السائر وغيره من كتب الأدب والبلاغة وكلها مفيدة ممتعة دالة على فكر سديد وعقل ناضج وقريحة خصبة وذهن صاف ، وله رسائل كثيرة هى نماذج البلاغة الراقية فى عصره » غير أنى آخذ عليه شيئا من الادعاء والاعجاب بالنفس وهما خلتان لاتستريح نفسى اليهما ، وان كان فى ذلك يعمل بقول من قال :

وماذا على الانسان فى مدح نفسه ... اذا لم يكن فى قوله بكذوب ؟

لَعِبَتْ بِهَا أَيْدِى ٱلزَّمَنِ ، وَفَرَّقَتْ بَيْنَ ٱلْمَسْكَنِ وَٱلسَّكَنِ. كَانَتْ مَقَاصِيرَ جَنَّةٍ ، فَأَصْبَحَتْ وَهِيَ مَلَاعِبُ جِنَّةٍ ، وَقَدْ عَمِيَتْ أَخْبَارُ قُطَّانِهَا ، وَآثَارُ أَوْطَانِهَا ، حَتَّى شَابَهَتْ إِحْدَاهُمَا فِى ٱلْخَفَاءِ ، ٱلْأُخْرَى فِى ٱلْعَفَاءِ ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا لَا تُسْقَى بَعْدَهُمْ بِغَمَامٍ ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْهَا جِلْبَابُ ظَلَامٍ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلسَّحَابَ بَكَاهُمْ فَأَجْرَى بِهَا هَوَامِعَ دُمُوعِهِ ، وَٱللَّيْلُ شَقَّ عَلَيْهِمْ جُيُوبَهُ فَظَهَرَ ٱلصَّبَاحُ مِنْ خِلَالِ صُدُوعِهِ » . وَقَدْ لمح فِى بَعْضِ كَلَامِهِ قَوْلَ ٱلشَّرِيفِ مِنْ أَبْيَاتٍ (١) يَصِفُ فِيهَا مَا كَانَ فِى ٱلْحِيرَةِ مِنْ مَنَازِلِ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ :

مَا زِلْتُ أَطْرُقُ لِلْمَنَازِلِ بِاللِّوَى
حَتَّى نَزَلْتُ مَنَازِلَ ٱلنُّعْمَانِ

وكان يعارض القاضى الفاضل فى رسائله فاذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات » توفى سنة ٦٣٧ — رحمه الله — (١) هى من أول قصيدة له قالها وقد خرج الى الكوفة لزيارة مشهد الامام على — رضى الله عنه — وعرج الى الحيرة فطاف بها ونظر الى عجيب آثارها وبنائها ورأى الظباء ترتع فى عراصها ، وذلك فى سنة ٣٩٢ وصدر البيت الأول فى الديوان :

* مازلت أطرق المنازل باللوى * ، وفى نسخة أخرى : بالنوى

بِالْحِيرَةِ ٱلْبَيْضَاءِ حَيْثُ تَقَابَلَتْ
شُمُّ ٱلْعِمَادِ عَرِيضَةَ ٱلْأَعْطَانِ (١)

شَهِدَتْ بِفَضْلِ ٱلرَّافِعِينَ قِبَابُهَا
وَيَبِينُ بِالْبُنْيَانِ فَضْلُ ٱلْبَانِي

مَا يَنْفَعُ ٱلْمَاضِينَ أَنْ بَقِيَتْ لَهُمْ
خِطَطٌ مُعَمَّرَةٌ بِعُمْرٍ فَانِي

وَيَقُولُ فِيهَا :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِدَيْرِ هِنْدٍ مَنْزِلًا
أَلِمًا مِنَ ٱلضَّرَّاءِ وَٱلْحَدَثَانِ (٢)

---

(١) شم : أى عالية مرتفعة جمع أشم وشماء ـ والأعطان : جمع عطن : وهو وطن الابل ، وغلب على مبركها حول الحوض ومربض الغنم حول الماء ـ ورفعة العماد يكنى به عن الشرف والسيادة ، وعرض الأعطان كناية عن الغنى والثروة ـ ويقال هو رحب العطن ، وواسع العطن: أى كثير المال واسع الرحل رحب الذراع (٢) دير هند الكبرى بالحيرة بنته هند أم عمرو بن هند وهى هند بنت الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندى ـ ودير هند الصغرى بالحيرة أيضاً فى موضع نزه ، وهى هند بنت النعمان بن المنذر المعروفة بحرقة ـ قال هشام الكلبي كان كسرى قد غضب على النعمان فحبسه فنذرت ابنته هند ان رده الله الى ملكه أن تبنى ديرا تسكنه حتى تموت فخلى كسرى عن أبيها النعمان فبنت الدير

يُغْضِي كَمُسْتَمِعِ ٱلْهَوَانِ تَغَيَّبَتْ
أَنْصَارُهُ وَخَلَا مِنَ ٱلْأَعْـوَانِ
بَالِي ٱلْمَعَالِمِ أَطْرَقَتْ شُرُفَاتُهُ
إِطْرَاقَ مُنْجَذِبِ ٱلْقَرِينَةِ عَانِي[1]

وأقامت به حتى ماتت فدفنت فيه ـ وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا الدير ، وفيه يقول الأمير معن بن زائدة الشيباني وكان منزله قريبا منه :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   لدى دير هند والحبيب قريب
فنقضي لبانات ونلـقى أحبـة   ويورق غصن للسرور رطيب

(١) القرينة النفس ، يقال أسمحت قرينته وأصحبت أى ذلت نفسه وتابعته على الأمر، والقرين الصاحب المقارن، وقرينة الرجل صاحبته وامرأته لمقارنته اياها والقرينة: الناقة تشد الى أخرى ـ فلعل المراد من منجذب القرينة الواحد المنفرد الذى لا ناصر له ولا معين أو لعله يشير الى معنى قول عمرو بن كلثوم

متى نعقد قرينتنا بحبـل   تجذ الحبل أو تقص القرينا

قرينته نفسه ، يقول اذا أقرنا لقرن غلبناه ـ أو القرينة الناقة يقول متى قرنا ناقتنا بأخرى قطعت الحبل أو كسرت عنق القرين معها ـ وهو على المثل أى متى قرنا بقوم فى قتال أو خصام غلبناهم وقهرناهم ـ واذا كان الشريف الرضى يلمح هذا المعنى جاز أن تكون كلمة « منجذب » فى بيته محرفة عن منجذ ـ أى منقطع ـ والعانى الأسير والخاضع الذليل ـ ويقال : فلان اذا جاذبته قرينته قهرها، أى اذا قرنت به الشديدة أطاقها وغلبها ـ والخلاصة أن « منجذب القرينة » يراد منه الانفراد والانقطاع عن المعين، والقهر والذل والغلبة «أحمد يوسف نجاتى»

أَمَقَاصِرَ ٱلْغِزْلَانِ غَيَّرَكِ ٱلْبِلَى

حَتَّى غَدَوْتِ مَرَابِضَ ٱلْغِزْلَانِ[١]

وَمَلَاعِبَ ٱلْإِنْسِ ٱلْجَمِيعِ طَوَى ٱلرَّدَى

مِنْهُمْ فَصِرْتِ مَلَاعِبَ ٱلْجِنَّانِ[٢]

وَمِنْهَا :

مِسْكِيَّةُ ٱلنَّفَحَاتِ تَحْسَبُ تُرْبَهَا

بُرْدَ ٱلْخَلِيعِ مُعَطَّرَ ٱلْأَرْدَانِ[٣]

وَكَأَنَّمَا نَسِيَ ٱلتِّجَارُ لَطِيمَةً

جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ بِهَا عَلَى ٱلْعِقْيَانِ[٤]

مَاءٍ كَجَيْبِ ٱلدِّرْعِ يَصْقُلُهُ ٱلصَّبَا

وَنَقًى يُدَرِّجُهُ ٱلنَّسِيمُ ٱلْوَانِي[٥]

---

(١) الغزلان الأولى ظباء الانس ــ والغزلان الثانية ظباء الفلاة (٢) الجنان : جمع جن (٣) الأردان : الأكمام ، وخص الخليع لأنه يعنى بملابسه فهو يعطر نفسه ، ويجمل زيه ، ليكون ذلك شركا صائدا ، وسببا جاذبا . (٤) اللطيمة واللطيم : المسك ، أوكل طيب يحمل على الصدغ ــ واللطيمة وعاء المسك أو سوقه ، والرواية « على القيعان » (٥) ويروى : وبنى بدوحته النسيم الوانى . جيب الدرع والقميص : طوقه ، والنقى من الرمل : القطعة تنقاد محدودبة ، والكثيب الأبيض منه المجتمع الذى

زَفَرَ ٱلزَّمَانُ عَلَيْهِمُ فَتَفَرَّقُوا
وَجَلَوْا عَنِ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْأَوْطَانِ

وَقَالَ أَبُو إِسْحٰقَ ٱلصَّابِي ـ وَتَوَارَدَ مَعَ ٱلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلْقَافِيَةِ ـ يَصِفُ قَصْرَ رَوْحٍ بِالْبَصْرَةِ

أَحْبِبْ إِلَيَّ بِقَصْرِ رَوْحٍ مَنْزِلًا
شَهِدَتْ بَنِيَّتُهُ بِفَضْلِ ٱلْبَانِي

سُورٌ عَـلَا وَتَمَنَّعَتْ شُرُفَاتُهُ
فَـكَأَنَّ إِحْدَاهُنَّ هَضْبُ أَبَانِ[1]

وَكَأَنَّمَا يَشْـكُو إِلَى زُوَّارِهِ
بَيْنَ ٱلْخَلِيطِ وَفُرْقَةَ ٱلْجِيرَانِ[2]

لايثبت شيئا ـ شبه مايعلو سطح الماء من الحبك اذا مرفوقه النسيم بغضون الدرع صقلتها الصبا ، أو بالنقى الذى يمر به النسيم اللين فيحدث به غضونا وخطوطا متقطعة ـ والنسيم الوانى ضعيف الهبوب ، قال جحدر :

وظهر تنوفـة للريح فيها نسيم لايروع الترب وانى

وعجز البيت محرف فى الأصل تحريفا غير مفهوم ، فقدكان « ... ويقى بدوحته ... » (١) أبان : اسم جبل ـ وهما أبانان أبان الأبيض وهو شرقى الحاجر وهو لبنى فزارة وعبس ، وأبان الأسود وهو لبنى فزارة خاصة ، و بينه و بين الأبيض ميلان ـ وقيل هما لبنى مناف بن دارم بن تميم بن مر ، وكلاهما محدد الرأس كالسنان (٢) البين الفراق والبعد ، والخليط : الصاحب والصديق . « أحمد يوسف نجاتى »

وَ كَأَنَّمَا يُبْدِي لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ إِطْرَاقَ مَحْزُونِ الْحَشَا حَرَّانِ

وَلِأَحْمَدَ بْنِ فَرَجٍ الْإِلْبِيرِيِّ مِنْ أَبْيَاتٍ :

سَأَلْتَ بِهَا فَمَا رَدَّتْ جَوَابًا
عَلَيْكَ وَ كَيْفَ تُخْبِرُكَ الطُّلُولُ ؟
وَمِنْ سَفَهٍ سُؤَالُكَ رَسْمَ دَارٍ
مَضَى لِعَفَائِهِ زَمَنٌ طَوِيلُ
فَإِنْ تَكُ أَصْبَحَتْ قَفْرًا خَلَاءً
لِعَيْنِكِ فِي مَغَانِيهَا هُمُولُ
فَقِدْمًا قَدْ نَعِمْتَ قَرِيرَ عَيْنٍ
بِهَا وَبِرَبْعِهَا الرَّشَأُ الْكَحِيلُ

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ الْحَنَّاطِ[1] الْأَنْدَلُسِيُّ الْأَعْمَى :

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ نَارِ
لَمْ تُوقِدِ النَّارَ بِالْهِنْدِيِّ وَالْغَارِ[2]

(١) فى الأصل « الحياط » وقد تقدم رأيى فى هذا ـ وزادنى اعتصاما به أن وصفه هنا بالأعمى فهو هو ابن الحناط الذى قدمت ترجمته من قبل « أحمد يوسف نجاتى »(٢) الغار : ضرب من الشجر له ورق طيب الريح يقع فى العطر ، قال عدى بن زيد العبادى :

يَا دَارَ عُلْوَةَ قَدْ هَيَّجْتِ لِي شَجَنَا
وَزِدْتِنِي حُرَقًا حُيِّيتِ مِنْ دَارِ
كَمْ بِتُّ فِيكِ عَلَى ٱللَّذَّاتِ مُعْتَكِفًا
وَٱللَّيْلُ مُدَّرِعٌ ثَوْبًا مِنَ ٱلْقَارِ ؟
كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي ٱلْمِسْحِ مُلْتَحِفٌ
شَدَّ ٱلْمَجَرَّ لَهُ وَسْطًا بِزُنَّارِ(1)
يُدِيرُ فِيهِ كُؤُوسَ ٱلرَّاحِ ذُو حَوَرٍ
يُدِيرُ مِنْ لَحْظِهِ أَلْحَاظَ سَحَّارِ

وَلَا مَزِيدَ فِي ٱلتَّفَجُّعِ عَلَى ٱلدِّيَارِ ، وَٱلتَّوَجُّعِ لِلدِّمَنِ وَٱلْآثَارِ ، عَلَى قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ يَرْثِي بِهَا ٱلْمُتَوَكِّلَ :

مَحَلٌّ عَلَى ٱلْقَاطُولِ أَخْلَقَ دَاثِرُهْ
وَعَادَتْ صُرُوفُ ٱلدَّهْرِ جَيْشًا تُغَاوِرُهْ(2)

رب نار بت أرمقها   تقضم الهندى والغارا

والمراد بالهندى العود الطيب الذى يأتى من بلاد الهند ــ وانما توقد النار بالهندى والغار اذا أريد البخور والتعطر بالريح الذكية (1) المسح ثوب غليظ من الشعر ، والمجر والمجرة فى السماء معروفة ، وفى الأصل « المجد » بدل المجرة وهو تحريف ، والزنار مايشد على الوسط معروف شبه الليل براهب ملتحف بمسح أسود وجعل نجوم المجرة زنارا له (2) القاطول: نهر

كَأَنَّ الصَّبَا تُوفِى نُذُورًا إِذَا انْبَرَتْ
تُرَاوِحُهُ أَذْيَالُهَا وَتُبَاكِرُهْ

وَرُبَّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ثَمَّ(١) عَهْدُهُ
تَرِقُّ حَوَاشِيهِ وَيُونِقُ نَاضِرُهْ

تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِىِّ وَأُنْسُهُ
وَقُوِّضَ بَادِى الْجَعْفَرِىِّ وَحَاضِرُهْ(٢)

« كأنه قطل أى قطع من دجلة » وهو نهر كان فى موضع سامراء قبل أن تعمر ، وكان هرون الرشيد أول من حفره ، وفوق هذا القاطول القاطول الكسروى حفره كسرى أنو شروان يأخذ من جانب دجلة فى الجانب الشرقى أيضا ، وعليه شاذروان فوقه يسقى رستاقا بين النهرين ، وحفر بعده الرشيد هذا القاطول تحته مما يلى بغداد وهو أيضا يصب فى النهروان تحت الشاذروان — وأخلق أى بلى ، ودثر الشيء دثورا درس وعفا وامحى. وغاور واوتغاوروا : أغار بعضهم على بعض وغاوره شن عليه الغارة . والبيت فى الأصل فيه تحريفان « العاطول » بدل القاطول و « تغادره » بدل تغاوره ، وهو تحريف مفسد — والقصيدة رثى بها المتوكل حين قتل سنة ٢٤٧ بقصره الجعفرى . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) ثم : هناك — وفى الأصل « تم » محرفة — ويونق أى يعجب ، وفى الديوان « يورق » — وعيش رقيق الحواشى : أى ناعم فى دعة

(٢) الجعفرى اسم قصر بناه أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله الخليفة العباسى قرب سامراء واستحدث عنده مدينة وأقطع القواد منها قطائع فصارت أكبر من سامراء ، ولما قتل به المتوكل سنة ٢٤٧

تَحَمَّلَ عَنْـهُ سَاكِنُوهُ فُجَاءَةً

فَعَادَتْ سَوَاءً دُورُهُ وَمَقَابِرُهْ (١)

إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَـدَّ لَنَا ٱلْأَسَى

وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ يَبْهَـجُ زَائِرُهُ

وَلَمْ أَنسَ وَحْشَ ٱلْقَصْرِ إِذْ رِيعَ سِرْبُهُ

وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَآذِرُهْ (٢)

وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ

عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ

عاد الناس الى سامراء بعد أن كادت تخلو منهم . وللشعراء فى ذكر الجعفرى قول كثير ، ولعل البحترى أحسن من وصفه وأجاد القول فيه ولاسيما فى قصيدته التى مطلعها :

ان اللواء غـداة سفح محجر   هيجن حرجوى وفرط تذكر

يقول فيها :

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن   ليتم الا بالخليفـــة جعفـــر

فى رأس مشرفة حصاها جوهر   وترابها مسك يشاب بعنبر ....

(١) فى الأصل «ومقاصره» وفى الديوان «ومقابره» وهو أحسن وأظهر لأن الغرض وصف الدور بالوحشة بعد ذعر الساكنين منها وتفرقهم عنها

(٢) الطلا ولد الظبى ساعة يولد ، والصغير من كل شىء ، والجؤذر ولد البقرة الوحشية ، ويصح فيهما هنا ارادة الحقيقة وارادة المجاز « أحمد يوسف نجاتى »

وَوَحْشَتَهُ[1] حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ

أَنِيسٌ وَلَمْ تَحْسُنْ لِعَيْنٍ مَنَاظِرُهْ

كَأَنْ لَمْ تَبِتْ[2] فِيهِ الْخِلَافَةُ طَلْقَةً

بَشَاشَتُهَا وَالْمُلْكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهْ

وَلَمْ تَجْمَعِ الدُّنْيَا إِلَيْهِ بَهَاءَهَا

وَبَهْجَتَهَا وَالْعَيْشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ[3]

فَأَيْنَ الْحِجَابُ الصَّعْبُ حَيْثُ تَمَنَّعَتْ

بِهَيْبَتِهَا أَبْوَابُهُ وَمَقَاصِرُهْ ؟

وَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ

تَنُوبُ ، وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهْ ؟

وَعَلَى قَوْلِ أَبِي إِسْحَقَ بْنِ خَفَاجَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ :

---

(١) كذا رواية الديوان «ووحشته» بالعطف على «وحش القصر» ولعله أولى مما في الأصل « وأوحشه» (٢) في الأصل «تبن» وهو تحريف وان كان له معنى متكلف (٣) المكسر . مخبر الشيء يقال هو طيب المكسر ورديء المكسر ، ورجل صلب المكسر أي قوي شديد ، وعيش غض المكسر وطيب المكسر اذا كان ناعما لينا ورغدا هنيئا وطيبا سهلا .

وَمُرْتَبَعٍ حَطَطْتُ الرَّحْلَ فِيهِ
بِحَيْثُ الظِّلُّ وَالْمَاءُ الْقَرَاحُ[1]

تَخَرَّمَ حُسْنَ مَنْظَرِهِ مَلِيكٌ
تَخَرَّمَ مُلْكَهُ الْقَدَرُ الْمُتَاحُ[2]

فَجَرْيَةُ مَاءِ جَدْوَلِهِ بُكَاءٌ
عَلَيْهِ وَشَدْوُ طَائِرِهِ نُوَاحُ

وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى الدِّمَنِ ، وَالتَّأَسُّفِ عَلَى مَا فَعَلَتْ بِهَا أَيْدِي الزَّمَنِ ، كَثِيرٌ جِدًّا ، لَا يَعْرِفُ الْبَاحِثُ عَنْهُ لَهُ حَدًّا ، وَذٰلِكَ لِشِدَّةِ وَلُوعِ النُّفُوسِ بِذِكْرِ أَحْبَابِهَا ، وَحَنِينِهَا إِلَى أَمَاكِنِهَا الَّتِي هِيَ مَوَاطِنُ أَطْرَابِهَا ، وَلِهٰذَا

(١) ارتبع بمكان كذا أقام به فى الربيع، والموضع مرتبع كالمربع، ثم تجوز فيه حتى سمى كل منزل مرتبعا ومربعا . والقراح الماء الصافى النقى والعذب السائغ (٢) تخرمه واخترمه : استأصله واقتطعه ، وفى الديوان « يحرم » فى شطرى البيت بدل « يخرم » والمتاح المقدر المهيأ — والشاعر هو أبو خفاجة ابراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة الشاعر الأديب المشهور كان مقيما بشرق الأندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها مع تهافتهم على أهل الأدب ، ولد بجزيرة شقر من أعمال بلنسية سنة ٤٥٠ وتوفى بها سنة ٥٣٣ « أحمد يوسف نجاتى »

اُقْتَصَرْنَا عَلَى هٰذِهِ النُّبْذَةِ الْقَلِيلَةِ ، وَجَعَلْنَاهَا نَبْعَةً[1] يَشْفِي الْمَشُوقُ بِهَا غَلِيلَهُ . وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ التَّأَسُّفَ عَلَى الدِّيَارِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ لَا يُجْدِي ، وَلَا يَدْفَعُ عَادِيَةَ الدَّهْرِ الْخَؤُون وَلَا يُعْدِي[2] ، وَنَهَوْا عَنْهُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَجْدِيدِ الْمُصَابِ ، الْمُجَرِّعِ لِصَاحِبِهِ الصَّابَ وَالْأَوْصَابَ[3] ، قَالَ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ[4] :

عَفَتِ الْمَنَازِلُ غَيْرَ أَرْسُمِ دِمْنَةٍ
حَيَّيْتُهَا مِنْ دِمْنَةٍ وَرُسُومِ

كَمْ ذَا الْوُقُوفُ وَلَمْ تَقِفْ فِي مَنْسَكٍ
كَمْ ذَا الطَّوَافُ وَلَمْ تَطُفْ بِحَرِيمِ ؟[5]

---

(١) أو « نغبة » وهي الماء القليل ، أو الجرعة (٢) أعداه : قواه وأعانه ونصره — يقال استعديت على فلان الأمير فأعداني أي استعنته فأعانني (٣) الصاب شجر مر ، وقيل هو عصارة الصبر — والأوصاب جمع وصب وهو المرض والألم الشديد الدائم ، والوجع اللازم (٤) هو الامام يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر ، ولد سنة ٣٦٢ وتوفي سنة ٤٦٣ وتقدمت ترجمته . (٥) المنسك : مكان النسك أي العبادة ، والحريم هنا الحرم حرم مكة وما أحاط الى قريب من الحرم ، والحريم ماحرم فلا يمس بأذى وحريم الدار ما أضيف اليها وكان من حقوقها ومرافقها ، والحريم : فناء المسجد

فَكِلِ ٱلدِّيَارَ إِلَى ٱلْجَنَائِبِ وَٱلصَّبَا

وَدَعِ ٱلْقِفَارَ إِلَى ٱلصَّدَى وَٱلْبُومِ(١)

انْتَهَى كَلَامُهُ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - بِأَكْثَرِ لَفْظِهِ مَعَ بَعْضِ ٱخْتِصَارٍ.

« رَجْعٌ إِلَى قُرْطُبَةَ فَنَقُولُ » : وَقَدْ أَلَمَّ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - بِذِكْرِ قُرْطُبَةَ وَبَعْضِ أَوْصَافِهَا فِي كِتَابٍ لَهُ كَتَبَهُ عَلَى لِسَانِ سُلْطَانِهِ إِلَى رَسُولِ ٱللهِ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ بِجُمْلَتِهِ فِي ٱلْبَابِ ٱلْخَامِسِ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي ، فَلْيُرَاجَعْ ثَمَّةَ ، وَنَصُّ مَحَلِّ ٱلْحَاجَةِ مِنْهُ هُنَا : ثُمَّ كَانَ ٱلْغَزْوُ إِلَى أُمِّ ٱلْبِلَادِ ، وَمَثْوَى ٱلطَّارِفِ وَٱلتِّلَادِ قُرْطُبَةَ ، وَمَا قُرْطُبَةُ ؟ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِهَا فِي ٱلْقَدِيمِ ، بِهٰذَا ٱلْإِقْلِيمِ ، كَانَ ٱلْعَمَلُ ، وَٱلْكُرْسِيُّ ٱلَّذِي بِعَصَاهُ رُعِيَ ٱلْهَمَلُ ، وَٱلْمِصْرُ ٱلَّذِي لَهُ فِي خِطَّةِ ٱلْمَعْمُورِ

---

(١) الجنائب ، جمع جنوب : وهى ريح تقابل الشمال وتأتى عن يمين القبلة أوما استقبلك عن شمالك اذا وقفت فى القبلة « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلنَّاقَةُ وَٱلْجَمَلُ[١] ، وَٱلْأُفُقُ ٱلَّذِى هُوَ لِشَمْسِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْعَبْشَمِيَّةِ ٱلْحَمَلُ[٢] ، فَخَيَّمَ ٱلْإِسْلَامُ فِى عُقْرَتِهَا[٣] ٱلْمُسْتَبَاحَةِ وَأَجَازَ نَهْرَهَا ٱلْمُعْيِي عَلَى ٱلسِّبَاحَةِ[٤] ، وَعَمَّ دَوْحَهَا ٱلْأَشِبَ بَوَارًا[٥] ، وَأَدَارَ ٱلْمَحَلَّاتِ[٦] بِسُورِهَا سِوَارًا ، وَأَخَذَ بِمُخَنَّقِهَا حِصَارًا ، وَأَعْمَلَ ٱلنَّصْرَ بِشَجَرَةِ[٧] أَصْلِهَا ٱجْتِنَاءً مَا شَاءَ وَٱهْتِصَارًا[٨] ، وَجَدَّلَ مِنْ أَبْطَالِهَا مَنْ لَمْ يَرْضَ ٱنْجِحَارًا[٩] ،

---

(١) يرى أنه له كل شيء عكس المثل المشهور : لاناقة له ولا جمل . وفى الأصل « والمصر المعموز الذى فى خطه الناقة الخ » وفى ذلك نقص وتحريف قد يقع القارىء معه فى حيرة (٢) تحل الشمس فى برج الحمل أول فصل الربيع أطيب الأزمنة وشبابها (٣) عقرة الدار وعقرها : وسطها وأصلها ، وهو محلة القوم ، وفى الحديث ماغزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا (٤) فى الأصل « المغنى عن السباحة » وهو تحريف مفسد « أحمد يوسف نجاتى » (٥) أشب الشجر « كفرح فهو أشب » وتأشب اذا التف وكثر حتى صعب المجاز فيه — وموضع أشب وغيضة أشبة : كثيرة الشجر الملتف المشتبك (٦) محلة القوم : منزلهم . وفى الجزء الرابع من النفح « الطبعة القديمة » وأدار الـكماة (٧) أو « بشجر نصلها » (٨) هصر الغصن ونحوه واهتصره : كسره ، أوجذبه وأماله وكسره من غير بينونة وانفصال — والاهتصار أيضا سقوط الغصن على الأرض — وفى أصل الرسالة « الباب الخامس من القسم الثانى » وأعمل النصل بدل « النصر » (٩) جدله فانجدل وتجدل اذا رماه وصرعه على الجدالة : أى الأرض — والانجحار مجاز عن الاستكانة والخضوع وأصله الدخول فى الجحر والالتجاء اليه ، والمحجر : المضطر الملجأ

فَأَعْمَلَ إِلَى ٱلْمُسْلِمِينَ إِصْحَارًا(١) حَتَّى قُرِعَ بَعْضُ جِهَاتِهَا غِلَابًا جِهَارًا ، وَرُفِعَتِ ٱلْأَعْلَامُ إِعْلَامًا بِعِزِّ ٱلسُّلْطَانِ وَإِظْهَارًا . فَلَوْلَا ٱسْتِهْلَالُ ٱلْغَوَادِي(٢) وَأَنْ أَتَى ٱلْوَادِي، لَأَفْضَتْ إِلَى فَتْحِ ٱلْفُتُوحِ تِلْكَ ٱلْمَبَادِي ، وَلَقَضَى تَفَثَهُ(٣) ٱلْعَاكِفُ وَٱلْبَادِي . ٱنْتَهَى .

« وَمِمَّا كَتَبَ بِهِ لِسَانُ ٱلدِّينِ ـ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى ـ فِي وَصْفِ هٰذِهِ ٱلْغَزْوَةِ لِسُلْطَانِ بَنِي مَرِينَ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ ٱلْأَنْدَلُسِ مَا صُورَتُهُ » : ٱلْمَقَامُ ٱلَّذِي نُطَالِعُهُ بِأَخْبَارِ ٱلْجِهَادِ ، وَنُهْدِي إِلَيْهِ عَوَالِيَ ٱلْعَوَالِي صَحِيحَةَ ٱلْإِسْنَادِ(٤) ، وَنُبَشِّرُهُ بِأَخْبَارِ ٱلْفَتْحِ ٱلْبَعِيدِ ٱلْآمَادِ ، وَنَسْأَلُ ٱللّٰهَ تَعَالَى لَهُ دَوَامَ ٱلْإِسْعَادِ وَتَوَالِيَ ٱلْإِمْدَادِ ، وَنَرْتَقِبُ مِنْ صُنْعِ ٱللّٰهِ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ تَكْيِيفًا(٥) يَخْرِقُ حِجَابَ ٱلْمُعْتَادِ ، وَٱمْتِعَاضًا يُطْلِعُ بِآفَاقِ

---

(١) أصحر بالأمر : أظهره وجاهر به مكاشفة (٢) استهل المطر : كثر واشتد انصبابه وارتفع صوت وقعه، والغوادي: جمع غادية وهي السحابة ـ تنشأ غدوة، والغادية : مطرة الغداة (٣) أصل التفث النسك من مناسك الحج ، والعبارة مقتبسة من قوله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم » يعني قضاء حاجاتهم من الحلق والتنظيف وغير ذلك (٤) توجيه من مصطلح الحديث يريد ونخبره بالأعمال العظيمة التي أتت بها قوة الرماح والاسلام على حقيقتها قوية عظيمة (٥) هذا أصله من استعمال المتكلمين فقد اشتقوا فعلا من « كيف »

ٱلْبِلَادِ نُجُومَ غُرَرِ ٱلْجِيَادِ[١] ، وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ ٱلْفُتُوحِ بِأَقَالِيدِ[٢] ٱلسُّيُوفِ ٱلْحِدَادِ ، وَيُنْبِئُ عَنْ مَكَارِمِ مَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْآبَاءِ ٱلْكِرَامِ وَٱلْأَجْدَادِ ، مَقَامُ مَحَلِّ أَخِينَا ٱلَّذِي نَسْتَفْتِحُ لَهُ بِالْفَتْحِ وَٱلظُّهُورِ[٣] ، وَنُهْدِي إِلَى مَجْدِهِ لِمَا نَعْلَمُ مِنْ فَضْلِ نِيَّتِهِ وَحُسْنِ قَصْدِهِ لَطَائِفَ السُّرُورِ ، وَنَسْتَظْهِرُ بِمُلْكِهِ ٱلْمُؤَيَّدِ ٱلْمُؤَمَّلِ وَبِجَدِّهِ[٤] ٱلْمَشْهُورِ ، وَنَتَوَعَّدُ مِنْهُمَا ٱلْعَدُوَّ بِالْحَبِيبِ ٱلْمَذْخُورِ وَٱلْوَلِيِّ ٱلْمَنْصُورِ ، ٱلسُّلْطَانُ «ٱلْكَذَا» أَبْنُ ٱلسُّلْطَانِ «ٱلْكَذَا» أَبْنِ ٱلسُّلْطَانِ «ٱلْكَذَا» ، أَبْقَاهُ ٱللهُ تَعَالَى عَالِيَ ٱلْقَدْرِ ، قَرِيرَ ٱلْعَيْنِ مُنْشَرِحَ ٱلصَّدْرِ ، وَلَا زَالَ حَدِيثُ فَخْرِهِ سَائِرًا مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْبَدْرِ ، مُعَظِّمٌ[٥] سُلْطَانِهِ ٱلْخَلِيقِ بِالتَّعْظِيمِ ، ٱلْوَاثِقُ مِنْهُ بِالذُّخْرِ ٱلْكَرِيمِ ، ٱلْمُثْنِي عَلَى مَجْدِهِ ٱلصَّمِيمِ . وَفَضْلِهِ ٱلْعَمِيمِ ، أَمِيرُ ٱلْمُسْلِمِينَ عَبْدُ ٱللهِ

فقالوا كيفه فتكيف ، وكيفية ، فهو كلام مولدوان أجروه على قياس كلام العرب - يريد هنا صنعايدبره الله كيف يشاءوطريقا عظيما غير مألوف

(١) شبه غرة الجواد بالنجم فى بياضها واشراقها (٢) جمع اقليد وهو المفتاح

(٣) من قوله تعالى : «ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» ، والظهور : النصر والغلبة (٤) فى الأصل «وبجده» يريد بجده: سيفه، وشهر السيف: استله من غمده وشهره : انتضاه ليضرب به، وفى «المشهور» تورية ظاهرة. وفى بعض المراجع «بجده» بدل «حده» (٥) فى الأصل «عظم» ولا بأس بها ولكنى وجدت

ٱلْغَنِيُّ بِاللهِ مُحَمَّدٌ(١) بْنُ أَمِيرِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَبِي ٱلْحَجَّاجِ ٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَبِي ٱلْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ . سَلَامٌ كَرِيمٌ ، بِرٌّ عَمِيمٌ ، يَخُصُّ مَقَامَكُمُ ٱلْأَعْلَى ، وَأُخُوَّتَكُمُ ٱلْفُضْلَى ، وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ . أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعِبَادِ وَمُلْهِمِ ٱلرَّشَادِ ، وَمُكَيِّفِ ٱلْإِسْعَافِ وَٱلْإِسْعَادِ ، ٱلْوَلِيِّ ٱلنَّصِيرِ ٱلَّذِي نُلْقِي إِلَى ٱلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ مَقَالِيدَ ٱلِاعْتِمَادِ ، وَنَمُدُّ إِلَى إِنْجَادِهِ وَإِمْدَادِهِ أَيْدِيَ ٱلِاعْتِدَادِ ، وَنَرْفَعُ إِلَيْهِ أَكُفَّ ٱلِاسْتِمْدَادِ ، وَنُخْلِصُ لِوَجْهِهِ ٱلْكَرِيمِ عَمَلَ

لسان الدين فى كثير من رسائله فى مثل هذه المقامات يلتزم هذا الأسلوب وذلك النظام، فيبدأ بقوله «المقام الخ» و يصفه بما يناسب ، ثم يخبر عنه بقوله « مقام محل أخينا أو أبينا » كما يقتضيه منزلة المرسل اليه، و يصفه بما يستدعيه المقام ، ثم يبدأ محدثا عن المرسل الذى كتب الرسالة على لسانه بقوله : « معظم سلطانه أو نحو ذلك » ـ انظر كتاب الاحاطة، والاستقصاء «أحمد يوسف نجاتى»

(١) كانت ولايته بعد وفاة أبيه أبى الحجاج يوسف بن اسمعيل سنة ٧٥٥ واستمر حتى توفى سنة ٧٩٨ وقويت شوكته وتوطدت دعائم ملكه لاختلاف ملوك الأسبان وقيام بعضهم على بعض ـ ولقد أحسن الغنى بالله فى انتهاز هذه الفرصة ، فاسترد بحسن سياسته كثيرا من البلاد التى كان الأسبانيون قد استولوا عليها من قبل « وكانوا قد استولوا على قرطبة سنة ٦٣٣ الموافقة سنة ١٢٣٦ م أخذها فرديناند الثالث ملك قشتالة المسمى « سان فردنند » وهو الذى استولى أيضا على مدينة اشبيلية سنة ٦٤٦ الموافقة سنة ١٢٣٦ م ولله الأمر من قبل ومن بعد . «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْجِهَادِ ، فَنَتَعَرَّفُ عَوَارِفَ ٱلْفَضْلِ ٱلْمُزْدَادِ ، وَنَجْتَنِي ثِمَارَ ٱلنَّصْرِ مِنْ أَغْصَانِ ٱلْقَنَا ٱلْمُنْآدِ(١) ، وَنَجْتَلِي وُجُوهَ ٱلصُّنْعِ ٱلْوَسِيمِ أَبْهَرَ مِنْ وَجْهِ ٱلصَّبَاحِ ٱلْبَادِ ، وَنَظْفَرُ بِالنَّعِيمِ ٱلْعَاجِلِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلنَّعِيمِ ٱلْآجِلِ يَوْمَ قِيَامِ ٱلْأَشْهَادِ ، وَنَتَفَيَّأُ ظِلَالَ ٱلْجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ أَوْرَاقِ ٱلسُّيُوفِ ٱلْحِدَادِ .

وَٱلصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْهَادِ ، رَسُولِ ٱلْمَلْحَمَةِ ٱلْمُؤَيَّدِ بِالْمَلَائِكَةِ ٱلشِّدَادِ ، وَنَبِيِّ ٱلرَّحْمَةِ ٱلْهَامِيَةِ ٱلْعِهَادِ(٢) ، أَكْرَمِ ٱلْخَلْقِ بَيْنَ ٱلرَّائِحِ وَٱلْغَادِ ، ذِي ٱللِّوَاءِ ٱلْمَعْقُودِ ، وَٱلْحَوْضِ ٱلْمَوْرُودِ ، وَٱلشَّفَاعَةِ فِي يَوْمِ ٱلتَّنَادِ(٣) ، ٱلَّذِي بِجَاهِهِ نَجْدَعُ أُنُوفَ ٱلْآسَادِ يَوْمَ ٱلْجِلَادِ ، وَبِبَرَكَتِهِ نَنَالُ أَقْصَى ٱلْأَمَلِ وَٱلْمُرَادِ ، وَفِي مَرْضَاتِهِ نَصِلُ أَسْبَابَ ٱلْوِدَادِ ، فَنَعُودُ بِالتَّجْرِ ٱلرَّابِحِ مِنْ مَرْضَاةِ رَبٍّ

---

(١) من قول ابن هانئ الأندلسي :

وجنيتم ثمر الوقائع يانعا … بالنصر من ورق الحديد الأخضر

وانآد : اعوج ، وانما تنآد القنا لكثرة إعمالها وطول الطعن بها وفي بعض المراجع « المياد » (٢) العهاد : مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله فلا يزال يتعاهد الأرض بصيبه (٣) يوم التناد « التنادي » هو يوم القيامة حين ينادي الخلق بعضهم بعضا ، فينادي فيه أهل الجنة أهل النار .

ٱلْعِبَادِ ، وَنَسْتَوْلِى فِى مَيْدَانِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْمُعَادَةِ عَلَى ٱلْآمَادِ ، وَٱلرِّضَا عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَنْصَارِهِ وَحِزْبِهِ ٱلْكُرَمَاءِ ٱلْأَمْجَادِ ، دَعَائِمِ ٱلدِّينِ مِنْ بَعْدِهِ وَهُدَاةِ ٱلْعِبَادِ ، أَنْجَادِ(١) ٱلْأَنْجَادِ وَآسَادِ ٱلْآسَادِ ، ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُ فِى حَيَاتِهِ بِٱلْحُلُومِ ٱلرَّاجِحَةِ ٱلْأَطْوَادِ ، وَٱلْبَسَالَةِ ٱلَّتِى لَا تُنَالُ بِٱلْعَدَدِ فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَٱلْإِعْدَادِ ، حَتَّى بَوَّءُوا(٢) ٱلْإِسْلَامَ فِى ٱلْقَوَاعِدِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلْبِلَادِ ، وَأَرْغَمُوا أُنُوفَ أَهْلِ ٱلْجَحْدِ وَٱلْإِلْحَادِ ، فَأَصْبَحَ ٱلدِّينُ رَفِيعَ ٱلْعِمَادِ ، مَنْصُورَ ٱلْعَسَاكِرِ وَٱلْأَجْنَادِ ، مُسْتَصْحِبَ ٱلْعِزِّ فِى ٱلْإِصْدَارِ وَٱلْإِيرَادِ . وَٱلدُّعَاءِ لِمَقَامِكُمُ ٱلْأَعْلَى بِٱلسَّعْدِ ٱلَّذِى يُغْنِى عَنِ ٱخْتِيَارِ ٱلطَّوَالِعِ وَتَقْوِيمِ ٱلْمِيلَادِ ، وَٱلنَّصْرِ ٱلَّذِى تُشْرِقُ أَنْبَاؤُهُ فِى جُنْحِ لَيْلِ ٱلْمِدَادِ(٣) ، وَٱلصُّنْعِ ٱلَّذِى

---

(١) الانجاد: جمع نجد وهو الشجاع الماضى فيما يعجز عنه غيره ، والشديد البأس ، والسريع الاجابة الى مادعى اليه (٢) أنزلوه وأسكنوه (٣) يريد فى الصحف المكتوبة ، وهو من قول أبى الطيب :

دعانى اليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وماقلت من شعر تكاد بيوته اذا كتبت يبيض من نورها الحبر

وهو من قول ابن الرومى :

تُشْرَعُ[1] لَهُ أَبْوَابُ ٱلتَّوْفِيقِ وَٱلسَّدَادِ، مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ — حَرَسَهَا ٱللهُ — وَٱلْيُسْرُ قَدْ وَطَّأَ ٱلْمِهَادَ، وَٱلْخَيْرُ وَاضِحُ ٱلْإِشْهَادِ. وَٱلْحَمْدُ لِلهِ فِي ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْمَعَادِ، وَٱلشُّكْرُ لَهُ عَلَى آلَائِهِ ٱلْمُتَّصِلَةِ ٱلتَّرْدَادِ، وَمَقَامُكُمُ ٱلذُّخْرُ ٱلْكَافِي ٱلْعَتَادُ[2]، وَٱلْمُرَدَّدُ[3] ٱلْمُتَكَفِّلُ بِٱلْإِنْجَادِ. وَإِلَى هَـذَا وَصَلَ ٱللهُ سَعْدَكُمْ، وَحَرَسَ مَجْدَكُمْ، وَوَالَى نَصْرَكُمْ وَعَضَدَكُمْ، وَعَدَدَكُمْ وَعُدَدَكُمْ، وَبَلَّغَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ٱلْعَمِيمِ أَمَلَكُمْ وَقَصْدَكُمْ، فَإِنَّنَا نُؤْثِرُ تَعْرِيفَكُمْ بِتَافِهِ ٱلْمُتَزَيِّدَاتِ، وَنُورِدُ عَلَيْكُمْ أَشْتَاتَ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمُتَجَدِّدَاتِ، إِقَامَةً لِرَسْمِ ٱلْخُلُوصِ فِي ٱلتَّعْرِيفِ بِمَا قَلَّ، وَمَوَدَّةً خَالِصَةً فِي

ولمدحيك قلتها سائرات هذبت فيك أيما تهذيب
سودت فيك كل بيضاء تسو يداتراه العيون كالتذهيب

وقد فرع الشعراء من ذلك معانى جمة، وولدوا أخيلة بديعة، مثل قوله:

حكت معانيه فى أثناء أسطره آثارك البيض فى أحوالى السود

وتخيل اضاءة المداد أو اشراق المعانى فى سواده من تجسيم المعانى لايضاحها والمبالغة فى معانيها «أحمد يوسف نجاتى»

(١) أشرع الباب الى الطريق اذا فتحه (٢) العتاد: العدة لأمرما تهيئه، وتعدها له من قوة، وما أعد من سلاح وآلة حرب ونحو ذلك (٣) كذا بالأصل، ولعله محرف عن «المورد» أو «المراد» «أحمد يوسف نجاتى»

ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ ٱلتَّعْرِيفُ بِمَا تَهْتَزُّ لَهُ مَنَابِرُ ٱلْإِسْلَامِ (١) ٱرْتِيَاحًا لِوُرُودِهِ ، وَتَنْشَرِحُ ٱلصُّدُورُ مِنْهُ لِمَوَاقِعِ فَضْلِ ٱللهِ وَجُودِهِ ، وَٱلْمُكَيِّفَاتِ، ٱلْبَدِيعَةِ ٱلصِّفَاتِ. فِي وُجُودِهِ ؛ وَهُوَ أَنَّنَا قَدَّمْنَا إِعْلَامَكُمْ بِمَا نَوَيْنَاهُ مِنْ غَزْوِ مَدِينَةِ قُرْطُبَةَ أُمِّ ٱلْبِلَادِ ٱلْكَافِرَةِ ، وَمَقَرِّ ٱلْحَامِيَةِ ٱلْمَشْهُورَةِ(٢) وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْوَافِرَةِ ، وَٱلْقُطْرِ ٱلَّذِي عَهْدُهُ بِإِلْمَامِ ٱلْإِسْلَامِ مُتَقَادِمٌ ، وَٱلرُّكْنِ ٱلَّذِي لَا يَتَوَقَّعُ صَدْمَةَ صَادِمٍ ، وَقَدِ ٱشْتَمَلَ سُورُهَا مِنْ زُعَمَاءِ مِلَّةِ ٱلصَّلِيبِ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ بَئِيسٍ(٣) ، وَهِزَبْرٍ خِيسٍ(٤) ، وَذِي مَكْرٍ وَتَلْبِيسٍ(٥) ، وَمَنْ لَهُ سِمَةٌ تُذِيعُ مَكَانَهُ وَتُشِيعُهُ ، وَأَتْبَاعٌ عَلَى ٱلْمَنْشَطِ وَٱلْمَكْرُوهِ(٦) تُطِيعُهُ ، فَاسْتَدْعَيْنَا ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَقَاصِي

---

(١) من قول الشاعر :

وتهتز أعواد المنابر باسمه فهل ذكرت أيامها وهي أغصان

(٢) في الأصل المشهودة ، ولا بأس بها أيضا (٣) قوي شديد ، من البأس وهو الشدة في الحرب (٤) الهزبر : الأسد ، والغليظ الضخم ، والشديد الصلب والخيس : الأجمة وموضع الأسد ، والشجر الكثير الملتف ، وفي بعض النسخ « الحسيس » (٥) التلبيس : التخليط والتدليس « الغش والخداع والمكر » (٦) كذا بالأصل ، وأراها محرفة عن « المكره » والمنشط : مفعل من

ٱلْبِلَادِ ، وَأَذَعْنَا فِى ٱلْجِهَاتِ نَفِيرَ ٱلْجِهَادِ[1] ، وَتَقَدَّمْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ بِسَعَةِ ٱلْأَزْوَادِ[2] وَأَعْطَيْنَا ٱلْحَرَكَةَ ٱلَّتِى يُخَلِّفُ[3] ٱلْمُسْلِمُونَ فِيهَا وَرَاءَهُمْ جُمْهُورَ ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ وَٱلْأَعْدَادِ حَقَّهَا مِنَ ٱلِاسْتِعْدَادِ ، وَأَفَضْنَا[4] ٱلْعَطَاءَ وَٱلِاسْتِلْحَاقَ وَٱلِاسْتِرْكَابَ فِى أَهْلِ ٱلْغَنَاءِ وَأَبْطَالِ ٱلْجِهَادِ وَٱلْجِلَادِ ، فَحُشِرَ ٱلْخَلْقُ فِى صَعِيدٍ ، وَأَخَذُوا ٱلْأُهْبَةَ وَٱلزِّينَةَ فِى عِيدٍ سَعِيدٍ ، وَشَمِلَ ٱلِاسْتِدْعَاءُ كُلَّ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، عَنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ ، وَرَحَلْنَا وَفَضْلُ

النشاط وهو الأمر الذى ينشط له ويخف اليه ويؤثر فعله ـ والمكره من الكراهة ضد المنشط « أى الذى تكرهه النفس ولا ترتاح الى عمله » ويشق عليها القيام به، وهما مصدران بمعنى النشاط والكراهية ـ وأصل ذلك حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « بايعت رسول الله ﷺ على المنشط والمكره » أى على كل عمل وأمر تحبه النفس وتنشط له، أو تكرهه ويشق عليها « أحمد يوسف نجاتى »

(١) النفير والنفر : القوم ينفرون معك اذا حزبك أمر ـ واستنفرهم فنفروا معه أى نصروه ومدوه وأعانوه ـ وفى الحديث اذا استنفرتم فانفروا أى استنجدتم واستنصرتم ـ أى اذا طلب منكم النجدة والنصرة فأجيبوا وانفروا خارجين الى الاعانة . واستنفر الامام الرعية : كلفهم أن ينفروا خفافا وثقالا (٢) جمع زاد وهو مايعد من طعام ومتاع ونحوه مما يحتاج اليه (٣) فى بعض النسخ « تخلف » (٤) فى الأصل « وأقصينا » وهو تصحيف . « أحمد يوسف نجاتى »

ٱللهِ شَامِلٌ ، وَٱلتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ كَافٍ كَافِلٌ ، وَخَيَّمْنَا بِظَاهِرِ ٱلْحَضْرَةِ
حَتَّى ٱسْتَوْفَى ٱلنَّاسُ آرَابَهُمْ ، وَٱسْتَكْمَلُوا أَسْرَابَهُمْ[1] ، وَدُسْنَا
مِنْهُمْ بِلَادَ ٱلنَّصَارَى بِجُمُوعٍ كَثَّرَهَا ٱللهُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَأَنْمَاهَا ، وَأَبْعَدَ
فِي ٱلْتِمَاسِ مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْأَجْرِ مُنْتَمَاهَا . وَعِنْدَ مَا حَلَلْنَا « قَاشُرُهْ[2] »
وَجَدْنَا ٱلسُّلْطَانَ « دُونْ بِطْرُهْ[3] » مُؤَمِّلَ نَصْرِنَا وَإِنْجَادِنَا ،

---

(١) أو «أسبابهم» (٢) فى معجم ياقوت « قاشره » بعد الشين راء مضمومة وهاء ساكنة التى ساكنان الألف والشين فيه ، من أقاليم لبلة و « لبلة » بالجنوب الغربى من أسبانيا على نهر يصب بالبحر عند جزيرة شلطيش ، وكانت قصبة كورة كبيرة يتصل عملها بعمل أكشونية وهى شرقى أكشونية وغربى قرطبة وبينها وبين قرطبة على طريق اشبيلية ٤٤ فرسخا

(٣) خلاصة هذه الوقعة أن السلطان الغنى بالله ابن الأحمر لما استولى على عرش ملكه بالحمراء كان ممتنعا بالظهور والعظمة والترف والعزة على الجلالقة وسائر ملوك الأسبان وعلى ملوك المغرب بما نال دولهم من الهرم بل بدبيب الشقاق والخلاف بين ملوك الأسبان ، وكانت أسبانيا فى القرن الثالث عشر الميلادى « السابع الهجرى » تنقسم الى خمس ممالك ، وهى نافار ، وأراغون ، وقشتالة ، وغرناطة ، والبرتقال — وكانت قشتالة أقوى تلك الممالك ، وكانت تشمل قشتالة وليون وجليقية « غاليسيا » — ولما توفى ملكها الفونس الحادى عشر سنة ١٣٥٠ م الموافقة سنة ٧٥١ هـ قام بالأمر بعده « الدون بطره » الملقب بالعاتى والجاسى ، وكان جبارا عنيدا وغشوما جائرا سفاكا للدماء منهمكا فى لذاته وشهواته حتى كان ذلك سببا فى أن انقض عليه أهل مملكته وسئموا ملكته ، ولكنه تمكن ممن خرج عليه

ولما استراح منهم وشرد بهم من خلفهم اشتبك فى حرب شعواء مع مملكة أراغون ، فانضم الى أعدائه من كان ينقم عليه من أهل مملكة قشتالة ، وتلظت نار الفتنة والخلاف بين المملكتين ، و بعد حوادث دامية وخطوب قاسية انتهى الأمر بهما الى الصلح على شرط أن يتزوج «الدون بطره» ملك قشتالة ابنة « الدون بطره » ملك أراغون ، وأن يقترن ولى عهد أراغون بابنة ملك قشتالة ـ وكان بين ملك قشتالة وأخيه « الدون أزيك » خلاف شديد وفتنة ثائرة ، وتمكن أخوه بمعونة فرنسة أن يستوى على عرش قشتالة ملكا ، فالتجأ « دون بطره » الى انجلترة فنصرته وثبتت قدمه فى مملكته وأعادت اليه ملكه ، وهزم أخوه فى معركة نافاريت فالتجأ الى حاميته فرنسة ، وأبت طباع « دون بطره » وما جبل عليه الا أن يصرف عنه عطف انجلترة حتى طالبته بنفقات الحرب وتقاضته ثمن النصر ، فأخذ يطوف طاغيا فى البلاد ، و يكثر فيها العيث والفساد ، مستوليا باراقة الدماء على الأموال ، حتى ضاعف ايغار الصدور عليه ، فانحاز أهل قشتالة الى أخيه وشدوا عضده ، ونهضت أكثر المدن بدعوته ، وعمد « دون بطره » الى حليفه الغنى بالله ابن الأحمر فحاصر مدينة قرطبة ـ وكانت من المدن التى استجابت الى دعوة أخيه ـ وشدد الجيشان عليها الحصار « وذلك سنة ٧٦٨ هـ » وأخذت القوتان عليها بالآفاق ، وهجم المسلمون على أسوارها فاحتلوا بعض بروجها ، غير أن القرطبيين صدقوا فى الكرة على المحاصرين واستماتوا فى مدافعتهم فكشفوهم ونفسوا عن أنفسهم . فأزمع الجيشان العودة ، وانتهز الغنى بالله هذه الفرصة وعرف كيف ينتفع بهذه الغرة من الاسبانيين ، فجال فى بلادهم منتقما منهم ودخل بعساكر المسلمين بلادهم ، فأثخن فى أرضهم ، وخرب معاقلهم ، وهدم ماقدر عليه من مدنهم ، واستعاد بعض الحصون ، واكتسح مدينة جيان وأبذة وغيرهما من المدن والأمصار التى كانت محالفة للدون أزيك أخى الدون بطره ، ثم عاد الى غرناطة غانما ، واستمرت الفتنة ناشبة بين الأخوين و بعد حوادث تمكن « الدون أزيك » من الفتك بأخيه سنة ١٣٦٩ م

وَمُسْتَعِيدَ حَظِّهِ فِي مَوَاقِعِ (١) جِهَادِنَا ، وَمُقْتَضِيَ دَيْنَ كَدْحِهِ بِإِعَانَتِنَا إِيَّاهُ وَإِنْجَادِنَا ، قَدْ نَزَلَ بِظَاهِرِهَا فِي مَحَلَّاتٍ مِمَّنْ أَسْتَقَرَّ عَلَى دَعْوَتِهِ ، وَتَمَسَّكَ بِطَاعَتِهِ ، وَشَمِلَهُ حُكْمُ جَمَاعَتِهِ ، فَكَانَ لِقَاؤُنَا إِيَّاهُ عَلَى حَالٍ أَقَرَّتْ عُيُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَتَكَفَّلَتْ بِإِعْزَازِ ٱلدِّينِ . وَمُجْمَلُهَا يُغْنِي عَنِ ٱلتَّعْيِينِ ، وَٱلشَّرْحِ وَٱلتَّبْيِينِ . وَرَأَى هُوَ وَمَنْ مَعَهُ فِي وُفُورِ جَيْشِ ٱللهِ مَا هَالَهُمْ ، وَأَشَكَّ فِي حَالِ ٱلْيَقْظَةِ خَيَالَهُمْ ، مِنْ جُمُوعٍ تَسُدُّ ٱلْفَضَا ، وَأَبْطَالٍ تُقَارِعُ أُسْدَ ٱلْغَضَى ، وَكَتَائِبَ مَنْصُورَةٍ ، وَرَايَاتٍ مَنْشُورَةٍ ، وَأُمَمٍ مَحْشُورَةٍ ، تَفْضُلُ عَنْ مَرْأَى ٱلْعَيْنِ ، وَتُرْدِي ٱلْعَدُوَّ فِي مَهَاوِي ٱلْحَيْنِ ، فَٱعْتَرَفُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِمْ ، وَٱعْتَبَرَ فِي عِزَّةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ أُولُو أَلْبَابِهِمْ ، وَإِذَا كَثَّرَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْعَدَدَ نَمَا وَزَكَا ، وَإِذَا أَزَاحَ ٱلْعِلَلَ مَا ٱعْتَذَرَ

الموافقة سنة ٧٧٠ ﻫ وخلص الملك له . وهدأت أحوال ابن الأحمر هدوءاً ما فانهم لم يجتنوا ثمار هذا النصر المتاح الا الى أجل ، فقد كان داء الهرم أخذ يتمكن ، وأخذ الفتق يتسع على الراقع ، وبقى الذنب واستؤصل الراس ، وتصدع البناء بعد أن وهن منه الأساس ، وتلك الأيام نداولها بين الناس « أحمد يوسف نجاتى » . (١) فى بعض النسخ « من لواحق » بدل « فى مواقع »

غَازٍ وَلَا شَكَا . وَسَالَتْ مِنَ ٱلْغَدِ ٱلْأَبَاطِحُ بِالِاعْتِرَافِ(١) ، وَسَمَتِ ٱلْهَوَادِي إِلَى ٱلِاسْتِشْرَافِ(٢) ، وَأَخَذَ ٱلتَّرْتِيبُ حَقَّهُ مِنَ ٱلْمَوَاسِطِ ٱلْجِهَادِيَّةِ وَٱلْأَطْرَافِ ، وَأُحْكِمَتِ ٱلتَّعْبِيَةُ ٱلَّتِي لَا تَرَى ٱلْعَيْنُ فِيهَا خَلَلًا ، وَلَا يَجِدُ ٱلِاعْتِبَارُ عِنْدَهَا دَخَلًا(٣) ، وَكَانَ ٱلنُّزُولُ عَلَى فَرْسَخٍ مِنْ عُدْوَةِ ٱلنَّهْرِ ٱلْأَعْظَمِ مِنْ خَارِجِ ٱلْمَدِينَةِ — أَنْجَزَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَعْدَ دَمَارِهَا ، وَأَعَادَهَا إِلَى عَهْدِهَا فِي ٱلْإِسْلَامِ وَشِعَارِهَا ، وَمَحَا ظَلَامَ ٱلْكُفْرِ مِنْ آفَاقِهَا بِمِلَّةِ ٱلْإِسْلَامِ وَأَنْوَارِهَا — وَقَدْ بَرَزَتْ مِنْ حَامِيَتِهَا

---

(١) كذا بالأصل ويجوز أن يكون محرفا عن « الأعراف » جمع عرف وهو فى الأصل شعر عنق الفرس ، وقيل هو منبت الشعر والريش من العنق، واستعمله الأصمعى فى الانسان فقال : جاء فلان مبرئلا للشر أى نافشا عرفه — يريد كاتب الرسالة أن الوادى قد غص بالخيل والفرسان ، وهو من قول الأول :وسالت بأعناق المطى الأباطح. «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) الهادى : المتقدم من كل شئ ، وبه سمى العنق هاديا لتقدمه على سائر البدن ، وجمعه الهوادى — يقال أقبلت هوادى الخيل اذا بدت أعناقها، والهوادى من الابل : أول رعيل يطلع منها لأنها المتقدمة — واستشرف الشئ اذا رفع بصره اليه وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس يتأمل وينظر (٣) أى عيبا وفسادا وقد تكون « الاعتبار » محرفة عن « الاختبار »« أحمد يوسف نجاتى »

شَوْكَةٌ[1] سَابِغَةُ الدُّرُوعِ ، وَافِرَةُ الْجُمُوعِ ، وَاسْتَجَنَّتْ مِنْ أَسْوَارِ الْقَنْطَرَةِ الْعُظْمَى بِحِمًى لَا يُخْفَرُ[2] ، وَأَخَذَ عِقَابُهَا[3] مِنَ الْحُمَاةِ وَالْكُمَاةِ الْعَدَدَ الْأَوْفَرَ ، فَبَادَرَ إِلَيْهِمْ سُرْعَانُ[4] خَيْلِ الْمُسْلِمِينَ فَصَدَقُوهُمُ الدِّفَاعَ وَالْقِرَاعَ ، وَالْمِصَالَ وَالْمِصَاعَ[5] ، وَخَالَطُوهُمْ هَبْرًا بِالسُّيُوفِ ، وَمُبَاكَرَةً بِالْحُتُوفِ ، فَتَرَكُوهُمْ حَصِيدًا ، وَأَذَاقُوهُمْ وَبَالًا شَدِيدًا ، وَجَدَّلُوا مِنْهُمْ جُمْلَةً وَافِرَةً ، وَأُمَّةً كَافِرَةً ، وَمَلَكُوا بَعْضَ تِلْكَ الْأَسْوَارِ فَارْتَفَعَتْ بِهَا رَايَاتُهُمُ الْخَافِقَةُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهَا عَزَمَاتُهُمُ الصَّادِقَةُ ، وَاقْتَحَمَ الْمُسْلِمُونَ الْوَادِيَ سَبْحًا[6] فِي غَمْرِهِ ، وَاسْتِهَانَةً فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْرِهِ ، وَخَالَطُوا

---

(١) الشوكة : السلاح ، وحدته ، والقوة (٢) أخفر الذمة اذا لم يف بها وانتهكها ـ وأخفر الرجل : نقض عهده وذمامه ، واستجن : استتر واتقى . وفى الأصل استحمت وهو تحريف عن استجنت أو احتمت (٣) كذا بالأصل ، ولعله جمع عقبة يريد بها الأماكن الصعبة ـ وفى بعض المراجع « وأخذ أعقابها بها » (٤) جمع سريع . (٥) صال على قرنه سطا وحمل عليه ، ـ وماصعه، مماصعة ومصاعا : قاتله وجالده بالسيف وصاع الشجاع أقرانه وغيرهم صوعا ، ومصاعا اذا جاءهم من نواحيهم وحازهم وجمعهم من كل ناحية ـ وصاع القوم : حمل بعضهم على بعض (٦) كانت فى الأصل « سبا » وآثرت أن تكون محرفة عن « سبحا » كما يدل

حَامِيَةَ الْعَدُوِّ فِي صَفْتِهِ فَاقْتَلَعُوهَا ، وَتَعَلَّقُوا بِأَوَائِلِ الْأَسْوَارِ فَفَرَعُوهَا[1] ، فَلَوْ كُنَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى عَزْمٍ مِنَ الْقِتَالِ ، وَتَيْسِيرِ الْآلَاتِ وَتَرْتِيبِ الرِّجَالِ ، لَدَخَلَ الْبَلَدُ ، وَمُلِكَ الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ ، لَكِنْ أَجَارَ الْكُفَّارَ مِنَ اللَّيْلِ كَافِرٌ[2] ، وَقَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ عَدَدٌ وَافِرٌ ، وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مَحَلَّاتِهِمْ وَنَصْرُ اللهِ سَافِرٌ ، وَالْعَزْمُ ظَافِرٌ . وَمِنَ الْغَدِ خُضْنَا الْبَحْرَ الَّذِي جَعَلْنَا الْعَزْمَ فِيهِ سَفِينًا ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ لِلْبَلَاغِ ضَمِينًا ، وَنَزَلْنَا مِنْ صِفَةِ[3] الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ مَنْزِلًا عَزِيزًا مَكِينًا ، بِحَيْثُ يُجَاوِزُ سُورَهَا طُنُبُ[4] الْقِبَابِ ، وَتُصِيبُ دُورَهَا مِنْ بَيْنِ الْخَيْمَاتِ بَوَارِقُ النُّشَّابِ ، وَبَرَزَتْ حَامِيَتُهَا عَلَى مُتَعَدِّدَاتِ الْأَبْوَابِ ، مُقِيمَةً أَسْوَاقَ الطِّعَانِ وَالضِّرَابِ ، فَآبَتْ بِصَفْقَةِ

عليه السياق و يقتضيه المعنى « أحمد يوسف نجاتى » (١) أى علوها (٢) أى ساتر وفيه تورية ، والكافر : الليل لأنه يستر بظلامه كل شىء — ومن لطائف الیها زهیر مخاطبا الليل :

لى فيك أجر مجاهد ان صح أن الليل كافر

(٣) كذا بالأصل ، وفى بعض المراجع « من ضفته القصوى » بدل من صفة القوى العزيز ، وهذا ظاهر واضح (٤) الطنب : حبل يشد به الخباء والسرادق ، ويصح أن يكون « يجاوز » محرفة عن يجاور — وفى بعض المراجع « ونزلنا من ضفة القوى منزلا » الخ

ٱلْخُسْرِ وَٱلتَّبَابِ[1] . وَلَمَّا شَرَعْنَا فِي قِتَالِهَا ، وَرَتَّبْنَا أَشْتَاتَ[2] ٱلنِّكَايَاتِ لِنَكَالِهَا ـ وَإِنْ كُنَّا لَمْ نَبْقَ عَلَى مُطَاوَلَةِ نِزَالِهَا ـ أَنْزَلَ ٱللهُ ٱلْمَطَرَ ٱلَّذِي قَدُمَ بِعِهَادِهِ ٱلْعَهْدُ ، وَسَاوَى ٱلنَّجْدَ مِنْ طُوفَانِهِ ٱلْوَهْدَ ، وَعَظُمَ بِهِ ٱلْجَهْدُ ، وَوَقَعَ ٱلْإِبْقَاءُ عَلَى ٱلسِّلَاحِ ، وَٱلْكَفُّ بِالضَّرُورَةِ عَنِ ٱلْكِفَاحِ ، وَبَلَغَ ٱلْمُقَامُ عَلَيْهَا ، وَٱلْأَخْذُ بِخَنْقِهَا وَٱلثَّوَاءُ[3] لَدَيْهَا ، خَمْسَةَ أَيَّامٍ لَمْ تَخْلُ فِيهَا ٱلْأَسْوَارُ مِنَ ٱفْتِرَاعٍ[4] ، وَلَا ٱلْأَبْوَابُ مِنْ دِفَاعٍ عَلَيْهَا وَقِرَاعٍ ، وَأَنْفَذَتْ مَقَاتِلُ ٱلسَّتَائِرِ أَنْقَابًا[5] ، وَٱرْتُقِبَ ٱلْفَتْحُ ٱلْمَوْعُودُ ٱرْتِقَابًا ، وَفَشَتْ فِي أَهْلِهَا ٱلْجِرَاحُ ، وَٱلْعَيْثُ ٱلصُّرَاحُ ، وَسَاءَهُمُ ٱلْمَسَاءُ بِعِزَّةِ ٱللهِ وَٱلصَّبَاحُ[6] ، وَلَوْلَا

(١) أي الهلاك والنقص والخسار المؤدي الى التهلكة (٢) أي الكثير المختلف ونكى العدو نكاية اذا أصاب منه وقتل فيه وجرح فوهن لذلك ، والنكال : العذاب ، ومايصير به المرء عبرة لغيره (٣) أي الاقامة (٤) من فرع الرجل فى الجبل « كمنع » اذا صعد وعلا . وفى الأصل « افتراع » ولعله من القرع وهو الدق والطرق (٥) فى هذه الجملة قلق ولا بد أنها محرفة ، وقد يكون أصلها « وأنفذت المقاتلة فى الأسوار أنقابا » أو نحو ذلك ، فتأمل حتى تهتدى الى تحريرها ـ والنقب هو الثقب « الخرق النافذ » وجمعه أنقاب ونقاب ـ والنقب : الطريق فى الجبل (٦) من قوله تعالى : « فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » .

عَائِقُ ٱلْمَطَرِ لَكَانَ ٱلْإِجْهَازُ وَٱلِاسْتِفْتَاحُ، وَٱللهُ بَعْدَهَا ٱلْفَتَّاحُ. وَصُرِفَتِ ٱلْوُجُوهُ إِلَى تَخْرِيبِ ٱلْعُمْرَانِ، وَتَسْلِيطِ ٱلنِّيرَانِ، وَعَقْرِ ٱلْأَشْجَارِ، وَتَعْفِيَةِ ٱلْآثَارِ، وَأَتَى مِنْهَا ٱلْعَفَاءُ عَلَى ٱلْمِصْرِ ٱلشَّهِيرِ فِي ٱلْأَمْصَارِ، وَتُرِكَتْ زُرُوعُهَا ٱلْمَائِجَةُ[1] عِبْرَةً لِلْأَبْصَارِ. وَرَحَلْنَا عَنْهَا وَقَدْ أَلْبَسَهَا ٱلدُّخَانُ حِدَادًا، وَنَكَّسَ مِنْ طُغَاتِهَا أَجْيَادًا، فَاعْتَادَتِ ٱلذُّلَّ اعْتِيَادًا، وَأَلِفَتِ ٱلْهُونَ قِيَادًا، وَكَادَتْ أَنْ تُسْتَبَاحَ عَنْوَةً لَوْلَا أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهَا مِيعَادًا، وَأَتَى ٱلْقَتْلُ مِنْ أَبْطَالِهَا، وَمَشَاهِيرِ رِجَالِهَا، مِمَّنْ يُبَارِزُ وَيُنَاطِحُ[2]، وَيُمَاسِي بِالنَّاسِ وَيُصَابِحُ، عَلَى عَدَدٍ جَمٍّ أَخْبَرَتْ سِيمَاهُمُ ٱلْمَشْهُورَةُ بِأَسْمَائِهِمْ، وَنَبَّهَتْ عَلَامَاتُهُمْ عَلَى نُبَهَائِهِمْ[3]، وَظَهَرَ إِقْدَامُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي

---

(١) كذا بالأصل ـ ولعله محرف عن « الهائجة » من هاج النبت اذا يبس واصفر وطال، ومنه قوله تعالى: « ثم يهيج فتراه مصفرا » ـ أو « المائجة » أى المضطربة، والأول أولى وأظهر (٢) يقال مجازا: تناطحت الرجال فى الحرب، و بينهما نطاح، ونطحه عنه: دفعه وأزاله ـ وقد تكون « يناضح » يقال ناضح عنه ونضح: اذا ذب ودفع، ونافح وكافح كذلك (٣) و فى بعض النسخ «ونبهت علاماتها على نبهائهم» «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْمُعْتَرَكَاتِ، وَبُرُوزُهُمْ[١] بِالْحُدُودِ ٱلْمُشْتَرَكَاتِ، وَتَنْفِيلُهُمُ ٱلْأَسْلَابَ، وَقَوْدُهُمُ ٱلْخَيْلَ ٱلْمُسَوَّمَةَ قَوْدَ ٱلْغِلَابِ[٢]، وَكَانَ ٱلْقُفُولُ، وَقَدْ شَمِلَ ٱلْأَمْنُ وَٱلْقَبُولُ، وَحَصَلَ ٱلْجِهَادُ ٱلْمَقْبُولُ، وَرَاعَ ٱلْكُفْرَ ٱلْعِزُّ[٣] ٱلَّذِي يَهُولُ، وَٱلْإِقْدَامُ ٱلَّذِي شَهِدَتْ بِهِ ٱلرِّمَاحُ وَٱلْخُيُولُ، وَخَاضَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ زَرْعِ[٤] ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي رَكِبُوهَا، وَٱلْمَنَازِلِ ٱلَّتِي ٱسْتَبَاحُوهَا وَٱنْتَهَبُوهَا، بُحُورًا بَعُدَ مِنْهَا ٱلسَّاحِلُ، وَفَلَاحَةً مُدْرِكَةً[٥] تَتَعَدَّدُ فِيهَا ٱلْمَرَاحِلُ، فَصَيَّرُوهَا صَرِيمًا[٦]، وَسَلَّطُوا عَلَيْهَا ٱلنَّارَ غَرِيمًا، وَحَلُّوا بِظَاهِرِ حِصْنِ أَنْدُجَرَ[٧] وَقَدْ

---

(١) وفى بعض المراجع « و بذرهم » (٢) القهر والغلب (٣) قد تكون محرفة عن «الغزو» (٤) فى الأصل « ذرع » والأولى ماذكرناه (٥) فى الأصل «موركة» وهو تحريف ــ وأدرك الزرع : نضج وآنى أكله ــ وأدركت الثمار اذا بلغت أناها وانتهى نضجها (٦) من صرم الشىء اذا قطعه ، والصريمة: الأرض المحصود زرعها ، والصريم: المجد المقطوع، و به فسر قوله تعالى : « وأصبحت كالصريم » أى كأنها صرمت وصارت كالشىء المصروم الذى ذهب مافيه ، والصريم: الكدس المصروم من الزرع ، ونخل صريم أى مصروم مقطوع ، وقوله تعالى : « ان كنتم صارمين » أى عازمين على صرم النخل (٧) حصن بقرب قرطبة، و يقال فيه «أندوشر » وأندوجر ، منه أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن سليمان اليحصبي الأندوجرى اللغوى الأديب

أَصْبَحَ مَأْلَفَ أَذْمَارٍ غَيْرِ أَوْشَابٍ(١) ، وَوَكْرَ طَيْرٍ نُشَّابٍ(٢) ،
فَلَمَّا بَلَوْنَا مِرَاسَهُ صَعْباً ، وَأَبْرَاجَهُ « مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا
وَشُهُبًا » ، ضَنِنَّا بِالنُّفُوسِ أَنْ تَفِيضَ دُونَ افْتِتَاحِهِ ، فَسَلَّطْنَا
الْعَفَاءَ عَلَى سَاحِهِ ، وَأَغْرَيْنَا الْغَارَاتِ بِاسْتِيعَابِ مَا بِأَحْوَازِهِ
وَاكْتِسَاحِهِ ، وَسَلَّطْنَا النَّارَ عَلَى حُزُونِهِ وَبِطَاحِهِ(٣) ،
وَأَلْصَقْنَا بِالرَّغَامِ(٤) ذَوَائِبَ أَدْوَاحِهِ ، وَانْصَرَفْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ
وَالْمَنَاجِلُ دَامِيَةٌ ، وَالْأُجُورُ نَامِيَةٌ ، وَقَدْ وَطِئْنَا الْمَوَاطِئَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْمُلُوكِ قَبْلَنَا بَسْلًا(٥) ، وَلَمْ نَتْرُكْ بِهَا

توفى بعد سنة ٥٥٠ ـ وينسب اليه أيضا أبو محمد عبد الله بن عبيد الله التجيبي الزاهد من أهل قرطبة ويعرف بالأندوجرى لأن أصله منها كان رجلا صالحا مواظبا على العبادة يشار اليه باجابة الدعوة توفى سنة ٥٨٥

(١) أذمار جمع ذمر أى شجاع مدافع . والأوشاب هم أوباش الناس وأخلاطهم، والرعاع منهم « يريدوصف حماة الحصن بالقوة وشدة المراس ، وصدق الدفاع » والعبارة فى الأصل محرفة بزوال النقط من أذمار وغير

(٢) النشاب : النبل واحده نشابة ـ شبهه بالطير وجعل الحصن وكرا له

(٣) الحزون: جمع حزن وهو ماغاظ من الأرض فى ارتفاع ، والبطاح: جمع أبطح أو بطيحة وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصا لاينبت شيئا. وفى الأصل « خروته » بدل حزونه (٤) أى التراب ، والجملة كناية عن قطع الأشجار واستئصالها وجعل عاليها سافلها فكأنه أذلها وأرغمها (٥) البسل: الحرام الممتنع

حَرْثاً[١] يُرْفِدُ وَلَا نَسْلَا ، وَلَا ضَرْعًا يُرْسِلُ رِسْلًا[٢] ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى يَتِمُّ النَّعِيمُ بِحَمْدِهِ ، وَنَسْأَلُهُ صِلَةَ[٣] النَّصْرِ فَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ . عَرَّفْنَاكُمْ بِهَذِهِ الْمُكَيِّفَاتِ الْكَرِيمَةِ الصِّفَاتِ ، وَالصَّنَائِعِ الرَّوَائِعِ الَّتِى بَعُدَ الْعَهْدُ بِمِثْلِهَا فِى هَذِهِ الْأَوْقَاتِ ، عِلْماً بِأَنَّهَا لَدَيْكُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْهَدِيَّاتِ الْوُدِّيَّاتِ ، وَلِمَا نَعْلَمُهُ لَدَيْكُمْ مِنْ حُسْنِ النِّيَّاتِ وَكَرَمِ الطَّوِيَّاتِ ، فَإِنَّكُمْ سُلَالَةُ الْجِهَادِ الْمَقْبُولِ ، وَالرِّفْدِ الْمَبْذُولِ ، وَوَعْدُ النَّصْرِ الْمَفْعُولِ . وَنَرْجُو اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْتَقِلَ خَيَالُكُمْ لِلْمَعَاهِدِ الْجِهَادِيَّةِ ، إِلَى الْمُعَايَنَةِ فِى نَصْرِ[٤] الْمِلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَأَنْ يَجْمَعَ اللّٰهُ بِكُمْ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ ، عَلَى عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ ، وَيُتِمَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْأَنَامِ . وَوُدُّنَا لَكُمْ مَا عَلِمْتُمْ يَزِيدُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَاللّٰهُ يَجْعَلُهُ فِى ذَاتِهِ لَكُمْ مُتَّصِلَ الدَّوَامِ ، مُبَلِّغًا إِلَى دَارِ

---

(١) فى الأصل « حرفا » وهو تحريف ـ والحرث الزرع ـ ويرفد أى يعطى ويعين ـ وهو يشير الى قوله تعالى : « ويهلك الحرث والنسل »

(٢) الرسل اللبن . وأراد بالضرع ذوات الضرع من الحيوان ذى اللبن

(٣) اى اتصال ودوام ، وفى الأصل « حله » (٤) فى الأصل « ونصر »

ٱلسَّلام ،وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدَ كُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَ كُمْ ، وَيُضَاعِفُ ٱلْآ لَاءَ عِنْدَ كُمْ ، وَٱلسَّلَامُ ٱلْكَرِيمُ يَصْحَبُكُمْ [(١)] وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ . ٱنْتَهَى .

***

كتاب لسان الدين

« وَمِنْ هَـذَا ٱلْمَنْحَى » مَا كَتَبَ بِهِ لِسَانُ ٱلدِّينِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ عَنْ سُلْطَانِهِ ، وَنَصُّهُ : ٱلْمَقَامُ ٱلَّذِى أَحَادِيثُ سَعَادَتِهِ لَا تُمَلُّ عَلَى ٱلْإِعَادَةِ وَٱلتِّكْرَارِ ، وَسَبِيلُ مَجَادَتِهِ ٱلشَّهِيرَةِ أَوْضَحُ مِنْ شَمْسِ ٱلظَّهِيرَةِ عِنْدَ ٱلِاسْتِظْهَارِ ، وَأَخْبَارُ صَنَائِعِ ٱللهِ لِمُلْكِهِ ، وَنَظْمُ فَرَائِدِ ٱلْآمَالِ فِى سِلْكِهِ ، تُخَلِّدُهَا أَقْلَامُ ٱلْأَقْدَارِ ، بِمِدَادِ ٱللَّيْلِ فِى قِرْطَاسِ ٱلنَّهَارِ ، وَتَرْسُمُهَا بِتَذْهِيبِ ٱلْأَشْفَارِ [(٢)] فِى صَفَحَاتِ ٱلْأَقْمَارِ ،

(١) أو « يخصكم » (٢) « الأشفار » جمع شفرة أى السكين العظيم ، وماعرض من الحديد وحدد ، والشفرة: جانب النصل ، وحد السيف ـ وفى الأصل «الأسفار » ولا بأس بها ولكن اخترنا «الأشفار » لعدم التكرار مع الأسفار بعد« الا اذاراعى الجناس فيكون الأسفار الأولى جمع سفر أى كتاب والثانية جمع سفر » ولأن المنى عليها أبلغ فانه يريد وصف الممدوح بالجهاد وأنه يخلد مآثره بحد سيفه ، وأن أقلام الأقدار ترسمها بأسنة السيوف المذهبة على صفحات الكواكب « أحمد يوسف نجاتى »

وَتَجْعَلُهَا هِجِّيرَى[1] حُمَلَاءِ ٱلْأَسْفَارِ، وَحُدَاةِ ٱلْقِطَارِ، فِي مَسَالِكِ[2] ٱلْأَقْطَارِ، مَقَامُ مَحَلِّ أَخِينَا ٱلَّذِي تَلَذُّ عَادَةُ هَنَائِهِ مَعَ ٱلْإِعَادَةِ، وَنَتَلَقَّى أَنْبَاءَ عَلَائِهِ بِالْإِذَاعَةِ وَٱلْإِشَادَةِ[3]، وَنُطَرِّزُ بِأَعْلَامِ ثَنَائِهِ صَحَائِفَ ٱلْمَجَادَةِ، وَنَشْكُرُ ٱللَّهَ أَنْ وَهَبَ لَنَا مِنْ أُخُوَّتِهِ ٱلْمُضَافَةِ إِلَى ٱلْمَحَبَّةِ وَٱلْوِدَادَةِ، مَا يَرْجَحُ[4] فِي مِيزَانِ ٱلِاعْتِبَارِ أُخُوَّةَ ٱلْوِلَادَةِ، وَعَرَّفَنَا بِيُمْنِ وِلَايَتِهِ عَوَارِفَ ٱلسَّعَادَةِ، ٱلسُّلْطَانُ ٱلْكَذَا ٱبْنُ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْكَذَا ٱبْنِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْكَذَا، أَبْقَاهُ ٱللَّهُ تَعَالَى فِي أَعْلَامِ ٱلْمُلْكِ ٱلسَّعِيدِ بَيْتَ ٱلْقَصِيدِ وَوُسْطَى ٱلْقِلَادَةِ، وَمَجْلَى ٱلْكَمَالِ ٱلَّذِي تَبَارَى[5] بِيَدَانِ بَأْسِهِ وَجُودِهِ جِنْسَا ٱلْإِبَادَةِ وَٱلْإِفَادَةِ،

---

(١) أى دأب وعادة ، وهجيرى الرجل : كلامه الذى صار شأنه وعادته
(٢) « الحلاء » جمع حميل أى غريب ، والأسفار جمع سفر ، وقد تكون حملاء محرفة عن « حملة » ان أريد بالأسفار الكتب . والحداة : جمع الحادى أى السائق ، والقطار : ما قطر من الابل أى قرب بعضها الى بعض على نسق ، يقال جاءت الابل قطارا قطارا أى مقطورة والجمع قطر ، وقطرات — والأقطار : جمع قطر ، وهو الناحية والجانب : يقول ان هذه الأخبار يترنم بها الغرباء فى أسفارهم ، وتحدو بها الركبان ركائبهم فى كل أقطارهم — ولا يخفى ما فى العبارة من التكلف (٣) أشاد بذكره اذا شهره ورفعه (٤) رجحه : اذا زاد عليه ووفاقه (٥) فى الأصل « بارى » والمعنى مع « تبارى » واضح » وفى العبارة لف ونشر مرتب « أحمد يوسف نجاتى »

وَلَا زَالَتْ آمَالُهُ الْقَاصِيَةُ تَنْثَالُ طَوْعَ الْإِرَادَةِ ، وَيُمْنُ نَقِيبَتِهِ(١) يَجْمَعُ مِنْ أَشْتَاتِ الْفُتُوحِ وَالْعِزِّ الْمَمْنُوحِ بَيْنَ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٍ ـ . مُعَظِّمُ سُلْطَانِهِ الْعَالِي ، الْمُثْنِي عَلَى مَجْدِهِ الْمَرْفُوعِ إِسْنَادُهُ فِي عَوَالِي الْمَعَالِي(٢) ، الْمَسْرُورُ بِمَا يُسَنِّيهِ(٣) اللهُ لَهُ مِنَ الصُّنْعِ الْمُتَوَالِي ، وَالْفَتْحِ الْمُقَدَّمِ وَالتَّالِي ، أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَبْدُ اللهِ الْغَنِيُّ بِاللهِ مُحَمَّدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَجَّاجِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ فَرَجِ بْنِ نَصْرٍ ـ أَيَّدَ اللهُ أَمْرَهُ ، وَأَسْعَدَ نَصْرَهُ(٤) ـ . سَلَامٌ كَرِيمٌ يَتَأَرَّجُ فِي الْآفَاقِ شَذَا طِيبِهِ ، وَتُسْمَعُ فِي ذِرْوَةِ الْوُدِّ بَلَاغَةُ خَطِيبِهِ ، وَيَتَضَمَّنُ نُورَهُ سَوَادُ الْمِدَادِ(٥) عِنْدَ مُرَاسَلَةِ الْوِدَادِ

---

(١) اليمن : البركة ، والنقيبة : النفس والحظ والطبيعة ، ورجل ميمون النقيبة أى مبارك النفس مظفر بما يحاول ، منجح الفعال محمود المختبر .

(٢) فى العبارة توجيه من مصطلح الحديث ، والاسناد فى الحديث : رفعه الى قائله ، والحديث المسند : ما اتصل اسناده حتى يسند الى النبى صلى الله عليه وسلم ـ والمرسل والمنقطع : مالم يتصل ـ ويقولون : الأسانيد قوائم الأحاديث ـ والمقدم والتالى من اصطلاحات المناطقة (٣) أى يجعله سنيا جزيلا شريفا ، وأسنى له الجائزة: رفعها ـ وسنى الله له الأمر تسنية سهله وفتح وجوهه وهيأ أسبابه (٤) فى بعض النسخ « عصره » (٥) تقدم شرح مثل هذا المعنى من أن المعانى لحسنها تجعل سواد المداد مشرقا وظلامه منيرا وهو من تجسيم المعانى كما تقدم « أحمد يوسف نجاتى »

فَيَكَادُ يَذْهَبُ بِعُبُوسِهِ الْمَجْهُولِ وَتَقْطِيبِهِ ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ . أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ فَاتِحِ الْأَبْوَابِ بِعَقَالِيدِ[1] الْأَسْبَابِ مَهْمَا اسْتَصْعَبَتْ، وَمُيَسِّرِ الْأُمُورِ بِمُحْكَمِ الْمَقْدُورِ إِذَا أَجْهَدَتِ الْحِيَلُ وَأَتْعَبَتْ، مُخْمِدِ نِيرَانِ الْفِتْنَةِ مَا الْتَهَبَتْ ، وَجَامِعِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ تَصَدَّعَتْ وَتَشَعَّبَتْ ، وَمُسَكِّنِ رَجَفَانِ الْأَرْضِ بَعْدَمَا اضْطَرَبَتْ ، وَمُحْيِيهَا بِعِهَادِ الرَّحْمَةِ مَهْمَا اهْتَزَّتْ[2] وَرَبَتْ ، اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ الَّذِي قَدَّرَتْ حِكْمَتُهُ الْأُمُورَ وَرَتَّبَتْ ، مُنْهِي[3] كُلِّ نَفْسٍ إِلَى مَا خَطَّتِ الْأَقْلَامُ عَلَيْهَا وَكَتَبَتْ وَنَفَتْ وَأَوْجَبَتْ، شَاءَتْ أَوْ أَبَتْ ، وَمُجَازِيهَا يَوْمَ الْعَرْضِ بِمَا كَسَبَتْ . وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ هَازِمِ الْأَحْزَابِ لَمَّا تَأَلَّفَتْ وَتَأَلَّبَتْ ، وَجَالِبِ الْحَتْفِ إِلَيْهَا عِنْدَمَا أَجْلَبَتْ ، رَسُولِ الْمَلْحَمَةِ إِذَا اللُّيُوثُ وَثَبَتْ ، وَنَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّتِي هَيَّأَتِ النَّجَاةَ وَسَبَّبَتْ وَأَبْلَغَتِ النُّفُوسَ الْمُطْمَئِنَّةَ مِنَ السَّعَادَةِ مَا طَلَبَتْ ، وَمُدَاوِي

---

(١) جمع مقلادوهوالمفتاح ، ومثله الأقاليد جمع أقليد (٢) ربت الأرض ربوا : عظمت وانتفخت (٣) أنهى الشيء : أبلغه وأوصله

ٱلْقُلُوبِ ٱلْمَرِيضَةِ وَقَدِ ٱنْتَكَبَتْ[1] وَٱنْقَلَبَتْ ، بِلَطَائِفِهِ ٱلَّتِي رَاضَتْ وَهَذَّبَتْ ، وَقَادَتْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱلْعُلْيَا وَٱسْتَجْلَبَتْ ، وَأَدَّتْ عَنِ ٱللهِ وَأَدَّبَتْ ، ٱلَّذِي بِجَاهِهِ نَسْتَكْشِفُ ٱلْغَمَّاءَ إِذَا أَطْنَبَتْ[2] ، وَنَسْتَوْكِفُ[3] ٱلنَّعْمَاءَ إِذَا أَخْلَفَتِ ٱلْبُرُوقُ وَكَذَبَتْ ، وَنَتَحَابُّ فِي طَاعَتِهِ ٱبْتِغَاءَ ٱلْوَسِيلَةِ إِلَى شَفَاعَتِهِ فَنَقُولُ وَجَبَتْ حَسْبَمَا ثَبَتَ[4] ، وَٱلرِّضَا عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَحْزَابِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَحَقَّتْ ٱلْمَزِيَّةَ ٱلْمَرْضِيَّةَ وَٱسْتَوْجَبَتْ ، لَمَّا ٱنْتَمَتْ إِلَى كَمَالِهِ وَٱنْتَسَبَتْ ، وَبِبَذْلِ نُفُوسِهَا فِي ٱللهِ وَمَرْضَاتِهِ تَقَرَّبَتْ ، وَإِلَى نُصْرَتِهِ فِي حَيَاتِهِ ٱنْتَدَبَتْ[5] وَٱلْمَنَاصِلُ قَدْ رَوِيَتْ مِنْ دِمَاءِ ٱلْأَعْدَاءِ وَأَخْصَبَتْ[6]

---

(١) قد تكون محرفة عن « انتكست » أو « تنكبت » أى عدلت عن سواء الصراط وطريق الصواب وتنحت عن قصد السبيل (٢) أى حلت وضربت أطنابها مقيمة (٣) أى نطلب من الله أن تكون واكفة هاملة (٤) اشارة الى معنى الحديث القدسى : وجبت الجنة — أو الشفاعة — للمتحابين فى طاعة الله (٥) ندبه الى الأمر « كنصر » دعاه وحثه ، والندب أن يندب انسان قوما الى أمر أو حرب أو معونة ، أى يدعوهم اليه فينتدبون له أى يجيبون ويسارعون (٦) ويصح أن تكون « واختضبت »

وَخَلَفَتْهُ فِي أُمَّتِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ بِالْهِمَمِ ٱلَّتِي عَنْ صِدْقِ ٱلْيَقِينِ أَعْرَبَتْ، فَتَدَاعَتْ لِمُجَاهَدَةِ ٱلْكُفَّارِ وَٱنْتَدَبَتْ[1]، وَأَبْعَدَتِ ٱلْمُغَارَ وَأَدْرَبَتْ[2] حَتَّى بَلَغَ مُلْكُ أُمَّتِهِ أَقَاصِيَ ٱلْبِلَادِ ٱلَّتِي نَبَتْ[3]، فَكَسَّرَتِ ٱلصُّلُبَ ٱلَّتِي نُصِبَتْ، وَنَفَّلَتِ ٱلتِّيجَانَ ٱلَّتِي عُصِبَتْ[4] مَا هَمَتِ ٱلسُّحْبُ وَٱنْسَحَبَتْ، وَطَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَغَرَبَتْ. وَٱلدُّعَاءِ لِمَثَابَتِكُمُ ٱلْعُلْيَا بِالنَّصْرِ ٱلْعَزِيزِ كُلَّمَا جُهِّزَتِ ٱلْكَتَائِبُ وَتَكَتَّبَتْ[5]، وَٱلْفَتْحِ ٱلْمُبِينِ كُلَّمَا رَكَنَتْ عَقَائِلُ[6] ٱلْقَوَاعِدِ إِذَا خُطِبَتْ، وَٱلصَّنَائِعِ

(١) ندبه الى أمر: وجهه اليه فانتدب له (٢) أدرب القوم اذا دخلوا أرض العدو ودربه من بلاد الروم: وكل مدخل الى الروم ضرب من درو بها، وأصل الدرب: المضيق في الجبال، والمغار: الاغارة (٣) نبت: بعدت (٤) عصب التاج وغيره: شده، والعصابة: التاج وماعصب به، وعصبه تعصيبا: شده — واعتصب التاج على رأسه اذا استكف به، والملك المعتصب والمعصب أى المتوج وفى الأصل « ونعلت » وهو تحريف فاسد، ونفل النفل أى الغنيمة وأنفله: اذا أعطاه، ونفل الامام الجند اذا جعل لهم ما غنموا. ويصح بناء « نفلت » للمجهول ورفع « التيجان » أى جعل الله تيجان الملوك أنفالا وغنيمة لهم (٥) أى اجتمعت (٦) العقيلة من النساء: الكريمة المخدرة النفيسة، هذا هو الأصل، ثم استعمل فى الكريم النفيس من كل شيء من الذوات والمعانى — يدعو له بالفتح المبين حين تخطب القواعد النفيسة والمدن الكريمة فتمتنع على غيره وتعز على سواه فيكون ركنت من الركن وهو العز والمنعة والقوة، أو الثبات والاقامة « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلَّتِي مَهْمَا حَدَّقَتْ فِيهَا ٱلْعُيُونُ تَعَجَّبَتْ ، أَوْجَالَتْ فِي لَطَائِفِهَا ٱلْأَفْكَارُ ٱسْتَطَابَتْ مَذَاقَ ٱلشُّكْرِ وَٱسْتَعْذَبَتْ ، حَتَّى تُنْجِزَ لَكُمْ مَوَاعِيدُ ٱلنَّصْرِ فَقَدِ ٱقْتَرَبَتْ . فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ — كَتَبَ ٱللهُ لَكُمْ أَغْيَا[1] مَا سَأَلَتِ ٱلْأَلْسُنُ ٱلسَّائِلَةُ وَٱسْتَوْعَبَتْ — مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ — حَرَسَهَا ٱللهُ تَعَالَى — وَجُنُودُ ٱللهِ بِفَضْلِ ٱللهِ تَعَالَى وَنِعْمَتِهِ قَدْ غَلَبَتْ ، وَفَتَحَتْ وَسَلَبَتْ ، وَأُسُودُ جِهَادِهِ قَدْ أَرْدَتِ ٱلْأَعْدَاءَ بَعْدَ مَا كَلِبَتْ[2] وَمَرَاعِي ٱلْآمَالِ قَدْ أَخْصَبَتْ . وَٱلْحَمْدُ لِلهِ حَمْدًا يَجْلُو[3] وُجُوهَ ٱلرِّضَا بَعْدَ مَا ٱحْتَجَبَتْ ، وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ ٱلْمَزِيدِ فَكُلَّمَا ٱسْتَقْبَلَهَا ٱلْأَمَلُ رَحَّبَتْ ، وَٱلشُّكْرُ لِلهِ شُكْرًا يُقَيِّدُ شَوَارِدَ ٱلنِّعَمِ مِمَّا أَبَقَتْ وَمَا هَرَبَتْ[4] . وَإِلَى هٰذَا وَصَلَ ٱللهُ لِمَقَامِكُمْ أَسْبَابَ ٱلظُّهُورِ وَٱلِاعْتِلَاءِ ، وَعَرَّفَكُمْ

---

(١) من غاية الشيء وهو منتهاه ، وأغيا الرجل بلغ الغاية في الشرف والأمر ، وأغيا الفرس في شبابه : بلغ الغاية والمدى ، وفي بعض النسخ « أغياء » ولعله جمع غاية (٢) الكلب الشدة ، والغضب والقوة ، وفي العبارة وصف خفي للأعداء بأنهم « كلاب » بالنسبة « للأسود » جنود الله (٣) يكشف و يظهر (٤) يشير الى معنى قوله تعالى : «لئن شكرتم لأزيدنكم » وقولهم الشكر يقيد أوابد النعم النافرة ، وأبق أي هرب ونفر — وأبق العبد اذا ذهب بلا خوف ولا كد عمل — أو اذا استخفى ثم ذهب ، وفعله « كسمع وضرب » « أحمد يوسف نجاتي »

عَوَارِفَ ٱلْآلَاءِ عَلَى ٱلْوَلَاءِ[١]، فَإِنَّنَا لَمَّا وَرَدَعَلَيْنَا كِتَابُكُمُ ٱلْبَرُّ ٱلْوِفَادَةِ ، ٱلْجَمُّ ٱلْإِفَادَةِ ، ٱلْجَامِعُ بَيْنَ ٱلْحُسْنَى وَزِيَادَةٍ ، جَالِى غُرَّةِ ٱلْفَتْحِ ٱلْأَعْظَمِ مِنْ ثَنَايَا ٱلسَّعَادَةِ ، وَوَاهِبُ ٱلْمِنَنِ ٱلْمُتَاحَةِ وَوَاصِفُ ٱلنِّعَمِ ٱلْمُعَادَةِ، فَوَقَفْنَا مِنْ رَقِّهِ ٱلْمَنْشُورِ عَلَى تُحَفٍ سَنِيَّةٍ ، وَأَمَانِيَّ هَنِيَّةٍ ، وَقِطَافٍ لِلنَّصْرِ جَنِيَّةٍ ، ضَمِنَتْ سُكُونَ ٱلْبِلَادِ وَقَرَارَهَا ، وَأَنَّ ٱللّٰهَ قَدْ أَذْهَبَ ٱلْفِتَنَ وَأُوَارَهَا[٢] ، وَأَخْمَدَ نَارَهَا ، وَنَضَحَ[٣] عَنْ وَجْهِ ٱلْإِسْلَامِ عَارَهَا ، وَجَمَعَ ٱلْأَهْوَاءَ عَلَى مَنْ هَوِيَتْهُ ٱلسَّعَادَةُ بَعْدَ أَنْ أَجْهَدَ ٱخْتِيَارَهَا ، فَأَصْبَحَ ٱلشَّتِيتُ[٤] مُجْتَمِعاً، وَجُنْحُ ٱلْجُنَاحِ مُرْتَفِعاً[٥] وَٱلْجَبَلُ ٱلْمُخَالِفُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً ، وَأَصْحَبَ[٦] فِى ٱلْقِيَادِ مَنْ كَانَ مُمْتَنِعاً ، فَٱسْتَوْثَقَتْ[٧] ٱلطَّاعَةُ ، وَتَبَحْبَحَتْ[٨] ٱلسُّنَّةُ وَٱلْجَمَاعَةُ ، وَٱرْتَفَعَتِ ٱلشَّنَاعَةُ ، وَتَمَسَّكَتِ ٱلْبِلَادُ

---

(١) أى التوالى والتتابع وعدم الانقطاع (٢) أى حرها وأذاها (٣) أى دفع وكشف وأزال (٤) أى المتفرق المختلف (٥) غاية ما يمكن أن يفهم من هذا التركيب المتكلف أنه يريد زوال الاثم الناشئ من الخلاف — فالجنح الجانب والناحية والظلام ، والجناح : الاثم والجناية والجرم وما يحمل من الهم والأذى ، ويصح أن تقرأ « وجنح الجناح » من فعل وفاعل أى مال وذهب وقد تكون الجناح ، بفتح الجيم أى صعد طائرا قادرا قوة المسلمين (٦) أى انقاد وخضع وذل (٧) أو « فاستوسقت » (٨) لعلها محرفة عن « تبجحت » أى فرحت وافتخرت وتباهت « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْمُكْرَهَةُ بِأَذْيَالِ وَلِيِّهَا لَمَّا رَأَتْهُ ، وَعَادَتِ ٱلْأَجْيَادُ ٱلْعَاطِلَةُ إِلَى حُلِيِّهَا بَعْدَ مَا أَنْكَرَتْهُ ، أَجَلْنَا[1] جِيَادَ ٱلْأَقْلَامِ فِي مَلْعَبِ ٱلْهَنَاءِ وَمَيْدَانِهِ ، لِأَوَّلِ أَوْقَاتِ إِمْكَانِهِ ، عَلَى بُعْدِ مَكَانِهِ ، وَأَجْهَدْنَا عِبَارَةَ ٱلْكَلَامِ فِي إِجْلَالِ هَذَا ٱلصُّنْعِ وَتَعْظِيمِ شَانِهِ ، وَأَغْرَيْنَا ٱلثَّنَاءَ بِشِيَمِ مَجْدِكُمْ فِي شَرْحِهِ لَنَا وَبَيَانِهِ ، رَأَيْنَا أَلَّا نَكِلَ ذَلِكَ إِلَى ٱلْيَرَاعِ ، وَنُفْرِدَهُ فِيهِ بِالِاجْتِمَاعِ ، وَمَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ مُنَّةِ[2] ٱلذِّرَاعِ ، وَأَنْ نَشُدَّ بِرِدْءٍ[3] مِنَ ٱلْمُشَافَهَةِ أَزْرَهُ ، وَنَعْضُدَ بِمُبِينٍ[4] مِنَ ٱللِّسَانِ أَمْرَهُ ، فَعَيَّنَّا لِذَلِكَ مَنْ يُفَسِّرُ مِنْهُ ٱلْمُجْمَلَ ، وَيُمَهِّدُ ٱلْمَقْصِدَ ٱلْمُعْمَلَ ، حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ أَغْرَاضِ ٱلْبِرِّ ، وَٱلْعَلَنِ مِنْهُ وَٱلسِّرِّ ، وَيُقِيمَ شَتَّى ٱلْأَدِلَّةِ عَلَى ٱلْوِدَادِ ٱلْمُسْتَقِرِّ ، وَوَجَّهْنَا فِي غَرَضِ[5] ٱلرِّسَالَةِ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَٱخْتَرْنَا لِشَرْحِهِ بَيْنَ

(١) جواب لما المتقدم « فاننا لما ورد علينا الخ » (٢) المنة: القوة، والذراع: الطاقة والمقدرة (٣) الردء : العون والناصر ، قال تعالى : « فأرسله معى ردءا يصدقني » وفلان ردء لفلان أى ينصره و يقوى ظهره و يشد عضده (٤) فى بعض المراجع « بمعين » وهو مناسب للردء .(٥) أو « عرض »

يَدَيْكُمْ ، خَطِيبَ ٱلْوُفُودِ ، وَبَرَكَةَ ٱلْمَشَايِخِ فِي هَذَا ٱلْمَقَامِ ٱلْمَحْمُودِ ، ٱلشَّيْخَ ٱلْجَلِيلَ ٱلشَّهِيرَ ٱلْكَبِيرَ ٱلصَّالِحَ ٱلْفَاضِلَ أَبَا ٱلْبَرَكَاتِ ٱبْنَ ٱلْحَاجِّ (١) ـ وَصَلَ ٱللهُ حِفْظَهُ ، وَأَجْزَلَ مِنَ ٱلْحَمْدِ وَٱللُّطْفِ حَظَّهُ ـ ، وَهُوَ ٱلْبَطَلُ ٱلَّذِي لَا يُعَلَّمُ ٱلْإِجَالَةَ فِي ٱلْمَيْدَانِ ، وَلَا يُبَصَّرُ بِوَظَائِفِ ذَلِكَ ٱلشَّانِ (٢) ، وَمُرَادُنَا مِنْهُ أَنْ يُطِيلَ وَيُطِيبَ ، وَيُجِيلَ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِكُمُ ٱللِّسَانَ ٱلرَّطِيبَ (٣) ، وَيُقَرِّرَ مَا عِنْدَنَا لِمَقَامِكُمْ مِنَ ٱلتَّشَيُّعِ ٱلَّذِي قَامَ عَلَى ٱلْحُبِّ ٱلْمُتَوَارَثِ

(١) هو أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن موسى بن ابراهيم ابن عبد العزيز بن اسحق بن قاسم النميرى الغرناطى المعروف بابن الحاج من بيت رياسة ونبل ، كان جده الأدنى ابراهيم بن موسى رجلا خيرا فاضلا كتب للرؤساء من بنى اشقيلولة عند انفرادهم بوادى آش ، وكان والده عبد الله صدرا من صدور المستخدمين فى كبار الأعمال بغرناطة وغيرها . ونشأ ابن الحاج نشأة قومه دينا فاضلا أديبا كاتبا شاعرا ، وكان مولده سنة ٧١٣ وانتظم فى كتاب الانشاء لبنى الأحمر سنة ٧٣٤ وكان معدا للسفارة الى الملوك « وارتحل الى المشرق فأفاد منه علما وأدبا ، وله مؤلفات جمة ممتعة » وتوجه رسولا عن السلطان الى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسف بن عبد الرحيم بن يحيى بن زياد سنة ٧٦٨ « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) هذا فى معنى المثل : ان العوان لاتعلم الخمرة

(٣) كناية عن طلاقته وبلاغته وأن يرطب لسانه بالثناء على الملك

أَسَاسُهُ ، وَاُطَّرَدَ حُكْمُهُ وَأَنْتَجَ قِيَاسُهُ ، وَلِيَجْعَلَ تِلْوَ مَقْصِدِ اُلْهَنَاءِ ، بِمَجْلِسِكُمُ اُلْبَاهِرِ اُلسَّنَاءِ ، اُلصَّارِفِ إِلَى اُلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اُللَّهِ وَاُلْغَنَاءِ ، وَجْهَ اُلتَّهَمُّمِ[1] وَاُلِاعْتِنَاءِ ، عَلَى مَرِّ اُلْآنَاءِ ، مَا تَجَدَّدَ[2] لَدَيْنَا مِنَ اُلْأَنْبَاءِ ، فِي جِهَادِ اُلْأَعْدَاءِ ، وَإِنْ كَانَ رَسُولُكُمْ - أَعَزَّهُ اُللَّهُ تَعَالَى - قَدْ شَارَكَ فِي اُلسُّرَى وَاُلسَّيْرِ ، وَيُغْنِ اُلطَّيْرِ ، وَأَغْنَى فِي اُلْحِكَايَةِ عَنِ اُلْغَيْرِ ، فَلَا سَرَفَ فِي اُلْخَيْرِ . وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا اُنْصَرَفْنَا عَنْ مُنَازَلَةِ قُرْطُبَةَ نَظَرًا لِلْحُشُودِ اُلَّتِي نَفِدَتْ مُعَدَّاتُ أَزْوَادِهَا ، وَشَابَتْ بِهَشِيمِ اُلْغَلَّةِ اُلْمُسْتَغَلَّةِ[3] مَفَارِقُ بِلَادِهَا وَإِشْفَاقًا لِفَسَادِ أَقْوَاتِهَا ، بِفَوَاتِ أَوْقَاتِهَا ، رَحَلْنَا عَنْهَا

---

(١) أى الاهتمام والعناية (٢) مفعول لقوله «وليجعل» ومفعوله الثانى مقدم وهو قوله «تلو» يعنى أنه يبدأ بمقام التهنئة ثم يثنى بالأخبار عن حديث الغزوة المنصورة، وقوله «وجه التهمم» مفعول لاسم الفاعل قبله «الصارف الى الجهاد»

(٣) أظنه يشير الى احراق الزروع والغلات فجعل ضوء النار شيبا لمفارق البلاد - وقد يجوز أن تكون «المستغلة» محرفة عن «المشتعلة» كقوله تعالى : «واشتعل الرأس شيبا» - والهشيم : النبت اليابس المتكسر ، ومنه قوله تعالى : «فأصبح هشيما تذروه الرياح» ، واستغل الشىء اذا أخذ غلته «أحمد يوسف نجاتى»

وَقَدِ ٱنْطَوَيْنَا مِنْ إِعْفَاءِ أَكْثَرِ تِلْكَ ٱلزُّرُوعِ ، ٱلْمَائِلَةِ ٱلْفُرُوعِ ، ٱلْهَائِلَةِ ٱلرُّوعِ (١) ، عَلَى هَمٍّ مُمِضٍّ (٢) ، وَأَسَفٍ لِلْمَضَاجِعِ مُقِضٍّ (٣) ، إِذْ كَانَ عَاذِلُ ٱلْمَطَرِ يَكُفُّ أَلْسِنَةَ ٱلنَّارِ عَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْتِهَابِهَا ، وَخَلَاقِ إِهَابِهَا (٤) ، وَنَقْضِ أَغْوَارِهَا ، وَنَهْبِ شِوَارِهَا (٥) ، وَإِذَاعَةِ أَسْرَارِهَا ، وَهِيَ ٱلْبُحُورُ ٱلْمُتَلَاطِمَةُ ، إِذَا حَطَّمَتْهَا ٱلرِّيَاحُ ٱلْحَاطِمَةُ ، وَٱللُّجَجُ ٱلزَّاخِرَةُ ،

---

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن « الريوع » من راع الزرع والطعام وغيرهما يريع ريعا وريوعا ورياعا اذا نما وزاد ، وراعت الحنطة اذا زكت ونمت ـ فان أبى السجع الا الجناس ولزوم مالايلزم فلتكن محرفة عن « المروع » من أمرع الوادى ، ومرع اذا أخصب وأكلأ وأعشب فهو ممرع (٢) أى مؤلم موجع (٣) أقض عليه المضجع خشن ونبا « من القضض وهو الحصا الصغار ، واذا كان فى الفراش قضض تحت جنب النائم لم يذق جفنه الغمض ، و بات يتقلب منه على مثل جمر الغضا (٤) خلق الأديم ونحوه اذا قدره ليقطعه ، وخلق الثوب بلى ، ولعل كلمة « خلاق » محرفة عن إخلاق وفى بعض النسخ « حلاق » يقال رأس جيد الحلاق ، ولعل ذلك أوضح ، يريد استئصال مابها من الزرع كما يستأصل بجودة الحلاق شعر الرأس ، والاهاب الجلد (٥) الشوار : الحسن والجمال والهيئة واللباس والزينة والشوار « مثلثة » متاع البيت

إِذَا حَرَّكَتْهَا ٱلسَّوَافِي ٱلْمَاخِرَةُ(١) ، تَوَدُّ ٱلْعُيُونُ أَنْ تَتَحَدَّى(٢) حُدُودَهَا ٱلْقَاصِيَــةَ فَلَا تُطِيقُ ، وَٱلرَّكَائِبُ ٱلرَّاكِضَةُ أَنْ تُشْرِفَ عَلَى غَايَاتِهَا فَيَفْضُلُ عَنْ مَرَاحِلِهَا ٱلطَّرِيقُ ، قَدْ جَلَّلَهَا ٱلرَّبِيعُ أَرْزَاقًا تَغَصُّ بِهَا ٱلْخَزَائِنُ وَٱلْأَطْبَاقُ ، وَحُبُوبًا مُفَضَّلَةً لَا يَرْزَؤُهَا ٱلْإِنْفَادُ وَٱلْإِنْفَاقُ ، وَلَوِ ٱعْتَصَبَتْ(٣) عَلَى ٱنْتِسَافِهَا ٱلْآفَاقُ ، فَخَفَفْنَا(٤) فِي سَبِيلِ ٱللهِ لِتَعْقِيبِ غَزْوِ تِلْكَ ٱلْأَقْطَارِ ٱلْمُخَالِفَةِ ، بِمَحْقِ ٱلصَّائِفَةِ ، وَإِعَانَةِ تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ ، بِكُلُومِ ٱلْمَجَاعِ ٱلْحَائِفَةِ(٥) خُفُوفًا لَمْ

(١) السافية : الريح تسفى التراب أى تذروه وتحمله — والماخرة السفينة تستقبل الريح فى جريتها ، أو التى يسمع صوت جريها بالرياح ، ولذلك جعل الريح نفسها ماخرة لأنها سبب (٢) يصح أن تكون « تتعدى » أى تتجاوز (٣) فى الأصل «اعتصت» ورأينا أنها محرفة عن «اعتصبت» أى اجتمعت واتفقت عصبة واحدة (٤) فى الأصل « خضنا » وهو تحريف يدل عليه قوله بعد « خفوفا » الخ — وخف القوم عن وطنهم خفوفا اذا ارتحلوا (٥) من تحيفه اذا تنقصه من حيفه أى من نواحيه ، ويظهر أنها محرفة عن « الجائفة » بالجيم ، والجائفة : طعنة نافذة تبلغ الجوف بقرينة « الكلوم » والمجاع أى المجاعة ، وقد تكون « اعانة » محرفة عن « اصابة » أو « احانة » أى اهلاك — والمقام يساعد على الاصابة والاحانة لا الاعانة « أحمد يوسف نجاتى »

تَقْنَعْ فِيهِ بِالِاسْتِنَابَةِ ، حِرْصًا عَلَى اسْتِئْصَالِ الصُّبَابَةِ[١] ،
وَأَعْفَيْنَا الرَّجْلَ[٢] مِنَ اتِّصَالِ الْكَدِّ ، وَقَابَلْنَا قَبُولَهُمْ عَلَى
اسْتِصْحَابِنَا فِيهَا بِالرَّدِّ ، وَأَطْلَلْنَا عَلَى قُرْطُبَةَ بِمَحَلَّاتِنَا[٣] نَنْسِفُ
الْجِبَالَ[٤] نَسْفًا ، وَنَعُمُّ الْأَرْضَ زِلْزَالًا وَخَسْفًا ، وَنَسْتَقْرِي
مَوَاقِعَ الْبَذْرِ اخْتِرَاقًا ، وَنَخْتَرِقُ أَجْوَابَهَا[٥] الْمُخْتَرَقَةَ بِحَبِّ
الْحَصِيدِ اخْتِرَاقًا ، وَنُسَلِّطُ عَلَيْهَا مِنْ شَرَرِ النَّارِ أَمْثَالَ
الْجِمَالَاتِ الصُّفْرِ مَدَّتْ مِنَ الشُّوَاظِ أَعْنَاقًا ، وَنُوسِعُ الْقُرَى
الْوَاسِعَةَ قَتْلًا وَاسْتِرْقَاقًا ، وَنُدِيرُ عَلَى مُسْتَدِيرِهَا كُؤُوسَ
الْحُتُوفِ دِهَاقًا[٦] ، وَأَخَذَتِ النِّيرَانُ وَادِيَهَا الْأَعْظَمَ مِنْ كِلَا

---

(١) الصبابة البقية (٢) الكد التعب والسعى ، وفى الأصل « الرحل » وكأن السياق يدل على أنها محرفة عن الرجل بالجيم اسم جمع للرجل، وهو من لم يكن له ظهر فى السفر يركبه فمشى على قدميه ، وهم المشاة خلاف الفرسان (٣) المحلة منزل القوم، وحل المكان وبالمكان « كضرب ونصر » نزل به (٤) فى بعض المراجع « ننسف جبال النعم » (٥) من جاب البلاد اذا قطعها واخترقها ، ولعلها محرفة عن أجرانها جمع جرن وهو الموضع الذى تجمع فيه الغلال، وهى كلمة عربية يستعملها أهل مصر ويسمى « البيدر » كما يظهر أن « المخترقة » محرفة عن « المختزنة » فأصل الجملة « ونخترق أجرانها المختزنة » الخ وفى بعض المراجع « ونخترق أجوابها المختلفة » « أحمد يوسف نجاتى » (٦) الكأس الدهاق الممتلئة المترعة .

جَانِبَيْهِ حَتَّى كَأَنَّ ٱلْقُيُونَ[١] أَحْمَتْ سَبِيكَتَهُ فَاسْتَحَالَتْ ، وَأَذَابَتْ صَفِيحَتَهُ فَسَالَتْ ، وَأَتَتِ ٱلْكُفَّارَ سَمَاؤُهُمْ بِالدُّخَانِ ٱلْمُبِينِ ، وَصَارَتِ ٱلشَّمْسُ مِنْ بَعْدِ سُفُورِهَا وَعُمُومِ نُورِهَا مُنَقَّبَةَ ٱلْمُحَيَّا[٢] ، مُعَصَّبَةَ ٱلْجَبِينِ ، وَخُضْنَا أَحْشَاءَ ٱلْغَرِيرَةِ[٣] نَعَمْ أَشْتَاتَ ٱلنَّعَمِ ٱنْتِسَافًا ، وَأَقْوَاتَ أَهْلِهَا إِتْلَافًا ، وَآمَالَ سُكَّانِهَا إِخْلَافًا ، وَقَدْ بُهِتُوا لِسُرْعَةِ ٱلرُّجُوعِ ، وَدُهِشُوا لِوُقُوعِ ٱلْجُوعِ ، وَتَسْبِيبِ تَخْرِيبِ ٱلرُّبُوعِ ، فَمِنَ ٱلْمُنْكَرِ ٱلْبَعِيدِ ، أَنْ يَتَأَتَّى بَعْدُ عُمْرَانُهَا ٱلْمَعْهُودُ ، وَقَدِ ٱصْطُلِمَ ٱلزَّرْعُ وَٱجْتُثَّ ٱلْعُودُ ، وَصَارَ إِلَى ٱلْعَدَمِ مِنْهَا ٱلْوُجُودُ ، وَرَأَوْا مِنْ عَزَائِمِ ٱلْإِسْلَامِ خَوَارِقَ تَشِذُّ عَنْ نِطَاقِ ٱلْعَوَائِدِ ، وَعَجَائِبَ تَسْتَرِيبُ فِيهَا عَيْنُ ٱلْمُشَاهِدِ ، إِذِ ٱشْتَمَلَ هٰذَا ٱلْعَامُ ، ٱلْمُتَعَرَّفُ فِيهِ مِنَ ٱللّٰهِ تَعَالَى ٱلْإِنْعَامُ ، عَلَى غَزَوَاتٍ[٤] أَرْبَعٍ

---

(١) فى الأصل « العيون » ولا معنى له ـ والقيون جمع قين وهو الحداد
(٢) فى بعض المراجع « المجتلى » والمعنى واحد (٣) كذا بالأصل « وقد يكون مراده البلدة الغريرة أى الغافلة » ـ وفى نسخة أخرى « الفرنتيرة » وأظنها ان كانت كذلك أنها كلمة افرنجية Frontiéres أى الحد ، وقد تقدم قوله « وبروزهم بالحدود المشتركات » (٤) فى الأصل « غرفات » ورأينا أنها محرفة عن « غزوات » وهذه الرسالة فى الأصل جمة التحريف

دُمِّرَتْ فِيهَا ٱلْقَوَاعِدُ ٱلشَّهِيرَةُ تَدْمِيرًا ، وَعَلَا فَوْقَ مَرَاقِيهَا ٱلْأَذَانُ عَزِيزًا جَهِيرًا ، وَضُويِقَتْ كَرَاسِيُّ ٱلْمُلْكِ تَضْيِيقًا كَبِيرًا ، وَأُذِيقَتْ وَبَالًا مُبِيرًا[١] ، وَرِيَاحُ ٱلْإِدَالَةِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى تَسْتَأْنِفُ هُبُوبًا ، وَبَأْسًا مَشْبُوبًا ، وَٱلثِّقَةُ بِاللهِ قَدْ مَلَأَتْ نُفُوسًا مُؤْمِنَةً وَقُلُوبًا . وَٱللهُ سُبْحَانَهُ ٱلْمَسْئُولُ أَنْ يُوزِعَ[٢] شُكْرَ هٰذِهِ ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي أَثْقَلَتِ ٱلْأَكْتَادَ[٣] وَأَبْهَظَتِ[٤] ٱلطَّوْقَ ٱلْمُعْتَادَ ، وَأَبْهَجَتِ ٱلْمُسِيمَ[٥] وَٱلْمُرْتَادَ ، فَبِالشُّكْرِ يُسْتَدَرُّ فَرِيدُهَا[٦] ، وَيَتَوَالَى تَجْدِيدُهَا . وَقَطَعْنَا فِي بُحْبُوحَةِ

كثيرة التبديل والتصحيف ، ولذا جهدنا فى تصحيحها على قدر الوسع وطالما أرهقنا تحريف الأصل من أمرنا عسرا ، ولكن : اذا الله سنى عقد أمر تيسرا (١) أى مهلكا : و يقال أصبحت منازلهم بورا أى خرابا لاشئ فيها (٢) أى أن يلهم قال تعالى : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك » أى ألهمنى ، وتأويله فى اللغة كفنى عن الأشياء الاعن شكر نعمتك ، وامنعنى عما يباعدنى عنك (٣) أى الكواهل جمع كتد (٤) أى أثقلت وبهظه الأمر اذا غلبه وثقل عليه و بلغ به مشقة ــ و بهظه الحمل اذا أثقله وعجز عن حمله ، والطوق الطاقة والجهد (٥) فى الأصل الشيم وأرى أنها محرفة عن « المسيم » فلم أجد فى اللغة «أشام» وسامت الماشية اذا رعت : وأسامها ، أرعاها وأخرجها الى المرعى قال تعالى : «فيه تسيمون » ــ والارتياد الطلب ، وارتاد لأهله و رادهم مرعى ومنزلا ، والرائد والمرتاد : المرسل فى طلب النجعة والتماس الكلأ ومساقط الغيث (٦) استدر الحلوبة : طلب درها ، وأن يمسح الضرع بيده ليدر اللبن ،

تِلْكَ الْعِمَالَةِ الْمُسْتَبْحِرَةِ الْعِمَارَةِ، وَالْفُلُجِ[١] الْمُغْنِي[٢] وَصْفُهَا عَنِ الشَّرْحِ وَالْعِبَارَةِ، مَرَاحِلَ خَتَمْنَا بِالتَّعْرِيجِ عَلَى حَرْبِ[٣] جَيَّانَ حَرْبَهَا، فَقَلَلْنَا ثَانِيَةً غَرْبَهَا، وَجَدَّدْنَا كَرْبَهَا، وَاسْتَوْعَبْنَا حَرْقَهَا وَخَرْبَهَا، وَنَظَمْنَا الْبِلَادَ فِي سِلْكِ الْبَلَاءِ، وَحَثَثْنَا فِي أَنْجَادِهَا وَأَغْوَارِهَا رَكَائِبَ الِاسْتِيلَاءِ، فَلَمْ نَتْرُكْ بِهَا مُلْقَطَ طَيْرٍ، فَضْلًا عَنْ مَعْلَفِ عَيْرٍ، وَلَا أَسْأَرْنَا لِفَلِّهَا[٤] الْمَحْرُوبِ بُلَالَةَ[٥] خَيْرٍ، وَقَفَلْنَا وَقَدْ تَرَكْنَا بِلَادَ النَّصَارَى الَّتِي مِنْهَا لِكِيَادِنَا الْمَدَدُ، وَالْعُدَّةُ وَالْعَدَدُ، وَفِيهَا الْخِصَامُ وَاللَّدَدُ[٦] قَدْ لَبِسَتِ الْحِدَادَ حَرِيقًا، وَسَلَكَتْ إِلَى الْخَلَاءِ وَالْجَلَاءِ طَرِيقًا، وَلَمْ نَتْرُكْ لَهَا مُضْغَةً تُخَالِطُ رِيقًا، وَلَا نِعْمَةً تَصُونُ مِنَ الْفِرَاقِ فَرِيقًا. وَمَا كَانَتْ تِلْكَ النِّعَمُ لَوْلَا أَنْ أَعَانَ

ومن المجاز : بالشكر تستدر النعم (١) الفلج « بضمتين » : الساقية يجرى ماؤها ، والفلجات المزارع ، والفلج : شق الأرض للزراعة — والفلجة « بفحتين » : القراح من الأرض الذى اشتق للزرع وفى نسخة « الفلح » (٢) فى نسخة « المعي » أى المعجز (٣) فى نسخة « حزب »

(٤) الفل : الجماعة المنهزمون — والمحروب : الذى سلب ماله وترك بلا شىء

(٥) البلال، والبلالة ما يبل به الحلق من ماء أو لبن والبلالة: النداوة ، وأسأر أبقى

(٦) اللدد الخصومة والجدل وفى التنزيل العزيز : « وهو ألد الخصام » الألد: الخصم الجدل الشحيح والذى لا يرجع الى الحق ، والشديد الخصومة العسر

ٱللَّهُ تَعَالَى مِنْ عُنْصُرَى ٱلنَّارِ وَٱلْهَوَاءِ بِجُنُودِ كَوْنِهِ ٱلْوَاسِعِ ، وَمُدْرَكَةِ (١) ٱلْبَعِيدِ ٱلشَّاسِعِ ، لِتُولِيَ ٱلْأَيْدِيَ ٱلْبَشَرِيَّةَ تَغْرِيبَهَا (٢) وَلَا تُرْزَأَ كَثِيرَهَا ، إِلَّا لِتَمْتَاحَ بِالِاعْتِرَافِ غَدِيرَهَا (٣) . بَلْ لِلَّهِ ٱلْقُدْرَةُ جَمِيعاً ، فَقُدْرَتُهُ لَا تَتَحَامَى رِيعاً (٤) وَلَا حِمًى مَرِيعاً مَنِيعاً ؛ وَعُدْنَا وَٱلْعَوْدُ فِي مِثْلِهَا أَحْمَدُ ، وَقَدْ بَعُدَ مِنْ شِفَاءِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْأَمَدُ ، وَنُسِخَ بِالسُّرُورِ ٱلْكَمَدُ ، وَرُفِعَتْ مِنْ عِزِّ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْعَمَدُ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ ٱلشَّاكِرِينَ ، وَمِنْهُ نَلْتَمِسُ عَادَةَ ٱلنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِ فَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ . عَرَّفَنَا كُمْ بِهِ لِيُسَرَّ دِينُكُمُ ٱلْمَتِينُ ، وَمَجْدُكُمُ ٱلَّذِي رَاقَ مِنْهُ ٱلْجَبِينُ . وَٱللَّهُ

(١) فى بعض المراجع « ومدركه » أى ادراكه واعانته ، وأدرك أى بلغ علمه أقصى الشيء (٢) كذا بالأصل ، وفى بعض المراجع « لتتولى الأيدى البشرية تغريبها ولا ترزأ كثيرها ، ولا لتمتاح بالاعتراف غديرها»

(٣) امتاح الماء من البئر : استقاه ، والميح أن تدخل البئر فتملأ الدلو لقلة مائها ، كأنه يريد أن يقول : ان الله تعالى يعوض المرء مافقده ، ويوليه بحكمته التعزية والصبر ،فهو وان فقد الكثير يعزى نفسه بما يساق اليه من القليل ، أو يقول : ان الله تعالى أراد أن يسوق اليهم النعم كثيرة متوالية فأعانهم بجنود من النار والهواء ساعدت على سرعة هزيمة الأعداء ومضاعفة بلائهم ، ولم يكلهم إلى مجهودهم فيهم فتكون نعمة النصر على الأعداء والفتك بهم قليلة (٤) الريع: المرتفع من الأرض ، أو كل فج أو كل طريق أو الطريق المنفرج عن الجبل ، أو الجبل المرتفع ، أو سيل الوادى من مكان مرتفع

يصِلُ سَعْدَكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، وَيُبَلِّغُكُمْ أَمَلَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَقَصْدَكُمْ ، بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ : وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يَخُصُّكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ . انْتَهَى .

***

وصف جامع قرطبة

« رَجْعٌ إِلَى مَا كُنَّا بِسَبِيلِهِ » مِنْ أَخْبَارِ قُرْطُبَةَ الْجَلِيلَةِ الْوَصْفِ ، وَذِكْرِ جَامِعِهَا الْبَدِيعِ الْإِتْقَانِ وَالرَّصْفِ(١) فَنَقُولُ : قَدْ شَاعَ وَذَاعَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنَ النَّاسِ فِي هَـذِهِ الْبِلَادِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَغَيْرِهَا أَنَّ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ ثَلَثَمِائَةٍ وَنَحْوَ سِتِّينَ طَاقًا عَلَى عَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ ، وَأَنَّ الشَّمْسَ تَدْخُلُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ طَاقٍ إِلَى أَنْ يَتِمَّ الدَّوْرُ ثُمَّ تَعُودُ . وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ فِي كَلَامِ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَلَوْ كَانَ كَمَا شَاعَ لَذَكَرُوهُ وَتَعَرَّضُوا لَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ مَا يُسْتَطَرُ ، مَعَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا مَا هُوَ دُونَهُ ، فَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ

(١) في الأصل « والوصف » وهو تحريف ظاهر ــ والرصف : نظم الشيء بعضه الى بعض ــ ورصف الحجارة : بناها ورصها ووصل بعضها ببعض

فِي ذَلِكَ . وَسَتَأْتِي فِي الْبَابِ السَّابِعِ رِسَالَةُ الشَّقَنْدِيِّ الطَّوِيلَةُ وَفِيهَا مِنْ مَحَاسِنِ قُرْطُبَةَ وَسَائِرِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ الطِّمُّ وَالرِّمُّ(١) . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ جُمْلَةً مِنْ مَحَاسِنِ قُرْطُبَةَ فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهَا هُنَا ، عَلَى أَنَّ رِسَالَةَ الشَّقَنْدِيِّ تَكَرَّرَ فِيهَا بَعْضُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِأَنَّا لَمْ نُرِدْ أَنْ نُخِلَّ مِنْهَا بِحَرْفٍ ، فَأَتَيْنَا بِهَا بِلَفْظِهَا وَإِنْ تَكَرَّرَ بَعْضُ مَا فِيهَا مَعَ بَعْضِ مَا أَسْلَفْنَاهُ ، وَالْعُذْرُ وَاضِحٌ لِلْمُنْصِفِ الْمُغْضِي ، وَاللهَ نَسْأَلُ سُلُوكَ السَّبِيلِ الَّذِي يُرْضِي بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ . وَقَالَ صَاحِبُ نَشَقِ الْأَزْهَارِ : إِنَّ فِي جَامِعِ قُرْطُبَةَ تَنُّورًا مِنْ نُحَاسٍ أَصْفَرَ يَحْمِلُ أَلْفَ مِصْبَاحٍ ، وَفِيهِ أَشْيَاءُ غَرِيبَةٌ ، مِنَ الصَّنَائِعِ الْعَجِيبَةِ ، يَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهَا

(١) الطم : الماء الكثير ، أوماعلى وجهه من الغثاء ونحوه ، أوماساقه من غثاء ونحوه ، وبكل ذلك فسر قولهم فى المثل : جاء بالطم والرم ، وقيل الطم : البحر والرم الثرى ، وسمى البحر طما لأنه طم على مافيه ، وأراد بالطم والرم العدد الكثير ، أو جاء بكل شىء مما فى البر والبحر . والطم أيضا : العجب العجاب ، وبه فسر المثل — أو الطم الرطب والرم اليابس ، أو الطم التراب والرم الماء ، أو الطم مايحمله الماء والرم ماتحمله الريح . « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْوَاصِفُونَ . قِيلَ : أُحْكِمَ عَمَلُهُ فِي سَبْعِ سِنِينَ ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَعْمِدَةٍ مِنْ رُخَامٍ أَحْمَرَ مَكْتُوبٌ عَلَى ٱلْوَاحِدِ ٱسْمُ مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى ٱلْآخَرِ صُورَةُ عَصَا مُوسَى وَأَهْلِ ٱلْكَهْفِ ، وَعَلَى ٱلثَّالِثِ صُورَةُ غُرَابِ نُوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، ٱلثَّلَاثَةُ خَلَقَهَا ٱللهُ تَعَالَى وَلَمْ يَصْنَعْهَا صَانِعٌ . ٱنْتَهَى .

قُلْتُ لَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ مُحَقِّقِي ٱلْمُؤَرِّخِينَ لِلْأَنْدَلُسِ وَثِقَاتِهِمْ ذَكَرَ هَذَا ـ عَلَى قِلَّةِ ٱطِّلَاعِي ـ ، وَهُوَ عِنْدِي بَعِيدٌ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَذَكَرَهُ ٱلْأَئِمَّةُ . وَقَدْ حَكَى ٱلْقَاضِي عِيَاضٌ فِي ٱلشِّفَاءِ أَشْيَاءَ وُجِدَ عَلَيْهَا ٱسْمُ نَبِيِّنَا ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَلَمْ يَذْكُرْ هَذَا ، وَيُسْتَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ بِجَامِعِ قُرْطُبَةَ وَلَا يَذْكُرُهُ . وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ٱلْأَمْرِ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ : إِنَّ دَوْرَ قُرْطُبَةَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ مِيلًا وَعَرْضُهَا مِيلَانِ ، وَهِيَ عَلَى ٱلنَّهْرِ ٱلْكَبِيرِ ، وَعَلَيْهِ جِسْرَانِ ، وَبِهَا ٱلْجَامِعُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْإِسْلَامِيُّ ، وَبِهَا ٱلْكَنِيسَةُ ٱلْمُعَظَّمَةُ بَيْنَ ٱلنَّصَارَى . وَبِهَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ مَعْدِنُ ٱلْفِضَّةِ وَمَعْدِنُ

ٱلشَّاذَنْجِ وَهُوَ حَجَرٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقْطَعَ ٱلدَّمَ[١] ـ وَكَانَ يُجْلَبُ مِنْهَا ٱلْبِغَالُ ٱلَّتِي تُبَاعُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ مِنْ حُسْنِهَا وَعُلُوِّهَا ٱلزَّائِدِ . ٱنْتَهَى .

***

دلال البنيان

« رَجْعٌ إِلَى أَخْبَارِ ٱلْبُنْيَانِ » وَلَا خَفَاءَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ بَانِيهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْمَرْوَانِيُّ بَانِي ٱلزَّهْرَاءِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ حَسْبَمَا نَسَبَهُمَا لَهُ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَبَعْضٌ يَنْسِبُهُمَا لِغَيْرِهِ ، وَسَيَأْتِيَانِ فِي تَرْجَمَةِ نُورِ ٱلدِّينِ بْنِ سَعِيدٍ[٢] عَلِيٍّ مَنْسُوبَيْنِ ـ :

هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ ٱلْبُنْيَانِ

إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ قَدْرُهُ
أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ ٱلشَّانِ

وَتَذَكَّرْتُ هُنَا قَصِيدَةً قَالَهَا بَعْضُ ٱلشَّامِيِّينَ وَهُوَ

---

(١) ويسمى شاذنه ، وحجر الدم ـ وكانوا يعالجون به بعض أمراض العين وخشونة الأجفان . (٢) كانت كلمة « سعيد » ساقطة من الأصل

اَلْأَدِيبُ اَلْفَاضِلُ اَلشَّيْخُ أَسَدُ بْنُ مُعِينِ اَلدِّينِ مِمَّا يُكْتَبُ عَلَى أَبْرَاجِ دَارِ اَلْحَسِيبِ ، اَلنَّسِيبِ ، اَلشَّهِيرِ اَلْبَيْتِ ، اَلْكَبِيرِ اَلْحَيِّ وَاَلْمَيِّتِ ، اَلْقَاضِي عَبْدِ اَلرَّحْمَنِ بْنِ اَلْفُرْفُورِ اَلدِّمَشْقِيِّ(١) وَضَمَّنَهَا بَيْتَيِ اَلنَّاصِرِ اَلْمَذْكُورَيْنِ :

زُرْ مَجْلِسًا أَضْحَى أَعَزَّ مَكَانِ
وَمَحَلَّ أَهْلِ اَلْعِلْمِ وَاَلْعِرْفَانِ

اَلْمَجْدُ خَيَّمَ فِي ذُرَا أَبْرَاجِهِ
وَاَلسَّعْدُ عَبْدُ اَلْبَابِ طولَ زَمَانِ

كَاَلْخُلْدِ مَرْفُوعُ اَلْبِنَاءِ وَأَرْضُهُ
مَفْرُوشَةٌ بِالدُّرِّ وَاَلْعِقْيَانِ

---

(١) بيت الفرفوري بيت كان في الشام «في القرنين العاشر والحادي عشر» من بيوتات الحسب والعراقة وأرباب اللسن والطلاقة ، وفي أحدهم «أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد المتوفى سنة ١٠٣٧» يقول الأديب أبو بكر بن أحمد الجوهري :

أبناء فرفور لقد حازوا العلا — حتى علوا في المجد هام الفرقد
ورثوا الفضائل كابرا عن كابر — وكمال ذلك بالشهاب الأحمد

بَيْتٌ بِهِ فَخَرَ ٱلْبُيُوتُ لِأَنَّهُ
بَيْتُ ٱلْقَصِيدِ [1] وَمَنْزِلُ ٱلضِّيفَانِ
مَغْنًى فَسِيحٌ فِيهِ مَعْنًى مُفْصِحٌ
عَنْ قَدْرِ بَانِيهِ بِغَيْرِ لِسَانِ
قَدْ قَالَ بَعْضُ ذَوِى ٱلْفَضَائِلِ قَبْلَنَا
قَوْلًا بَدِيعًا وَاضِحَ ٱلتِّبْيَانِ
هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ ٱلْبُنْيَانِ
إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ قَدْرُهُ
أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ ٱلشَّانِ
قَدْ شَادَهُ مَنْ سَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ
بِٱلْأَصْلِ وَٱلْإِفْضَالِ وَٱلرُّجْحَانِ
وَرِثَ ٱلسِّيَادَةَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ
وَسَمَا بِرِفْعَتِهِ عَلَى كِيوَانِ [2]
قَاضِى ٱلْقُضَاةِ وَمَفْخَرُ ٱلْعَصْرِ ٱلَّذِى
قَدْ جَاءَ فِيهِ سَابِقَ ٱلْأَقْرَانِ

(١) تورية يريد بها أنه منزل الشعر والأدب كما أنه بيت الكرم (٢) اسم لكوكب زحل أبعد السيارات السبع عند القدماء « أحمد يوسف نجاتى »

فِي ٱلْعِلْمِ بَحْرٌ لَا يُنَالُ قَرَارُهُ

فِي ٱلْحُكْمِ مِثْلُ مُهَنَّدٍ وَسِنَانِ

يَرْوِي عَطَاءٌ[1] عَنْ يَدَيْهِ، قَدِ ٱقْتَفَى

آثَارَ آبَاءٍ ذَوِي إِحْسَانِ

لَا زَالَ يَبْقَى شَائِدًا بَيْتَ ٱلْعُلَا

وَعَدُوُّهُ فِي ٱلْوَهْنِ وَٱلنُّقْصَانِ

يَاأَيُّهَا ٱلْمَوْلَى ٱلَّذِي يَجْرِي مَعَ ٱلْـ

إِقْبَالِ وَٱلْإِسْعَادِ طَلْقَ عِنَانِ[2]

دُمْ شَامِخَ ٱلْمِقْدَارِ مُرْتَفِعَ ٱلْبِنَا

وَٱلنَّاسُ تَحْتَ رِضَاكَ كَٱلْغِلْمَانِ

مُتَمَتِّعًا بِبَنِيكَ سَادَاتِ ٱلْوَرَى

فِي عِزِّ رَبٍّ دَائِمِ ٱلسُّلْطَانِ

مَا رَجَّعَ ٱلْقُمْرِيُّ فِي تَغْرِيدِهِ

فِي ٱلرَّوْضِ فَوْقَ مَنَابِرِ ٱلْأَغْصَانِ

(١) فى «عطاء» تورية باسم عطاء بن أبى رباح التابعى كان من أجلاء فقهاء مكة وزهادهم توفى سنة ١١٥ ــ ومراده هنا البذل والمنح

(٢) أى مطلق العنان ومرسله قد أرخى له يعدو جهد طاقته .

***

عبدالرحمن بن فرفور

وَكَانَ ٱلْقَاضِي عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ فُرْفُورٍ ٱلْمَذْكُورُ عَالِيَ ٱلْهِمَّةِ تَضِيقُ يَدُهُ(١) عَمَّا يُرِيدُ ، فَلِذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا مَا يَبُثُّ شَكْوَاهُ فِي ٱلطُّرُوسِ وَٱلدَّفَاتِرِ ، وَيَعْتِبُ عَلَى ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي أَخْنَى(٢) عَلَى أَهْلِ ٱلْأَدَبِ وَقَطَعَ آمَالَهُمْ بِحُسَامِهِ ٱلْبَاتِرِ، وَيَرْحَمُ ٱللهُ ٱلْقَائِلَ :

هٰذَا زَمَانٌ دُرَيْهِمِي لَا غَيْرِهِ

فَدَعِ ٱلدَّفَاتِرَ لِلزَّمَانِ ٱلْفَاتِرِ

فَمِنْ نَظْمِ ٱلْمَذْكُورِ وَقَدْ أَبْطَأَ بِجُزْءٍ ٱسْتَعَارَهُ مِنْ بَعْضِ إِخْوَانِهِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعْتَذِرًا ، وَأَدْمَجَ شَكْوَى ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ شَمَاتَةِ ٱلْأَعْدَاءِ بِهِ حَذِرًا :

أَبْطَأْتُ فِي ذَا ٱلْجُزْءِ يَاسَيِّدِي

كِتَابَةً مِنْ جَوْرِ دَهْرٍ بَغِيضْ

---

(١) حقه أن ينشد:

أرى نفسي تتوق الى أمور ويقصر دون مبلغهن مالى

فنفسي لاتطاوعني ببخل ومالى لايبلغني فعالى

(٢) أخنى عليهم الدهر :أتى عليهم وأهلكهم ، وخنى الدهر : آفاته ونوائبه

صَابَرْتُهُ فَالْجِسْمُ مِنِّى لَقًى[1]
تَجَلُّدًا وَالْقَلْبُ مِنِّى مَرِيضْ

فَإِذْ أَبَى إِلَّا تَلَافِى وَقَــــدْ
أَحَلَّنِى مِنْـــــهُ مَحَـلَّ النَّقِيضْ

وَاقْتَادَنِى قَسْرًا إِلَى مَصْرَعٍ
قَدْ رَقَّ مِنْهُ اللَّحْمُ وَالْعَظْمُ هِيضْ

سَلَّمْتُ لِلْأَقْدَارِ مُسْتَسْرِعًا
لِبَابِ مَوْلًى ذِى عَطَاءٍ عَرِيضْ

جُمُومُ صَبْرٍ كُنْتُ أَسْطُو بِهِ
عَلَى رَزَايَا[2] الدَّهْرِ بِالْهَمِّ غِيضْ[3]

فَلَا تَلُمْ يَاصَاحِ مِنْ بَعْـدِ ذَا
إِذَا تَمَثَّلْتُ : بِحَالَ الْجَرِيضْ[4]

---

(١) اللقى : الشىء الملقى على الأرض يريد أنه طريح (٢) فى الأصل (روايا) مصحفة (٣) جم الماء يجم جموما: كثر واجتمع ضد غاض (٤) يريد المثل المشهور وهو « حال الجريض دون القريض » يضرب لمن يشغله أمر مهم مؤلم عن المطلوب منه، وللأمر يعوق دونه عائق، و يقال عند كل أمر كان مقدورا عليه فحيل دونه ، وقال الميدانى: يضرب لأمر يقدر عليه آخرا حين لا ينفع.

وَرَأَيْتُ بِخَطِّهِ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - مِمَّا نَسَبَهُ جَدُّهُ ٱلْقُطْبُ ٱلْخَيْضَرِيُّ ٱلْحَافِظُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ نَصْرٍ ٱلْحَمَوِيِّ ثُمَّ ٱلْمِصْرِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ بِابْنِ ٱلْفَقِيهِ:

يَازَمَانًا كُلَّمَا حَا وَلْتُ أَمْرًا يَتَمَنَّعْ

إِنْ تَعَصَّبْتَ فَإِنِّي بِاصْطِبَارِي أَتَقَنَّعْ(١)

وَهٰذِهِ تَوْرِيَةٌ بَدِيعَةٌ لِلْغَايَةِ فِي ٱلتَّعَصُّبِ وَٱلتَّقَنُّعِ، مَعَ حَلَاوَةِ ٱلنَّظْمِ وَجَوْدَةِ ٱلسَّبْكِ وَخِفَّةِ ٱلْوَزْنِ. وَٱللهُ سُبْحَانَهُ يُرَوِّحُ تِلْكَ ٱلْأَرْوَاحَ فِي ٱلْجِنَانِ، وَيُعَامِلُنَا وَإِيَّاهُمْ بِمَحْضِ ٱلْفَضْلِ وَٱلِامْتِنَانِ، وَيَكْفِينَا شُجُونَ دَهْرٍ جَرَى بِنَا طَلْقَ ٱلْعِنَانِ.

والجريض الغصة - وقال الرياشي: الجريض والقريض يحدثان بالانسان عند الموت، فالجريض تبلع الريق والقريض صوت الانسان «وفى معنى المثل: حال الأجل دون الأمل» وقريب منه قول ابن الفارض:

دنت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وأول من قال هذا المثل عبيد بن الأبرص أو جوشن بن منقذ الكلابي حين منعه أبوه من قول الشعر حسدا له لتبريزه كان عليه فجاش الشعر فى صدره فمرض منه حزنا فرق له أبوه وقد أشرف على الموت فقال يابنى انطق بما أحببت، فقال: حال الجريض دون القريض - وأرى أن القريض يراد به معناه الظاهر وهو الشعر ونظمه (١) فى الأصل «يتمنع» «أقتنع» والأولى ماأثبتناه بدليل قول المؤلف بعد «التعصب والتقنع»

« رَجْعٌ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ » وَ كُنْتُ وَقَفْتُ فِي كَلَامِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ الْمَنْسُوبَيْنِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ الْمَرْوَانِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - قَالَهُمَا فِي الزَّهْرَاءِ الَّتِي بَنَاهَا ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُهَا قَرِيباً . وَقَالَ الشَّيْخُ سَيِّدِي مُحْيِي الدِّينِ بْنُ الْعَرَبِيِّ[1] فِي الْمُسَامَرَاتِ : قَرَأْتُ عَلَى مَدِينَةِ الزَّهْرَاءِ بَعْدَ خَرَابِهَا وَصَيْرُورَتِهَا مَأْوَى الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ - وَبِنَاؤُهَا عَجِيبٌ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ قُرْطُبَةَ - أَبْيَاتاً تُذَكِّرُ الْعَاقِلَ ، وَتُنَبِّهُ الْغَافِلَ ، وَهِيَ :

دِيَارٌ بِأَكْنَافِ الْمَلَاعِبِ تَلْمَعُ
وَمَا إِنْ بِهَا مِنْ سَاكِنٍ وَهْيَ بَلْقَعُ[2]

يَنُوحُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَيَصْمُتُ أَحْيَاناً وَحِيناً يُرَجِّعُ

---

(١) ستأتي ترجمته في النفح مبسوطة (٢) من المجاز : لعبت الريح بالمنزل وتلاعبت اذا درسته ، وملاعب الرياح : مدارجها — والبلقع الأرض القفر التي لاشيء بها . « أحمد يوسف نجاتي »

فَخَاطَبْتُ مِنْهَــا طَائِرًا مُتَغَرِّدًا
لَهُ شَجَنٌ فِي الْقَلْبِ وَهْوَ مُرَوَّعُ
فَقُلْتُ عَلَى مَاذَا تَنُوحُ وَتَشْتَــكِي ؟
فَقَالَ عَلَى دَهْرٍ مَضَى لَيْسَ يَرْجِــعُ

***

مدينة الزهراء

« ثُمَّ قَالَ » وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ مَشَايِخِ قُرْطُبَةَ عَنْ سَبَبِ بِنَاءِ مَدِينَةِ الزَّهْرَاءِ أَنَّ النَّاصِرَ مَاتَتْ لَهُ سُرِّيَّةٌ وَتَرَكَتْ مَالًا كَثِيرًا ، فَأَمَرَ بِأَنْ يُفَكَّ بِذَلِكَ الْمَالِ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ وَطَلَبَ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ أَسِيرًا فَلَمْ يُوجَدْ ، فَشَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَتْ لَهُ جَارِيَتُهُ الزَّهْرَاءُ ـ وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا : اشْتَهَيْتُ لَوْ بَنَيْتَ لِي بِهِ مَدِينَةً تُسَمِّيهَا بِاسْمِي وَتَكُونُ خَاصَّةً لِي ، فَبَنَاهَا تَحْتَ جَبَلِ الْعَرُوسِ مِنْ قِبْلَةِ الْجَبَلِ وَشَمَالِ قُرْطُبَةَ ـ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قُرْطُبَةَ الْيَوْمَ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ ـ وَأَتْقَنَ بِنَاءَهَا ، وَأَحْكَمَ الصَّنْعَةَ فِيهَا ، وَجَعَلَهَا مُسْتَنْزَهًا وَمَسْكَنًا لِلزَّهْرَاءِ وَحَاشِيَةِ أَرْبَابِ دَوْلَتِهِ ، وَنَقَشَ صُورَتَهَا عَلَى الْبَابِ ، فَلَمَّا قَعَدَتِ الزَّهْرَاءُ فِي مَجْلِسِهَا

نَظَرَتْ إِلَى بَيَاضِ ٱلْمَدِينَةِ وَحُسْنِهَا فِي حِجْرِ ذٰلِكَ ٱلْجَبَلِ ٱلْاسْوَدِ فَقَالَتْ : يَاسَيِّدِي أَلَا تَرَى إِلَى حُسْنِ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةِ ٱلْحَسْنَاءِ فِي حِجْرِ ذٰلِكَ ٱلزَّنْجِيِّ ؟ فَأَمَرَ بِزَوَالِ ذٰلِكَ ٱلْجَبَلِ ، فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَائِهِ : أُعِيذُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْطُرَ لَهُ مَا يَشِينُ ٱلْعَقْلَ سَمَاعُهُ ، لَوِ ٱجْتَمَعَ ٱلْخَلْقُ مَا أَزَالُوهُ حَفْرًا وَلَا قَطْعًا ، وَلَا يُزِيلُهُ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ شَجَرِهِ وَغَرْسِهِ تِينًا وَلَوْزًا ، وَلَمْ يَكُنْ مَنْظَرٌ أَحْسَنَ مِنْهَا ، وَلَا سِيَّمَا فِي زَمَانِ ٱلْأَزْهَارِ ، وَتَفَتُّحِ ٱلْأَشْجَارِ ، وَهِيَ بَيْنَ ٱلْجَبَلِ وَٱلسَّهْلِ ، ٱنْتَهَى بِبَعْضِ ٱخْتِصَارٍ .

وَقَالَ ٱبْنُ خَلِّكَانَ فِي تَرْجَمَةِ ٱلْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ مَاصُورَتُهُ : ٱلزَّهْرَاءُ بِفَتْحِ ٱلزَّايِ وَسُكُونِ ٱلْهَاءِ وَفَتْحِ ٱلرَّاءِ بَعْدَهَا أَلِفٌ مَمْدُودَةٌ ، وَهِيَ مِنْ عَجَائِبِ أَبْنِيَةِ ٱلدُّنْيَا ، أَنْشَأَهَا أَبُو ٱلْمُظَفَّرِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُلَقَّبُ بِالنَّاصِرِ أَحَدُ مُلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ بِالْقُرْبِ مِنْ قُرْطُبَةَ فِي أَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ ، وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهُمَا

أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ وَثُلُثَا مِيلٍ ، وَطُولُ الزَّهْرَاءِ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ أَلْفَانِ وَسَبْعُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعَرْضُهَا مِنَ الْقِبْلَةِ إِلَى الْجَنُوبِ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَعَدَدُ السَّوَارِي الَّتِي فِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ سَارِيَةٍ وَثَلَثُمِائَةِ سَارِيَةٍ ، وَعَدَدُ أَبْوَابِهَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسَةَ عَشَرَ بَابًا[1] . وَكَانَ النَّاصِرُ يُقَسِّمُ جِبَايَةَ الْبِلَادِ أَثْلَاثًا : فَثُلُثٌ لِلْجُنْدِ ، وَثُلُثٌ مُدَّخَرٌ ، وَثُلُثٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِمَارَةِ الزَّهْرَاءِ . وَكَانَتْ جِبَايَةُ الْأَنْدَلُسِ خَمْسَةَ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَرْبَعَمِائَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِينَ أَلْفَ دِينَارٍ[2] ، وَمِنَ السُّوقِ وَالْمُسْتَخْلَصِ[3] سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَخَمْسَةٌ وَسِتُّونَ أَلْفَ دِينَارٍ. وَهِيَ مِنْ أَهْوَلِ مَا بَنَاهُ الْإِنْسُ[4] وَأَجَلِّهِ خَطَرًا وَأَعْظَمِهِ شَأْنًا . ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ ابْنُ بَشْكُوَالَ فِي تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ . انْتَهَى كَلَامُهُ .

---

(١) كذا فى ابن خلكان ، وعدلنا عما فى الأصل « خمسة عشر ألف باب » (٢) كذا فى ابن خلكان، أما الأصل الذى عدلنا عن روايته فهو يزيد كلمة ألف فيقول « خمسة آلاف ألف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف » الخ (٣) كذا فى ابن خلكان وفى موضع آخر من الأصل — وفى الأصل هنا « ومن الستوق المستخلصة » وهذا تحريف (٤) فى ابن خلكان « وهى من أهول بناء الأندلس » . « أحمد يوسف نجاتى »

***

أطلال قصور الأمويين

وَحَكَى فِي الْمَطْمَحِ أَنَّ الْوَزِيرَ الْكَبِيرَ الشَّهِيرَ أَبَا الْحَزْمِ(١) بْنَ جَهْوَرٍ قَالَ ـ وَقَدْ وَقَفَ عَلَى قُصُورِ الْأُمَوِيِّينَ الَّتِي تَقَوَّضَتْ أَبْنِيَتُهَا ، وَعُوِّضَتْ مِنْ أَنِيسِهَا بِالْوَحْشِ أَفْنِيَتُهَا :

قُلْتُ يَوْمًا لِدَارِ قَوْمٍ تَفَانَوْا
أَيْنَ سُكَّانُكِ الْعِزَازُ عَلَيْنَا ؟
فَأَجَابَتْ : هُنَا أَقَامُوا قَلِيلًا
ثُمَّ سَارُوا ، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا ؟

وَفِيهِ أَنَّ أَبَا عَامِرِ بْنَ شُهَيْدٍ بَاتَ لَيْلَةً بِإِحْدَى كَنَائِسِ قُرْطُبَةَ وَقَدْ فُرِشَتْ بِأَضْغَاثِ(٢) آسٍ ، وَعُرِشَتْ(٣) بِسُرُورٍ وَاسْتِئْنَاسٍ ، وَقَرْعُ النَّوَاقِيسِ يَبْهَجُ(٤) سَمْعَهُ ، وَبَرْقُ الْحُمَيَّا

---

(١) فى الأصل الشهير بالحزم وهو تحريف ناقص (٢) جمع ضغث وهو نحو الحزمة ـ وأصل معنى الضغث قبضة من حشيش أو مقدارها مختلطة الرطب باليابس ـ أو كل ماملأ الكف من النبات (٣) عرش الكرم ونحوه عرشا وعروشا وعرشه: جعل له عريشا « وهى عيدان تجعل كهيئة السقف فتجعل عليها قضبانه وترفع عليها دواليه » وفى بعض النسخ « وعرشت بشر واستئناس » (٤) فى المطمح « يبهج » وفيه « يسرج » بدل يسرع ،

يُسْرِعُ لَمْعُهُ ، وَالْقَسُّ قَدْ بَرَزَ فِي عَبَدَةِ الْمَسِيحِ ، مُتَوَشِّحًا بِالزُّنَّارِ أَبْدَعَ تَوْشِيحٍ ، قَدْ هَجَرُوا الْأَفْرَاحَ ، وَاطَّرَحُوا النَّعِيمَ(١) كُلَّ اطِّرَاحٍ :

لَا يَعْمِدُونَ إِلَى مَاءٍ بِآنِيَةٍ

إِلَّا اغْتِرَافًا مِنَ الْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ(٢)

وَأَقَامَ بَيْنَهُمْ يُعْمِلُهَا حُمَيًّا ، كَأَنَّمَا يَرْشُفُ مِنْ كَأْسِهَا شَفَةً لَمْيَا ، وَهِيَ تَنْفَحُ لَهُ بِأَطْيَبِ عَرْفٍ ، كُلَّمَا رَشَفَهَا أَعْذَبَ رَشْفٍ ، ثُمَّ ارْتَجَلَ ، بَعْدَ مَا ارْتَحَلَ ، فَقَالَ :

وَلَرُبَّ حَانٍ قَدْ شَمِمْتُ(٣) بِدَيْرِهِ

خَمْرَ الصِّبَا مُزِجَتْ بِصِرْفِ عَصِيرِهِ

فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا السُّرُورَ شِعَارَهُمْ

مُتَصَاغِرِينَ تَخَشُّعًا لِكَبِيرِهِ

وهو أحسن عبارة لما فيه من ترصيع السجع الذى يقصده الفتح بن خاقان كثيرا (١) فى الأصل والمطمح «النعم» وأرى أنها محرفة عن «النعيم» كما لايخفى (٢) نثر نظام هذا البيت فى الأصل مهدما محرفا مكتوبا بهيئة كتابة النثر وفيه «بابلة» بدل بآنية (٣) و يروى: أدرت «أحمد يوسف نجاتى»

وَٱلْقَسُّ مِمَّا شَاءَ طُولُ مُقَامِنَا

يَدْعُو بِعُودٍ حَوْلَنَا بِزَبُورِهِ

يُهْدِى لَنَا بِالرَّاحِ كُلَّ مُصَفَّرٍ

كَالْخُشْفِ خَفَّرَهُ ٱلْتِمَاحُ خَفِيرِهِ(١)

يَتَنَاوَلُ ٱلظُّرَفَاءُ فِيهِ وَشُرْبُهُمْ

لِسُلَافِهِمْ(٢) وَٱلْأَكْلُ مِنْ خِنْزِيرِهِ

ٱنْتَهَى .

***

بناء الزهراء

« رَجْعٌ إِلَى أَنْبَاءِ ٱلزَّهْرَاءِ » قَالَ بَعْضُ مَنْ أَرَّخَ ٱلْأَنْدَلُسَ : كَانَ يَتَصَرَّفُ فِي عِمَارَةِ ٱلزَّهْرَاءِ كُلَّ يَوْمٍ

---

(١) كذا بالأصل والمطمح، وقد تكون «مضفر» وربما كان أصل البيت هكذا:

يهدى لنا بالراح كل مخفر كالخشف نفره التماح خفيره

والمخفر الممنوع ، من قولك خفره وخفر عليه يخفر خفرا ، وخفره اذا أجاره ومنعه وأمنه وكان له خفيرا يحرسه ، والتخفير: التسوير والتحصين، والخفر: شدة الحياء كالتخفر ـ والخشف « بكسر الخاء وضمها مع سكون الشين » ولد الظبي أول مايولد ، وقال الأصمعي أول مايولد الظبي طلا ثم خشف ـ والتمحه ولمحه ولمح اليه اذا اختلس النظر اليه أى أبصره بنظر خفيف سريع ، واللمحة : النظرة العجلة ، وقيل لايكون اللمح الامن بعيد ـ فمعنى البيت على ماأراه أنه يدير الراح عليهم ساق أهيف كالظبي الأغن الممنع فى حياء ودلال يزيد نفوره وامتناعه رقابة خفيره وملاحظة رقيبه . « أحمد يوسف نجاتى » . (٢) فى بعض المراجع «لسلافه» وهو أظهر .

مِنَ الْخُدَّام وَالْفَعَلَةِ عَشَرَةُ آلاَف رَجُلٍ ، وَمِنَ الدَّوَابِّ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةِ دَابَّةٍ ، وَكَانَ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ لَهُ دِرْهَمٌ وَنِصْفٌ وَمَنْ لَهُ الدِّرْهَمَانِ وَالثَّلاَثَةُ ، وَكَانَ يُصْرَفُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الصَّخْرِ الْمَنْحُوتِ الْمُعَدَّلِ سِتَّةُ آلاَفِ صَخْرَةٍ سِوَى الْآجُرِّ وَالصَّخْرِ غَيْرِ الْمُعَدَّلِ . انْتَهَى . وَسَيَأْتِي فِي الزَّهْرَاءِ مَزِيدُ كَلاَمٍ

وَقَالَ ابْنُ حَيَّانَ : ابْتَدَأَ النَّاصِرُ بِنَاءَ الزَّهْرَاءِ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَثَلْثِمِائَةٍ ، وَجَعَلَ طُولَهَا مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ أَلْفَيْنِ وَسَبْعَمِائَةِ ذِرَاعٍ ، وَتَكْسِيرُهَا تِسْعُمِائَةِ أَلْفِ ذِرَاعٍ وَتِسْعُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ . كَذَا نَقَلَهُ بَعْضُهُمْ ، وَلِلنَّظَرِ فِيهِ مَجَالٌ ، قَالَ : وَكَانَ يُثِيبُ عَلَى كُلِّ رُخَامَةٍ كَبِيرَةٍ أَوْ صَغِيرَةٍ عَشَرَةَ دَنَانِيرَ سِوَى مَا كَانَ يَلْزَمُ عَلَى قَطْعِهَا وَنَقْلِهَا وَمَئُونَةِ حَمْلِهَا ، وَجُلِبَ إِلَيْهَا الرُّخَامُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْمَرِيَّةِ ، وَالْمُجَزَّعُ مِنْ رَيَّةَ(١) ، وَالْوَرْدِيُّ

(١) رية كورة واسعة متصلة بالجزيرة الخضراء وهي قبلي قرطبة، وكانت كثيرة الخيرات ذات مدن وحصون ورستاق واسع ، وفيها حمة أي عين تخرج حارة ، وهي أشرف حمات الأندلس لأن فيها ماء حارا وباردا

وَالْأَخْضَرُ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ مِنْ سَفَاقُسَ[١] ، وَقَرْطَاجَنَّةَ ، وَالْحَوْضُ الْمَنْقُوشُ الْمُذَهَّبُ مِنَ الشَّامِ - وَقِيلَ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَفِيهِ نُقُوشٌ وَتَمَاثِيلُ وَصُوَرٌ عَلَى صُوَرِ الْإِنْسَانِ ، وَلَيْسَ لَهُ قِيمَةٌ[٢] .

***

قصر الخلافة بالزهراء

وَلَمَّا جَلَبَهُ أَحْمَدُ الْفَيْلَسُوفُ - وَقِيلَ غَيْرُهُ - أَمَرَ النَّاصِرُ بِنَصْبِهِ فِي وَسَطِ الْمَجْلِسِ الشَّرْقِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْمُؤْنِسِ ، وَنَصَبَ عَلَيْهِ اثْنَيْ عَشَرَ تِمْثَالًا ، وَبَنَى فِي قَصْرِهَا الْمَجْلِسَ الْمُسَمَّى بِقَصْرِ الْخِلَافَةِ ، وَكَانَ سَمْكُهُ[٣] مِنَ الذَّهَبِ وَالرُّخَامِ الْغَلِيظِ فِي جِرْمِهِ ، الصَّافِي لَوْنُهُ ، الْمُتَلَوِّنَةِ أَجْنَاسُهُ ، وَكَانَتْ حِيطَانُ هَذَا الْمَجْلِسِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَجُعِلَتْ فِي وَسَطِهِ الْيَتِيمَةُ الَّتِي أَتْحَفَ النَّاصِرَ بِهَا الْيُونُ مَلِكُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَكَانَتْ قَرَامِدُ[٤] هَذَا الْقَصْرِ

---

(١) مدينة من نواحي افريقية على ضفة الساحل ، وكان لها سور من صخر وآجر ، وجل غلاتها الزيتون والزيت (٢) يعني أنه ذو قيمة غالية باهظة وهذا كقول الشاعر :

مالنا قرت به العيـ ـنان من هذا ثمن

وقولهم ماالحديث الموموق من ثمن

(٣) السمك : السقف ، أو من أعلى البيت الى أسفله (٤) جمع قرمد وهو

مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَهَذَا ٱلْمَجْلِسُ فِي وَسَطِهِ صِهْرِيجٌ عَظِيمٌ مَمْلُوءٌ بِالزِّئْبَقِ ، وَكَانَ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ هَـذَا ٱلْمَجْلِسِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ قَدِ ٱنْعَقَدَتْ عَلَى حَنَايَا مِنَ ٱلْعَاجِ وَٱلْآبَنُوسِ ٱلْمُرَصَّعِ بِالذَّهَبِ وَأَصْنَافِ ٱلْجَوَاهِرِ، قَامَتْ عَلَى سَوَارٍ مِنَ ٱلرُّخَامِ ٱلْمُلَوَّنِ وَٱلْبِلَّوْرِ ٱلصَّافِي ، وَكَانَتِ ٱلشَّمْسُ تَدْخُلُ عَلَى تِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ فَيَضْرِبُ شُعَاعُهَا فِي صَدْرِ[1] ٱلْمَجْلِسِ وَحِيطَانِهِ ، فَيَصِيرُ مِنْ ذَلِكَ نُورٌ يَأْخُـذُ بِالْأَبْصَارِ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْزِعَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَجْلِسِهِ أَوْمَأَ إِلَى أَحَدِ صَقَالِبَتِهِ فَيُحَرِّكُ ذَلِكَ ٱلزِّئْبَقَ فَيَظْهَرُ فِي ٱلْمَجْلِسِ كَلَمَعَانِ ٱلْبَرْقِ مِنَ ٱلنُّورِ ، وَيَأْخُذُ بِمَجَامِعِ ٱلْقُلُوبِ ، حَتَّى يُخَيَّلَ لِكُلِّ مَنْ فِي ٱلْمَجْلِسِ أَنَّ ٱلْمَحَلَّ قَدْ طَارَ بِهِمْ مَا دَامَ ٱلزِّئْبَقُ يَتَحَرَّكُ . وَقِيلَ : إِنَّ هَذَا ٱلْمَجْلِسَ كَانَ يَدُورُ وَيَسْتَقْبِلُ ٱلشَّمْسَ ، وَقِيلَ : كَانَ ثَابِتًا

كل ماطلى به للزينة كالزعفران والجص ـ والقرمد والقرميد أيضا حجارة لهاخروق يوقدعليها حتىاذا نضجت قرمدت بهاالحياض والبرك أى طليت

(١) فى بعض المراجع « سمك » بدل « صدر » . « أحمد يوسف نجاتى »

عَلَى صِفَةِ هَذَا ٱلصِّهْرِيجِ . وَهَـذَا ٱلْمَجْلِسُ لَمْ يَتَقَدَّمْ لِأَحَدٍ بِنَاؤُهُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي ٱلْإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا تَهَيَّأَ لَهُ لِكَثْرَةِ ٱلزِّئْبَقِ عِنْدَهُمْ . وَكَانَ بِنَاءُ ٱلزَّهْرَاءِ فِي غَايَةِ ٱلْإِتْقَانِ وَٱلْحُسْنِ ، وَبِهَا مِنَ ٱلْمَرْمَرِ وَٱلْعُمُدِ كَثِيرٌ ، وَأَجْرَى فِيهَا ٱلْمِيَاهَ ، وَأَحْدَقَ بِهَا ٱلْبَسَاتِينَ ، وَفِيهَا يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ ٱلسُّمَيْسِرُ[1] :

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا مُعْتَبِرًا أَنْدُبُ أَشْتَاتَا

فَقُلْتُ يَا زَهْـرَا أَلَا فَارْجِعِي

قَالَتْ : وَهَـلْ يَرْجِـعُ مَنْ مَاتَا ؟

فَلَمْ أَزَلْ أَبْـكِي وَأُبْـكِي بِهَا

هَيْهَاتَ يُغْنِي ٱلدَّمْـعُ هَيْهَاتَا

كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَـدْ مَضَى

نَوَادِبٌ يَنْـدُبْنَ أَمْـوَاتَا

(١) في الأصل « الشميس » وهو تصحيف يضل القارئ – والسميسر شاعر مشهور من أهل قرطبة « في أواخر القرن الخامس والقرن السادس » أكثر شعره في الحكم والنصائح والزهد. « أحمد يوسف نجاتي »

انْتَهَى كَلامُ هَذَا الْمُؤَرِّخِ مُلَخَّصًا . وَسَيَأْتِي مَا يُوَافِقُ جُلَّهُ، وَيُخَالِفُ قُلَّهُ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ الْأَمْرَ كُلَّهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَنْظُرُ الْمُتَأَمِّلُ هَذَا الْكِتَابَ فَيَجِدُ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ تَخَالُفًا ، فَيَحْمِلُ ذَلِكَ عَلَى الْغَلَطِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا السَّبَبُ الْحَامِلُ لِذَلِكَ جَلْبُ كَلامِ النَّاسِ بِعِبَارَاتِهِمْ ، وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ لا يَخْفَاهُ مِثْلُ هَذَا ، وَرُبَّمَا يَقَعُ التَّكْرَارُ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ مَا ذُكِرَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

***

قصر طليطلة

وَتَذَكَّرْتُ بِمَا وَصَفَهُ مِنْ مَجْلِسِ النَّاصِرِ غَيْرُ وَاحِدٍ[1] مَا حَكَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ الْقَصْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي شَادَهُ مَلِكُ طُلَيْطُلَةَ الْمَأْمُونُ بْنُ ذِي النُّونِ بِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتْقَنَهُ إِلَى الْغَايَةِ ، وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ أَمْوَالًا طَائِلَةً ، وَصَنَعَ فِي وَسَطِهِ بُحَيْرَةً ، وَصَنَعَ فِي وَسَطِ الْبُحَيْرَةِ قُبَّةً مِنْ زُجَاجٍ مُلَوَّنٍ مَنْقُوشٍ بِالذَّهَبِ ، وَجَلَبَ الْمَاءَ عَلَى رَأْسِ الْقُبَّةِ بِتَدْبِيرٍ أَحْكَمَهُ الْمُهَنْدِسُونَ ، فَكَانَ الْمَاءُ يَنْزِلُ مِنْ أَعْلَى الْقُبَّةِ عَلَى جَوَانِبِهَا مُحِيطًا بِهَا

(١) « غير واحد » غير موجود فى بعض المراجع .

وَيَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . فَكَانَتْ قبةُ الزُّجَاجِ فِي غِلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ سَكْبٍ[1] خَلْفَهُ الزُّجَاجُ لَا يَفْتُرُ مِنَ الْجَرْيِ ، وَالْمَأْمُونُ قَاعِدٌ فِيهَا لَا يَمَسُّهُ مِنَ الْمَاءِ شَيْءٌ وَلَا يَصِلُهُ ، وَتُوقَدُ فِيهَا الشُّمُوعُ فَيُرَى لِذَلِكَ مَنْظَرٌ بَدِيعٌ عَجِيبٌ ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِيهَا مَعَ جَوَارِيهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِذْ سَمِعَ مُنْشِدًا يُنْشِدُ :

أَتَبْنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا
مُقَامُكَ فِيهَا لَوْ عَلِمْتَ قَلِيلُ ؟

لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ[2] كِفَايَةٌ
لِمَنْ كُلَّ يَوْمٍ يَقْتَضِيهِ رَحِيلُ

فَنُغِّصَ عَلَيْهِ حَالُهُ وَقَالَ : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » أَظُنُّ أَنَّ الْأَجَلَ قَدْ قَرُبَ ، فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَهَا غَيْرَ شَهْرٍ

---

(١) فى الأصل « مما سكب » وهو تحريف (٢) الأراك شجر من الحمض له حمل كحمل عناقيد العنب ، وفروعه أفضل مايستاك به وأطيب مارعته الماشية رائحة لبن — ولبعض الأدباء فيه :

هنئت ياعـود الأراك بثغـرها   اذ أنت فى الأوطان غير مفارق
إن كنت فارقت العذيب وبارقا   فلأنت مابين العـذيب وبارق

وَتُوُفِّيَ وَلَمْ يَجْلِسْ فِي تِلْكَ ٱلْقُبَّةِ بَعْدَهَا ، وَذَلِكَ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ـ تَجَاوَزَ ٱللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ .

هَكَذَا حَكَاهُ بَعْضُ مُؤَرِّخِي ٱلْمَغْرِبِ . وَقَدْ ذُكِرَ فِي غَيْرِ هَذَا ٱلْمَوْضِعِ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ حِكَايَةُ هَذِهِ ٱلْقُبَّةِ بِلَفْظِ ٱبْنِ بَدْرُونَ شَارِحِ ٱلْعَبْدُونِيَّةِ فَلْيُرَاجَعْ : وَتَذَكَّرْتُ هُنَا قَوْلَ أَبِي مُحَمَّدٍ ٱلْمِصْرِيِّ فِي وَصْفِهِ قَصْرَ طُلَيْطُلَةَ :

قَصْرٌ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاهُ ٱلْفَرْقَدُ (١)
عَذُبَتْ مَصَادِرُهُ وَطَابَ ٱلْمَوْرِدُ

نَشَرَ ٱلصَّبَاحُ عَلَيْهِ ثَوْبَ مَكَارِمٍ
فَعَلَيْهِ أَلْوِيَةُ ٱلسَّعَادَةِ تُعْقَدُ

وَكَأَنَّمَا ٱلْمَأْمُونُ فِي أَرْجَائِهِ
بَدْرٌ تَمَامٌ قَابَلَتْهُ أَسْعُدُ (٢)

---

(١) الفرقدان نجمان لا يغربان، وقد جاء في الشعر مفردا ومثنى ومجموعا « كأنهم جعلوا كل جزء منهما فرقدا » (٢) سعود النجوم هي الكواكب التي يقال لكل واحد منها سعد ، وهي لدى العرب عشرة ، وشرحها يطول ، وقد تقدم لنا وصف بعضها ـ وأحد هذه الكواكب سعد السعود وهو كوكبان أو كوكب نير منفرد ، وهو من منازل القمر «أحمد يوسف نجاتي»

وَكَأَنَّمَا ٱلْأَقْدَاحُ فِي رَاحَاتِهِ
دُرٌّ جُمَانٌ ذَابَ فِيهِ ٱلْعَسْجَدُ

وَلَهُ فِي صِفَةِ ٱلْبِرْكَةِ وَٱلْقُبَّةِ عَلَيْهَا:

شَمْسِيَّةُ ٱلْأَنْسَابِ بَدْرِيَّةٌ
يَحَارُ فِي تَشْبِيهِهَا ٱلْخَاطِرُ
كَأَنَّمَا ٱلْمَأْمُونُ بَدْرُ ٱلدُّجَى
وَهْيَ عَلَيْهِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّائِرُ

وَكَانَ مُلُوكُ ٱلْأَنْدَلُسِ فِي غَايَةِ ٱلِاحْتِفَالِ بِالْمَجَالِسِ وَٱلْقُصُورِ.

***

وصف مجلس المنصور بن أبي عامر

وَلِلْوَزِيرِ ٱلْجُزَيْرِيِّ[١] - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى - فِي وَصْفِ مَجْلِسٍ لِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ مَا يَشْهَدُ لِذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ:

وَتَوَسَّطَتْهَا لُجَّةٌ فِي قَعْرِهَا
بِنْتُ[٢] ٱلسَّلَاحِفِ مَا تَزَالُ تُنَقْنِقُ

---

(١) هو أبو مروان عبد الملك بن ادريس الأزدي الجزيري الكاتب الأديب وزير من وزراء الدولة العامرية وكاتب من كتابها وشاعر بليغ غزير المادة حاضر البديهة توفي سنة ٣٩٤ - وكان ابنه أبو أحمد عبد العزيز كاتبا أديبا وان لم يلحق شأو والده (٢) في الأصل « ثبت » وهو تحريف

تَنْسَابُ مِنْ فَكَّىْ هِزَبْرٍ إِنْ يَكُنْ
ثَبْتَ ٱلْجَنَانِ فَإِنَّ فَاهُ أَخْرَقُ(١)

صَاغُوهُ مِنْ تِبْرٍ وَخَلْفَ صَحِيفَتَىْ
هَادِيهِ مَحْضُ ٱلدُّرِّ فَهْوَ مُطَوَّقُ(٢)

لِلْيَاسِمِينِ تَطَلُّعٌ فِي عَرْشِهِ
مِثْلُ ٱلْمَلِيكِ عَرَاهُ زَهْوٌ مُطْرِقُ(٣)

وَنَضَائِدٌ مِنْ نَرْجِسٍ وَبَنَفْسَجٍ
وَجَنِيُّ خِيرِيٍّ وَوَرْدٍ يَعْبَقُ(٤)

والنقنقة أيضا صوت الضفدع والعقرب والدجاجة والهر والحجلة والرخمة والظليم (١) فى الأصل « تنساب من فلكى » وهو تحريف، فاسد وثبت الجنان أى جرىء قوى القلب ، والخرق : الطيش ضد الرفق (٢) البيت فى الأصل هكذا :

صاغوه من ند وخلق صفحتى هاديه محض الدر فهو مخلق

وهى رواية ان لم تكن محرفة كان معناها غير واضح ، والاصلاح الذى آثرناه من بعض المراجع يجعل المعنى ظاهرا — والهادى العنق (٣) عجز البيت فى الأصل هكذا : مثل المليك غداة وهو مطوق . ومعناه غامض أو فاسد أو تافه ، والزهو : الكبر والاعجاب (٤) نضائد جمع نضيدة أى باقات منضدة منظمة . والخيرى هو المعروف بالمنثور وله ألوان مختلفة . « أحمد يوسف نجاتى »

تَرْنُو بِسِحْرِ عُيُونِهَا وَتَكَادُ مِنْ

طَرَبٍ إِلَيْكَ بِلَا لِسَانٍ تَنْطِقُ

وَعَلَى يَمِينِكَ سَوْسَنَاتٌ أَطْلَعَتْ

زَهْرَ ٱلرَّبِيعِ فَهُنَّ حُسْناً تُشْرِقُ

فَكَأَنَّمَا هِيَ فِي ٱخْتِلَافِ رُقُومِهَا

رَايَاتُ نَصْرِكَ يَوْمَ بَأْسِكَ تَخْفِقُ

فِي مَجْلِسٍ جَمَعَ ٱلسُّرُورَ لِأَهْلِهِ

مَلِكٌ إِذَا جَمَعَتْ قَنَاهُ يُفَرِّقُ(١)

حَازَتْ بِدَوْلَتِهِ ٱلْمَغَارِبُ رِفْعَةً

فَغَدَا لِيَحْسُدَهَا عَلَيْهِ ٱلْمَشْرِقُ

وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

أَمَّا ٱلْغَمَامُ فَشَاهِدٌ لَكَ أَنَّهُ

لَاشَكَّ صِنْوُكَ أَوْ أَخُوكَ ٱلْأَوْثَقُ(٢)

---

(١) من قول أبي تمام :

اذا ماأغاروا فاحتووا مال معشر أغارت عليهم فاحتوته الصنائع

ومثله قول أبي الطيب :

وتحيي له المال الصوارم والقنا ويقتل مايحيي التبسم والجدا

(٢) الصنو : الأخ الشقيق

وَافَى ٱلصَّنِيعَ فَحِينَ تَمَّ تَمَامُهُ
فِي ٱلصَّحْوِ أَنْشَأَ وَدْقُهُ يَتَدَفَّقُ(١)
وَأَظُنُّهُ يَحْكِيكَ جُودًا إِذْ رَأَى
فِي ٱلْيَوْمِ بَحْرَكَ زَاخِرًا يَتَفَهَّقُ(٢)

وَكَانَ ٱلسَّبَبَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ أَنَّ ٱلْمَنْصُورَ صَنَعَ فِي ذٰلِكَ ٱلْأَوَانِ صَنِيعًا لِتَطْهِيرِ ٱبْنِهِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ، وَكَانَ عَامَ قَحْطٍ، فَٱرْتَفَعَ ٱلسِّعْرُ بِقُرْطُبَةَ، وَبَلَغَ رُبْعُ ٱلدَّقِيقِ إِلَى دِينَارَيْنِ، فَجَلَا ٱلنَّاسُ مِنْ قُرْطُبَةَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ذٰلِكَ ٱلصَّنِيعِ نَشَأَتْ فِي ٱلسَّمَاءِ سَحَابَةٌ عَمَّتِ ٱلْأُفُقَ، ثُمَّ أَتَى ٱلْمَطَرُ ٱلْوَابِلُ، فَٱسْتَبْشَرَ ٱلنَّاسُ، وَسُرَّ ٱلْمَنْصُورُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ، فَقَالَ ٱلْجَزِيرِيُّ بَدِيهَةً: أَمَّا ٱلْغَمَامُ الخ، وَهُوَ ٱلْقَائِلُ عَلَى لِسَانِ نَرْجِسِ ٱلْعَامِرِيَّةِ(٣):

حَيَّتْكَ يَا قَمَرَ ٱلْعُلَا وَٱلْمَجْلِسِ
أَزْكَى(٤) تَحِيَّتِهَا عُيُونُ ٱلنَّرْجِسِ

---

(١) الودق: المطر (٢) فهق الاناء «كفرح» امتلأ حتى يتصبب، وتفهق: اتسع وامتلأ وطم ماؤه (٣) يريد وصف أزهار المنية العامرية ورياحين روضتها، وكان المنصور قد سمى كرائمه بأسماء هذه الأزهار «نرجس»، «بهار»، «بنفسج» (٤) أو أذكى

زَهْرٌ تُرِيكَ بِحُسْنِهَا وَبِلَوْنِهَا
زُهْرَ النُّجُومِ الْجَارِيَاتِ الْكُنَّسِ
مُلِّكْنَ أَفْئِدَةَ النَّدَامَى كُلَّمَا
دَارَتْ بِمَجْلِسِهِمْ مَدَارَ الْأَكْؤُسِ
مِلْكُ الْهُمَامِ الْعَامِرِيِّ مُحَمَّدٍ
لِلْمَكْرُمَاتِ وَلِلنُّهَى وَالْأَنْفُسِ

قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ : وَمِنْ شِعْرِ الْجَزِيرِيِّ مَا انْدَرَجَ لَهُ أَثْنَاءَ مَدْحِهِ الَّذِي مَلَّحَ[١] فِيهِ مُخَاطَبَتَهُ لِلْمَنْصُورِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَسْمَاءِ كَرَائِمِهِ بِزَهْرِ رِيَاضِهِ ، فَمِنْ ذَلِكَ عَنْ بَهَارِ[٢] الْعَامِرِيَّةِ :

حَدَقُ الْحِسَانِ تُقِرُّ لِي وَتَغَارُ
وَتَضِلُّ فِي صِفَتِي النُّهَى وَتَحَارُ

(١) لعله من التمليح أو التلميح وهو فى البديع أن يشير الشاعر فى شعره الى قصة معلومة أو نكتة بديعة مشهورة، ويسميه بعضهم التمليح كأن الناظم أتى فى بيته بنكتة زادته ملاحة (٢) البهار ويسمى العرار : نبت جعدله فقاحة صفراء تنبت أيام الربيع ـ ومن أحسن من وصفه أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الشاعر الأندلسى المشهور بقوله :

تأمل فقد شق البهار مغلسا كمائمه عن نوره الخضر الندى
مداهن تبر فى أنامل فضة على أذرع مخروطة من زبرجد

طَلَعَتْ عَلَى قُضُبٍ عُيُونُ كَمَائِمِي[١]

مِثْلَ ٱلْعُيُونِ تَحُفُّهَا ٱلْأَشْفَارُ

وَأَخَصُّ شَيْءٍ بِي إِذَا شَبَّهْتَنِي

دُرَرٌ تَنَطَّقَ سِلْكَهَا دِينَارُ[٢]

أَهْدَى لَهُ قُضُبُ[٣] الزُّمُرُّدِ سَاقَهُ

وَحَبَاهُ أَنْفَسَ عِطْرِهِ ٱلْعَطَّارُ

أَنَا نَرْجِسٌ حَقًّا بَهَرْتُ عُقُولَهُمْ

بِبَدِيعِ تَرْكِيبِي فَقِيلَ بَهَارُ

وَمِنْ أُخْرَى عَنْ بَنَفْسَجِ ٱلْعَامِرِيَّةِ : إِذَا تَدَافَعَتِ ٱلْخُصُومُ ـ أَيَّدَ ٱللهُ مَوْلَانَا ٱلْمَنْصُورَ ـ فِي مَذَاهِبِهَا ،

---

(١) في الأصل « عيون تمائمي » وهو تحريف لامعنى له ـ والكمائم جمع كامة ، وهى غطاء النور ووعاؤه . ويقال عين الشجر : اذا نضر ونور والأشفار : منابت الأهداب من الجفون (٢) تنطق سلكها : أى جعله نطاقا ، وانتطق وتنطق : شد وسطه بمنطقة وهى كل ما يشدبه الوسط (٣) ويصح « قصب » ولا يخلو بعض الأبيات من شىء من التكلف « أحمد يوسف نجاتى »

وَتَعَاقَرَتْ(١) فِي مَفَاخِرِهَا ، فَإِلَيْهِ مَفْزَعُهَا(٢) وَهُوَ الْمَقْنَعُ(٣) فِي فَصْلِ الْقَضِيَّةِ بَيْنَهُمَا ، لِاسْتِيلَائِهِ عَلَى الْمَفَاخِرِ بِأَسْرِهَا ، وَعِلْمِهِ بِسِرِّهَا وَجَهْرِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ الْبَهَارُ وَالنَّرْجِسُ فِي وَصْفِ مَحَاسِنِهِمَا ، وَالْمَفْخَرِ بِمُشَابِهِهِمَا ، كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا ذُو فَضِيلَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ فَضْلِي عَلَيْهِمَا أَوْضَحُ مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي تَعْلُونَا ، وَأَعْذَبُ مِنَ الْغَمَامِ الَّذِي يَسْقِينَا ، وَإِنْ كَانَا قَدْ تَشَبَّهَا فِي شِعْرِهِمَا بِبَعْضِ مَا فِي الْعَالَمِ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ وَمَصَابِيحِ السَّمَاءِ -وَهِيَ مِنَ الْمَوَاتِ الصَّامِتِ- فَإِنِّي أَتَشَبَّهُ بِأَحْسَنِ مَا زَيَّنَ اللهُ بِهِ الْإِنْسَانَ وَهُوَ الْحَيَوَانُ النَّاطِقُ ، مَعَ أَنِّي أَعْطَرُ مِنْهُمَا عِطْرًا ، وَأَحْمَدُ خُبْرًا ، وَأَكْرَمُ إِمْتَاعًا ، شَاهِدًا

---

(١) عاقره اذا فاخره، وتعاقرا اذا تفاخرا ، وأصله أن يتبارى الرجلان فى عقرا بلهما ليرى أيهما أعقر لها فيكون أجود فيعقر كلاهما حتى يعجز أحدهما، ومن ذلك معاقرة غالب بن صعصعة أبى الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحى- ويروى : تنافرت ، والمنافرة: المفاخرة أيضا (٢) فزع اليه اذا لجأ ، وفزع اليه اذا استغاثه ، وفزعهم: أغاثهم ، والمفزع: الملجأ عند نزول الخطب (٣) يقال شاهد مقنع أى عدل يقنع به ويرضى برأيه وينزل على حكمه وتقبل شهادته أو قضاؤه. قال البعيث .

وبايعت ليلى بالخلاء ولم يكن شهود على ليلى عدول مقانع

وَغَائِباً ، وَيَانِعاً وَذَا بِلًا ، وَكِلَاهُمَا لَا يُمْتِعُ ، إِلَّا رَيْثَمَا يَيْنَعُ[١] ثُمَّ إِذَا ذَبُلَ تَسْتَكْرِهُ النُّفُوسُ شَمَّهُ ، وَتَسْتَدْفِعُ الْأَكُفُّ ضَمَّهُ ، وَأَنَا أُمْتِعُ يَابِسًا وَرَطْبًا ، وَتَدَّخِرُنِي الْمُلُوكُ فِي خَزَائِنِهَا وَسَائِرُ الْأَطِبَّا ، وَأُصْرَفُ فِي مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ ، فَإِنْ فَخَرَا بِاسْتِقْلَالِهِمَا عَلَى سَاقٍ هِيَ أَقْوَى مِنْ سَاقِي ، فَلَا غَرْوَ أَنَّ الْوَشْيَ ضَعِيفٌ ، وَالْهَوَى[٢] لَطِيفٌ ، وَالْمِسْكَ خَفِيفٌ ، وَلَيْسَ الْمَجْدُ يُدْرَكُ بِالصِّرَاعِ[٣]. وَقَدْ أَوْدَعْتُ - أَيَّدَ اللهُ مَوْلَانَا - قَوَافِيَ الشِّعْرِ مِنْ وَصْفِ مُشَابِهِي مَا أَوْدَعَاهُ ، وَحَضَرْتُ بِنَفْسِي لِئَلَّا أَغِيبَ عَنْ حَضْرَتِهِمَا: فَقَدِيمًا فُضِّلَ الْحَاضِرُ وَإِنْ كَانَ مَفْضُولًا ، وَلِذَا قَالُوا : أَلَذُّ الطَّعَامِ مَا حَضَرَ لِوَقْتِهِ ،

(١) ينع الثمر « كمنع وضرب » أى نضج وحان قطافه ، وأينع يونع أكثر استعمالا - ويراد بالينع هنا بقاء الزهرة غضة ناضرة (٢) يراد الهواء (٣) هو من قول أبي تمام من قصيدة بديعة غراء يمدح بها مهدى بن أصرم مطلعها :

خذى عبرات عينك عن زماعى وصونى ما أذلت من القناع

يقول فيها :

توجع أن رأت جسمى نحيلا كأن المجد يدرك بالصراع

وختمها بهذا البيت الذى لامزيد عليه فى المدح :

فلو صورت نفسك لم تزدها على مافيك من كرم الطباع

وَأَشْعَرُ النَّاسِ مَنْ أَنتَ فِى شِعْرِهِ ، فَلَوْلَا نَا أَتَمُّ الْحُكْمِ فِى أَنْ يَفْصِلَ بِحُكْمِهِ الْعَدْلَ ، وَأَقُولُ :

شَهِدَتْ لِنُوَّارِ الْبَنَفْسَجِ أَلسُنٌ

مِنْ لَوْنِهِ الْأَحْوَى وَمِنْ إِينَاعِهِ

لِمُشَابِهِ الشَّعْرِ الْأَعَمِّ أَعَارَهُ الْ

قَمَرُ الْمُنِيرُ الطَّلْقُ نُورَ شُعَاعِهِ

وَلَرُبَّمَا جُمِعَ النَّجِيعُ مِنَ الطُّلَى

فِى صَارِمِ الْمَنْصُورِ يَوْمَ قِرَاعِهِ[1]

فَحَكَاهُ غَيْرَ مُخَالِفٍ فِى لَوْنِهِ

لَا فِى رَوَائِحِهِ وَطِيبِ طِبَاعِهِ

مَلِكٌ جَهِلْنَا قَبْلَهُ سُبُلَ الْعُلَا

حَتَّى وَضَحْنَ بِنَهْجِهِ وَشِرَاعِهِ[2]

فِى سَيْفِهِ قِصَرٌ لِطُولِ نِجَادِهِ

وَتَمَامِ سَاعِدِهِ وَفُسْحَةِ بَاعِهِ[3]

(١) النجيع : الدم ، أو دم الجوف خاصة ــ والطلى : الأعناق أو أصولها جمع طلية (٢) النهج والمنهاج : الطريق المستقيم ، والشراع والشرعة والشريعة : الظاهر المستقيم من المذاهب (٣) يصفه بطول القامة وتمام الخلق وبالقوة والشجاعة والقدرة « أحمد يوسف نجاتى »

ذُو هِمَّـةٍ كَالْبَرْقِ فِى إِسْرَاعِهِ

وَعَزِيمَةٍ كَالْحَيْنِ فِى إِيقَاعِهِ[١]

تَلْقَى الزَّمَانَ لَهُ مُطِيعًا سَامِعًا

وَتَرَى الْمُلُوكَ الشُّمَّ مِنْ أَتْبَاعِهِ[٢]

***

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ حَدِيقَةً : وصف حديقة

وَحَـــدِيقَةٍ مُخْضَرَّةٍ أَثْوَابُهَـا

فِى قُضْبِهَا لِلطَّيْرِ كُلُّ مُغَرِّدِ

نَادَمْتُ فِيهَا فِتْيَـةً صَفَحَاتُهُمْ[٣]

مِثْلُ الْبُدُورِ تُنِيرُ بَيْنَ الْأَسْعُدِ

وَالْجَدْوَلُ الْفِضِّىُّ يَضْحَكُ مَاؤُهُ

فَكَأَنَّهُ فِى الْعَيْنِ صَفْحُ مُهَنَّدِ

وَإِذَا تَجَعَّـدَ بِالنَّسِيمِ حَسِبْتَهُ

لَمَّـا تَرَاهُ مُشْبِهًا لِلْمِبْرَدِ

(١) الحين: الهلاك وانقضاء الأجل (٢) الشم جمع الأشم وهو السيد ذوالأنفة الشريف النفس (٣) صفح كل شيء وصفحته :جانبه ، وصفيحة الوجه: بشرة جلده .

وَتَنَاثَرَتْ نُقَطٌ عَلَى حَافَاتِهِ
كَالْعِقْدِ بَيْنَ مُجَمَّعٍ وَمُبَدَّدِ
وَتَدَحْرَجَتْ[1] لِلنَّاظِرِينَ كَأَنَّهَا
دُرٌّ نَثِيرٌ فِي بِسَاطِ زَبَرْجَدِ

***

وصف صورة بحمام الشطارة

وَكَانَ بِحَمَّامِ الشَّطَّارَةِ بِإِشْبِيلِيَةَ صُورَةٌ بَدِيعَةُ الشَّكْلِ، فَوَصَفَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ بِقَوْلِهِ:

وَدُمْيَةِ مَرْمَرٍ تُزْهَى بِجِيدٍ
تَنَاهَى فِي التَّوَرُّدِ وَالْبَيَاضِ
لَهَا وَلَدٌ وَلَمْ تَعْرِفْ حَلِيلًا
وَلَا أَلِمَتْ بِأَوْجَاعِ الْمَخَاضِ
وَنَعْلَمُ أَنَّهَا حَجَرٌ وَلَٰكِنْ
تُتَيِّمُنَا بِأَلْحَاظٍ مِرَاضِ

***

وصف مجلس الذهب

وَكَانَ بِسَرَقُسْطَةَ فِي الْقَصْرِ الْمُسَمَّى بِدَارِ السُّرُورِ - أَحَدِ قُصُورِ الْمُقْتَدِرِ بْنِ هُودٍ - مَجْلِسُ الذَّهَبِ، وَفِيهِ يَقُولُ

(١) ويروى: وترجرجت

ذُو ٱلْوِزَارَتَيْنِ بْنُ غُنْدَ شَلْبَ[١] يَهْجُو وَزِيرًا كَانَ يُنْبَزُ بِتَحْقُونَ :

صَنجٌ مِنْ تَحْقُونَ يَنْتُ ٱلذَّهَبِ

وَدَعَا مِمَّــا بِهِ وَاحَرَبِى

رَبِّ طَهِّرْنِى فَقَــدْ دَنَّسَنِى

عَارُ تَحْقُونَ أُلُوفِ ٱلذَّنَبِ[٢]

***

كتاب بعض كبراء الأندلس إلى إخوانه

« وَ كَتَبَ » بَعْضُ كُبَرَاءِ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى إِخْوَانِهِ :

(١) فى الأصل « عبد شلب » وهو تحريف فظيع ، وهو لعمرى فى المحـال بديع ـ ولـكنه ذو الوزارتين أبو عمـر السرقسطى « ابن غند شلب » وكان ذا قـدر عال ومنزلة عظيمة وجاه رفيع ونفوذ قوى فى دولة بنى هـود بمملـكة الثغر الأعلى أى مملـكة سرقسطة فى شرق الأندلس ، وقد تقدم القول فى بنى هود من ملوك الطوائف وهذا الاسم اسبانى محض Gonzalo، Gonzalve، Gonzalez ولا يزال لقبا فى اسبانيا لـكثير من الأسرات الى اليوم ـ وكان ابن غند شلب شاعرا مجيدا ذا حظ عظيم من الأدب وتوفى حوالى سنة ٥٠٠ هـ «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) ذنب الناس وأذنابهم وذنباتهم: سفلتهم ورعاعهم ـ ويجوز أن تكون « الذنب » محرفة عن « الريب » جمع ريبة وهى الظنة والشك مع التهمة ـ هذا وفى بعض النسخ «المئوف الذنب» أى ذى الآفة فى ذنبه، وهو هجاء مقذع ، والغرض القبيح المراد منه ظاهر «أحمد يوسف نجاتى»

كِتَابِى هٰذَا مِنْ وَادِى ٱلزَّيْتُونِ ، وَنَحْنُ فِيهِ مُحْتَلُونَ[١] ، بِبُقْعَةٍ ٱكْتَسَتْ مِنَ ٱلسُّنْدُسِ ٱلْأَخْضَرِ ، وَتَحَلَّتْ بِأَنْوَاعِ ٱلزَّهَرِ ، وَتَخَايَلَتْ بِأَنْهَارٍ تَتَخَلَّلُهَا وَأَشْجَارٍ تُظَلِّلُهَا ، تَحْجُبُ أَدْوَاحُهَا ٱلشَّمْسَ لِالْتِفَافِهَا[٢] ، وَتَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ فَيَمِيلُ مِنْ أَعْطَافِهَا ، وَمَا شِئْتُمْ مِنْ مَحَاسِنَ تَرُوقُ وَتُعْجِبُ ، وَأَطْيَارٍ تَتَجَاوَبُ بِأَلْحَانٍ تُلْهِى وَتُطْرِبُ ، فِى مِثْلِهَا يَعُودُ ٱلزَّمَانُ كُلُّهُ صِبَا ، وَتَجْرِى ٱلْحَيَاةُ عَلَى ٱلْأَمَلِ وَٱلْمُنَى ، وَأَنَا فِيهَا - أَبْقَاكُمُ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ - بِحَالِ مَنْ طَابَ غِذَاؤُهُ ، وَحَسُنَ ٱسْتِمْرَاؤُهُ ، وَصَحَا مِنْ جُنُونِ ٱلْعُقَارِ ، وَٱسْتَرَاحَ مِنْ مَضَضِ ٱلْخُمَارِ[٣] ، وَزَايَلَتْهُ وَسَاوِسُهُ ، وَخَلَتْ مِنَ ٱلْخُبَاطِ[٤] هَوَاجِسُهُ . ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا مِنْ هٰذَا ٱلنَّمَطِ فِى وَصْفِ ٱلْخُمَارِ ، وَٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْعُقَارِ ،

---

(١) أو « محتفلون » وفى الأصل « مختلفون » وهو تحريف مفسد

(٢) قالت حمدونة الأندلسية من أبياتها فى وصف الوادى :

يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم ؟

(٣) العقار : الخمر ، وخمارها : صداعها وأذاها ، والمضض : الألم والوجع

(٤) الخباط : داء كالجنون وليس به ، وفى بعض المراجع « خلصت » بدل « خلت » « أحمد يوسف نجاتى »

*
**

رقعة بن حسداى

فَرَاجَعَهُ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ حَسْدَاى[(١)] بِرُقْعَةٍ[(٢)] قَالَ فِي صَدْرِهَا : إِلَى سَيِّدِنَا الَّذِي أَلْزَمَنَا بِامْتِنَانِهِ الشُّكْرَ، وَكَبِيرِنَا الَّذِي عَلَّمَنَا بِبَيَانِهِ السِّحْرَ، وَعَمِيدِنَا الَّذِي عَقَدْنَا بِحَرَمِهِ الْحَلَّ[(٣)]، وَرَمَانَا بِدَائِهِ وَانْسَلَّ[(٤)]، أَبْقَاكَ اللهُ تَعَالَى لِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ تُمِرُّهَا، وَيَمِينٍ غَمُوسٍ تُبِرُّهَا . وَرَدَ - أَبْقَاكَ اللهُ تَعَالَى - كِتَابُكَ الَّذِي أَنْفَذْتَهُ مِنْ مُعَرَّسِكَ[(٥)] بِوَادِي الزَّيْتُونِ، وَوَقَفْنَا عَلَى

---

(١) أبو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى من سرقسطة ومن بيت اسرائيلي وجيه، عني بالمعارف على مراتبها، وتناول المعارف من طرقها، فأتقن اللغة العربية وآدابها، ونال حظا جزيلا من البلاغة والشعر، وبرع في علوم الرياضة والطب وتوفي حوالي سنة ٥٠٠، وأبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى كان من الفضلاء في صناعة الطب وسافر الى الديار المصرية واتصل بالخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي، وتوفي نحو سنة ٥٢٥ أو بعدها

(٢) في الأصل « برفدة » وهو تحريف (٣) في بعض المراجع « وانحل » وأراه أليق بالسجع وألصق بالمعنى الآتي بعده

(٤) يضرب المثل « رمتني بدائها وانسلت » لمن يعير صاحبه بعيب هو فيه، وهو لاحدى ضرائر رهم بنت الخزرج بن تيم الله امرأة مالك بن سعد بن زيد مناة، رمتها رهم بعيب كان فيها فقالت الضرة المثل . ويظهر أن ابن حسداى يريد بذلك أن الكاتب تنصل من الشراب وعرض بمن يعاقر الخمر، وقد كان ابن حسداى مولعا بها لا يقبل اللوم فيها « أحمد يوسف نجاتي » (٥) موضع نزولك ومحل اقامتك

مَا لَقَّنْتَ فِي أَوْصَافِهِ مِنْ حُجَّةِ الْمَفْتُونِ ، وَإِعْجَابِكَ بِالْتِفَافِ شَجَرِهِ وَدَوْحَاتِهِ ، وَاهْتِزَازِكَ بِلَطِيفِ بَوَاكِرِهِ [(1)] وَرَوْحَاتِهِ ، وَسُرُورِكَ بِهِ وَهُوَ حُوٌّ [(2)] تِلَاعُهُ ، مَوْرُودَةٌ هِضَابُهُ وَأَجْرَاعُهُ ، وَكُلُّ الْمَشَارِبِ مَا خَلَاهُ ذَمِيمٌ [(3)] ، وَمَاؤُهُ الدَّهْرَ خَصِرٌ وَالْمِيَاهُ حَمِيمٌ ، وَتِلْكَ عَادَةُ تَلَوُّنِكَ ، وَسَجِيَّةُ تَحَضْرُمِكَ [(4)] ، وَشَاكِلَةُ مَلَالِكَ وَسَأَمِكَ . وَأَشْعَرُ النَّاسِ عِنْدَكَ مَنْ أَنْتَ فِي شِعْرِهِ ، وَأَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَيْكَ مَا أَنْتَ

---

(١) يريد ارتياحه لهوائه صباحا ومساء لحسن الجو فيه دائما ، و يروى : لطيب بدل بلطيف (٢) في الأصل «جو» محرفة . والحو جمع أحوى ، وحواء من الحوة وهو سواد الى الخضرة ، واحووت الأرض واحواوت اذا اخضرت . والأحوى: النبات الضارب الى السواد لشدة خضرته، وذلك أنعم ما يكون من النبات — والتلاع جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض وأشرف ، وما اتسع من فوهة الوادي ، وهي مكرمة للنبات (٣) أخذ هاتين الفقرتين من قول أبي القمقام الأسدي من أبيات يتشوق الى الوشل «وهو جبل عظيم بناحية تهامة فيه مياه عذبة» :

اقرأ على الوشل السلام وقل له كل المشارب مذ هجرت ذميم
سقيا لظلك بالعشي وبالضحى ولبرد مائك والمياه حميم

(٤) لعله من الحضرمة وهي الخلط . وقد تكون محرفة عن «تحصرمك» بالصاد المهملة — يقال رجل محصرم اذا كان ضيق الخلق قليل الخير ، أو لعل من كتب الرسالة اليه حضرمي فهو يعرض بأخلاقه المتلونة «أحمد يوسف نجاتي»

فِي عَفْرِهِ(١) ، فَأَيْنَ مِنْكَ بَسَاتِينُ جِلَّقَ وَجِنَانُهُ ، وَرِيَاضُهُ الْمُونِقَةُ وَخُلْجَانُهُ ، وَقِبَابُهُ الْبِيضُ فِي حَدَائِقِهِ الْخُضْرِ ، وَجُوَنُ(٢) الْعِطْرِ فِي جِنَانِهِ النُّضْرِ ، وَمَا تَضُمُّهُ حِيطَانُهُ وَتَمُجُّهُ أَنْجَادُهُ وَغِيطَانُهُ ، مِنْ أُمَّهَاتِ الرَّاحِ الَّتِي هَجَرْتَهَا بِزَعْمِكَ ، وَمَوَادِّ(٣) الشَّمُولِ الَّتِي طَلَّقْتَهَا بِرَغْمِكَ ؟ وَهَيْهَاتَ فَوَاللهِ مَا فَارَقَتْكَ(٤) تِلْكَ الْأَجَارِعُ وَالْمَجَانِي ، وَلَا شَاقَتْكَ تِلْكَ الْمَنَازِلُ وَالْمَغَانِي ، إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَا لَدَيْنَا مِنْ طَيِّبِ الْمَعَاهِدِ ، وَحَنِينًا لِمَا عِنْدَنَا مِنْ جَمِيلِ الْمَشَاهِدِ ؛ وَأَيْنَ مِنَ الْمُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مُغْرِبِ(٥) ؟ . ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا فِي جَوَابِ

---

(١) العفر وجه الأرض وظاهرها — وأرى أن الكلمة محرفة عن «عقره» والعقر — بفتح العين وضمها —: محلة القوم ومنزلهم، ووسط الدار (٢) جمع جونة وهي في الأصل سليلة مستديرة مغشاة أدما تكون مع العطارين «بائعي العطر» (٣) في الأصل «وموردِ» وهو تحريف الا اذا كانت «موارد» — يريد الشاعر ما بحدائق دمشق من الكروم — والرسالة نثر فيها بعض الشعر الذي قيل في وصف دمشق وجنانها (٤) ألا يصح أن تكون محرفة عن «راقتك» ؟ (٥) عجز بيت لأبي الطيب وصدره : أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم ... ويقال عنقاء مغرب على الاضافة والوصف ، وهو من قولهم: أغرب في البلاد اذا أبعد وذهب . يقول انه في شدة الشوق الى أهله وقد حال بينه وبينهم بعد الشقة فاشتياقه اليهم كمن اشتاق الى عنقاء مغرب وأين هي فانها بعيدة عن الناس ؟

مَا مَرَّ مِنَ ٱلْخُمَارِ لَمْ يَتَعَلَّقْ لِي بِهِ غَرَضٌ .

***

وصف متنزه

وَمَا أَحْلَى مَا كَتَبَ بِهِ أَبُو إِسْحَقَ بْنُ خَفَاجَةَ مِنْ رِسَالَةٍ فِي ذِكْرِ مُتَنَزَّهٍ : وَلَمَّا أَكَبَّ ٱلْغَمَامُ إِكْبَابًا ، لَمْ أَجِدْ مِنْهُ إِغْبَابًا[1] ، وَٱتَّصَلَ ٱلْمَطَرُ ٱتِّصَالًا ، لَمْ آلَفْ مِنْهُ ٱنْفِصَالًا ، أَذِنَ ٱللهُ تَعَالَى لِلصَّحْوِ أَنْ يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ ، وَيَنْشُرَ صَحِيفَتَهُ ، فَقَشَعَتِ ٱلرِّيحُ[2] ٱلسَّحَابَ ، كَمَا طَوَى ٱلسِّجِلُّ[3] ٱلْكِتَابَ ، وَطَفِقَتِ ٱلسَّمَاءُ تَخْلَعُ جِلْبَابَهَا ، وَٱلشَّمْسُ تُمِيطُ[4] نِقَابَهَا ، وَطَلَعَةُ ٱلدُّنْيَا تَبْتَهِجُ كَأَنَّهَا عَرُوسٌ تَجَلَّتْ ، وَقَدْ تَحَلَّتْ ، ذَهَبْتُ فِي لُمَّةٍ[5] مِنَ ٱلْإِخْوَانِ نَسْتَبِقُ إِلَى ٱلرَّاحَةِ رَكْضًا ، وَنَطْوِي ٱلتَّفَرُّجَ[6]

(١) أكب على الشيء اذا لزمه وأقبل عليه دائما ، والاغباب : البعد
(٢) أي كشفت وفرقت (٣) السجل: اسم لكتاب العهد ونحوه، ويطلق على الكاتب. «وبهما فسر قوله تعالى: «كطى السجل للكتب» (٤) أي تنحى وتبعد . و يروى تحط (٥) اللمة : الرفقة والأصحاب في السفر يطلق على الواحد والجمع (٦) أو للتفرج وهو أحسن « أحمد يوسف نجاتي»

أَرْضًا ، فَلَا نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ نَمِيرٍ ، قَدِ اُسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةِ سَمَاءٍ[١] ، سَحَابَةٌ عَمَاءٍ[٢] ، وَأَنْسَابَ[٣] فِي تَلْعَتِهِ حُبَابٌ ، جِلْدُهُ حَبَابٌ ، فَتَرَدَّدْنَا بِتِلْكَ الْأَبَاطِحِ تَتَهَادَى تَهَادِيَ[٤] أَغْصَانِهَا ، وَتَتَضَاحَكُ تَضَاحُكَ أُقْحُوَانِهَا .

وَلِلنَّسِيمِ ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْوَسِيمِ ، تَرَاسُلُ[٥] مَشْيٍ ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ ، فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ دِرْعًا[٦] ، وَأَحْكَمَهُ صُنْعًا ، وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَبَ[٧] مِنْهُ نَصْلًا ، وَأَخْلَصَهُ

---

(١) القرارة : المطمئن من الأرض يندفع اليه الماء فيستقر فيه ، وهي من مكارم الأرض اذا كانت سهولة (٢) العماء : السحاب المرتفع ، أو الكثيف المطر المطبق ، أو الذى أراق ماءه ولم يتقطع ، أو هو شبه الدخان يركب رءوس الجبال « وسحابة عماء يصح فيها الاضافة والاتباع مثل عنقاء مغرب » هذا والذى فى الذخيرة : فى كل قرارة سماء ، سحائبها غماء . والسحاب الأغم هو الكثيف الذى لافرجة فيه (٣) انسابت الحية مضت تجرى مسرعة ، وانساب اذا خرج من مكمنه « وفى الأصل : انثاب » محرفة ، والحباب : الحية . يصف الجداول التى يطردماؤهاو يلتوى كانساب الأراقم ، (٤) أى تمايل طربا (٥) تتابع وتوال واطراد (٦) شبه مايحدثه النسيم عند مروره على سطح الماء بالدرع ، وذلك مألوف كثير (٧) سيف مُشَطَّب ومَشْطوب فيه شُطَب أى طرائق فى متنه « أحمد يوسف نجاتى »

صَقْلًا ، فَلَا تَرَى إِلَّا بِطَاحًا ، مَمْلُوءَةً سِلَاحًا ، كَأَنَّمَا انْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ فَأَلْقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقُولٍ ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ .

« وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا » فَاحْتَلَلْنَا قُبَّةً خَضْرَاءَ مَمْدُودَةَ أَشْطَانِ[1] الْأَغْصَانِ ، سُنْدُسِيَّةَ رُوَاقِ[2] الْأَوْرَاقِ ، وَمَا زِلْنَا نَلْتَحِفُ مِنْهَا بِبُرْدِ ظِلٍّ ظَلِيلٍ ، وَنَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بِرِدَاءِ نَسِيمٍ عَلِيلٍ ، وَنُجِيلُ الطَّرْفَ فِي نَهْرٍ صَقِيلٍ ، صَافِي لُجَيْنِ الْمَاءِ ، كَأَنَّهُ مَجَرَّةُ السَّمَاءِ ، مُؤْتَلِقُ جَوْهَرِ الْحَبَابِ[3] ، كَأَنَّهُ مِنْ ثُغُورِ الْأَحْبَابِ ، وَقَدْ حَضَرَنَا مُسْمِعٌ يَجْرِي مَعَ النُّفُوسِ لَطَافَةً ، فَهُوَ يَعْلَمُ غَرَضَهَا وَهَوَاهَا ، وَيُغَنِّي لَهَا مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا ، فَصِيحُ لِسَانِ النَّقْرِ ، يَشْفِي مِنَ الْوَقْرِ[4] ، كَأَنَّهُ

---

(١) جمع شطن وهو الحبل (٢) الرواق: بيت كالفسطاط أو سقف فى مقدم البيت ، أو ستر يمد دون السقف (٣) حباب الماء :معظمه ، ونفاخاته وفقاقيعه التى تطفو على سطحه كأنها القوارير ، وتسمى اليعاليل . والحباب أيضا : الظل على الشجر يصبح عليه ، وقال الشاعر :

تخال الحباب المرتقى فوق نورها ... الى سوق أعلاها جمانا مسردا

(٤) أى ثقل السمع يعنى أنه يطرب الأذن فتستريح اليه « أحمد يوسف نجاتى »

كاتبٌ، حاسبٌ، تَمْشُقُ[1] غِنَاهُ، وتَعْقِدُ[2] يُسْرَاهُ.

يُحَرِّكُ حِينَ يَشْدُو سَاكِنَاتٍ
وَتَنْبَعِثُ الطَّبَائِعُ لِلسُّكُونِ

انتهى.

***

كتاب أبي إسحق لبعض أصدقائه

«وكانت» بَيْنَ أَبِي إِسْحٰقَ وَبَعْضِ إِخْوَانِهِ مُقَاطَعَةٌ فَاتَّفَقَ أَنْ وَلِيَ ذَلِكَ الصَّدِيقُ حِصْنًا، فَخَاطَبَهُ أَبُو إِسْحَقَ بِرُقْعَةٍ مِنْهَا: أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي النَّبِيهَةِ أَوْصَافُهُ النَّزِيهَةِ عَنِ الاسْتِثْنَاءِ، الْمَرْفُوعَةِ إِمَارَتُهُ الْكَرِيمَةُ بِالِابْتِدَاءِ، مَا انْحَذَفَتْ يَاءُ يَرْمِي لِلْجَزْمِ، وَاعْتَلَّتْ وَاوُ يَغْزُو لِمَوْضِعِ الضَّمِّ. كَتَبْتُ عَنْ وُدٍّ قَدِيمٍ هُوَ الْحَالُ، لَمْ يَلْحَقْهَا انْتِقَالٌ، وَعَهْدٍ كَرِيمٍ هُوَ الْفِعْلُ لَمْ يَدْخُلْهُ الاعْتِلَالُ، وَاللهُ يَجْعَلُ هَاتِيكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ، وَيَعْصِمُ هَذَا بَعْدُ مِنَ الْحُرُوفِ الْجَازِمَةِ، وَإِنَّمَا أَسْتَنْهِضُ طَوْلَكَ[3]

(1) تكتب وتجيد الكتابة (2) تحسب وتعد — وفي العبارة لف ونشر مرتب (3) الطول: المنة والفضل. «أحمد يوسف نجاتي».

إِلَى تَجْدِيدِ عَهْدِكَ بِمُطَالَعَةِ أَلِفِ الْوَصْلِ ، وَتَعْدِيَةِ فِعْلِ الْفَصْلِ ، وَعُدُولِكَ عَنْ بَابِ أَلِفِ الْقَطْعِ ، إِلَى بَابِ الْوَصْلِ وَالْجَمْعِ ، حَتَّى يَسْقُطَ لِدَرْجِ الْكَلَامِ بَيْنَنَا هَاءُ السَّكْتِ ، وَيَدْخُلَ الِانْتِقَالُ حَالَ الصَّمْتِ ، فَلَا تَتَخَيَّلْ ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ أَنَّ رَسْمَ إِخَائِكَ عِنْدِي ذُو حُسًا[1] قَدْ دَرَسَ عَفَاءً ، وَلَا أَنَّ صَدْرِي دَارُمَيَّةَ أَمْسَى مِنْ وُدِّكَ خَلَاءً[2] ، وَإِنَّمَا أَنَا فِعْلٌ إِذَا تَثَنَّى ظَهَرَ مِنْ ضَمِيرِ وُدِّهِ مَا بَطَنَ[3] ، وَبَدَا مِنْهُ مَا كَمَنَ ، وَهَنِيئًا ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ أَنَّ فِعْلَ وِزَارَتِكَ حَاضِرٌ

(١) يلمح الى قول النابغة :

عفا ذو حسا من أهله فالفوارع ... فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

وكلهاأسماء أمكنة، وذو حسا مكان فى بلاد مرة . وفى الأصل « دوحة » بدل « ذو حسا » وهو تحريف بعيد غريب

(٢) فيه تلميح الى قول النابغة الذبيانى :

يادارمية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليهاسالف الأمد

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذى أخنى على لبد

(٣) يشير الى أن الضمير المستتر فى الفعل يبرز ويظهر اذا أسند الى ألف الاثنين التى لاتكون الا ضميرا ظاهرا غير مستتر ـ ويريد بتثنيته سروره واهتزازه لمكارم الممدوح وصنائعه ففيه تورية « أحمد يوسف نجاتى »

لَا يَلْحَقُ رَفْعَهُ تَغْيِيرٌ ، وَأَنَّ فِعْلَ سَيْفِكِ مَاضٍ مَا بِهِ لِلْعَوَامِلِ تَأْثِيرٌ ، وَأَنْتَ بِمَجْدِكَ جِمَاعُ أَبْوَابِ الظَّرْفِ ، تَأْخُذُ نَفْسَكَ الْعَلِيَّةَ بِمُطَالَعَةِ بَابِ الصَّرْفِ ، وَدَرْسِ حُرُوفِ الْعَطْفِ ، وَتُدْخِلُ لَامَ التَّبْرِئَةِ عَلَى مَا حَدَثَ مِنْ عَتْبِكَ ، وَتُوجِبُ بَعْدَ النَّفْيِ مَا سَلَفَ مِنْ عَبْدِكَ[1] ، وَتَدَعُ أَلِفَ الْأُلْفَةِ أَنْ تَكُونَ بَعْدُ مِنْ حُرُوفِ اللِّينِ ، وَتَرْفَعُ بِالْإِضَافَةِ بَيْنَنَا وُجُودَ التَّنْوِينِ ، وَتَسُومُ سَاكِنَ الْوُدِّ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَمُعْتَلَّ الْإِخَاءِ أَنْ يَصِحَّ : وَكِتَابِي هَذَا حَرْفُ صِلَةٍ فَلَا تَحْذِفْهُ حَتَّى تَعُودَ الْحَالُ الْأُولَى صِفَةً ، وَتَصِيرَ هَذِهِ النَّكِرَةُ مَعْرِفَةً ، فَأَنْتَ ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ مَصْدَرُ فِعْلِ السُّرُورِ وَالنُّبْلِ ، وَمِنْكَ اشْتِقَاقُ اسْمِ السُّؤْدُدِ وَالْفَضْلِ ، وَإِنَّكَ ـ وَإِنْ تَأَخَّرَ الْعَصْرُ بِكَ ـ كَالْفَاعِلِ وَقَعَ مُؤَخَّرًا ، وَعَدُوُّكَ ـ وَإِنَّ تَكَبَّرَ ـ كَالْكُمَيْتِ[2] لَمْ يَقَعْ إِلَّا مُصَغَّرًا ،

(١) كذا بالأصل وأظنها محرفة عن « قربك » أو أعتابك : أى رضاك مثلا أو نحو ذلك مما يلائم المعنى ويفى بحق السجع (٢) أى أن لفظ الكميت لم يستعمل الا بصيغة التصغير ــ يريد تحقير عدوه

وَلِلْأَيَّامِ عِلَلٌ تَبْسُطُ وَتَقْبِضُ، وَعَوَامِلُ تَرْفَعُ وَتَخْفِضُ، فَلَا دَخَلَ عَرُوضَكَ قَبْضٌ، وَلَا عَاقَبَ[1] رَفْعَكَ خَفْضٌ، وَلَا زِلْتَ مُرْتَبِطاً بِالْفَضْلِ شَرْطُكَ وَجَزَاؤُكَ، جَارِياً عَلَى الرَّفْعِ سَرْوُكَ[2] الْكَرِيمُ وَسَنَاؤُكَ، حَتَّى يُخْفَضَ الْفِعْلُ[3]، وَيُبْنَى عَلَى الْكَسْرِ قَبْلُ - إِنْ شَاءَ اللهُ - .

***

كتاب آخر لأبى إسحق

«وَكَتَبَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - يَسْتَدْعِي عُودَ غِنَاءٍ»

انْتَظَمَ مِنْ إِخْوَانِكَ - أَعَزَّكَ اللهُ تَعَالَى - عِقْدُ شَرْبٍ يَتَسَاقَوْنَ فِي وُدِّكَ، وَيَتَعَاطَوْنَ رَيْحَانَةَ شُكْرِكَ وَحَمْدِكَ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا شَرِهُ الْمَسَامِعِ إِلَى رَنَّةِ حَمَامَةِ نَادٍ، لَا حَمَامَةِ بَطْنِ وَادٍ[4]، وَالطَّوْلُ لَكَ فِي صِلَتِنَا بِجَمَادٍ نَاطِقٍ قَدِ اسْتَعَارَ

(١) القبض والمعاقبة والعلة من مصطلحات العروض (٢) السرو: الشرف والرفعة - وفى الأصل «سرورك» وهو تحريف (٣) تعليق على مستحيل - يدعو له بدوام الرفعة والشرف والسرور وما دعا له به من قبل (٤) يريد أنهم راغبون فى سماع مغنية وعود لا الاكتفاء بتغريد الحمائم - ويلمح الى قول الشاعر:

حمامة بطن الواديين ترنمى ... سقاك من الغر الغوادى مطيرها

وقول الآخر:

أحمامة الوادى بشرقى الغضا ... ان كنت مسعدة الكئيب فرجعى

مِنْ بَنَانٍ(١) لِسَاناً ، وَصَارَ لِضَمِيرِ صَاحِبِهِ تَرْجُمَاناً ، وَهُوَ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَالْإِحْسَانِ لَا يَنْفَكُّ مِنْ إِيقَاعٍ بِهِ ، مِنْ غَيْرِ إِيجَاعٍ لَهُ ، فَإِنْ هَفَا عُرِكَتْ أُذُنُهُ وَأُدِّبَ ، وَإِنْ تَأَبَّى(٢) وَاسْتَوَى بُعِجَ بَطْنُهُ وَضُرِبَ ، لَا زِلْتَ مُنْتَظِمَ الْجَذَلِ(٣) ، مُلْتَئِمَ الْأَمَلِ . انْتَهَى .

***

قصيدة لأبي إسحق في التفجع والتوجع

«وَمِنْ نَظْمِهِ» - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - يَتَفَجَّعُ، وَيَتَوَجَّعُ(٤):

---

(١) بنان : اسم مغنية مجيدة وشاعرة بليغة فى العصر العباسى ، وكانت مولاة لمحمد بن حماد فى عصر الخليفة المتوكل — و بنان بن عمرو مغن أيضا فى العصر العباسى كان يغنى للمنتصر بن المتوكل — والبنان أيضا : الأصابع أو أطرافها التى تحرك العود فينطق «ففى لفظ بنان تورية بديعة» وكذا فى لفظ «ايقاع» بعد (٢) أى امتنع — و يروى : تأتى — وفى معناه قول الشاعر فى جارية عوادة :

وكأنه فى حجرها ولد لها	تحنو عليه عند كل أوان
أبدا تدغدغ بطنه فاذا هفا	عركت له أذنا من الآذان

ومثله قول مجير الدين بن تميم :

ومهاة قد راضت العود حتى	عاد بعد الجماح وهو ذلول
خاف من عرك أذنه اذ عصاها	فلهذا كما تقول يقول

(٣) أى الفرح والسرور (٤) و يرثى الوزير أبا محمد عبد الله بن ربيعة

شَرَابُ ٱلْامَانِى لَوْ عَلِمْتَ سَرَابُ
وَعُتْبَى[1] ٱللَّيَالِى لَوْ عَرَفْتَ عِتَابُ
إِذَا ٱرْتَجَعَتْ أَيْدِى ٱللَّيَالِى هِبَاتِهَا
فَغَايَةُ هَاتِيكِ ٱلْهِبَاتِ ذَهَابُ
وَهَلْ مُهْجَةُ ٱلْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ
تَحُومُ عَلَيْهَا لِلْحِمَامِ عُقَابُ ؟
تَخُبُّ[2] بِهَا مِنْ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
مَطَايَا إِلَى دَارِ ٱلْبِلَى وَرِكَابُ
وَكَيْفَ يَغِيضُ ٱلدَّمْعُ أَوْ يَبْرُدُ ٱلْحَشَا
وَقَدْ بَادَ أَقْرَانٌ وَفَاتَ شَبَابُ ؟
أُقَلِّبُ طَرْفِى لَا أَرَى غَيْرَ لَيْلَةٍ
وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجْهِ ٱلصَّبَاحِ نِقَابُ
كَأَنِّى ـ وَقَدْ طَارَ ٱلصَّبَاحُ ـ حَمَامَةٌ
يَمُدُّ جَنَاحَيْهِ عَلَيَّ غُرَابُ

(١) العتبى : الرضا (٢) خب : عدا وأسرع فى المشى ، ومضارعه يخب مضموم العين على غير قياس لأن القاعدة فى الفعل اللازم المضاعف أن يكون مضارعه مكسور العين الا ماشذ فجاء بالضم وهى ٢٨ فعلا منها خب

فَيَالَهُمُ مِنْ رَكْبِ صَحْبٍ تَتَابَعُوا
فُرَادَى وَهُمْ مُلْدُ الْغُصُونِ شَبَابُ
دَعَا بِهِمُ دَاعِي الرَّدَى فَكَأَنَّمَا
تَبَارَتْ بِهِمْ خَيْلٌ هُنَاكَ عِرَابُ
فَهَاهُمْ -وَسِلْمُ الدَّهْرِ حَرْبٌ- كَأَنَّمَا
جَثَا(١) بَيْنَهُمْ طَعْنٌ لَهُمْ وَضِرَابُ
هُجُودٌ وَلَا غَيْرُ التُّرَابِ حَشِيَّةٌ(٢)
لِجَنْبٍ وَلَا غَيْرُ الْقُبُورِ قِبَابُ
وَلَسْتُ بِنَاسٍ صَاحِباً مِنْ رَبِيعَةٍ
إِذَا نَسِيَتْ رَسْمَ الْوَفَاءِ صِحَابُ
وَمِمَّا شَجَانِي أَنْ قَضَى حَتْفَ أَنْفِهِ
وَمَا انْدَقَّ رُمْحٌ دُونَهُ وَكِعَابُ(٣)

---

(١) جثا اذا جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها - ويروى «له» بدل لهم ، بعود الضمير على الدهر وعجز البيت يروى : جثا بهم طعن له وضراب (٢) الحشية : الفراش المحشو وجمعه حشايا (٣) يقال مات فلان حتف أنفه ، أى على فراشه من غير قتل ولاضرب ولا غرق ولا حرق ولا سبع ولا غيره - وهى عبارة بليغة قيل ان أول

وَأَنَّا تَجَارَيْنَا ثَلاثِينَ حِقْبَةً
فَمَاتَ سِبَاقًا وَالْحِمَامُ قِصَابُ (١)
كَأَنْ لَمْ نَبِتْ فِي مَنْزِلِ الْقَصْفِ لَيْلَةً
نُجِيبُ بِهَا دَاعِي الصِّبَا وَنُجَابُ (٢)
إِذَا قَامَ مِنَّا قَائِمٌ هَزَّ عِطْفَهُ
شَبَابٌ أَرَقْنَاهُ بِهَا وَشَرَابُ
جَمَحْنَا بِمَيْدَانِ الصِّبَا ثُمَّ إِنَّنَا
كَرَرْنَا فَكَانَتْ فَيْئَةٌ وَمَتَابُ

من قالها النبي صلى الله عليه وسلم « وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه لأن الميت على فراشه من غير قتل يتنفس حتى ينقضي رمقه » ولكنه ورد في شعر السموءل :

وما مات منا سيد حتف أنفه   ولا طل منا حيث كان قتيل

وكعب الرمح: عقدة مابين الأنبوبين منه ، أو طرفه الناشز ، وجمعه كعوب وكعاب ـ ويروى « وذباب » وهو أحسن ـ وذباب السيف : حده

(١) قصاب جمع قصبة ، يعني قصب السباق ، ويقال للسابق أحرز قصب السبق ، لأن الغاية التي يسبق اليها كانت تذرع بالقصب وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية فمن سبقها حازها واستحق الخطر ـ ثم استعمل ذلك في كل سابق الى غاية ومنتهالى أمد ، وأرى أن « مات » في البيت محرفة عن «فات» (٢) القصف بمعنى اللهو استعمله المولدون في أشعارهم ، وأصل معناه: كسر غصن صغير ، ويقال رعد قاصف أي في صوته تكسر ،

وَلَمَّا تَرَاءتْ لِلْمَشِيبِ بُرَيْقَةٌ
وَأَقْشَعَ مِنْ ظِلِّ ٱلشَّبَابِ سَحَابُ (١)

نَهَضْنَا بِأَعْبَاءِ ٱللَّيَالِي جَزَالَةً
وَأَرْسَتْ بِنَا فِي ٱلنَّائِبَاتِ هِضَابُ (٢)

فَيَاظَاعِناً قَدْ حَطَّ مِنْ سَاحَةِ ٱلْبِلَى
بِمَنْزِلِ بَيْنٍ لَيْسَ عَنْهُ إِيَابُ

كَفَى حَزَناً أَنْ لَمْ يَرِدْنِي عَلَى ٱلنَّوَى
رَسُولٌ وَلَمْ يَنْفُذْ إِلَيَّ كِتَابُ

وَأَنِّي إِذَا يَمَّمْتُ قَبْرَكَ زَائِرًا
وَقَفْتُ وَدُونِي لِلتُّرَابِ حِجَابُ

وَلَوْ أَنَّ حَيًّا كَانَ حَاوَرَ مَيِّتًا
لَطَالَ كَلَامٌ بَيْنَنَا وَخِطَابُ

ومنه قيل لصوت المعازف قصف ، وتجوز به فى كل لهو (١) البريقة: تصغير برقة وهى المقدار من البرق ، وقرئ : «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» بضم الباء وفتح الراء (٢) جزل فلان جزالة اذا كان ذا رأى جيد وتدبير قوى محكم

وَأَعْرَبَ عَمَّا عِنْدَهُ مِنْ جَلِيَّةٍ
فَأَقْشَعَ عَنْ شَمْسٍ هُنَاكَ ضَبَابُ[1]

وَقَدْ أَبْعَدْنَا عَمَّا كُنَّا بِصَدَدِهِ مِنْ ذِكْرِ قُرْطُبَةَ أَعَادَهَا اللّٰهُ لِلْإِسْلَامِ، فَنَقُولُ:

***

مساجد قرطبة ومبانيها

قَالَ بَعْضُ مَنْ أَرَّخَ الْأَنْدَلُسَ: انْتَهَتْ مَسَاجِدُ قُرْطُبَةَ أَيَّامَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الدَّاخِلِ إِلَى أَرْبَعِمِائَةٍ وَتِسْعِينَ مَسْجِدًا، ثُمَّ زَادَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ كَثِيرًا كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَانَتْ قُرْطُبَةُ قَاعِدَةَ الْأَنْدَلُسِ، وَأُمَّ الْمَدَائِنِ، وَقَرَارَةَ الْمُلْكِ، وَكَانَ عَدَدُ شُرُفَاتِهَا[2] أَرْبَعَةَ آلَافٍ وَثَلَاثَمِائَةٍ، وَكَانَتْ عِدَّةُ الدُّورِ فِي الْقَصْرِ الْكَبِيرِ أَرْبَعَمِائَةِ دَارٍ وَنَيِّفًا وَثَلَاثِينَ، وَكَانَتْ عِدَّةُ دُورِ الرَّعَايَا وَالسَّوَادِ بِهَا الْوَاجِبِ عَلَى أَهْلِهَا الْمَبِيتُ فِي السُّورِ مِائَةَ أَلْفِ دَارٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دَارٍ حَاشَا دُورَ الْوُزَرَاءِ وَأَكَابِرِ النَّاسِ وَالْبَيَاضِ. وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ هٰذَا الْعَدَدَ كَانَ أَيَّامَ لَمْتُونَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ. قَالَ: وَكَانَتْ

(١) فى الاصل « طباب » محرفة، وقد كان فى القصيدة تحريف كثير تلافيناه وأتينا بها منقحة محررة « أحمد يوسف نجاتى ». (٢) الشرفة ما يبنى على أعلى الحائط منفصلا بعضه عن بعض على هيئة معروفة.

دِيَارُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ إِذْ ذَاكَ سِتَّةَ آلافِ دَارٍ وَثَلَثُمِائَةِ دَارٍ ، انْتَهَى . وَعَدَدُ أَرْبَاضِهَا ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ ، وَقِيلَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ ، وَمَبْلَغُ الْمَسَاجِدِ بِهَا ثَلاثَةُ آلافٍ وَثَمَانِمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَثَلاثُونَ مَسْجِدًا ، وَعَدَدُ الْحَمَّامَاتِ الْمُبْرَزَةِ لِلنَّاسِ سَبْعُمِائَةِ حَمَّامٍ ، وَقِيلَ ثَلَثُمِائَةِ حَمَّامٍ . وَقَالَ ابْنُ حَيَّانَ : إِنَّ عِدَّةَ الْمَسَاجِدِ عِنْدَ تَنَاهِيهَا فِي مُدَّةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةِ مَسْجِدٍ ، وَالْحَمَّامَاتُ تِسْعُمِائَةِ حَمَّامٍ . وَفِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ الْقَدِيمَةِ : كَانَ بِقُرْطُبَةَ فِي الزَّمَنِ السَّالِفِ ثَلاثَةُ آلافِ مَسْجِدٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَسَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ مَسْجِدًا ، مِنْهَا بِشَقَنْدَةَ[1] ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسْجِدًا وَتِسْعُمِائَةِ حَمَّامٍ وَأَحَدَ عَشَرَ حَمَّامًا ، وَمِائَةُ أَلْفِ دَارٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دَارٍ لِلرَّعِيَّةِ خُصُوصًا ، وَرُبَّمَا نِصْفُ الْعَدَدِ أَوْ أَكْثَرُ لِأَرْبَابِ الدَّوْلَةِ وَخَاصَّتِهَا . هٰكَذَا نَقَلَهُ فِي الْمُغْرِبِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَأْتِي وَيَذَرُ — رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى — وَقَالَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ — بَعْدَ

(١) شقندة كانت كضاحية لقرطبة على عدوة النهر، وتقدم القول فيها

ذِكْرِهِ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ : وَوَسَطَ ٱلْأَرْبَاضِ قُبَّةُ قُرْطُبَةَ ٱلَّتِي تُحِيطُ بِالسُّورِ[١] دُونَهَا . وَأَمَّا ٱلْيَتِيمَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلْبَدِيعِ فَإِنَّهَا كَانَتْ مِنْ تُحَفِ قَيْصَرِ[٢] ٱلْيُونَانِيِّينَ ، بَعَثَ بِهَا صَاحِبُ ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَى ٱلنَّاصِرِ مَعَ تُحَفٍ كَثِيرَةٍ سَنِيَّةٍ . ٱنْتَهَى .

وَنَحْوُهُ لِابْنِ ٱلْفَرَضِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ ، لٰكِنْ خَالَفَهُمْ صَاحِبُ ٱلْمَسَالِكِ وَٱلْمَمَالِكِ ، فَذَكَرَ أَنَّ عَدَدَ ٱلْمَسَاجِدِ بِقُرْطُبَةَ أَرْبَعُمِائَةِ مَسْجِدٍ وَأَحَدٌ وَسَبْعُونَ مَسْجِدًا ، وَهُوَ بَعِيدٌ . وَقَالَ قَبْلَهُ : إِنَّ دَوْرَ قُرْطُبَةَ فِي كَمَالِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ . وَتَفْسِيرُهَا بِاللِّسَانِ ٱلْقُوطِيِّ « ٱلْقُلُوبُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ[٣] » وَهِيَ بِالْقُوطِيَّةِ بِالظَّاءِ ٱلْمُشَالَةِ ، وَقِيلَ إِنَّ مَعْنَى قُرْطُبَةَ « إِجْرِ فَاسْكُنْهَا[٤] » قَالَ : وَبِقُرْطُبَةَ أَقَالِيمُ

---

(١) فى بعض المراجع « تختص » (٢) فى الأصل قصر محرفة عن « قيصر » والتحفة : الهدية الثمينة النفيسة (٣) قد سبق رأينا فى ذلك (٤) فى الأصل « أجز » بدل « اجر » وهو تحريف كما يدل عليه اللفظ اللاتينى Corre ومنه الكلمة الفرنسية Courir والاسبانية Corèr «أحمد يوسف نجاتى»

كَثِيرَةٌ وَكُوَرٌ جَلِيلَةٌ . وَكَانَتْ جِبَايَتُهَا فِي أَيَّامِ ٱلْحَكَمِ ٱبْنِ هِشَامٍ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ وَعِشْرِينَ دِينَارًا - وَسَبَقَ مَا يُخَالِفُ هٰذَا - وَمِنَ ٱلْقَمْحِ أَرْبَعَةُ آلَافِ مُدْيٍ[1] وَسِتُّمِائَةِ مُدْيٍ ، وَمِنَ ٱلشَّعِيرِ سَبْعَةُ آلَافِ مُدْيٍ وَسِتُّمِائَةِ مُدْيٍ وَسَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ مُدْيًا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : أُحْصِيَتْ دُورُ قُرْطُبَةَ ٱلَّتِي بِهَا وَأَرْبَاضِهَا أَيَّامَ ٱبْنِ أَبِي عَامِرٍ فَكَانَتْ مِائَتَيْ أَلْفِ دَارٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ دَارٍ وَسَبْعَةً وَسَبْعِينَ دَارًا ، وَهٰذِهِ دُورُ ٱلرَّعِيَّةِ ، وَأَمَّا دُورُ ٱلْأَكَابِرِ وَٱلْوُزَرَاءِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلْأَجْنَادِ وَخَاصَّةِ ٱلْمَلِكِ فَسِتُّونَ أَلْفَ دَارٍ وَثَلْثُمِائَةِ دَارٍ سِوَى مَصَارِي ٱلْكِرَاءِ وَٱلْحَمَّامَاتِ وَٱلْخَانَاتِ ، وَعَدَدُ ٱلْحَوَانِيتِ ثَمَانُونَ أَلْفَ حَانُوتٍ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَخَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ. وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْفِتْنَةُ عَلَى رَأْسِ ٱلْمِائَةِ ٱلرَّابِعَةِ غُيِّرَتْ رُسُومُ

(١) المدى : مكيال ضخم يأخذ جريبا كان للشام ومصر . وفي الصحاح هو القفيز الشامي ، وقال ابن الأثير هو مكيال لأهل الشام يسع خمسة عشر مكوكا ، والمكوك صاع ونصف ، وقيل أكثر من ذلك ، وقيل انه يسع خمسة وأربعين رطلا — وجمع المدى أمداء . « أحمد يوسف نجاتي »

ذَلِكَ الْعُمْرَانِ ، وَمُحِيَتْ آثَارُ تِلْكَ الْقُرَى وَالْبُلْدَانِ . انْتَهَى مُلَخَّصًا .

وَسَيَأْتِي فِي رِسَالَةِ الشَّقَنْدِيِّ مَاهُوَ أَشْمَلُ مِنْ هٰـذَا .

***

أبو القاسم بن هشام يصف متنزهات قرطبة

وَلَمَّا رَقَّتْ حَالُ أَبِي الْقَاسِمِ عَامِرِ بْنِ هِشَامٍ الْقُرْطُبِيِّ(١) بِقُرْطُبَةَ ، وَزَيَّنَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ الرِّحْلَةَ إِلَى حَضْرَةِ مَلِكِ الْمُوَحِّدِينَ مَرَّا كُشَ قَالَ : وَذَكَرَ الْمُتَنَزَّهَاتِ الْقُرْطُبِيَّةَ :

يَاهَبَّةً بَاكَرَتْ مِنْ نَحْوِ دَارِينِ(٢) ... وَافَتْ إِلَيَّ عَلَى بُعْدٍ تُحَيِّينِي

سَرَتْ عَلَى صَفَحَاتِ النَّهْرِ نَاشِرَةً ... جَنَاحَهَا بَيْنَ خِيرِيٍّ وَنِسْرِينِ

رَدَّتْ إِلَى جَسَدِي رُوحَ الْحَيَاةِ وَمَا ... خِلْتُ النَّسِيمَ إِذَا مَا مِتُّ يُحْيِينِي

لَوْ لَا تَنَسُّمُهَا عَنْ نَشْرِ أَرْضِكُمُ ... مَا أَصْبَحَتْ مِنْ أَلِيمِ الْوَجْدِ تُبْرِينِي

(١) هو أبو القاسم عامر بن هشام الأزدي القرطبي الكاتب الأديب والشاعر المطبوع ، توفي سنة ٦٢٣ وقد تقدمت ترجمته . (٢) سبق التعريف بها

مَرَّتْ عَلَى عَقِدَاتِ(١) الرَّمْلِ حَامِلَةً
مِنْ سِرِّكُمْ خَبَرًا بِالْوَحْيِ يَشْفِينِي
عَرَفْتُ مِنْ عَرْفِهِ مَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ
لَمَّا تَنَسَّمَ(٢) فِي تِلْكَ الْمَيَادِينِ
نَزَوْتُ مِنْ طَرَبٍ لَمَّا هَفَا سَحَرًا
وَظَلَّ يَنْشُرُنِي طَوْرًا وَيَطْوِينِي(٣)
خِلْتُ الشَّمَالَ شَمُولًا(٤) إِذْ سَكِرْتُ بِهَا
سُكْرًا بِمَا لَسْتُ أَرْجُوهُ يُمَنِّينِي
أَهْدَتْ إِلَيَّ أَرِيجًا(٥) مِنْ شَمَائِلِكُمْ
فَقُلْتُ قَرَّبَنِي مَنْ كَانَ يُقْصِينِي
وَخِلْتُ مِنْ طَمَعٍ أَنَّ اللِّقَاءَ عَلَى
إِثْرِ النَّسِيمِ ،وَأَضْحَى الشَّوْقُ يَحْدُونِي

---

(١) العقدة: ماترا كم من الرمل وجمعه عقد ، وعقدات (٢) فى الأصل « تبسم »مصحفة(٣) نزا أى وثب : يريد أنه اهتز طربا ومرحا ـ وهفا النسيم: تحرك وخف مسرعا ـ يريد أن السرور قد استولى عليه وتمكن منه (٤) فى الأصل « شمالا » وآثرنا أن تكون محرفة عن « شمولا » مراعاة للمعنى كما هو ظاهر ـ والشمول: الخمر (٥) الأريج: الريح الطيبة ـ والشمائل

فَظَلْتُ أَلْثَمُ[1] مِنْ تَعْظِيمِ حَقِّكُمُ
مُجَرَّ أَذْيَالِهَا وَالْوَجْدُ يُغْرِينِي

مَسَارِحُ كَمْ بِهَا سَرَّحْتُ مِنْ كَمَدٍ
قَلْبِي وَطَرْفِي وَلَا سُلْوَانَ يَثْنِينِي ؟

بَيْنَ الْمُصَلَّى إِلَى وَادِي الْعَقِيقِ ـ وَمَا
يَزَالُ مِثْلَ اسْمِهِ[2] مُذْ بَانَ يُبْكِينِي

إِلَى الرُّصَافَةِ فَالْمَرْجِ النَّضِيرِ فَوَا
دِي الدَّيْرِ فَالْعَطْفِ مِنْ بَطْحَاءِ عَبْدُونِ[3]

لِبَابِ عَبْدٍ سَقَتْهُ السُّحْبُ وَابِلَهَا
فَلَمْ يَزَلْ بِكُؤُوسِ الْأُنْسِ يَسْقِينِي

لَا بَاعَدَ اللّٰهُ عَيْنِي عَنْ مَنَازِهِهِ
وَلَا يُقَرِّبْ لَهَا أَبْوَابَ جَيْرُونِ[4]

---

(١) لثم «كسمع وضرب» أى قبل (٢) يريد أنه أبكاه دما كالعقيق. والمصلى ووادى العقيق من مواضع بلاد العرب جعلهما مثلا لمواطنه التى يتشوق اليها ـ والمصلى موضع فى عقيق المدينة ، والمصلى الجديد بمرسية بالأندلس ـ وفى الأصل «ان بان» وهو غير ظاهر (٣) هذه أماكن أندلسية معروفة والرصافة معروفة ، وربض الرصافة بجوفى قرطبة (٤) كذا بالأصل وقد يكون فى العبارة تحريف وأصلها

جمع شمال وهو الخلق والسجية والطبع

حَاشَا لَهَا مِنْ مَحَلَّاتٍ[1] مُفَارَقَةً

مِنْ شَيِّقٍ دُونَهَا فِي ٱلْقُرْبِ مَحْزُونِ

أَيْنَ ٱلْمَسِيرُ وَرِزْقُ ٱللهِ أَدْرَكَهُ

مِنْ دُونِ جَهْدٍ وَتَأْمِيلٍ يُعَنِّينِي[2]؟

يَا مَنْ يُزَيِّنُ لِي ٱلتَّرْحَالَ عَنْ بَلَدِي

كَمْ ذَا تُحَاوِلُ نَسْلًا عِنْدَ عِنِّينِ؟

وَأَيْنَ يَعْدِلُ عَنْ أَرْجَاءِ قُرْطُبَةٍ

مَنْ شَاءَ يَظْفَرُ بِالدُّنْيَا وَبِالدِّينِ

مثلا ـ فلا تقر لها أبواب جيرون ، أو : اذ لاتقر لها الخ يريد أن أبواب جيرون التى أكثر الشعراء من ذكرها والحنين اليها لاتقرلعينه بعدمنازه قرطبة ومعاهد الأندلس ـ وجيرون هى دمشق ، أو باب من أبوابها ـ وكان بجامع دمشق باب يسمى باب جيرون هو بابه الشرقى وفيه فوارة ينزل عليها بدرج كثيرة فى حوض من رخام وقبة خشب يعلو ماؤها نحو الرمح (١)فىالأصل« ...من مجلات »وأراها محرفة ، فانه يريدحاشالهذه المنازلأن يفارقها من غلبه الشوق اليهافى كل أحواله،ويوضحذلك مابعده وماقبله

(٢) التأميل: مصدر أمل ،وعناه أى أتعبه ، يريدأنالأمانىمتعبة والمطامع مردية ـ وهذا مذهب له لايرضاه ذوو الهمم العلية فكل مكان ينبت العز طيب ، واذا نبا بك منزل فتحول . وسيرجع الى ذلك بعد

قُطْرٌ فَسِيحٌ وَنَهْرٌ مَا بِهِ كَدَرٌ

حَفَّتْ بِشَطَّيْهِ أَلْفَافُ الْبَسَاتِينِ[1]

يَا لَيْتَ لِي عُمْرَ نُوحٍ فِي إِقَامَتِهَا

وَأَنَّ مَالِيَ فِيهِ كَنْزُ قَارُونِ

كِلاهُمَا كُنْتُ أُفْنِيهِ عَلَى نَشَوَا

تِ الرَّاحِ نَهْبًا وَوَصْلِ الْحُورِ[2] وَالْعِينِ

وَإِنَّمَا أَسَفِي أَنِّي أَهِيمُ بِهَا

وَأَنَّ حَظِّيَ مِنْهَا حَظُّ مَغْبُونِ

أَرَى بِعَيْنَيَّ مَالَا تَسْتَطِيلُ يَدِي

لَهُ وَقَدْ حَازَهُ مَنْ قَدْرُهُ دُونِي

وَأَنْكَدُ النَّاسِ عَيْشًا مَنْ تَكُونُ لَهُ

نَفْسُ الْمُلُوكِ وَحَالَاتُ الْمَسَاكِينِ

---

(١) الألفاف : الأشجار الملتفة بعضها ببعض ، جمع لف وهو الروضة الملتفة بالنبات ، والبستان المجتمع الشجر ، وحديقة لف ولفة أى قد التفت أشجارها، ومنه قوله تعالى . « وجنات ألفافا » أى بساتين ملتفة (٢) في بعض المراجع « الخرد العين » وهو أحسن . « أحمد يوسف نجاتى »

يغضُّ طَرْفَ ٱلتَّصَابِي حِينَ تَبْهَتُهُ[1]
قُضْبَانُ نَعْمَانَ فِي كُثْبَانِ يَبْرِينِ[2]

قَالُوا: ٱلْكَفَافُ مُقِيمٌ، قُلْتُ: ذَاكَ لِمَنْ
لَا يُسْتَخَفُّ إِلَى بَيْتِ ٱلزَّرَاجِينِ[3]

وَلَا يُبَلْبِلُهُ[4] هَبُّ ٱلصَّبَا سَحَرًا
وَلَا يُلَطِّفُهُ عَرْفُ ٱلرَّيَاحِينِ

وَلَا يَهِيمُ بِتُفَّاحِ ٱلْخُدُودِ وَرُمَّا
نِ ٱلنُّهُودِ وَتَرْجِيعِ ٱلتَّلَاحِينِ

---

(١) تبهته تحيره وتدهشه، وقد بهت اذا تحير، رأى شيئا فبهت ينظر نظر المتعجب (٢) نعمان — ويسمى نعمان الأراك —: واد ينبته بين مكة والطائف، ويبرين: رمل عظيم لا تدرك أطرافه من أصقاع البحرين بينه وبين الأحساء وهجر مرحلتان، وفيه يقول أبو زياد الكلابي:

أراك مالي كثبان يبرين صبة ... وهذا لعمري لو قنعت كثيب
وان الكثيب الفرد من أيمن الحمى ... الى وان لم آته لحبيب

ويريد بقضبان نعمان قدود الغيد، وبكثبان يبرين الأرداف والأعجاز (٣) الزراجين جمع زرجون وهو الخمر أو الكرم أى شجرة العنب، وهو لفظ فارسي معرب — يريد أن المولع بالشراب والذي يهفو فؤاده الى الحسان ويحن الى الرياض ويستميله النسيم العليل لا يقنع بالكفاف الذي لا يرضى به الا خامل جامد (٤) أي يهيجه ويحركه «أحمد يوسف نجاتي»

لَا تُجْتَنَى رَاحَةٌ إِلَّا عَلَى تَعَبٍ

وَلَا تُنَالُ الْعُلَا إِلَّا مِنَ الْهُونِ

وَصَاحِبُ الْعَقْلِ فِي الدُّنْيَا أَخُو كَدَرٍ

وَإِنَّمَا الصَّفْوُ فِيهَا لِلْمَجَانِينِ

يَا آمِرِي أَنْ أَحُثَّ الْعِيسَ عَنْ وَطَنِي

لَمَّا رَأَى الرِّزْقَ فِيهِ لَيْسَ يُرْضِينِي

نَصَحْتَ، لَكِنَّ لِي قَلْبًا يُنَازِعُنِي

فَلَوْ تَرَحَّلْتُ عَنْهُ حَلَّهُ دُونِي

لَأَلْزَمَنْ وَطَنِي طَوْرًا تُطَاوِعُنِي

قُودُ(١) الْأَمَانِي وَطَوْرًا فِيهِ تَعْصِينِي

مُدَلَّلًا بَيْنَ عِرْفَانِي، وَأُضْرِبُ عَنْ

سَيْرٍ لِأَرْضٍ بِهَا مَنْ لَيْسَ يَدْرِينِي.(٢)

---

(١) جمع أقود ، يقال فرس أقود وقيد « بتشديد الياء مكسورة » أى ذلول منقاد طائع (٢) اضرب عن الشىء اذا كف عنه وأعرض ـ وفى الأصل « مذللا بين عرفانى » « بالذال المعجمة » ولا أرضى للشاعر ذلك فرأيت أنها محرفة ، وآثرت أن يكون « مدللا » بين اخوانه ومن يعرفه من بنى وطنه ويحيط خبرا بأصله وحاله ، فهو انما أبى الاغتراب نفرة من الذل . « أحمد يوسف نجاتى » .

هَذَا يَقُولُ غَرِيبٌ سَاقَهُ طَمَعٌ

وَذَاكَ حِينَ أُرِيهِ[1] ٱلْبِرَّ يَجْفُونِي

إِلَيْكِ عَنِّيَ آمَالِي فَبُعْدُكِ يَـ

ـدِنِي وَقُرْبُكِ يُطْغِينِي وَيُغْوِينِي[2]

يَا لَحْظَ كُلِّ غَزَالٍ لَسْتُ أَمْلِكُهُ

يَدْنُو[3] وَمَالِيَ حَالٌ مِنْهُ تُدْنِينِي

وَيَا مُدَامَــــةَ دَيْرٍ لَا أُلِمُّ بِهِ

لَوْلَا كَمَا كَانَ مَا أُعْطِيتُ يَكْفِينِي

لَأَصْبِرَنَّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ كَدَرٍ

لِمَنْ عَطَايَاهُ بَيْنَ ٱلْكَافِ وَٱلنُّونِ

وَتُسَمَّى هَذِهِ ٱلْقَصِيدَةُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْأَنْدَلُسِ كَنْزَ ٱلْأَدَبِ.

وَقَدْ أَشَرْنَا فِي ٱلْبَابِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقُرْطُبَةَ

---

(١) في الأصل « أريد » بدل « أريه » التي تجعل المعنى أوضح وأعف وتبين سوء مجازاة الناس للغريب غير المعروف بينهم. « أحمد يوسف نجاتي »

(٢) اليك عني : أي تنحي وابتعدي ويمكن أن يقرأ هذا البيت بخطاب صاحبه لا آماله ، ويكون : اليك عني أمالي الخ (٣) ويجوز أن تكون محرفة عن « يرنو » أي ينظر لمناسبة لحظ الغزال ، وكم كان في القصيدة من تحريف أصلحناه ، و نبهنا على ما أبقيناه شاكين فيه . « أحمد يوسف نجاتي » .

ـ أَعَادَهَا اللهُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْلَامِ ـ فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ ذِكْرُهُ هُنَا أَنْسَبَ ، لِأَنَّ مَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا هُوَ فِي ذِكْرِهَا مَعَ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهَذَا الْبَابُ لَهَا بِالِاسْتِقْلَالِ.

وَأَنْشَدَ أَبُو الْعَاصِي غَالِبُ بْنُ أُمَيَّةَ الْمَوْزُورِيُّ[1] لَمَّا جَلَسَ

---

(١) فى الأصل « المروزى » وهو تحريف غيرمغفور ، يبعد الرجل عن وطنه بعد مرو عن موزور ، وهو غالب بن أمية بن غالب الموزورى سكن قرطبة وهو أديب شاعر بليغ ، منسوب الى موزور وهى كورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة، وهى من قرطبة بين الغرب والقبلة كثيرة الفواكه والزيتون ، و بينها و بين قرطبة عشرون فرسخا ـ هذا وقد تصرف صاحب النفح فى الأبيات التى اختارها من القصيدة تصرفا أخل ميزان بعضها وأخرجها عن بحرها ، فقد كان البيت الأول فى الأصل:

ياقصركم حويت من نعم عادت لقى بعوارض السكك

فجعل عجز البيت من بحر الكامل ، ولكن صدره لايقام له وزن الا اذا ضعفت عين حوى ، وتأبى اللغة ذلك الابتكلف . والقصيدة فى« بغية الملتمس» قال فيه أنشد أبو عمر بن عبد البر قال أنشدنى أبو الأصبغ عبد العزيز ابن أحمد النحوى الأخفش سنة ٣٨٩ قال أنشدنى أبو العاصى غالب بن أمية بن غالب وقد جلس على نهر قرطبة ناظرا الى القصر على البديهة ـ ثم ساق القصيدة وأولها الأبيات الثلاثة و بعدها :

وقل لدنيا اليك مقبلة تختال فى خزها وفى الفنك

خادعة الخلق عن عقولهم بعدا وسحقا فمالهم ولك

وآخرها :

ياصاحب العقل أنت أنت لها فطأ اليها نوافذ الحسك

واعدده عهدا منفشا نظرا منك لغب الأمور وادرك

عَلَى نَهْرِ قُرْطُبَةَ بِإِزَاءِ ٱلرَّبَضِ مُلْتَفِتاً إِلَى ٱلْقَصْرِ بَدِيهَةً :

يَا قَصْرُ كَمْ قَدْ حَوَيْتَ مِنْ نِعَمٍ
عَادَتْ لَقًى فِي عَوَارِضِ ٱلسِّكَكِ ؟
يَا قَصْرُ كَمْ قَدْ حَوَيْتَ مِنْ مَلِكٍ
دَارَتْ عَلَيْهِمْ دَوَائِرُ ٱلْفَلَكِ[1] ؟
أَبْقِ مَا شِئْتَ كُلُّ مُتَّخَذٍ
يَعُودُ يَوْمًا بِحَالِ مُتَّرَكِ[2]

***

وَقَالَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْفَضْلِ عِيَاضٌ[3] عِنْدَ ٱرْتِحَالِهِ عَنْ قُرْطُبَةَ : توديع القاضي عياض لقرطبة

يحمد عند الصباح كل سرى اذا انفرى نوره عن الحلك
فالقصيدة من بحر المنسرح لا من الكامل كما أراد المقرى ،ولعله لم يصل اليه الا الأبيات الثلاثة الأولى محرفة فأصلحها بما يجعلها من الكامل لولا ماعرفت . « أحمد يوسف نجاتي » .

(١) فى الأصل « ياقصر كم حويت من ملك * دارت عليه الخ » ويكون عجز البيت من المنسرح اذا أشبعت الهاء فى عليه اشباعا تتولد منه الياء ويبقى صدر البيت من الكامل لكن بتضعيف عين حوى (٢) كان أصله
ماشئت فابق فكل متخذ يوما يعود بحال متّرك
وهو مستقيم الوزن ان كان من بحر الكامل لولا سائر القصيدة (٣) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى القاضى الجليل الفقيه

أَقُولُ وَقَدْ جَدَّ ارْتِحَالِى وَغَرَّدَتْ
حُدَاتِى وَزُمَّتْ(١) لِلفِرَاقِ رَكَائِبِى
وَقَدْ غَمِصَتْ مِنْ كَثْرَةِ الدَّمْعِ مُقْلَتِى
وَصَارَتْ هَوَاءً مِنْ فُؤَادِى تَرَائِبِى(٢)
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَقْفَةٌ يَسْتَحِثُّهَا
وَدَاعِى لِلْأَحْبَابِ لَا لِلْحَبَائِبِ(٣)
رَعَى اللّٰهُ جِيرَانًا بِقُرْطُبَةَ الْعُلَا
وَجَادَ رُبَاهَا بِالْعِهَادِ السَّوَاكِبِ(٤)
وَحَيًّا زَمَانًا بَيْنَهُمْ قَدْ أَلِفْتُهُ
طَلِيقَ الْمُحَيَّا مُسْتَلَانَ الْجَوَانِبِ

المحدث الأديب توفى بمراكش سنة ٥٤٤ (١) زم الركائب اذا شدها بالزمام وعلقه عليها ـ وزم: تقدم فى السير (٢) فى الأصل « وقد غمضت » وهو تحريف على ماأرى ، وغمصت العين « كفرح » اذا كان بها رمض وقذى ، أو ما كان فى العين أبيض مثل الزبد يكون فى ناحية العين والرمص مايكون فى أصل الهدب ، يريد أن كثرة بكائه أرمد عينه حتى صارت غمصاء ـ والترائب عظام الصدر ،وهواء أى خالية فارغة ، يريد أن فؤاده فارق جوانحه وخلا منه صدره (٣) يعنى أن له أصحابا يحن اليهم لاصاحبات يهواهن (٤) العهاد : جمع عهد وعهادة وهو المطر . «أحمد يوسف نجاتى»

أَإِخْوَانَنَا بِاللهِ فِيهَا تَذَكَّرُوا
مَوَدَّةَ(١) جَارٍ أَوْ مَوَدَّةَ صَاحِبِ

غَدَوْتُ بِهِمْ مِنْ بِرِّهِمْ وَاحْتِفَالِهِمْ(٢)
كَأَنِّيَ فِي أَهْلِي وَبَيْنَ أَقَارِبِي

(١) ويروى « معاهد جار » ولعله أولى (٢) أو « واحتفائهم »
« أحمد يوسف نجاتي »

﴿ انتهى الجزء الرابع من كتاب نفح الطيب ﴾
ويليه الجزء الخامس إن شاء الله وأوله

﴿ وصف جامع قرطبة ﴾

فهرست

الجزء الرابع من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب







